الدكتور عفيف عبد الرحمن



دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م



دار الأندلس - بيروت ، لبنان
هاتف : ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب : ١١٤٥٥٣ - تلكس ٢٣٦٨٣

الإهداء

إلى التي رافقتني في رحلة الحياة ربع قرن ويزيد

إلى التي تحملت الكثير وضحّت بالكثير من أجل توفير المناخ المناسب للبحث والدرس

إلى أمّ أولادي

أمّ خالد

أهدي هذا النتاج المتواضع

المؤلف

مقـدمة

موضوع «أيام العرب في العصر الجاهلي» من أبرز الموضوعات التي تلفت نظر الباحثين . وتحظى بعناية من يرغب في دراسة ذلك العصر ، لأن الأيام تشكل جانباً هاماً من جوانب الحياة الجاهلية ، وتشغل حيزاً كبيراً في المجتمع الجاهلي وفي ظلالها نشأت وتبلورت معالم العصر الجاهلي وقيمه ، فالحياة في العصر الجاهلي كانت حياة دامية حمراء لا تهدأ نارها ولا يخمد أوارها ، وكانت القبائل في حركتها الدائبة المستمرة من أجل لقمة العيش وجرعة الماء ونعرة السيادة لا تكاد تنفض أيديها من وقعة من الوقائع حتى تغبرها في وقعة أخرى ، وبحق كانت حياة القبائل العربية في العصر الجاهلي حروباً وأياماً مستمرة، وكأنما أصبحت سنّة من سنن الحياة الجاهلية وشريعة مقدسة يحققون بها الحياة في هذا المجتمع الذي تسيطر عليه القوة وتتحكم فيه .

ولا يستطيع الباحث الذي يرغب في دراسة أيام العرب في العصر الجاهلي أن يدرسها بمعزل عن الشعر الجاهلي ، فالشعر الجاهلي ـ كما قيل ـ ديوان العرب ، فقد كان الوسيلة الهامة لنقل أخبار تلك الأيام ، كما كان السجل لأحداثها . ومن هنا كان لا بد من دراسة الشعر والأيام دراسة لا انفصام بينهما فيها .

ولذلك استقر في ذهني قبل أن أخطط للموضوع ، ضرورة دراسة طرفيه : الشعر والأيام ، فالأيام تشكل الجانب التاريخي من الموضوع ، كما يصور الشعر الإطار الفني لتلك الأحداث . فكان الموضوع الذي اخترته لدراستي هذه « الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي » .

ولست أدعي أنني أول من يدرس هذا الجانب من الحياة الجاهلية ، فإن عصراً من عصور أمتنا لم يحظ باهتمام الباحثين والدارسين كما حظي هذا العصر [1] ، فقد عكفوا على دراسة جوانبه المتعددة ، ومن أهم تلك الجوانب الأيام . وأستطيع أن أزعم بأنه لا يكاد يخلو كتاب في المكتبة العربية التي تهتم بالعصر الجاهلي ، من ذكر الأيام .

(1) تصدر قريباً المكتبة الجاهلية للمؤلف، عن دار الأندلس ـ بيروت

وفي عصرنا الحاضر عرض بعض الباحثين الأيام في جزء من دراستهم صنيع جواد علي في كتابه « تاريخ العرب قبل الإسلام » أو جورجي زيدان في كتابه « العرب قبل الإسلام » أو فليب حتي في كتابه « تاريخ العرب مطول » وغيرهم . وقد أفرد محمد أحمد جاد المولى ورفيقاه مؤلفاً خاصاً بأيام العرب في العصر الجاهلي ، وآخر بأيام العرب في الإسلام . وفي مجال الدراسات الأدبية درس بعض الباحثين جانباً أو قطاعاً من الأيام ، وذلك من خلال دراستهم لشاعر فارس أو لقبيلة ما ، أو حيناً رصدوا ظاهرة ما . وفي مجال الدراسات الجامعية درس باحثان حرب البسوس وحرب داحس والغبراء [1] .

وهكذا وجدت أن المكتبة العربية ما زال ينقصها بحث يرصد أحداث الأيام ، و يسجل ظواهرها بارزة في شعر الأيام ، ويوضح العلاقات بين القبائل ، السلمية منها والحربية على السواء ، ويحاول أن يكشف ظواهر مشتركة في تلك الفترة ، ويلقي بعض الضوء على ذلك العصر الذي ما زالت بعض جوانبه مظلمة .

وكنت أدرك منذ البداية أن الطريق ليست ممهدة على الرغم من تعدد الدراسات وتنوعها ، فهناك قضايا كثيرة تثار حول تلك الفترة وتاريخها وشعرها لم يقطع فيها برأي . وعلى رأس تلك القضايا الانتحال والوضع ، وغموض أولية الشعر الجاهلي ، وصلات القبائل بالممالك المجاورة ، والهجات القبائل ، وغير ذلك من المشكلات التي تعترض سبيل الباحث ، كما أن المستشرقين وبعض الباحثين من العرب أثاروا قضايا تتصل بأبطال تلك الحروب كالمهلهل وعنترة وما حيك حولهم من قصص وأساطير .

ومما حفزني على هذه الدراسة أنني كنت أرغب في رسم صورة واضحة المعالم لتلك الفترة تبين طبيعة العلاقات في ذلك المجتمع ، كما كنت راغباً في رسم صورة مجتمعة لشعر الأيام الموزع في دواوين الشعر الجاهلي وغيرها ، لأنني كنت وما زلت ، أعتقد بأن شعر الأيام يتسم بطوابع وخصائص تميزه عن غيره من الشعر الجاهلي ، وأننا نستطيع أن نجمع منه ديواناً ضخماً يزيد على نصف الشعر الجاهلي الذي بين أيدينا ، ذلك أن شعر الأيام واكب الشعر العربي الجاهلي منذ أوليته الناضجة التي عاصرت أحداث البسوس واستمرت حتى ظهور الإسلام .

ومن هنا ، ولما أسلفت من دواع ، تأتي أهمية هذا البحث في مجال الدراسة الأدبية ، فهو

---

(1) بعد مناقشة هذا البحث بجامعة القاهرة بعامين نوقشت رسالة دكتوراة الباحث عراقي هو عادل جاسم البياتي بعنوان (كتاب أيام العرب لأبي عبيدة) بجامعة عين شمس عام ١٩٧٣ ، ونشر الكتاب عام ١٩٧٦ .

بالإضافة إلى ما ألمحت إليه يتناول جانباً من جوانب المجتمع الجاهلي بالدراسة ، كما يتناول مجموعة ضخمة من شعر الأيام بالبحث والتمحيص متتبعاً من خلاله ما أصاب هذا الشعر من تطور موضوعي وفني متمثلاً في شعر طائفة من أبرز شعراء الأيام في العصر الجاهلي الذين أرسوا دعائم الفن الشعري فيه ، وتقدموا به خطوات بعيدة المدى في طريق التطور والإزدهار .

ومما يجدر ذكره أن شعر الأيام متميز بطابع الحماسة ، ذلك أن الحروب الجاهلية جعلت هذه الحماسة واضحة فيه أشد الوضوح بيّنة أوضح بيان ، بالإضافة إلى أنها تتراءى في لوحة الحياة الجاهلية المتكاملة لوناً لافتاً شديد الوضوح . ولذلك كان لا بد من دراسة نماذج مجسمة لتلك البطولة فكان أن وقع اختياري على ثلاثة شعراء فرسان أولهم شهد أحداث حرب البسوس ، وكان محركاً لها ، وهو المهلهل ، والثاني كان فارساً من فرسان حرب داحس والغبراء ، وبطلاً من أبطال عبس في حروبها ، وهو عنترة العبسي ، والثالث قيس بن عاصم بطل حروب تميم وسيد أهل الوبر كما سماه النبي ﷺ .

وهكذا فإن البحث تستوعبه أبواب ثلاثة وملحق :

الباب الأول : دراسة تاريخية ويشمل فصولاً ثلاثة :

الفصل الأول : لدراسة المجتمع القبلي الجاهلي .

الفصل الثاني : لدراسة دوافع الحرب في المجتمع الجاهلي .

الفصل الثالث : لدراسة أيام العرب في العصر الجاهلي .

الباب الثاني : شعر الأيام : دراسة موضوعية وفنية ، ويشمل فصولاً ثلاثة :

الأول : مصادر شعر الأيام .

الثاني : موضوعاته .

الثالث : خصائصه الفنية .

الباب الثالث : نماذج متميزة من شعراء الأيام ويشمل ثلاثة فصول :

الأول : المهلهل بطل حرب البسوس .

الثاني : عنترة بطل حرب داحس والغبراء .

الثالث : قيس بن عاصم بطل حروب تميم [1]

وختمت البحث بجداول يفيد منها الدارس في حصر الأيام وتوزيعها وكذا الشعراء الأيام وشعرهم موزع على الأيام وهي إضافة جديدة على الاطروحة الأصلية .

ملحق : يضم مجموعة شعر الأيام مرتبة حسب مجموعات الأيام الكبرى [2] .

وبعد ، فلست أدعي أنني بالغ درجة الكمال في هذا البحث ، وأنه سيكون مبرءاً من العيوب ، ولكني أقول أني حاولت أن أخدم الموضوع وألم بجوانبه ، ولم أبخل بجهد أستطيعه ليخرج هذا البحث في صورة مرضية . والله الموفق .

جامعة اليرموك - إربد - الأردن

حزيران ١٩٨١

عفيف عبد الرحمن

---

(١) لم يكن هذا الفصل في البحث الذي قدم لنيل درجة الدكتوراه لقلة مصادره آنذاك ، وألحقته بهذه الدراسة فيما بعد .

(٢) هذا الملحق سيصدر في كتاب مستقل .

البـــاب الأول

دراسة تاريخيـــة

الفصل الأول

المجتمع القبلي في العصر الجاهلي

الإطار الجغرافي :

تقع الجزيرة العربية في أقصى الجنوب الغربي من قارة آسيا ، وهي شبه جزيرة مستطيلة الشكل تحيط بها المياه من ثلاث جهات . . . البحر الأحمر من الغرب ، وخليج عدن والمحيط الهندي من الجنوب، والخليج العربي من الشرق..والضلع الرابع منها يحده الماء كذلك، وإن كان ماء نهر الفرات [١] . وهي تقع بين خطي ٣٥ ، ٦٠ طول شرقاً ، وخطي عرض ١٢ ، ٣٧ شمالاً ، أي أن مدار السرطان يمر في وسطها تقريبا .

وقد اصطلح الجغرافيون العرب على تسميتها « جزيرة العرب » وبذلوا جهدهم لتخريج التسمية [٢] ، كما أشكل عليهم تحديد أراضي هذه الجزيرة المترامية الأطراف ، فالهمداني [٣] أدخل بلاد الشام كلها وأجزاء من العراق ومصر ضمن بلاد العرب ، والمقدسي [٤] جعل صحراء النفوذ حدها الشمالي ، والإصطخري [٥] حدد ديار العرب « بالحجاز ونجد المتصل بأرض البحرين وبادية العراق وبادية الجزيرة وبادية الشام واليمن المشتملة على تهامة ونجد وعُمان ومهرة وحضر موت وبلاد صنعاء وسائر مخاليف اليمن».

وتتكون بلاد العرب من أقسام ثلاثة متميزة : سلسلة من الجبال البركانية تحيط بها من الشرق والغرب والجنوب ، وسهول ساحلية تقع بين سلاسل الجبال والبحر تتسع وتضيق قرب الجبال من البحر ، وهضبة داخلية تشمل الربع الخالي والنفوذ الكبرى والدهناء وهضبة نجد .

(١) الهمداني: صفة جزيرة العرب ٤٧
(٢) انظر أحسن التقاسيم ـ للمقدسي ٩٧ والهمداني ٤٧
(٣) الهمداني ٤٧
(٤) أحسن التقاسيم ٩٧
(٥) مسالك الممالك ـ للاصطخري ١٤

إذاً فموطن العرب في جاهليتهم رقعة شاسعة من الأرض ، ذات بقاع متباينة ، في المناخ وفي التضاريس ، وطبيعي أن تختلف بيئاتها اختلافاً يكاد يجعل منها مواطن متعددة . ونستطيع أن نميز أقساماً ثلاثة فيها من حيث البيئة الطبيعية : **مناطق الإستقرار الطبيعي** حيث الماء والزرع والمناخ المعتدل ، نشأت فيها تبعاً لهذه الظروف دول مستقرة نسبياً في اليمن والشام والحيرة ، وقوام حياة أهلها الزراعة والتجارة . **ومناطق صحراوية** تصيب بعض الغيث ، أو فيها بعض العيون والآبار سمحت بزراعة بسيطة ، وولّد كل هذا استقراراً نسبياً مثلما نجد في قرى ومدن الحجاز والواحات المنتشرة في الصحراء . **ومناطق صحراوية لا يفي ماؤها بحاجة الزرع** ، ربما نبت بعض الكلأ لترعاه الإبل ، فإذا غيض الماء اضطر أهلها للرحيل بحثاً عن الكلأ والماء من جديد . . . وهؤلاء السكان يكونون مجموعة من البدو الرحل القليلي العدد .

وقد ضاقت الجزيرة عن إمداد سكانها بأسباب العيش الرغيد ، بل بأدنى ما يحتاجه الإنسان ليقيم أوده في بعض الأحيان ، واضطر العربي أن يتنقل من مكان إلى آخر بحثاً عن مورد رزقه يصارع كل قوة تقف في سبيل استمرار وجوده ، فكان هذا العربي يعيش في خطر دائم وفي أحضان طبيعة قاسية ، تعصف الريح فتسفي الرمال ، وتقوض بيته ، وتكفىء قدره ، وتطفىء ناره ، ويهدر السيل فيجتاح داره ، وتبخل السماء فتشح زاده ، وتهزل النعم ، ويهدده الجوع .

وعلى الرغم من تباين مناخ الجزيرة العربية الذي نجم عن اتساع رقعتها فإننا باستثناء بعض الدويلات التي نشأت في شمال الجزيرة وفي اليمن ـ يجب ألا نغالي في تصور الفرق في أسلوب المعيشة بين القبائل الحضرية والبدوية ، فحياتهم كانت أقرب إلى الطابع البدوي سواء من حيث خشونة اللبس أو بساطة الطعام أو العرف السائد .

إلا أن هذا التباين في المناخات والذي أثر في خصب بقعة وجدب أخرى سيكون له في بحثنا هذا شأو خطير جعل القبائل في حركة مستمرة لا تهدأ ، الأمر الذي جعل هذه القبائل تتصارع في سبيل الكلأ والماء والإستمرار في الحياة ، والذي صبغ أرض الجزيرة العربية وصحاريها بالدم فترة طويلة من الزمن .

الإطار الزماني :

بعد أن حدّدنا الرقعة المكانية التي كانت مسرحاً وموطناً للعرب في الجاهلية ، سنحاول تحديد الفترة الزمنية التي شغلتها أحداث موضوعنا : بدايتها ونهايتها . وقبل الشروع في ذلك نتوقف قليلاً عند مفهوم كلمة «الجاهلية» ونتساءل متى أطلقت هذه الكلمة؟ وما مدلولها؟

وأغلب الظن أن الكلمة لفظ حدث في الإسلام للزمن الذي كان قبل البعثة [١] وهذا رأي ابن خالويه . أما مدلولها فالبعض يميل إلى اعتبارها لفظاً يدل على ما كان عليه العرب قبل الإسلام من سيرة [٢] وسلوك ، ومال آخرون إلى اعتبارها تشير إلى ذلك العصر الذي لم يكن للعرب فيه ناموس وازع ، ولا نبي ملهم ، ولا كتاب منزل [٣] ، وذهب أكثر الباحثين إلى أنها مشتقة من الجهل بمعنى السفه والغضب والنزق فهي في ضد الحلم ، وهي تقابل كلمة « الإسلام » التي تدل على الخضوع والطاعة لله . . . وتحث على التحلي بالخلق الكريم [٤] . وهكذا فالجاهلية لفظ أطلقه المؤرخون على تلك الفترة التي سبقت ظهور الإسلام ، ويدل على ما كان هؤلاء العرب عليه من طبع نزق وسفه وطيش وغضب .

أما تحديد بداية هذه الفترة ، ثم عمرها ، فقد ذهبت دائرة المعارف والألوسي إلى « أنها الفترة الزمنية بين الرسولين الكريمين عيسى ومحمد عليهما السلام [٥] ، وذهب آخران إلى أنه لا يمكن تحديد أولها وبالتالي فلا يمكن تحديدها بزمن [٦] ، وقطع الدكتور شوقي ضيف بأنها في حدود قرن ونصف من الزمن ، [٧] وما وراء ذلك سماه بالجاهلية الأولى . أما ابراهيم مصطفى [٨] فقد رأى أن سبيل تحديد أول جاهلية ،مرتبط بتحديد آخر حضارة قامت بالجزيرة ثم نحدد نهايتها فتكون بدء العصر الجاهلي ، ويذهب إلى أن آخر دولة مستقلة قبل الإسلام وهي الدولة الحميرية باليمن انتهى عهدها سنة ٥٢٥ م ، وتفككت الجزيرة بعد ذلك ووقعت الفوضى وعمّت الجزيرة . وقد أحسن الشاعر الجاهلي الحارث بن حلزة تصويرها :

هل علمتمْ أيامَ يُنْتَهَبُ الناسُ	غِـــواراً لكلِّ حيٍّ عُواءُ [٩]
لا يُقيمُ العزيزُ بالبلدِ السهلِ	ولا ينفـعُ الـذليلَ النَّجاءُ

---

(١) الألوسي ـ بلوغ الأرب ١/ ١٥ .

(٢) فؤاد الخطيب ـ مجلة المجمع العلمي بدمشق ٢/ ٤٣٤ ، وانظر : عبد المنعم ماجد ـ التاريخ السياسي للدولة العربية ٤٤ .

(٣) تاريخ العرب مطول ـ فيليب حتي ١/ ١١٧ ، يحيى الجبوري ـ الجاهلية ٢٩ .

(٤) شوقي ضيف ـ العصر الجاهلي ٣٩ ، وانظر فجر الإسلام لأحمد أمين ، و٦٩ Nicholson, Lit. His. P. 30

(٥) دائرة المعارف الإسلامية ٦/ ٢٦٤ ـ ٢٦٨ ، بلوغ الأرب ـ للألوسي ١/ ١٥ .

(٦) تاريخ آداب العربية جورجي زيدان ١/ ٢٩ ، تاريخ الدولة العربية ـ عبد المنعم ماجد ٤٤ .

(٧) العصر الجاهلي ـ شوقي ضيف ٣٩ .

(٨) مجلة الرسالة عدد ٩١٩ فبراير ١٩٥١ ص ٢١٥ .

(٩) شرح القصائد السبع الطوال ٤٧٠ .

فهو عنده حد العصر الجاهلي العربي ، أي أن الفترة الجاهلية عنده حوالي مائة عام .

ويميل إلى رأي الذين قالوا بأنها امتدت نحو قرن ونصف من الزمان ، لأن حرب البسوس وهي حرب مشهورة دامت نحو أربعين سنة وحدثت وقائعها في الجاهلية ووصلتنا أخبارها وحددت بدايتها ونهايتها بشكل ظنّي ، فنهايتها كانت على يد المنذر الثالث الذي عقد الصلح بين الحيين بكر وتغلب ، وكان ذلك حوالى ٥٢٥ م [١] وتكون بدايتها حوالى ٤٨٥ م ، وهذا يقترب من رأي الذين قالوا بأن الجاهلية امتدت قرناً ونصفاً من الزمن . ويدعونا للقول بهذا الرأي كذلك عمر الشعر العربي الجاهلي الذي حدده بعض القدماء بمائة وخمسين سنة تقريباً [٢] .

مصادر دراسة هذه الفترة :

يكتنف تاريخ أمتنا في هذه الفترة بعض الغموض ، لعدم تدوينهم تاريخهم ، أو لأنه لم يصلنا ما دوّنوه في تلك الفترة ، الأمر الذي دعا البعض إلى القول بأن «ليس للباحث في ظلمات الجاهلية إلا نور ضئيل من الحقائق المبثوثة يهتدي به» ولا يرى هذا الباحث من المصادر «إلا الروايات والأساطير والأمثال»[٣] .

ولكن العرب عرفت نوعاً من التاريخ الشفهي [٤] ، فقد رأينا القبائل تروي أيامها : حروبها وانتصاراتها ، وتتخذ ذلك مادة فخرها على القبائل الأخرى . وهذا التاريخ الشفهي أو التراث البدوي اللغوي كان الطريق الوحيد إلى اقتصاص تاريخ الجاهلية مما لم يشر إليه القرآن الكريم ، وقد كان يتخذ أحياناً صورة الشعر الخالص ، وأخرى يكون نثراً تتخلله الأشعار ، وقد يكون النثر شرحاً لقصيدة أو لبيت من الشعر تضمن مثلاً أو حكمة ، وقد يأتي الشعر مرتجلاً على لسان أحد أبطال الخبر المنقول . وكان الشعر في جميع الحالات هو محور الخبر وهو الذي يحافظ على تناقل الخبر وانتشاره ، وربما سقط النثر خلال تلك الرحلة الطويلة التي قطعها الخبر عبر القرون حتى عصر التدوين ، وربما نسي الشعر وعند ذلك تبتكر أشعار جديدة لتمجد القبيلة وتعلي منزلتها .

فالشعر إذاً أداة التاريخ الجاهلي ، ومصدر أساسي له لارتباطه ارتباطاً وثيقاً بالأخبار ، ولانعدام أدوات التاريخ الأخرى أو لقلتها على الأقل . وقد نجد مبالغة وتزيُّداً أحياناً وشعراً

(١) تاريخ العرب مطول ـ فيليب حتي ١/ ١٢٠ .
(٢) الحيوان للجاحظ ١/ ٧٤ .
(٣) تاريخ العرب مطول ـ فيليب حتي ١/ ١١٨ .
(٤) نشأة التدوين التاريخي عند العرب ـ حسين نصار ٦ .

منحولاً على أفراد أو قبائل ، إلا أن ذلك لا يقلل من أهمية الشعر في التأريخ لتلك الفترة الهامة من حياة أمتنا في فجرها الأول . ولا ينقص من أهمية هذا الشعر ما ذهب إليه أحد الباحثين حين نعته بأنه « يعالج التاريخ القبلي وغيره في أحواله العادية تلميحاً أكثر من معالجته بشكل مفصل ، ولأنه يخلط الأحداث التاريخية بأمور أخرى غير ذات صلة بها » [1] .

ولقد وصلنا هذا الشعر عبر طريقين أوصله الطريق الأول للثاني ، حمله أصحابه أولاً ثم حمله خلفهم من بعدهم ، وأكمل الطريق الرواة على اختلاف فئاتهم ، ثم أسلموه إلى فئة من العلماء تولت تنقيحه وتنقيته وتدوينه . وقد سقط من هذا الشعر عبر هذه الرحلة الطويلة الشاقة الكثير ووصلنا الكثير أيضاً . ووصلنا قدر من الشعر لو درس بأمانة وعناية لنقل إلينا صورة واقعية حية لحياة العرب في جاهليتهم .

ونجد هذا الشعر مبثوثاً في مصادره التي سنعرض لها في فصول قادمة ، سواء منها الذي انفرد بمجموعات شعرية متجانسة ، أو بشعر شاعر بعينه ، أو جاء الشعر في ثنايا المصدر في مواضع معينة للإستشهاد به ، أو لتحلية الموضوع وغير ذلك .

ولكننا إلى جانب الشعر الجاهلي نجد مصادر أخرى لها قيمتها نقلت إلينا صوراً من الحياة القبلية الجاهلية ، وصورت لنا عاداتهم وحياتهم وحروبهم ومكرماتهم ومباذلهم . ومن هذه المصادر القرآن الكريم وكتب تفسيره ، والحديث الشريف وما تبعه من كتب تراجم الرجال الذين رووه ، وكتب الجغرافية والتاريخ ، وكتب اللغة والأدب والنحو ، والمعاجم اللغوية ، وكتب أخرى غير عربية كالتوراة ، وتاريخ هيرودتس والآثار التي اكتشفت في الجزيرة العربية وغيرها من المصادر [2] .

القبيلة وحدة الحياة في المجتمع الجاهلي :

إذا استثنينا تلك المجتمعات المستقرة التي توفرت لها أسباب العيش كدولتي المناذرة والغساسنة ومجتمع المدينة ، وقريش ، وثقيف ، فإن المجتمعات التي عاشت في الجزيرة عاشت حياة قبلية لم تنعم إلا ببعض الإستقرار دأبها التنقل سعياً وراء الكلأ والماء .

والأسباب التي دعت إلى تكوين القبيلة ، وإلى أن تكون الوحدة الإجتماعية في ذلك العصر يمكن ردها إلى اضطراب الحياة المادية وعدم استقرارها ، وإلى عدم قيام حكومة تحفظ للناس

---

(١) دراسات عن المؤرخين العرب لمرجليوث ، ترجمة حسين نصار ٧٥ .

(٢) صدرت حديثا عن جامعة الملك سعود دراستان: مصادر دراسة تاريخ الجزيرة العربية في مجلدين لمجموعة من الباحثين، ١٩٨٢، و«الفاو» للدكتور عبد الرحمن الأنصاري ١٩٨٢

أرواحهم وممتلكاتهم وتطعم الجائع وتغيث المنكوب [1] ، وإلى قسوة الحياة في تلك الصحراء المترامية الأطراف . ورأى فيها بعض الباحثين [2] نمطاً ملائماً لمقتضيات البيئة الصحراوية كما تلائم الحياة الصناعية مقتضيات الحياة في ديترويت .

والقبيلة مجموعة من الناس ، تؤمن بوجود رابطة تجمعهم تقوم على أساسين من وحدة الدم المتمثلة في انتائهم لأب واحد ، ووحدة الجماعة . وهذه المجموعة تعمل في اتجاه واحد هو مصلحة القبيلة المشتركة . فهي إذن وحدة سياسية قائمة بذاتها في العصر الجاهلي ، كما أنها وحدة إجتماعية أيضاً لها نظمها وأعرافها وتقاليدها .

وهكذا فكل قبيلة أشبه بدولة مصغرة [3] ، وهي دولة الإعرابي وموئله في تلك الصحراء القاسية التي لا يسودها قانون عام يحقق الأمن والعدل للجميع ، وقد توافرت فيها المسؤولية المشتركة بين أفرادها جميعاً ، فكل فرد صورتها المصغرة وممثلها أمام القبائل الأخرى .

وهكذا نجد للقبيلة مظهراً إجتماعياً ومظهراً سياسياً ، ويظهر الأخير بشكل أوضح عندما يدق ناقوس الحرب في القبيلة ، عند ذلك تظهر وحدة القبيلة ويهب كل فرد فيها مدافعاً عن حماها ، أو مهاجماً مع باقي أفراد قبيلته خصومهم الذين يتربصون بهم .

وأصل تكوين القبيلة الأسرة ، فمجموعة الأسر تشكل القبيلة ولكن هذه الأسر يربطها رباط الدم الواحد الذي يجري في عروقهم . ويذهب « سميث » إلى أن « الجماعة القائمة على وحدة الدم هي أكثر الصور قدماً في المجتمع السامي وأن إطلاق اسم الحي على الجماعة التي من دم واحد يعلل بالمبدأ السامي القائل بأن حياة الجسد ثانوية في الدم [4] . ولكن القبيلة لا تعيش بمعزل عن المحيط الذي تعيش فيه ، فقد تنضم إليها عناصر من قبائل مجاورة ، وينضوون تحت لوائها ويشاركون فيما يشارك فيه أفراد القبيلة الصرحاء من تحمل المسؤولية المشتركة ، ويصبحون من أفراد القبيلة . ويتم ذلك إما بالحلف وإما بالمؤاخاة أو الإسترقاق أو الإستلحاق .

وهكذا لا يمكننا إرجاع وحدة القبيلة إلى صلات القربى وحدها ، فالقبيلة ضمت أبناءها الصرحاء ، وضمت من لا يمتون إليها بصلة القرابة كالموالي والمستلحقين من القبائل الأخرى .

---

(1) النقائض - أحمد الشايب ٣٧ .

(2) تاريخ العرب مطول - فيليب حتي ١/ ٢٨ .

(3) النقائض - أحمد الشايب ٣٧ ، وأنظر أوليري ص ٨ .

(4) Smith, Kin ship and marriage P 46 .

ولا بد من البحث عن رابطة تجمع بين هذا المزيج وتلك هي المصلحة المشتركة في الحفاظ على كيان هذه الجماعة وصون بقائها وتوفير أسباب العيش لها .

وإذاً فطبقات القبيلة العربية التي تميزها على ضوء ما سبق : الصرحاء والموالي أو الحلفاء والعبيد . ولكل من هذه الفئات الثلاث حقوق وواجبات ، إلا أنهم مع ذلك يشتركون في بعضها ، ويتميز الصرحاء عن باقي الطبقات بامتيازات يتمتعون بها ، ومع ذلك فالصرحاء ليسوا في مرتبة واحدة ، لأن البيت والعدد أمران بارزان في كيان كل قبيلة .

ومن الأمور التي استقر عليها العرف القبلي أن دية الحليف نصف دية الصريح [1] وأن ليس من حق الحليف أن يجير وإنما ذلك حق للصريح وحده من أبناء القبيلة . [2]

وكان الرقيق مزيجاً من العرب والأمم المجاورة لهم ، ولكن السود كانوا أشد تعرضاً للاحتقار والازدراء [3] ، ومن مصادر الرقيق في ذلك العصر الحروب والاختطاف والشراء ، وعرفت الجاهلية أسواقاً لبيع الرقيق كسوق عكاظ وسوق حباشة [4] وعرف هذا العصر قوانين للرقيق فيما يتعلق ببيعه وأبنائه واستلحاقه بنسب القبيلة ، وبالأمة إن وضعت مولوداً ، فقد سموه هجيناً [5] ، وكان عمل الرقيق مقتصراً على الرعي والخدمة في بيوت الصرحاء من أبناء القبيلة، ولا يلحق بنسبها إلا إذا قدم لها عملاً جليلاً كأن ينقذها من هزيمة محققة بشجاعته كما فعل عنترة .

وكانت القبيلة تؤمن إيماناً قوياً بجنسها وتعتبر أنها أنقى القبائل دماً ، وأشرفهم حسباً ونسباً ، ولا تعترف لأحد بفضل عليها . وهذا الإيمان قادها إلى الاعتناء بنسبها ، كما قادها إلى احتقار غير العرب فوجدت طائفة الأغربة [6] وكان كل فرد في القبيلة يعرف نسبه ونسب أسرته وقبيلته ويفتخر به ويحفظه أبناؤه وأحفاده .

وكانت القبيلة كذلك تؤمن بوحدتها ولا تسمح لأي فرد من أفرادها أن يفتت هذه الوحدة ، أو يخرج من إطارها ويشذ عن إطار المجموعة ، ومن فعل ذلك كان جزاؤه الخلع فيغدو طريداً في الصحراء .

تشكيل القبيلة :

قلنا سابقاً إن العربي لم يعرف في جاهليته دولة تحميه وتنظم حياته ، واستعاض عنها بشكل مصغر ، ذلك هو النظام القبلي ، فالقبيلة أشبه ما تكون بدولة مصغرة وكما أن لكل دولة

(١) الأغاني ٣/ ١٨ .
(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٣٨١ .
(٣) الأغاني/ دار الكتب ٨/ ٢٤٠
(٤) النقائض طبعة أوروبا ١/ ١٣٩ .
(٥) انظر مادة « هجن » في اللسان .
(٦) الشعراء الصعاليك ـ خليف ١١٩ .

رئيساً ، وكذلك كان لكل قبيلة رئيس أو سيد أو شيخ ، فمها اختلفت التسميات فالمضمون واحد ، والرئيس هذا يختار من بين أفراد القبيلة الصرحاء ومن عشيرة قوية العصبية ، وقد عقد ابن خلدون في مقدمته فصلاً أبان فيه أن الرئاسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية [1]

ويجب أن يتحلى رئيس القبيلة وسيدها بصفات تؤهله لقيادة القبيلة في سلمها وحربها ، في جدبها وخصبها ، وعلى رأس هذه الصفات الشجاعة والمقدرة الحربية ، تلك الصفة التي كان العرب يتساهلون في أي صفة إلا هذه ، وما ذلك إلا لحاجة القبيلة إلى رجل شجاع يحميها من أعدائها ، ويقود فرسانها إلى الحرب والغزو فيحفظ لها عزتها وسمعتها بين القبائل الأخرى . كما أن رجاحة العقل وحصافة الرأي تأتي في المرتبة الثانية ، لأن القبيلة بحاجة إلى من يحسن قيادتها ، ويحسن تصور الأمور وتصريفها . وينبغي أن يكون سيد القبيلة كريم الخلق ، حليماً يتسع صدره لجهل الجاهلين إذا جهلوا ، كما ينبغي أن يكون مُسِنّاً ، ولو أن صغر السن لم يكن يمنع الرئاسة ، ولدينا في العصر الجاهلي شواهد على ذلك ، فصخر أخو الخنساء لم يكن كبيراً في السن ومع ذلك سوّدته عشيرته . والمال ضروري حين تشتد المحن ويجف الضرع ويقل المطر ويتلاشى الكلأ ، وسيد القبيلة أول من يُلْجأ إليه في مثل تلك الحالات ، ولذا وجب أن يكون عظيم الثروة ، وربما دفع سيد القبيلة ديات القتلى لقبيلة أخرى كما فعل سيدا غَطَفَان هَرِم بن سنان والحارث بن عوف حينما تحملا ديات القتلى وأنهيا ثارات حرب داحس والغبراء .

وتلعب البراعة البيانية وفصاحة اللسان دورها في إنجاح القيادة ، لذا وجب أن يكون رئيس القبيلة متكلماً فصيح اللسان يملك الحجة ورجاحة العقل ليستطيع السيطرة على أبناء قبيلته بالحجة والإقناع لا بالسيف والقوة ، كما أن السمت والهيئة لها أثرهما في النفس لما تكسبان صاحبها من هيبة ووقار .

وهكذا فإن رئيس القبيلة ينبغي أن يكون مسناً يمتاز برجاحة عقل وكرم خلق يمتلك ثروة كبيرة تؤازره قوة عصبية ، شجاعاً يتمتع بكفاءة حربية .

وقد حدد عامر بن الطُّفَيل العامريّ بعض شروط السيادة حين قال : [2]

وإنّي وإنْ كنتُ ابنَ سيِّدِ عامرٍ ... وفي السرِّ منها والصريحِ المهذبِ

(1) مقدمة ابن خلدون ـ طبعة مصر ۱۳۲۳ ص ۱۰٤

(2) زهر الآداب ـ للحصري ۱/ ۸٥ وانظر ديوانه ۱۳ .

فما سَوَّدتني عامرٌ عن وراثةٍ أبى اللهُ أنْ أسمو بأمٍ ولا أبِ
ولكنني أحمي حماها وأتّقي أذاها وأرمي مَنْ رَماها بمنكبِ

ولشخصية رئيس القبيلة أثر كبير في مكانة القبيلة ، فالزعماء في المجتمعات القبلية رجال السياسة ، بحكمتهم وكفايتهم تقرر الأمور ، ورب كلمة من زعيم أو هفوة تصدر منه تثير حرباً أو تسبب كارثة أو لقبيلته أو للحلف الذي يتزعمه [1]

وإذا عرضنا لحروبهم لاحظنا كيف أن سيد القبيلة وقائدها كان بحزمه وحنكته يغير مجرى المعركة ، فهذا حُضَير بن الكتائب الأوسي يبرك ويطعن فخذه بسنان رمحه يوم بُعاث عندما رأى أن الدائرة تدور على قومه ، فرجع قومه والتفوا حوله وثبتوا وتحولت الهزيمة إلى نصر [2] وفي يوم شِعْب جَبَلة تجمع عامر وحليفاتها عبس للمشورة فيما يستقبله لمواجهة القبائل التي زحفت نحوها ، وكان رئيسهم الأَحْوَص بن جعفر قد شاخ ، فعرض عليهم أن يعرضوا آراءهم ويقرّهو الصالح منها ففعلوا إلى أن استقر رأيهم على أمر وكان النصر حليفهم [3] . وفي يوم الكُلاب الثاني كان أكثم بن صَيْفي زعيم تميم وحكيمها قد نَيَّف على التسعين فطلب منهم إبداء آرائهم وهو يسمع ليحكم لأنه يخشى أن يدلي برأيه ولا يكون مصيباً بسبب كبر سنه ، حتى قام النعمان بن جساس واقترح أن يذهبوا إلى ماء الكُلاب فأقره أكثم [4] . وهذا زهير بن جَذِيمة العبسي بما امتاز به يتزعم قبيلة عبس ويمتد نفوذه إلى قَيْس عَيْلان برمّتها ، وكانت بطون قيس تأتيه بالإتاوة كل عام [5] وتبعه ابنه قيس بعد ذلك فقاد عبساً في حروبها ضد ذُبْيان وغيرها .

وواجبات سيد القبيلة كثيرة تتمثل في قيادته لها في الحروب ، واستقبال وفود القبائل ، وعقد الصلح ، وعقد المحالفات ، واتخاذ التدابير في سِنِيِّ القحط ، وإقامة الضيافات وتحديد حركات الظعون ، وتحاشي الظلم ، ونجدة المستغيث الملهوف ، وحفظ الجوار ، وإغاثة المُعْوِز والضعيف ، وتحمل أكبر قسط من جرائر القبيلة ودياتها .

وقد ذكر معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب هذه الواجبات حين قال : [6]

نُعْطِي العشيرةَ حقَّها وحقيقَها فيها ، ونغفرُ ذنبَها ونسودُ

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام - جواد علي ٤/ ٢١٥ .
(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ١/ ٦٨٠ .
(٣) النقائض ٢/ ٦٥٨
(٤) العقد الفريد ٥/ ٢٢٤ .
(٥) الأغاني ١/ ٨ .
(٦) المفضليات - مفضلية رقم ١٠٤ .

وإذا تُحمِّلنا العشيرةُ ثِقْلَها ... قمنا به ، وإذا تعـودُ نَعودُ
وإذا نوافـق جرأةً أو نجدةً ... كنا ، سُمَّـيّ بها العـدوَ نكيدُ
بل لا نقـول إذا تبـوأ جيرةٌ ... إن المَحَلَّـةَ شِعْبُها مكدودُ
إذ بعضهم يحمي مراصدَ بيته ... عـن جاره وسبيلُنا موروددُ
قالـت سميةُ : قد غويتَ ، بأن رأتْ ... حقـاً تنـاوبَ مالنا ووفودُ
غَيٌّ لعمـرِك لا أزالُ أعودُه ... مـا دام مالٌ عندنا موجودُ

وهذا لَقِيط الإيادي يصور لنا أهم واجبات الرئيس وصفاته فيقول[1] :

وقلِّـدوا أمـرَكُم لله دركم ... رحبَ الذراع بأمرِ الحربِ مضطَلِعا
لا يطعـم النـوم إلا ريثَ يبعثُه ... هَـمٌّ يكادُ سَنـاه يقصم الضلعا
مسهَّـد النـوم تعنيه أموركُمُ ... يروم منهـا إلى الأعـداءِ مُطَّلعا
ما انفكَّ يحلبُ هذا الدهـرَ أشطرَهُ ... يكون مُتَّبِعـاً طوراً ومُتَّبَعاً
حتـى استمـرتْ على شزرٍ مريرتُه ... مستحكم الـرأيِ لا قحْماً ولا ضَرَعا
وليسَ يُشغلـه مالٌ يثمِّرُه ... عنـكم ، ولا ولـدٌ يبغـي له الرفعا

وكان رئيس القبيلة إن شاخ وكبر يتخلى عن قيادة فرسان القبيلة في غزواتها وتبقى له باقي المهمات ، كما كان يتخلى نهائياً عندما يحس أنه غير قادر على تحمل مسؤوليات قبيلته فقد تخلى قيس ابن زهير العبسي عن زعامة عبس للربيع بن زياد، تاركاً له أمر وضع حد لحرب داحس، واعتزل قيس القبيلة (*) :

أما حقوقه السياسية وسيادته على القبيلة فهي تتمثل في الإحترام ، وله بعض الحقوق المادية حددها عبد الله بن غَنَمَة الضَّبِّي عندما رثى بسطاماً [2] :

لكَ المِرْبـاعُ منهـا والصَّفَايا ... وحُكْمُكَ والنَّشِيطةُ والفُضُولُ

---

(١) مختارات ابن الشجري ص ١ .　　(٢) أمثال الضبي ص ٤٠ .
(٣) الحيوان ـ للجاحظ ١/ ٣٣٠ والأصمعية رقم ٨ .

فالمرباع ربع الغنيمة كان خالصاً للرئيس، والنشيطة كان للرئيس أن ينشط عند قسمة المتاع العلق النفيس إذا استحلاه، والصفي: الشيء النادر، والفضول: فضول المقاسم.

ولكن سيادة رئيس القبيلة على قبيلته ليست مطلقة بل مرتبطة بمجلس القبيلة [1] وجزاء هذا الرئيس إن بغى كجزاء كُلَيْب وهو القتل، إلا أننا مع ذلك نرى أن الأمر كله متعلق بشخصية الرئيس ونفوذه وسيطرته على أفراد القبيلة، ومن هنا تختلف نسبة هذه السيادة لشخصية الرئيس وعصبيته في القبيلة. وأسرف البعض [2] فزعم أنه ليس له حقوق البتة، بل كل ما له الإحترام، وأعطاه آخر [3] نفاذ كلمته في السلم والحرب.

وتنتقل الرئاسة والسيادة إما بالوراثة كما رأيناها تنتقل من زهير بن جذيمة إلى ابنه قيس، ومن ربيعة إلى ابنه كُلَيْب، إلا أن هذا الإنتقال الوراثي مشروط بتوفر شروط الرياسة في الوريث، وبرضى القبيلة عنه. كما تنتقل باختيار الرئيس الراحل خلفاً له غير ابنه كما فعل قيس ابن زهير [4] وقد يترك الأمر كله لمن بعده صنيع قَيْس بن عاصم حين حضرته الوفاة [5]، كما أن التحلي بكريم الخلال كان يقفز بالفرد إلى رئاسة القبيلة كما حدث مع عامر بن الطُّفَيل وقد عبر عن ذلك حين قال: [6]

فما سَوَّدَتْني عامرٌ عن وراثةٍ	أبى اللهُ أنْ أسمو بأمٍ ولا أبِ
ولكنني أحمي حماها وأتّقي	أذاها وأرمي من رماها بمقنبِ

وربما انتقلت الرئاسة إلى أسرة أخرى بسبب تلاشي عصبية الأسرة الحاكمة الأولى، كما حدث للذبيان حينما قتل حذيفة وإخوته، فقد انتقلت الزعامة إلى الحارث بن عوف بن أبي حارثة المرّي بعد أن قتل آل بدر، وكان حصن حدثاً لا يصلح لرئاستهم وقيادتهم في حروبهم مع عبس [7].

وفي كل قبيلة مجلس يعاون رئيسها في تسيير أمورها في السلم والحرب، ويقرر سياستها، ورئيس القبيلة ملزم بتنفيذ قرارات هذا المجلس والالتزام بها، وهو أشبه ما يكون بمجلس النواب

---

(1) انظر بلاشير ٣٦، العصر الجاهلي ٥٩، تاريخ العرب - فيليب حتي ١/ ٣٦،
(2) تاريخ الشعوب الاسلامية - بروكلمان ١/ ١٧.
(3) النقائض - أحمد الشايب ٣٢.
(4) أمثال الضبي ٤٠.
(5) الأغاني/ كتب ١٤/ ٨٢.
(6) زهر الآداب للحصري ١/ ٨٥، ديوانه ٢٨.
(7) أمثال الضبي ٤١.

في العصر الحاضر. ويضم هذا المجلس شيوخ العشائر التي تتكون منها القبيلة، كما يضم فرسان القبيلة عمادها في السلم والحرب وشاعرها أو شعراءها، وخطيبها، وكبار السن المجربين، وحكماء القبيلة وكاهنها وعرافها.

وأهمية هذا المجلس في المُلِمَّات التي تنزل بالقبيلة . ولا ينعقد إلا لأمر طارىء ، وقد عرفنا كثيراً من هذه المجالس من خلال دراستنا لأيام العرب في الجاهلية ، كمجلس يوم جَبَلة ، ومجلس يوم ذي قار ، ومجلس يوم بُعاث ، ومجلس حرب الفجار وغير ذلك الكثير .

ويترأس هذا المجلس رئيس القبيلة أو سيدها ، ولكل الحق في إبداء المشورة والرأي ، وتناقش الآراء المعروضة ويتفقون على رأي موحد يلتزم به الجميع .

وقد أشار مهلهل إلى هذا المجلس بقوله : [1]

نُبِّئْتُ أَنَّ النـارَ بعـدكَ أُوقِدَتْ   واستَـبَّ بعـدَكَ يا كُلَيْبُ المجلسُ

ولكل قبيلة حكامها أو حكماؤها ، يلجأ الناس إليهم في الخلافات الصعبة ، وربما كان لبعضهم طابع ديني [2] . وقد حدثنا صاحب سمط اللآلىء عن طائفة من هؤلاء الحكام وذكر منهم : عامر بن الظَّرِب من قيس ، وغيلان بن سلمة الثقفي ، وأكثم بن صَيْفي التميمي ، وحاجب بن زُرارة التميمي ، والأَقْرع بن حابس التميمي ، وضَمْرَة بن ضَمْرَة التميمي. [3]

ولكل قبيلة فرسانها الذين ينافحون عنها ، والذين يقودونها للغزو والغنيمة ويقفون بالمرصاد لكل عدو متربص بها ، وتفخر القبيلة بهم ويتغنى الشعراء ببطولاتهم ، وبمحصول قوتهم البدنية تستطيع القبيلة شن الغارات ، وخوض المعارك وتحقيق النصر ، والعودة بالأنعام والأسلاب ، وإذا ما جاء الدور على القبيلة وهوجمت تصدى هؤلاء للمغيرين وحفظوا لها ما حصلت عليه في غاراتها .

هذا مظهر من مظاهر الفروسية العربية ، ولكن مظهراً آخر من ألوان القوة كان له أثره ، ولكنها قوة معنوية ، وكلا القوتين المادية والمعنوية هدفهما واحد هو حماية القبيلة ، ذلك هو الشعر الذي يعتبر المظهر الجماعي الثاني من مظاهر الفروسية [4] . ولهذا كانت القبيلة من العرب إذا نبغ

---

(١) حماسة أبي تمام شرح المرزوقي ٢/ ٩٢٨ .

(٢) تاريخ الأدب العربي ـ بلاشير ٣٦ .

(٣) سمط اللآلي ـ لبكري ١/ ٤٨٧ . وانظر أيضا البيان والتبيين للجاحظ ١/ ٢٩٠ .

(٤) سيرة عنترة ـ محمود الحفني ٣٧ .

فيها شاعر أتت قبائلها فهنأتها وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر ويتباشر الرجال والولدان لأنه حماية لأعراضهم وذبٌّ عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم وإشاعة بذكرهم . (١)

وتتكامل القوتان المادية والمعنوية في رفع شأن القبيلة ، وقد تحدث الجاحظ كذلك عن أثر الشعر في نباهة القبيلة (٢) ويرتفع مقام الشاعر إذا اجتمعت الفروسية والشعر فيه (٣) ، ويبلغ عندها أرفع الدرجات . وكان أوقع الكلام عندهم ما صدر عن شاعر فارس تلاقى نفسه على صفاء آلة البيان وآلة الحسام . وذهب بعض الباحثين (٤) إلى أن الشعر الجاهلي كان يمثل فكرة الفن للمجتمع أصدق تمثيل .

ودور الشاعر في القبيلة العربية في العصر الجاهلي كبير ، ويستطيع أن يقدم لها الشيء الكثير ، وهو أشبه ما يكون بجهاز إعلامي ضخم لها .

ففي الأسواق والمواسم تحرص القبيلة على اصطحاب شعرائها ، حيث حلقات المفاخرة بين شعراء القبائل ، كل يشيد بمناقب قومه وبعدد مآثرهم وينتقص من شأن الآخرين (٥) .

وإذا حاول أحد الانتقاص من شأن قبيلة أو التعرض لها انبرى شاعرها للرد ، ولوكان هذا المتعرض ملكاً ، وقصة الحارث بن حلزة اليَشْكُري ماثلة في أذهاننا عندما أحس بأن عمرو بن هند ملك المناذرة يحاول الحط من شأن بكر ، فإذا الحارث ينبري منشداً معلقته يعدد مآثر قومه ويرد على ادعاءات الخصوم ، ويقول بعد المقدمة الطللية :

وأتانـــا عـن الأراقـم أنبا	ءٌ وخَطْـبٌ نُعْنَـى به ونُساءُ
أن إخوانَنـا الأراقـمَ يغلو	نَ علينا في قولهـم إحفاءُ
يخلطون البريءَ منا بذي الذنـ	ـب ولا ينفعُ الخَلِيَّ الخلاءُ (٦)

ولم يقتصر الشعراء في مجالس الملوك على الرد فحسب ، بل إنهم يدافعون عن قبائلهم ويستعطفون الملوك إذا ما نقموا عليها بسبب تعدٍّ على حماهم وخير سفير لقومه لدى ملوك المناذرة والغساسنة هو النابغة الذبياني . فقد استطاع بحنكته أن يحافظ على صلات طيبة مع الدولتين ، ويرى الباحثون أنه إنما فعل ذلك لغرض قبلي ، وحتى يخفف ضغط هاتين الدولتين على قبيلته التي كانت تغير على مراعيها بين الفينة والأخرى .

(١) العمدة - لابن رشيق ١/ ٣٧ . (٢) الحيوان للجاحظ ١/ ٣٦٤ .
(٣) الشعراء الفرسان للبستاني ١٢ . (٤) العصبية - لإحسان النص ١٦١ .
(٥) انظر « عكاظ » في معجم البلدان لياقوت ٣/ ٧٠٤ .
(٦) شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنباري ٤٤٥ .

وديوان النابغة يضم قصائد مدح لأولئك الملوك وقصائد استعطاف ، وقد كانوا يكرمونه ، ويطلقون سراح السبي إكراماً له ، كما يحدثنا الديوان أن حصْن ابن حذيفة وزَبّان بن سيَّار أكثرا من الإغارة على ما كان في يد غسان ، فجهزوا جيشاً لغزو ذبيان ، وعلم النابغة بأمره ، فأقبل ينصحهما بعدم ملاقاته ومحاولة التوغل في الجزيرة ، فرفضا وأسر الغساسنة وسبوا نساء من ذبيان ، فمدحهم النابغة برائيته التي استهلها بمحاولة التنصل مما فعله قومه :

لقـدْ نَهَيْتُ بنـي ذبيانَ عن أُقُرٍ ... وعـن تَرَبُّعِهِــمْ في كلِ أصغارِ[1]

وصوَّر فيها حال السبْي وما هنَّ فيه من ذلك ، فلما قُدِم بالسبي أطلقوهم إكراماً للنابغة .

ولم ينته الأمر بالشاعر الجاهلي عند حد استعطاف هؤلاء الملوك بل إنه يتهددهم ويتوعدهم إذا ما حاولوا النيل من كرامته أو اضطهاد قومه . هذا شاعر مُرِّي هو الحارث بن ظالم يفخر بقتل ابن الملك النعمان ويذكر السبب حين يقول[2] :

فتــكتُ به كما فتــكتُ بخالدٍ ... وكان سلاحــي تجتــويه الجماجمُ
أخِصيْيَّي حمـارٍ باتَ يكدم نجمةً ... أتـأكُلُ جيرانــي وجــارُكَ سالمُ
بــدأتُ بهـذي ثم أُثْنِي بهذه ... وثالثــةٌ تبيضُ منهــا المقادمُ

وهذا شاعر آخر يتوعد النعمان بن المنذر ويهجوه متهماً إياه بالمخادعة والكذب ، ويتهدده بأنه إذا فكر بغزوهم فستلقاه الكتائب التي تحمل معها الموت لكل من يلقاها . [3] :

نعمانُ إنــكَ خائــنٌ خَدِعٌ ... يُخْفِـي ضميــرُكَ غيـرَ ما تُبْدِي
فــإذا بدا لك نَحْـتُ أَثْلَتِنا ... فعليكهــا إن كنــتَ ذا حَرْدِ

إلى أن يقول مهدداً :

إن تَغْــزُ بالخرقــاءِ أُسرتَنا ... تلــقَ الكتائــبَ دوننــا تردِي
أحسبْتَنــا لحماً على وَضَـمٍ ... أَمْ خِلتَنــا في البــأسِ لا نُجْدِي

---

(1) ديوان النابغة ٨٠ .

(2) المفضليات ـ المفضلية رقم ٨٨ .

(3) يزيد بن الخذاق الشني ـ المفضلية رقم ٧٨ .

وهو يعرِّض في قصيدة أخرى بظلم النعمان وبأن قومه لن يعطوا النعمان الإتاوة وليجرب النعمان فيرسل جيوشه إليهم ليرى بأسهم وشدتهم : [1]

أكلَّ لئيم منكم ومُعَلْهجٍ ... يَعُدُّ علينا غارةً فَخَبُوسا
ألا ابن المُعلَّى خِلتَنا وحَسِبْتَنا ... صَرَاريَّ نُعْطِي الماكسين مُكوسا
فإن تبعثوا عيناً تَمَنَّى لِقاءَنا ... تجدْ حولَ أبياتي الجميعَ جُلوسا

ولا نستطيع الإسترسال في عرض مشاهد ومواقف الشاعر الجاهلي مع الملوك فإن الأمر سيطول بنا .

وفي الحروب يقف الشاعر متغنياً ببطولات قومه وشجاعتهم ، ومتغنياً ببطولته هو إن كان ممن يخوضون غمرات القتال ، وهذا هو الغالب ، ويسهب في وصف المعارك وتساقط القتلى من الأعداء ويصف فلولهم المولية ، وسبيهم الذي وقع في أيدي قومه وحال ذلك السبي من الأسى والذلة ، ولا ينسى من سقط من فرسان قومه في حومة الوغى ، فيرثيه رثاء هو أقرب إلى الفخر منه إلى الرثاء ، متغنياً بشجاعته وبسالته ، ومناقبه الأخرى . ونراه يحذر الآخرين من غزو قومه وإلا فمصيرهم كمصير هؤلاء . ولا يرضى الشاعر بالهزيمة ، ولا يسلم بها بسهولة ، وقد يقلب الحقيقة ويصور هزيمة قومه نصراً كما فعل الشاعر البكري عبد المسيح بن عَسَلَة العبديّ يوم عُنَيْزَة حين جعل بكراً هي المنتصرة مع أن تغلب هي المنتصرة [2] :

غدونا إليهم والسيوفُ عِصِيُّنا ... بأيماننا نَفْلي بهِنَّ الجَماجِما
لَعَمْري لأشْبَعْنا ضِباعَ عُنَيْزَةٍ ... إلى الحَوْل منها والنسورَ القَشاعِما

وإذا ما هُزمت قبيلته فإنه يهوّن عليها الهزيمة ويعدها ليوم الثأر من الأعداء ، ويحثها على الأخذ بالثأر إذا ما أحس أنها تتلكأ في ذلك .

ويتصدى شاعر القبيلة للشعراء الذين يحاولون النيل من قبيلته إذا هُزمت ففي يوم بُعاث هزمت الأوس الخزرج ، وافتخر بذلك قيس بن الخطيم ، فانبرى عبد الله بن رواحة يرد عليه ويقول : [3]

ومُعْتَرَكٍ ضَنْكٍ يُرَى الموتُ وَسْطَه ... مَشَيْنا له مَشْيَ الجِمالِ المَصاعِبِ

(1) الشاعر نفسه المفضلية رقم ٧٩ .
(2) المفضلية رقم ٨٣ .
(3) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٨٣ .

بِرَجْـلٍ ترى الماذيَّ فوقَ جُلودِهِمْ ... وبَيْضـاً نقياً مثـلَ لونِ الكواكبِ
وهـم حُسَّرٌ لا في الـدروعِ تَخالُهُم ... أُسوداً متى تُنْشَا الرمـاحُ تضاربِ

وإذا ما شتت الحربُ قومَه وقتلت سادتهم نرى الشاعر العربي ينبري لنا ليصور حال قومه بالأمس وما كانوا عليه من نعيم في ديارهم ومنعة ، وحالهم اليوم وقد فرقتهم الحرب ، ونحس بأن الشاعر يتفتت قلبه حسرة عليهم ، ولكنه لا ينسى أن يفخر بماضيهم ، وهذا جابر بن حُنَيّ التغلبي يصوّر لنا ذلك : (١)

لتغلبَ أبكي إذ أثـارتْ رماحُها ... غوائـلَ شرٍّ بينَهـا مُتلثِّمُ
وكانوا هم البانيـن قبلَ اختلافهم ... ومـن لا يَشِـدْ بُنْيانَـه يَتَهدَّمِ

إلى أن يقول :

وقـد زعمـتْ بهـراءُ أَنَّ رماحَنا ... رماحُ نَصارَى لا نخوضُ إلى الدمِ
فيوم الكُلاب قد أزالـتْ رماحُنا ... شُرَحْبيل إذ آلى أَلِيَّةَ مُقْسِمِ
لينتزعَـنْ أرماحَنـا ، فأزاله ... أبو حَنَش عن ظهر شَقَّاءَ صِلْدِمِ

ويقوم الشاعر في قومه بدور الناصح المحذر من مغبة الوقوع في الشرك إذا ما حاولوا الإحتكاك بملك أو استباحة حماه لئلا يصيبهم منه ما يكره شاعرهم ونسمع صوت علقمة الفحل محـذراً قومـه من أبـي قابـوس وناصحاً لها : (٢)

فقلْ لتميمٍ تجعـلُ الرمـلَ دونَها ... وغـيرِ تميم في الهزائـزِ جاهلُهْ
فـإن أبـا قابـوسَ بينـي وبينَها ... بأرعـنَ ينفـي الطـيرَ حمـرٌ مناقِلُهْ
إذا ارتحلـوا أصـمٌّ مؤبّهٍ ... وكل سهيب نَقْـرُه وصَواهِلُهْ

وهذا لقيط الإيادي يكتب إلى بني شيبان يوم ذي قار محذراً من غزو كسرى وحاثاً لهـم على الإستعداد له : (٣)

قوموا قياماً على أمشاطِ أرجُلِكُمْ ... ثم افزعوا قد ينالُ الأمنَ مَنْ فزعا
وقلِّـدوا أمـرَكُمْ لله دركـم ... رَحْبَ الذراعِ بأمرِ الحربِ مُضطلِعا

---

(١) المفضلية رقم ٤٢
(٢) ديوان علقمة الفحل ص ١٤٧ .
(٣) العقد الفريد ٥/ ٢٦٨ والحماسة البصرية ١/ ٨٩ .

والنابغة الذبياني ينهى قومه ويحذرهم من غارة الملك عندما تربعت بنو ذبيان ذا أُقُر الذي كان قد حماه الملك النعمان بن الحارث الغساني ، ويتصور حال نساء قومه وهن في الأسر وتخوفه عليهن وعلى شرفهن أن يمس بسوء:

لقــد نُهيتُ بنــي ذُبيانَ عن أُقُرٍ	وعــن تَرَبُّعِهِــم في كل أصفارِ[1]
وقلتُ : يا قومِ إنَ الليثَ منقبضٌ	على براثِنِـه لوثبـة الضاري
لا أعرِفَـن ربربـاً حوراً مدامعُها	كأن أبكارَهـا نعـاجُ دُوَّارِ
ينظـرنَ شَزْراً إلى من جاء من	عُرُضٍ بأوجهٍ منكرات الرق أحرارِ
خلفَ العضاريط لا يوقينَ فاحشةً	مستمسـكاتٍ بأقتـابٍ وأكوارِ
يُذرينَ دمعاً على الأشفارِ مُنْحَدِراً	يأملن رحلةَ حِصْنٍ وابـنِ سَيَّارِ
إمـا عصيتُ فإنـي غيـرُ منفلتٍ	منـي اللصـابُ فجَنْبا حَرَّةَ النارِ
أو أضـعُ البيتَ في سوداءَ مظلمةٍ	تُقَيِّدُ العَيْرَ، لا يَسْري بهـا الساري

وحتى حينما كان فاقداً حريته ، في الأسر لدى أعدائه ، لم يكن يضن على قومه بالتحذير ، يبرر هذا لآسره بأنه لا يطيق أن يُغْزَوا وهو قابع عندهم لا يفعل شيئاً : [2]

فـلا تأمرنـي يا ابـنَ أسماءَ بالتي	تجُرُّ الفتَـى ذا الطَّعـمِ أن يتكلَّما
بأنْ تغتزوا قومي وأجلسَ فيكم	وأجعـلَ علمـي ظنَّ غيبٍ مُرَجَّما
ولما رأيتُ القــومَ جَدَّ نفيرُهُم	دعـوتُ نَجيبِـي مُحْـرِزاً والمُثَلَّما

ثم يقول إنه فعل ذلك حتى لا يلومه قومه في يوم من الأيام.

فكلَّفتُ ما عنـدي من الهـمِّ ناقتي	مخافـةَ يومٍ أنْ ألامَ وأنْدَما

والشاعر في القبيلة يسجل الحوادث التي تحدث بين أبناء القبيلة الواحدة ، ويحاول أن يحثهم على عدم التفرق والتشتت ، وإذا ما حدث الشقاق أنحى باللائمة على المخطىء من الفريقين وصور ذلك بأمانة الحريص على وحدة قبيلته . هذا الحُصَيْنُ بن حُمَام المُرّي يحمل بني صِرْمَةَ وزر الحرب التي اقتتل فيها الإخوان : [3]

---

(١) ديوان النابغة ٨٠ .

(٢) النقائض ١/ ٥٣ الشعر لعميرة بن طارق اليربوعي .

(٣) المفضلية رقم ٩٠ .

يا أخوَيْنـا من أبينـا وأُمِّنَا ... ذروا مَوْلَيَيْنَـا من قُضاعَـةَ يذهبا
فـإن أنتُـمُ لم تفعلـوا لا أبا لكمْ ... فـلا تُعْلِقونـا ما كرهْنـا فَنَغْضَبا
ونحن بنـو سهْـم بن مُرَّةَ لم نجدْ ... لنـا نَسَبـاً عنهـم ولا مُتَنَسَّبا
متـى ننتسبْ تلقـوا أبانـا أباكُـمُ ... ولن تجدونـا للفـواحشِ أَقْرَبا

وهذا شاعر فزاري « شُبَيْم بن خُوَيْلِد » يعرض ما حدث عندما عرض الحارث بن عوف ابنه على عبس بعد أن قتل الحُصَيْنَ بن ضَمْضَم أحدهم بعد الصلح ويبينّ صلات القربى ويذكر بالعهود والذمم بين الحيين ، ويبين شناعة ما فُعِلَ بعبس [1] :

يا قومنـا لا تغرونـا بمَظْلَمَةٍ ... يا قومَنـا واذكروا الآلاءَ والذمَما
في جاركم وابنكم إذ كان مقتلُه ... شنعاءَ شَيَّبَـتِ الأصداغَ واللِّمَما
عيٌّ المَسـودُ بهـا والسائدون فلم ... يوجـد لهـا غيرُنا مولىً ولا حَكَما
كُنّا بهـا بعدما طيخَتْ عُروضُهم ... كالهِـبْرقِيةِ ينفـي ليطهـا الدَّسَما
إني وحصناً كذي الأنف المَقول له ... ما عنك أنفك إن أعضضْتَه التجما

ثم يختمها بطلبه منهم أو يودوا ذمامة حصن أو لينتظروا حرباً لا تبقي ولا تذر :

أدُّوا ذِمامَـةَ حِصـنٍ أو خذوا بها ... حرباً تَحُشُّ الوقودَ الجَـزْلَ والضَّرَما

وللنابغة صوته المسموع في هذا المجال ، وطالما بكى فراق الإخوة وتحاربهم ، ونعى على عبس مجاورتهم لغير بني جلدتهم مثل بني شَكَل ، وها هو ذا يبكي بني عبس حين فارقوا ذبيان وانطلقوا إلى بني عامر [2] :

أبلـغ بنـي ذبيان ألا أخاهم ... بعبس إذا حلـوا الدِّمـاخَ فأظلَما
بجمعٍ كلـون الأعبل الـوَرْدِ لونُه ... تـرى في نواحيه زهـيراً وحذيما
هـم يردون الموتَ عنـدَ لقائِه ... إذا كان وِردُ الموت لا بدَّ أكرما

وفي الحرب التي جرت بين بطون طيِّىء يصور قَبيصةُ الجَرْميُّ الطائي كيف أنهم بهذه الحرب قطعوا وشائج القربى التي كانت بينهم بسيوفهم [3] :

(1) النقائض 1/ 106 .
(2) النقائض 1/ 103 ، الديوان 109 .
(3) حماسة أبي تمام شرح المرزوقي 2/ 612 .

عَشِيَّةَ قَطَعْنَا قرائـنَ بيننا	بأسيافِنـا والشاهِـدون بنـو بدر
فأصبحتُ قد حلّتْ يميني وأدركتْ	بنـو ثُعـل تَبْلي وراجعني شِعْري

ولم يتأخر خداش بن زهير في أن يقوم ، يوم شُواحِط ، دون قتل إخوتهم حتى منعهم من ذلك ، وفي ذلك يقول في ختام قصيدته :

وإني لأشقَى الناس إن كنتُ غارماً	لعاقبـةٍ : قتلَى جذيمـةَ والخَضِرْ
أُكلَّفُ قتْـلَ معْشرٍ لسـتُ منهمُ؟	ولا أنا مولاهم ولا نصرهُم نصري

ولعلنا لا نبالغ ، ولا نذهب بعيداً في تصورنا ، إذا قلنا إن الشاعر الجاهلي عندما بكى فرقة قومه وتشتتهم إنما كان يتطلع إلى يوم يتحدون فيه على العدو الخارجي وليس عجيبًا أن نسمع النابغة الذبياني يتغنى ويتمنى أن يخرج النعمان من سجن كسرى سالماً يتغنى باسم معد كلها وليس باسمه أو باسم قبيلته [1] :

وإن يرجـع النعمان نفـرح ونبتهج	ويأت معـدا ملكهـا وربيعها
ويرجـع إلى غسـان ملك وسودد	وتلك المنـى لو أننـا نستطيعها
وإن يهلك النعمان تعـر مطيه	ويلـق الى الغنـاء قطوعها
وتنحط حصـان آخـر الليل نحطة	تقضقض منهـا أو تكاد ضلوعها

لم لا يكون هذا الشعر إرهاصاً للوحدة الكبرى التي عمت الجزيرة بعد قليل فاجتمع العرب بعد فرقة ؟

وهكذا فإن الشاعر القبلي كان دائماً مجنداً تحت السلاح عليه أن يؤدي ضريبة القبيلة إشادة بمحامدها وتنويهاً بشأنها ، وافتخاراً بأمجادها ، ثم حطّاً من شأن أعدائها وهجاء لهم وإعلانا لمخازيهم في المحافل [2] وكذا باكياً لتفرق كلمتها رائياً لقتلاها ، يشحذ همتها للأخذ بثأرها من الأعداء إن هزمت :

هذا هو الوجه المشرق للشاعر القبلي ، ولكن كثيراً ما كان التهاجي بينهم ينقلب إلى وقائع دامية بين القبائل التي ينتمون إليها وربما أدى التلاحي بين شعراء القبيلة الواحدة إلى وقوع الشر

---

(١) الديوان ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) مقال للدكتور يوسف خليف - مجلة المجلة عدد نوفمبر ١٩٥٨ ص ١١٥ .

بين بطونها [1] ومن أجل ذلك أنكرت قريش على الشعراء أن يهجوا بعضهم بعضاً وعاقبتهم على ذلك . وهمت بقطع لسان ابن الزبعري لهجائه بني قصي » [2]

تلك هي الفئات البارزة في القبيلة العربية الجاهلية بسطناها وضحنا دور كل فئة وسنحاول أن نعرض فيا سيأتي دستور القبيلة العرفي الذي نظم أمورها الداخلية والخارجية والذي خضع له كل فرد فيها مهما بلغت منزلته .

دستور القبيلة العرفي :

ساد النظام القبلي حياة العرب في جاهليتهم ، ولم تتوفر حكومة مركزية قوية ينضوي الجميع تحت لوائها ، وانفردت كل قبيلة بكيانها تنظمه وفق قانون خاص بها . إلا أن هذه الحياة لم تكن كما يهوى كل فرد ، وإنما يخضع الجميع في القبيلة لقانون ينتظمهم جميعاً ، فكانت القبيلة أشبه بدويلة مستقلة لأن هذه القبيلة لها إقليمها وجمهورها ووحدتها ونظامها ورئيسها ، فإذا ما أضفنا السياسة الخارجية كانت هذه مقومات الدولة : [3]

أما إقليم القبيلة فلم يكن بالمفهوم الذي نعرفه الآن ، فقد كانت القبيلة تتحرك ولا تثبت في مكان واحد ولكننا مع ذلك واجدون لكل قبيلة مجالها الذي تتحرك فيه حيث مراعيها ومياهها ومنازلها وأوديتها وجبالها . وهذا الإقليم أو تلك المرابع كانت القبيلة تحميه وتمنع غيرها من الإعتداء عليها وسمته « الحِمَى » [4] .

وكان هذا الحمى أشبه بالوطن اليوم ، لا ينبغي أن يمسه أو يقترب منه أجنبي ، مثله مثل حدود الدولة اليوم ، وقد تغنى الشاعر الجاهلي بالحفاظ على هذا الحمى ، وبأن حماه لا يطؤه غريب ، بينما هو يستبيح حمى غيره يقول عبيد بن الأبرص :

ولقد أبحنا ما حُميت ولا مُبيح لما حَمَيْنا [5]

وكان للقبيلة العربية دستور عرفي عام استنته لنفسها يشترك فيه جميع الأفراد ، وينحصر هذا الدستور في أن جميع أفراد القبيلة متساوون فيا بينهم يتساندون في الحفاظ على شرف القبيلة وحماها ، ولا يعتبرون أحداً مساوياً لهم أو أعلى منهم ، ويخضعون لرئيس قبيلتهم ، ولا يدينون لغيره ، ولا يخضعون له مهما بلغت منزلته وقوته .

---

(1) العصبية لإحسان النص ١٦٥ . (2) طبقات الشعراء لابن سلام ١٩٧ .
(3) تاريخ الشعر السياسي - أحمد الشايب ٢٨ . (4) انظر « حمى » في لسان العرب .
(5) ديوان عبيد بن الأبرص ١٣٧ .

وتمتع الأفراد داخل إطار قبيلتهم بحرية ، ولكنها كانت حرية شخصية ، ولم تكن حرية اجتماعية ، وسادت قبيلتهم الروح الديمقراطية التي تجلت في انتخاب شيخ القبيلة ومجلسها ورقابة المجلس على الرئيس ، وعزلهم هذا الرئيس أو قتله إن طغى ، وليست صورة مقتل زهير بن جُذيمة ، ومقتل كُلَيْب ، ومقتل حُجْر الكندي وغيرهم بغائبة عن الأذهان .

وكان على كل فرد من أفراد القبيلة أن يتضامن مع أفراد القبيلة ، كما كان على القبيلة في مجموعها أن تحمي كل فرد من أفرادها ، وتهب جميعها للدفاع عنه والأخذ له بحقه ، أو الانتصاف له إن ناله ضيم ، أو انتقصت كرامته ومن هنا قالوا قديماً « في الجريرة تشترك العشيرة »[1] وهذا العقد الاجتماعي بين الفرد وقبيلته قائم على أساس عاطفي بحت لا مجال للتفكير فيه[2] .

وتتمسك القبيلة بأفرادها ما داموا هم متمسكين بقانونها العرفي ، فإذا ما بدر منه ما لا ترضاه القبيلة ولم تتعارف عليه مما يمس سمعتها ، أو شرفها أو يمس أي فرد فيها ، كان جزاء هذا الخارج على قوانينها الخلع . والخلع يستتبع طرد هذا الفرد من حماها ، وتجريده من كل حقوقه ، وحرمانه من حماية القبيلة له ، وتركه فريسة للصحراء . وقد عبّر عن مصير هذا المنبوذ طَرَفة بن العبد حينما صوره كأنه بعير أجرب ينفر منه الناس[3] :

وما زالَ تَشْرابي الخمورَ ولَذّتي	وبَيْعي وإنفاقي طريفي ومتلَدي
إلى أنْ تحامَتْني العشيرةُ كلُّها	وأُفْرِدْتُ إفرادَ البعيرِ المُعَبَّدِ

وتخلع القبيلة الفرد إذا ارتكب جرماً ترفض القبيلة أن تتحمل نتائجه أو إذا أخطأ في حق القبيلة نفسها[4] وقد ذكر الدكتور يوسف خليف ثلاثة أسباب تجعل القبيلة تقدم على خلع الفرد أولها أن يقتل أحد أفراد القبيلة فرداً منها ورفض أهل القتيل الدية ، ثانيها أن تتعدد جرائر أحد الأفراد حتى تجد القبيلة نفسها عاجزة عن نصرته ، وثالثها سوء خلق الفرد، وكل هذه الأسباب الثلاثة تدور حول محور واحد هو خروج الفرد على وحدة القبيلة وتصرفه تصرفاً فردياً بدون رضاها[5] .

ويتخذ الخلع صوراً عدة كلها تدور حول فكرة إعلان ذلك للناس ، وللقبائل ، حتى لا يطالبها أحد بتحمل ما يقوم به من أعمال فيما بعد، لذا فقد كان الخلع أحياناً في صورة إعلان في المواسم والأسواق[6] ، أو أن يرسلوا منادياً ينادي بذلك ويعلنه للناس كما حدث عندما خلع بنو

---

(1) المعمرون والوصايا - للسجستاني 16 .
(2) الشعراء الصعاليك - يوسف خليف 89
(3) ديوان طرفة بن العبد ص 49 .
(4) دائرة المعارف الاسلامية Arabia
(5) الشعراء الصعاليك - يوسف خليف 91 .
(6) الأغاني - (بولاق) 13/ 2 .

سهم عمرو بن العاص في الجاهلية [1]، وربما كتبوا كتاباً بذلك [2].

وبإعلان خلع الفرد تسقط حقوقه القبلية كافة فلا تصون له حقاً، ولا تحفظ عليه نفسه، ولا تطالب بالمطالبة بدمه إذا سُفك. ويجد المخلوع أمامه طريقين، إما الالتجاء إلى الصحراء الفقيرة، وربما شكّل جماعات من الخلعاء يكسبون لقمة العيش بطريقة يتفقون عليها، وإما يلجأ إلى قبيلة أخرى يبحث فيها عن جار يلجأ إليه يحميه ويعيش في جواره، ومن هنا نشأ قانون آخر من قوانين المجتمع الجاهلي وهو قانون الجوار [3].

وقدّس المجتمع الجاهلي هذا القانون تقديساً كبيراً، فالجار ممتنع دائماً في المجتمع القبلي الجاهلي، فافتخر بذلك العربي لأنه أصبح ملاذاً يلجأ إليه الخائف، يقول عوّ، بن عطيّة التيمي مصوراً ذلك مفتخراً [4]:

وأمنعُ جاري من المُجْحِفا	ت، والجارُ ممتنعٌ حيثُ صارا
وأعددتُ للحربِ ملبونَةً	تردُّ على سائسيها الحمارا

وهجا الشعراء كل من غدر بجاره، فالجُمَيْح الأسديّ يهجو عبساً لأنهم قتلوا نَضْلَة بن الأشتر الفَقْعَسِي الذي كان جاراً لهم [5]:

يا جارَ نضلةَ قد أَنَّى لكَ أَنْ	تسعَى بجاركَ في بني هِدْمِ
مُتَنَظِّمِينَ جوارَ نضلةَ يا	شاهَ الوُجوهُ لذلك النظمِ
وبنو رَواحةَ ينظرون إذا	نظرَ النديُّ بآنفٍ خُشْمِ

وصوّر لنا قيس بن زهير، وكان قد جاور النمر بن قاسط بعد الهَباءَة، حقوق الجار وما يجب أن ينعم به بعد أن ترك قبيلته من أَمْنٍ ينعم به، وبرّينا لُه، ومعاملته بالمساواة، ورد كل أذى يتعرض له بالدفاع عنه [6]:

إنّ للنمرِ في إجارتها الجا	رَ وأمنِ الطريدِ حظّاً عظيما
يأمنُ الجارُ فيهم وترى وَسْـ	ـطهم ذا خُثولةٍ معموما
يملأُ الدلوَ قبلَ دلوِ أخي النمـ	ـرِ، وما حوضُ جارِهم مهدوما

---

(1) الأغاني ٩/ ٥٧. (2) تاريخ التمدن الإسلامي - جرجي زيدان ٤/ ١٩.
(3) انظر مادة جوار في اللسان والمحيط. (4) المفضلية رقم ١٢٤.
(5) المفضلية رقم ١٠٩. (6) المعمرون والوصايا - لأبي حاتم السجستاني ١٤٥.

والشواهد الشعرية كثيرة ، لا سبيل إلى ذكرها كلها ، وكلها تندد بالذي لا يحفظ عهد الجار ، وتثني على الذي يحفظ جاره وعهده .

وكانت **الصلة بين الجار والمجير** تختلف تبعاً للظروف ، ظروف الجار، وظروف المجير ، فأحياناً تكون الإجارة **مؤقتة** مثلما نجد في إجارة مَعْبَد بن زُرارة للحارث بن ظالم الذي قتل خالد ابن جعفر العامري ، والذي كان السبب في يوم رَحْرَحان بين عامر وتميم [1] وكانت أحياناً أخرى **دائمة بل وراثية** ، وقد عرف مجتمع مكة في الجاهلية الكثير من هؤلاء الذين كانوا يفدون عليها ، ثم يستقرون بها ويعقدون صِلات جوار مع بعض رجالاتها ، كما رأينا حينما وفد ياسر بن عمار على مكة وجاور عبد الله بن جدعان.

وفي بعض الحالات كان المُجير **يتعهد بنصرة جاره على عدو معين فقط** كما حدث حينما أرشد خِداشُ بن زهير قيسَ بن الخَطيم إلى قاتل أبيه وأجاره ، فقتله قيس بن الخطيم ، وحماه خداش عندما ثار إليه القوم ليقتلوه [2] وفي حالات أخرى كان **يتعهد بنصرته على كل الأعداء ، بل من الموت نفسه** ، كما حدث لقيس بن زهير عندما طالبه رجل من الضباب يقال له « الحنيص الضبابي » بدفع ديَّة رجل من الضباب كانت بنو عبد الله بن غطفان قد أسرته ، ودفعه الذي أسره إلى رجل من أهل تيماء يهودي فاتهمه اليهودي بامرأته فخصاه ، فأجابهم زهير : ما كنا لنفعل ، فقال الضبابي والله لو أصابه مر الريح لوديتموه [3] وكما حدث بين الأعشى وعامر بن الطُّفيل . [4]

وأقوى حالات الإجارة أن يتعهد فيها المجير بأن يثأر له حتى من أخيه الصميم [*] وحرموا على أنفسهم منه ما يحرم من الهدي ، وكانوا يسمون الجار بالهَدِيّ ، يقول زهير :

فلـم أرَ مَعْشَراً أَسروا هَدِيّاً ... ولـم أرَ جارَ بيت يُستباءُ

ويقول الأصمعي في تفسير هذا البيت : هو الرجل الذي له حرمة كحرمة هدي البيت[6]. ويقول عنترة العبسي في قِرواش العبسّي : [7]

هـديكُمُ خـيرٌ أبـا من أبيكمُ ... أبـرُّ وأوفىَ بالجِـوارِ وأحمَدُ

(1) الكامل لابن الأثير 1/ 556 .
(2) ديوان قيس بن الخطيم 182 .
(3) أمثال الضبي 38 .
(4) الأغاني : 9/ 120 .
(5) المحبر - لابن حبيب 348 .
(6) مادة هدي في لسان العرب .
(7) أمثال الضبي 39 .

وفي مقابل هذه الحقوق وتلك المنزلة التي يتمتع بها الجار ، والتي فرضها له القانون الجاهلي القبلي ، فإن عليه واجبات نحو مجيره أو مجيريه ، منها احترام جاره وعدم الإساءة إليه لا في شخصه ولا في سمعته ولا في حياته المادية والمعنوية [١] ، فإذا لم يحترم هذه الواجبات خلع كما خلعته قبيلته ، وربما تعددت إستجارة الخليع بالقبائل في بعض الأحيان ، فالبَرّاض الكنانيّ بعد أن خُلع لجأ إلى بني الدِّيل ، فشرب بينهم فخلعوه ، فأتى مكة محالفاً حَرْبَ ابن أمية ، فأحسن حرب جواره ، وشرب حتى همّ حرب بخلعه ولكنه استبقاه إلى أن قتل عُرْوَةَ الرحّال وجرّ مقتله حروب الفِجار [٢] .

وعلى الرغم مما كان ينعم به الجار من أمن بعد خوف فإنه لم يكن ليتساوى مع أبناء القبيلة ، وكان يستشعر الغربة ، ويحس بالمهانة ، ولذلك لم يكن بعض الذين تخلعهم قبائلهم يقبلون أن يلتحقوا بمن يجيرهم ، بل كانوا يعيشون جماعات في الصحراء تغزو وتسطو على أموال القبائل وعرفوا في ذلك الوقت بالصعاليك [٣] ويكفي هذا المستجير هواناً وذلة أن ديته كانت نصف دية الصريح ابن القبيلة . [٤] ولكن لم تكن حاله دوماً هكذا فلقد نشبت حروب بين القبائل بسبب امتهان ذلك الجار أو قتله ، ولقد هدد الأوس بقتل عامر بن الإطْنابة زعيم الخزرج إن لم يدفعوا دية جارهم أو يسلموهم القاتل ، ولما رفضت الخزرج استعرت حرب فارع بينهم واستمرت حتى حمل ديته عامر بن الإطنابة نفسه [٥] .

وكما يكون الجوار للأفراد فإنه كذلك للقبائل ، فقد تضطر قبيلة لترك منازلها والتحرك في الجزيرة هاربة من خطر يحدق بها ، فتجد نفسها مضطرة إلى مجاورة القبيلة التي ترغب في النزول بجوارها وتعقد بينها وبين تلك القبيلة حلفاً .

ففي حرب داحس والغبراء ، وبعد أن فتكت عبس بأختها ذبيان في يوم جَفْرِ الهَبَاءَة ، أحست عبس بالخطر ، وبتكتل ذبيان عليها وتأليبها حلفاءها فقررت الارتحال ، فتحركت نحو الشرق وجاورت في رحلتها الطويلة تلك كلاً من بني حنيفة ، وتميم ، وبني عامر وغيرهم .

وكانت في كل مرة تقيم فيها بجوار إحدى هذه القبائل تحاول القبيلة النيل منها والاعتداء على حقوقها وأموالها ، فتضطر إلى محاربتها أو الرحيل عنها سراً وحاربت مع بني عامر يوم شِعْب جَبَلة .

---

(١) الشعراء الصعاليك ـ يوسف خليف ٩٥ . (٢) الأغاني/ ثقافة ٢٢/ ٦٣ .
(٣) الشعراء الصعاليك ـ خليف ٩٣ . (٤) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٥ .
(٥) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٦٨ .

وفي نهاية حرب البسوس ، وبعد أن هُزمت تغلب في يوم تَحلاق اللحم ، وعز على مهلهل أن يكون المسؤول عن كل الذين التهمتهم تلك الحرب ، فقرر الرحيل فرحل بأسرته إلى اليمن ونزل في جَنْب ، وقد أجبره أولئك على تزويجهم ابنته .

وهكذا نرى أن الجار لم يكن يحافظ على حقوق جاره دائماً ، كما نرى أن الجوار لم يكن مقصوراً على الأفراد ، بل كانت القبائل تجاور ، كما نفهم من معاجم اللغة أن الجار والحليف معناهما واحد [1] ، فالجار حليف لجاره الذي أجاره .

ونتساءل لم احترم المجتمع الجاهلي ذلك القانون ، وتعارف الناس عليه ؟ والسبب ان المجتمع احترم هذا القانون لأن الحليف أو الجار لم يكن كلاًّ على مجيره ، بل كان ما تقدمه القبيلة له من حقوق ومزايا هي في حد ذاتها مزايا معنوية ، فهو يكسب قوته ، ولا ننسى أن هذا الجار يرد الدَّين للقبيلة فيحارب معها ويتعهد باحترام تقاليدها ، ويكون فرداً من أفرادها وبذلك فإن القبيلة لا تخسر شيئاً بل تضم فرداً جديداً وقوة جديدة ، كما أن هذا الجار تستطيع القبيلة أن تتخلى عنه إذا ما أساء إلى الذين أجاروه .

وكذلك فإن ضم هذا الفرد إلى قبيلة ما أفضل من أن يغدو إلى الصحراء فيصبح خطراً عليها وعلى غيرها بما يسببه لها من غارات على نعمها ، مورد رزقها الأساسي .

العصبية القبليّة :

العصبية أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبيته ، والتألّب معهم ، على من يناوبهم ظالمين كانوا أو مظلومين . والعصبي هو الذي يغضب لعَصَبته ويحامي عنهم .

والعصبة : الأقارب من جهة الأب ، لأنهم يعصبونه أي يحيطون به ويشتد [2] بهم ويراها ابن خلدون « النُّصرة على ذوي القربى وأهل الأرحام ، أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة » [3] .

ويعرفها فيليب حتّي بأنها « روح العشيرة » ومن شروطها على الفرد الوفاء الذي لا حد له لإخوانه من أبناء العشيرة بشكل يقابل ما نعهده من النزعة الوطنية المتطرفة في النظام السياسي الحديث [4] .

---

(١) أنظر مادة « جور » اللسان .
(٢) مادة عصب في اللسان .
(٣) مقدمة ابن خلدون ١٣٨ .
(٤) تاريخ العرب مطول فيليب حتي ١/ ٣٥ .

وعرفها الدكتور شوقي ضيف بأنها « الرباط الذي يوثق الصلة بين أفراد القبيلة [1] ورأى فيها بعض الباحثين دستور القبيلة العرفي . [2]

ولقد عبر الشاعر عنها بهذا البيت من الشعر أصدق تعبير وأبسطه حين قال [3]:

فاحفظْ عشيرتَكَ الأَدنـين إنَّ لَهُمْ ... حَقّاً يفـرِّقُ بيـن الـزوجِ والمَرْتِ

كما عبر عنها عَمرو بن الأهتم المنقري مبيّناً أثرها حتى يشتد الخطب [4] .

جـزى الله خـيراً منقـراً من قبيلةٍ ... إذا الموتُ بالموت ارتـدَى وتأَزَّرا
دعوتُهُـم فاستعجلونـي بنصرهم ... إليَّ غِضابـاً ينفُضـون السنَوَّرا

عرضنا كل ما تقدم لنعطي صورة للعصبية من حصيلة ما تقدم ، فهي رابطة أو ربـاط يعتصب به كل أفراد القبيلة فتتوثق صلاتهم بعضهم البعض ، وينصر الفرد منهم أخاه في جميع الحالات ويتعصب له ، وأنهم إذا ما ظُلِم أخوهم أو ظَلَم فإنهم يهبون لنجدته . وواضح أن القرابة هي المحور الذي تعبر عنه العصبية .

وتبنى العصبية على وحدة الدم ولُحمة النسب [5] ، ولكن القبيلة لم تستطع أن تعيش في معزل عن القبائل الأخرى ، وبالتالي فلم تستطع أن تحافظ على وحدة الدم فيها طويلاً بسبب انضمام آخرين إليها بالطرق التي سبق ذكرها ، ولكننا مع ذلك نرى أن العصبية ظلت قائمة فيها . ومعنى هذا أننا يجب أن نجد بديلاً لوحدة الدم كأساس للعصبية . وفي رأينا أن **المصلحة العامة والإحساس بالمسؤولية هما قوام العصبية**، كما أن الأنساب التي اعتنقها العرب وبنوا عليها عصبيتهم من مقومات العصبية [6] . فكان كل فرد يحس أنه ضمن مجموعة قبلية يربطه بها نسب مشترك ، ومصلحة عامة مشتركة ، وإحساس بأنه مدين لهذه الجماعة في كل شيء ، في أمنه وفي وجوده ، وفي كل ما يملك .

وتستمد هذه العصبية القبلية قوتها من شعور الأفراد بأنهم أبناء أسرة واحدة ، وتقوى هذه العصبية وتشتد في الملمات ، وقد رأينا الربيع بن زياد العبسي يعود إلى قيس بن زهير عدوه بالأمس

---

(١) العصر الجاهلي ـ شوقي ضيف ص ٥٧ . (٢) مجتمع مكة والمدينة ـ لأحمد الشريف ٤٩ .
(٣) الكامل للمبرد ـ طبعة أوروبا ص ١٩٩ . (٤) الحماسة البصرية ١/ ٩٣ .
(٥) مقدمة ابن خلدون ـ طبعة مصر ١٣٢٢ هـ ص ١٠٢ .
(٦) فجر الإسلام ـ أحمد أمين ٨ .

ويصالحه للوقوف معاً في وجه العدو المشترك الـذي انتقص من قيمة عبس ، حذيفة بن بدر الفزاري [1] .

وللعصبية مستويات ، فهي تكون للأسرة والعشيرة ، وتكون للقبيلة ، وتكون للشعب ، وتختلف هذه الثلاثة عن بعضها بعضاً تبعاً للزمن وللظروف ، إلا أن التي تعنينا بالدرجة الأولى والتي هي مدار بحثنا العصبية القبلية ، فعصبية الرجل لقبيلته بأسرها مع تفاوت في شدة هذه العصبية يتحدد بدرجات القرابة ضمن إطار القبيلة .

وكما أن **النظام القبلي نظام ملائم لطبيعة الجزيرة** ، وللطور الحضاري الذي كانت تمر فيه أمتنا ، فكذلك **العصبية ضرورية للمجتمع القبلي** حيث يتعرض الإنسان الجاهلي لأعداء كثيرين ، والناس مفطورون على المطامع ولا وازع يردعهم [2] ودأبهم التنازع فلا بقاء للقبيلة إلا ببعضها . وظهور العصبية في المجتمع الجاهلي يلبّي حاجة كامنة في نفس العربي ، ويروي ظمأه إلى التعلق بمثل أعلى يعيش من أجله ويعكس توقه إلى عقيدة يؤمن بها . [3]

وقد مر بنا أن **الرياسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية** ، لأن الرياسة لا تكون إلا بالغلب ، والغلب إنما يكون بالعصبية . فالعصبية ضرورية لتثبيت الإستقرار في حياة القبيلة ، لأن قوتها في بطن من القبيلة يجعل القبيلة تسلم أمر قيادتها إلى تلك العصبية ، وبالتالي فإن نظام القبيلة السياسي يبقى مستقراً ، ويبقى الحكم في يد تلك العصبية إلى أن توجد عصبية أقوى منها وعندما توجد أكثر من عصبية قوية في القبيلة الواحدة تنقسم القبيلة إلى أقسام صغيرة تستقل كلٌّ بإدارة شؤونها ، وقد يؤدي تضارب مصالحها واشتباكها إلى اختلافها وتحاربها ، كما رأينا في حروب البطون الواحدة المنتمية إلى قبيلة واحدة . وكما حدث عندما كان الربيع بن زياد العبسي وعشيرته منشقين على قيس بن زهير وبقية عبس .

وللعصبية القبلية تبعات ، فهي تشعر كل فرد في القبيلة أنه مسؤول عن الجماعة كلها ، كما تشعر القبيلة أنها مسؤولة عن كل من ينتمي إليها . وهذه التبعات بمثابة عهد غير مكتوب يفرض على أبناء القبيلة التناصر والتآزر والسعي في سبيل منفعة القبيلة في جميع الأحوال ، ويفرض عليهم تبني شعار : **الفرد في سبيل القبيلة والقبيلة في سبيل الفرد** . ويدعو الفرد إلى نصرة أخيه ظالماً كان أم مظلوماً ، يقول شاعر الحماسة : [4]

لا يَسألـونَ أخاهـم حـين يندبهم   في النائبـاتِ على ما قال برهانا

(1) الأغاني/ ثقافة ١٧/ ١٢٩ .
(2) تاريخ التمدن الإسلامي، زيدان ٤/ ١٦ .
(3) العصبية ـ إحسان النص ١٣٩ .
(4) حماسة أبي تمام ـ شرح المرزوقي ١/ ٢٩ .

وربما تسامح الفرد في شأن من شؤونه وأما العصبية فلا تفريط في أي واجب من واجباتها .

وما أنـا إلا من غزية إن غوَتْ غـويتُ وإن ترْشُـدْ غزيَّةُ أرْشُدِ[1]

والعقوبة التي توقع على المتمرد عليها ، والمتنصِّل من تبعاتها ، هي الخلع ، والمخلوعون غالباً يتخلون عن عصبيتهم ويتحللون من شخصيتهم القبلية[2] ، ومع ذلك فبعض الصعاليك لم يستطيعوا ذلك تماماً ، فالسُّلَيْك بن السلكة يأبى التعرض لقومه مضر فلا يغير إلا على قبائل اليمن وربيعة[3] . ويزيد بن مُسْهِر الحارثي الذي كان فارساً شريفاً وكان قد جنى جناية في قومه فلحق ببني عامر فحالفهم فشهد معهم فيف الريح ، وعندما دارت رحى المعركة بين الطرفين أقبل على عامر ووجأه بالرمح في وجنته وانشقت عين عامر ففقأها ثم لحق بقومه[4] فخلع الرجل لا يؤدي دائماً إلى إلغاء عصبيته ، بل تظل كامنة فيه على الرغم من تخلي قومه عنه ، فإذا ما رأى خطراً يحيق بهم أو نازلة نزلت بساحتهم تحركت عصبيته وهب للوقوف معهم في محنتهم .

وكثيراً ما يتعرض ولاء الرجل لقبيلته ، وإخلاصه لها لامتحان قاس **نتيجة اصطدام العصبية القبلية بعوامل أخرى** ، فإما أن تنتصر العصبية ، وإما أن تخرج منهزمة ولكن النتيجة في الغالب تكون في صالحها . **فقد تصطدم العصبية مع عشيرة أمه** وهنا يقع بين قطبين يحاول كل منها اجتذابه ، ولائه لقومه ، وولائه لعشيرة أمـه وقومهـا ، فإن لم يكن من تضارب بين العصبيتين اجتمعا معاً في نفس الرجل وكانتا قوة أكبر ، وإلا انتصرت عصبيته لقومـه . ففـي حروب داحس والغبراء ، نزل قيس بن زهير هو وقومه على بني شَكَل ، وهم بنو أختهم لأن أمهم عبسية فجاوروهم ، ومع ذلك لم يروا منهم المعاملة الطيبة ، بل الأثَرة وسوء الجوار فرحلوا عنهم[5] ولكن ذلك .لم يكن يمنع انتصار عصبية الأم أحياناً، ففي حروب داحس وبعد أن عقد الصلح بين عبس وذبيان ، قتل حُصَيْن بن ضَمْضَم عبسياً يقال له ربيعة بن الحارث ، وأمه فزارية ، وعندما بلغ فزارة خبر مقتله ثاروا وغضبوا ولم تهدأ النفوس إلا حينما أرسل الحارث بن عوف بابنه ، وخيّرهم بين ابنه أو الديَّة ، فقبلوا الدية وهدأت النفوس[6] .

وقد تصطدم العصبية بالعاطفة الزوجية كما رأينا في حرب كَعْب بن عمرو المازني وهي حرب من أيام الأوس والخزرج ، فقد كانت سَلْمَى بنت عمرو بن زيد النجَّارية زوجة لأُحَيْحَة

(1) الأصمعيات رقم ٢٨ .
(2) الشعراء الصعاليك ـ يوسف خليف ١٧٤ .
(3) الأغاني / الساسي ١٨/ ١٣٤ .
(4) النقائض ١/ ٤٧١ .
(5) أمثال الضبي ٣٧ .
(6) أمثال الضبي ٤٢ .

ابن الجُلاح الأوسيّ، وعلمت بما يبيّت زوجها الأوسي لقومها الخزرج، فذهبت إليهم متسللة من بيتها سراً وأخبرتهم بما عزم عليه زوجها[1] فلم تؤثر زوجها على قومها، بل انتصرت لقومها، وطلقها زوجها عندما علم بذلك.

وتصطدم العصبية بالصداقة بين اثنين مختلفي العصبية ، فتبقى صداقتهما ما دامت العصبيتان لم تقتتلا، أما إذا حدث واقتتلتا سرعان ما نرى الرجل يضحي بصداقته ، ولا يتورع عن قتل صديقه إن وجد في ذلك مصلحة لقومه ، وقيس بن زهير وحمل بن بدر ومُهَلْهِل بن ربيعة وهمّام بن مُرّة ، وغيرهم من الأمثلة يؤيدان ما نذهب إليه ، ولو أننا نحس بمرارة تعتمل في نفس قيس ومهلهل عندما علما بمقتل صديقيهما ، وبحزن عميق يجللهما، ولكنهما لا يجدان إلا هذا الطريق يسلكانه ، أن ينصرا قومهما ويرفضا كل عائق في سبيل ذلك . ولقد بكى قيس بن زهير حَمَلَ بن بَدْر بكاء مراً فقال[2] :

تَعَلَّمْ أَنَّ خَيـرَ النـاسِ مَيْـتٌ   على جَفْـرِ الهَبـاءَةِ ما يَرِيمُ
ولـولا ظُلْمُـه ما زلـتُ أبكي   عليه الدهـرَ ما طَلَـعَ النجومُ

والظلم الذي يعنيه هنا أنه حاول النيل من عبس هو وحذيفة عندما رفضا دفع الرهان ، وثارت الحرب بين عبس وفزارة ، واصطدمت العصبيتان .

وفي يوم ذي قار مظهر من مظاهر تغلُّب العصبية على غيرها عند اصطدامه بها ، فقد كان قيس بن مسعود بن قيس بن خالد ذو الجَدَّيْن عامل كسرى على الطَفّ ، وكتب إليه كسرى أن يوافي إياس بن قبيصة ففعل . . . وعندما دنا من بكر انسل إلى قومه ليلاً ، فأتى هانئاً بن مسعود ، فأشار عليهم كيف يصنعون وأمرهم بالصبر ثم رجع[3] .

ومثال آخر من يوم ذي قار أن إياداً كانت مع جيش كسرى الذي يتأهب لقتال بكر ، فأرسلت إلى بكر سراً تسألها : أي الأمرين أعجب إليكم ، أن نطير تحت ليلتنا فنذهب ، أو نقيم حتى نفر حين تلاقون القوم ؟ قالوا : بل تقيمون فإذا التقى الناس انهزمتم بهم[4] .

ولكن الخصم العنيد الذي تغلب عليها وقهرها وتحداها هو الدين ، فقد استطاع أن يقضي عليها ، أو على الأقل أن يقضي على الضيقة منها ، ويضعفها ويوسع مفهومها .

---

(١) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٦٠ .
(٢) النقائض ١/ ٩٦ .
(٣) العقد الفريد لابن عبد ربه ٥/ ٢٦٠ .
(٤) النقائض ٢/ ٦٤٢ .

ومن أبرز مظاهر العصبية القبلية[٢] ذلك التماسك الوثيق الذي نراه بين أبناء القبيلة الواحدة ، والتعاون الذي يسود حياتهم .

ومن مظاهرها كذلك حرص كل فرد في القبيلة على سيادتها وكرامتها والتفاني في سبيل الحفاظ على سمعتها ، وصونها من كل عبث . ومن المظاهر كذلك ذلك الحرص على نسب القبيلة[١] ، واعتزاز كل فرد في القبيلة به ، وتمسك القبيلة باسمها وكرهها التخلي عنه ولو كان ذمياً . ومنها كراهية القبيلة الخضوع لقبيلة أخرى أو لسيد غير سيدها ، أو لسلطان دولة مجاورة ، لأن معنى ذلك كله ذوبان شخصية القبيلة .

ومن مظاهر العصبية تلك المفاخرات والمنافرات الكثيرة على لسان الشعراء والأشراف والخطباء ، التي ملأت الكتب التي وصلتنا ، تلك المفاخرات التي كانت تقام في الأسواق ، والتي ربما جرّت الويلات والحروب . وثمة مفاخرات بين بطون القبيلة الواحدة ، والبطون كلها تشترك في مفاخرة القبائل الأخرى بأصلها المشترك فحلقات المفاخرة تبدأ من حلقة ضيقة ثم تتسع . وقد روى أبو الفرج في أغانيه[٣] أن «قريشاً كانت تخرج في الجاهلية إلى مكان من شعاب مكة فتتفاخر وتتشاتم ولا يفترق القوم إلا عن قتال» وأكثر المفاخرات كانت تجري في المواسم والأسواق ، وفي سوق عكاظ خاصة ، وفي مجالس ملوك الحيرة والشام . وقد تزيَّد الرواة وافتعلوا الكثير من المفاخرات على لسان أهل الجاهلية .

ومنها تلك الوقائع الدامية والغارات التي خاضتها القبائل العربية فيما بينها قرابة قرن ونصف من الزمان على الأقل ، وراح ضحيتها الكثير، وأبقت الجزيرة العربية مفككة الأوصال .

ومن المظاهر حالات الثأر الفردي التي حفلت بها أخبار هذا العصر ، وسنفرد في آخر حديثنا عن العصبية حديثاً مفصلاً عن الثأر .

وطابع العصبية يتميز بضيق حدودها ، فلم تكن تتجاوز حدود البطن أو القبيلة ، وإن قُدِّر لها التجاوز في بعض الأحوال ، فإنها تفقد الكثير من حدَّتها وقوة اندفاعها . فالعصبية كانت في أضيق حدودها ، وما الحروب التي شهدها العصر الجاهلي بين بطون القبيلة الواحدة ، كحرب الفساد بين بطون طيء وحرب تياس بين بطنين من تميم والفتاة بين بطنين من عامر وغير ذلك الكثير ، إلا مظهراً من مظاهر ضيق هذه العصبية ، كما أن تحالف القبيلة مع جماعات أخرى

(١) العصبية لإحسان النص ١١٦ وما بعدها .
(٢) العصبية - إحسان النص ١١ .
(٣) الأغاني ٩/ ١٤٧ .

غريبة عنها ضد قبيلة تربطها بها رابطة القرابة والنسب مظهر آخر من مظاهر ضيق نطاق هذه العصبية .

والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ الجاهلي ، ففي يوم جَدود هادنت يربوع الحَوْفَزان بن شَريك الذي كان يقود بني شيبان مغيراً على بني سعد بن زيد مناة بن تميم ، وسبى سبياً كثيراً ونعماً كثيراً ، وعندما انتهى إلى جَدود منعتهم يَربوع الماء ، ثم صالحوهم بعد التفاوض على أن يعطوهم بعض الغنائم مقابل أن يُخلّوا بينهم وبين الماء ، فقبلوا وورد الحوفزان وقومه الماء ، وقبلت يربوع بعض الغنائم[1] .

وهذا كله يقودنا إلى السؤال التالي : **هل عرف العصر الجاهلي العصبية بمفهومها الواسع، أي عصبية الجنس ؟**

لقد أجاب عن هذا السؤال عدد كبير من الباحثين[2] بالنفي ، وأجمعوا على أن العربي في جاهليته كان عاجزاً عن السمو بتفكيره وشعوره العصبي عن حدود عشيرته الأدنين ، ولذا فإن هذه العصبية كانت عصبية قبلية ، ليس فيها شعور واضح بالجنس العربي العام ، فكل ولائهم للقبيلة ، وكل تفكيرهم محصور فيها ، ولعل في أيام العرب خير شاهد على عدم وضوح شعور العرب أنهم أمة واحدة ، ولكنهم كانوا يميزون في حروبهم وقتالهم بين فئة وأخرى حسب صلات الرحم أو الإنتماء . « وربما بدا في تضاعف إمارات الشمال شعور ضئيل بالوحدة »[3] .

إلا أننا كلما اقتربنا من نهاية العصر نحس بأن الجزيرة بدأت تتكتل في أحلاف قبلية متحاربة فيما بينها ، وربما لمحاربة عدو خارجي ، وسئم الناس تلك الحالة من شيوع الفوضى ، وفقدان الأمن وثقل وطأة الغريب ، وربما كان ذلك كله إرهاصاً للوحدة الكبرى تحت لواء الإسلام .

وأخيراً وبعد هذا العرض السريع للعصبية ومستوياتها نود أن نسأل هل كانت العصبية شراً للمجتمع الجاهلي .

ونجيب على ذلك بأنها لم تكن شراً كلها ، ولم تكن خيراً كلها ، فقد كانت لها آثار إيجابية في ذلك المجتمع القبلي ، كما كانت لها آثار سلبية ضارة .

---

(1) العقد الفريد ٥/ ١٩٩ .

(2) انظر : فجر الإسلام لأحمد أمين ١٧ ، العصر الجاهلي لشوقي ضيف ٥٧ ، حضارة العرب لعمر فروخ ٦٠ ، العصبية لإحسان النص ١٤٠ ، محاضرات المجمع العلمي بدمشق ٢/ ٤٥٣ .

(3) العصر الجاهلي ٥٧ .

أما الآثار الإيجابية فتتمثل في أن العصبية حفظت التوازن بين الجماعات القبلية[1] ، كما أنها أثرت في دفع الناس بعضهم ببعض ، وصيانة كرامتهم وحقوقهم ، وضمت جميع أفراد القبيلة في إطار واحد متماسك ، وحفظت عليهم وحدتهم وقت أن كانت الجزيرة لا تخضع لحكم مركزي ولا دين سماوي يعم أرجاءها وينظم حياتها ويحفظ على الناس حياتهم .

وأما آثارها السلبية فتتمثل في أنها منافية للشعور القومي لأنها تجزىء الوطن الواحد إلى مجتمعات متعددة يحارب بعضها بعضاً[2] . وأنها منافية أيضاً للشعور الإنساني لأنها لا تسعى ولم تسع إلى إقامة صلات سلمية تضم جميع وحدات المجتمع القبلي[3] . ومن آثارها السلبية أنها ساعدت على عدم الإستقرار في المجتمع القبلي الجاهلي[4] لكثرة الأطراف وحتمية النزاع بينها بسبب ظروف البيئة الجاهلية الطبيعية والإقتصادية ، وأنها حالت دون تكوين مجتمع واحد كبير تنصهر فيه جميع الوحدات القبلية ، ولم تكتف بذلك بل أوجدت مجتمعات صغيرة ، لكل منها كيانة الخاص . ثم إن العصبية الضيقة أوجدت تفككاً إجتماعياً في الجزيرة نجم عن المنازعات المستمرة الناشئة عنها . ولعل هذا كله ما دعا أحد الباحثين إلى اعتبارها « من أخطر الظواهر الإجتماعية » وإلى تشبيهها « بالمجتمعات ذات الإتجاهات المغالية في قوميتها[5] » .

الثأر:

وهو أثر من آثار العصبية ، ويحدث غالباً نتيجة للحوادث الفردية التي كثيراً ما تجر إلى الوقائع بين الجماعات . والثأر أخطر ظاهرة إجتماعية نشأت بسبب العصبية القبلية . فإذا قتل رجل رجلاً من غير قبيلته طالب أولياء المقتول عشيرة القاتل (بالقَوَد) ومعناه دفع القاتل إليهم ليقتل بصاحبهم ولم تكن القبيلة لترضى بتسليم القاتل وهو من رجالها ، وقد تعهدت بحمايته طبقاً لقانون القبيلة العرفي ، وهي إن فعلت فإنها تحط من شأنها بين القبائل ، وأظهرت ضعفها وأطمعت فيها القبائل .

ولذا فإنها تعرض على أهل القتيل (**الدية**) **ترضية وتعويضاً** ، فإن قبل أهله حسم الخلاف ، وحقنت الدماء ، وإلاّ أعلنت العداوة بين القبيلتين ، وأصبح واجباً على كل فرد في القبيلة أن يثأر من القبيلة الأخرى ، لأن قانون القبيلة العرفي يفرض عليهم ذلك .

ولم يكن المجتمع القبلي ليرضى عن قبول الدية ، وكان يعتبرها عاراً ، وكأن القوم باعوا ابنهم باللبن ، وقد غضب وفد تغلب عندما عرض عليهم مُرَّة بن شيبان دية لكُلَيْب مقدارها ألف

(1) مجتمع مكة والمدينة : أحمد الشريف ٦٥ . (٢ ، ٣) العصبية - إحسان النص ١٠٦ .
(٤) مجتمع المدينة : أحمد الشريف ٦٥ . (٥) تاريخ العرب - فيليب حتي ١/ ٦٥ .

ناقة قائلين : « لم نأتك لترذل لنا أي تعطينا رذال بنيك ولا تسومنا باللبن»[1]

وعيّر شعراؤهم الذين يفكرون في قبول الدية ، وبخاصة عندما يقتل أشراف القبيلة ، هذه امرأة من ضبة تحرض قومها على عدم قبول الدية ، وتدعوهم ليذيقوهم حدَّ السلاح :

ألا لا تأخــذوا لبَنًــا ولكن	أذيقــوا قومَهــم حدَّ السلاحِ
فــإن لم تــأروا عَمْــراً بزيدٍ	فـلا دَرَّتْ لَبُــونُ بنــي رباحِ[2]

ويتمنى شاعر الحماسة لو قبل الحيّ الموتور المال فدية إذن لساقوا لهم سيلاً مُفْعماً من المال ، ولكنهم قوم يرفضونها خوفاً من العار ، لذلك اختار الدم على اللبن :

فلــو أَنَّ حَيّاً يقبَــلُ المالَ فديةً	لسُقْنــا لهــم سيلاً من المال مُفْعَما
ولــكن أبَــى قومٌ أُصِيبَ أخوهُمُ	رضا العارِ فاختاروا على اللبنِ الدَّما[3]

وعندما قبل حُذَيْفة بن بَدْر دية إبنه قرْفَة هبّت أم قرفة تدعو عليه بألا يسلم من الأعادي ، وألاّ يوقى شر النائبات لأنه قبل الدية :

حُذيفــةُ لا سلمــتَ من الأعادي	ولا وُقِيتَ شرَّ النائباتِ
أَيَقتُــلُ فرقــةَ قيسٌ وتَرْضى	بأنعــامٍ ونــوقٍ سارحاتِ[4]

وعلى الرغم من تشبث المجتمع القبلي بشريعة الثأر فإنهم كانوا يقبلون الدية أحياناً كحل وسط ، ويتخلون عن طلب الثأر في بعض الأحوال . وكان يلجأ إليها في سبيل وضع حد لحروب قبلية طال أمدها ، كما حدث في حروب الفِجار[5] ، وفي حرب داحس والغَبْراء[6] وعندها يتحمل أحد سادة القوم أو مجموعة منهم ديات القتلى ويصطلح الحيان . كما كانت تقبل حقناً لدماء حيين من قبيلة واحدة ، أو قبيلتين تربطهما قرابة وثيقة ، فقد قبلت فزارة الدية من عبس في بداية حرب داحس والغبراء[7] وربما رضوا بها عندما يحسون بالعجز أمام الذين يطلبونهم بالثأر ، أو حينا لا يجدون مفراً من قبولها لإنهاء التوتر ، كما حدث عندما قتلت ذبيان أحد العبسيين يوم قَطَن ، وكان الحيان قد أوشكا على الصلح ، فقبلت عبس الدية[8] .

---

(١) أمثال الضبي ٥٧ .
(٢) حماسة البحتري ٢٨ .
(٣) حماسة أبي تمام شرح المرزوقي ١/ ٢١٧ .
(٤) رياض الأدب - لويس شيخو ٣٩ .
(٥) الأغاني/ ثقافة ٢٢/ ٧٨
(٦) أمثال الضبي ٤١ .
(٧) الأغاني/ ثقافة ١٧/ ١٢٨ .
(٨) أمثال الضبي ٤٢ .

أما حين يكون القاتل والقتيل من عشيرة واحدة فلا غضاضة من قبولها[1] ولا عار عليهم إن هم قبلوها ، وإذا أصروا على عدم القبول خُلِعَ القاتل .

وتحتال القبيلة لكي تدفع العار الذي يلحقها إن هي قبلتها فتلجأ إلى حيلة **سهم الأعتذار** وهو عبارة عن سهم يرمى نحو السماء فإذا عاد مضرجاً بالدم لا يقبلونها ، وإذا عاد كما صعد ، وهذا هو الذي سيحدث قبلوها[2] .

وأما مقدارها المتعارف عليه في المجتمع الجاهلي فلم يكن ثابتاً فقد تعارفوا عليها مائة ناقة[3] ولكنها بالنسبة للرؤساء كانت تصل إلى ألف بعير وترفض في أغلب الأحيان كما رأينا في رفض امرىء القيس ذلك عندما عرضتها أسد عليه[4] وكما رفض التغلبيون ذلك دية لكليب واعتبروا ذلك إهانة واستخفافاً بهم . كما تعارفوا على أن دية الحليف والهجين نصف دية الصريح[5] ومع ذلك نرى الخزرج في حرب سمير يرفضون أن تدفع لهم نصف دية لحليفهم ويصرون على دية كاملة ويقتتلون إلى أن يحكم بينهم المنذر بن حرام النجاري بدفع دية كاملة هذه المرة ثم العودة إلى سنتهم القديمة[6] .

ويرى بعض الباحثين أن « عادة الثأر لم تكن تعني عند العربي إلاّ أنه قد خسر الجولة الأولى ، والخسارة في الصحراء معناها الفناء ، فعليه أن يكسب الجولة الثانية وإلاّ فني وهلك[7] وحتى يحس بوطأة الفناء والهلاك كان يفرض على نفسه ما يشعره بذلك ، فكان يحرم على نفسه النساء والدهن وكل أنواع الملذات كالخمر واللحم وقد يمتنع عن الاغتسال حتى يأخذ بثأره . »[8] وبمعنى آخر فهو يحرم نفسه من منابع الحياة الأساسية وهي الاحتفاظ بالنفس من الهلاك وخلق الأنفس الجديدة ، أي أنهم « يرغمون أنفسهم على صورة مصغرة من صور الفناء ليعرفوا فداحة ذلك ، ويقدموا على القتال بكل قوة وشجاعة حتى يأخذوا بثأرهم فيزيلوا عن أنفسهم شبح الفناء ، وترد إليهم القوة روح الحياة[9] .

(١) انظر اللسان (ودى)
(٢) خزانة الأدب ٢/ ١٣٧ ، ديوان الهذليين ٢/ ٣١ .
(٣) الأغاني/ ثقافة ١٧/ ١٣٣ .
(٤) الأغاني/ ثقافة ٢٣/ ٤٠٦ .
(٥) الأمالي للقالي ١/ ٧٢ .
(٦) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٥٩ .
(٧) سيرة عنترة/ محمود الحفني ٣٦ .
(٨) النقائض ١/ ٨٣ ، ٣٣٦ ، الشعر والشعراء ١٧
(٩) سيرة عنترة - محمود الحفني ٣٦ .

وقد شاعت في المجتمع الجاهلي القبلي **أسطورة الهامة**[1] ، فقد زعموا أنها تخرج من رأس القبر ثم لا تزال تصيح : أسقوني ، حتى يأخذوا بثاره ، ولم يكن هدف هذه الأسطورة إلاّ الحض على طلب الثأر .

وقد أسبغ لامنس ـ الذي كتب فصلاً لدراسة شريعة الثأر وطابعها الديني عند العرب ـ الصفة الدينية على شريعة الثأر[2] ، لما رأى من تقديس المجتمع لها ، ولما رأى لها من طقوس متعارف عليها ، ولما رأى من أساطير تربطها بها . وربط (وهوزن) بين الثأر وحالة الإحرام ، ورأى فيها التعبير الأسمى عن التأله الذي يرجو البدوي التقرب بوساطته من الآلهة[3] .

والعربي كان يحرص على **إعلان اعتزامه الأخذ بالثأر** ، وتحريم كل الملذات على نفسه حتى يدرك بثاره ، وهو يخاطر بسمعته عندما يفعل ذلك ، ولا يكتفي بالإعلان بل يدعو قومه إلى احتقاره إن لم يف بنذره :

فلا يدعني قومي لزيد بن مالكٍ ... لئن لم أُعجلْ ضربةً أو أعجلِ[4]

ويحرص كذلك على أن يتم الأخذ بالثأر جهاراً وعلى ملأ من الناس ، وما أمكنه ذلك حتى يعلم الناس جميعاً أن قوم المقتول قد أخذوا بثارهم ، وأخبار الأيام حافلة بذلك .

ويتجلى قانون التكافل والتضامن القبلي في قوانين الثأر في أوضح صوره[5] فكل رجل في القبيلة يؤدي ضريبة الدم عن أخيه ، والقبيلة بمجموعها مسؤولة عن المطالبة بدم قتيلها ، كما أن قبيلة القاتل تؤخذ كلها بجريرته . وقد تجد القبيلة الموتورة أن القاتل غير كفء للقتيل ، وبالتالي فهي لا ترضى أن تقتله به ، كما الذي حدث عندما قتل البَرّاض الكناني عروةَ الرحال الذي كان سيداً من سادات عامر ، فقد رفضت هوازن أن تقتل البراض بعروة الرحال لأن البراض خليع والرحال سيد[6] وقد تجد أن المقتول لا يعدل ، لشرفه ونبل أصله ، دم رجل واحد من جماعة القاتل ، فلا ترضى عندئذ إلاّ قتل عدد من الرجال ، وهذا ما عرف بالتكايل بالدم ، وهو مما

---

(1) أمالي القالي ١/ ١٢٩ ، نهاية الأرب ٣/ ١١٧٣ .
(2) العصبية لإحسان النص ١٢٣ .
(3) العصر الجاهلي ـ شوقي ضيف ٦١ وانظر العصبية لإحسان النص ١٢٣ .
(4) حماسة البحتري ١٠ .
(5) العصبية ـ احسان النص ١٢١ .
(6) العقد الفريد ٥/ ٢٥٣ .

أسقطه الإسلام. وأمثلة ذلك كثيرة نحن واجدوها في مقتل كليب ومقتل حجر الكندي والد امرىء القيس، وواجدوها في حالة عِصْمة بن حَدْرَة اليربوعي الذي لم تهدأ باله إلاّ عندما قتل سبعين رجلاً من بني عبس برجل قتلوه من قومه[١] والمنذر بن ماء السماء الذي أقسم أن يقتل مائة من تميم بابنه[٢].

وقد يكون من الحق أن شريعة الثأر هذه خضبت رمال الجزيرة العربية بدماء كانت لا تكاد تجف، ولكن من الحق أيضاً أن هذه **الشريعة كانت قانوناً وقائياً** لا بد منه في ذلك المجتمع القبلي، ففي ظل الثأر كان العربي يشعر بالأمن في بيئة لا يسودها نظام ولا يسيطر عليها قانون. وبسبب هذه الشريعة أيضاً كانت القبائل تتحاشى إراقة الدماء عند الغزو ما وسعها ذلك، وأن نفور البدوي من إراقة الدماء في جميع عهوده مرده إلى شريعة الثأر[٣].

وبسبب الثأر ثارت الوقائع، وأصبحت كل قبيلة إما واترة أو موتورة:

يُغَارُ علينا واتِرين فَيُشْتَفَى ... بنا إنْ أُصِبْنا أو نغيرُ على وِتْرِ[٤]

السياسة الخارجية للقبيلة:

لقد سيطرت فكرة الحمى على المجتمع البدوي كله، وأصبح لكل قبيلة حمى خاص بها، ولكن ذلك لم يمنع القبيلة من أن تمد مجال حركتها خارج حماها ما لم تكن في الحمى الجديد قوة أقوى من قوتها. وهذا ما نتج عنه تداخل منازل القبائل.

وقد أثبتت الباحثة الإنجليزية «سمبل» أن كل مشكلة من مشكلات التاريخ يعمل فيها عاملان أساسيان: الإنسان والبيئة الجغرافية، يمثل العامل الإنساني القوة المتحركة الدافعة في كل نشاط بشريّ، كما يمثل العامل الجغرافي القوة الثابتة الموجهة لهذا النشاط التي لا تكف عن العمل وفرض حقيقتها على اتجاهاته ومجالاته[٥].

وهذا الحمى لم يكن ثابتاً فهو عرضة للامتداد أو التقلص، لا يمكن لقبيلة ما أن تستقر تماماً في بقعة ما، لأن عوامل متعددة تؤثر في حياة السكان في جزيرة العرب، وأهم عاملين يؤثران

(١) النقائض ١/ ٣٣٦.
(٢) الأغاني/ ثقافة ٢٢/ ١٩٢ - ١٩٣ يوم أدارة الثاني.
(٣) العصبية لإحسان النص ١٢٠.
(٤) الأغاني ١٠/ ٥، حماسة أبي تمام ٢/ ٨٢٥.
(٥) مجلة «المجلة» فبراير ١٩٦٥ ص ١٦ مقال الدكتور يوسف خليف.

بشدة في حياة السكان الجدب والحر . وانطلاقاً من الظروف الجغرافية التي خضع لها المجتمع الجاهلي أصبحت الحركة هي القاعدة التي تقوم عليها حياة البدو من سكان الجزيرة[1] .

ومن أسباب التحرك[2] في المجتمع الجاهلي القبلي كثرة النسل التي تؤدي إلى ضيق المكان بأهله ، **لأن العشيرة أو القبيلة كان عليها أن تواجه أمرين متعارضين : أولهما الدفاع عن النفس الذي يتطلب كثرة في العدد ، وثانيهما : تأمين حاجات العشيرة** من الماء والكلأ وهذا يدعو أن تكون الجماعة قليلة العدد ، فإذا ما نمت الجماعة ، وزاد عددها على ما يستطيع الحي أن يقدمه من ضرورات الحياة ، كان من اللازم أن تنقسم الجماعة إلى جماعتين أو أكثر ، وأن ترحل إحداهما إن هوناً وإن قسراً ، وربما تعارضت مصلحتاهما فتحاربتا ، كما رأينا بكراً وتغلب ، والأوس والخزرج ، وعبساً وذبيان .

ومن أسباب التحرك الحروب والشقاق والتناحر الذي كان ينجم عنه هجرات ومثلها حرب داحس التي جعلت عبساً تطوف في أرجاء الجزيرة المختلفة ردحاً من الزمن . وربما كان التحرك بسبب ظروف اقتصادية كما رأينا في سيل العرم ، وحركة قبيلتي بكر وتميم .

وبديهي أن هذا التحرك يفرض على القبيلة الاحتكاك بجيرانها ، وهذا الاحتكاك قد يكون سلمياً ، وقد يكون حربياً يحمل طابع العدوان . ومن هذا الاحتكاك تنشأ العلاقات والصلات بين القبائل ، تلك العلاقات التي أملتها « عوامل الحاجات الملحة التي تمليها المصالح الذاتية والرغبة في المحافظة على النفس »[3] .

فالصلات السلمية القبلية إنما أوجدتها ظروف الحياة القبلية من اضطرار إلى النزول إلى جوار قبيلة أخرى ، وتعذر تحقيق الاكتفاء الذاتي في القبيلة وتعذر الاستغناء نهائياً عن الآخرين في أي مجتمع من المجتمعات فكيف في مجتمع صحراوي متقلب الظروف ؟

وتتمثل الصلات السلمية في **التقاء القبائل في الأشهر الحرم[4] في الأسواق والمواسم** ، يبيعون ويشترون ، ويستمعون ويقولون ، ويتبادلون الأسرى ، يتقايضون ويقضون بعض شعائرهم الدينية ، وكانت الأشهر الحرم هدنة مقدسة لا يجوز خرقها وقد تعارف عليها المجتمع الجاهلي[5] ، فلم يكن فيها قتال ، وسميت الحروب التي انتهكت حرمتها بالفِجار ، وفي هذه

---

(١) مجلة « المجلة » فبراير ١٩٦٥ ص ١٦ مقال الدكتور يوسف خليف .
(٢) تاريخ الأدب الجاهلي - علي الجندي ٧٠ - ٧١ .
(٣) تاريخ العرب - مطول - حتي ١/ ٢٨ .
(٤) الأشهر الحرم : ذو الحجة وذو القعدة ومحرم ورجب .
(٥) قصة الحضارة - ول ديورانت ١٣/ ١٢ ، انظر سبائك الذهب .

الأسواق لا يحمل القادمون إليها السلاح ، وإن حملوه وأودعوه لدى زعيم أو سيد معترف به لدى الجميع ، وقد كان عبدالله بن جَدعان يودع لديه السلاح في سوق عكاظ(١).

وكان العرب يتنقلون من سوق إلى آخر وفق ترتيب دقيق ، ينتهي سوق ليبدأ سوق آخر في منطقة قريبة منه ، ومن هذه الأسواق : سوق دومة الجَنْدَل ، وسوق هَجَر ، وسوق عُمان ، وسوق المُشقّر ، وسوق صُحار ، وسوق الشّحر ، وسوق ذي المَجاز ، وسوق حَباشة ، وسوق عُكاظ(٢).

وكان الأشراف والفرسان إذا أتوا عكاظ تقنّعوا حتى لا يعرفوا حين يؤسرون فيكبر فداؤهم ، ومنهم من كان يرفض أن يتقنع كطريف بن تميم العَنْبَري(٣).

كما كانت أسواق المكان الذي تدفع فيه الأتاوات ، فهوازن كانت تدفع الأتاوات لزهير بن جَذِيمة العبسي في عكاظ(٤).

وفي الأسواق ترفع راية وفاء لمن أتى مكرمة ليعرفه الناس ، كما ترفع راية لمن يغدر ويطلب من الناس ألا يصاهروه ويعرفوه(٥).

ومن مظاهر الصلات السلمية المصاهرة التي كانت تتم بين القبائل وبخاصة بين القبائل المتجاورة في مواطنها ، وكانت هذه المصاهرات تخفف من روح العداوة بين هذه القبائل ، ولكنها لم تستطع أن توقفها .

ومنها قري الضيف ، الذي علله بعض الباحثين(٦) بأنه « ناشيء عن الشعور المشترك بضعفهم وعجزهم تجاه مشاق الطبيعة القاسية العنيدة » . ومهما يكن في البدوي من صفات البغض والإستكبار لعدوه فإن العربي أيضاً ضمن نطاق صداقته مخلص لصديقه ، ولقد تغنى شعراء الجاهلية بفضل الضيافة التي تعتبر هي والحماسة والمروءة من أسمى الشمائل التي تميز بها الشعب العربي ، وكان بعضهم يوقد النار ليلاً(٧) حتى يهتدي إليها المارة فيقصدوها ليجدوا الطعام والمأوى في هذه الصحراء المظلمة . ويرى فيه بعضهم(٨) تخفيفاً من شر الغزو الذي خيّم

---

(١) الأغاني/ ثقافة ٢٢/ ٦٦ .
(٢) بلوغ الأرب ـ الألوس ١/ ٢٦٤ ـ ٢٦٧ . (٣) العقد الفريد ٥/ ٢٠٨ .
(٤) الأغاني / كتب ١١/ ٨٣ . (٥) الأزمنة والأمكنة ـ للمرزوقي ٢/ ١٧٠ .
(٦) تاريخ العرب مطول ـ فيليب حتى ١/ ٣٢ .
(٧) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ـ للقلشندي ٤٦٣ .
(٨) تاريخ العرب مطول ـ فيليب حتى ١/ ٣٢ .

على الجزيرة العربية ، وجفاف الصحراء وقسوتها . ويصور لنا عُتَيْبَة بن بُجَيْر المازني من بني الحارث بن كعب مشهد ضيف طرق منزله ليلاً فيقول :

ومُسْتَنبِحٍ باتَ الصـدى يستتيهه إلى كل صوتٍ فهو في الرحْلِ جانحُ
فقلـتُ لأهلي : ما بُغـام مطيةٍ وسـارٍ أضافتـْه الـكلابُ النوابحُ
فقالوا : غريبٌ طارقٌ طَوّحتْ به متونُ الفيافي والخطوبِ الطوارحُ
فقمتُ ولم أُجثِمْ مكاني ولـم تَقُمْ مـع النفس عِلاتُ البَخيلِ الفواضحُ[1]

ومن المظاهر السلمية الاجارة ، فقد كان المستجير يجد أمناً بعد خوف ، وصوناً لحياته بعد أن نبذته قبيلته ، وقد اعترف المجتمع الجاهلي بقانون الإجارة وخضع له ولقوانينه ، وقد بحثنا ذلك في فقرة سابقة ، وكان حق الإجارة وقفاً على الصرحاء من أبناء القبيلة[2] ولعل في ذلك دعماً لهذا القانون لأن الحليف لو سمح له أن يجير فلن يملك القوة التي يحمي بها جاره .

وعلى الرغم من تقديس المجتمع الجاهلي لهذا القانون فقد تناهى إلى أسماعنا جار يشكو ظلم جيرانه واهتضامهم حقوقه ، وخير شاهد على ما نقول ما حدث لعبس حين جاورت بني كعب ، فهمّوا بالغدر ببني عبس ، وكانت عبس قد حالفتهم ، وفطن لهم بنـو عبس فأخـذوا حذرهم ، وخلّد تلك الحادثة شاعر عبس[3] .

وآخر هذه الصلات السلمية **الأحلاف** ، والحلف بمعنى اليمين أصلاً . كانوا يقسمونه في عهودهم ، وكانوا يغمرون أيديهم في أثناء عقد أحلافهم في طيب أو في دم[4] وكانوا يقولون : « الدم الدم ، والهدم الهدم ، لا يزيد العهد طلوع الشمس إلا شداً ، وطول الليالي إلا مداً ، ما بل البحر صوفه وأقام رضوى في مكانه »[5] إن كان جبلهم رضوى ، وإلا ذكروا ما يجاورهم من جبال . وربما أوقـدوا النـار عنـد تحالفهـم ، ودعوا الله أن يحرم من ينقض عهـد الحلف من منافعها[6] .

وربما دنوا من هذه النار حتى تكاد تحرقهم ، كما حدث لقبائل من مُرَّة بن عوف ، الذين تحالفوا عن نار فدنوا منها ، وعشوا بها حتى محشتهم فسموا « المحاشّ »[7] .

(1) حماسة أبي تمام شرح المرزوقي ٤/ ١٥٥٧ .
(2) سيرة ابن هشام ١/ ٣٨١ .
(3) ديوان عنترة ٢٠٠ وانظر كذلك أمثلة في الأغاني ١٣/ ٢١ والحماسة ١/ ٣٣٦ .
(4) العصر الجاهلي - شوقي ضيف ٥٨ .
(5، 6) الحيوان ٤/ ٤٧١ .
(7) المصدر السابق ٤/ ٤٧٠ .

وكانت القبائل تسعى إلى المحالفات طلباً للأمن ، ودفعاً للعدوان ، وإيثاراً للعافية ، ومع ذلك « فلم تستطع هذه المحالفات حقن الدماء التي كانت تسفك لأتفه الأسباب ، وربما كان الحلف نفسه من أسباب الحرب ، تسعى إليه القبيلة إذا هي طلبت ثأراً عجزت عنه أو نزلت بها مصيبة قعدت دون دفعها » إلا أننا يجب ألا ننسى أن هذه الإتحادات ، إتحادات الأحلاف « قد لعبت دوراً كبيراً إيجابياً في تكوين القبائل ، إذ كانت تنضم العشائر الضعيفة إلى العشائر القوية لتحميها وترد العدوان عنها »[1] .

وقد عرف تاريخ العرب في جاهليتهم أنواعاً متعددة من الأحلاف القبلية : منها الحلف بين قبيلتين متجاورتين إحداهما أقوى من الأخرى كتحالف الأوس واليهود ضد الخزرج عندما تغلب الخزرج على الأوس في يوم بُعاث فحالفوا اليهود ليمكنوا أنفسهم من الخزرج[2] . ومنها حلف يُعْقد بين قبيلتين متساويتين في الحقوق والواجبات وصفة هذا الحلف مؤقتة ، يزول بزوال سببه كحلف عبس وضبة الذي عقد بينهما عندما كانت ضبة تريد معيناً لها في حربها ضد أختها تميم[3] . وأحلاف دائمة كحلف المطيبين من قريش ويضم بني عبد مناف بن قصي ، وبني أسد ابن عبد العزى بن قصيّ ، وبني زهرة بن كلاب ، وبني تيم الله بن مرة ، وبني الحارث بن مالك ، وكانوا يداً واحدة في التناصر[4] .

ومنها أحلاف كانت غايتها دفع الظلم والشر ، أو نشر الأمن في ربوع القبيلة وخير مثال لهذا النوع من الأحلاف « حلف الفُضول »[*] بين بطون قريش ، « وسبب هذا الحلف أن رؤساء قبائل قريش اجتمعوا فاتفقوا ألا يدعوا أحداً يظلم بمكة أحداً إلا نصروا المظلوم على الظالم وأخذوا له حقه »[5] .

ومنها ما كان له طابع ديني كحلف « الحُمْس »[6] الذي عقد بين كنانة وقريش وخزاعة وطوائف من بني عامر بن صعصعة .

وقد انتشر التحالف بين القبائل بصورة واسعة قُبيل الإسلام[7] ، ولم تبق إلا قبائل

(1) العصر الجاهلي ـ شوقي ضيف ٥٨ ، وانظر أمثلة لذلك في معجم البكري ١/ ٥٣ وما بعدها .
(2) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٧٨ .
(3) الكامل لابن الأثير ١/ ٥٨١ .
(4) المحبر لابن حبيب ١٦٦ .
(5) المحبر لابن حبيب ١٦٧ ، الأغاني / ثقافة ١٧/ ٢١٠ ـ ٢٢١ .
(6) المحبر لابن حبيب ١٧٨ .
(7) مجتمع مكة والمدينة ـ أحمد الشريف ٤٦ .

« جمرات العرب »[1] ، ولعل انتشار المحالفات كان إحساساً من القبيلة العربية بأنها بحاجة إلى الإنفتاح على غيرها من القبائل ، ولعل ذلك كان بدء نهضة قومية استفاد منها الإسلام في توحيد أمة .

إلا أننا نستطيع أن نؤكد أنه لم تكن لأي قبيلة سياسة مرسومة تحدد علاقاتها مع القبائل الأخرى ، فقد تعقد نوعاً مع الصلات مع احدى القبائل ثم تكتشف أن مصلحتها في قطع هذه العلاقة ، فلا تتوانى عن فعل ذلك ، فمصلحتها هي التي تحدد طبيعة العلاقة ، ربما أصبح صديق الأمس عدو اليوم ، والأمثلة كثيرة جداً ولعل ما نراه في محالفات عبس ، بعد أن نزحت عن ديارها ، عندما تألبت عليها كل قبائل غطفان بسبب فتكها بفزارة يوم الهَباءة ، خير مثال على ما نقول . ولعل هذا هو ما جعل أحد المستشرقين يرى أن اتحادات القبائل كانت تتم في ظروف إستثنائية لا تلبث أن تنحل[2] .

أما النوع الثاني من الصلات بين القبائل فهو الصلات الحربية التي كانت تتراءى لبعض الباحثين أنها تمثل طبيعة الصلات في الجاهلية ، وأن الصلة الدموية هي التي تعين الفلك الذي تضطرب فيه حياة البدو[3] ، وأن السياسة الخارجية قامت في ذلك العصر على التربص والعداوة[4] .

ومظاهر هذه الصلات الحربية تتمثل في العداوة ، والنزاع المتصل ، والغزو .

الغزو :

قلنا إن الظروف الجغرافية في الجزيرة العربية جعلت الحركة هي القاعدة التي تقوم عليها حياة البدو من سكانها . ومن هنا استقر في أعماق البدوي إحساس بالأنفة من كل الأعمال التي تفرض على أصحابها الإستقرار ، وإحساس بالرضا عن كل الأعمال التي تفرض على أصحابها الحركة والتنقل[5] ، ومن هنا قدّس البدوي الغزو ، وأصبح وسيلة من وسائل الحياة ، بل شريعة مقدسة يكمن فيها سر الحياة ، يعبر عن ذلك درَيْد بن الصِّمَّة حين يقول :[6]

---

(١) الحيوان ٥/ ١٢٣ والمحبر ٢٣٤ .
(٢) تاريخ الأدب العربي - بلاشير ١/ ٢٥ .
(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية - بروكلمان ١/ ١٧ .
(٤) تاريخ الشعر السياسي - أحمد الشايب ٣٢ .
(٥) مجلة « المجلة » فبراير ١٩٦٥ ص ١٦ مقال للدكتور يوسف خليف .
(٦) الحماسة لأبي تمام شرح المرزوقي ٢/ ٨٢٥ .

بنـا إن أُصبنـا أو نغـير على وِتْرِ ... يُغـار علينـا واتـرينَ فَيُشتَفَى
فما ينقضي إلا ونحـن على شَطْرِ ... قَسَمْنا بذاكَ الدهرَ شطْرَين بيننا

فالغزو إذاً وسيلة من وسائل عيشهم ، ذلك العيش المشوب بالضنك والشظف وضرورة إجتماعية أملتها أحوال البلاد الإقتصادية والإجتماعية ، فهو لم يكن فضيلة في حد ذاته ، وإنما ضرورة من ضرورات الحياة والبيئة ، وهو يمثل صورة من صور تنازع البقاء في مجتمع فقير مجزأ . كل هذه العوامل رفعت الغزو إلى مستوى النظام القومي[1] .

والطابع الذي يتميز به الغزو هو تجنب إهراق الدماء عبثاً ، فلا يقتلون إلا حيناً لا يجدون بُدّاً من القتل . وقد مر بنا أن الثأر كان وراء ذلك التصرف ، وسبب آخر أن همهم موجّه إلى السلب والسبي وأسر الموسرين والسادة الذين يطمع في فدائهم ، ففي يوم الكُلاب الثاني يلحق عِصْمَةُ بن أُبيرَ عَبْدَ يغوث الحارثيّ وهو يصيح به « ويحك إني رجل أحب اللبن وأنا خيرٌ لك من الفلاة والعطش[2] » .

وعلى الرغم من الفوضى التي تسود كثيراً من أحوال المجتمع القبلي ، إلا أن الأعراف القبلية قد لطفت من حدة هذه الفوضى ، فأعراف فيما يتعلق بالأحلاف ، وأعراف فيا يتعلق بالمواسم والأسواق والأشهر الحرم ، وأعراف تتعلق بالغزو ونتائجه أيضاً .

فقد تعارفوا على عدم جواز الغزو بين القبائل المتحالفة ، وكان شعراؤهم يذكرونهم بذلك صنيع النابغة حينما أراد عُيَيْنَة أن يعاون بني عبس ضد بني أَسَد وكانت ذبيان مرتبطة بحلف مع بني أَسَد[3] . كما تعارفوا على عدم جواز الغزو في الأشهر الحرم[4] ، ولذا كانت الجزيرة في هذه الأشهر يرفرف عليها السلام والأمن بشكل عام ، وتهرع إلى الأسواق لتبادل وتقضي حاجاتها . وتعارفوا على كيفية معاملة الأسرى ، من ضرورة المحافظة على حياتهم ، وعدم إلحاق المهانة بهم ، وتعارفوا على قوانين توزيع الأسلاب فيا بينهم ، كما تعارفوا على فدية الأسير التي لم تكن ثابتة بل تختلف تبعاً لمكانته .

وللأسر تقاليد ، منها أن الملك لا تجزّ ناصيته إن أسر ، فقد ضرب طارق بن عميرة

(١) ارجع إلى العصر الجاهلي ٧٨ ، مقال الدكتور يوسف خليف ، حضارة العرب - لوبون ٧٢ ، العصبية لإحسان النص ٨٢ ، تاريخ العرب حتي ٣١/١ .
(٢) انظر خبر اليوم في النقائض ١٤٩/١ ، الكامل لابن الأثير ٦٢٠/١ .
(٣) ديوان النابغة ١٩٦ .
(٤) من أجل هذا سموا حروب قيس وكنانة حروب الفجار ، الروض الأنف ٩٢/١ .

اليربوعيّ فرس قابوس فعقره ، وأخذه ليجز ناصيته ، فقال قابوس : إن الملوك لا تُجزُّ نواصيها ، فجهزه وأرسله إلى أبيه[1].

ومنها أنهم كانوا إذا استأسر المنهزم ، وكان رجلاً له مكانته في قومه اكتفوا بجز ناصيتـه علامة الهزيمة والإستسلام ، وخلوا سبيله على أن يكرمهم فيا بعد[2] . ولكنهم لا يفعلون ذلك دائماً ، فقد أسرت عامر مَعْبَدَ بن زرارة التميمي يوم رَحْرَحان الثاني وبقي في الأسر إلى أن وفد أخوه لقيط عليهم لفدائه[3].

وكانوا يحافظون على حياة الأسير لأكثر من سبب ، أهمها حرصهم على فديته وتخوفهم من الوقوع في قبضة الأسر من قبل أعدائهم فالحياة كرّ وفر . ففي يوم الرّغام بين يربوع وعامر أسر عُتَيْبَةُ بن الحارث اليربوعي أنسَ الرِّعْليّ وطلب منه قومه قتله فرفض حتى افتدى أنس نفسه بمائتي بعير ، فعيرّ العباس بن مِرْدَاس عُتيبة بذلك[4].

وقد تباينت الفدية ، فتارة نجدها مائتي بعير كما رأينا في افتداء أنس الـرعليّ نفسـه من عتيبة ، وأخرى نراهم لا يقبلون من لَقِيط بن زرارة فدية لأخيه فبقي في الأسر حتى هزل ومات وعيّر أخوه بذلك[5] . وفي يوم زَرُود الثاني بين يربوع وتغلب افتدى حزيمةُ بن طارق التغلبي نفسه بمائتي بعير[6] . وترفع هذه الفدية في يوم السُّلان عندما أسر وبْرَةُ الكلبيّ فافتدى نفسه بألف بعير وفرس من يزيد بن الصَّعِق[7] وفي يوم السوبان « عامر وتميم » فأدى حسّان بن وَبْرة من يزيد ابن الصعق بألف بعير فداء الملوك . [8]

ويكرم الأسير إن كان قد قدم معروفاً للقبيلة أولفرد فيها قبل أسره ، فقد أسرت كنانة دُرَيْدَ ابنَ الصِّمَّة في غارة لها على قومه بني جشم فأخفى دريد نسبه ، وكان قد خلّ سبيل حامي الظعينة ربيعةَ بن مكدّم سيد وفارس كنانة ، وتعرفت على دريد إحدى النساء فصاحت : هلكتم ماذا جرّ علينا قومنا ؟ ثم ألقت عليه ثوبها وطلبت من قومها إطلاق سراحه ، فأطلقوه بعد أن أرضوا آسره وكسوه وجهزوه ، فلم يزل كافاً عن حربهم حتى هلك عرفاناً بجميلهم[9].

---

(١) العقد الفريد ٥/ ٢٣٤ .
(٢) الأغاني / ثقافة ٢٣/ ٢٣٣ يوم ذي قار .
(٣) العقد الفريد ٥/ ١٣٩ .
(٤) الأغاني / كتب ١٥/ ٣٤٦.
(٥) العقد الفريد ٥/ ١٣٩ ، الأغاني / كتب ١١/ ١٢٧ .
(٦) العقد الفريد ٥/ ١٨٧ .
(٧) الكامل ١/ ٦٣٩ .
(٨) العقد الفريد ٥/ ١٧٨ .
(٩) العقد الفريد ٥/ ١٧٣ .

ومن المتعارف عليه أن الأسير ملك آسره ، وله الحق في الفدية فإذا ما رغبت القبيلة في قتله لثأر سابق ، أو إطلاق سراحه إكراماً له ، فلا بد من ترضية آسره ، ففي يوم الكُلاب الثاني أسرت تميم عبدَ يغوث الحارثي ، وأرادت قتله بسيد من سادتها قتله قومه في ذلك اليوم ، ورفض آسره عِصْمَةُ بن أُبَيْر ،وكادت تحدث فتنة بين حي بني تميم بسببه ، فقال عصمة إني مضحل وقد أحببت الغنى في نفسي ولا تطيب نفسي عن أسيري . فاشتراه بنو الحسحاس بمائة بعير وقتلوه بالنعمان بن جساس[1].

وكانت عملية تبادل الأسرى بين القبائل تتم في الأسواق - في الأشهر الحرم التي كانت بمثابة الهدنة المقدسة في الجزيرة ، ويؤكد صحة ذلك الخبر « حينا أسر الربيع ذؤاب بن ربيعة الأسدي ، وكان ذؤاب قد قتل أباه عتيبة بن الحارث بن شهاب . . . . وظل عنده أسيراً حتى فاداه أبوه ربيعة بإبل معلومة قاطعه عليها ، وتواعدا سوق عكاظ في الأشهر الحرم أن يأتي هذا بالإبل وهذا بالأسير . . . . »[2] وفي خبر لَقيط ما يشير إلى أنه وفد على عامر في رجب .

وكانوا عندما يأسرون شاعراً يشدون لسانه بنسعة حتى لا يقول شعراً يعيرهم به ، وينتشر في القبائل ، وهذا ما فعلته تميم بعبد يغوث الحارثي يوم الكلاب الثاني ، وعندما رجاهم أن يزيلوها أخذوا عليه عهداً ألاّ يهجوهم[3] .

أما السبي من النساء ، فالبعض كان يبني بهن[4] ، والبعض كان يتصرف بهن كإماء[4] أو يعيدهن إلى قبيلتها إكراماً لشخص في القبيلة أو إمعاناً في الإذلال والازدراء[5] . فقد غزت جيوش غسان قبيلة النابغة لكثرة اعتداءاتها على ما حموا من أرض ، وسبوا نساء من ذبيان ، فقال النابغة يمدحهم ويصور حال أولئك النسوة وهن في الأسر ينتظرن من يخلصهن ، فأطلقوا سراحهن إكراماً له[7] .

وعلى الرغم من كل هذه القوانين إلاّ أن ذلك لم يمنعهم ، إخماداً لجذوة الحقد في نفوسهم ، من أن يسوموا الأسرى الذل والمهانة ، فقد أغارت فَزارة على التَّيْم فقتلوهم قتلاً ذريعاً يوم جزْع ظِلال ، وأخذوا منهم مائة امرأة فقسمهن عُيَيْنة بن حِصْن الفَزاري في بدر ، وجعلهن

---

(١) النقائض ١/ ١٤٩ ، الكامل لابن الأثير ١/ ٦٢٠ . (٢) العقد الفريد ٥/ ٢٤٩ .
(٣) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٢٠ ، النقائض ١/ ١٤٩ . (٤) العقد الفريد ٥/ ٢١٢ .
(٥) يوم جزع ظلال ، العمدة لابن رشيق ٢/ ٢١٥ .
(٦) المصدر السابق ٢/ ٢١٥ . (٧) ديوان النابغة ٨٠ .

مع أزواجهن الأسارى ينقلن الخزي هوناً لهم ، ثم أطلق الجميع بغير فداء بعد ذلك[1] ولم يمنعهم كل ما تعارفوا عليه من قتل الأسير أحياناً وهم يعذبونه ، كما حدث لوائل بن صَريم اليَشكري على يدي بني أُسَيْد بن عَمْرو بن تميم ، والذي جرَّ يوم الحاجر[2] .

العلاقات مع الممالك المجاورة :

نشأ في الجزيرة العربية قبل الإسلام ثلاث ممالك لعبت دوراً هاماً في تحريك الأحداث في الجزيرة ، وكان لها أثر كبير في تلك الأحداث ، وتلك الممالك مملكة كندة في الجنوب ، ودولتا المناذرة والغساسنة في الشمال . كما كان لدولتي الفرس والروم أثر غير مباشر ، إذ كانت الدولتان الكبيرتان في ذلك الوقت تتخذان من بعض هذه الدول سوراً يحميها من هجمات القبائل العربية ، كما يحمي مصالحها الاقتصادية في الجزيرة .

فمملكة كندة نشأت في جبال اليمن مما يلي حضرموت في الأصل ، وأنها سكنت أولاً في غمر ذي كِنْدَة . وكندة قبيلة قحطانية - كما يحدثنا الإخباريون - عرفت بكندة الملوك ، لأن الملك كان لهم على بادية الحجاز من بني عدنان[3] . ويحدثنا اليعقوبي عن حرب وقعت بين كندة وحضرموت طال أمدها ، هزمت فيها كندة ، ثم صارت إلى أرض معد ، وملكوا عليهم أول ملوكهم مرتع بن معاوية بن ثور ، وتعاقب بعده ملوك إلى أن ملك حُجْر بن عَمْرو المعروف بآكل المرار الشهير الذي حالف بين كندة وربيعة بالذنائب وتولى الملك .[4] وحجر أقدم رجل في كندة تحدث عنه الإخباريون بالتفصيل ، فذكروا أنه كان أخاً لحسّان بن تُبَّع لأمه ، فلما دوَّخ حسان بلاد العرب ، وسار في الحجاز وهم بالانصراف ، ولّى حجراً على معد بن عدنان كلها[5] ، وقدر فيليب حتي ذلك حوالي سنة ٤٨٠ م[6]ونفهم مما ذكره ابن خلدون أن بني معد كانوا أتباعاً للتبابعة يعينون عليهم من يشاءون من الناس .

يظهر من أكثر روايات الإخباريين على اختلافها[7] أن الذي نصب حجراً ملكاً هو تبّع .

---

(١) العقد الفريد ٥/ ١١٢ .
(٢) تاريخ ابن خلدون ٢/ ٢٥٧ ، انظر معجم البلدان ٧/ ٢٨٤ ، صفة جزيرة العرب ٨٥ .
(٣) تاريخ اليعقوبي ١/ ١٧٦ وما بعدها .
(٤) تاريخ ابن خلدون ٢/ ٢٧٣ والمعارف لابن قتيبة ٣٠٨ ، والعرب قبل الإسلام ٢١٤ .
(٥) تاريخ ابن خلدون ٢/ ٢٧٣ والمعارف لابن قتيبة ٣٠٨ والعرب قبل الإسلام ٢١١ .
(٦) تاريخ العرب مطول حتي ١/ ١١٥ .
(٧) انظر تفصيل ذلك في تاريخ العرب قبل الإسلام - جواد علي ٣/ ٢١٩ - ٢٢١ .

ومعنى هذا أن سلطان تُبَّع كان واسعاً يشمل الحجاز ونجداً ، وأن له القدرة على تعيين الحكام على قبائل هذه الأرضين .

وقد نزل حجر بنجد ، ببطن عاقل ، وكان اللخميون ملكوا كثيراً من تلك البلاد ، ولا سيما بلاد بكر بن وائل ، فنهض بهم وحارب اللخميين واستخلص أرض بكر منهم[1] . ويبدو أنه وسَّع سلطته بطريق الزواج ، فقد روى ابن الكلبي بأنه تزوج بنت ظالم بن وهب بن الحارث ، كما تزوج بامرأة من حمير ، وبزوجة ثالثة هي أم إياس بنت عوف بن محُلّم الشيباني[2] . وقد بسط نفوذه على بعض أجزاء اليمامة حيث عين ابنه (معاوية) حاكماً عليها[3] .

وأعقب حجراً ابنه عمرو المقصور ، وسمي بذلك لأنه فقد سلطته على قبائل ربيعة التي ظهر فيها في هذا الوقت قائد جديد هو كليب التغلبي . وقد ارتبط عمرو هذا مع المناذرة بأواصر الصداقة والقربى ، فتزوج المنذر بن ماء السماء ابنته .[4]

وتولى بعده الحارث عمرو الذي يعتبر أقوى ملوك كندة وأبرزهم ، ومعلوماتنا عنه أوضح . حكم مدة تزيد على أربعين سنة ، **وتوسط بين بكر وتغلب وعقد بينهما صلحاً انتهت به** حرب البَسوس ، ثم **بسط سيادته على قبيلة بكر بعد ذلك** .[5]

استغل ضعف ملوك المناذرة وسوء علاقاتهم مع الساسانيين ، فاستطاع أن يتولى ملك الحيرة ردحاً من الزمن بتأييد من قباذ ملك الساسانيين . ويبدو أن قباذاً كان يريد أن **يستغل نفوذ الحارث لإخضاع القبائل العربية ، وبخاصة بكر وتغلب التي أخذت تزحف إلى أطراف العراق ، ثم عزله قباذ لرفضه اعتناق المزدكية**[6] .

وقد نهج الحارث نهج حجر في الإصهار لعدة قبائل ، فتزوج من قَطام بنت سَلَمة بن الحارث بن معاوية ، فولدت له حجراً ، وأختها أسماء فولدت له شُرحبيل ، ومعد يكرب وجاريتها فولدت له سلمة ، كما تزوج بنت عوف بن محلم فولدت له عمراً[7] .

وقد ولى الحارث إبان حكمه أولاده على القبائل التي يحكمها بعد أن احتفظ لنفسه بحكم

---

(1) الكامل لابن الأثير ١/ ٥١١ .
(2) محاضرات في تاريخ العرب ـ صالح العلي ٦٩ .
(3) الكامل لابن الأثير ١/ ٥٨٠ والأغاني ١٥/ ٨٢ .
(4) محاضرات في تاريخ العرب ـ صالح العلي ٧٠ .
(5) نهاية الأرب للنويري ١٥/ ٤٠٦ .
(6) تاريخ العرب قبل الإسلام ٣/ ٢٣٣ جواد علي .
(7) محاضرات في تاريخ العرب صالح العلي ٦٩ .

كِنْدَةً . وتكاد تتفق أغلب الروايات على أنه عين حجراً على أسد وكنانة وغطفان ، وعيّن شرحبيل على بكر وحنظلة والرباب وتيم ، وعين سلمة على تغلب والنمر بن قاسط ومعد يكرب على قيس عيّلان[1] .

ولو تأملنا المواطن التي كانت تسكنها هذه القبائل لأدركنا مدى سعة سلطان الحارث وامتداد حكمه إلى نجد وأطراف الحجاز والبحرين واليمامة . وكانت مناطق حجر - كما يبدو لنا من معرفة موطن القبائل التي وليها - عند حدود الدولة البيزنطية ، لذا كانت له علاقة بها .

وبعد وفاة الحارث ، تولى كل ولد من أولاده السلطة على القبائل التي كانت تخضع له ، لكن لم تكن لهم القوة والسطوة ، وظلم بعضهم ، وسعى الوشاة بين بعضهم فتفرقت كلمتهم . فحجر ظلم أسداً فتذمرت منه ، ثم تربصت به فقتلته ، وشرحبيل وسلمة دب بينهما الخلاف بعد موت أبيهما ، وربما « كان للمنذر بن ماء السماء أثر في توسيع شقة الخلاف بينهما »[2] إذ يروى أنه دس لكل من الأخوين من يفهمه أن الآخر يريد الاتفاق مع المنذر ، مما أثار ضغينتهما ، وأدى هذا الاختلاف إلى اقتتالهما في يوم الكُلاب الأول ومقتل أحدهما .

وحاول امرؤ القيس الأخذ بثأر أبيه ، لكنه عجز بعد أن بذل كل ما في وسعه ، وربما كان من أسباب فشله أن المنذر ملك الحيرة كان وراء ذلك ، وكان قد بسط نفوذه على بعض القبائل فمنعها من نصرة امرىء القيس كما حمى أسداً ، ثم نصح بالسفر إلى القسطنطينية أعداء المناذرة ، ولكنه أيضاً فشل ، ولعل القيصر لم يرغب في المغامرة بإرسال جيش مع عربي ليس له من سند له ، وليحارب لمصلحة هذا العربي ، بالإضافة إلى أن الغساسنة كانوا حلفاء للروم ويقومون لهم ببسط نفوذهم على القبائل .[3]

وهكذا تنتهي هذه المملكة التي لعبت دوراً في تاريخ القبائل العربية ، ونود الآن بيان مدى سيطرتها ، ومدى صلاتها بالقبائل ، ومدى صحة الروايات التي وصلت إلينا .

بعد أن يعرض الدكتور جواد علي لمختلف الروايات المتعلقة بتلك المملكة يقول معقباً « ليس من السهل تصور بلوغ نفوذ هذه المملكة واتساعه بحيث غطى قسماً كبيراً من أرض الجزيرة ، وقد رأينا آثار الوهن بادية على هذه المملكة بحيث لم تتمكن من مقاومة غزو الحبشة لها مع وجود البحر ، وليس من السهل تصور مجيء بكر والقبائل الأخرى طائعة مختارة إلى الحارث

(١) انظر الأغاني ٩/ ٨٢ ، المفضليات ٤٣٢ ، الكامل لابن الأثير ١/ ٥١٣ ، Kings of Kinda 86-70.

(٢) محاضرات في تاريخ العرب ـ صالح العلي ٧٢ .

(٣) محاضرات في تاريخ العرب ـ صالح العلي ٧٤ ـ ٧٥

تلتمس منه أن يتفضل فيكون ملكاً عليها ، وقد رأيناها تنقض على البيت المالك من كندة وتثور عليه ، وتقتل أمراءه ، حال علمها بضعف ذلك البيت » ويرى « أن الأقرب إلى المنطق هو أن هذه القبائل لم تعترف برئاسة الحارث عليها ، إلا لما رأته فيه من القوة ، وإلا بعد استعمال العنف مع عدد من القبائل ، فرضيت به ملكاً ما دام قوياً والأمر بيديه ، وهو منطق السياسة في الصحراء »[1] .

والمتتبع للأخبار المبثوثة في المصادر ، والتي تتحدث عن العلاقات بين ملوك هذه المملكة والقبائل العربية يلحظ تبايناً في هذه الروايات[2] ومرد هذا الإختلاف يعود إلى النزعات القبلية التي يحملها الرواة ، فلربيعة رواة ولمضر رواة ، ولليمن رواة وعلى رأسهم الكلبي الذي اهتم كثيراً برواية أخبار اليمن ، والكل يتعصب لجماعته[3] . ونضرب لذلك مثلاً آخر : ياقوت[4] يذكر أن كليباً كان يوم خزاز على ربيعة ، والأحوص على مضر ، ومحمد بن حبيب[5] يروي أن كليباً هو الذي قاد جموع ربيعة ومضر وقضاعة يوم خَزاز . وأبو زياد الكلابي[6] يروي أن الذي أوقد النار هو الأحوص بن جعفر ، أي أنه كان رئيس نزار .

وقد خاضت القبائل العربية حروباً سنعرض لها في موضعها ، منها ما كان في صفها ضد أعداء آخرين حين كانت تدين بالولاء لها ، ومنها ما كان ضدها ثورة عليها ومحاولة للتخلص من ظلم ملوكها .

ويتحدث الدكتور صالح العلي عن طبيعة خضوع القبائل العربية لهذه المملكة فيقول « لم يحاول الكنديون في تنظيمهم السياسي أن يغيروا النظم السياسية القبلية ، فتركوا كل قبيلة تحتفظ بتنظيماتها وتقاليدها ورؤسائها مكتفين بالإعتراف برئاستهم العليا ، وبذلك كونوا نوعاً من الإتحاد كانت كندة رأسه ومنظمته وموجهته ، فنظامها أدى إلى نشر الأمن والسلم والحد من الخصومات القبلية ، فلما انقرضت كندة حلّت دولة المناذرة محلها مدة قصيرة ، ثم سقطت فتفككت القبائل البدوية واستقل كل منها في شؤونه الداخلية واضطرب الأمن واقتتلت هذه القبائل كل فيما بينها »[7] .

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام - جواد علي ٣/ ٢٣٠ .
(٢) مثال ذلك قصة مقتل حجر والد امرىء القيس .
(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام - جواد علي ٣/ ٢٤٩ .
(٤) معجم البلدان ٣/ ٤٣٠ .
(٥) المحبر - لابن حبيب ٢٤٩ .
(٦) معجم البلدان ٣/ ٤٣٠ .
(٧) محاضرات في تاريخ العرب - صالح العلي ٧٤ .

وإذاً فقد أثرت هذه المملكة في القبائل العربية الشمالية أو في بعضها على وجه التحديد ، وحكمتها حكماً غير مباشر بوساطة ولاة يدينون لها ولكن هذه القبائل كانت تثور كلما سنحت لها الفرصة بظهور زعيم قوي يوحد كلمتها ، أو كلما ضعفت تلك المملكة ، كما أن هذه القبائل بطشت بأفراد من هذه الأسرة وقتلتهم بظلمهم لها . كما أن القبائل كانت مستقلة استقلالاً داخلياً تصرف شؤونها كما تريد، ولكن الرواة اليمنيين بالغوا فيما نقلوه إلينا بدافع العصبية وعلى رأسهم الكلبي ، كما أسهم امرؤ القيس الشاعر برفع شأن هذه الأسرة بما قاله من شعر ، واعتمادنا فيما وصل إلينا من هؤلاء الرواة ، ولم تصلنا نقوش أو وثائق تشير إلى هذه العلاقات وتوضحها .

أما مملكة الحيرة ، أو إمارة الحيرة ، فتقع على بعد ثلاثة أميال من موقع الكوفة على بحيرة النجف موطن الشيعة حتى اليوم ، وكانت في أرض خصبة تمر بها فروع من نهر الفرات [1] ويرجع تاريخها إلى القرن الثالث ، واستمر إلى ظهور الإسلام ، وكان لأهلها أثر كبير في الحضارة العربية ، فقد كانوا يجوبون أرجاء الجزيرة بالتجارة ، واستطاعوا مد نفوذهم التجاري إلى أواسط وجنوب وغربي الجزيرة العربية ، وأرسلوا قوافل تجارية إلى الأسواق الرئيسية ومنها عكاظ ، وكانت تسمى **اللطائم** ،وهي تحمل المسك والمنسوجات ، وربما بعض المنتوجات الحريرية التي يستعملها العرب . وكانوا يأخذون لها الأدلاء والخفراء ، ويؤمنونها من هجمات القبائل الساكنة على طول الطريق التجاري . [2]

وكان للمواصلات التجارية في جزيرة العرب طريقان : أحدهما شرقي يصل عُمان بالعراق وينقل بضائع اليمن والهند وفارس براً ، ثم يجوز غرب العراق إلى البادية حتى ينتهي به المطاف إلى أسواق الشام .

والثاني وهو الأهم يصل اليمن بالشام مجتازاً بلاد الحجاز ناقلاً أيضاً بضائع اليمن والحبشة والهند إلى الشام وبضائع الشام إلى اليمن .

ومن أشهر ملوك الحيرة في الفترة الأخيرة المنذر بن ماء السماء الذي تولى الحكم سنة ٥٢٠م [3] ، كان معاصراً لكسرى أنو شروان والحارث بن أبي شمّر الغساني الذي اشتبك مع المنذر في نزاع على أرض ، ادّعى كل منهما ملكيتها والسلطة على القبائل العربية النازلة بها . ولم

---

(١) انظر الأغاني ١٩/ ٧٥ ، ٢٠/ ١٣٤ ، طبقات ابن سعد ٢/ ٦ ، دائرة المعارف الإسلامية: مكة .

(٢) تاريخ الإسلام السياسي - حسن ابراهيم حسن ١/ ٥١ طبعة اولى ١٩٣٥ .

(٣) المرجع السابق نفسه .

يكد ينتهي ما بينهما من نزاع حتى نشبت المعارك بينهما من جديد حوالي سنة ٥٤١ م ، وفيها أسر المنذر ابناً للحارث وانتهت الحرب سنة ٥٤٤ م بهزيمة المنذر وقتله في مرج حليمة . غير أنهما ما لبثت أن نشبت من جديد وانتهت بموقعة عين أباغ سنة ٥٧٠م وقتل فيها ملك الحيرة أيضاً . [1]

وتولى بعد فترة النعمان بن المنذر سنة ٥٨٠م ، ثم قتله كسرى أبرويز سنة ٦٠٢ م [2] وهو الذي كان يخاطبه النابغة الذبياني « أبيت اللعن » .

وقد حلت دولة المناذرة محل كِنْدَة في بسط النفوذ على بعض القبائل العربية فترة قصيرة من الزمن ، ولعبت دورها التاريخي ، حتى خيل لأحد الباحثين أن ملوك الحيرة كانوا وراء كل خلاف يقع بين القبائل العربية ، وأن القبائل تلتقي وتفترق في هذا السبيل ، والدماء تجري والموت يبتلع الناس ابتلاعاً ، كل ذلك تدفع إليه سياسة التفرقة التي كان يركبها إذ ذاك هؤلاء الملوك » [3] .

ثم حلّ الضعف والإنقسام بأمراء الحيرة على أثر ما نزل بهم من الحوادث الجسام وما توالى على دولة الساسانيين من ضعف ، ومن مظاهر هذا الضعف الهزائم التي ألحقتها بهم إمارة الغساسنة ، وتنازع أولاد المنذر على العرش ، وعلى الرغم من فوز النعمان بن المنذر بالإمارة إلا أنه لم ينج من الكيد والوقيعة في البلاط الفارسي حتى مات تحت أقدام فيلتهم[4] .

وصار من أثر هذا الإنحلال أن عمت الفوضى ، وضاعت هيبتهم عند القبائل ، فأغلظ بعضهم لهم القول ، كما قالت تغلب لعَمْرو بن هند حين طلب إليهم العون في الثأر لأبيه : هل نحن لابن هند رعاء ؟ [5] ويجرؤون على ماله الخاص فيسلبونه كما فعلت بنو الشقيقة ورئيسهم قيس في إبل عمرو بن هند وأشار إلى ذلك الحارث بن حِلِّزة :

آيةٌ شارقُ الشَّقيقةِ إذ جا ... ءوا جميعاً لكلِّ حَيٍّ لِواءُ
حولَ قَيْسٍ مستلئمين بكبشٍ ... قَرَظِيٍّ كأنَّهُ عَبْلاءُ
وصتيتٍ من العواتكِ ما تَنْـ ... ـهاهُ إلاّ مُبْيَضَّةٌ رَعْلاءُ[6]

---

(١) نولدكه - أمراء غسان ٢٤، ٢٥ .

(٢) تاريخ الإسلام السياسي - حسن ابراهيم - طبعة أولى ١٩٣٥ ص١/٥٢ .

(٣) تاريخ الشعر العربي - البهبيتي ٣١ .

(٤) الأخبار الطوال - أبو حنيفة الدنيوري ١٠٧ - ١٠٩ .

(٥) تاريخ الإسلام السياسي - حسن ابراهيم ٥٤ طبعة أولى ١٩٣٥ .

(٦) معلقة الحارث بن حلزة اليشكري - شرح القصائد السبع الطوال - ٤٩٣ وما بعدها .

ويذكر الحارث في معلقته أنه كان لبكر اليد الطولى في صدهم[1]:

مَـنْ لَنـا عنـده من الخـيرِ آيا ... تٌ ثلاثٌ في كلّهـنَّ القضاءُ
آيةٌ : شارقُ الشقيقـةِ إذ جا ... ءوا جميعـاً لكل حَيٍّ لِواءُ
حـولَ قيسٍ مستلئمـين بكبشٍ ... قَرَظِـيٍّ كأنـه عَبْلاءُ
فَجَبَهْناهُـم بضربٍ كما يخـ ... ـرُجُ من خُربـةِ المَزادِ الماءُ
وحملناهُـم على حَزْمِ ثهلا ... نَ شِلالاً ودُمِّـيَ الأنساءُ
وفعلنـا بهـم كما عَلِـم اللـ ... ـهُ ومـا إن للحائنـينَ دماءُ

هذا ما قاله البكريون وهم الموالون لحكومة الحيرة . أما معلقة عمرو بن كُلْثوم ، فإنها تصوره لنا نِدّاً قوياً ، وخصماً عنيداً لملك الحيرة :

بـأيِّ مَشيئـةٍ عمـرَو بنَ هندٍ ... نـكونُ لقيْلـكم فيهـا قَطينا
بـأيِ مشيئـةٍ عمـرَو بن هند ... تُسـطيعُ بنـا الوُشـاةَ وتَزْدرينا
تهدَّدْنـا وأوعِدْنـا رُوَيْداً ... متـى كُنّـا لأمِّـكَ مَقْتَوينا

ثم انتقل إلى تذكيره بقومه وبقوتهم ، وهو بذلك يهدده ويذكره بما فعله قومه بمن حاولوا النيل منه ومن قومه فيقول :

فـإنَّ قَناتَنـا يا عمـرو أعيتْ ... على الأعـداءِ قبلَك أنْ تَلينا
إذا عَضَّ الثِّقـافُ بهـا اشمأزَّتْ ... وولَّتْهُـمْ عَشَوْزَنَـةً زَبونا
عَشَوْزَنـةً إذا انقلبـتْ أرنَّتْ ... تـدُقُّ قَفـا المثقِّفِ والجبينا
فهـل حُدِّثْـتَ في جُشَـمِ بنِ بكرٍ ... بنقصٍ في خطـوب الأوِلينا[2]

وهكذا نرى أن الحيرة لم تمارس نفوذاً عسكريا ـ إن صح التعبير ـ على القبائل العربية كما فعلت كندة ، لقد ورثت نفوذها وساعدت القبائل العربية على استئصاله ولكنها لم تستطع أن تمارس التأثير الفعال على جمهرة القبائل العربية . لقد وصلتنا أخبار عن أيام ووقائع للحيرة مع بكر وتميم وتغلب وأسد ، وسنعرضها بمزيد من التفصيل في موضعها من البحث .

ويبدو أن الصلات نظمت بين القبائل العربية من جهة والفرس والمناذرة من جهة أخرى

(1) معلقة الحارث بن حلزة اليشكري ـ شرح القصائد السبع الطوال ـ ٤٩٣ وما بعدها .
(2) شرح القصائد السبع الطوال ٤٠١ وما بعدها .

على أساس التجارة ، وأن الخلافات والحروب كانت تحدث بسبب تعرض هذه القبائل للطائفهم المسافرة عبر حمى هذه القبائل ، وفي الحالات العادية كانت هذه القبائل تتولى حماية هذه التجارة مقابل مال يدفع لها .

وكانت « القبائل المتوسطة » في نظر الحكومات النظامية تعتمد إلى حد كبير على أهمية الطرق التجارية التي تخترق أرض الجزيرة العربية . [1] لذلك كانت هذه القبائل معرضاً لأطماع اليمن حيناً ولأطماع الحيرة حيناً آخر . وقد مارست هذه القبائل عهدين من التبعية لليمن أولا ممثلاً في إمارة كِنْدَة ثم للحيرة . ووضوح هذه الحقيقة يفسر لنا كثيراً من الحروب التي كانت تشارك فيها هذه القبائل حيناً ضد الشرق وحيناً ضد الجنوب .

على أن هذا التاريخ غامض غموض التجارة نفسها خلال الجزيرة ، فلم يصلنا الكثير مما يفسر لنا طبيعة تلك العلاقات والحروب ومتى انتقلت التبعية وكيف ، لكننا مع ذلك نحاول تلمس الحقيقة ببعض الأخبار التي وصلتنا .

وكانت هذه القبائل على ما تردده من معاني العزة والشهامة والقوة تَشْرُف كثيراً إذا وجد أفرادها الحظوة لدى الحكومات النظامية [2] **ومن صور التشريف : الرِدافة** وهي أن يجلس الملك ويجلس الرِّدف عن يمينه ، فإذا شرب الملك شرب الرِّدف المرباع ، وكانت الردافة في الجاهلية لبني يربوع لأنه قُصد بها ليكفوا عن الغارة على العراق [3] ، وقد ثارت يربوع عندما حاول النعمان بن المنذر تسليم الردافة لبني مُجاشع ونتج عن ذلك يوم طِخْفَة الذي هَزمت فيه يربوع جيشَ المنذر ، وظلت الردافة فيها [4] .

ومن صور التشريف : **الأكال** وهو نوع من القطائع ، عرفها ابن الاعرابي بأنها الميرة التي يمتارون بها في الجدب . والأكال : مآكل الملوك ، وهي ما يجعله الملوك لمن يشرفونهم . [5] .

ومنها **المشاركة** وهو ولاية الجباية على الأرياف ، كان ملوك الحيرة يعمدون إليها لإرضاء بعض القبائل المتمردة والقوية التي يخشون متاعب تسببها لهم . وتتمكن هذه القبائل بنفوذها من الجباية . [6]

(١) مقدمة ديوان لبيد بن ربيعة تحقيق إحسان عباس ٤ .
(٢) المرجع السابق ٤ .
(٣) أنظر اللسان مادة « ردف» .
(٤) النقائض ١/ ٦٦ ، الكامل لابن الأثير ١/ ٦٤٩ .
(٥) اللسان مادة « أكل» .
(٦) اللسان مادة « شرف» .

ولكن في هذا التشريف مصلحة للطرفين ، فالقبيلة تفخر بذلك ، لأن تلك الممالك كانت أرقى حضارياً وسياسياً من تلك القبائل ، وفيها مصلحة للملوك الحيرة لأنهم بذلك التشريف الرمزي المعنوي يضمنون ولاء القبيلة ، وعدم تعديها على مصالحهم ، ويكونون عوناً لهم على أعدائهم . ولم يكن المقرّب إلى الملك ليقبل ويفخر بهذا التشريف لو أهينت قبيلته .

بقي من هذه الممالك مملكة غسان ، التي سكنت شرقي الأردن على أنقاض الضجاعمة ، وبسط ملوك غسان نفوذهم على عرب الشام ، وساعدهم في ذلك الرومان ، وظلوا كذلك حتى سنة ١٣هـ ، عندما هزمت جيوش الروم في موقعة اليرموك . [١]

وقد جعلهم الرومان حصناً منيعاً ضد القبائل العربية المتاخمة لحدود الإمبراطورية كما هيؤهم خصماً قوياً في وجه المناذرة حلفاء الفرس في الحيرة . واستقطبت كل من الإمارتين القبائل العربية المجاورة لها ، المناذرة جمعوا حولهم عرب نجد والعراق ، والغساسنة عرب الشام وشمال الجزيرة .

ولكن الذي لا نشك فيه أن الغساسنة لم يتوغلوا في نفوذهم في الجزيرة كما فعل المناذرة ، وسبب ذلك أن الحيرة كانت تدعم صلاتها لمصلحة تجارية ، وكانت تفعل ذلك حماية لمصالح الفرس ومصالحها . كما أن خضوع الحيرة للفرس الذين كانت لهم سلطة في اليمن دعمت مركزهم ، كما كانت لليمن سلطة على القبائل . كل هذه العوامل مكنت من نفوذ الحيرة على بعض القبائل العربية كما تعددت أشكال هذا النفوذ وصوره .

وقد دخلت القبائل العربية في الصراع الدائر بين مملكتي الحيرة وغسان فاستقطبت كل منها بعض القبائل ، الحيرة ومعها عرب العراق وبعض قبائل نجد ، وغسان ومعها عرب الشام وبعض القبائل المتاخمة لها وتسكن الشمال الغربي للجزيرة العربية .

ويحدثنا الرواة والإخباريون أن ملكاً من ملوك الغساسنة لبّى دعوة مالك بن العجلان الخزرجي لانتزاع السلطة من اليهود وإنصاف الأوس والخزرج الذين تربطهم بالغساسنة رابطة انتسابهم إلى الأَزْد . [٢]

وإذا تتبعنا الأيام التي وصلت إلينا أخبارها وجدنا أن الغساسنة كانت لهم أيام مع ضبة (يوم أضم وبزاخة) ، وذبيان (أقر) ، وأسد (ذرحرح ، وشطب ، المراد) ، ويربوع (غول

---

(١) تاريخ الإسلام السياسي ـ حسن ابراهيم حسن ٥٦ .

(٢) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٥٦ ـ ٦٥٨ ، الأغاني/ ثقافة ٢٢/ ١٠٢ .

الثاني) . وهذه الأيام قليلة العدد إذا قيست بأيام العرب الكثيرة . كما أن هذه القبائل كانت متاخمة في منازلها لمنازل غسان ومراعيها ومناطق نفوذها .

ونجد في شعر عبيد بن الأبرص والنابغة وغيرهما إشارات إلى طبيعة العلاقات بين قبائلهم ومملكة غسان .

ونقول أن طبيعة أيام غسان وهذه القبائل كان يتخذ شكلين ، أما إغارة هذه القبائل على ممتلكات غسان ، أو حملة تأديبية يقوم بها جيش الغساسنة لإحدى هذه القبائل .

الفصل الثاني

دوافع الحرب في المجتمع الجاهلي

طبيعة البدوي

قبل أن نخوض في بيان دوافع الحرب في العصر الجاهلي ، نود أن نبحث بشيء من التفصيل طبيعة هذا البدوي الجاهلي الذي كان فارس هذه الحروب ووقودها ومحركها ، وأن نبحث العوامل التي جعلته بهذه الطبيعة وهذا الخلق .

وكانت البيئة وما تميزت به من تباين وجفاف ، وحر قائظ وبرد قارس ، واتساع صحرائها من أول العوامل التي أثرت على هذا العربي وخلقه . وقد فرضت الصحراء على العرب أخلاقاً خاصة ، وألزمتهم بتقاليد لا يستطيعون عنها حولاً ، وصارت لهم على مرّ السنين جبلة وفطرة . [1]

وأول أثر من آثار الصحراء على العربي أنها جعلته قوي الشكيمة ، صعب المراس رفيقه سلاحه وفرسه ، يفزع إليهما لدفع عدوان المعتدي ، ويفزع عليهما ليكسب قوته ويحفظ عليه حياته ، كما يفزع إليهما ليتنقل من مكان إلى آخر طلباً للماء والكلأ . وفي الصحراء لاحياة إلا للقوة ، ولا احترام لقبيلة ولا لفرد إلا إذا كان قوياً ، إن كان قوياً هابته القبائل ، وإن كان ضعيفاً تكالبوا عليه . ومن هنا لم يقدس العربي شيئاً مثل تقديسه البطولة والشجاعة .

والعربي في هذه الصحراء الشاسعة ، والتي لم تنظمها حكومة مركزية واحدة قوية ، ينضمون تحت لوائها ويخضعون لها ، لم يجد شيئاً يحد من حريته الشخصية ، وإن حدّت تقاليد القبيلة حريته الإجتماعية ، إلا أنها لم تؤثر في حريته الشخصية ، له مطلق الحرية أن يقول ما يشاء وأن يفعل ما يشاء ، على ألا يصطدم ذلك بدستور القبيلة العرفي . ومع ذلك الخضوع

---

(١) الفتوة عند العرب ـ عمر الدسوقي ٢١ .

للقانون العرفي القبلي فلم يكن يخضع له دوماً ، وقد رأيناه يخرج على هذا القانون وينطلق إلى الصحراء بعد أن خلعته قبيلته ، ويتجمع في جماعات للإغارة والغزو، سميت **بالصعاليك**.

فالعربي في الجاهلية **محب للحرية** والحرية هي « الأمر الوحيد الذي اتفق أن يتمتع به » [1] في تلك البيئة المجدبة . وحبه للحرية جعله يأنف من الظلم ويأباه نفسه ويرفضه ، ليس رفضاً سلبياً ، بل يحاول أن يزيله ، ولقد لقي الكثير من سادات المجتمع الجاهلي مصرعهم على يد شعوبهم أو قبائلهم على الأصح ، فحُجْر قتلته أسد لظلمه ، وزهير بن جذيمة قتلته هوازن ، وكُلَيْب بن وائل قتلته بكر لأنه طغى وبغى .

وهذا التقديس للحرية جعله **لا يؤمن إلا بالمساواة** ، ودستور القبيلة العرفي قائم أساساً على هذه الفكرة ، فكل أبناء القبيلة يتساوون ، وحتى سيد القبيلة لم يكن يخاطب بألفاظ التبجيل والتفخيم ، ولا ينال احترامه إلا بما يقدمه للقبيلة ، وهو مثلهم يجلسون إليه ، ويناقشونه ، ويعدلون خططه ، ويبدون رأيهم في كل صغيرة وكبيرة .

والبدوي كان **يحب قبيلته** ، ويتفانى في إخلاصه لها ، والعمل على رفع شأنها وإعلاء كلمتها ، وتعصبه لها ، كل ذلك جعله « يتجاهل غيرها » ، ولا يعترف بحق الحياة أو الملكية أو المتعة لأحد سواها [2] وقاده هذا الإعتقاد إلى إهدار حقوق الآخرين واستباحتها لنفسه ما دام قوياً يملك القوة والفرصة المؤاتية ، وكان يرى أن القوة والقتل والغارات هي التي تجعل الآخرين يرهبون جانبه ويحسبون حسابه .

والبدوي في تلك البيئة التي لا تستقر على حال فترة طويلة ، جعلته **كريماً** يوقد النار ليلاً للضيف ليراها فيقبل نحوها ، وهو الذي يبيح كل ما هو ملك لغيره . وهذا ما جعل هذا التصرف يبدو متناقضاً مع تصرفه الثاني ، ولكنه في الحقيقة عندما يكرم فانه يكرم وهو حر لا يجبره أحد على ذلك ، ولأنه يعتقد أنه لا بد يوماً أن تقوده رحلته إلى مكان قفر فيجد من يكرمه ، ولأنه عندما يكرم فإن ذلك يجعله مشهوراً في المجتمع القبلي ، تتسامع به القبائل ، ويتغنى بكرمه الشعراء . وربما كان الشعور المشترك بضعفهم وعجزهم تجاه مشاق الطبيعة القاسية العنيدة أنشأ فيهم الإحساس بحاجة ماسة إلى تقديس الضيافة [3] .

والعربي **محب لنفسه وعشيرته** ، واتهمه البعض بالأنانية ، وحبه نفسه وعشيرته هذا جعله

(١) حضارة العرب ـ لوبون ٧٢ .
(٢) تاريخ الأدب الجاهلي ـ علي الجندي ١٠١ .
(٣) تاريخ العرب مطول ـ فيليب حتي ١/ ٣٢ .

يبالغ في فهم معنى الشرف ، « فالعصبية الجنسية ، والأثرة ، وحب الظهور ، والمبالغة في معنى الإباء والعزة والشرف » أوجدت فيهم الحمية الجاهلية فكانوا يثورون لأتفه الأسباب ، ويدخلون المعارك ، ويزهقون الأرواح في سرعة وتهور ، دون أدنى تفكير[1] » .

وكانت المرأة تحاط بسياج متين من القيود للمحافظة عليها وكانوا يحافظون على شرفها ، ويشرعون رماحهم بسببها . وقد بلغ الخوف على شرفها من عار يصيبهم ، أن وأدوها وهي في المهد حتى لا تجلب العار . وفي الحروب عندما كانت تسبى ، كان شعراء القبيلة التي سبت يتغنون بذلك مفتخرين على الأعداء ، يقول امرؤ القيس مخاطباً شهاب بن شداد بن ثعلبة :

إِنّـا تركنـا منـكمُ قتْلَى وجَرْ ... حـى وسَـبـايا كالسَّعالي
يمشِـين حولَ رحالِنا ... مُعْترفـاتٍ بجـوعٍ وهزال[2]

ويزعم مُسْهِر بن يزيد الحارثي أنه أخذ امرأة عامر بن الطفيل يوم فَيف الريح فيقول :

وكنـا إذا قَيْسِيَّةٌ دُهِيَتْ بنا ... جَـرَى دمعُهـا من عينهـا فتحدَّرا
مخافـةَ ما لاقـت حليلـةُ عامرٍ ... من الشرِّ إذ سرَّ بالهُـا قد تعفّرا[3]

وربما كان من المبالغة في المحافظة على العرض تزوج الرجل بزوجة أبيه بعد وفاته ونحو ذلك من العادات كانت تنم عن حرص ومبالغة في الحفاظ على الشرف .

واجتماع الفقر والحرية في تلك البيئة نشأ عنهما عدم احتمال الضيم والثورة لأتفه الأسباب[4] لأن العربي الذي حرم ترف العيش وضمان حصوله عليه بجهد قليل قد عُوِّض عن ذلك النقص بحساسية مفرطة ، فلا يكاد يتحمل أي ضيم أو أذى يلحق به ، أو يتخيل أنه سيلحق به .

وكانت القبائل في هذا المجتمع تتباهى وتتنافس في السيادة وضمان الحرية لأفرادها والسمعة اللائقة ، وأسهمت الأسواق والمواسم في هذا التباهي والتفاخر ، فأصبح الفرد منهم محباً للزهو ميالاً إلى المباهاة وحب الظهور ، فكان ذلك سلاحاً ذا حدّين ، فمن ناحية كان داعياً إلى تمجيد المثل العليا من صنع المعروف ، ومد يد العون ، وحماية الضعيف ، وقرى الضيف ، وحماية اللاجىء ، والدفاع عن الجار ، وغيرها من المثل التي قدّسها العربي في ذلك الوقت وافتخر بها ،

(١) تاريخ الأدب الجاهلي ـ علي الجندي ١٠٢ . (٢) ديوان امرىء القيس ٢١٠ .
(٣) العقد الفريد ٥/ ٢٣٦ . (٤) تاريخ النقائض ـ أحمد الشايب ٣٧ .

كان داعياً إلى تمجيدها لأنهم بتباهيهم بفعلها يدفعون الآخرين إلى الإسراع في عملها أو التحليّ بها . وهو من ناحية أخرى كان مدعاة لارتكاب بعض الحماقات التي ربما جرت إلى الويلات .

والبدوي محافظ على عهده ملتزم به ، ولو أدى به إلى أوخم العواقب ، ففي يوم شِعْب جَبَلة لقي جمعٌ تميم وحلفائها كَرب بن صَفْوان فقالوا : أين تذهب ، أتريد أن تنذر بنا بني عامر ؟ قال لا ، قالوا فأعطنا عهداً ، فأعطاهم ، فخلوا سبيله فمضى مسرعاً إلى عامر ، ولكنه أبى أن يخبرهم ، وقال لست فاعلاً ولكن إذا رحلت فأتوا منزلي فإن فيه الخبر .... الخ الخبر[1] وقصص الأيام مليئة بهذه الأخبار التي تحدث عن التزام البدوي في المحافظة على العهد (انظر قصة أبي مليل اليربوعي مع بكر حينما قتلت أخاه علقمة وأخذت عليه عهداً) [2] .

ولئن كانت قلة الماء وشدة الحر ومشقة السفر وآفة القحط كلها أعداء تآزرت على البدوي في أحواله العادية ، فإنها في الوقت نفسه ، إذا ما انتابه العدو أحلاف تقوم بمناصرته ونجدته ، فلا عجب إذا رأينا البدوي يندر أن يطأطىء رأسه تحت نير أجنبي [3] .

ويقول ولْ ديورانت في « قصة الحضارة » إن البدوي كان يحب الصحراء القاسية لأنه يتمتع بكامل حريته فيها ، وكان البدوي رحيماً وسفاكاً للدماء ، كريماً وبخيلاً غادراً وأميناً حذراً وشجاعاً ، ومهما يكن من فقره ، فإنه كان يواجه العالم بمهابة وأنفة ، يزهو بنقاء دمه ويولع بأن يضيف إلى اسمه سلسلة نسبه [4] .

ولكي يصبح هذا القول واضحاً نعقب بأن هذه الصفات المتناقضة التي جعلها صفات للبدوي ، إنما هي صفات لظروف مختلفة ، فهو كريم عندما يحس أن الكرم واجب ، وهو بخيل على الناس عندما يجد مبرراً في نفسه لهذا البخل ، وهو رحيم عندما يكون غير مظلوم وهو رحيم بأقاربه وذوي رحمه ، ولكنه سفاك للدم عندما يحس أنّ حماه قد استبيح أو أنه يحارب قبيلة ليثأر من هزيمتها له ولقومه ولسفكها دمهم . وأما الغدر فلم يكن إلا في مفهوم الحيلة والمفاجأة في الحروب ، وقد يلجأ إلى الغدر إذا كان موتوراً ، ولا يجد وسيلة للأخذ بثأره إلا بالغدر كما فعل الحارث بن ظالم المُرّي عندما قتل خالداً الكِلابيّ [5] ، وكانوا يعتبرون أن هذا الغدر ضرورة حربية .

---

(١) النقائض ٢/ ٦٦٠ . ٦٦٠ .

(٢) العقد الفريد ٥/ ١٩٠ .

(٣) تاريخ العرب مطول ـ فيليب حتي ١/ ٢٩ .

(٤) قصة الحضارة ـ ول ديورنت ١٣/١٣ .

(٥) انظر يوم رحرحان الثاني النقائض ١/ ٢٣٦ .

وعلى الرغم مما يتهم به البدوي من فردية وأنانية [1] ، فإن هذه الفردية تذوب في أغلب الأحيان أمام النزعة القبلية ويبدو التناقض الظاهري في خلق البدوي ، فهو على فرديته المسرفة لا يتردد في التضحية بحياته في سبيل الجماعة ، وهو ليس بتناقض ـ فيا نعتقد ـ لأن فرديته يتمسك بها ما دامت لا تؤثر في الجماعة ولا تضر ، فإذا ما تعارضت نبذها ، ولقد رأينا لقيطاً الإيادي الذي كان في بلاط كسرى كاتباً ، لا يتردد في إخبار قومه بما اعتزمه كسرى من غزوهم [2] ولم يفكر فيا سيعرض له من عقاب إذا ما علم كسرى ، كان كل همه أن ينقذ قومه بتحذيره إياهم .

ولم ينجُ هذا العربي من سهام المستشرقين الذين حاولوا أن ينالوا من كل ما يعتز به ، يقول ديفرجيه بعد أن ينعته بأنه جماع الأضداد « وليس بمستبعد أن يأخذ العربي المضياف جمل جاره طوعاً أو كرهاً ، ويصنع منه طعاماً ليمعن في إكرام ضيوفه ، والكرم أفضل فضائل الأعراب ، ويعده الأعراب أخص ما اتصفت به أمتهم » [3] .

ويقول رينان « ولم يظهر بأسها وبسالتها إلا بعد القرن السادس من الميلاد»[4] ويرد لوبون على ذلك قائلاً « إن هذا الرأي فاسد أول وهلة ، ولو لم نعلم شيئاً عن ماضي العرب ، فإن أمكن ظهور حضارة أمة ولغتها بغتة على مسرح التاريخ لا يكون هذا إلا نتيجة نضج بطيء . فلا يتم تطور الأشخاص والأمم إلا بالتدريج » [5] .

دوافع الحرب :

وقبل الخوض في دوافع الحرب في ذلك العصر ، نود أن نناقش رأياً لأحد الباحثين فيه « إن العربي لم يكن يحب الحرب » ، وهو يورد أدلة على قوله ، منها : « وصفهم لها بأنها جناية منكرة ، ولعنهم الحرب ومن تسبب فيها ، وتأوه الأبطال منها ، والتملص من مسؤوليتها ، والدعوة إلى السلم والصلح بين المتنازعين ، وأما ادعاؤهم في الشعر بأنهم أبناء حرب فإن ذلك من قبيل الفخر » [6] .

وهذا القول خطير لو أخذناه على عواهنه دون مناقشته وتوضيح ما قصده قائله ، أو ما كان يقصده ولم يصرح به ، لأننا لو سلمنا بذلك ، فكيف نعلل الحروب الدامية التي دامت قرابة

(١) انظر بلاشير ١/ ٣٣ ، وفيليب حتي ١/ ٣٥ .
(٢) النقائض ١/ ٣٠٥ .
(٣) حضارة العرب لوبون ٧٢ .
(٤، ٥) المرجع نفسه ٨٧.
(٦) شعر الحرب في العصر الجاهلي ـ علي الجندي ٤٣١ .

قرنين من الزمان وأتت على الأخضر واليابس ، كيف نعللها إذا كان العربي لا يحب الحرب وهو الذي خاضها ، المنتصر منه والمنهزم ؟

فالجزيرة العربية لم تقدس شيئاً كما قدست القوة ، وكانت تنظر إلى الفارس نظرة ملؤها الإكبار ، فهو حاميها وقت القتال ، وهو الذي يضمن لحماها العزة . وكانت القوة معناها أنهم أحياء يستطيعون أن يجدوا مكاناً في تلك الجزيرة التي تحولت إلى ما يشبه ساحة حرب كبيرة تقتتل فيها العشائر والقبائل ، وفي كل جانب يتصارع الأبطال وتشهر السيوف وتلمع الرماح وتصوب النبال وتدق الأعناق وتسيل الدماء [1] .

ولم تكن القبيلة ترضى بأن تسوّد الجبان ، كانت ترضى أن تسوّد صغير السن أو الب خيل ، ولكنها لم ترضَ أن تسوّد الجبان ، فقبيلة عامر حينما علمت أن عامر بن الطُفَيْل قد استأسر لزيد الخيل دون قتال ، فجز هذا ناصيته وأطلق سراحه أنبته وأنكرت سيادته ، ولم تعد إلى الإعتراف بها إلا مكرهة بعد لأي [2] ، وهي التي كانت قد سودته لشجاعته وهو البخيل القليل العطاء ، الظالم الجافي الطبع المتكبر ، ومع ذلك فقد سودته لشجاعته وإقدامه .

وأغلب الظن أن العربي كان يحب السلم ويكره الحرب لو لم يكن في عصر له ظروفه الخاصة ، لا حكومة مركزية تحفظ الأمن ، ولا خيرات تكفي أهل الجزيرة ، وعندما وصف العربي الحرب بأنها جناية منكرة ، فقد وصف الحرب عندما تكون بين حين تربطهما صلة الرحم كتلك التي نشبت بين عبس وذبيان ، أو التي نشبت بين بكر وتغلب ، أو بين الأوس والخزرج ، وعندما كانوا يلعنونها فإنهم كانوا يفعلون ذلك بعد أن تعركهم عرك الرحى بثفالها ، أما في بدايتها فقد كانت العصبية تدفعهم إلى اقتحام الأهوال ولم نسمع في الشعر الجاهلي الدعوة إلى السلم والصلح بين المتنازعين إلا من زهير بن أبي سُلْمَى ، والنابغة الذبياني وقليلين غيرهما وسط ذلك المجتمع المترامي الأطراف فهي أصوات خافتة لم تبلغ الآذان والقلوب وسط قعقعة السيوف .

وإذا سلّمنا بأن ما قالوه في شعرهم من وصف للحروب ، ومن فخر بشجاعتهم هو مجرد إدّعاء لا يستند إلى واقع فإننا بذلك نلغي واقعية هذا الشعر وصدقه .

دوافع الحرب في العصر الجاهلي

كانت حياة العرب في العصر الجاهلي حياة دامية حمراء لا تهدأ نارها ، ولا تخمد أوارها ، وكانت القبائل في حركتها الدائبة المستمرة من أجل العيش والماء والسيادة لا تكاد تنفض أيديها من

(١) البطولة في الشعر العربي - شوقي ضيف ١٧ .
(٢) الشعراء الفرسان - بطرس البستاني ١١ .

وقعة من الوقائع حتى تغبّرها في وقعة أخرى ، وبحق كانت حياة القبائل العربية في العصر الجاهلي حروباً وأياماً مستمرة ، وكأنما أصبحت الحرب سنة من سنن الحياة الجاهلية وشريعة مقدسة يحققون بها الحياة في هذا المجتمع الذي تسيطر عليه القوة وتتحكم فيه . وفي ظل هذه الحياة الدامية الحمراء قامت العلاقات بين القبائل على أساس مجموعة من القوانين : **أهمها قانون العصبية وقانون الثأر** . وفي ظل هذين القانونين اللذين أخذا في نفوس العرب الجاهليين صفة القداسة اصطبغت حياتهم بالدم وسيطرت عليها روح الخصام والقتال . فالقبائل مؤمنة بعصبيتها القبلية إيماناً راسخاً ، وهي في سبيل هذا الإيمان لا تفرط في أي حق من حقوقها ، وهي مؤمنة أيضاً بأن دماء أبنائها يجب ألا تطلّ ، وإنما يجب أن يؤخذ بثأرها حتى تهدأ الأرواح المحمومة حول الأحداث في رقدتها الأبدية .

وأرى في بداية الحديث عن دوافع الحرب وقبل أن نخرج بالصورة النهائية لهذه الدوافع أن أنبه إلى أمرين :

أولهما : أن الدافع للحرب ربما كانت له جذور عميقة ، وإن بدا السبب المباشر تافهاً .

وثانيهما : أنه ربما اجتمع أكثر من عامل على إشعال نار الحرب بين قبيلتين . وبعد ذلك أرى أن أعرض لمختلف آراء الباحثين في دوافع هذه الحروب ، وبعد ذلك نخرج بالدوافع العامة لهذه الأيام .

فجورجي زيدان [1] يرد سبب الحروب والتنازع فيما بين القبائل إلى ضعف سلطة اليمن « واستقلال عرب الحجاز ونجد من سيطرتها هاج شاعريتهم وأيقظ ما فُطروا عليه من عزة النفس وإباء الضيم ، فأخذوا يختلفون فيما بينهم لأن سيطرة اليمن قد جمعتهم قيودها ، فلما أُطلق سراحهم تنازعوا ، فجرت بينهم حروب . . . » .

وفيليب حتي : [2] يخالف الذين دونوا أخبار الأيام وسعيهم إلى إبراز الدوافع التي أدت إليها ، وتعزيزهم أمر العداوة الدموية ، ويرى « أن كثيراً من هذه الحوادث بلا ريب بعثتها عوامل إقتصادية بحتة » ويرى في الأيام » منفذاً للتخلص من شر ازدحام السكان » .

وبلاشير [3] يرد عوامل اللجوء إلى القوة في ذلك العهد إلى عاملين : تأمين العيش وأخذ الثأر .

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ـ زيدان ١/ ٧١ .
(٢) تاريخ العرب مطول ـ فيليب حتي ١/ ٣٤ .
(٣) تاريخ الأدب العربي ـ بلاشير ١/ ٤٠ .

والحرب عند العربي في ذلك الوقت كانت دفعاً للملل الحياة الرتيبة وسأمتها يدفعها بالحب والحرب ، وهذا رأي ول ديورانت مؤلف قصة الحضارة .[١]

ودافع الحرب عند العربي في رأي « علي مظهر »[٢] هو العصبية ، لأن الكلمة يفهم منها المحاباة دون مراعاة لمصلحة المجموع ، وكثيراً ما يكون هذا الحب أو تلك المساعدة ضد مصالح الآخرين . لهذا السبب قضى سكان الجزيرة حياتهم يحارب بعضهم بعضاً منشقين على أنفسهم .

أما جواد علي[٣] فيرى أن الغالب على الأيام التي وقعت بين القحطانية والعدنانية « طابع التخلص من سيطرة اليمن ومن نفوذها على العدنانية » ويرى أن أكثر أسباب هذه الأيام هو « عسف حكام القبائل القوية في القبائل الضعيفة التابعة لأولئك الحكام بسبب الأتاوة ، أو بسبب نزاع على ماء ، أو مرعى أو أخذ لثأر ، أو محاولة للتخلص من حكم القبائل على القبيلة بظهور شخصية قوية فيها .

ويشير البهبيتي[٤] بأصابع الإتهام إلى ملوك الحيرة الذين كانوا وراء كل خلاف يقع بين القبائل العربية ، فالقبائل تلتقي وتفترق في هذا السبيل ، والدماء تجري والموت يبتلع الناس ابتلاعاً ، كل ذلك تدفع إليه سياسة التفرقة التي كان يركبها إذ ذاك هؤلاء الملوك ، ولا يكاد يفلت من ذلك يوم واحد من أيام العرب قبل الإسلام .

أما أحمد الشايب[٥] فيرى أن «البداوة الفقيرة قد أدت إلى ظاهرتين طبيعيتين : الفقر الحسي والعلمي ، والغنى النفسي والتشبث بالحرية إلى أبعد الآماد لأنه يرفض الفقرين المادي والنفسي . وقد نشأ عن هذا الفقر المادي والحرية والمسؤولية المشتركة بين أفراد القبيلة عدم إحتمال الضيم ، كما نشأ عنها الثورة لأقل الأسباب والعمل على إشاعة رهبة القبيلة بين القبائل» .

ويرد التنافس في موضع آخر بين القبائل في الجاهلية إلى عاملين رئيسيين : « مادي يتمثل في طمع في إبل أو مرعى أو بئر أو فرس أو متاع ما ، وأدبيّ يتمثل في رغبة في رياسة ، أو أخذ بثأر ،

---

(١) قصة الحضارة - ول ديورانت ١٣/ ١٢ .
(٢) العصبية - علي مظهر ٦ - ٧
(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام - جواد علي ٤/ ٣٤٧ .
(٤) تاريخ الشعر العربي - البهبيتي ٣١ .
(٥) النقائض - أحمد الشايب ٣٦ ، تاريخ الشعر السياسي - أحمد الشايب ٤٦ .

أو اعتزاز بنفس، أو مفاخرة بقوة، أو غضب لجار أهين أو عهد نقض، أو مجاراة لسفيه.

وفي موضع ثالث نراه يلخص الأسباب المباشرة للأيام بالطمع والرغبة في النهب والسبي ، والغضب للكرامة والشرف ، والوشايات والعوامل السياسية ، والملاحاة والمراء الذي يوغر الصدور ، وحماية الجار والنجدة لصديق أو حليف أو قريب وفي سبيل الفقراء ، والثأر ، وفي سبيل النفوذ الخارجي ، ولرفع الضيم والتشبث بالحرية ، ومن أجل الرياسة وزعامة القبائل ، وحماية اللطائم [1] .

وهو يرى أن الحرب كانت « ضرورة للحصول على العيش ، كما كانت ضرورة لتحقيق الحرية والكرامة ، ثم صارت غاية يفخر بها الشيوخ والشبان » [2] .

وأكثر حروبهم - كما يرى الدكتور **شوقي ضيف** [3] - « كان » يجرها نزاع بعض الأفراد في قبيلتين مختلفتين ، إما بسبب قتل أو بسبب إهانة ، أو بسبب اختلاف على حد من الحدود » .

ويتحدث الدكتور **عبد الحميد يونس** عن حروب عامر في « الهلالية » ويستطرد فيذكر أن أغلب الأيام كانت تدور على التناحر على البقاء بصورة من الصور » [4] .

وأسباب الأيام عند **بطرس البستاني** « النهب والسلب ، أو التزاحم على الماء والكلأ ، ومنها ما كان يحدث لأسباب تافهة تدعو إليها عنجهية البدوي كحرب البسوس وقلما وقعت لدفع عدو غريب كيوم ذي قار وحروب اليمن والأحباش»[5] .

ويراها **محمد دروزه** تقع لأسباب « حلفية أو شخصية أو نسائية أو نتيجة لغارات يشنها بعضهم على بعض » [6] .

ويحصيها الدكتور **زكي المحاسني** فيجدها «النعم والمال، والحفاظ على الشرف وإجارة المستجير، والشهوة والزعامة وحب التسلط، للدفاع عن كرامة المرأة، وبسبب المال الذي قد يكون ستراً تنفذ منه أحقاد الصدور كحرب البسوس»[7] .

---

(١) النقائض - أحمد الشايب ٦٣ - ٦٤ .
(٢) المرجع السابق ٣٨ .
(٣) العصر الجاهلي - شوقي ضيف ٦٣ .
(٤) الهلالية - عبد الحميد يونس ٢٢ .
(٥) الشعراء الفرسان - بطرس البستاني ٢٠ .
(٦) تاريخ الجنس العربي - محمد دروزة ٥/ ١٥٣ .
(٧) شعر الحرب في أدب العرب - زكي المحاسني ٢٧ .

والسبب الرئيسي لهذه الأيام - عند الدكتور علي الجندي - عدم وجود سلطة مركزية قوية يخضع لها العرب جميعاً ، وقد عبر النابغة عن ذلك :

تعدو الذئابُ على مَنْ لا كِلابَ لهُ ... وتتقي صولةَ المُستأسِدِ الضاري[1]

وزهير يعبر عن المعنى ذاته :

ومَنْ لمْ يذد عن حوضـه بسلاحِهِ ... يُهَدَّمْ ومَنْ لا يَظْلِمِ الناسَ يُظْلَمِ[2]

ويضيف إلى هذا السبب الأساسي أسباباً أخرى منها : « الصراع بين العدنانية والقحطانية ، والصراع بين أهل البدو والحضر ، والتسابق على منابت الكلأ ، والرغبة في التوسع »[3] .

ودوافع الحرب عند **شاكر الجودي** «قلة الخيرات في شبه الجزيرة التي أشاعت الفقر بين سكان الجزيرة ، ولعل هذا الفقر كان أهم أسباب الغارات والحروب ، يلجأ إليها البدوي حين لا يجد وسيلة غيرها لسد حاجته ، ولعل هذا الفقر أيضا هو الذي جعل الحياة هنيئة يبذلها من أجل الحصول على أتفه المكاسب . . .» ويضيف سبباً آخر هو:

« انقسام العرب إلى قحطانيين وعدنانيين وانقسام كل منها إلى قبائل ، وكل منهـا يريد الغلبة لنفسه »[4] .

ويردها الدكتور **عمر فروخ**[5] إلى ثلاثة عوامل رئيسية : إقتصادية ويمثـل لها بحـرب البسوس ، وسياسية ويمثل لها بحروب الأوس والخزرج ، وأجنبية ويمثل لها بعين أباغ وحَليمة .

وتتمثل عند الدكتور **إحسان النص**[6] في أربعة أسباب : بدافع الحاجة والفقـر وسـوء الأحوال المعيشية في بلاد العرب ، وبدافع الثأر والإنتقام ، وبدافـع الغضب لشرف القبيلـة وسمعتها وكرامتها ، وبدافع المفاخرات القبلية .

وقبل أن ننسق هذه الآراء في دوافع كلية نود أن نشير إلى أن طبيعة البدوي وخلقه ، وسرعة انفعاله بحكم عوامل بيئية أثرت فيه كانت وراء هذه الأيام ولو احتكم إلى عقله لمنع الكثير من هذه الوقائع . كما أننا نرفض الرأي القائل بأن العربي كان يلجأ إلى الحرب دفعاً للسأم والملل . فلم يكن العربي في جاهليته إلا إنساناً متحركاً لا يكاد يستقر ، وكان يجد الكثير مما يفعله من أجل

(١) ديوان النابغة .

(٢) شرح القصائد السبع الطوال ٢٨٥ .

(٣) شعر الحرب في العصر الجاهلي - علي الجندي ١٧ .

(٤) الملمة بالرجز - شاكر الجودي ٣٠ - ٣٢ .

(٥) حضارة العرب - عمر فروخ ٥٨ .

(٦) العصبية - إحسان النص ١٤٨ .

تأمين عيشه وعيش أسرته . كما نرفض الرأي القائل بأن ملوك الحيرة وراء كل يوم من أيام العرب في الجاهلية لأنثابيّنا في الفصل الأول أن الحيرة لم يكن لها من النفوذ ما يجعلها وراء كل يوم ، حقاً كانوا وراء بعض الأيام ، يدفعون القبائل لمقاتلة بعضها بعضاً تحقيقاً لمآربهم ، ويجردون الحملات أحياناً لتأديب بعض القبائل التي تعترضهم أو تعترض نفوذهم ومصالحهم . كما أن عدم وجود سلطة مركزية تحفظ الأمن كان من دوافع هذه الحروب » .

وبإمكاننا أن نقرر الآن الدوافع الأساسية للحرب من خلال عرضنا السابق وهي : العصبية القبلية وما يلحق بها من تبعات ، والأخذ بالثأر ، والصراع على أسباب الحياة ، والصراع على مناطق الحدود والصراع حول تقاليد المجتمع القبلي ، والتمرد على سلطة الممالك المجاورة .

العصبية القبلية :

العصبية هي أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته ، والتألب معهم ، على من يناوئهم ظالمين كانوا أو مظلومين ، ومنها نفهم التزام كل فرد بالوقوف إلى جانب أي فرد من القبيلة في جميع الأحوال ، فهو تعصب أعمى ، يقود إلى الكوارث ، وإلى الحروب . وكثيراً ما كان الفرد يرتكب خطأً في حق فرد من قبيلة أخرى فتناصره قبيلته ظلماً مما يؤدي إلى نشوب الحرب بين القبيلتين . لقد هجا بشرُ بن خازم الأسديّ أوساً بن حارثة الطائيّ طمعاً في مال أُعطي له من خصومه ، وطلبه أوس ولجأ بشر إلى قومه بني أسد فكان يوم ظَهْر الدَّهناء . [1]

والعصبية تعني الميل والمحاباة ، وكثيراً ما تكون هذه المحاباة ضد مصالح الآخرين ، لذا يحدث الصدام ، ففي يوم سَفَوان [2] التقت بنو مازن وبنو شيبان على ماء يقال له سَفَوان ، فزعمت بنو شيبان أنه لهم ، وأرادوا إجلاء تميم عنه ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فظهرت عليهم بنو تميم . وفي حرب البسوس كان من أسبابها الرئيسية أن كليباً كان قد اختص نفسه بامتيازات ، وحمى موارد المياه والمراعي ومنع بكراً من ارتيادها ، وقصرها على نفسه وقومه ، فشق ذلك على جساس وإخوته ، وكانت قصة ناقة خالة جساس الشرارة التي أشعلت نار الحرب . [3]

---

(1) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٢٦ .

(2) العقد الفريد ٥/ ٢٠١ .

(3) مجمع الأمثال ٢/ ٥٣٥ ، أمثال الضبي ٥٦ .

* تبين لي بأدلة أحاول توثيقها أن الحيرة والغساسنة واليمن والفرس واليهود في يثرب كانوا وراء كثير من الأيام الجاهلية ، وهذا ما قد أعرض له في بحث مستقل إن استطعت توثيقه بالنصوص والأدلة . أمّا ما أثبتّ هنا فهو رأيي حتى الساعة .

والعصبية تعني تفوق الجنس او النسب الذي تنتمي إليه القبيلة على الأنساب الأخرى ، وهذا الإحساس بالتفوق جعلهم يفخرون به ، ويحطون من شأن غيرهم وكثيراً ما جرت هذه المفاخرات القبلية النابعة من إحساس الفرد بأن نسبه لا يَعْدِلُه نسب . ففي يوم الفِجار الأول جلس بَدْر بن مَعْشَر الكناني في سوق عكاظ ، ومدَّ رِجْلَه وقال : أنا أعز العرب فمن زعم أنه أعز مني فليضربها ، فضربها الأُحَيْمِر بن مازن من هوازن قائلاً له : خذها إليك أيها المخندف .

وتحاور الحيان عند ذلك حتى كاد أن يكون بينهما الدماء ، ثم تراجعوا [١] .

وفي يوم طِخْفَة الذي كان سببه أن الردافة كانت لبني يربوع ، فسأل حاجب بن زُرارة النعمان أن يجعلها للحارث بن قرط بن سفيان بن مجاشع ، وسألها النعمان بني يربوع ، فأبـوا عليه قائلين له : إن بني يربوع لا يُسلمون ردافتهم إلى غيرهم ، وأرسل إليهم النعمان جيشاً فهزموه وأسروا ابنه قابوساً وكذا أخاه حسّان بن المنذر [٢] .

والعصبية تدعو كل فرد في القبيلة أن يهب لدفع كل عدو غريب عن القبيلة يحاول النيل منها ، أوظلمها أو انتقاص حقها . والوقائع التي حدثت بسبب هذا كثيرة ، ففي يوم جُحْر ثارت أسد على جُحْر الكندي وقتلته غير آبهة بقوة مملكته ، ولا بما سيحل بها [٣] . وعندمـا وجـدت هوازن الفرصة مؤاتية لها نراها تفتك بزهير بن جذيمة العبسي [٤] ، بل إنهم لا يأبهون بالملوك إن حاولوا النيل منهم ، وما فعلهُ عمرو بن كُلثوم بعمرو بن هند بخافية على أحد [٥] .. وهذا البراض الكناني لا يرضيه أن يسمع عُروة الرحّال يزعم أنه سيحمي لطيمة الملك في أرض الجزيرة حتى تصل سالمة فيتربص به حتى يقتله مثيراً بذلك حروب الفِجار . [٦]

ونستطيع أن نقول إن يوم ذي قار قد عملت العصبية عملها بتمسك بني شيبان خاصة وبكر عامة بحلقة النعمان ورفضهم تسليمها ، كما فسروا تهديد كسرى لهم ، بأنه محاولة للنيل منهم وظلمهم ، وحد من حريتهم ، لذا نجدهـم قد رفضـوا الشروط التي عرضهـا كسرى عليهم ، حملها إليهم النعمان بن زرعة التغلبي ، واعتبروها مساساً بحريتهم ، وأن تنفيذها يجلب لهم العار بين القبائل .

والعصبية القبلية تفرض على أبناء القبيلة حماية من التجأ إليهم ، وتطلب إليهم أن يهبوا

(١) العقد الفريد ٥/ ٢٥١ .
(٢) العقد الفريد ٥/ ٢٣٤ ، الكامل لابن الاثير ١/ ٦٤٩ .
(٣) الكامل لابن الأثير ١/ ٥١١ - ٥٢٠ . (٤) العقد الفريد ٥/ ١٣٥ .
(٥) شرح القصائد السبع الطوال ٣٦٩ . (٦) العقد الفريد ٥/ ٢٥٣ .

غاضبين إن رأوا جارهم أهين ، بل نراهم يبالغون في إكرامهم فيرفضون نصف الدية له إن قُتِل كما كان العرف الجاهلي يقضي ، فحرب سُمَيْر بين الأوس والخزرج كان سببها المباشر أن رجلاً من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان يقال له « كعب بن العَجْلان » نزل على مالك بن العَجلان السالمي الخزرجي فقتله الأوسي بسبب مفاخرة ، فأرسل مالك الخزرجي إلى بني عمرو بن نوف يطلب قاتله ، فأجابوه بأنهم لا يدرون من قتله ، وعرضوا عليه الدية فطلب دية كاملة ، ولج الأمر بينهم حتى آل إلى المحاربة ، فاقتتلوا وظفرت الأوس . ثم حكموا فيا بينهم المنذر بن حرام النجاري الخزرجي وانتهى الأمر[1] . والبسوس خالة جسّاس ، عندما قتل كليب ناقتها «سراب» وصاحت وطلبت من بني بكر حمايتها وحماية ما تملك وهبّ جساس ليأخذ بثأر جارته وخالته ، فكان مقتل كليب ، وكانت حرب البسوس .[2]

والعربي يحمي حماه ، ولكنه يستبيح حمى غيره إن وجد لديه القوة ، ووجد الضعف عند جيرانه . وهذا ما دعاه إلى التوسع ، وكانت كل قبيلة تسعى إلى توسيع رقعتها كلما وسعها ذلك . واستباحة حمى الغير لم تكن إلا بهدف الحصول على ما بها من مزايا لا يجدها في حماه ، كالكلأ والماء ، لأن العربي لم يكن يعنيه التوسع إلا من هذه الزاوية . ونستطيع أن نعد حروب بكر وتميم في غالبيتها من هذا القبيل ، فقد كانت أرض تميم أخصب مما جعلها هدفاً لفرسان بكر وغاراتهم . كما نجد هذه الظاهرة في حروب الخزرج والأوس حيث طمع الخزرج في منازل بني قريظة ، فهددوهم بقتل رهنهم أو إخلاء ديارهم [3] وكانت قريظة والنضير قد قبلوا محالفة الأوس ضد الخزرج في يوم الفجار الثاني .

والحفاظ على الشرف ممثلاً في المرأة شيء مقدس لدى أفراد القبيلة ، ولذا فإننا نجد أفراد القبيلة يهبون جميعاً حينا يتعرض أحد لإحدى نساء القبيلة ، محاولاً النيل من شرفها ، ففي يوم الفجار الثاني كان الذي هاجه أن فتية من قريش قعدوا إلى امرأة من بني عامر بن صعصعة بسوق عكاظ ، وكانت وضيئة حُسّانة ، فسألوها أن تسفر لهم عن وجهها ، فأبت عليهم ، فأتى أحدهم من خلفها فشد دبر درعها بشوكة إلى ظهرها ، فلما قامت تقلص الدرع عن دبرها . فضحكوا وقالوا : منعتنا النظر إلى وجهها فقد رأينا دبرها ، فنادت المرأة : يا لعامر . فتحاور الناس ، وكان بينهم قتال ودماء يسيرة فحملها حرب بن أمية [4] ويروي صاحب الأغاني خبراً عن أبي عبيدة مضمونه أن عجوزاً من هوازن أتت زهير بن جذيمة العبسي ، وكانت هوازن تدفع لزهير

---

(١) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٥٨ ـ ٦٥٩ .

(٢) أمثال الضبي ٥٥ . (٣) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٧٨ .

(٤) العقد الفريد ٥/ ٢٥٢ ، العمدة لابن رشيق ٢/ ٢١٨ ، الأغاني/ ثقافة ٢٢/ ٦٢ .

إتاوة كل عام، بسمن في نِحي، فاعتذرت إليه، وشكت السنين التي تتابعن على الناس فذاقه فلم يرض طعمه ، فدعًّها بقوس في يده عطل في صدرها ، فاستلقت لحلاوة القفا فبدت عورتها ، فغضبت من ذلك هوازن ، وحقدت عليه إلى أن قتله خالد بن جعفر بن كلاب [1] ويعود شأسُ بن زهير من عند النعمان بن المنذر ، وينزع ملابسه ليغتسل بالقرب من بيت رياح ابن الأسل الغَنَويّ ، ويطلب منه رياح أن يستتر لأنه بين البيوت وامرأة رياح تنظر إليه فيرميه رياح فيقتله [2] .

والحرية الشخصية من أثر العصبية القبلية ، تلك الحرية التي أشاعت الفوضى وجعلت الغلبة للقوة والبطش ، والسيادة للظلم والطغيان . ولم تكن القوة لتكفي بل لا بد من ممارستها حتى يعترف الناس بقوته ، وينبغي أن يظلم الناس حتى لا يظلموه :

ومـن لا يَذُدْ عن حَوْضِه بسلاحه ... يُهدَّمْ ومَنْ لا يظلم الناسَ يُظْلَم [3]

والحرية الشخصية هي التي أباحت للبراض الكناني قتل سيد عامر عروة الرحال ، وجنى ثمار هذه الفعلة كل من الحيين كنانة وهوازن أسوأ ما يكون الجني ، قتل وفوضى وانتهاك للأشهر الحرم . [4] وهي نفسها التي أباحت لجساس بن مرة البكريّ أن يقتل سيد بكر وتغلب ، كليباً ، زوج أخته ، دون الرجوع إلى والده ورئيس بكر ودون استشارة أحد ، فكان أن فر وحمل قومه وأبناء عمومته دماء بريئة وحرباً دامت أربعين سنة [5] وهي نفسها التي جعلت وَرْداً العبسيَّ يراهن حُذَيْفة بن بَدْر الفزاري على فرسي قيس بن زهير ، وقيس حينئذ بمكة ، ولم يرضَ حذيفة أن يلغي الرهان عندما عاد قيس ، وكان أن جر ذلك الرهان الشؤم والويلات للحيين ، وأهرقت الدماء من كلا الجانبين [6] .

فالحرية الشخصية كانت تعطي الحق للفرد في القبيلة أن يتصرف أحياناً تصرفاً بعيد الأثر في مستقبل علاقات القبيلة ووحدتها ووجودها .

وقد مر بنا أن **الرياسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية** ، لأن الرياسة لا تكون إلا بالغلب ، والغلب إنما يكون بالعصبية . ولهذا نرى القبائل التي تنتمي لأصل واحد تخضع لرئيسها ما دامت عصبية هذا الرئيس قوية ، وتبقى خاضعة ولكنها تتربص به ، حتى إذا

---

(1) الأغاني/ كتب ١١/ ٨٣ .

(2) المصدر السابق ص ٩١ . (3) شرح القصائد السبع الطوال ٢٨٥ .

(4) العقد الفريد ٥/ ٢٥٣ ، الأغاني/ ثقافة ٢٢/ ٦٣ .

(5) مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٥٢٩ . (6) الكامل لابن الأثير ١/ ٥٧٠ .

ما وجدت مخرجاً للاستقلال عنه ، أو انتزاع السيطرة والسلطة منه ، ثارت عليه أو حاربته ، لتحقق لنفسها الرياسة ، والأسباب الحقيقية لحروب الأوس والخزرج من هذا النوع ، فالأوس والخزرج قبيلتان من أصل واحد ، كانت السيادة للخزرج فنفستها عليه الأوس ، ومن هنا نشبت الحروب بين القبيلتين متذرعة بأسباب ظاهرية .

وحرب داحس والغبراء نجد فيها كذلك صراعاً على الرياسة ، فقد كان زهير بن جذيمة زعيم غطفان ، وامتد نفوذه إلى هوازن ، ثم قتل ، وخلفه على زعامة عبس قيس بن زهير ، وحاول أن يكون زعيماً كأبيه على عبس وذبيان ، فتصدت له فزارة بزعامة حذيفة وإخوته وكان الرهان بداية الحرب الطويلة الطاحنة في سبيل الزعامة ، ولم يكن هو السبب الوحيد للحرب ، بل كان الشرارة .

وقد يكون التنافس على الرياسة ، داخل القبيلة الواحدة ، بين بطونها . ففي حروب الأوس والخزرج كان زعيم الخزرج عَمْرو بن النعمان البَياضيّ الخزرجيّ ، وكان المنافس الرئيسي له من قومه عبدالله بن أُبيّ بن سلول ، وقد ظهر الخلاف بينهما واضحاً يوم الفِجار الثاني للأنصار حينما لم يقره على فعلته بالرهائن اليهود ونهاه عن قتلهم ، وقتال الأوس وقال له : كأني بك وقد حملت قتيلاً في عباءة يحملك أربعة رجال «ولم يقتل ابن أُبيّ هو وقومه أحداً من الغلمان وأطلقوهم»[1] .

وحدث مثل هذا بين ابني وائل ، بكر وتغلب ، فلقد كان كليب رئيس القبيلتين وقادهما في حروبهما وحقق لهما الكرامة والسيادة بين قبائل معد . ثم حدث أن بدأ أبناء عمومته وأصهاره أبناء مرة وعلى رأسهم جساس يحسدونه على مركزه وانتهز فرصته للفتك به متذرعاً بأنه بغى وظلمهم وحمى المراعي الخصبة والمياه فقتله جساس ، وكان مقتله بداية حرب ضروس فتكت بالقبيلتين ، فقتلت زعماءهما ، وشردت تغلب بعيدة عن منازلها بعد هزيمة في يوم قِضة ، وباعدت بين منازلها ، ومات قائد تغلب وزعيمها بعيداً عن قبيلته في الأسر .

الثـــأر :

وهو أثر هام من آثار العصبية ، وهو ظاهرة إجتماعية خطرة ، يبدأ في الغالب بحادثة فردية تجر إلى حرب بين جماعتين أو أكثر ، وتجر هذه الحرب حروباً أخرى للأخذ بالثأر لقتلى الحرب السابقة وهكذا . ولا تخمد نار الحرب إلا عندما يتقدم سيد من سادات إحدى القبيلتين ويتحمل ديات القوم ، وقد يفعل ذلك منذ أول وقعة .

---

(١) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٧٨ - ٦٨٠ .

ففي بداية حرب داحس عندما قتل مالك بن حذيفة ، قتلته عبس ، حمل الربيع بن زياد العبسي ، ديته وكان مجاوراً لفزارة ، وقد فعل ذلك حقناً للدماء ، ولكن فزارة قتلت مالك بن زهير بعد أخذهم الدية فاشتعلت الحرب من جديد [1] .

وفي حروب الفجار ، وبعد أن ملّ الفريقان الحرب ، تراضوا بأن يعدوا القتلى ، فيدوا من فضل ، فكان الفضل لقيس على قريش وكنانة ، وكان الفضل عشرين قتيلاً من هوازن ، فوداهم حَرْبُ بن أمية فيما تروي قريش . [2]

وبعد أن أنهكت الحرب قبائل غطفان ، رجع الربيع بن زياد إلى بني ذبيان ومعه قومه ، واصطلح الحيان ، وتحمل الحارث بن عوف وخارجة بن سنان ، وحصن بن حذيفة الديات [3] .

وذهب بعضهم إلى أن اللجوء إلى القوة في ذلك العصر كان يعود إلى عاملين ، أحدهما الأخذ بالثأر [4] . وفي حالات الثأر لا شيء يعوق العربي ، فهو عنده شيء لا يتهاون فيه . ويجدر بالقبيلة الموتورة أن تبقى في حالة حرب مع القبيلة الواترة حتى تأخذ بثأرها ، وأن تحرم على نفسها ما يحرمه العربي على نفسه في حالات الثأر ، ففي يوم الفيْفاء حرم بنو الشَّريد النساءَ والدهن على أنفسهم حتى يدركوا بثأرهم من بني كنانة [5] .

وفي حرب البسوس التي بدأت بمقتل كليب ، وهبَّ مهلهل أخوه بعدها للأخذ بالثأر ، ولم يتوقف عند حد ، فاكتوت القبيلتان بنيرانها أربعين عاماً [6] .

وعندما قتل البراض الكناني عروة الرحال هبت هوازن كلها للأخذ بثأره وكانت حروب الفجار .

وفي يوم أوارة الثاني ، قيل فيه إن المنذر بن ماء السماء وضع ابناً له عند زُرارة بن عُدُس التميمي ، فخرج يتصيد ذات يوم ، فأخفق ، فرجع فمر بإبل لسُوَيد بن ربيعة الدارمي ، فأمر بناقة سمينة منها فنحرها ، وسويد نائم ، فلما انتبه شد على ابن المنذر فقتله ، وخرج هارباً حتى لحق بمكة ، وجرد المنذر لهم حملة وقتل منهم عند جبل أوارة تسعة وتسعين بذلك الغلام [7] .

(1) الأغاني/ ثقافة ١٧/ ١٣٣ .
(2) الأغاني/ ثقافة ٢٢/ ٧٨ ، ٧٩ .
(3) أمثال الضبي ٤١ .
(4) تاريخ الأدب العربي - بلاشير ٤٠ .
(5) العقد الفريد ٥/ ١٧٦ .
(6) النقائض ١/ ١٠٨ .
(7) الأغاني/ ثقافة ٢٢/ ١٩٢ وفي بعض الروايات انه ابن لعمرو بن هند .

وفي يوم مَنْعِج كان قد قُتِلَ شَأسُ بن زهير، قتله رياح بن الأسل الغنوي، فغزت بنو عبس غنياً قبل أن يطلبوا قوداً أو دية، ونصحت غني رياحاً بالهرب لعلهم يصالحوا القوم على شيء.

وكانت حالة الثأر الفردي تجر إلى حرب، وهذه الحرب تجر إلى أخرى، وهكذا تتعاقب الحروب، لأن كل حرب تخلف قتلى من الفريقين، غير متساوي العدد، فتطلب القبيلة التي كثر قتلاها ثأرها، وهكذا تستمر العداوات وربما وصلت إلى أربعين حولاً كما في حرب البسوس.

ونستطيع أن نذكر بعضاً من الأيام التي كان سببها الثأر بمفهومه الفردي والثأر القبلي بمفهومه الجماعي فمنها: أوارة الثاني، ورأس العين، ومُبايض والشُّيِّطَين وذو قار الأول، والحاجر، والكَديد، وبُزَّة، والفيفاء، وشِعْب جَبَلَة، والجفار والنِّسار، وذات الشُّقوق، والنشأة، وحروب الفِجار، وحرب البَسوس وأيام الأوس والخزرج، وأيام المناذرة والغساسنة.

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن كل مجموعة أيام بين قبيلتين أو عصبيتين، كانت مسلسلة من الأيام يدفع أحدها الآخر للثأر، كل يوم للثأر لليوم الذي سبقه سواء أكان ثأراً لشخص معين أو ثأراً لقتلى القبيلة أو كرامتها من القبيلة الأخرى.

الصراع على أسباب الحياة:

قلنا إن الجزيرة كانت قليلة الموارد، قليلة الخيرات، شحيحة الماء، تضيق مراعيها بإبلها وأنعامها. وقد أشاعت هذه العوامل الفقر بين سكانها، ذلك الفقر الذي كان الحافز الأساسي للغزو والغارات، ولعله هو الذي جعل حياة الفرد هينة عليه أحياناً.

فالفقر وقلة الخير كانا سببين من أسباب العداء الطويل بين القبائل العربية في العصر الجاهلي، ولغارات متبادلة ليس لها انقطاع. والتسابق على منابت الكلأ، والرغبة في الإستيلاء على جزء كبير منه خليقان أن يؤديا إلى تصادم واقتتال، فإذا أضفنا إلى ذلك قلة هذا الكلأ، أدركنا عنف القتال.

كما أن الفقر والبؤس وكثرة الجائعين يحجبان نور الحق عن أصحابها، يصبح الجوع حافزاً يخلق من أهله أسوداً كواسر تهجم على غيرها في غير رحمة لتحفظ عليها حقها في الحياة.

وقد كانت حروب تميم وبكر في معظمها، والتي بلغت فيا وصل إلى علمنا خمسين يوماً، على إثر جدب لحق بمنازل بكر، وكانت أرض تميم أكثر خصباً من أرض بكر، وهذا ما أشعل

الحروب بينهما . وإذا تتبعنا هذه الحروب نجدها تشكل غارات متصلة بقصد السلب والنهب ، فإذا ما غزت بكر تميماً ، واستاقت إبلها ونعمها ردت عليها تميم بغارة للثأر من بكر للغارة الأولى ، وهكذا استمر بينهم الغزو حتى دخلت تميم في الإسلام ، واستمرت بكر في غزوها حتى دخلت هي الأخرى في الإسلام . وبدراسة مجموعة حروب بكر وتميم نجد أن ثلاثين يوماً منها كانت بقصد الإغارة والسلب ، ونجد في أخبار هذه الأيام نصوصاً صريحة إلى أن مادتها الإبل والنعم والسبي ، كما نجد أن القتلى من الطرفين غير كثير ، مع الأخذ بعين الإعتبار مبالغات الرواة .

ولو تتبعنا بقية مجموعات الأيام لوجدنا الدافع الإقتصادي يبرز بشكل واضح وهذا ما جعل بعض الباحثين يؤكد أنه الدافع للحرب في العصر الجاهلي [1] فحروب الأوس والخزرج ، على الرغم من أن الدافع الأساسي لها التنافس على الزعامة ، إلا أنها لم تخل من هذا الدافع ، ولقد أشرنا إلى هذا قبل الآن ، فلقد طمعت الخزرج في أرض بني قُرَيْظَة وبني النَّضير ، وطلبوا منهم صراحة أن يخلوا بينهم وبين ديارهم بحجة أنهم حلفاء الأوس .

وحرب البسوس يرى فيها بعض الباحثين [2] صراعاً على المادة ، على أسباب الحياة ، وليس ذلك ببعيد ، فقد أحست بكر استئثار كليب بالمراعي الخصبة وبموارد المياه ، وبحماها ومنعها عنهم . وربما أحست القبيلتان أن مراعيها ومرابعها لم تعد تكفي ، فنشأ الإحتكاك بينهما واشتد هذا الصراع واستمر ردحاً طويلاً من الزمن .

وحروب عبس وذبيان كان الدافع الإقتصادي من أبرز الدوافع بينهما ، وحربها تشبه إلى حد ما حرب البسوس ، فقد أحست عبس بقوتها ، ونفستها أختها ذبيان ، فألبت عليها القبائل المجاورة ، ظلمتها في الرهان فلم تطق عبس ذلك ونشبت الحرب وتحركت عبس بعد أن أحست بتكتل القبائل المحيطة بها ، تحركت تجوب شرق الجزيرة ، تجاور هذا ، ثم تفارقه عندما تحس بالشر إلى ذلك ، وطال بها الترحال ، ونحس من نصوص الأخبار التي وصلتنا أن القبائل التي نزلت عبس بجوارها كانت تخشى منافستها في رزقها كما تخشى بأسها .

وقد يكون مصدر الرزق غير الإبل والنعم ، قد يكون من المتاجرة ، وحروب الفجار مثل للصراع على النفوذ التجاري في الجزيرة بين قريش وكنانة ذات الماضي العريق في التجارة من جهة ، وبين هوازن القبيلة القوية بفرسانها وعددها والتي تقطن المنطقة التجارية ، منطقة سوق عكاظ ، فقد عز على البراض الكناني أن يسمع من عروة أنه سيحمي قافلة ملك الحيرة التجارية في أرض نجد ، وهذا يحقق كسباً مادياً وأدبياً لهوازن ، ولا ترضى عنه قريش .

(1) الهلالية ـ عبد الحميد يونس 22 . (2) تاريخ العرب ـ فيليب حتي 1/ 34 .

والغارات التي كان يشنها ملوك المناذرة والغساسنة على تميم وذبيان وأسد وبكر كانت في غالبيتها بسبب حماية هؤلاء الملوك لمراعي خصبة ، وحاجة هذه القبائل إلى ارتيادها فترتادها معتدية بذلك على حمى الملك ، فيجرد حملة تأديبية .

والأيام التي حدثت بين بطون القبيلة الواحدة فيما نعتقد ، من خلال تأملنا للنصوص التي بين أيدينا ، كان الدافع الإقتصادي والصراع على موارد المياه ، ومنابت الكلأ هو الأساس الذي قامت عليه هذه الأيام . فقد كانت هذه البطون تحس أنها قد ضاق بها المكان فتتناحر وتتحارب ويجلي المنتصر المنهزم عن المرابع وقد يختلف الحيان على ماء كما حدث في يوم حَرابيب بين بني عامر . [1] ومثله يوم القُرْعاء بين بني مالك وبني يربوع الذي كان بسبب ماء . [2]

وقد كانت اللطائم وما تحمله تغري هؤلاء الأعراب المحرومين بالإعتداء عليها ، وكان ذلك يجر حرباً لأن الذين يسيرون هذه اللطائم لا يسكتون على ذلك ، ففي يوم الصَّفْقَة كان سببه اعتداء بني يربوع وغيرهم من تميم على قافلة بعث بها عامل كسرى باليمن إليه ، تحمل ثياباً من ثياب اليمن ومسكاً وعنبراً ، وقتلت يربوع من معها من الخفراء والأساورة واقتسموا فجرّ ذلك يوم الصفقة ، حيث احتال عليهم حاكم حصن المُشقَّر من قبل كسرى بالطعام في سنة قحط ، وكان يدخل الرجل منهم الحصن مجرداً من سلاحه فيُقتل [3] .

وفي يوم الكُلاب الثاني علمت مَذْحِج بما حدث لتميم يوم الصفقة ، فقد قُتلت المقاتلة ، وبقيت الذراري والأموال ، ومشى بعضهم إلى بعض وقالوا : اغتنموا بني تميم . [4]

وكان النعمان بن المنذر يجهز كل عام لطيمة لتباع بعكاظ ، فتعرض لها بنو عامر يوماً ، فغضب لذلك النعمان ، وطلب من وبرة الكلبي أخيه لأمه ، ومن بني ضبة أن يقصدوا بني عامر إذا فرغوا من عكاظ ، وانسلخت الأشهر الحرم ، فوافوهم بالسُّلان [5]

ومما يدل على أهمية المادة في ذلك العصر وأنها كانت المحرك الأساسي للأيام في ذلك الحين ، تلك الروايات التي تشير إلى فدية الأسير ، وإلى مقدارها وإلى حرص الفارس منهم على اختيار الأسير الغني المناسب الذي يحقق له المكسب الوفير . وأخبار كهذه أكثر من تحصى مبثوثة في كتب الأدب والتاريخ . كما نجدهم لا يقتلون ألد الأعداء وأشجع الفرسان إن وجدوا وراء

---

(١) مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٥٣٣ .

(٢) المصدر السابق ، وانظر النقائض ١/ ٢١٤ .

(٣) الأغاني/ ثقافة ١٧/ ٢٣٨ . (٤) الأغاني/ كتب ١٦/ ٣٢٩ .

(٥) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٣٩ - ٦٤١ .

إطلاق سراحه مغنماً ما لم يكن مطلوباً بثأر .

وقد فطن بعض قادة القبائل وفرسانها إلى حيلة استعملوها في حروبهم ، وملخص هذه الحيلة أن يجعلوا النعم والنساء في طريق ، والفرسان في طريق مغاير ، فإذا ما لحق بهم الأعداء فضلوا الغنيمة واللبن والنساء على الإلتقاء بالفرسان ، وعندما يُشغَلون بالغنائم والسبايا ، يهجم عليهم الفرسان ويعملون فيهم السيف ويخلصون الذراري والأموال ، وهذا ما فعله قيس بن زهير في حربه مع ذبيان [١] .

الصراع على الحدود :

لم يكن للقبيلة حدود بالمعنى الدقيق الذي نفهمه الآن ، ولكن لها حمّى تعتبره وطنها ، وإطار هذا الحمى هو بمثابة حدودها . فمراعي القبيلة حدودها ، ومياهها كذلك ، وكانت القبائل تتعارف على هذه الحدود ، فإذا ما حاولت قبيلة أن تنتزع ملكية مرعى من هذه المراعي ، أو ماء من مياهها ، تصدت لها القبيلة بفرسانها تردهم عن حماها .

وعلى الرغم من أن الصراع بين القبائل شمل الصراع على مناطق الحدود بين القبائل إلا أن هذا اللون من الصراع يتضح في الصراع بين القبائل والممالك المجاورة ، وتعدي هذه القبائل على حمى هذه الدول ، فجردت لها الحملة تلو الحملة . فقد بعث النعمان إلى رئيس اليمن الأصهب الجُعْفِيّ ينكر عليه بلوغ سَعْد وعَنَزة العُذَيْب ، والعُذَيب ماء بين القادسية والمغيثة .[٢] فحشد لهم ولقيهم يوم العذيب ، وانهزمت اليمانية وأخذ منهم مال كثير وسبي[٣] . ويوم دَرَحْرح بين بني سعد بن ثعلبة من بني أسد وغسان[٤] .

ونستطيع أن نعد حروب المناذرة الغساسنة ، على الرغم من أنهما كانتا إمارتين ، إلاّ أنهما كانتا تستقطبان حولهما عرب العراق وعرب الشام ، من هذا القبيل ، فلقد اختلفتا على أرض تسمى ستراتة ، فقد ادعاها كل من المنذر والحارث الغساني ، وثارت بينهما حروب أشهرها : عين أُباغ وقد هُزم المناذرة[٥] ، ثم يوم حليمة وقد هُزم فيه المناذرة[٦] ، ويوم شَطِب وقد هُزم فيه الغساسنة[٧] .

---

(١) الكامل لابن الأثير ١/ ٥٧٨ . (٢) معجم البلدان ٦/ ١٣١ .
(٣) العمدة ٢/ ٢١٧ . (٤) الأغاني/ كتب ١١/ ١٩٩ .
(٥) الكامل لابن الأثير ١/ ٥٤٠ .
(٦) خزانة الأدب ٣/ ٣٠٣ ـ ٣٠٥ . (٧) الكامل لابن الأثير ١/ ٥٤٢ .

ويوم ذي قار الذي كان بين بكر من جهة والفرس وأتباعهم من جهة أخرى ، والذي ذكر له المورخون أسباباً مختلفة ، منها قتل النعمان بن المنذر عديّ بن زيد العبادي[1] ومنها المكائد التي كادها له أعداؤه عند كسرى[2] ، ومنها أدراعه التي أودعها هانىء بن قبيصة[3] . ولكن صاحب الأغاني نقل لنا خبر يوم ذي قار وقال فيما ذكره « فلما هلك النعمان جعلت بكر بن وائل تغير على السواد . . . »[4] أي أن النعمان كان يشكل الحاجز بين العرب والفرس .

ويمكننا أن نربط بين محاولة كسرى الإيقاع ببني تميم يوم الصفقة ، ومحاولة الإيقاع ببكر يوم ذي قار . وبذلك يضمن أمن حدوده ويضمن عدم تعرض مصالحه التجارية للخطر في الجزيرة العربية .

الصراع حول تقاليد المجتمع :

مجتمع العربي في جاهليته قبيلته بالدرجة الأولى ، ولكل قبيلة أعرافها وتقاليدها ومبادئها التي يلتزم بها أبناؤها ، وجزاء من يخرج عليها رفع الحماية عنه وسحب جنسية القبيلة منه ، ولكن المجتمع الجاهلي ، على الرغم من تفككه إلى مجتمعات صغيرة ، كان يؤمن ببعض التقاليد ، ويتعارف عليها ، منها فيما يختص بالعرض وصون شرف المرأة ، ومنها فيما يختص بالأسير وكيفية معاملته ، وفي كيفية افتدائه ، ومنها فيما يتصل بالجار ، حقوقه وواجباته ، ومنها فيما يختص بالدية ، ومقدارها ، وكيفية أدائها وغير ذلك من القوانين والتقاليد التي تعارفوا عليها .

فالمرأة العربية في العصر الجاهلي كانت تحظى بمكانة ممتازة في ذلك المجتمع ، وكان الاعتداء أو مسّ شرفها بكلمة يعني طعنة في قلب العربي لذلك نراهم يحيطونها بالرعاية وبسياج متين من الحماية ، وكانوا من أجل هذا يخشون عليها من ذل الإسارة وعار السبي ، ومن أجل ذلك قتل بعضهم بناتهم لئلا يقعن في السبي ، وربما حملوا معهم النساء من أجل ألا يتركوهن فيأتي الأعداء وهم بعيدون عن الحمى ، فيستبيحون الحمى ويسبون النساء ، ويرى بلاشير أن المزاج الحربي العنيف أخضع لعاطفة قوية هي العرض[5] .

ومع ذلك فالأيام التي حدثت بسبب محاولة الاعتداء على الشرف أو مس كرامة المرأة قليلة ، إذا ما قورنت بغيرها ، وعلى الأقل ما وصلنا منها ، وربما كان السبب أن القبائل كانت تتجنب

---

(١) النقائض ٢/ ٦٣٩ ، انظر تاريخ الطبري ٢/ ١٩٣ - ٢٠١ .
(٢) تاريخ الطبري ٢/ ٢٠١ .
(٣) الأغاني/ ثقافة ٢٣/ ٢٢٠ .
(٤) المصدر السابق ص ٢٢١ .
(٥) تاريخ الأدب العربي - بلاشير ٣٨ .

التعرض لها حتى لا تثير القبيلة ، أو لأن ذلك لا يعتبر مجالاً للفخر . ففي يوم الفجار الثاني حاول فتية من كنانة أن يعبثوا بامرأة عامرية جميلة في سوق عكاظ بأن سألوها أن تسفر عن وجهها فأبت ، فأتى أحدهم من خلفها فشد دبر درعها بشوكة إلى ظهرها دون أن تحس ، وعندما قامت تقلص الدرع عن دبرها فضحكوا ، فنادت المرأة : يا العامر ، فتحاور الناس ، وكانت بينهم دماء يسيرة حملها حرب بن أمية وأصلح بينهم[1] .

وفي يوم منعج ، عاد شأس بن زهير من بلاط المناذرة مزهواً وقد خلع عليه ملكهم وأكرمه ، وتوقف في طريقه إلى قومه ، عند ماء وخلع ملابسه ليغتسل مقابل منازل قبيلة غني ، ورآه رياح ابن الأسل الغنوي ، فطلب منه أن يستتر لأنه قريب من الحي ومن بيته ، فلما أبى شأس قتله بسهم رماه به جزاء ما فعل غير مبال ببطش عبس وقوتها[2] .

وقصة مقتل الفطيون ، إن صحت روايتها ، وتحرر الأوس والخزرج من سيطرة اليهود عليهم ، تعتبر أكبر دليل على ما كانت المرأة عليه في هذا العصر ، فلقد أثارت أخت كعب بن مالك أخاها ، وجعلته يقدم على قتل زعيم اليهود ويفر هارباً إلى الشام مستنجداً بالغساسنة[3] وقد شكك ولفنسون في هذه القصة لأنها تصور العرب لا أنفة لهم ، ثم إن اليهود أصحاب دين سماوي لا يصدر عنهم مثل هذا الفحش» [4] .

وكان الجار في الجاهلية منيعاً بين مجيريه ، يصونون ماله وحياته وعرضه ، ويهبون مدافعين عنه إن تعرض لضيم ، وقد تعارف العرب في جاهليتهم على هذا ، وهو أشبه ما يكون بقانون اللجوء السياسي في أيامنا هذه ، وكثيراً ما كانت تنشب الحروب بسبب محاولة البعض الانتقاص من حق هذا الجار أو ظلمه . فالبسوس خالة جسّاس سكنت مجاورة لقوم جساس ، وتعرض كليب لناقتها لأنها كانت ترعى بين إبله ، فقتلها ، وصرخت البسوس تطلب حماية حقها من ظلم المعتدين ، وأثارت بكائياتها ابن أختها جساس فهب لنصرتها فقتل زعيم قبيلتها كليباً وزوج أخته ، ومع التسليم بأن ثمة دوافع أخرى لهذه الفعلة ، إلاّ أن قصة ناقة خالته كانت الشرارة .

والأسباب الظاهرية لأيام الأوس والخزرج كانت بسبب التعرض لجار أحدهم ، أو قتله أو التعدي على ضيفه ، تلك الحروب التي دامت قرابة قرن ونصف من الزمن . فحرب سُمير كانت بسبب قتل سُمَيْر من بني عمرو بن عوف الأوسي حليف كعب بن العجلان الخزرجي[5] وحرب

(١) العقد الفريد ٥/ ٢٥٢ .
(٢) العقد الفريد ٥/ ١٣٣ - ١٣٥ .
(٣) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٥٨ .
(٤) تاريخ اليهود - ولفنسون ٥٦ .
(٥) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٥٨ .

فارع كانت بسبب قتل رجل من بني النجار لغلام قضاعي كان عمه مجاوراً لمعاذ بن النعمان الأوسي[١] ، وحاطب كانت بسبب كَسْع يهودي لرجل من بني ثعلبة كان نازلاً عند حاطب الأوسي بليعاز من الحارث بن قُسْحُم الخزرجي[٢] .

وكذلك كانت الحرب تشتعل بسبب إجارة قبيلة لرجل مطلوب بثأر لقبيلة أخرى ، فتطلب القبيلة هذا الموتور لتأخذ بثأرها فتأبى تلك التي أجارته فتنشب حرب بينهما ، فقد قتل الحارث بن ظالم المري خالد بن جعفر الكلابي ، وهرب فالتجأ إلى مَعْبَد بن زُرارة فأجاره فكان يوم رَحْرَحان الثاني حيث جهزت عامر فرسانها وغزت تميماً[٣] .

وكان العربي يحافظ على العهد ، يصون الأمانة ويحافظ عليها ولو كلفه ذلك حياته ، ويكفي أن يؤخذ عليه العهد فلا يخون ، ولو كان ذلك مع أعدائه ، فلقد قتل نفر من يشكر علقمة وأسروا أخاه أبا مُلَيْل في غارة عليها ، وبعد أن أقام عندهم زمناً أطلقوه بعد أن أخذوا عليه عهداً بألا يقول شيئاً ، وعاد ولم يخبر قومه بشيء مما حدث ، ولم يعرفوا ما حدث إلاّ عندما خرجوا يقصون أثره ، فجر ذلك يوم المُلْهَم[٤] .

وفي يوم ذي قار كان الشرارة التي أشعلته أن النعمان قبل أن يتوجه إلى بلاد فارس استودع حلقته وولده وماله عند هانيء بن مسعود ، وعندما مات النعمان مقتولاً أرسل كسرى الى هانيء يطلب تسليمه ما للنعمان عنده ، لأن النعمان كان عاملاً لكسرى فأبى هانيء ، فكانت هذه ذريعة ليجرد كسرى جيشاً لتأديب بكر قوم هانيء ، وقبل هانيء وقومه ذلك على أن يسلموا الأمانة لغير أصحابها[٥] .

وكان العرب في جاهليتهم يلتقون ، فيتفاخرون ، ويحاول كل منهم أن يجعل من قبيلته سيدة القبائل ، ومن نفسه أشجع الفرسان ، وكما أن ذلك كان يتم في الأسواق كعكاظ مثلاً ، وكثيراً ما كانت تلك المفاخرات أو الملاعنات تجر أياماً . فقد حدث أن التقى خالد بن جعفر بالحارث بن ظالم في بلاط الحيرة فقال خالد معيراً الحارث بن ظالم بأنه يجب أن يشكره لأنه قتل زهيراً وتركه سيد قومه ، وغضب الحارث وأضمر الشر لخالد حتى جنّ الليل فقتله وهرب ملتجئاً إلى مَعْبَد ابن زُرارة وجر ذلك يوم رَحْرَحان الثاني[٦] .

والتقى معاوية السلمي وهاشم بن حَرْملة بعكاظ فكان بينهما كلام ومفاخرة ومنافرة أدت إلى يوم حَوْزة الأول[٧] .

(١) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٦٨ .
(٢) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٧١ .
(٣) النقائض ١/ ٢٣٦ .
(٤) العقد الفريد ٥/ ٩٠ .
(٥) النقائض ٢/ ٦٣٨ .
(٦) النقائض ١/ ٢٣٦ .
(٧) العقد الفريد ٥/ ١٦٣ .

وكان العربي يرى نفسه منيعاً كريماً بين عشيرته ، ويكره أن يعيبه أحد على مسمع من الناس وبخاصة إذا كان من غير قبيلته ، وإن حدث هذا اعتبر إهانة للقبيلة كلها فقد كان لرجل من بني نَصْر بن معاوية دَيْن على رجل كناني ، وماطله في الدفع ، فوافى النصريُّ عكاظ بقرد ، فأوقفه في عكاظ وقال : من يبيعني مثل هذا بمالي على فلان ؟ وأكثر من ذلك حتى يعير الكناني وقومه . . ومر رجل من بني كنانة فضرب القرد نفسه فقتله ، فهتف النصري : يا لهوازن ، وهتف الكناني : يا لكنانة . فتهايج الناس حتى كاد أن يكون بينهم قتال وكان ذلك يوم الفِجار الثاني[1] .

وكان العرب في جاهليتهم ربما راهن بعضهم بعضاً على شيء ، كسباق مثلاً بين فرسين أو نحو ذلك والذي يخسر الرهان يدفع ما اتفق عليه ولا يحق له تجاهله ويشهدون على ذلك الناس يحددون فيه الرهان وحدوده ومقداره . وقد حدث أن راهن قيس بن زهير حذيفة بن بدر وهما من قبيلتي عبس وفزارة ، اللتين تجمعهما قرابة الدم وعندما رأى حذيفة أنه سيخسر الرهان ، جعل فتيته يرابطون لفرس قيس فيلطمونها ويؤخرون جريها حتى تسبق فرسه فرس قيس ، وحدث هذا ، وأدرك قيس الخدعة وطالب حذيفة بالوفاء بما تراهنا عليه فأبى حذيفة ، وتنازل قيس عن قيمة الرهان ، واكتفى بناقة واحدة ينحرها حتى لا تسمع العرب بأنه ظُلم في حقه ولم يطالب به . وأبت فزارة فجر ذلك حرباً طويلة بين القبيلتين دامت أربعين عاماً[2] .

ولو شئنا تتبع الأيام والمناوشات بين القبائل العربية في ذلك العصر التي كانت تحدث بسبب الخروج على تقاليد المجتمع لجمعنا الكثير ولكننا نكتفي بما عرضناه من أمثلة .

التمرد على سلطة الممالك التي كانت تحاول إخضاع القبائل العربية :

قلنا إن القبائل المتفرقة في الجزيرة العربية كانت تحاول إخضاعها ثلاث قوى ، مملكة كندة والقبائل الجنوبية التي تأتمر بأمرها في الجنوب ، ودولة المناذرة ومن ورائها الفرس في الشمال الشرقي ، ودولة الغساسنة ومن ورائها الروم في الشمال الغربي .

وقد كانت هذه الممالك تخضع القبائل لسيطرتها ، أو على الأقل لنفوذها وتترك لها الشؤون الداخلية وتسوق بعضها لتحارب معها في منازعاتها وصراعاتها . كما تضمن لها تجارتها تمر بأمان

---

(١) العقد الفريد ٥/ ٢٥٢ .

(٢) النقائض ١/ ٨٣ وما بعدها ، أمثال الضبي ٢٦ ـ ٤٤ .

في قلب الجزيرة العربية دون أن يعترضها أحد ، مقابل ردافة أو حظوة لزعيم القبيلة ، أو ميرة لهم كل عام .

وكانت القبائل تستسلم لهذا ما دامت تلك الدولة قوية ، وما دامت هي لا تجد من يقودها ، فإذا ما ظهرت شخصية قوية وآنست ضعفاً من الدولة المتسلطة ثارت عليها واقتلعتها .

وأيام المجموعة الأولى ، وهي حروب القبائل العدنانية والقحطانية خير ما يمثل هذا الدافع فقبيلة أسد عندما ظلمها حُجْر وأحست بأنها قادرة على التمرد ، وضاقت بأعماله التعسفية ثارت عليه وقتلته ، وأزالت نفوذه عليها[1] ويوم خزاز محاولة من قبائل الشمال للتخلص من سيطرة الجنوب ، وقد فعلت عندما ظهر فيها كليب بن وائل الذي قادها في تلك الحرب[2] ورفضت بكر الخضوع للمنذر فكان يوم أوارة الأول[3] .

وقد كان هذا التمرد يأخذ طابعاً آخر يتمثل في التصدي للطائمهم ونهبها وقتل حراسها ، كما فعلت عامر بلطيمة النعمان فجرّ ذلك يوم السُّلَّان[4] ، وفعلت تميم مثل ذلك فأغارت على لطيمة الملك بجَوّ نَطاع[5] ، فجرّ ذلك يوم الصفقة[6] .

وكان لهذا التمرد أيضاً طابع آخر تمثل في غزو قبائل عرب الشمال لقبائل جنوبية لنهبها عندما تلمس منها ضعفاً ، فقد أغار الأقرع بن حابس على أهل اليمن يوم نَجْران[7] وأغار عُتَيْبَة بن الحارث اليربوعي على إبل لغسانيين نزلا قريبين من يربوع[8] .

وكما أن هذه القبائل كانت تفعل هذا عندما تلمس في نفسها القوة ، فكذلك كان يفعل الغساسنة والمناذرة واليمنيون كلما لمسوا بادرة تمرد على سلطتهم من قبيلة إن وجدوا لديهم القوة ، وكانوا يجردون الحملات والصنائع لكسر شوكة تميم حيناً ، وبكر حيناً آخر ، وعامر حيناً .

***

(١) الكامل لابن الأثير ١/ ٥١١ - ٥٢٠ .
(٢) العقد الفريد ٥/ ٢٤٥ ، الكامل لابن الأثير ١/ ٥٢٠ .
(٣) النقائض ١/ ٤٥ ، الكامل لابن الأثير ١/ ٥٥٢ .
(٤) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٣٩ .
(٥) مجمع الأمثال للميداني ٥/ ٥٢٨ .
(٦) نفس المصدر السابق ٥/ ٥٢٨ ، الأغاني/ ثقافة ١٧/ ٢٣٧ .
(٧) النقائض ١/ ٤٦ ، العمدة ٢/ ٢٠٠ .
(٨) العقد الفريد ٥/ ٢٣٨ .

وبعد فهذه أبرز الدوافع التي كانت السبب في تلك الأيام التي زخر بها تاريخ العرب في جاهليتهم ، ولكن ذلك لا يعني أن اليوم الواحد كان له دافع واحد ، ويمكن تقسيم الأيام تقسيماً على هذه الدوافع بل إن اليوم الواحد ربما تضافرت عدة دوافع كانت السبب في حدوثه ، فقد يجتمع الثأر إلى جانب الرغبة في السلب إلى جانب حب الرئاسة في يوم واحد . وينبغي ألاّ ننسى الدافع الشخصي في الأيام ، فربما دفع فرد في القبيلة له منزلة قبيلته إلى حرب مع قبيلة أخرى بدافع القضاء على شخص في تلك القبيلة الأخرى ، أو رغبة في مكسب يحققه لنفسه ، وكانت القبيلة تطيعه لمكانته فيها فعندما هجا بِشْرُ بن أبي خازم الأسدي أوسَ بن حارثة الطائيَّ ، واحتمى ببني أسد هاجم أوس بن حارثة بني أسد وكان معه قومه ، واقتتلوا بظهر الدَّهناء[1] وفي حرب ربيع الظَّفري كان سببها أن ربيعاً كان يمر في مال لرجل من بني النجار إلى ملك له ، فمنعه النجاريّ فتنازعا فقتله الربيع ، واجتمع قومهما فاقتتلوا[2] .

وكانت العصبية القبلية هي التي تطور الصراع الفردي الى حرب قبلية بين قبيلتين إلاّ أنها كانت تفرض على كل أبناء القبيلة الوقوف إلى جانب ابنها في نزاعه سواء أكان ظالماً أم مظلوماً ، ولولا هذه العصبية لأخرجنا أكثر الأيام من موضوعنا ولكانت مجرد منازعات فردية . ولعل هذا ما دعا بعض الباحثين إلى القول بأن « أكثر حروبهم كان يجرها نزاع بين بعض الأفراد في قبيلتين مختلفتين إما بسبب قتل أو إهانة أو بسبب اختلاف على حد من حدود ، وحينئذ تشتبك عشيرتا هؤلاء الأفراد ، وتنضم إلى كل عشيرة قبيلتها وقد تنضم أحلافها فتنتشر نيران الحرب بين قبائل كثيرة[3] وعبر عن هذا شاعر الحماسة حين قال : [4]

الشيءُ يبدؤه في الأصـلِ أصغَرُهُ ... وليسَ يَصْلَى بكلِّ الحـربِ جانيها
والحربُ يلحقُ فيها الكارهون كما ... تدنو الصِّحاح إلى الجَرْبَى فَتُعْدِيها

وهكذا عاشت الجزيرة في حروب مستمرة لا تكاد تهدأ نارها ، فالقبيلة أما واترة أو موتورة ، لا تترك دماء بنيها تذهب هدراً ، يعبِّرُ دريد بن الصمة عن هذا المعنى حيث يقول : [5]

---

(1) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٢٦ .
(2) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٦٦ .
(3) العصر الجاهلي - شوقي ضيف ٦٣ .
(4) حماسة أبي تمام - شرح المرزوقي ١/ ٤٠٧ - ٤٠٨ .
(5) المصدر السابق ٢/ ٨٢٥ - ٨٢٦ .

فلما تَرَيْنا لا تزال دماؤنا لَدَى واتـرٍ يسعَـى بهـا آخرَ الدَّهرِ
فإنـا لَلَحْـمُ السيفِ غيرَ نكيرة ونُلْحِمُـه حينـاً وليس بذي نكرِ
يُغـارُ علينـا واتـرينَ فيُشْتَفَى بنـا إن أُصِبْنـا أو نُغـيرُ على وِترِ
قَسَمْنا بذاكَ الدهرَ شطرين بيننا فما ينقضي إلا ونحـنُ على شَطْرِ

المرأة والأيام

ولم تكن المرأة العربية في العصر الجاهلي بمنأى عن أحداث مجتمعها ، ولم تكن بأقل حماساً من الرجل إذا دقَّت طبول الحرب في القبيلة معلنة بدء غارة لها على قوم أو شنت عليها الغارة . فقد كانت المرأة تشارك الرجل في الحرب فتمضي مع الغزاة في المؤخرة ، تنشد الأهازيج وتضرب بالدفوف ، كما كانت تقوم بالسهر على راحة الفرسان ، وتضميد الجرحى إذا التحم القوم ، وأشرعت الرماح .

ففي يوم الكديد كانت أم ربيعة بن مُكَدَّم تشد على يد ولدها مشجعة ، وتضمد جراحه ، فيعود إلى ساحة الوغى وهو أشد إقداماً وهو يرتجز :

شُـدِّي على العضـبَ أم سيَّار فقـد رُزيت فارسـاً كالدينار
يطعنُ بالرمحِ أمامَ الأدْبار[1]

والمرأة الزوجة كانت تشارك زوجها ما يقاسيه من مرارة الحرب ، وشعر أبي قيس بن الأسْلَت الذي يصور إنكار زوجته له لما أصابه من شحوب خير شاهد :

قالـت ولـم تقصـد لقيل الخنا مَهْـلاً فقـدَ أبلغتَ أسماعي
استنـكرتْ لونـاً له شاحباً والحـربُ غُوْلٌ ذاتُ أوجاعِ[2]

ولم تنس المرأة عصبيتها لقومها ، ولعل ما فعلته زوجة أُحَيْحَة بن الجُلاح حينما أخبرت قومها بني النجار بما اعتزمه زوجها من مهاجمتهم ، أبلغ دليل على ذلك وكان جزاؤها عندما علم زوجها بذلك أن طلقها وكسر يدها[3] .

---

(١) الأغاني/ ثقافة ١٦/ ٢٥ . (٢) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٧٥ .
(٣) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٦٠ .

وكانت للمرأة كلمة مسموعة في قبيلتها ، فلقد تعرفت امرأة من بني فراس على دُرَيْد بن الصِّمَّة بعد يوم اللوى ، حينما أسره بنو فراس ، وكان قد أنكر شخصيته وللدريد فضل على ربيعة بن مكدَّم ، حامي الظعينة ، فلم تزل تلك المرأة بقومها حتى أطلقوا سراحه ، وردوه مكرماً وأقلع عن غزو بني فراس حتى مات[1] .

وكان القوم يصطحبون المرأة معهم حتى لا يفروا ، فقد روي أن قبائل اليمن اصطحبت النساء والذراري حتى لا يفرّوا يوم فَيْف الريح[2] .

ولم يكن هذا هو كل دور المرأة في الجاهلية ، بل كانت الحافز الذي يدفع بالأبطال إلى ساحة الوغى غير مبالين بالموت في سبيل المرأة ، ففي يوم جليمة بين الغساسنة والمناذرة ، دامت الحرب بين الطرفين أياماً لم ينتصف بعضهم من بعض ، فلما رأى الحارث ذلك دعا ابنته هنداً ، وأمرها فاتخذت طيباً كثيراً في الجفان ، وطيبت به أصحابه ، ونادى بعد ذلك : يا فتيان غسان من قتل ملك الحيرة زوجته ابنتي هنداً . فقال لَبيد بن عمرو الغساني لأبيه : يا أبتِ إني قاتل ملك الحيرة أو مقتول دونه لا محالة ، وشد لبيد على المنذر الأسود ملك الحيرة فقتله ، واحتز رأسه وأقبل به إلى الحارث وألقاه بين يديه ، فقال الحارث : شأنك بابنة عمك فقد زوجتكها ، فقال : بل انصرف فأواسي أصحابي بنفسي ، ورجع إلى المعركة وقاتل فقتل . فكانت الدائرة على لخم ، وأسهمت المرأة في تغيير مجرى المعركة والإسراع في حسمها بمقتل ملك المناذرة .

وفي يوم قِضة بين بكر وتغلب ، يروي صاحب الأغاني خبراً عن ابن الكلبي « لما كان يوم التَّحالق أقبل الفند الزماني إلى بني شيبان وهو شيخ كبير قد جاوز المائة سنة ، ومعه بنتان له شيطانتان من شياطين الإنس ، فكشفت إحداهما عنها وتجردت وجعلت تصيح ببني شيبان ومن معهم من بني بكر :

وَعـا وَعـا وَعا ... حَـرْ الجياد والمَطا
يا حبَّـذا يا حبَّذا ... الملحقـون بالضُّحَى

ثم تجردت الأخرى وأقبلت تقول :

إن تُقْبِلوا نُعانِق ... ونفـرش النَّمارِقْ
أو تُدْبِـروا نُفارِق ... فِـراقَ غـيرِ وامق

---

(١) العقد الفريد ٥/ ١٧٣ .

(٢) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٣٢ .

قال : والتقى الناس يومئذ ، فأصعد (عوف بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة) ابنته على جمل له في ثنية قِضّة حتى إذا توسطها ضرب عرقوبي الجمل ثم نادى :

أنا البرك أنا البرك

أنزل حيث أدرك

ثم نادى : ومحلوفة لا يمر بي رجل من بكر إلاّ ضربته بسيفي هذا ، أفي كل يوم تفرون ، فيعطف القوم فقاتلوا حتى ظفروا ، فانهزمت تغلب[1] .

وهذا الخبر ، على الرغم من أن راويته ابن الكلبي ، إلاّ أنه ليس ببعيد الحدوث في ذلك العصر ، وفي تلك الحروب بعد أن هزمت بكر في جميع معاركها السابقة مع تغلب ، فالمعركة فاصلة ، وربما بالغ ابن الكلبي في رواية الخبر.

وكانت المرأة في الجاهلية تؤمِّن من يستجير بها إذا اشتد الخطب ، ففي يوم عُكاظ ، وهو اليوم الرابع من أيام الفجار الآخر ، ضرب مسعود بن مُعَتِّب الثقفي على امرأته سُبَيْعَة بنت عبد شمس بن عبد مناف خباء وقال لها : من دخله من قريش فهو آمن ، فجعلت توسع في خبائها ليتسع ، فقال لها : لا تتجاوزي خباءك ، فأحفظها . فلما انهزمت قيس دخلوا خباءها مستجيرين بها ، فأجار لها حرب بن أمية جيرانها وقال لها : يا عمة من تمسك بأطناب خبائك أو دار حوله فهو آمن ، فنادت بذلك فاستدارت قيس بخبائها حتى كثروا جداً[2] .

وقصة عنترة العبسي ، وحبه لعلبة ابنة عمه ، على الرغم مما أحاطها من ضروب المبالغة ، إلاّ أننا نميل إلى أن علبة كانت وراء فروسية عنترة ومحاولة إثبات مقدرته الحربية ليكون أهلاً لها . فالمرأة صورة جميلة يراها الفارس فيشتهيها ، ويعمل جهده للحصول عليها ، ويتمثل له مفهوم البطولة في نجاح مهمته .

وللمرأة الشاعرة دور آخر ، يتمثل في وصف المعارك ، وتصوير شجاعة الأبطال ورثاء أولئك الأبطال عندما يسقطون صرعى في ميادين القتال ، والشعر الذي رثت به المرأة أباها أو زوجها أو أخاها أو بطلاً من أبطال قومها كثير ، جمعه بعضهم في كتاب خاص[3] .

---

(1) الأغاني/ ثقافة ٢٣/ ٢٥٤ .

(2) الأغاني/ ثقافة ٢٢/ ٧٤ .

(3) رياض الأدب في مراثي شواعر العرب ـ لويس شيخو ، شاعرات العرب ـ عبد البديع صقر ، شاعرات العرب ـ بشير يموت .

ولم تكن المرأة الشاعرة لترضى بالذل والهوان ، فكانت تهب صارخة في وجه قومها إن هم قبلوا المذلة ، أو قبلوا الدية ، أو تقاعسوا عن طلب الثار ، أو فروا من المعركة ، أو أسلموا النسوة للأعداء يأسرونهن . وسنعرض لكل هذا عندما نتحدث عن أغراض الشعر عند شعراء الايام .

الفصل الثالث

أيام العرب في العصر الجاهلي

طبيعة الأيام :

وقد آثرنا البدء في حديثنا عن الأيام بالتحدث عن طبيعة هذه الأيام حتى تتضح صورتها ومعالمها أمامنا ، فلا نحملها أكثر مما كانت تعني ، ولا نقلل من شأنها . فالأيام كما سنرى في تقسيمنا لها لا تعدو أن تكون إحدى هذه الصور .

أ ـ نزاع يحدث بين طرفين ، ويشتد هذا النزاع ، ويفزعون إلى أسلحتهم وخيولهم ، ولكنهم يكتشفون أن الأمر لا يستحق الاقتتال ، فيتراضون ويحسمون النزاع بينهم ، ومن أمثلة هذه الأيام يوم ذي ذرائح الـذي كان بـين تميم واليمن « ولـم يكن بـين القـوم حرب ولـكن تصـالحوا »[1] ويوم ضَريَّة الذي كان بين بطنين من تميم ، سعد والرِّباب من جهة ، وحنظلة من جهة أخرى ، وعندما استعدوا للقتال قال ابن خفاف لسعد الرباب : من لعيال عمرو وحنظلة إن قتلتم مقاتلهم ؟ قالوا : نحن ، قال : فمن لعيالكم إن قتلوا مقاتلكم ؟ قالـوا : هم ، قال فدعوهم لعيالهم وليدعوكم لعيالكم ، واصطلح الفريقان[2] . وفي يوم الفِجار الأول يروي أبو عبيدة « أن الحيين تحاوروا عند ذلك حتى كاد أن يكون بينهما الدماء ، ثم تراجعوا ، ورأوا أن الخطب يسير »[3] .

فهم يلجأون إلى المصالحة عندما يرون أن الخطب يسير ، لا يستحق أن تهدر فيه الدماء ، أو عندما يتذكرون صلات القرابة ، وربما لجأوا إلى المصالحة عندما يرون قوة الخصم فيُهما دونه ،

(١) مجمع الأمثال ـ للميداني ٢/ ٥٣٠

(٢) العمدة لابن رشيق ٢/ ٢٠٩

(٣) العقد الفريد ٥/ ٢٥١ .

لأنهم لا قِبَل لهم به ، ولا طاقة لهم على ملاقاته ومنازلته .

ب ـ وأحياناً تأخذ الحروب بينهم طابع الغارات التي تقوم على المباغتة ، ويقصد منها السلب والنهب والأسر ، وهذه الأيام لا تراق فيها الدماء إلاّ عند الضرورة ، وهذه الصورة كثيرة في أيامهم ، بل تكاد تشكل نسبة كبيرة منها . ومقالها تلك الأيام بين بكر وتميم ، وبين القبائل المتجاورة ، فإن هذه القبائل تغزو جيرانها كلما أجدبت أو آنست منهم غرة أو ضعفاً .

جـ ـ وصورة أخرى من تلك الأيام ، وهي الأيام التي تقع في عدة سنين ، ويربط بينها أكثر من عامل ، فالسبب الأصلي لها جميعاً واحد ، والقبيلتان في جميع الأيام تبقيان في حالة عداء مستمر ، وقد يفصل اليوم عن الآخر فترة قد تطول ، ولكن حالة الحرب والعداء تستمر . وقد تحالف كل قبيلة قبائل أخرى فيتسع نطاق الحرب ، وطابع هذه الحرب يكون أشد عنفاً من الصورة التي سبقتها . ومن أمثلة هذه الصورة حرب داحس والغبراء ، وحرب البسوس ، وأيام الأوس والخزرج وهذا النوع من الأيام لا ينتهي إلاّ عندما ينتهي طرف من الطرفين ، أو يكلّ الطرفان ويرغبان في إنهائها ، فيتدخل سادة القوم والعقلاء منهم ويتحملون ديات القتلى من الطرفين .

د ـ وصورة رابعة من صور الأيام ، وهي أن تلتقي أهداف عدة أطراف عند هدف مشترك ، ويبقى لكل طرف أطماعه ، ويتكون فريقان من القبائل ، ويكون يوم عظيم يقتتل فيه الطرفان ، وفي نية كل فريق القضاء على الفريق الآخر . ففي يوم جبلة[1] الذي كان لبني عامر وعبس على أسد وذبيان ، ومع كل فريق جاء حلفاؤه ، وكل يريد تحقيق هدف ، فذبيان يرأسها حِصْن بن حذيفة الذي يطلب عبساً بدم أبيه حُذَيْفَة الذي قتلته عبس يوم الهَبَاءَة ، وبنو حنظلة والرِّباب ورئيسهم لَقيط بن زُرارة يطلبون عامراً بدم أخيه مَعْبَد بن زُرارة ، ومعاوية بن الجَوْن الكِنْدِيّ ، وغيره لتحقيق أغراض خاصة من عبس وعامر . وانتهى جميع أهل الشعب يومئذ ثلاثين ألفاً ، حتى لقد عده المؤرخين من أعظم أيام العرب في الجاهلية .

أما الأيام التي كانت بين القبائل العدنانية والقبائل القحطانية ، أو بين العرب والفرس فعلى الرغم من أنها لم تقم على أساس العصبية القبلية الكبرى لعدنان أو لقحطان ، إلاّ أنها مع

(١) العقد الفريد ٥/ ١٤١ ، النقائض ١/ ٤٠٧ ، ٢/ ٦٥٤ ، العمدة ٢/ ٢٠٣ ، مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٥١٩.

ذلك كانت تتميز بالضراوة ، ورغبة كل طرف في القضاء على الطرف الآخر ، أو إنهاكه على الأقل بقتل فرسانه . لأن القبائل العدنانية عندما كانت تحارب القبائل القحطانية وبخاصة القبائل ذات النفوذ والسلطة عليها فهي إنما تحاول التحرر من سيطرتها ، وإن الا خيار لديها ، فإما الاستبسال ، وإما الاستمرار في الخضوع . وعندما كان الطرف الآخر يتغلب على القبائل العدنانية كان يفتك بها ، ففي يوم الصَّفْقَة ، قتل من تميم خلق كثير ، وفي يوم أوارة حُرِّق منهم خلق كثير ، وبعد ما لاقته تميم يوم الصفقة عقدت قبائل اليمن النية على تصفية تميم والانتهاز فرصة إنهاكها يوم الصفقة ، حيث مشى بعضهم إلى بعض قائلين : إغتنموا تميماً وابعثوا الرسل في قبائل اليمن وأحلافها من قضاعة[1] . وعندما قتلت بنو أسد حُجْراً قالت الحلفائه بني كنانة وقيس « أنتم إخواننا وبنو عمنا ، والرجل بعيد النسب منا ومنكم ، ورأيتم سيرته وما كان يصنع بكم هو وقومه فانتهبوهم »[2] . وفي يوم الكُلاب الثاني نسمع قيس بن عاصم يخاطب بني تميم : « يا ل تميم ، لا تقتلوا إلاّ فارساً فإن الرجالة لكم»[3] وهذا القول يختلف عن ذلك الذي نسمعه من صائح من الأوس يصيح عندما وضعت الأوس السلاح في الخزرج : « يا معشر الأوس أحسنوا ولا تهلكوا إخوانكم ، فجوارهم خير من جوار الثعالب »[4] ، وذلك يوم بُعاث .

فالقتال كان يشتد في هذه الأيام ، والدماء تسيل بغزارة أكثر من الأيام الأخرى كما أن أعداد المحاربين تتزايد بكثرة ، ولا يردعهم عن رحم التمادي في سفك الدماء .

وقد سماها بعضهم[5] ، وأعني الحروب بين العدنانية والقحطانية ، أو بين العرب والفرس ، بحروب الوحدة والاستقلال ، وبقية الأيام بالحروب الأهلية ، وهي تسمية مقبولة إلى حد ما إذا تجاوزنا عن مفهوم العصبية بمعناها الجامع ، فالقبائل العدنانية عندما كانت تشهدها إنما كانت تشهدها متفرقة ، كيوم الصفقة ، والكُلاب الثاني ، وأوارة الأول ، وأوارة الثاني وغيرها ، ولم تجتمع القبائل العدنانية كلها في الجاهلية إلاّ في ثلاثة : يوم البَيْداء بين تهامة واليمن ، واليوم السُّلاَّن بين اليمامة واليمن ، ويوم خَزار بين معد كلها واليمن[6] .

ومما هو ملاحظ في هذه الأيام جميعاً تشابه أحداثها تقريباً وأساليبها وكيفية اللقاء وخططهم ، وبخاصة الأيام التي يقصد منها الغارة والسلب والنهب .

(١) الأغاني/ كتب ١٦/ ٣٢٩
(٢) الكامل لابن الأثير ١/ ٥١١ وما بعدها
(٣) الأغاني/ كتب ١٦/ ٣٣٢
(٤) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٨٠ .
(٥) تاريخ الشعر العربي - البهبيتي ٥
(٦) النقائض ٢/ ٦٥٤

وهذه الأيام قليلة الأهمية ، وقليلة الضحايا ، إذا ما قيست بما كان يقوم بين الأمم القديمة من حروب ويبدو أن العرب في حروبهم ، باستثناء تلك التي كانت مع غيرهم ، كانت في سبيل التناحر على البقاء ، ولم يكن القصد منها الإفناء والتوسع بمعناه الدولي ، بل كان القصد منها الاستيلاء على ما في يد القبائل الأخرى من نعم ومتاع ، ونسمع فرسانهم وقادتهم في الحروب دعوة لهم بالعودة والاكتفاء بما غنموا .

كما أننا إذا استعرضنا القبائل التي سكنت الجزيرة في الجاهلية لاحظنا أن بعضها لم يخض حرباً ، أو على الأقل فيما وصلنا ، كما نرى في الوجه المقابل قبائل اشتهرت بكثرة أيامها ، وحروبها كتميم وبكر وتغلب وأسد ومذحج وعامر . وسنثبت في آخر هذا البحث جدولاً يبين ام كل قبيلة مما وقع في أيدينا من أخبار هذه الأيام .

وربما كان لطبيعة أرض الجزيرة ، واتساعها ، واتساع صحاريها ، وقلة خيراتها الأثر الأكبر في جعل الحروب على ذلك النحو ، ولم تشهد أرض الجزيرة حروباً موسعة .

ويترتب على هذه الطبيعة المحدودة للحروب أن يكون عدد المقاتلين قليلاً ، فيوم العُظَالى وهو يوم بين بكر وتميم كان عدد بكر ثلاثمائة فارس[1] . وفي يوم ذي قار على الرغم من أهميته لأنه أول يوم انتصف فيه العرب من العجم ، كان عدد المقاتلين من العرب[2] لا يزيد على الألف . وأن مائة من بكر وسبعين من عجل وثلاثين من أفناء بكر أصبحوا السواد ودخلوه في طلب القوم بعد هزيمتهم ، فلم يفلت منهم أحد[3] . ويوم الهباءة بين عبس وفزارة لم يزد عددهم على مائة فارس .[4] وفي يوم الفُروق ينقل صاحب العمدة خبراً عن عنترة بأن عددهم لم يزد على مائة فارس[5] . أما يوم جَبَلة فكان العدد كبيراً لأسباب وضحناها فيما سبق .

وأما عدد الذين يسقطون قتلى في هذه الأيام فكان متفاوتاً متبايناً كطبيعتها . فأيام لا تسيل فيها دماء ، وأيام يُقْتَل فيها الرجل أو الرجلان ، وأيام يذهب ضحيتها عدد كبير من الطرفين ، ومما يزيد الأمر إبهاماً أن كتب التاريخ والأدب لم تذكر لنا القتلى ، مقدارهم وعددهم ، إلا نادراً ، وتكتفي بالقول « فاقتتل الفريقان قتالاً شديداً وقتل خلق كثير» أو يبالغون فيروون أن

---

(١) العقد الفريد ٥/ ١٩٣

(٢) لأن ابن الأثير يذكر أنهم قطعوا أقبية سبعمائة راحلة من بني شيبان وحدهم ١/ ٤٩١ .

(٣) الأغاني/ ثقافة ٢٣/ ٣٤٤

(٤) عيون الأخبار لابن قتيبة ١/ ١٢٥

(٥) العمدة ٢/ ٢٠٣

القتلى يعدون بالمئات ، وقد تتناقض الروايات حسب الرواة ، فحرب البسوس بعضهم يقول إنها أهلكت الكثيرين[1] ، وصاحب الأغاني يذكر أنه لم يقتل فيها إلاّ ثمانية ذُكروا في شعر حرب البسوس[2] حددهم المُهَلهِل في رائيته . وقد تتبعت أخبار هذه الحرب في مصادرها التي وصلت إلينا وأحصيت من قُتِل ، فوجدت عشرين شخصاً من الفريقين ذُكروا بالأسم ، وذكر في بعض الأيام كيوم النهي عبارة « واستحرّ القتل في شيبان» وفي يوم الذوائب « وقتلت بكر يوم الذوائب » ومما يلاحظ أن الشعراء ، وهم مصدر أساس في تأريخ الأيام ، لا يذكرون إلاّ الفرسان المشهورين ، والذين يعد قتلهم خسارة للقبيلة . وهذا معناه أن أي محاولة للوقوف على عدد القتلى ضرب من المحال ، إلاّ أن الذي نلاحظه من القرائن أن القتلى لم يكونوا كثيرين .

مصادرنا في دراسة الأيام :

يقول أبو هلال العسكري (ت ٢٩٥ هـ) في كتاب الصناعتين « **لا تعرف أنساب العرب وتواريخها ، وأيامها ووقائعها إلاّ من جملة أشعارها** ، فالشعر ديوان العرب وخزانة حكمتها ، ومستنبط آدابها ومستودع علومها»[3] .

ويقول الجاحظ في كتاب الحيوان « وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى ، وكان ذلك هو ديوانها» [4] .

ويقول في موضع آخر من نفس الكتاب « فإن زعمت أن غالباً كان إسلامياً ، وكان حاتم في الجاهلية والناس بمآثر العرب في الجاهلية أشد كلفاً فقد صدقت . . . وإلاّ فما بال أيام الإسلام ورجالها لم تكن أكبر في النفوس ، وأجل في الصدور من رجال الجاهلية ، مع قرب العهد ، وعظم خطر ما ملكوا ، وكثرة ما جادت به أنفسهم» [5] .

فالفضل للشعر إذاً في حفظ أخبار تلك الأيام ، وصيانتها من النسيان ، لاضطرار الراوي والسامع الى الاطلاع على مناسبة هذه الأشعار .

وكانت الأيام تجد عناية خاصة في المجتمع القبلي ، فهي مادة فخرهم ، وهي سجل تاريخهم ، وكان الشعر يلعب دوراً أساسياً في الرواية الشفهية ويتخلل القصة ، وربما ورد الشعر

(١) العقد الفريد ٥/ ٢٢٠ (٢) الأغاني/ كتب ٥/ ٥٢
(٣) كتاب الصناعتين - لأبي هلال العسكري ١٠٤
(٤) الحيوان - الجاحظ ١/ ٧٢ . (٥) الحيوان - الجاحظ ٢/ ١٠٨

في نهاية الخبر ، وذلك حسب دور الشاعر في معارك قبيلته . وهذا الشعر لا يسير بالقصة ولكنه يعطيها حيوية وتأثيراً ، وبمرور الزمن أصبح الوثيقة التي تعزّز صحة القول .

وربما نشأت قصص الأيام أول ما نشأت في مجلس القبيلة المسائية يرويها الآباء للأبناء ، فيحفظها هؤلاء الأبناء في صدورهم ، ليفخروا بها ، ويتناقلوها فيما بينهم فقصص الأيام إذاً مجموعة روايات شفهية قبلية جماعية ، هي ملك القبيلة ، وبقيت كذلك حتى عصر التدوين حيث جمعت وصنفت .

ويعتبر حاجي خليفة أخبار أيام العرب علماً يسميه « علم أيام العرب » ويعرفه بأنه « علم يبحث فيه عن الوقائع العظيمة والأهوال الشديدة بين قبائل العرب . . . والعلم المذكور ينبغي أن يجعل فرعاً من فروع التاريخ ، وإن لم يذكر أبو الخير مع أنه ذكر ما هو ليس بمثابة ذلك »(١) . وقد بدأ العرب يولون اهتماماً خاصاً بالأيام منذ عهد مبكر بعد الإسلام ، فقد كان عقيل بن أبي طالب يجلس على طنفة في مسجد الرسول ﷺ ويتحدث في علم الأنساب وأيام العرب ، ولكنه لقي العداوة بسبب إطالته في ذكر مثالب الناس(٢) .

ودأب المحدثون منذ العصر الأموي على طمس الأيام لأن فيها ايقاظاً للشعور الجاهلي الذي يقوم على العصبية ، وذلك أمر مستكره .

وقد وصلتنا أخبار الأيام بأسلوب يفيض حيوية ، يختلط النثر فيه بالشعر ، وانتقلت من جيل إلى جيل مع الشعر ، يرويها الرواة على اختلاف مستوياتهم وميولهم ، وحفظت كل قبيلة أيامها في الجاهلية ، وفخرت بها عندما اشتعلت العصبية من جديد . ولا شك أن كثيراً من تفاصيل هذه الأيام قد سقط خلال تلك الرحلة الطويلة الشاقة على الرغم من حرص الناس على تناقلها . كما أنه مما لا شك فيه أن اضطراباً قد حدث فيها ، ولعبت المبالغة وعوامل كثيرة في هذه الروايات ، وسنعرض لها في حديث مستقل فيما بعد .

وقد أفردنا فصلاً في الباب الثاني للحديث عن شعر الأيام ومصادره ورواته وتوثيقه ، لذا فإننا سنقصر حديثنا في هذا الفصل على المصادر التي نقلت إلينا أخبار الأيام دون التعرض لرواة أخبارها بالجرح والتعديل ، فذلك ما سنتحدث عنه عند حديثنا عن شعر الأيام الذي كان ملازماً لأخبار الأيام ، بل العمود الفقري لها ، والعامل الأساسي في وصول أخبار الأيام إلينا .

---

(١) كشف الظنون ١/ ٤٤٩

(٢) نكث الهميان للصفدي ٢٠٠ .

وأيام العرب في الجاهلية كثيرة العدد ، فقد بلغنا أن أبا عبيدة مَعْمَر بن المثنّى الراوية البصري (ت ٢١٠ هـ) صنّف في الأيام كتابين ، الأول كتاب الأيام الكبير ، وفيه ذكر ألفاً ومائتي يوم ، والثاني كتاب الأيام الصغير ، وذكر فيه خمسة وسبعين يوماً[١] .

أمّا الأول فقد فقد من تراثنا ولكن الذين أخذوا عنه ذكروه ، جاء في معجم البكري « هكذا قال أبو عبيدة في كتاب الأيام »[٢] ، كما صنّف صاحب الأغاني ، أبو الفرج علي ابن الحسين الأصفهاني (ت ٣٥٤) كتاباً في الأيام جمع فيه ألفاً وسبعمائة يوم[٣] .

وليس بين أيدينا اليوم كتاب مستقل يبحث في أيام العرب من الكتب التي ألفت قديماً ، فقد ضاعت كلها ، ولكن مصادر عديدة من تراثنا نقلت إلينا أخبار الأيام ونستطيع أن نميز من هذه المصادر الصور التالية[٤] :

١) كتب ورد فيها ذكر الأيام من خلال شرح الشعر وتفسير ما ورد فيه من أعلام ، وعلى رأس هذه المجموعة كتاب **«النقائض لأبي عبيدة معمر بن المثنى»** وهو كتاب شرح فيه نقائض جرير والفرزدق ، تلك النقائض التي تضمنت بين ثنايا أشعارها فخراً برجال من العصر الجاهلي ، وأيام من ذلك العصر ، وعند ذلك يتوقف أبو عبيدة فيذكر اليوم مبيناً الفريقين وسببه والقتال والنتائج والشعر الذي قيل فيه . وقد يفصل في أخبار يوم ويختصر في يوم آخر ، ويبدو أن ذلك مرتبطاً لديه من أخبار . وقد ذكر فيه أبو عبيدة أخبار سبعة وخمسين يوماً . ونجد ذلك في دواوين الشعراء التي وصلت إلينا كاملة مع شروحها التي شرحها العلماء الرواة في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، كما كنا سنجده لو وصلت إلينا دواوين القبائل . ونجد في كتاب المفضليات التي جمعها المفضل الضبي الراوية الكوفي ، والتي شرحها فيا بعد ابن الأعرابي والمرزوقي وغيرهما ، الكثير من أخبار الأيام ، كما ضمت حماسة أبي تمام بشرحيها للتبرزي وللمرزوقي في أخباراً للأيام ، إذ إنها تضمنت أخبار أيام كثيرة .

٢) ونجد أخبار الأيام مثبوتة كذلك في كتب الأمثال ، فقد يضطر إلى ذكر خبر اليوم حينما يريد شرح المثل وتوضيح مناسبته ، وأقدم كتاب وصل إلينا « **أمثال الضبي** » وقد نقل إلينا فيا

(١) كشف الظنون ـ حاجي خليفة ١/ ٤٩٩

(٢) معجم البكري ٤/ ١٣٦٢

(٣) كشف الظنون ١/ ٤٩٩ .

(٤) انظر ما ضمه كل مصدر من الأيام في الجدول الملحق بالكتاب .

نقل خبر حرب داحس وخبر حرب البسوس ، وكتاب « **مجمع الأمثال للميداني** » (ت ٥١٨ هـ) وقد ذكر مائة واثنين وثلاثين يوماً .

ويختلف كتاب الضبي عن الميداني في أن الأول أورد قصة بعض الأيام شبه كاملة كقصة حرب داحس والغبراء ، أما كتاب الميداني فيختصرها جداً ، فبعض الأيام لم يذكر منه إلاّ اسمه ، والبعض الآخر يذكر اسمه والفريقين وبيت شعر ، وربما ذكر اليوم وذكر أنه لكذا ، دون ذكر الطرف الآخر . ولكنه يمتاز عن الأول في أنه أفرد باباً خاصاً لأيام العرب في الجاهلية والإسلام . ويبدو من خلال المقارنة أن الميداني لم يكن يتحرى الدقة في ذكر أخبار هذه الأيام .

٣) وتتحدث كتب الأدب العامة عن الأيام عندما تجيء في معرض الحديث ، و قدمها كتاب « **الأغاني** » لأبي الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٤ هـ) فقد ذكر أخبار أكثر من عشرين يوماً ، عدا ذكر الغارات ، وفي الغرب ألف ابن عبد ربه (٢٤٦ هـ - ٣٢٧ هـ) كتابه « **العقد الفريد**[1] » وأفرد فيه باباً للحديث عن أيام العرب ، ورتبها على النحو التالي حروب قيس - حرب قيس وكنانة - حرب قيس وتميم - أيام بكر وتميم - حرب البسوس - أيام الفجار . وتتخلل حديثه عن حرب البسوس أيام لا تمت إلى البسوس بصلة مثل : الكُلاب الثاني ، وطِخْفَة ، وفَيْف الريح ، وتِياس ، وزَرود الأول ، وغَوْل الثاني ، والجبات وإراب والشّعب وغَوْل - والّلهَباءِ وخزاز والمعاو النُّسار وذات الشقوق ونحوَ . كما خلط مع أيام الفجار أيام الغساسنة والمناذرة .

ومجموع ما ذكره صاحب العقد سبعة وسبعون يوماً ، ويعتبر كتاب العقد من أوفى المصادر التي وصلت إلينا متضمنة أخبار مجموعة من الأيام يرتبط بعضها ببعض وتأتي في المرتبة الثالثة بعد كتابي النقائض والكامل لابن الأثير ، كما أن ابن عبد ربه الشاعر قد ضمن أخبار الأيام مجموعة من الشعر توضح مواقف معينة في تلك الأيام التي نقلها إلينا . وينقل ابن عبد ربه عن أبي عبيدة ، وابن الكلبي .

ومنها أيضاً كتاب « **المعارف لابن قتيبة** »[2] (٢١٣ هـ - ٢٧٦ هـ) الذي اكتفى بذكر بعض الأيام المشهورة باختصار وهي : ذو قار ، والفجار الأول والفجار الثاني ، والوقيط ، وشويحط ، وحرب بكر وتغلب ، وحرب داحس والغبراء .

---

(١) العقد الفريد - لابن عبد ربه من ٥/ ١٣٢ - ١٦٠

(٢) المعارف لابن قتيبة ٦٠٣ - ٦٠٧

ومنها كتاب « نهاية الأرب» للنويري[1] ، وهو من الكتب المتأخرة في عصرها ، لذا فلا يعدو أن يكون نقلاً عمن سبقه من العلماء والمؤلفات ، وترتيبه يشبه إلى حد كبير ترتيب صاحب العقد ، وقد ضمن كتابه اثنين وثمانين يوماً ، ورواته هم رواة صاحب العقد .

وفي عصر متأخر ألف القلقشندي (ت ٨٢١ هـ) كتابه « صبح الأعشى»[2] وقد تحدث في الجزء الأول من كتابه الضخم عن بعض الأيام باختصار شديد ، والأيام هي : خزاز ، والبسوس ، وعين أباغ ، ومرج حليمة ، والكديد ، والكُلاب الأول والكُلاب الثاني ، وأوارة ، ورَحْرَحان وشِعْب جَبَلَة ، وذو قار .

وعقد صاحب العمدة ابن رشيق القيرواني[3] (ت ٤٦٣ هـ) فصلاً خاصاً للحديث عن الأيام ولكن حديثه تميّز بالإيجاز الشديد ، وهو يلقي بعض الضوء عن أخبار اليوم كما أنه يتميز بأنه يذكر الرواية أحياناً[4] . أما الشعر في مجموعته فلا وجود له . ولم يراع في ذكرها أي ترتيب وقد أوضح ذلك في بداية حديثه عنها . وذكر في ذلك الفصل أخبار ستين يوماً من أيام العرب في الجاهلية بدأها بالحديث عن يوم إراب وأنهاها بالحديث عن يوم الصّريف .

٤) وللأيام نصيب في المعاجم العربية سواء منها الجغرافية مثل « معجم البلدان» لياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ) ، « معجم ما استعجم للبكري (ت ٤٨٧ هـ) » فهذا النوع من المعاجم يأتي فيه ذكر اليوم عندما يرد فيه ذكر اسم المكان الذي له صلة بذلك اليوم فيستطرد المؤلف ويتحدث عن اليوم ، وفضل هذا النوع من الكتب أنها حفظت لنا ذكر الكثير من الأيام وبعض أخبارها .

والمعاجم اللغوية تحتوي بين صفحاتها على الكثير من ذكر الأيام وبعض أخبارها ، ولكن باختصار شديد ، يتطرق واضع المعجم إلى الحديث عنها عندما يريد شرح بيت شعر ، فيذكر قائله والمناسبة ويتوقف عند هذا الحد . ولكنها ذات قيمة علمية ، لأن عالم اللغة يستوثق من مادته قبل أن يثبتها في مؤلفه .

٥) ولكتب التاريخ النصيب الأوفر في الحديث عن الأيام ، ولكنها لم تتساو في الاهتمام بها ، فالطبري (٢٣٤ - ٣١٠ هـ) لم يذكر منها إلا يوم ذي قار[4] ، وجذيمة والزباء وطسم

(١) نهاية الأرب - للنويري ١٥/ ٣١٥ وما بعدها (٢) صبح الأعشى - للقلقشندي ١/ ٣٩٠ - ٣٩٣
(٣) العمدة لابن رشيق ٢/ ١٩٨ وما بعدها . (٤) تاريخ الطبري ٢/ ١٩٣ وما بعدها .

وجديس ، وربما اكتفى بهذا القدر لأنه اهتم بأيام الملوك فأوردها ، وإما لأنه دخلها كثير من المبالغة فلم يقبل أن تدخل ضمن مادة كتابه ، ونحن إلى الإحتمال الثاني أميل .

ويأتي بعده **ابن الأثير** (ت ٦٣٢ هـ) الذي يهتم بالأيام اهتماماً شديداً في كتابه « **الكامل في التاريخ** »[1] ، وقد ذكر فيه أربعة وستين يوماً ، محاولاً ترتيبها تاريخياً ، فتم له بعض ما حاول ، متحرياً الإيجاز ولا سيا في النصوص الشعرية إما لشكه في صحتها ، وإما لشدة اهتمامه بالجانب التاريخي ، ومعتمداً على ما روى عن أبي عبيدة ، وابن اسحاق .

ويعتبر كتاب الكامل من المصادر الهامة لدراسة الأيام ، وقد قصر كتابه على ذكر الأيام المشهورة والوقائع المذكورة التي اشتملت على نفر كثيرين وقتال شديد ، وأهمل ذكر الغارات التي تشتمل على النفر اليسير لكثرتها ولأنها تخرج عن الحصر وذكر هذا في بداية حديثه عن الأيام .

والمؤرخ **أبو الفداء** ، اسماعيل بن علي (ت ٧٧٤ هـ) يكتب فصلاً في تاريخه **المختصر في أخبار البشر**[2] بعنوان : أخبار بعض أيام العرب في الجاهلية ، والأيام التي يتحدث عنها في هذا الفصل هي : حرب البسوس وحرب داحس ، ويوم أوارة ، ويوم رحرحان ، يوم شعب جبلة ، وذوقار ، ومرج حليمة ، والكلاب الأول ، وعين أباغ وخزاز .

وابن خلدون[3] في تاريخه المعروف تحدث عن يوم واحد فقط من الأيام وهو يوم ذي قار حديثاً مفصلاً . واقتصر من الأيام عليه ، وربما نهج منهج الطبري .

وابن الفرات (ت ٨٠٧ هـ)[4] تحدث في الجزء العاشر من تاريخه عن أربعين يوماً منها : داحس والغبراء والفجار والبسوس والأوس والخزرج دون مراعاة ترتيب معين ، وراعى فيها الإيجاز ، ولم يحفل كثيراً بالشعر ومادته تشبه الكتب التي سبقت هذا الكتاب .

ولم تخل كتب الجغرافية من ذكر الأيام ، **فالمسعودي** (ت ٣٤٥ هـ) في كتابه التنبيه والإشراف[5] تحدث عن تاريخ الأمم ، وكيف كانت القبائل تؤرخ ، فذكر أنها كانت تؤرخ بوقائعها الهامة ، وتحدث أثناء ذلك حديثاً مختصراً عن الأيام .

---

(١) الكامل لابن الأثير ١/ ٥٠٢ ـ ٦٨٤

(٢) المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء ١/ ٩٦

(٣) تاريخ ابن خلدون ٢/ ٥٥٩

(٤) مخطوط في جامعة الدول العربية تحت رقم ٣٢٧ تاريخ من الورقة ١ ـ ٧١

(٥) التنبيه والإشراف ـ المسعودي ١٦٧ ـ ١٨٣ .

مشكلات تواجهنا عند دراسة الأيام :

ليست دراسة الأيام ، ومحاولة الخروج بصورة حقيقية لها ، سهلة المنال ، فإن كتابة تاريخ حقيقي للأيام أمر يكاد يكون مستحيلاً ، ومع ذلك فإن ما ذكره الرواة والمؤرخون من أخبار هذه الأيام ، وإن كان لا يتضمن وقائع ثابتة ، فإنه يلقي ضوءاً كبيراً ، ويصف بأمانة كبيرة الطريقة التي كانت تثار بها المنازعات القبلية ، بالإضافة إلى أنها تلقي ضوءاً على بعض صفات العربي .

وعلى الرغم من كل ما نجده أمامنا من أخبار جمة عن هذه الأيام ، إلا أن ثمة صعوبات تعترض سبيلنا ، سنحاول التعرض لبعضها بشيء من التوضيح .

فمن المشكلات التي تواجهنا **اختلاف الروايات واضطرابها** ، على الرغم من أنها في الغالب ترد إلى مصدر واحد هو أبو عبيدة . فنجد لليوم الواحد أكثر من رواية ، تختلف فيها النتائج والأسباب والقتلى والأسرى وكل تفصيلات اليوم ، وفي القبائل المشتركة في القتال .

ولعل السبب في ذلك يرجع إلى تأخر التدوين مما جعلها تقطع رحلة طويلة تتناقلها الشفاه قبل أن تدون ، فترة تتراوح ما بين ثلاثة قرون إلى أربعة ، مع عدم تقييدها قديماً ، فلو دونت لما وقعنا في هذا الاضطراب . وسبب آخر لا يقل أهمية وهو تأثير العصبيات ، التي أثرت في نقل أخبار الأيام ، فالراوية يكيف جزئيات الرواية على هواه ، وإذا كان الراوية يمانياً فإنه يتعصب للقحطانية ضد العدنانية والعكس كذلك .

لذا وجب على دارس الأخبار المتصلة بالأيام الحذر من **دور العاطفة** في أخبارها ، ولكي نصل إلى أقرب شيء إلى الحقيقة ينبغي البحث عن روايات متعددة لليوم الواحد . والمقارنة ، وغربلة هذه الأخبار بعد ذلك أمر ضروري . ولكن هذا « ليس بميسور لأن الروايات ترد إلى نفر محدودين» [1] .

وثاني هذه المشكلات صعوبة **تحديد زمنها** ، ثم ترتيب هذه الأيام زمنياً ، وذلك بسبب تداخلها ، ولأن هذه الأيام جميعاً نشبت في مدى قرن ونصف على الرغم من كثرة عددها ، ولأن اهتمام الإخباريين تركز على قصص الأيام وأهمل الاهتمام بتخريج أسبابها وضبطها زمنياً ، ولأن الجاهليين لم يكن لهم تاريخ ثابت يؤرخون به . وكل ما يقال عن تواريخ الأيام وترتيبها هو

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام - جواد علي ٤/ ٣٤٦.

حدس وتخمين[1] وحتى حينما حاول القدماء تحديد زمنها بدا التناقض والاضطراب في كلامهم[2] .

بقي أمر ينبغي توضيحه وهو تعيين الحد الفاصل لأيام الجاهلية ، فلا يمكن اعتبار البعثة النبوية الحد الفاصل بين أيام الجاهلية وأيام الإسلام ، كما لا يمكن جعل الهجرة حداً فاصلاً لحدوث أيام بعد ذلك التاريخ بين قبائل لم تكن قد دخلت الإسلام بعد ، كيوم الشَّيِّطَيْنِ ، ومن الممكن « اعتبار كل يوم حدث بعيداً من تأثير الإسلام وتياراته ولو بعد ظهور الإسلام جاهلياً ، فيوم الوَقَبَى جاهلي ، ومثله يوما ذي قار ، والشيطين »[3] ومن المشكلات التي تصادفنا ضياع الكثير من أخبار الأيام ، فبعض المصادر لا نجدها تذكر من اليوم إلاّ اسمه ، ونفتش المصادر الأخرى علنا نظفر بما يضيف إلى ما عثرنا عليه فلا يحالفنا الحظ . فالميداني يذكر في كتابه « مجمع الأمثال » أن أقدم الأيام يوم البيداء[4] ويضيف أن لهم فيه أشعاراً كثيرة ، ونفتش عن هذه الأشعار فلا نعثر على شيء . وليس يوم البيداء هو الوحيد الذي لا نجد إلاّ اسمه في بطون الكتب .

ونحن نميل إلى الترجيح أن أيام قبائل معينة كان لها حظ عظيم في الوصول إلينا ، وساعدها على ذلك عوامل ، فأيام تميم والقبائل التي حاربتها تميم كبكر وغيرها وصلتنا بفضل نقائض جرير والفرزدق وشرح أبي عبيدة لها . وقبيلة عبس كان عنترة وشجاعته العامل الأكبر في اشتهار حروبها وبخاصة حرب داحس والغبراء . وحرب البسوس وصلتنا للقصة التي اتصلت بها ، وما صيغ عليها من الأمثال حملت معها القصة وأيام الحرب .

ولو كانت أيام العرب وصلتنا كاملة لتغيرت الصورة التي نحملها عن ذلك العصر فربما أسهمت الأيام المفقودة في إنصاف بعض القبائل ، بل ربما جعلت تلك الأيام صورة الحياة الجاهلية أكثر إشراقاً ، لأنه ربما أسهم الرواة عن عمد في نقل الأيام التي تمثل الجانب السيء من حياة العرب في جاهليتهم ، ولربما وضحت لنا تلك الأيام العلاقة الصحيحة بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، لأن الصورة عن طبيعة تلك العلاقات ما زالت باهتة يكتنفها الغموض .

فنحن نعترف منذ البداية بهذه العيوب وتلك الفجوات التي تكتنف دراستنا ، والنتائج التي نتوصل إليها ستكون نتائج ظنية لأن الجزء الآخر من الصورة ما زال غائباً ، كما أن الصورة

---

(1) المصدر السابق
(2) أنظر حديث أبي عبيدة عن يوم شعب جبلة ـ النقائض ٢/ ٦٥٤ وما بعدها
(3) النقائض ـ احمد الشايب ٦٧ ـ ٦٨
(4) مجمع الأمثال ـ الميداني ٢/ ٥٢٨

تبقى ما دام القسم الأكبر من الشعر قد ضاع أيضاً ، وضاع معه ما كان يغنينا في رسم الصورة ، عن ضياع الأخبار ، أما ضياع كليهما فأمر خطير جداً .

فنحن إذن أمام حوالي ثلاثمائة وخمسين يوماً أو تزيد ، وهو ما استطعت جمعه من مصادره بعد تمحيصه ، وملاحظة الإيهام الذي يمكن أن يقع فيه الباحث عندما يجد يوماً باسمين مختلفين ، ومن هذه المجموعة التي حصلنا عليها ، والتي تعتبر ناقصة إذا ما قورنت بما ذكر عن عدد الأيام التي جمعها أبو عبيدة والأصفهاني من هذه المجموعة سنحاول دراستها والربط بين أيام تجمعها رابطة ما ، كما سنحاول معرفة مكان بعض الأيام التي لم نحصل إلاّ على اسمها ، وربما حصلنا على القبيلتين المتحاربتين ، كما سنحاول الاستعانة بالأيام التي ترتب حدوثها على يوم سابق لثأر أو نحوه ، ويعيننا في محاولة ترتيب أيام القبيلة النصوص الصريحة أحياناً والتي تشير إلى حدوث هذا اليوم أو ذاك قبل يوم كذا أو بعده بكذا ، كما سينير لنا الشعر بما يذكره الشاعر في يوم ما فخراً بيوم سبقه ، وربما ذكر الشاعر قتلى في شعره أو أبطالاً نسترشد بهم في تحديد زمان ذلك اليوم ، وفرسان اليوم ربما كانوا لنا عوناً على تحديد الأيام الأخرى التي اشتركوا فيها .

ولكن هذا ينبغي ألا يسوقنا في التفاؤل إلى أبعد من حدود الواقع ، إنما هي محاولة قد نصيب وقد نخطىء ، أما تحديد تاريخ زمني للأيام فضرب من المحال ، اللهم إلاّ تلك الأيام التي للملوك الحيرة أو غسان أو كندة طرف فيها فربما أمكن تحديد الزمن على وجه التقريب ، لأن تاريخ أولئك الملوك شبه معروف .

وإذن فمنهج دراستنا للأيام يقوم على الأسس التالية : .

١) لمعرفة اليوم على وجه التقريب ينبغي جمع جميع الروايات من مصادرها ، وتفحصها ومقارنتها ، والنظر في أمر رواتها وعصبياتهم .

٢) الروايات التي نلمس فيها جنوحاً إلى المبالغة في خبر يتصل بجانب من جوانب اليوم ينبغي الحذر منه وطرحه جانباً .

٣) الأيام التي تتصل بفارس نسجت حوله القصص والأساطير والمبالغات تؤخذ بحذر شديد .

٤) الأيام العدنانية والقحطانية تدرس بحذر شديد لما للعصبية من أثر في تلوينها .

٥) لما كان الشعر هو العمود الفقري للأيام ، فينبغي تحري الصحيح منه وتنقيته من الموضوع والمنحول وسيكون هو الهادي لنا في طريق البحث الشاق .

٦) لما كان القتال فيه منتصر ومهزوم ، فيجب الرجوع إلى شعر اليوم من الطرفين لأن كل طرف يعطينا الصورة المشرقة له ، ومقارنة ما توصلنا إليه وتمحيصه .

٧) أما ترتيب الأيام زمنياً فنستعين بالشعر وبالأعلام الواردة فيه ، كما نستعين بالأبطال الذين شاركوا في هذه الأيام وما حدث لهم من قتل أو أسر أو نحو ذلك فنحدد موضع ذلك اليوم . أي أنه من الممكن ترتيب أيام بعض القبائل حسب حدوثها . أما الترتيب الزمني الشامل لكل الأيام . فأمر لا سبيل لتحقيقه .

٨) ينبغي ملاحظة الأيام التي ذكرت في مصادر مختلفة بأسماء مختلفة لسبب ما ، حتى لا نعدها أياماً مختلفة وسبيل ذلك الخبر نفسه ومضمونه وفرسانه وأسبابه ونحو ذلك .

تسمية اليوم :

قال ابن السكيت[1] : «العرب تقول الأيام في معنى الوقائع . . . وإنما خصوا الأيام دون ذكر الليالي في الوقائع لأن حروبهم كانت نهاراً ، وإذا كانت ليلاً ذكروها» .

ليلة العقروب حتى غامرت   جعفر يدعى ورهط ابن شكل

وتسمي العرب اليوم غالباً ، **باسم المكان** الذي حدث فيه القتال ، فقالوا يوم العَبْلاء ، ويوم طِخْفَة ، ويوم عُكاظ . وربما سموه **باسم** ماء قريب من الموقعة كيوم الكُلاب ، ويوم الذنائب ، ويوم سَفَوان ، ويوم حَرابيب ، ويوم العُذَيْب وأحياناً يسمى اليوم **باسم رجل أو امرأة** له أثر واضح في اليوم : كيوم حُجْر ويوم حَليمة ، وحرب البَسوس . وإذا حدثت عدة وقائع لسبب واحد فإن هذه المجموعة تسمى **باسم المسبب الأصلي للأحداث** : كحرب داحس والغبراء ، وحرب البسوس . وربما سموا الأيام **لصفة اتصفت بها** كحروب الفِجار . وأحياناً يسمون اليوم **باسمي مكانين** حدث فيها قتال في ذلك اليوم : كيوم النِّباج وثَيتل لأن المهاجمين وهم بنو تميم بزعامة قيس بن عاصم وسلامة بن ظرب وجدوا بني شيبان الذي يقصدونهم في مكانين فقسموا أنفسهم قسمين يذهب كل فريق إلى فريق من القوم في المكان الذي حلَّ فيه .

وأحياناً يسمى اليوم **بأكثر من اسم** كيوم ذي قار فإنه يسمى ذي قار ويوم قُراقر ، ويوم حنو ذي قار، ويوم حنوقراقر ، ويوم الجُبَابات ، ويوم ذات العَجْرَم ويوم الغذوان ، ويوم

(١) لسان العرب مادة « يوم»

البطحاء . ومثله يوم العُظالى فهم يسمونه أعشاش ، والإياد ، والأفاقة ، ومُلَيْحَة . وهم إنما يفعلون ذلك بسبب قرب هذه المواضع من بعضها . وفي معجم البكري إشارات كثيرة إلى هذا التعدد في التسمية[1] .

وربما لجأ الشعراء إلى تغيير في الاسم بسبب الضرورة الشعرية ، فقد قال الفرزدق :

وتقتيل الملوك وإن منهم ... فوارس يوم طخفة والنسار

وهو يعني يوم ضَرِيَّة ، وضَرِيَّة قريبة من المكانين السالف ذكرهما[2] .

ومن المستحسن ، تجنباً للخلط ، أن نسمي الحرب المشتملة على أكثر من يوم ، والتي يربطها سبب مشترك حرباً ، ونسمي كل منها يوماً . فنقول حرب البسوس ، ويوم تَحْلاق اللِّمَم ، لأنه يوم من أيام حرب البسوس ، ونقول داحس والغبراء ، ويوم جَفْر الهباءة . وكذلك نسمي حروب الأوس والخزرج حروباً ، ولكننا نجد أن أحد هذه الأيام وهو حاطب يتفرع منه أيام عدة ، لذا فإننا نسميه حرب حاطب ، ونسمي الأيام المتفرعة منه أياماً . ولكن هذا القول لا يضع حداً فاصلاً ، فقد وردت أيام باسم حرب ، كيوم سُمَيْر فقد ذكرته المصادر « حرب سمير» وكذا حرب السَّرَّارة ، وحرب ربيع الظفري . . .[3] .

مجموعات الأيام الكبرى :

في المصادر المختلفة لأخبار الأيام تقسيمات مختلفة لمجموعات الأيام ، ونودّ قبل أن نختار نظاماً معيناً لتقسيم الأيام التي استطعنا الحصول على أخبار لها ، أن نعرض لمختلف التقسيمات التي وردت فيها :

فإبن عبد ربه في كتابه « العقد الفريد» [4] يقسمها إلى المجموعات التالية : حروب قيس - حروب قيس وكنانة - حروب قيس وتميم - أيام بكر على تميم - أيام تميم على بكر - حرب البسوس - أيام الفجار .

(١) انظر معجم البكري فهو يشير إلى ذلك في أكثر من موضوع .
(٢) النقائض ١/ ٢٣٧
(٣) هذه كلها أيام من أيام الأوس والخزرج .
(٤) انظر العقد الفريد لابن عبد ربه ١٣٢ - ٢٦٠

أما ابن الأثير في كتابه « الكامل في التاريخ »[1] فلم يضعها في مجموعات بل رتبها تاريخياً حسب ما اجتهد .

ووضعها جورجي زيدان[2] في جدولين ، الأول : أيام العدنانية مع سواهم والثاني أيام العدنانية فيما بينها ، وقسمها إلى ثلاثة أقسام : أيام قبائل ربيعة مع قبائل مضر ، وأيام مضر فيما بينها .

أما أحمد الشايب[3] فيراها أربع مجموعات : أيام العرب والفرس ـ أيام القحطانيين فيما بينهم ـ أيام العدنانية والقحطانية ـ أيام العدنانية فيما بينها .

وجعلها جاد المولى ورفيقاه[4] في مجموعات عشر : أيام العرب والفرس ـ أيام القحطانية فيما بينها ـ أيام القحطانية والعدنانية ـ أيام ربيعة فيما بينها ـ أيام ربيعة وتميم ـ أيام قيس فيما بينها ـ أيام قيس وكنانة ـ أيام قيس وتميم ـ أيام ضبة وغيرهم ـ أيام متفرقة .

ويقسمها إحسان النص[5] إلى مجموعات أربع : أيام بين بطون القبيلة الواحدة ـ أيام بين قبائل متآخية في نسبها ـ أيام بين قبائل من أصول شتَّى ـ أيام العرب والعجم .

وإذا نظرنا إلى هذه التقسيمات السالفة الذكر وجدناها باستثناء تقسيم كتاب « أيام العرب في الجاهلية » بعيدة عن الواقع ، لأنه من المستحيل أن تتحدث عن مئات الأيام ، محاولين الربط فيما بينها وترتيبها زمنياً وهي تنتظم ثلاث مجموعات أو أربع . ولعل أصحاب هذه التقسيمات اقترحوها دون معاناة التجربة والصعوبات . أما كتاب « أيام العرب » فقد قسم حديثه عن الأيام على هذا الأساس ، وأما صاحب العقد الفريد ، فقد أدمج مجموعات دونما رابط يربطها .

والتقسيم الذي نقترحه لدراسة أيام العرب في الجاهلية هو :

الأيام بين القحطانية والعدنانية ـ الأيام التي كانت بين بكر وتميم ـ أيام قيس وكنانة ـ أيام قيس وتميم ـ حرب البسوس أو أيام ربيعة فيما بينها ـ حرب داحس والغبراء ـ حروب الفِجار ـ أيام

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ١/ ٥٠٢ ـ ٦٨٣
(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ـ جورجي زيدان ٢٥١
(٣) النقائض ـ أحمد الشايب ٦٦
(٤) انظر كتابه « أيام العرب في الجاهلية » لجاد المولى ورفيقه .
(٥) العصبية ـ إحسان النص ١٤٨

الأوس والخزرج ـ أيام الغساسنة والمناذرة ـ يوم ذي قار ـ أيام تميم والقبائل الأخرى ـ أيام بين بطون القبيلة الواحدة ـ أيام غطفان وعامر ـ أيام غطفان والقبائل الأخرى ـ أيام أخرى .

وكان من الممكن الجمع بين حروب الفجار وأيام قيس وكنانة لأن الفريقين قيس وكنانة ، ولكننا آثرنا الفصل بينها لاختلاف الدوافع ، كما كان من الممكن الجمع بين أيام الأوس والخزرج ، وحروب الغساسنة والمناذرة ، ولكننا أيضاً آثرنا الفصل لاختلاف البيئتين والدوافع والمحركات لهذه الأيام وتلك مع أنها أيام قحطانية ، كما قسمنا حروب تميم إلى مجموعات ثلاث : بكر وتميم ، وقيس وتميم ، وتميم والقبائل الأخرى تسهيلاً لدراستها لكثرتها .

ومن الممكن أن يبدو هذا التقسيم مصطنعاً بعض الشيء ، ولكنه يعيننا في دراسة هذه المجموعات بشكل أوضح ، وربما سهل علينا ترتيبها ، والربط بينها ، واستخلاص النتائج .

١) الأيام العدنانية ـ القحطانية :

وقد بلغت الأيام التي وصلتنا من هذه المجموعة ثمانية وثلاثين يوماً ، خاضتها القبائل العدنانية ضد الغساسنة ، والمناذرة ، وكندة ، وحِمْير ، وكلب ، ومذْحِج ، وزُبَيْد ، ومُراد ، وطيِّء ، والأزد . ومن جانب القبائل العدنانية اشتركت فيها : تميم ، وعامر ، وتغلب ، وبكر ، وضبَّة ، وأسد ، وسُلَيْم ، والنمر ، وتُمَيْر ، وإياد ، وذبيان .

وكان لتميم نصيب الأسد في هذه الأيام فقد خاضت منها خمسة عشر يوماً .

ونستطيع أن نميز في هذه المجموعة أقساماً ثلاثة :

أ ـ أيام خاضتها القبائل العدنانية مع اليمن وهذه الأيام هي : تَثْليث (سُليم ـ مراد) ، وخَزاز (نزار ـ اليمن) ، وحُجْر (أسد ـ كِنْدة) ، والزَّحيم (تميم ـ اليمن) ، وذو ذَرائح (تميم ـ اليمن) ، والعُذَيْب (سعد وعنْزة ـ مَذْحِج وحمير) ، والكُلاب الثاني (تميم ـ اليمن) ، وفَيْف الريح (عامر ـ اليمن) ، ونَجران (تميم ـ اليمن) ، والمضيح والضحضحان (قيس ـ اليمن) ، والسُّلّان (معد وربيعة ـ مذحج وكلب) ، والعُرقوب (عامر ـ اليمن) ، والكلاب الأول (تغلب والنمر بن قاسط وسلمة بن الحارث ـ بكر وضبة والرِّباب ويربوع مع شرحبيل بن الحارث) ، والقَرْ (خَثْعَم ـ عامر) ، وذو نَجَب (عامر وكندة ـ تميم) ، والصَّفْقَة (تميم ـ الفرس واليمن) .

ب ـ **أيام خاضتها العدنانية مع المناذرة** : أوارة الأول (المناذرة وتغلب والنمر ـ بكر) ، وأوارة الثاني (المناذرة ـ تميم) ، وجو نطاع (سعد تميم ـ المناذرة) ، والحُسَين (تغلب ـ المناذرة) ، والسُّلاَّن (عامر ـ المناذرة وتميم) ،وطِخْفَة (تميم ـ المناذرة) .

جـ ـ **أيام خاضتها مع الغساسنة** : إضَم (ضبَّة ـ الغساسنة) ، وأقر (الغساسنة ـ ذبيان) ، وحارث الجولان (الغساسنة ـ) ، وذرخْرَح (أسد ـ غسان) ، وضُبَيْعات (الغساسنة ـ تميم وتغلب) ،وغَوْل الثاني (غسان ـ يربوع) ، والمُراد (أسد ـ غسان) .

أما بقية أيام هذه المجموعة فلم يصلنا إلاّ الاسم .

وواضح أن العصبية العدنانية أو القحطانية لم تكن واضحة ، لأننا نجد قبائل عدنانية **تحارب في صفوف القحطانيين** كما حدث يوم ذي نجب حين حاربت عامر إلى جانب كندة بني تميم . ومثل ذلك نجد في أوارة الأول ، وأما ما نسمعه من امرىء القيس بقوله مخاطباً وفد بني أسد الذين عرضوا عليه الدية أو النطرة . « أما النطرة فلكم ، ثم إنكم ستعرفون في فرسان قحطان ، أحَكِّم فيكم ظبا السيف وشبا الأسنة حتى أشفي نفسي وأنال ثأري»[1] فأمر يحتاج إلى الروِّية قبل الحكم عليه ، والرأي عندي أن ذلك من عمل الرواة ذوي الأهواء اليمنية . ولكننا مع ذلك نجد أكثر هذه الأيام ، إذا ما رجعنا إلى دوافعه ، إنما كان بدافع التمرد على سلطة اليمن ونفوذها على القبائل وبخاصة مملكة كندة ، فكانت القبائل تلتمس ضعف السلطة فتثور ، أو أن القبائل اليمنية حينما تأنس في نفسها القوة تجرد حملاتها لكسر شوكة القبائل القوية كتميم وعامر وبكر وتغلب .

وتظل أيام هذه المجموعة مفككة لا نستطيع ترتيبها وربطها ببعض ما دام تاريخ الجزيرة في الجاهلية غامضاً ، فنحن بحاجة إلى معرفة الفترة التي خضعت فيها قبائل لليمن ، ومتى بدأت تستقطب هذه القبائل وتغريها بالثورة على سلطة قبائل الجنوب . أما غسان فكان صدامها مع القبائل العربية ذا طابع محدود يتصل بالصراع على الحدود ، ويبدو أنها لم تكن تمارس نفوذاً قوياً على الجزيرة العربية كما كانت اليمن أو المناذرة .

أقدم أيام هذه المجموعة ـ بين القبائل الشمالية واليمن ـ **يوم البيداء**[2] لم يصلنا عنه إلاّ أنه

(۱) الأغاني/ ثقافة ۲۳/ ٤٠٦

(۲) مجمع الأمثال ۲/ ٥٢٨

أقدم أيام العرب بين حمير وكلب ، وأن لهم فيه أشعاراً كثيرة . وقد حدد له زيدان تاريخاً هو أواسط القرن الرابع الميلادي .

ويوم السُلاّن ، وكان يومين ، يوم بين معد ومذحج وكلب ـ شهدها زهير بن جناب الكلبي[1] وقال آخرون إنما وقعة لربيعة على مذحج[2] ، ويوم بين بني عامر والنعمان بن المنذر ، وسيأتي ذكره .

وكان يوم خَزَاز[3] ، أول يوم امتنعت فيه معد عن الملوك ، ملوك حمير .وكان من حديثه أن ملكاً من ملوك اليمن كان في يديه أسارى من مضر وربيعة وقضاعة ، فوفد عليه وفد من وجوه معد ، وكلموه في الأسارى فوهبهم لهم ، فاحتبس عنده بعض الوفد رهينة حتى يأتي رؤساء قومهم لأخذ المواثيق عليهم بالطاعة ، ورجع الوفد وخبّر بما رأى وسمع ، فجمع كليب قومه واجتمعت عليه معد ، وسار بهم وجعل على مقدمة الجيش السفّاح التغلبي ، وأمرهم أن يوقدوا ناراً يهتدون بها ، فإن داهمهم العدو فليوقد نارين ، وأقبلت مذحج واستنفروا من يليهم من قبائل اليمن ، وانضمت أهل تهامة الى ربيعة ، والتقوا بخزاز ، فاقتتلوا قتالاً شديداً أكثروا فيه القتل ، فانهزمت مذْحج وانفضت جموعها . واختلف في رئيس القوم في هذا اليوم ، فقال قوم : كليب ، وقال آخرون : زُرارة بن عدس ، وقال فريق ثالث : ربيعة بن الأحوص ، وأنكر أبو عمرو بن العلاء جميع ذلك وقال : هو يوم لنزار على ملك من ملوك اليمن قديم لا يعرف من هو منهم[4] .

وفي يوم حُجْر[5] ، قتلت بنو أسد والد امرىء القيس ، وكان ملكاً عليهم ، فظلمهم فتربصوا به وقتلوه ، وهبَّ ابنه من بعده يحاول الأخذ بثأر أبيه ويستنجد بالقبائل المختلفة .

وفي يوم الصَّفْقَة[6] ، الذي كان بين تميم وعامل الفرس في اليمن ، ومن حديثه أن باذام

---

(1) مجمع الأمثال ٢/٥٢٨ .
(2) معجم البلدان ٥/١٠٤ .
(3) العقد الفريد ٥/٢٤٥ ، الكامل لابن الأثير ١/ ٥٢٠ ـ ٥٢٢ ، العمدة ٢/٢١٢ ، مجمع الأمثال ٢/٥٢٠ .
(4) العمدة ٢/٢١٢ .
(5) الأغاني/ ثقافة ٢٣/٤٠٦ ، الكامل لابن الأثير ١/ ٥١١ ـ ٥٢٠ ، مجمع الأمثال ٢/ ٥٣٦ .
(6) الأغاني/ ثقافة ١٧/٢٣٧ ـ ٢٤٠ ، العمدة ٢/٢١٧ ، مجمع الأمثال ٢/ ٥٢١ ، الكامل ١/ ٢٢٠ ـ ٦٢٦ .

عامل كسري باليمن بعث إلى كسرى عيراً تحمل ثياباً ومسكاً ، فاعترضت القافلة بنو حنظلة بن يربوع ، وقتلت حراسها ، في مكان يسمى « حَرَض »[1] وغنموا القافلة ، فبلغ الخبر كسرى وأعد بواسطة عامله بالمُشَقّر فخاً نصبه لتميم في سنة قحط ، أوقع بهم وقتل عدداً كبيراً منهم . ويسمى أيضاً يوم المُشَقّر .

وقد جر يومُ الصفقة **يومَ الكُلاب الثاني**[2] ، لقد طمعت بعض القبائل في تميم التي قُتِلَتْ يوم الصفقة ، وقد رغبوا في اغتنام هذه الفرصة والقضاء عليها وسلبها ، وهذا ما فعلته مذحج ، فقد بعثت الرسل في قبائل اليمن وأحلافها من قُضاعة ، فاجتمع لهم إثنا عشر ألفاً ، ورئيسهم عبد يغوث بن صَلاءة على مذحج ، والبَراء بن قيس على كندة وأقبل أهل اليمن ، وأقبلت سعد الرِّباب ، ورئيس الرباب النعمان بن جساس ، ورئيس بني سعد قيس بن عاصم النِقْري . واقتتل القوم وقتل الكثير ، وأُسر عبد يغوث الحارثي وقتلوه بالنعمان بن جساس ، وهُزمت مذحج ومن جاء معها .

وأغرى خصوم أوس بن حارثة الطائي بِشْر بن أبي حازم الأسدي فهجاه ، فجرَّ ذلك يوم **ظَهْر الدَّهناء**[3] ، لأن بشْراً التجأ إلى عشيرته وقومه بني أسد ، فمنعوه فسار أوس إليهم والتقوا **بظهر الدهناء**[4] واقتتلوا فانهزمت بنو أسد ، وقتلوا قتلاً ذريعاً .

وفي **يوم فَيْف الريح**[5] ، أغارت قبائل مَذْحج وأكثرها بنو الحارث بن كعب وقبائل من مُراد وجُعْفيّ وزَبيد وخَثْعَم وعليهم أَنَس بنُ مدركة وعلى بني الحارث الحصين فأغاروا على بني عامر ابن صعصعة بفيف الريح[6] ، وعلى عامر ، مُلاعِب الأَسِنَّة عامر بن مالك ، فاقتتلوا وأسرع القتل في الفريقين جميعاً ، وافترقوا ولم يشتغل بعضهم عن بعض بغنيمة ، وكان الصبر فيها والشرف لعامر .

---

(١) انظر معجم البلدان ومعجم البكري .

(٢) العقد الفريد ٥/ ٢٢٤ - ٢٣٣ ، الأغاني / كتب ١٦/ ٣٢٨ - ٣٤٠ ، العمدة ٢/ ٢٠٦ ويذكر له اسماً آخر : الشعبية ، مجمع الأمثال ٢/ ٥٢١ ، النقائض ١/ ١٤٩ ولتحديد الكلاب انظر معجم البكري (الكلاب) ، معجم البلدان ٧/ ٢٦٩ ، صحيح الأخبار ١/ ٤٣ .

(٣) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٢٦ .

(٤) معجم البلدان ٤/ ١١٥ ، صحيح الأخبار ١/ ٤٢ .

(٥) النقائض ١/ ٤٦٩ ، العقد الفريد ٥/ ٢٣٥ ، الكامل ١/ ٦٣٢ - ٦٣٤ ، العمدة ٢/ ٢١٣ ، مجمع الأمثال ٢/ ٥٢٧ .

(٦) معجم البكري ٣/ ١٠٣٨ معجم البلدان ٦/ ٤١٣ .

ونكتفي بهذا القدر من أيام هذه الفئة .

***

ومن أيام العرب مع المناذرة **يوم طِخْفَة**[1]، وهو يوم لبني يربوع على عساكر النعمان بن المنذر ، وسببه محاولة نزع الرِّدافة من بني يربوع وجعلها في بني مُجاشع بإيعاز من حاجب بن زُرارة . وقد هَزَمَتْ يربوعُ جيوشَ النعمان وأسرت أخاه حسان بن المنذر وابنه قابوس .

ومنها **يوم أوارة الأول**[2] وسببه أن تغلب لما أخرجت سَلَمَةَ بن الحارث الكِنْديّ عنها التجأ إلى بكر بن وائل ، فلما صار عند بكر أذعنت له وحشدت عليه ، وقالوا : لا يملكنا غيرك ، فبعث إليهم المنذر يدعوهم إلى طاعته ، فأبوا فحلف ليسيرنَّ إليهم وليذبحنَّهم على قُلَّة جبل أوارة حتى يبلغ الدم الحضيض . وغزاهم المنذر وقتل منهم ، فشفع لهم مالك بن كعب العِجْليّ ، وأخرجه من يمينه ، فكفَّ عن القتل .

وفي **يوم أوارة الثاني**[3] الذي أوقع فيه عمرو بن هند ببني تميم ويقال له القُصَيَّة ، وسببه أنه كان لعمرو بن هند ابن مسترضع في بني دارم عند زُرارة بن عُدُس ، فقتل ابنه ناقة لرجل يسمى سويداً . فقتله سويد ، فغزا عمرو بن هند بني دارم ، وأقسم ليقتلنَّ منهم مائة ، فقتل تسعة وتسعين ، وأتم المائة برجل من البراجم .

وفي **يوم السُّلَّان**[4] ، الذي كان سببه تعرّض بني عامر للطيمة النعمان بن المنذر ، فغضب النعمان ، وأمر بتجهيز حملة لتأديب عامر ، ولكن جيشه هزم وأُسِر أخوه وَبْرَة الكلبي .

***

---

(١) النقائض ١/ ٦٦ ويسميه يوم ذات كهف ويوم طخفة ، العقد الفريد ٥/ ٢٣٤ العمدة ٢/ ٢٠١ ، مجمع الأمثال ٢/ ٥٢١ ، الكامل ١/ ٦٤٩ ولتحديد طخفة انظر معجم البكري (طخفة) ، معجم البلدان ٦/ ٣٢ ، صحيح الأخبار ٢/ ١٠٢ .

(٢) الكامل لابن الأثير ١/ ٥٥٢ العمدة ٢/ ٢١٦ ، مجمع الأمثال ٢/ ٥٢٨ ، ولتحديد الموقع انظر معجم البكري (أوارة) معجم البلدان ٧/ ١١٤ ، صحيح الأخبار ٢/ ٩٤ ، ٣/ ١٤٢ .

(٣) النقائض ٢/ ٦٥٢ ، العمدة ٢/ ٢١٦ ، الكامل لابن الأثير ١/ ٥٥٣ ـ ٥٥٥ ، الكامل للمبرد ـ طبعة أوروبا ٩٧ .

(٤) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٣٩ ـ ٦٤١ .

أما أيام غسان مع القبائل العربية فمنها **يوم غَوْل الثاني أو يوم كِنْهَل**[١]، وسببه أن ابنيْ هُجَيْمَة الغسانيين أقبلا في جيش، فنزلا في بني يربوع، فأغار عليها أناس من بني ثعلبة بن يربوع فاستاقوا نعمها وأسروا من كان في النعم، فركب ابنـا هُجَيْمَة في أثرهم، وقُتِلا، قتلهما عُتَيْبَة بن الحارث اليربوعي الواحد تلو الآخر. وابنا هجيمة الهِرْماس وعمرو بن كبشة.

ومن هذه الأيام **يوم ذُرَحْرَح**[٢]، الذي أغار فيه ملك من ملوكهم يقال له عيٌّ، ابن أخت الحارث بن أبي شمر على بني أسد، فلقيه بنو سعد بن ثعلبة بن دودان، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وقتلوا عدياً، وهزموا الجيش.

وأغار محرق الغساني وأخوه على بني ضَبَّة ببزاخة[٣]، في طوائف من العـرب من إياد وتغلب وغيرهما أدركتهم بنو ضبَّة فأسر زيدُ الفوارس مُحَرِّقاً، وأسر أخـاه هُبَيش بن دُلَف ثم قتلاهما بعد هزيمة من كان معهما، وقُتل معهما عِدّة[٤].

وفي يوم إضَم[٥]، هزمت بنو عائذة بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبه الحارث بن مُرَيْقيا الملك الغساني، وحمل رجل من بني عائذة بن قيس يدعى عامر بن ضامر على ابن مزيقيا فطعنه فقتله، وانهزم أصحابه هزيمة فاحشة. ويذكر ابن رشيق أن قوماً زعموا أن يوم إضم هو يوم بُزاخَة.

هذا عرض سريع لأيام هذه المجموعة، لم نستطـع تحديدهـا زمنياً لغمـوض التـاريخ الجاهلي، كل ما نستطيع أن نفعله لو بحثنا هو تحديد بعض الأيام في فترة زمنية هي تلك الفترة التي حكم فيها هذا الملك أو ذاك، ولكننا لا نستطيع غير ذلك.

٢) أيام بكر وتميم :

قبيلة بكر بن وائل قبيلة عظيمة من العدنانية، فيها الشهرة والعدد ومن بطونها يشكر بن بكر بن وائل، وبنو عكابة بن صَعْب بن علي بن بكر بن وائل، وبنو حنيفة، وبنو عِجْل ابنيْ

---

(١) العقد الفريد ٥/٢٣٨ - ٢٣٩، معجم البكري ٤/١١٣٦، معجم البلـدان ٧/٢٨٧، صحيح الأخبار ٤/٧٣، ١٨٣، ١/٧٥.
(٢) الأغاني/ كتب ١١/١٩٩، مجمع الأمثال ٢/٥٣٠، معجم البكري ٣/٦٢٧.
(٣) معجم البلدان ٢/١٦٠، صحيح الأخبار ٢/٣٤.
(٤) العمدة ٢/٢٠٧، النقائض ١/١٩٥.
(٥) العمدة ٢/٢٠٨، معجم البلدان ١/٢٨١، صحيح الأخبار ٢/٤٨.

لُجَيْم بن صعب[1] . وكانت ديارهم من اليمامة إلى البحرين إلى سيف كاظمة إلى البحرين فأطراف العراق ، فالأُبلة ، فهيت[2] .

وقبيلة تميم بن مر قبيلة عظيمة من العدنانية ، كانت منازلهم بأرض نجد دائرة من هنالك على البصرة واليمامة ، حتى يتصلوا بالبحرين وانتشرت إلى العُذَيْب من أرض البصرة[3] .

وكانت القبيلتان تتجاوران في منازلها ، كما كان بين منازلها تباين في الخصب وكانت أرض تميم أكثر خصباً ، وقد نشبت بينهما حروب بسبب هذا ، وفي الغالب تكون بكر الهاجمة على إثر جدب لحق بمنازلها[4] .

وربما أضفنا سبباً آخر لهذا الصراع ، فقد ذكر ابن الأثير[5] وصاحب العقد الفريد[6] أن بكراً كانت تحت يد كسرى وفارس وكانوا يجيرونهم ويجيزونهم ، ولعل هذا يفسر لنا الصراع بين بكر وتميم حيث أن تميماً كانت في حالة عداء مع كسرى ، ويوم الصفقة وغيره دليل على ذلك ، ويوم ذي قار رأينا لدى بكر أسرى من تميم .

على أننا ينبغي ألا نفهم أن الخصومة بين القبيلتين كانت مطلقة ، فقد كانت موادعة بين بعض بطون تميم وبكر على حساب بطون أخرى كما حدث يوم جَدود[7] وكذا يوم مُبايض فقد كان بين حين من بكر خصومة[8] .

وقد ذكرت المصادر التي عرضت لأيام هذه المجموعة بوضوح البطون التي اشتركت في الأيام على النحو التالي :

من تميم : يربوع (خمسة عشر يوماً) وبنو عمرو بن تميم (خمسة أيام) والثعالب من تميم (ثلاثة أيام) وبنو سعد بن زيد مناة (يومان) ، وبنو منقر (يومان) ، وكل من مجاشع ، وبنو العنبر وحنظلة وضبة اشتركت في يوم واحد . أما المصادر التي لم توضح فقد اكتفت بذكر تميم .

ومن بكر : بنو شيبان (خمسة عشر يوماً) وبنو يشكر (ثلاثة أيام) ، وبنو حنيفة (يومان)

(1) معجم قبائل العرب ١/ ٩٣ وانظر العقد الفريد ٣/ ٣٦٠ - ٣٦٣ نهاية الأرب للقلقشندي ١٧٨ .
(2) صفة جزيرة العرب للهمداني ١٦٩ .
(3) معجم قبائل العرب ١/ ١٢٦ .
(4) العرب قبل الإسلام - جرجي زيدان ٢٥٤ .
(5) الكامل لابن الأثير ١/ ٦١٢ .
(6) العقد الفريد ٥/ ١٩٢ .
(7) العقد الفريد ٥/ ١٩٩ - ٢٠١ .
(8) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٠٢ .

وبنو تيم اللات (يومان)، وبنو عجل (يوم واحد) ، وبنو بكر بقية الأيام التي لم توضحها المصادر .

وبلغت عدة أيام هذه المجموعة التي وصلتنا سبعة وأربعين يوماً خاضت يربوع منها أكثر من خمسة عشر يوماً ، وكذلك بنو شيبان ، مما يشير إلى قوة هذين البطنين ، أو إلى ظهور فرسان منها قادوا القبيلتين إلى حروب مستمرة .

وظهر من شيبان الفارس بِسْطام بن قيس الذي قال عنه ابن الأعرابي[1] « كان لبسطام أربع وقعات : أَسر يوم الصحراء ، وظفر يوم قُشَاوة ، وانهزم يوم العُظالى ، وقُتل يوم النَّقا » .

وظهر من يربوع أكثر من فارس منهم عُتَيْبَة بن الحارث اليربوعي،وطريف بن تميم العنبري وقيس بن عاصم المِنْقَرِيّ ، والأقرع بن حابس المُجاشعيّ ، ولقيط بن زُرارة التميمي وأخوه مَعْبَد ، ومُتَمّم بن نُوَيْرة وأخوه مالك اليربوعيين، والنعمان بن جساس، وعَميرة بن طارق اليربوعي .

كما برز من فرسان بكر الحوفزان بن شريك ، ووائل بن صريم اليشكريّ وعمرو بن مَرْثَد ، وأبجر العِجْليّ وأُشَيْم مأوى الصعاليك، والأصم، وطريف بن شراحيل.

أما دوافع هذه الأيام فيمكن ردها إلى: الغارة من أجل النهب والسلب ويشكل غالبية أسباب دوافع هذه المجموعة، ومنها الثأر الذي حدث بسبب الأيام المتتالية والتي كانت تخلف الثارات، ومنها الصراع على الماء ومنها الصراع على المرعى.

وإن صحت الروايات التي بين أيدينا فقتلى هذه المجموعة كثيرون إذا ما قورنوا بالمجموعات الأخرى ، فهم يعدون بالمئات من كل جانب . وربما مال بعض الرواة إلى المبالغة ولكن تبقى بعض الحقيقة بأن كثرة هذه الأيام وما كانت تحدثه من حالات الثأر ، كانت كفيلة برفع عدد الضحايا على الرغم من حرص القبائل التي تغزو على تجنب القتل ما وسعها ذلك .

وعلى الرغم من أن أيام هذه المجموعة كثيرة إلا أن ثمة ضوابط تعيننا في ترتيب هذه الأيام ، أو بعضها تاريخياً ، فنستعين بفرسان هذه الأيام ، كما نستعين بما ذكرته المصادر من أن هذا اليوم كان بعد ذاك أو قبله ، كما نستعين بوقائع حدثت بسبب وقائع أخرى . ونستطيع أن نخمن

(١) معجم البكري ٣/ ١٠٧٥ .

تخميناً يقترب من الصواب أن الأيام التالية مرتبة تاريخياً : يوم يَعْف قُشاوة ، ويوم الغَبيط ، ويوم فَيْحان ، ويوم ذي قار الأول ، ويوم صعفوق ، ويوم غول الأول ، ويوم مُبايض ، ويوم الزُوَيْرَين ، ويوم جَدود ، ويوم مُلَيْحَة ، ويوم العظالى ، ويوم ذي طُلوح ، ويوم النِّباج ، ويوم فَلْج ، ويوم الشَّيْطَيْن . أما الأيام الأخرى فلم نستطع ، أما لأنه لم يذكر منها ما يعيننا ، وإما لأنها لم يُعرف منها إلا الإسم .

ويجب الحذر عند دراسة هذه المجموعة من تعدد أسماء اليوم الواحد ، فيوم ذي طلوح هو يوم بَلْقاء ويوم الصَّمْد ويوم أود جَوْف طُوَيْلِح وذي حثال، ويوم العظالي هو يوم أعشاش ويوم الإياد ويوم الأُفاقة ويوم مُلَيْحَة ، وأمثلة ذلك كثيرة .

ولن نعرض لدراسة أيام هذه المجموعة لأنها كثيرة ومتشابهة ، ويستطيع من يرغب في دراستها أن يرجع إليها في مصادرها[1] .

أيام قيس وكنانة :[2]

وتضم هذه المجموعة ، فيا وصل إلينا ، أياماً ثلاثة متسلسلة ، كل يوم مرتبط بسابقه ، فهو ثأر لليوم السابق له . وفريقا هذه المجموعة هما : بنو سُلَيْم من قيس وبنو فراس من كنانة .

وكان الدافع لهذه الأيام ، بالإضافة إلى الثأر ، الغزو والصراع على موارد العيش من أجل البقاء . وبطل كنانة وفارسها في هذه الأيام والذي يعد نموذجاً حياً صادقاً للفروسية والشجاعة

---

(١) مصادر هذه المجموعة : النقائض في الصفحات : ٢/ ٦٧٩ ، ٢/ ٥٨٣ ، ١/ ١٤ ، ٢/ ١٠٢٠ ، ١/ ٤٩ ، ٢/ ٧٨١ ، ١/ ٥٤ ، ٧٣ ، ١٨ ، ١٩٠ ، ٢٦٨ وذكر ثلاثة عشر يوماً ١/ ٣٠٥ .
العقد الفريد ٥/ ١٨٢ ـ ٢١٢ وذكر منها اثنين وعشرين يوماً ، الكامل لابن الأثير الصفحات ١/ ٦٢٨ ، ٦١٠ ، ٦٠٤ ـ ٦٠٦ ، ٦٥٤ ، ٦٠٢ ، ٦٢٨ .
العمدة لابن رشيق ٢/ ٢١٥ وما بعدها وذكر تسعة أيام .
مجمع الأمثال للميداني انظر الصفحات : ٢/ ٥٣٧ ، ٢/ ٥٣٣ ، ٢/ ٥٢٢ و ٢/ ٥٣٢ ، ٢/ ٥٣٠ ، ٢/ ٥٣٤ وذكر منها واحداً وثلاثين يوماً . ٢/ ٥٣١ ، ٢/ ٥٣٦ ، ٢/ ٥٢٤ ، ٢/ ٥٣٥ ، ٢/ ٥٢٩ ، ٢/ ٥٢١ ، ٢/ ٥٢٨ ، ٢/ ٥٢٥ ، ٢/ ٥٢٣ ، ٢/ ٥٢٦ .
الأغاني / كتب ١٧/ ٢٥٥ ، ١٧/ ٣١٨ ـ ٣٢٢ .

(٢) مصادر دراسة هذه المجموعة : العقد الفريد ٥/ ١٧٤ ـ ١٧٦ ، الأغاني/ ثقافة ١٦/ ٢٤ ـ ٣١ ليوم الكديد ، معجم البلدان ٧/ ٢٢٤ ، ٢/ ١٢٥ ، نهاية الأرب للنويري ١٥/ ٣٧٣ ـ ٣٧٥ ذكر يومي الكديد والفيفاء ، معجم البكري ٤/ ١١٢٠ ، ١/ ٢٤٧ ، ٣/ ١٠٣٦ .

والنبل ، هو ربيعة بن مكَدّم حامي الظعينة حياً وميتاً والذي يستقطب الناس يمتدحون شجاعته حياً وميتاً من غير عصبيته ، وقد سقط هذا الفارس الشجاع يوم الكَديد صريعاً[1] . وبطل سُلَيْم وفارسها مالك بن خالد بن صخر بن الشريد الذي قتلته كنانة يوم بُرْزَة ، فتولى القيادة بعده هِنْد ابن خالد بن صخر فقتُل يوم بُرْزَة ، فخلفه كُرْز بن خالد بن صخر فقتُل في نفس اليوم قتلهم عبد الله بن جذل ، فخلف كرزاً أخوه عمرو[2] .

وقد جرت أحداث هذه المجموعة حول مكة ، حيث تقطن القبيلتان .

وأول هذه الأيام يوم الكَديد ، وقد رواه صاحب الأغاني عن أبي عبيدة عن أبي عمرو بن العَلاء أن نفراً من بني سُلَيْم تنافروا مع نفر من بني فِراس ، فقتلت رجلين من بني سُلَيْم ، ثم ودوهما ، ثم خرج نُبَيْشَة بن حَبيب السُّلَمي غازياً فلقي ظعناً من بني كنانة بالكَديد[3] في رَكْب من قومه ، وبصر بهم نفر من بني فراس فيهم عبد الله بن جذل الطعان ، وربيعة بن مكَدّم ، فظن بنو فراس أن بني سُلَيم جاءت تطلب دماءهم ، وذهب ربيعة بن مكدم يستطلع الخبر ، ثم نشبت الحرب ، وقُتل ربيعة في هذا اليوم قتله نُبَيْشَة بن حَبيب السلمي وقد قدر بعضهم حدوث هذا اليوم سنة ٦٠٢ م[4] .

فلما قتلت بنو سليم ربيعة بن مكدم رجعت بنو كنانة ، وأقاموا ما شاء الله ، ثم إن مالك ابن خالد بن صخر بن الشريد غزا بني كنانة ، فأغار على بني فراس بِبُرْزَة[5] ورئيس بني فراس عبد الله بن جذل ، وقُتل في هذا اليوم مالك بن خالد بن صخر بن الشريد ، وكُرز بن خالد بن صخر بن الشريد ، قتلهما عبد الله بن جذل . وقد نهى عمرو بن خالد أخاه مالكاً عن غزو بني فراس فعصاه .

ثم إن بني الشريد حرموا على أنفسهم النساء والدهن حتى يدركوا ثأرهم من بني كنانة ، فغزا عمرو بن خالد بن صخر بقومه حتى أغار على بني فراس[6] ، فقتل نفراً منهم : عاصم بن

---

(١) الأغاني/ ثقافة ١٦/ ٢٥ .
(٢) العقد الفريد ٥/ ١٧٤ .
(٣) الكديد : موضع بين مكة والمدينة انظر البكري ٤/ ١١١٩ ، ياقوت ٧/ ٢٢٤ .
(٤) رياض الأدب - لويش شيخو ص ٨٨ .
(٥) أنظر لتحديد المكان معجم ياقوت ٢/ ١٢٥ ، معجم البكري ١/ ٢٤٧ .
(٦) كان اللقاء في الفيفاء وهي مفازة لا ماء فيها أنظر معجم البكري ٣/ ١٠٣٦ .

المعليّ ، ونضلة السلميّ والمُعَارِك ، وعَمرو بن مالك وحصن وشُرَيْح ، وسبى سبياً فيهم ابنة مكدم أخت ربيعة .

وقتل هذه المجموعة ، استناداً إلى ما بين أيدينا من أخبار ، لا يتعدى أحد عشر رجلاً .

والمصادر التي تعرض هذه المجموعة ينقلون جميعاً عن أبي عبيدة الذي نقل عن أبي عمرو ابن العَلاء .

٤ - حروب الفِجار :

وفريقا القتال في هذه المجموعة قريش وكنانة كلها في جانب وهوازن كلها في الجانب الآخر ، فهي إذاً بين قيس وكنانة ، وقد سميت بذلك لأنها كانت في الأشهر الحرم ، ولأنهم تفاجروا فيها ، سمَّتها قريش بذلك . يقول ابن باسحق « وإنما سمي يوم الفجار بما استحلّ هذان الحيّان ، كنانة وقيس عَيْلان ، فيه المحارم بينهم » [١] .

وقد اختلفت المصادر في تقسيمات هذه الأيام ، ولكنها لم تختلف في وقائعها ، فالذين جعلوها أربع وقائع قسموها على النحو التالي : [٢]

الفِجار الأول أو فِجار الرجل وهو بَدْر بن مَعْشَر الضمريّ .

الفِجار الثاني أو فِجار الرّياح وهو القرد .

الفِجار الثالث أو فِجار المرأة القيسية .

الفِجار الرابع أو الفِجار الآخر أو فِجار البَرّاض وهو أعظمها .

والذين جعلوها فجارين [٣] ، جعلوا الفِجار الأول يضم أياماً ثلاثة هي في التقسيم الأول الفِجار الأول والفِجار الثاني والفِجار الثالث ، وجعلوها في فِجار واحد لأنها لم تكن قتالاً بالمعنى الحقيقي للقتال ، فلم تهرق إلاّ دماء يسيرة .

---

(١) الروض الأنف - السهيلي ١/ ٩٢ .

(٢) أنظر التنبيه والإشراف للمسعودي ١٧٩ ، مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٥١٧ ، العمدة لابن رشيق ٢/ ٢١٨ .

(٣) انظر الأغاني/ ثقافة ٢٢/ ٦٠ - ٨٠ ، الكامل لابن الأثير ١/ ٥٨٨ - ٥٩٥ ، نهاية الأرب للنويري ١٥/ ٤٢٣ .

والفِجار الثاني عندهم هو الفِجار الرابع في التقسيم الأول .

وأما ابن قتيبة فلا يعتبر الأول والثاني والثالث فِجاراً ويعتبر الرابع الفِجار الأول .[1]

وزمن أيام الفِجار أمكن تحديده بشكل تقريبي لأن الرسول ﷺ حضر بعض وقائعه مع أعمامه، ومن هنا انطلقوا في الحدس، فابن هشام (الروض الأنف ١/ ١٢٠) ومن تابعه من ابن عبد ربّه[2] والميداني[3] يقولون إن الرسول ﷺ حضرها وعمره أربع عشرة سنة ، وأن بين الفِجار الأخير ومبعث الرسول سنة ستاً وعشرين سنة وابن إسحق[4] ومن تابعه يقولون إنه حضرها وعمره عشرون سنة . وفي الأغاني خبران، أولهما يروي فيه أن بين يوم نَخْلَة ومبعث الرسول الكريم ستاً وعشرين سنة، وأنه شهدها وله أربع عشرة سنة وراوية هذا الخبر أبو عبيدة[5]، وثانيهما يروي فيه أنه شهدها وهو ابن ثمان وعشرين[6] ويروي اليعقوبي أن الرسول شهدها وله سبع عشرة سنة وقيل عشرون.[7]

ونستطيع التوفيق بين الرأيين ، كما وفق بينهما باحث آخر[8] ، إذا علمنا أن أيام الفِجار الرابع وقعت في أربع سنين ، أن نقول بأن الحرب قد وضعت أوزارها وعمره أشرف على العشرين سنة .

ويروي صاحب الأغاني في بداية حديثه عن أيام الفِجار فيقول « الفِجار فِجاران وكانت هذه الحروب بين قريش وقيس عيلان في أربعة أعوام متواليات ، ولم يكن لقريش في أولها مدخل ، ثم التحقت بها .

فأما الفِجار الأول فكانت الحرب فيه ثلاثة أيام ولم تسم باسم لشهرتها ، وأما الفِجار الثاني فإنه كان أعظمها ، لأنهم استحلوا فيه الحرم ، وكانت أيامه : نَخْلَة، وشَمْطَة، والعَبْلاء، وعكاظ، والحريرة»[9].

وقد كان أول أمر الفِجار أن بدر بن معشر الكناني وكان يستطيل على من ورد عكاظ ،

---

(١) العمدة ٢/ ٢١٨ - ٢١٩ .
(٢) العقد الفريد ٥/ ٢٥٣
(٣) مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٥١٧
(٤) الروض الأنف - للسهيلي ١/ ١٢١
(٥) الأغاني/ ثقافة ٢٢/ ٦٣
(٦) المصدر السابق ٢٢/ ٦٣
(٧) تاريخ اليعقوبي - طبعة النجف ٢/ ١١
(٨) أسواق العرب - سعيد الأفغاني ١٤٤ .
(٩) الأغاني/ ثقافة ٢٢/ ٦٠ .

جلس بسوق عكاظ أول يوم من ذي القعدة ، فمد رجْلَه وقال : أنا أعز العرب ، فمن كان أعز منها فليضربها بالسيف ، فضربها الأحمر بن هوازن من بني نصر بن معاوية ، فكان بين القبيلتين تشاجر دون أن تقع بينهما دماء[1].

وأما اليوم الثاني فكان الذي هاجه أن شباباً من قريش وبني كنانة قعدوا إلى امرأة من بني عامر بسوق عكاظ ، وكانت جميلة ، فسألوها أن تسفر فأبت ، فقام أحدهم فجلس خلفهـا ، وحلّ طرف درعها ، وشده إلى فوق حجزتها ، وهي لا تعلم ، فلما قامت انكشف درعها عن دبرها فضحكوا منها ، فصاحت يا آل عامر ، فثاروا وحملوا السلاح وحملته كنانة ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، ووقعت بينهم دماء ، فتوسط حرب بن أمية واحتمل دماء القوم ، وأرضى بني عامر من مثلة صاحبتهم[2] .

وأما اليوم الثالث فكان الذي هاجه أن رجلاً من بني كنانة كان عليه دين لرجل من بني نصر ابن معاوية فأعدم الكناني ، ولما أعياه وافاه الجشمي في سوق عكاظ بقرد ، وجعل ينادي : من يبيعني مثل هذا الرُّباح ، وهو القرد ، بما لي على فلان ابن فلان الكناني ؟ رافعاً صوته بذلك ، فلما طال نداؤه وتعييره بني كنانة ، مر به رجل منهم فضرب القرد بسيفه فقتله ، فهتف الجشمي : يا آل هوازن ، وهتف الكناني : يا آل كنانة ، فتجمع الحيان واقتتلوا حتى تحاجزوا ، ولم يكن بينهم قتلى ، ثم كفوا وقالوا : أفي رُباح تريقون دماءكم وتقتلون أنفسكم ؟ وحمل عبد الله بن جدعان ذلك في ماله بين الفريقين .[3]

أما الفجار الثاني ، أو الرابع ، فهو أعظمها وهو الذي استحل فيه الحرم ، وتفاقم فيه الشر ، وكان الذي هاجه قتل البراض الكناني عروة الرحال بن عتبة بن جعفر بن كُلاب ، ورفضت هوازن أن تقتل البراض بعروة ، لأن عروة سيد هوازن ، والبراض خليع بني كنانة ، وأرادوا أن يقتلوا به سيداً من قريش[4] .

---

(١) انظر الأغاني ٢٢/ ٦١ ، العمدة ٢/ ٢١٨ والكامل لابن الأثير ١/ ٥٨٨ والعقد الفريد ٥/ ٢٥١ .

(٢) انظر العقد الفريد ٤/ ٢٥٢ ، العمدة ٢/ ٢١٨ الذي يروي أن الذي حمل الدماء الحارث بن أمية ، الأغاني/ ثقافة ٢٢/ ٦٢ ، الكامل لابن الأثير ١/ ٥٨٨ .

(٣) الأغاني ٢٢/ ٦٢ـ٦٣ ، العقد الفريد ٥/ ٢٥٢ العمدة ٢/ ٢١٩ ، الكامل لابـن الأثيـر ١/ ٥٨٨ .

(٤) العقد الفريد ٥/ ٢٥٣ الأغاني ٢٢/ ٦٣ ، الكامل لابن الأثير ١/ ٥٨٨ وما بعدها .

وأول حروب يوم الفجار الثاني ، أو الآخر يوم نَخْلة[1] ، وبينه وبين بعث النبيﷺ ست وعشرون سنة ، شهد النبيﷺ ذلك اليوم مع قومه وله أربع عشرة سنة ، وكان يناول عمومته النبل ، هذا قول أبي عبيدة . قال غيره : بل شهدها وهو ابن ثمان وعشرين[2] ، والرأي الثاني بعيد لأنه لو كان عمره ثمانياً وعشرين سنة لاشترك في الحرب اشتراكاً فعلياً ، وهذا ما لم يقله أحد .

وكان الذي هاج هذه الحرب ، كما أسلفنا قتل البراض بن قيس بن رافع الكناني عروةَ الرحال ، وسبب قتله أن النعمان كان يبعث إلى سوق عكاظ كل سنة لطيمة يجيزها له سيِّد مضر فتباع ويشتري له بثمنها الأدم والحرير ونحوه ، فجهز النعمان اللطيمة وقال : من يجيزها ؟ فقال البراض : أنا أجيزها على بني كنانة فقال : إنما أريد رجلاً يجيزها على أهل نجد ، فتقدم عُروة الرحال بن عتبة بن جعفر بن كلاب قائلاً : أنا أجيزها أبيت اللعن ، فقال البراض : وعلى بني كنانة تجيزها يا عروة ؟ قال : نعم وتنافرا ، ثم تربص البراض بعروة وهو يشخص بالقافلة حتى قتله في غفلة عنه . وبلغ قريشاً الخبر وهي في عكاظ ، فجاءت عبد الله بن جدعان الذي كانت العرب تضع أسلحتها عنده حتى يفزعوا من أسواقهم وحجهم . وأخبروه الخبر وطلبوا منه أن يحتبس سلاح هوازن فأبى ، ولكنهم بعثوا إلى أبي بَراء زعيم بني عامر يبررون انسحابهم من السوق ، وعادوا إلى مكة ، وبلغ هوازن الخبر فركب من حضر في أثرهم ، فأدركوهم بنخلة[3] ، فاقتتلوا حتى دخلت قريش الحرم وجنَّ عليهم الليل فكفوا ، فنادى أحد بن عامر : يا معشر قريش ، ميعاد ما بيننا هذه الليلة من العام المقبل بعُكاظ . وكان رؤساء قريش حَرْب بن أمية ، وابن جُدعان ، وهشام بن المُغيرة ، ورؤساء قيس عامر بن مالك مُلاعِب الأَسنة ، وكدام بن عمير ، ومسعود بن سَهْم الثقفي وسُبَيْع بن ربيعة النصري ، والصِّمَّة بن الحارث الجُشَمِيّ .

وفي العام التالي جمعت كنانة قريشها وعبد منافها والأحابيش ومن لحق بهم من بني أسد ، وسلح يومئذ عبد الله بن جدعان مائة كميٍّ بأداة كاملة سوى من سلح من قومه . وجمعت سُليم وهوازن جموعها وأحلافها غير كلاب وبني كعب فإنهم لم يشهدا يوم الفجار غير يوم نَخْلَة ، فاجتمع القوم بشمطة[4] من عكاظ في الأيام التي تواعدوا فيها ، وعلى كل قبيلة سيدها ، غير أن

(١) الأغاني ٢٢/ ٦٣ العقد الفريد ٥/ ٢٥٣ ، مجمع الأمثال ٢/ ١٥٨ .
(٢) الأغاني/ ثقافة ٢٢/ ٦٣ .
(٣) أنظر معجم البلدان ٨/ ٢٧٥ .
(٤) أنظر معجم البلدان ٥/ ٢٩٥ وصحيح الأخبار ٣/ ١٦٦ .

أمر كنانة كلها إلى حرب بن أمية ، وأمر هوازن كلها إلى مسعود بن معتب الثقفي . وتناهض الناس وزحف بعضهم إلى بعض ، فكانت الدائرة في أول النهار لكنانة على هوازن ، حتى إذا كان آخر النهار تداعت هوازن وصابرت وانقشعت كنانة ، فاستحر القتل فيهم ، فقتل منهم تحت رايتهم مائة رجل ، وقيل ثمانون ، ولم يقتل من قريش أحد يذكر[1] .

ثم جمع هؤلاء وأولئك والتقوا على قرن الحول في اليوم الثالث من أيام عكاظ ، والرؤساء على هؤلاء وأولئك الذين ذكرنا في يوم شَمْطة ، التقوا بالعَبْلاء[2] وهو موضع قريب من عكاظ فكان قتال شديد ، وانهزمت كنانة ، وقتل العَوّام بن خُويلد والد الزبير بن العوام ، قتله مُرَّة بن مُعتِّب الثقفي[3] .

ثم كان اليوم الرابع ، فجمع هؤلاء وأولئك ، والتقوا على قرن الحول بشَرِب[4] ولم يكن بينهم يوم أعظم منه ، والرؤساء على الفريقين من ذكرنا ، وحمل ابن جُدعان يومئذ مائة رجل على مائة بعير ممن لم تكن لهم حمولة[5] ، فالتقوا ، وخشيت قريش أن يجري عليها مثل ما جرى يوم العَبْلاء ، فقيّد حَرْب وسفيان وأبو سفيان بن أمية أنفسهم ، وقالوا : لا نبرح حتى نموت مكاننا ، فاقتتل الناس قتالاً شديداً وصارت قريش وكنانة ، فانهزمت هوازن وقتلت قتلاً ذريعاً[6] .

ثم جمع هؤلاء وأولئك ، والتقوا على رأس الحول بالحُرَيْرَة[7] وهي حَرَّة إلى جنب عكاظ ، والرؤساء هم الذين كانوا في سائر الأيام ، إلاّ بلعاء بن قيس فإنه كان قد مات فصار أخوه مكانه على عشيرته ، فاقتتلوا ، فانهزمت كنانة ، وكان آخر الأيام الخمسة التي تزاحفوا فيها . وقتل يومئذ أبو سفيان بن أمية ، وثمانية نفر من كنانة قتلهم عثمان بن أسد[8] .

---

(١) العقد الفريد ٥/ ٢٥٦ - ٢٥٧ ، الأغاني/ ثقافة ٢٢/ ٦٨ - ٧١ ، مجمع الأمثال ٢/ ١٥٨ وقد ذكر الميداني أن هذا اليوم بين بني هاشم وبين عبد شمس وهذا خطأ .

(٢) انظر معجم البلدان ٦/ ١١٣ صحيح الأخبار ٥/ ١١١ .

(٣) العقد الفريد ٥/ ٢٥٧ ، الأغاني/ ثقافة ٢٢/ ٧١ - ٧٢ .

(٤) واسم هذا اليوم في الأغاني ومجمع الأمثال : عكاظ وصاحب العقد يسميه شرب .

(٥) الأغاني/ ثقافة ٢٢/ ٧٢ جعل الذين حملوا الف رجل .

(٦) العقد الفريد ٥/ ٢٥٧ الأغاني ٢٢/ ٧٢ - ٧٦ ، مجمع الأمثال ٢/ ٥١٩ ، معجم البلدان ٥/ ٢٤٨ .

(٧) معجم البلدان ٣/ ٣٦٣ .

(٨) العقد الفريد ٥/ ٢٥٨ - ٢٦٠ ، الأغاني/ ثقافة ٢٢/ ٧٦ - ٧٨ ، مجمع الأمثال ٢/ ٥١٩ .

ثم كان الرجل منهم بعد ذلك يلقى الرجل ، والرجلان يلقيان الرجلين فيقتل بعضهم بعضاً ، ثم تداعوا إلى الصلح على أن يَدِي من عليه فضل في القتل إلى أهله ، فأبى ذلك وهب بن معتّب وخالف قومه ، واندس إلى هوازن حتى أغارت على بني كنانة ، فكان منهم بنو عمرو بن عامر بن ربيعة ، عليهم سلمة بن سعد البكائي وبنو هلال عليهم ربيعة بن أبي ظبيان الهلاليّ ، وبنو نصر بن معاوية عليهم مالك بن عوف ، وهو يومئذ أمرد ، فأغاروا على بني ليث بن بكر بصحراء الغُميم فكانت لبني ليث أول النهار ، فقتلوا عبيد بن العـوف البكائي ، قتلـه بنـو مدلج ، وسُبيع بن المؤمل الجسريّ ، حليف بني عامر ، ثم كانت على بني ليث آخر النهار ، فانهزموا واستحرّ القتل في بني الملوح بن يعمر بن ليث وأصابوا نعماً ونساء يومئذ .

ثم تراضوا بأن يعدوا القتلى ، فيدوا من فضل ، فكان الفضل لقيس على قريش وكنانة ، فاجتمعت القبائل على الصلح ، وألا يعرض بعضهم لبعض ، فرهن حرب بن أمية ابنه أبا سفيان ابن حرب ، ورهن الحارث بن كلَدة العبديّ ابنه النَّضر ، ورهن سفيان ابن عوف ابنه الحارث حتى وديت الفضول ، ويقال : إن عتبة بن ربيعة تقدم يومئذ فقال : يا معشر قريش ، هلموا إلى صلة الأرحام والصلح ، قالوا : وما صلحكم هنا فإنا موتورون ؟ فقال : على أن نديَ قتلاكم ، ونتصدق عليكم بقتلانا ، فرضوا بذلك ، وساد عتبة مذ يومئذ وقال : فلما رأت هوازن رهائن قريش بأيديهم رغبوا في العفو فأطلقوهم[1] .

وروى أبو عبيدة: أن النبي ﷺ شهد سائر الأيام إلاّ يوم نَخْلَة[2] وهذا القول مخالف لما ورد أثناء الحديث عن يوم نَخْلَة بأن النبي ﷺ شهد ذلك اليوم .

وكان الفضل عشرين قتيلاً من هوازن ، فوداهم حرب بن أمية فيا تروي قريش وبنو كنانة تزعم أن القتلى الفاضلين قتلاهم ، وأنهم هم ودوهم[3] .

ورواة هذه المجموعة من الأيام أبو عبيدة ونقل عن أبي عمرو بن العلاء وابن إسحٓق ، وابن قتيبة . أما ما ذكره من دوافعها ، إنما كانت دوافع ظاهرية طغت على سطح الأحداث ، أما السبب الحقيقي لهذه الأيام فهو النزاع على النفوذ التجاري والأدبي بين قريش وأحلافها وبين

---

(١) الأغاني/ ثقافة ٢٢/ ٧٨ - ٨٠ ، الكامل لابن الأثير ١/ ٥٩٥ .
(٢) الأغاني/ ثقافة ٢٢/ ٧٩ .
(٣) الأغاني/ ثقافة ٢٢/ ٧٩ .

هوازن المعروفة بعددها وبطشها[1] . ويبدو من سير الأحداث أن قريشاً لم تكن راغبة فيها لميلها إلى السلم ولوقوع عكاظ في وسط أرض قيس عيّلان ولم يكن السبب الحقيقي إلاّ صراعاً بين قبائل الحجاز على السلطة .

والطابع الذي تتسم به هذه المجموعة هو طابع الاعتدال وعدم العنف ، على الرغم مما يوحي به الاسم ، وقد حرص الفريقان على الأعراف القبلية ، ويتجلى ذلك بوضوح في رفض ابن جُدعان احتباس أسلحة هوازن ، كما تجلى اعتدال الفريقين في تأجيلهم الحرب إلى موعد عكاظ من كل عام ، وكان كلاً منهما أراد تدعيم نفوذه ، ولم يجد الفريقان عناء في الصلح ، كما تجلّى حرص الفريقين على الأعراف القبلية في سماح معتّب بن مسعود الثقفيّ لزوجته أن تجير بني قومها من قريش إذا هُزمت قريش ، وعندما انتصرت قريش أجارت رجال هوازن .

أيام قيس وتميم :

وهذه المجموعة لا ترتبط فيما بينها برابط ، إلا الرغبة في الغزو ، فقد وصلنا منها سبعة عشر يوماً ، خمسة منها لم يصلنا من أخبارها إلا الإسم والفريقان أوردهما الميداني وهي: يوم قارب لضبة على كلاب[2] ، ويوم الدُّثَيْنَة (لمازن على سُلَيْم)[3] ، والكُفافة (لفزارة على عمرو بن تميم)[4] ، ومَرْثَق (لسعيد على عامر)[5] ، وداب (عبس على سعد تميم)[6] . ولم يشذ عن سبب الغزو إلا يوم واحد وهو يوم النفراوات[7] ، حيث قتل زهير بن جذيمة العبسي قتلته عامر بظلمه لها ، ورغبة في التخلص من سيطرة عبس عليها ، ويوم رَحْرَحان الثاني الذي سنتحدث عنه .

والقبائل المشتركة في هذه الأيام : عامر بن صَعْصَعَة ، عبس ، سُلَيْم ، غَطَفان ، فَزارة ، باهلة ، تميم ، وضَبَّة .

ولما كنا لا نجد سبباً عاماً يجمعها ، فإن تحديد الفترة الزمنية لحدوثها وترتيبها زمنياً أمران متعذران ، ولذا فإننا سنتحدث عنها باختصار حديثاً فردياً ، كل يوم بمفرده .

---

(1) أسواق العرب - سعيد الأفغاني ١٤٤ - ١٦٢ .
(2) مجمع الأمثال ٢/ ٥٣٧ .
(3) مجمع الأمثال ٢/ ٥٣٠ .
(4) مجمع الأمثال ٢/ ٥٢٦ .
(5) مجمع الأمثال ٢/ ٥٣٦ .
(6) مجمع الأمثال ٢/ ٥٣٧ .
(7) الأغاني/ كتب ١١/ ٨٢-٩٣ .

ففي يوم السُّوبان أو السُّويان [1] غزت بنو عامر تميماً وضبّة فاقتتلوا ، وكان رئيس ضبّة حسان بن وَبْرة ، فأسره يزيد بن الصَّعِق الكِلابي ، وانهزمت تميم وافتدى حسّان بألف بعير فداء الملوك ، ثم أغار يزيد بن الصَّعِق بعد ذلك على عصافير النعمان بذي لبان .

وفي يوم أَقْرُن[2] غزا عمرو بن عَمْرو بن عُدُس من بني دارم ، فأغار على بني عبس وأخذ إبلاً وشاء ، ثم أقبل حتى إذا كان أسفل من ثَنِيَّة أقرن نزل فابتنى بجارية من السبْي ، وأدركه الطلب ، فاقتتلوا . فقتل عمرو قتله أَنَس الفوارس بن زياد العبسّي ، وهُزِمَتْ تميم ، وارتدوا ما في أيديهم وفي العمدة إشارة إلى أن عمرو بن عمرو خرج مراغِماً للنعمان بن المنذر .

وفي يوم المَرُّوت[3] أو يوم إرم الكَلْبة أو العُنّاب أو العتَّابين ، أغار بُجَير بن سَلَة القُشَيْري على بني العنبر بن عمرو بن تميم ، فأتى الصريخ بني عمرو بن تميم فاتبعوه حتى لحقوه ، وقد نزل المروت ، وهو يقسم المِرْباع ، ويعطى من معه فتلاحقوا واقتتلوا ،وأسر في هذا اليوم قعنب ابن عتاب الهيثم بن عامر القُشيريَّ وأسر يزيدُ بن أزهر المازني بجير بن سلمة ، إلا أن قَعْنَب بن عتّاب ضربه فقتله ، وانهزمت بنو عامر وقتل رجالهم . ويذكر صاحب العمدة أن الذكر كان لبني يربوع في هذا اليوم ، وإنما أغارت قُشَيْر على بني العنبر ، فاستنقذ بنو يربوع أموال بني العنبر وسعيهم من بني عامر . بينما يذكر ابن الأثير أن جذور هذا اليوم تمتد إلى منافرة جرت بين قَعْنَب الرياحيّ وبُجير العامري بعكاظ عيرّ فيها بجير قعنباً ، ويؤيد ما جاء في العمدة من أن يربوع هي التي استنقذت المال والسبي .

وفي يوم دارة مأسل[4] غارا عتيبة بن شُتَيْر بن خالد الكلابي بني ضبة فاستاق نعمهم ، وقتل حُصَيْنُ بن ضرار الضبي أبا زيد الفوارس ، فجمع أبوه ضرار قومه وخرج ثائراً بابنه حصين ، فأغار على بني عمرو بن كلاب .

وفي يوم ذي نَجَب[5] أتت بنو عامر بحسّان بن معاوية بن آكل المرار الملك تغزو بني حنظلة

---

(١) العقد الفريد ٥/ ١٧٧ ـ ١٧٨ ، العمدة ٢/ ٧١٣ ويجعله هو نفسه يوم ملزق ، ولكنه يجعل اليوم لبني تميم على عبس وعامر ، مجمع الأمثال ٢/ ٥٢٧ يجعله بين عبس وبني حنظله .

(٢) العقد الفريد ٥/ ١٧٨ ، الكامل لابن الأثير ١/ ٦٣٨ ، العمدة ٢/ ٢٠٤ ، النقائض ٢/ ٦٧٩ .

(٣) العقد الفريد ٥/ ١٧٩ ، العمدة ٢/ ٢٠٢ ، الكامل ١/ ٦٧١ ، النقائض ١/ ١٣ ، ٧٠ ، مجمع الأمثال ٢/ ٥٢٢ .

(٤) العقد الفريد ٥/ ١٨٠ ، مجمع الأمثال ٢/ ٥٣٦ .

(٥) العمدة ٢/ ٢١٢ ، مجمع الأمثال ٢/ ٥٢٣ ، النقائض ١/ ٥٨٧ .

ابن مالك بعد يوم جَبَلَة بعام، فتحمى لهم بنو مالك بن عمرو بن عمرو بن عدس، وتركوا في صدورهم بني يربوع ، فهزمت عامر هزيمة عظيمة ، وأسر يومئذ يزيد بن الصَّعِق ، وزيد بن ثعلبة ، وقُتل حنيف النميريّ ، وعمرو بن الأحوص الذي كان رئيس عامر يومئذ ، كما قُتِل حسان بن معاوية ، قتله حُثَيْش بن نُمران اليربوعي ، وفي رأي صاحب النقائض أن سبب هذا اليوم رغبة بني عامر استئصال بني حنظلة نهائياً بعد أن قتل فرسانهم ، وسعت إلى كِنْدة تستنصرها وتغريها .

وفي يوم الجُوَيْنَيْن أو الرَّغام[1] أغار عتيبة بن الحارث اليربوعي على بني كلاب فاطّرد إبلهم ، وقتل أخوه حنظلة وقَتل عتيبةُ قاتل أخيه في نفس اليوم وهو حَوْثَرة ، وانهزم الكلابيون بعد أن أسرع القتل فيهم والأسر .

وفي يوم الصرائم أو الجُرُف[2] أغارت عبس على بني رياح بن يربـوع ، وهُزِمت عبس وأسرفت تميم في قتل بني عبس ، وأُسر الحكم بن مروان بن زنباع العبسّي ، وزِنْباع وقَرْوة ابني زنباع . ويفصل صاحب النقائض السبب بأن عبساً أغارت على ربيعة بن مالك بن حنظلة فأتى الصريخ بني يربوع فركبوا في طلب عبس فأدركوهم .

وفي يوم الوَتِدَة أو الوندة - كما يسميه صاحب العمدة ، أو الوَتِدات - كما يسميه صاحب شرح النقائض[3] - أغارت بنو هلال على نعم بني نَهْشَل ، فأنزلتهم بنو نهشل بالونـدة - وهـي بالدهناء - فما أفلت من بني هلال إلا رجل واحد : فارس طواف وقيل : أواب .

وفي يوم السُّلِّيّ[4] أغار شقيق بن جَزْء الباهلي على بني ضبّة بسليّ وحاجر وهما روضتـان لعُكل ، وضبة وعدي وعكل وتيم حلفاء متجاورون فهزمهم وأفلت عوف بن ضِرار وحكيم بن قبيصة بعد أن جرح وقتلوا عبيدة بن قضيب الضبيّ .

وفي يوم رَحْرَحان الأول أغار يثربيّ بن عُدُس الدراميّ على بني عامر وكان على بني عامر قُرَيْط بن عبيد بن أبي بكر ، وقتل يثربيّ .

---

(1) الأغاني/ كتب 15/ 345 ، النقائض 1/ 410 ، العمدة 2/ 214 .
(2) العمدة 2/ 211 ، النقائض 1/ 336 - 339 .
(3) النقائض 1/ 389 ، العمدة 2/ 213 ، مجمع الأمثال 1/ 533 .
(4) معجم البلدان 5/ 100 (5) العمدة 2/ 209 .

أما يوم رحرحان الثاني[1] فكان بعد أن قتل الحارثُ بن ظالم المري خالدَ بن جعفر العامري ، وهرب الحارث يطلب ملجأ يحميه ،فلجأ إلى مَعْبَد بن زُرارة ، فأجاره ، ولم يرضَ قوم لقيط عن فعلته ، وخذلوه غير بني دماوية وبني عبد الله بن دارم وبلغ الأحوص بن جعفر مكانَ الحارث بن ظالم ، فغزا معبداً ، فالتقوا برحرحان فانهزمت بنو تميم وأُسر معبد بن زرارة ، أسره عامر والطُّفَيْل ابنا مالك بن جعفر بن كلاب ، فوفد لقيط بن زرارة عليهم في فدائه ، واختلف الفريقان في الفداء ، طلبوا هم دية ملك ، ودفع لقيط مائتي بعير ، ورحل لقيط عن القوم ، ومنعوا عن معبد الماء وضاروه حتى مات هُزالا . وقيل إن معبداً رفض أن يطعم شيئاً أو يشرب فمات هزالاً ، وعُيِّرَ لقيط بذلك .

ويذكر الميداني[2] يوماً يسميه يوم منعج ويجعله لبني يربوع على بني كلاب ويؤيده في هذه الرواية المخالفة للمصادر الأخرى ، والتي تذكر أن هذا اليوم لغنّى على عبس ، ياقوت الحموي[3] الذي يقول : ويوم منعج من أيام العرب لبني يربوع بن حنظلة بن مالك على بني كلاب[4] .

أيام تميم والقبائل الأخرى :

وهكذا استعرضنا حروب تميم مع كل من بكر ، واليمن والمناذرة ، وقيس ، ولم يبق فيا وصلنا إلا حروبها مع تغلب . وهذا ما سنتحدث عنه في هذه المجموعة .

لقد حاربت تميم تغلب في خمسة أيام هي : يوم الشَّعْب ، ويوم إراب ، ويوم زَرود الثاني ، ويوم نَطاع ، ويوم ذي بَهْدَى . كما كان بين بني أسد ويربوع يوم خَوّ . وقد خاضت يربوع منها أربعة أيام .

وكما حدثتنا المصادر فإن تغلب هي التي كانت تغزو تميماً وربما عزونا ذلك أما لخصب أرض تميم ، وإما لأن هذا الغزو تمَّ في فترة ضعفت فيها تميم .

---

(١) الأغاني/ دار الكتب/١١/ ١٢٤ ـ ١٣٠ العقد الفريد ٥/ ١٣٩ ـ ١٤٠ ، العمدة ٢/ ٢٠٩ ، مجمع الامثال ٢/ ٥٢٠ ، النقائض ١/ ٢٣٦ .

(٢) مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٥٣١ .

(٣) معجم البلدان ٨/ ١٨٠ .

(٤) أنظر صحيح الأخبار ١/ ٥٢ .

ففي يوم زَرود الثاني[1] أغار خُزَيْمَة بن طارق التغلبي على بني يربوع ، وهم بزَرود[2] ، فنذروا به والتقوا فاقتتلوا قتالاً شديداً ، ثم انهزمت تغلب ، وأُسر فارس الحملة خزيمة أسره أنيْف ابن جَبَلَة الضَبّي ، وأسيد بن حِنَّاءة السليطي : وتنازعا فيه ، فحكما بينهما الحارث بن قُراد ، فحكم بناصيته لأُنيف ، على أن لأسيد على أنيف مائة من الإبل . ففدا نفسه بمائتي بعير وفرس .

وفي يوم ذي بهدى[3] أغار الهُذَيْل بن هُبَيْرة التغلبي على بني ضَبَّة بذي بَهْدَى[4] ، فاستعرضت ضَبَّة بني سعد بن زيد مناة عليهم ، فانهزمت بنو تغلب ، وأُسر الهُذَيْل وبنوه .

وفي يوم الشُعْب[5] غزا قيس بن شَرْقاء التغلبي بني يربوع بالشُعب[6] ، فاقتتلوا ، فانهزمت بنو يربوع ، فأسر سُحَيْم بن وَثِيل الرياحي ففدا نفسه ،وأسر متمم بن نُوَيْرة ، فوفد أخوه مالك على قيس وافتداه .

وفي يوم إراب[7] غزا الهُذَيْل التغلبي بني يربوع وهم بإراب[8] ، فقتل فيهم قتلاً ذريعاً ، وأصاب نعماً كثيرة ، وسبى سبيا كثيراً ، فيهم زينب بنت حمير بن الحارث . . . بن يربوع ، وهي يومئذ عقيلة نساء بني تميم ، وركب عتيبة بن الحارث في أسراهم ففكهم أجمعين . ويضيف صاحب العمدة أن بني رياح سبقت الهذيل ليمنعوه الماء حتى يرد السبي ، فأقسم الهُذَيْل : لئن رددتم إلينا الماء فارغاً لنأتينكم فيه برأس إنسان تعرفونه ، فاشتروا منه بعض السبي ، وأطلق البعض .

وفي يوم نَطاع[9] أغارت بنو تميم على بني رِزاح من بني تغلب ، وغنمت أموالهم ونعى الحارث بن حلزة ذلك على بني تغلب :

لم يُحِلّوا بني رزاح ببرقا ء نطاع لهم عليها دُعاءُ

ويحدثنا صاحب الأغاني عن غارة لعمرو بن كلثوم التغلبي على بني تميم[11] .

---

(1) العقد الفريد ٥/ ١٨٧ العمدة ٢/ ٢١٦ .
(2) أنظر معجم البلدان ٤/ ٣٨٧ ، صحيح الأخبار ٥/ ٢٤٩ ، معجم البكري ٢/ ٦٩٦ .
(3) العمدة ٢/ ٢١٤ ، مجمع الأمثال ٢/ ٥٢٣ ، معجم البكري ١/ ٢٨١ .
(4) معجم البكري ١/ ٢٨١ .
(5) العقد الفريد ٥/ ٢٤١ . (6) أنظر معجم البلدان .
(7) العقد الفريد ٥/ ٢٤٠ ، العمدة ٢ / ٢٠١ ، النقائض ١/ ٤٧٣ ، مجمع الأمثال ٢/ ٥٢٢ .
(8) معجم البكري ١/ ١٣٣ ، معجم البلدان ١/ ١٦٧ .
(9) معجم البكري ٤/ ١٣١٣ .
(10) شرح القصائد السبع الطوال ٤٨٥ . (11) الأغاني/ كتب :١١/ ٥٥ .

أما بنو أسد فلها مع تميم يوم خَوّ ، فقد أغارت بنو أسد على بني يربوع ، فاكتسحوا إبلهم فأتى الصريخ الحيَّ ، فلم يتلاحقوا إلا مساء بموضع يقال له خَو ، وفي هذا اليوم قُتِل فارسُ يربوع عتيبة بن الحارث اليربوعي ، وشدَّ الربيع بن عتيبة على ذؤاب ، فأسره وهو لا يعلم أنه قاتل أبيه ، وبقي عنده أسيراً حتى فاداه أبو ربيعة بإبل معلومة قاطعه عليها ، وتواعدا عكاظ في الأشهر الحرم ، وأقبل أبو ذؤاب بالإبل ، وشغل الربيع بن عتيبة فلم يحضر السوق ، فظن أبو ذؤاب أن الربيع قتل ابنه بأبيه فرثاه ، فلما بلغهم الشعر قتلوا ذؤاب بن ربيعة .[1]

وهذه هي أيام تميم ، ونرجو بعد أن عرضناها عرضاً سريعاً أن ندرسها لاستخلاص بعض النتائج فيما يتعلق بدوافعها ، والبطون المشتركة فيها ، والقبائل الأخرى التي حاربتها . صلتها بها ، والشعراء الذين غطوا لنا أخبار هذه الأيام .

وتبدو لنا من خلال مجموعة أيام تميم التي بين أيدينا أن يربوعاً استأثرت بنصيب وافر من هذه الأيام ، إذ أنها اشتركت في واحد وثلاثين يوماً من أصل مائة وعشرة أيام جمعناها لتميم . وتعليل هذه الظاهرة يحتمل ثلاثة أمور :

أولها : أن يربوعاً كانت قوية متماسكة فاستغلت ذلك في الضغط على جيرانها وساعدها على ذلك ظهور فرسان عديدين قادوها في تلك الأيام والغزوات .

والثاني : أن نقائض جرير والفرزدق هي التي مكنَّت من وصول هذا العدد من أيام يربوع .

والثالث : أن يربوعا كانت أراضيها ومراعيها خصبة ، وأن ذلك جعلها محط أنظار القبائل الأخرى .

وإذا انتقلنا من بني يربوع نرى أن بني سعد تميم قد اشتركوا في تسعة أيام ،وحنظلة في ستة، وبني عمرو في خمسة ، وبني منقر في خمسة ، وبني ضبة في ثمانية ، وكلاً من بني مُجاشِع وبني العنبر وبني نَهْشَل وبني عبد مناة والرِّباب في يومين ، والثعالب من تميم في ثلاثة ، وبني مازن في أربعة ،وبني دارم في ثلاثة ، وبني طُهَيَّة في يوم واحد .

---

(١) العقد الفريد ٥/ ٢٤٩ ، مجمع الأمثال ٢/ ٥٣١ ، معجم البلدان ٣/ ٤٩٢ ، صحيح الأخبار ١/ ١٢٩ .

ولدينا بعد ذلك فيما تبقى من أيام المجموعة أربعة وعشرون يوماً ذكرتها المصادر دون تحديد بطن من بطون تميم بل ذكرت تميماً دون تحديد .

أما القبائل التي التقت معها تميم في أيامها هذه فهي : بكر ، اليمن ، والمناذرة ، قيس ، وتغلب ، وأسد . كان لبكر منها سبعة وأربعون يوماً ، والتقت تميم واليمن في أحد عشر يوماً ، والتقوا مع المناذرة في أيام أربعة ، والتقت تميم مع قبائل قيس بن عيْلان في ثلاثة وعشرين يوماً ، ولها مع تغلب ستة أيام ، ومع الغساسنة يومان ، ومع الفرس يومان ، والتقت مع بني أسد في يوم واحد .

وقد نقل إلينا أحداث تلك الحروب ستون شاعراً من شعراء تميم ، وهذا العدد يعادل ربع عدد الشعراء الذين غطوا لنا أحداث تلك الأيام التي هي موضوع بحثنا كله .

ولو صحت الروايات التي بين أيدينا لوجدنا أن تميماً قد انتصرت في ثلثي هذه الأيام تقريباً ، وهزمت في حوالي ثمانية وثلاثين يوماً منها . ولهذه النتيجة ـ إن اطمأن الباحث إليها ـ دلالة ، وهي أن تميماً كانت قبيلة قوية الشكيمة ، لم تقهر إلا في ثلث أيامها التي خاضتها ، كما أنها لم تترك قبيلة إلا حاربتها والتقت معها في ساحة العراك والنزال . كما أن النتيجة تظهر لنا أن عدو تميم الأول كان بني بكر ، ويليهم قبائل قيس عيلان . ونبحث عن تعليل فلا نجد أوضح من خريطة توزيع القبائل في العصر الجاهلي ، فتميم تكاد تكون محاطة بقبائل قيس عيلان ، كما أن بكراً تجاورها مباشرة . ومن هنا يتبين لنا سر الحروب ، والغزو الذي لا نهاية له بين تميم وهذه القبائل . فكلما آنسوا من تميم ضعفاً ، أو أخصبت مراعيها ، التحمت القبيلتان . وفي كل يوم تتولد ثارات جديدة ، وهذه تحتاج إلى لقاءات جديدة للأخذ بالثأر وهكذا .

وعندما نبحث عن دوافع أيام تميم عامة ، نرى أن حروبها مع بكر كان الدافع الأول لها الصراع على أسباب الحياة ، ولا يعني هذا عدم وجود دوافع أخرى كالثأر وغيره . ولكن الغزو والغنيمة ومحاولة الاستيلاء على موارد الماء كانت كلها وراء جميع أيام بكر وتميم .

وعندما نبحث في أيام تميم والقبائل القحطانية ، فإننا نراها صراعاً بين قبيلة قوية ، وقبائل تحاول إخضاع قبائل الشمال بإخضاعها تميماً لأنها قبيلة قوية ، كثيرة العدد والعدة . ونجد الأيام بين الفريقين سجالاً بين الطرفين ، وقد تناوبت اليمن والفرس في محاولة إخضاع هذه القبيلة ، فلم تكد تميم تخرج من محنة الصفقة وإيقاع عامل كسرى بهم ، حتى فكرت قبائل اليمن في انتهاز

هذه الفرصة والقضاء على تميم نهائياً ، فكان أن حشدت لتميم في يوم الكُلاب الثاني ، ولكنها ردّت على أعقابها .

ولكن هذا لا يعني أن تميماً كانت تنتظر حتى تغزوها قبائل اليمن أو عمال الفرس بل هي التي طالما تعرضت للطيمة الملك وسلبتها وقتلت حراسها .

أما حروب تميم وقيس بقبائلها المتعددة فإن الصراع على وسائل العيش ، والصراع على الحدود ، والصراع حول تقاليد ذلك المجتمع ، وعوامل أخرى كانت وراء تلك الحروب المتعددة بين تميم ببطونها المختلفة ، وقبائل قيس بقبائلها المتعددة .

وإذا انتقلنا إلى حروبها مع المناذرة والغساسنة ، فإن هناك شبهاً بين طبيعة هذه الحروب وأسبابها وبين حروب تميم واليمن . وقد كانت بربوع أحد بطون تميم كثيرة التعرض والتصدي لما في أيدي المناذرة . فأحبوا أن يحتووها فجعلوا الردافة لشخص من يربوع . وحينما فكر ملك المناذرة انتزاع الردافة منهم ، ثارت بنو يربوع وأرسل الملك جيشاً لإخضاعهم ، ولكنهم هزموا الجيش وأسروا ابن الملك وأخاه ، وأضطر للعدول عن رأيه ونرى أن تميماً قتلت ابن المنذر فكان يوم أُوارة الثاني .

ونستطيع أن نقول إن طابع حروب تميم مع القبائل التي حاربتها اتسمت بالعنف، وذلك بعكس ما اتسمت به الأيام ، وتبرز هذه الظاهرة بوضوح في حروبها مع القبائل القحطانية ومع قبيلة بكر .

أيام ربيعة فيما بينها أو حرب البسوس :[1]

وأيام هذه المجموعة بين بكر وتغلب ، تعتبر من أقدم الحروب القبلية وأشهرها ، وحدد زمنها بأواخر القرن الخامس الميلادي ، وكان آخرها حوالي سنة ٥٢٥ م بواسطة المنذر الثالث ملك الحيرة الذي عقد الصلح بين الحيّين بعد نفاد القوى وكلال السواعد[2] .

---

(١) مصادر دراسة هذه المجموعة : النقائض ١/ ٤٥٢ تحدث عن الكلاب الاول ، العقد الفريد ٥/ ٢١٨ ـ ٢٢٢ ، مجمع الأمثال ٢/ ٥٢٩ ، الكامل لأبن الأثير ١/ ٥٤٩ عن الكلاب الأول ، الأغاني/ دار الكتب ٥/ ٣٤ وما بعدها ، الأغاني/ ثقافة ٢٣/ ٢٥٤ ـ ٢٥٦ يوم التحالق ، العمدة ٢/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦ المعارف لأبن قتيبة ٦٠٥ ، أمثال الضبي ٥٥ ـ ٦٠ .

(٢) تاريخ العرب مطول ـ حتى ١/ ١٢٠ .

ويحدثنا الرواة أن بكراً وتغلب استقرتا بعد يوم خَزاز في مكان واحد فيا بين الذنائب والكُلاب وواردات والقصبب وما والاها[1] .

وكان يربط القبيلتين رباط من الصهر والحلف والمحبة ، ولكن هذا الاختلاط وتلك القرابة والمصاهرة لم تستطع القضاء على العصبية القبلية الضيقة .

وقد كان سيد القبيلتين كليب بن ربيعة بن الحارث من تغلب ، وكان متزوجاً من بنت مُرّة جليلة ، ويبدو أن الغرور والكبرياء أصابا كليباً ، فطغى ، وحمى لنفسه المراعي الخصبة والمياه ، وحرم على بكر الكثير من الأماكن ، ويحدثنا صاحب الأغاني[2] ، وأبو عبيدة[3] عن سؤال كليب لزوجته عن أعز وائل ، حتى إذا ما كرر السؤال أجابته : أخواي . ويثور كليب ويذهب إلى ناقة خالتهم فيرمي فصيلها . ويستمر تحرش كليب بهم وتكرار السؤال على زوجته ، ويستمر في منع الماء عنهم ، حتى أثارهم عليه ، فقتله جسّاس بن مرة وابن عمه عمرو وبذلك أشعل جسّاس شرارة الحرب بين الحيين .

أما الميداني[4] فيجعل سبب الحرب ناقة البسوس وأسمها (سراب) ، تلك الناقة التي كسرت بيض حمام في حمى كليب ، فرمى ضرعها بسهم فوثب جساس على كليب فقتله ، ودامت الحرب أربعين سنة .

وهكذا اشتعلت الحرب لسببين كما نرى : أولهما طغيان كليب نفسه ، وثانيهما إحساس بكر بأنها يجب أن تتخلص من زعامة كليب وغطرسته ، وكما علمنا فإن العصبية القبلية تجعل القبيلة ترفض أي زعيم لها من خارج القبيلة مهما تكن صلته بهم ، فكان منفذ هذا الأحساس أحد أبناء بكر وهو جسّاس بن مُرّة .

وبمقتل كليب خسرت القبيلتان زعيماً من أشجع الفرسان ، وأحست بطون القبيلتين بالخسارة الفادحة التي مُنيت بها ربيعة ، فانضمت النّمر بن قاسط وغفيلة بن قاسط لتغلب ، واعتزل الحرب من بكر إحساساً منهم بظلم بكر لتغلب : يَشْكُر ، عِجل ، بنو حَنيفة ، بنو قيس ، لُجَيْم .

وقد انطلقت هذه البطون المعتزلة للحرب من إحساس بأن مقتل كليب خسارة للجميع ، وأن القبيلتين أشبه بقبيلة واحدة فهما ابنا وائل ، وبأن تغلب صاحبة الحق لأنها طالبة ثأر .

(١) بكر وتغلب ٣٠ .

(٢) النقائض ٢/ ٩٠٥ .

(٣) الأغاني/ دار الكتب ٥/ ٣٥ .

(٤) مجمع الأمثال ٢/ ٥٢٩ .

وسنعرض لهذه المجموعة وأسبابها وأيامها ونتائجها بالتفصيل عندما نتحدث عن المهلهل بطل هذه الحرب .

حروب قيس فيما بينها

أ ـ حرب داحس والغَبْراء :[1]

وهذه المجموعة كسابقتها سنرجىء الحديث عنها بالتفصيل إلى حين دراستنا عنترة وحروب قبيلته عبس ودوره فيها ، في الباب الثالث من هذا البحث .

تدور أيام هذه الحرب بين عبس وذبيان في بداية الأمر ، ثم دخلتها قبائل أخرى منحازة إلى كلا الفريقين ، وبدايتها كما حدثتنا الروايات كان ذلك الرهان بين قيس بن زهير العبسي وحُذَيْفَة ابن بَدْر الفَزاري ، ذلك الرهان الذي اختلف على كيفية بدئه ، وأفراسه ومقداره .

فأبو عبيدة في شرح النقائض[2] يذكر أن الرهان ـ كما زعم بعضهم ـ إنما هاجه أن قيساً دخل على بعض الملوك وعنده قَيْنَة لحُذَيْفَة تغنيه بقول أمرىء القيس :

دارٌ لِهِـرٍ والرِّبــابِ وفَرْتَنَا وليس قبــلَ حوادثِ الأيامِ

« وهن فيما ذُكر نسوة من بني عبس»

فغضب قيس بن زهير وشق رداءها وشتمها ، فغضب حذيفة ، فبلغ ذلك قيسا فأتاه يسترضيه فوقف عليه ، وجعل يكلمه ، وهو لا يعرفه من الغضب ، وهذه أفراس فيما بها وقال : أيرتبط مثلك مثل هذه يا أبا مُهر ؟ فقال حذيفة أتعيبها ؟ قال : نعم فتجاريا حتى تراهنا .

وصاحب العقد الفريد يجعل الرهان بين قيس بن زهير وحمل بن بدر ، ويجعل داحساً

---

(١) مصادر هذه المجموعة : أمثال الضبي ٢٦ ـ ٤٤ النقائض ١/ ٨٣ ـ ١٠٨ ، ٤٢ ، ٤٠٧ ، ٢/ ٦٥٤ ـ ٦٧٨ ، المعارف . ، , ، الأغاني/ كتب ١١/ ١٣١ ـ ١٦٣ ، الأغاني/ ثقافة ١٧/ ١١٦ العقد الفريد ٥/ ١٥٠ وما بعدها ، العمدة ٢/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣ ، ٢/ ٢٠٧ ، ٢/ ٢٠٣ الكامل لابن الأثير ١/ ٥٦٦ ـ ٥٨٣ ، مجمع الأمثال ٢/ ٥٣٣-الفاخر للمفضل بن سلمة بن عاصم ٢١٩ ـ ٢٣٠ .

(٢) النقائض ١/ ٨٥ ، أمثال الضبي ٢٧ .

لقيس ، والغبراء لحَمَل بن بدر ، والرهان مائة بعير .[1] بينا جعله صاحب الأغاني عشرين من الإبل[2] .

ويروي الضبي ثلاث روايات للذي هيج الرهان ، منها رواية أبي عبيدة[3] ، ويذكر الرواة أن قيساً كان كارهاً لهذا الرهان ، وأنه أتى بني بدر فسالهم المواضعة ، فابوا حتى يعرف لهم سبقهم . فغضب قيس وضحك ، وقال : أما إذا فعلتم فأعظموا الخطر وأبعدوا الغاية ، فقالوا فذاك ، فجعل الغاية من واردات إلى ذات الإصاد ، وتلك مائة غلوة ، وجعلوا القصة في يدي رجل من بني ثعلبة بن سعد يقال له حصين ويدي رجل من بني العشراء بن فزارة وهو ابن أخت لبني عبس . وحدث الغدر من فزارة وطالبت عبس بسبقها ، وطالبت فزارة بالسبق ، وتنازلت عبس إلى جزور وكاد أحد بني فزارة يفعل ذلك ولكن ابنه نهره ، فأبت فزارة . ولما رأى قيس بن زهير ذلك ارتحل عنهم[4] ، ثم تختلف المصادر ، فبعضها يذكر أن قيس بن زهير أغار فلقي عوف بن بدر فقتله وأخذ أبله[5] ، وذكر بعضها الآخر أن حذيفة بن بدر أرسل أبنه يطلب الرهان فقتله قيس[6] . واستمرت المناوشات بعد ذلك ثم التقوا في أيام سنذكرها فيا بعد إن شاء الله .

وعلى الرغم من إجماع المصادر المختلفة على أن سببها كان الرهان ، إلاّ أنه كان الشرارة التي أشعلت نار الحرب ، أما الأسباب الحقيقية فتتمثل في العصبية القبَلِيَّة ، ومنازعة فزارة عبساً في الزعامة ، ويكمن وراءها كذلك أسباب وبواعث اقتصادية فقد اتسع حجم القبيلتين ولم تعد المراعي والحمى يتسع لهما معاً فكان الصدام الحتمي ، وكان الرهان الشرارة الأولى .

وكانت عبس متماسكة قوية في حين كانت الحروب الداخلية قد أنهكت فزارة وذبيان ، ودامت الحرب أربعين سنة أنهكت القبيلتين ، فلم تنتج لهم ناقة ولا فرس لاشتغالهم بالحرب .

وعلى الرغم من أن الحرب جرّت ويلات كثيرة إلاّ أنها لم تستطع أن تخنق أصوات التعقل ، الداعية إلى السلم بين القبيلتين الأختين . فعندما قُتِل مالك بن حذيفة حمل الربيع بن

---

(1) العقد الفريد ٥/ ١٥٠ .
(2) الأغاني/ ثقافة ١٧/ ١٢٨
(3) أمثال الضبي ٢٧ .
(4) أمثال الضبي ٢٨ - ٢٩ ، الأغاني ١٧/ ١٢٨ .
(5) نفس المصدر السابق ٢٩ ، الأغاني/ ثقافة ١٧/ ١٢٨ .
(6) الكامل لأبن الأثير ١/ ٥٧٢ ، العقد الفريد ٥/ ١٥٠ .

زياد العبسي المجاور لفزارة وصهرهم الدية من ماله الخاص[1] . وعندما قتلت فزارة مالك بن زهير لا مهم الربيع بن زياد[2] وعند أحست عبس أنها ظلمتهم رهن الأسلع بن عبد الله العبسي أبناء من عبس عند سبيع بن عمرو حتى يدفعوا لهم ديات القتلى ، ولكن سُبَيْع مات فدفعهم ابنه إلى حذيفة فقتلهم[3] . ثم عادوا إلى قومهم بعد رحلة طويلة وتداعوا إلى الصلح ثانية ودفع خارجة بن سنان والحارث بن عوف وحِصْن بن حذيفة ديات القتلى وخلدهم زهير بمعلقته المشهورة .[4]

وأكثر شعراء الفريقين من ترديد أسم بغيض ، جدهم ، في قصائدهم ، متوخين تذكير القوم برابطة القرابة ، يقول النابغة

صبراً بغيضَ بن ريث إنها رَحِمٌ　　حُبْتُم بها فأناختكم بجعجاع [5]

ويقول قيس بن زهير :

فيا ابنَيْ بَغيض راجعا السِّلْمَ تَسْلَما　　ولا تُشْمتا الأعداء يفترق الشملُ[6]

كما نعى النابغة على عبس افتراقها عن أختها ذبيان ، والتجاءها إلى قبائل غريبة عنها ، لا يحفظون لها جواراً ولا حقاً[7] .

ولم يكن بعض زعماء القبيلتين راغباً في القتال ، يقول الربيع بن زياد لقيس بن زهير عندما انضم إليه « ظلموك في جوادك وظلمتهم في دمائهم ، وقتلوا أخاك بابنهم ، فإن يوِ الدم بالدم فعسى أن تلقح الحرب أقم معك ، **وأحب الأمرين إليَّ مسالمتهم ونخلو بحرب هوازن»** [8] .

ويبدو لنا من خلال الروايات التي وصلت إلينا أن ذبيان وفزارة كانتا الباغيتين ولا ندري هل هذه هي الحقيقة ؟ أم أن الرواة صنعوها ؟

---

(١) أمثال الضبي ٢٩　　(٢) الأغاني/ ثقافة ١٧/ ١٢٨ .
(٣) أمثال الضبي ٣٣ ، العقد الفريد ٥/ ١٥٤ ، الأغاني/ ثقافة ١٧/ ١٣٤
(٤) أنظر معلقته الأبيات من ١٦ ـ ٢٥ .
(٥) ديوان النابغة ٢١٦ .　　(٦) مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٥٨ .
(٧) أنظر ديوان النابغة ٢١٤ .　　(٨) الكامل لابن الأثير ١/ ٥٧٤ .

وقد حدد المسعودي زمن حرب داحس والغبراء بنحو من ستين سنة قبل البعث أي سنة ٥٥٠ م[١] .

ب - حروب غطفان وعامر :

وهذه المجموعة أيضاً من حروب قيس فيا بينها ، وعدة أيام هذه المجموعة التي بين أيدينا ثلاثة عشر يوماً ، والأطراف المتنازعة من جهة وعامر من جهة أخرى ، وربما دخلت قبائل أخرى في أحلاف مع الفريقين .

ويبدو لنا أن أيام هذه المجموعة كلها حدثت بين غطفان وعامر بعد مقتل زهير بن جذيمة الذي كانت تدين له غطفان وهوازن كلها بالولاء ، وتدفع له الأتاوة . أي أن هذه المجموعة تبدأ بيوم النفراوات ، ذلك اليوم الذي قُتل فيه زهير بن جذيمة .

ونستطيع أن نرتب أيام هذه المجموعة على النحو التالي : النفراوات - بطن عاقل - النِّسار - الطجفار - ذات الشقوق - الرَّقَم - النشْأة - شُواحِط ، وبعد ذلك نلتقي بأيام لم يصلنا منها إلاّ اسمها والفريقان وهي : ذات الزُّمْرُم - طُوالة - غَمْرة - سُقُف - الرُّمَيْثة .

بعد أن قتل زهير بن جذيمة العبسي ، طلبت عبس وذبيان عامر بدمه ، ثم التقى خالد بن جعفر والحارث بن ظالم عند الأسود بن المنذر ، أخي النعمان بن المنذر ، مع خالد عُروة الرحّال ، وجعل خالد يقول للحارث : يا حارث ألا تشكر يدي عندك إن قتلتُ عنك سيد قومك زهيراً وتركتك سيدهم؟ قال : سأجزيك شكر ذلك وانصرف خالد إلى قبته ، فلامه عُرْوة الرحّال على تحرشه بالحارث ، ثم ناما ، فلما هدأت العيون انطلق الحارث حتى أتى قبة خالد فهتك شرجها ، ثم ولجها وقتل خالداً وفر هارباً . وكان قتل خالد بن جعفر ببطن عاقل ، فسمي هذا اليوم ببطن عاقل[٢] .

أما يوم النسار[٣] فسببه أن بني تميم كانوا يأكلون عمومتهم ضبة ، فأصابت ضبة رهطاً من

---

(١) التنبيه والأشراف - المسعودي ١٧٤ .

(٢) العقد الفريد ٥/ ١٣٧ - ١٣٨ ، معجم البكري ٣/ ١٩١٣ ، معجم البلدان ٦/ ٩٧ ، صحيح الأخبار ١/ ٥٣ .

(٣) الكامل لابن الأثير ١/ ٦١٧ - ٦١٩ العقد الفريد ٥/ ٢٤٨ ، مجمع الأمثال ٢/ ٥١٧ ، العمدة ٢/ ٢١٠ ، النقائض ١/ ٢٣٨ ، ٢٥٨ ، معجم البكري ٣/ ٧٩٨ ، ياقوت ٨/ ٢٨٤ ، صحيح الأخبار ٤/ ١٧٥ ، ٢/ ٧٩٠ .

تميم . فطلبتهم تميم فانزاحت جماعة الرباب ، فلحقت ببني أسد وهم يومئذ حلفاء لبني ذبيان . فنادى صارخ بني ضبة : يا آل خندف ، فأصرخهم بنو أسد ، واستمدوا حليفهم طيئاً وغطفان ، فكان رئيس أسد يوم النِّسار عوف بن عبد الله بن عامر ، وقيل خالد بن نَضْلَة ، وكان رئيس الرباب الأسود بن المنذر وعلى الجمع كله حصن بن حذيفة بن بدر . ولما بلغ تميم ذلك استمدوا بني عامر ، فأمدوهم ، وكان حاجب بن زرارة على تميم ، وكان رئيس عامر جَوَّاباً . وسار الجمعان فالتقوا بالنِّسار واقتتلوا ، فصبرت عامر ، واستحر بهم القتل ، وانفضت تميم فنجت ولم يصب منها كثير ، وأخذ عدة من أشراف نساء عامر ، وعيرّ فرسانَ عامر بذلك . وتزعم بنوضبة أن هذا اليوم قبل جَبَلَة بينما يؤكد أبو عبيدة أنه بعده .

ورغبت تميم في الثّار لحليفتها عامر التي قُتِلتْ يوم النسار ، فكان **يوم الجفار** ، للأحاليف في ضبة وأخواتها الرباب وأسد وطيء على تميم ، فكانت الدائرة على تميم واستحرّ القتل يومئذ في بني عمرو بن تميم فقتلوا قتلاً ذريعاً[1] .

وعندما هُزمت تميم يوم الجفار حلف ضَمْرَة النهشليّ فقال : الخمر عليّ حرام حتى يكون له يوم يكافئه . فأغار عليهم **يوم ذات الشُّقوق** ، فقتلهم وافتخر بذلك[2] .

ثم ينقطع الخيط الواصل بين الأيام المتتالية ، ونجد أنفسنا أمام **يوم الرقم**[3] وسببه أن عامراً غزت بلاد غطفان بالرَّقْم ، وهو ماء لبني مرة ، وزعيم عامر بن الطفيل ، وركب عُيَيْنة بن حِصْن في بني فزارة ، ويزيد بن سنان في بني مرة ويقال الحارث بن عوف ، فانهزمت بنو عامر ، وزعمت غطفان أنهم أصابوا من بني عامر يومئذ أربعة وثمانين رجلاً ، فدفعوهم إلى أهل بيت من أشجع كانت بنو عامر قد أصابوا فيهم ، فقتلوهم أجمعين .

وانهزم الحكم بن الطفيل في نفر من أصحابه ، حتى انتهوا إلى ماء يقال له البَرْوَاة فقطع العطش أعناقهم فماتوا ، وخنق الحكم نفسه تحت شجرة مخافة المُثْلَة ، وعيرتّهم عبس بذلك على لسان شاعرها عُرْوَة بن الورد . وربما كان هذا اليوم هو نفسه **يوم شَعْر أو يوم التخانق أو يوم يأجج** .

---

(١) العمدة ٢/ ٢١٩ ، معجم البكري ٤/ ١٣٠٦ .
(٢) العقد الفريد ٥/ ٢٤٨ ، معجم البكري ٤/ ١٣٠٦ .
(٣) العقد الفريد ٥/ ١٦٠ ، مجمع الأمثال ٢/ ٥٣ ، الكامل ١/ ٦٤٢ ، معجم البلدان ٤/ ٢٧١ ، معجم البكري ٢/ ٦٦٦ .

وفي يوم **النَّشْأة أو النَّتأة**[1] خرجت عامر تريد أن تدرك بثأرها يوم الرقم ، فجمعوا على بني عبس بالنتأة وقد أنذروا بهم ، فالتقوا ، وعلى بني عامر عامر بن الطفيل ، وعلى بني عبس الربيع ابن زياد ، فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزمت بنو عامر ، وقُتِل منهم ، وطُعن عامر ولكنه نجا وهُزِمت عامر هزيمة قبيحة .

ثم غزت سرية من بني عامر بن صعصعة بلاد غطفان ، فأغارت على إبل لبني محارب بن حصفة فأدركهم الطلب ، فقتلوا من بني كلاب سبعة وارتدوا إبلهم . فلما رجعوا من عندهم وثب بنو كلاب على جسر ، وهم من بني محارب ، كانوا حاربوا إخوتهم فخرجوا عنهم وحالفوا بني عامر فقالوا ؛ نقتلهم بقتل بني محارب من قتلوا منا ، فقام خِداش بن زهير دونهم حتى منعهم من ذلك . وكان ذلك **بشُواحِط**[2] .

أيام غطفان والقبائل الأخرى :

وهذه المجموعة تعتبر القسم الأخير من حروب قيس في الجاهلية ، وهي أيام قيس مع القبائل الأخرى غير كنانة والقحطانية وتميم .

وأيام هذه المجموعة التي بين أيدينا هي : يوم رُكْبَة - يوم عَدْنِيَّة - يوم ذات الأثل والأرطى - يوم حَوْزَة الأول - يوم حَوْزَة الثاني - يوم اللِّوَى - يوم الصَّلْعاء - يوم زَرود الأول - يوم مَنْعِج - ويوم الفلج .

وبين بعض أيام هذه المجموعة أحداث مشتركة جعلت أمر ترتيب جزئي ممكناً فبعض الأيام حدثت للأخذ بثأر أخرى كما سنرى.

وأول يوم في هذه المجموعة **يوم رُكْبَة أو يوم الرُّمَيْثَة**[3] ، ومجمل حديثه أن بني بَغيض غزوا بعد أن ظهروا على صُداء - وهي قبيلة من مذحج - وقرروا أن يقيموا حرماً مثل حرم مكة لا يقتل صيده ، ولا يهاج عائذه ، ووليت ذلك بنو مرة بن عوف ، وكان القائم على أمر الحرم وبناء حائطه رياح بن ظالم ، وبلغ فعلهم زهير بن جناب ، سيد كلب يومئذ ، فقال والله لا يكون ذلك أبداً ، وجمع قومه وسار بهم حتى غزا غطفان ، فقاتلهم وظفر بهم ، ثم من على غطفان ورد النساء واستاق الأموال .

---

(١) العقد الفريد ٥/ ١٦١ ، معجم البلدان ٨/ ٢٥٠ .
(٢) العقد الفريد ٥/ ١٦٢ ، معجم البلدان ٥/ ٣٠٣ .
(٣) الأغاني/ ثقافة ١٨/ ٣٠١ .

وفي يوم **عَدْنِيَّة أو يوم مِلْحان**[1] الذي يرويه أبو عبيدة ويقول في بداية الحديث أنه كان قبل يوم ذات الأثْل ، غزا صخر بقومه بني سليم وترك الحيّ خلواً ، فأغارت عليهم غطفان ، فثارت إليهم غلمانهم ومن كان تخلف عنهم فقتل من غطفان نفر وانهزم الباقون .

ويوم **ذات الأثْل والأرْطَى** كان لجُشَم على عبس[2] ، لم نظفر بشيء غير الإسم والفريقين . ولكننا نجد يوماً آخر بنفس الإسم ولكنه لسليم على بني أسد[3] ، وربما هو الذي عناه أبو عبيدة حينا حدثنا عن يوم عَدْنِيَّة ، فقد غزا صخر بن عمرو بن الشريد بني أسد واكتسح إبلهم ، فأتى الصريخ بني أسد فركبوا حتى تلاحقوا بذات الأثْل ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وطعن ربيعة بن ثور الأسدي صخراً في جنبه ، وفات القوم بالغنيمة ، ومرض صخر حتى مله أهله ، ومات بعد مرض دام أكثر من سنة ، ولكن هذا اليوم يخرج من هذه المجموعة .

وفي **يوم حَوْزَة الأول**[4] ، كان بين معاوية بن عمرو بن الشريد السلمي وبين هاشم بن حَرْمَلَة أحد بني مرة بن غطفان كلام بعكاظ ، فلما كان بعدُ تهيأ ليغزو هاشماً . فنهاه أخوه صخر ، فأبى معاوية وغزاهم يوم حَوْزَة[5] . واقتتل الفريقان وقتل معاوية دُرَيْدُ بن حَرْمَلَة .

ثم غزاهم أخو صخر ، **يوم حوزة الثاني**[6] ، فلما دنا منهم مضى على الشاء التي غنمها قومه يوم حوزة الأول ، فسوّد غرّتها وتحجيلها ، فلم يشعر دُرَيْد بن حرملة حتى طعنه صخر ، فثاروا وتناذروا ، وولى صخر ، وطلبته غطفان يومها ، وعارض دونه ابن أخته الخنساء أبو شجرة بن عبد العُزّى ، فرد الخيل عنه حتى أراح فرسه ونجا إلى قومه .

وغزا عبد الله بن الصّمة الجشمي ، فأغار على غطفان فأصاب منهم إبلا عظيمة فأطردها . فقال له أخوه دريد : النجاة النجاة ، فقد ظفرت . فأبى وقال : لا أبرح حتى أنتقع نقيعتي[7] ، فأقام وعصى أخاه ، فتبعته فزارة وقاتلوه وهو **باللوى**[8] ، فقتل عبد الله ، وارتث دريد فبقي في القتلى ، فلما جنّ الليل أفاق من وخزة فارس له ، وعثرت به امرأة من قومه ،

---

(١) العقد الفريد ٥/ ١٦٧ ، معجم البكري ٣/ ٩٢٥ .
(٢) مجمع الأمثال ٢/ ٥٣٥ .
(٣) العقد الفريد ٥/ ١٦٦ - ١٦٧ ، معجم البكري ١/ ١٠٧ .
(٤) العقد الفريد ٥/ ١٦٣ ، الأغاني/ ثقافة ١٨/ ٢٢ .
(٥) معجم البلدان ٣/ ٣٦٢ .
(٦) العقد الفريد ٥/ ١٦٤ .
(٧) النقبة : ناقة ينحرها من وسط الأبل فيصنع منها طعاما لأصحابه ويقسم ما أصاب على اصحابه .
(٨) معجم البلدان ٧/ ٣٣٩ ، صحيح الأخبار ١/ ١٥٨ .

فعالجته حتى أفاق[1] وفي النقائض أن هذا اليوم هو يوم واردات أو اللوى ، فقد عارض رجل من بني جشم ، ويقال بل من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان وكان أغار على بني يربوع يوم واردات فقتله أبو مُلَيْل . والميداني يقول عن هذا اليوم : زعموا إنه يوم واردات لبني تغلب على بني يربوع ولا يزيد على ذلك شيئاً[2] .

فلما كان العام المقبل بعد يوم اللوى ، غزاهم دريد بن الصمة **بالصَّلْعاء**[3] ، فخرجت إليه غطفان : فزارة وأشْجَع وعبس ، وأمرهم دريد بالثبات ، فالتقوا بالصلعاء فكان الظفر لهوازن على غطفان . وقتل دريدٌ ذؤاب بن أسماء بن زيد قارب[4] .

ويوم زَرود الأول[5] ، كان بين بكر وعبس ، فقد غزا الحَوْفزان حتى انتهى إلى زَرود[6] ، فأغاروا على نعم كثير صادر عن الماء لبني عبس فاحتازوه ، وأتى الصريخ فركبوا . ولحق عمارة بن زياد العبسي الحوفزان فعرفه . وقال عمارة : يا بني شريك قد علمتم ما بيننا وبينكم ، قال الحوفزان : صدقت يا عمارة ، فانظر كُلّ شيءٍ حولك فخذه ، ثم حصل عمارة لبعض النعم لبرده ، وحال الحوفزان بينه وبين النعم ، فعثرت بعمارة فرسه ، فطعنه الحوفزان ، ولحق به نعامة بن شريك فطعنه أيضاً .

وأسر ابنا عمارة : سنان وشدَّاد ، فقتلتهما بكر برجل ظنوا أن عبساً قتلته . وعندما برىء عمارة أتى طيئاً فقال : أدفعوا إلي هذا الكلب الذي قتلنا به : فقال الطائي لأوس : ادفع إلى بني عبس صاحبهم . فقال لهم أوس : أتأمروني أن أعطي بني عبس قطرة من دمي ، وأن ابني أسير في بني يشكر ؟ فوالله ما أرجو فكاكه إلا بهذا .

وأقبل شأس بن زهير من عند النعمان بن المنذر ، وكان قد حباه بحباء جزيل فورد **مَنْعِج**[7] ، وهو ماء لغنّي ، فأناخ راحلته إلى جانب الرَّدْهة وعليها رياح بن الأسَلّ الغنوي ، وجعل يغتسل ، وامرأة رياح تنظر إليه ، فانتزع رياح سهماً فقتله ونحر ناقته فأكلها ، وضم

(1) العقد الفريد ٥/ ١٦٨ ، العمدة ٢/ ٢٠٢ .
(2) النقائض ١/ ١١٢ ، مجمع الأمثال ٢/ ٥٢٣ .
(3) العقد الفريد ٥/ ١٧٣ ، العمدة ٢/ ٢٥٢ ويسميه « الصلفاء » وهو تصحيف .
(4) انظر معجم البكري ٣/ ٨٤٠ ، معجم البلدان ٥/ ٣٨٠ ، صحيح الأخبار ٣/ ١٨٤ ،
(5) العقد الفريد ٥/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨ ، مجمع الأمثال ٢/ ٥٣١ ، العمدة ٢/ ٢١٦ .
(6) معجم البكري ٢/ ٦٩٦ .
(7) أنظر معجم البكري ومعجم ياقوت.

متاعه ، وغيب أثره ، وفقد شاس ، حتى وجدوا القطيفة تبيعها زوجة رياح بعكاظ فعرفوا صاحب ثأرهم .

فغزت عبس غنياً ، فلما بلغ ذلك غنياً قالوا لرياح : انج لعلنا نصالح القوم على شيء . وتمضي القصة تحدثنا كيف هرب وكيف عرفته عبس ، وطاردته فقتل اثنين منهم ، وعادت عبس خائبة موتورة[1] . وقد مضى الحديث عن يوم آخر بمنعج كان بين يربوع وبني كلاب .

وأما يوم الفَلَج[2] فقد كان بين بكر بن وائل وبني كعب بن ربيعة وهم فرع من عامر بن صعصعة[3] ، فقد بعثت بكر عيناً على بني كعب حتى جاء الفَلَج ، وهو ماء[4] ، فوجد النعم قريباً بعضه من بعض ، ووجد الناس قد احتملوا ، فليس في النعم إلا من لا طَبَاخ به من راع أو ضعيف ، فجاءهم بذلك ، فركبت بكر يريدونهم حتى إذا كانوا منهم بحيث يسمعون أصواتهم سمعوا صهيل الخيل وأصوات الرجال ، فأرسلوا من يعلم علمهم ثانية ، فرجع فأخبرهم أن الرجال رجعوا ، ورأى جمعاً عظيماً وخيولاً كثيرة ، فكروا راجعين من ليلتهم ، وأصبحت بنو كعب فرأوا الأثر فاتبعوهم ، فأصابوا من أخرياتهم رجالاً وخيلاً فرجعوا بها .

أيام القحطانية فيما بينها

أ ـ أيام الأوس والخزرج :[5]

يحدثنا صاحب الأغاني أن اليهود سكنوا المدينة ، وكان يسكنها قبلهم العماليق ، ثم أرسل الله سيل العرم على أهل مأرب ، وهم الأزد ، تفرقوا في الجزيرة ، فأقامت الأوس والخزرج بالمدينة ، وأقاموا في منازلها التي نزلوها في جهد وضيق في المعاش ليسوا بأصحاب إبل وشاء ، وليسوا بأصحاب نخيل ولا زرع ، والأموال لليهود ، فلبثوا بذلك حيناً[6] ، ثم إنهم سألوهم

---

(١) العقد الفريد ٥/ ١٣٣ ـ ١٣٥

(٢) الأغاني/ كتب ٥/ ٢٢ .

(٣) معجم قبائل العرب ؟/ ٩٨٥ .

(٤) أنظر معجم البكري ، معجم البلدان .

(٥) مصادر هذه المجموعة : الأغاني/ كتب ٣/ ١٨ ـ ٢٠ حرب سُمَيْر ، ١٥/ ٤٧ ـ ٥١ حرب كعب ابن عمرو ، الأغاني/ ثقافة ٢٢/ ٩٧ ـ ١٠٢ ، ١٧/ ٦٧ يوم بُعاث ، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ـ للسمهودي ١/ ١٥٢ ، الكامل لابن الأثير ١/ ٦٥٨ ـ ٦٨١ ، ديوان قيس بن الخطيم ، المفضليات ، مجمع الأمثال ٢/ ٥٣٢ .

(٦) الأغاني/ ثقافة ٢٢/ ٩٧ ونيكلسون ١٦ .

أن يعقدوا بينهم جواراً وحلفاً ، يأمن بعضهم من بعض ويمتنعون به من سواهم ، فتعاقدوا وتحالفوا واشتركوا وتعاملوا واستمروا على ذلك زمناً طويلاً . وأمّرت الأوس الخزرج وصار لهم مال وعدد ، فلما رأت قريظة حالهم خافوهم . . . فتنمّروا لهم حتى قطعوا الحلف . . . وأقامت الأوس والخزرج خائفين من إجلاء اليهود لهم إلى أن ظهر مالك بن العَجْلان الخزرج[1].

ثم إن مالك بن العَجْلان وفد إلى أبي جُبَيْلَة الغسانيّ ملك غسان ، فأخبر ملك غسان بضيق حالهم ومعاشهم ، فوعده بالسير إليهم للقضاء على اليهود ونقل السيادة في المدينة إلى الأوس والخزرج . وقدم الملك الغساني بجمع كثيف ، ونزل بذي حَرَض ومكر بزعماء اليهود حيث دعاهم إلى وليمة وقتلهم رجلاً رجلاً حتى أتى على آخرهم . وتمضي الرواية فتذكر أن مالك العجلان قضى عليهم بوليمة صنعها لهم . فسكن اليهود وعادوا إلى مسالمتهم للأوس والخزرج[2].

ويحدثنا ابن الأثير رواية تختلف عن هذه في بدايتها ، فيذكر أن اليهود ملك عليهم الفطيون وكان رجل سوء وكانت اليهود تدين له بأن لا تتزوج امرأة منهم إلا دخلت عليه قبل زواجها ، وقيل إنه كان يفعل ذلك بالأوس أو الخزرج . ثم أن أختاً لمالك تزوجت ، ولما كانت ليلة عرسها أثارت أخاها بحركة قامت بها مذكرة إياه بما سيفعل بها الليلة ، فتنكر واختبأ وقتل الفطيون ثم خرج هارباً حتى دخل الشام فدخل على ملك من ملوك غسان يقال له : أبو جبيلة ، وقيل إنه كان عظيماً عند ملك غسان ، وهذا هو الصحيح ، لأننا لا نجد اسمه في ملوك غسان[3].

وفي اعتقاد ولفنسون أن الأوس والخزرج فكروا في نقض حلفهم مع اليهود لتحقيق آمال ومطامع ، ولم يكن لهم من سبيل إلا بالاعتماد على حلف آخر ، رأوا أن الفرصة سانحة لعقد محالفة مع ملوك غسان الذين كانوا يقودون حركة المنافسة الشديدة والنضال ضد اليهود من النصرانية ، وسعى الغساسنة إلى هذه المحالفة ليتمكنوا من القضاء على اليهودية في بلاد الحجاز وبإيعاز من الدولة الرومانية الشرقية التي أرسلت أسطولها لمساعدة الحبشة في كفاحها ضد يهود اليمن . ويقرر المؤرخ جبريتز أن بطون الأوس والخزرج لم تصارح اليهود بالعداوة إلا بعد النكبة التي حلت باليهود في اليمن[4] .

---

(١) وفاء الوفاء للسمهودي ١/ ١٢٥ .

(٢) الأغاني/ ثقافة ٢٢/ ١٠٢ - ١٠٦ .

(٣) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٥٦ ، ولفنسون يرى أن قصة الفطيون ملفقة لأنها توحي بهمجية العرب وأنهم لا أنفة عندهم ولا غيرة ص ٥٦ ويرى أن القصة مصطنعة لتبرير الغدر بجيرانهم .

(٤) تاريخ اليهود لولفنسون ص ٥٩ - ٦١ .

وإنما بسطنا القول لنصل إلى أن اليهود كانوا وراء الخلاف بين الأوس والخزرج ، فقد عاش الأوس والخزرج حيناً دون أن يختلفوا ، ثم حين رأى اليهود أن زمام الأمور في المدينة قد أفلت من أيديهم ، وأن لا طاقة لهم بهم رأوا أن يفرقوا بين الحيين ، فدسوا دسائسهم . وثارت الحروب بين الأوس والخزرج ودامت قرابة قرن ونصف من الزمن[1] وحددها السمهوري بمائة وعشرين عاماً نقلاً عن ابن اسحاق .[2]

أما طبيعة هذه الأيام ، فقد روى عن الزبير بن بكّار عن بن متعب قال[3] « لم تكن بينهم في هذه الأيام حروب إلا في يوم بعاث فإنه كان عظيماً ، وإنما كانوا يخرجون فيترامون بالحجارة ويتضاربون بالخشب » ولكننا نجد ونحن نقرأ أخبارها قتالاً وقتلاً وإن كان ليس عنيفاً بالدرجة التي شهدناها في بعض الأيام ، إلا أنه لا يتعدى الإقتتال بالترامي بالحجارة والتضارب بالخشب .

ويعود السبب في هذه الحروب التي دامت أطول فترة عرفتها الأيام الجاهلية إلى عوامل غير منظورة يعتقد بأن اليهود كانوا وراء تدبيرها ، كما أن « الصراع بين الطرفين كان صراعاً على الرياسة »[4] ، فالخزرج ترغب في الاحتفاظ بما حققته على يد مالك بن العجلان ، والأوس ترى أن امتلاكها للبقاع الزراعية الخصبة وقرابتها للخزرج يجب ألا يضعاها في المرتبة الثانية . فرفضوا منزلة الخزرج عليهم وساءهم اعتراف غير اليثربيين بزعامة الخزرج من القبائل البدوية المحيطة بالمدينة . ويرى بعضهم « أن العامل الاقتصادي هو العامل المتحكم في توجيه العلاقات العامة بين أهل يثرب وحتى بين بطون القبيلة الواحدة أو بين عشائر البطن الواحد لم تستطع لحمة الدم أن تتغلب على الدوافع والاقتصادية »[5] .

ولكن الأسباب الظاهرية لحروبهم كانت لا تعدو الثأر أو حماية الجار أو المطالبة بديّة . وقد ظل اليهود طرفاً غير مشترك اشتراكاً فعلياً في هذه الحروب حتى كان يوم بُعاث ، فانضموا إلى الأوس في حربهم ضد الخزرج ، وهذا ما دعا ولفنسون إلى القول بأن « اليهود ظلوا محتفظين بمكانتهم بين القبائل العربية ، حتى أن كلاً من الأوس والخزرج كانت كل منها تجتهد في أن تميلهم إليها ليساعدوها في كفاحها ضد الأخرى[6] » .

---

(١) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٧١ .
(٢) وفاء الوفاء للسمهودي ١/ ١٥٤ .
(٣) الأغاني/ كتب ٣/ ٨ .
(٤) مجتمع المدينة - أحمد الشريف ٣٣٩ .
(٥) مجتمع مكة والمدينة - أحمد الشريف ٣٤٢ .
(٦) تاريخ اليهود - ولفنسون ٦٩ .

ويبدو أن أيامهم كانت كثيرة ، وأن الذي وصلنا منها هو المشهور منها ، وأن الذي عناه الزبير بن بكار هو تلك الأيام التي لم تصلنا ، يقول ابن الأثير: «وكان بينهما أيام ذكرنا المشهور منها وتركنا ما ليس بمشهور »[1].

وعدد حروبهم التي وصلتنا هي بالترتيب : سُمَير ، كَعْب بن عَمْرو ، السرَّارة ، الحصين بن الأسْلَت ، ربيع الظفرى ، فارغ ، قباء ، الدَّرْك ، حاطِب ، بُعاثْ .

وقد انتصرت الأوس في أربع منها ، والخزرج في ست ولكن المعركة الفاصلة والأخيرة كانت بُعاث وانتصرت فيها الأوس على الخزرج .

ولم يتوقف النزاع بين أهل المدينة ، بل تعداها إلى خارج حدودها ، فقد حاولت الأوس استمالة قريش ومحالفتها ضد الخزرج وحققت ذلك فعلاً في غياب زعيم قريش ، وعندما عاد رفض أن يقحم قريش التي تتمتع بمنزلة بين جميع القبائل فاحتال على الأوس حتى نقض ذلك الحلف ، وقد حدث ذلك يوم مَعْبَس ومُضَرِّس وهو يوم من حرب حاطب[2] . كما حالفت مُزَيْنَة الأوس يوم بُعاث ، وحالفت أشْجَع وجُهَيْنَة الخزرج في ذلك اليوم[3] .

ولم تعدم هذه الحرب الوسطاء لوقفها من خارج المدينة فبعد أول وقعة في حرب حاطب سار إليهم عُيَيْنَة بن حصن بن حُذَيْفة بن بَدر الفزاري وخيار بن مالك بن حماد الفزاري فتحدثا إلى الحيين في الصلح وضمنا كل ما يدعى بعضهم على بعض من الديات ، ولكن الفريقين أبيا .[4]

أما بطون الأوس فهي : بنو ظَفَر ومنهم قيس بن الخطيم ، وبنو وائل بن زيد وبنو عوف ابن مالك بن الأوس ، أهل قباء ، وبنو ضبيعة ، وبنو عمرو بن عوف ، وبنو جَحْجَبا ومنهم أُحَيْحة بن الجُلاح ، وبنو عبد الأشْهَل ، وبنو حارثة بن الحارث وبنو امرىء القيس بن مالك ، وبنو مُرَّة بن مالك ومنهم أبو قيس بن الأسْلَت .

أما بطون الخزرج فهي : بنو مازن بن النجّار وهم تَيْم الله ، وبنو الحارث وبنو مالك بن النجار ، وبنو مالك الأغر ومنهم عبد الله بن رَواحه ، وبنو عديّ ومنهم كَعْب بن مالك .

وأما قتلى هذه الحروب والتي ذكرت أسماؤهم في بطون الكتب فقلة ، لم يتعدوا فيما أحصينا عشرة من الأوس وستة من الخزرج ، وغلمان اليهود الذين قتلتهم الخزرج .

(١) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٧١ .
(٢) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٧٦ .
(٣) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٨٠ .
(٤) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٧٢ .

وأول حرب لهم هي **حرب سُمَيْر**[1] ، وكان سببها أن رجلاً من بني ثعلبة من سعد بن ذبيان يقال له كعب بن العجلان نزل على مالك بن العجلان السالمي فحالفه ، وخرج كعب يوماً إلى سوق بني قينقاع فرأى رجلاً من غطفان معه فرس وهو يقول : ليأخذ هذه الفرس أعز أهل يثرب ، فقالوا كلاماً متعدداً ، فدفع الغطفاني الفرس إلى مالك بن العجلان ، فغضب من ذلك رجل من الأوس من بني عمرو بن عوف يقال له سُمَيْر وشتمه وافترقا ، ثم تعقب سمير الغطفاني حتى خلا به فقتله . وطالب مالك بن العجلان بقاتله ، فأنكروه ، ثم عرضوا عليه الـديَّة فقبلها ، ولكنه أصرَّ على ديَّة الصريح ، وامتنعوا ولـجَّ الأمر بينهم حتى آل إلى المحاربة ، فاجتمعوا والتقوا قتالاً شديداً وافترقوا ، وكان الظفر أخيراً للأوس ، ثم حكموا بينهم المنذر بن حرام النجاري الخزرجي ، فحكم بينهم بأن يدوا كعباً حليف مالك ديَّة الصريح ثم يعودوا إلى سنتهم القديمة ، فرضوا بذلك وحملوا الديَّة **وافترقوا ، وقد ثبتت البغضاء في نفوسهم وتمكنت العداوة بينهم** .

ثم وقع بين بني جَحْجَبَا من الأوس وبني مازن بن النجّار حرب سببها **أن كعب بن عمرو المازني**[2] كان متزوجاً أمرأة من بني سالم ، كان يختلف إليها ، فأمر أُحَيْحَة بن الجُلاح سيد بني جَحْجَبَا بالترصد له وقتله ، فترصدوا له وقتلوه ، وعلم أخوه عاصم بن عمرو ، فاستعد وقومه للقتال وأرسل إلى **بني جَحْجَبَا يؤذنهم بالحرب** . فالتقوا بالرُحابة ، وانهزمت بنو جَحْجَبَا ، وانهزم أُحيحة وأخطأه عاصم ، ولكنه أصاب أخاه فقتله . ثم إن أُحيحة أجمع أن يبيت بني النجار وعنده زوجته سلمى بنت عمرو النجارية ، فأخبرت قومها ليلاً بما يبيت فكسر يدهـا وطلقهـا عندما علم بما فعلت ، وسميت تلك الحرب بحرب كَعْب بن عَمْرو المازنيّ .

ثم حدثت بين عمرو بن عوف من الأوس وبين الحارث من الخزرج حرب شديدة سببها أن رجلاً من بني عمرو قتله رجل من بني الحارث ، فعدا بنو عمرو على القاتل غيلة واكتشف أهله الأمر ، فتجهزوا للقتال ، **وأرسلوا إلى بني عمرو يؤذنونهم بالحرب** فالتقوا بالسرَّارة[3] ، وعلى الأوس حُضَيْر بن سماك ، وعلى الخزرج عبد الله بن سَلول ، فاقتتلوا قتـالاً شديداً صبر فيه الطرفان أربعة أيام ، ثم انصرفت الأوس إلى دورها ففخرت الخزرج بذلك[4] .

(1) الكامل لابن الأثير ۱/ ٦٥٨ ـ ٦٥٩ ، وفاء الوفا للسمهودي ۱/ ۱٥٢ ، الأغاني/ كتب ۲/ ۱۸ ـ ۲۰ .
(2) الكامل لابن الأثير ۱/ ٦٦٠ ، الأغاني/ كتب ۱٥/ ٤٧ ـ ٥١ .
(3) معجم البكري ۳/ ۷۳۱ السرارة : موضع قريب من المدينة .
(4) الكامل لابن الأثير ۱/ ٦٦٢ ـ ٦٦٤ .

ثم التقى بنو وائل بن زيد الأوسيون وبنو مازن بن النجار الخزرجيون ، في حرب سميت **بحرب الحُصَيْنُ بن الأسلت**[1] ، وذلك أن الحُصَيْنُ بن الأسلت نازع رجلاً من بني مازن فقتله الحصين ثم انصرف ، فتبعه نفر من بني مازن فقتلوه . فبلغ ذلك أخاه أبا قيس بن الأسلت ، **فجمع قومه وأرسل إلى بني مازن يعلمهم أنه على حربهم فتهيأوا للقتال** ، ولم يتخلف من الأوس والخزرج أحد ، **فاقتتلوا قتالاً شديداً** حتى كثرت القتلى في الفريقين ، وقتلوا الذين قتلوا حصيناً ، وانهزمت الأوس .

ثم كانت بين بني ظفر من الأوس وبين بني مالك بن النجار من الخزرج **حرب ربيع الظفري**[2] ، سببها أن ربيعاً الظفري كان يمر في مال لرجل من بني النجار فتنازعا ، فقتله الربيع ، فالتقى الفريقان فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فانهزمت بنو مالك بن النجار .

ثم التقوا في يوم يقال له **يوم فارع**[3] ، سببه الغلام القضاعيّ الذي أتى يزور عمه جار معاذ ابن النعمان الأوسي، فقتله نجاري، وطلب معاذ دية جاره ، أو قاتله ، فأبوا . فهدد قوم معاذ بقتل سيدهـم عامر بن الإطنابة بهـذا الغـلام إن لم يجيبوهـم إلى طلبهـم . ثم تهيأوا للحرب، والتقوا عند فارع وهو أُطم لحسان بن ثابت ، واشتد القتال ، واستمر حتى حمل ديته عامر بن الإطنابة فعادوا إلى أحسن مما كانوا عليه .

ثم كانت بينهم حرب حاطب[4] ، وحاطب هو حاطب بن قيس من بني أمية بن زيد بن مالك بن عوف الأوسي ، وحرب حاطب آخر حرب بينهم قبل بُعاث ، وبينها وبين حرب سُمَيْر مائة سنة .

وسبب هذه الحرب أن رجلاً من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان أتى حاطباً فنزل عليه ، ثم غدا إلى سوق قينقاع ، فرآه يزيد بن الحارث المعروف بابن فُسْحُم ، فقال يزيد لرجل يهودي : لك ردائي إن كسعت هذا الثعلبي ، فأخذ رداءه وكسعه كسعاً سمعه مَنْ بالسـوق . وصـاح الثعلبي يا آل حاطب كُسِع ضيفك وفضح ، وجاء حاطب فقتل اليهودي ، وأُخبر ابن فُسْحُم

---

(1) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٦٥ .

(2) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٦٦ .

(3) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٦٨ - ٦٧١ ، معجم البكري ٣/ ١٠١٣ ، صحيح الأخبار ٥/ ٨٤ معجم البلدان ٦/ ٣٢٧ .

(4) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٧١ وما بعدها .

بقتل اليهودي ، فثارت الحرب بعد أن قتل ابن قُسْحم رجلاً من بني معاوية ، واحتشدوا وجمعوا والتقوا على جسر ردم بني الحارث بن الخزرج ، وكان على الخزرج عمرو بن النعمان البياضي ، وعلى الأوس حضير بن سماك الأشهلي ، وسمعت العرب المحيطة بهم بحربهم فسعوا اليهم للصلح ، سعى بذلك عيينة بن حصن بن حذيفة ، وخيار بن مالك بن حمار الفزاري ، ولكن الفريقين رفضا .

وكانت لهم في هذه الحرب - حرب حاطب - عدة وقائع أشهرها أول يوم ، وظفرت فيه الخزرج ، ثم كانت بعده عدة وقائع منها : يوم الربيع ، ويوم البقيع ، ويوم الفجار الأول ، ويوم مُعَبَّس ومُضَرَّس ، ويوم الفجار الثاني .

ثم التقت الأنصار بعد يوم الجسر بالربيع[1] ، وهو حائط في ناحية السفح ، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كاد يفني بعضهم بعضاً ، فانهزمت الأوس وتبعها الخزرج حتى بلغوا دورهم . فلما تبع الخزرج الأوس إلى دورهم طلبت الأوس الصلح فاقتنعت بنو النجار عن إجابتهم ، على خلاف ما تعارفوا عليه ، فحصنت الأوس النساء والذراري في الآطام ، فكفت عنهم الخزرج .

ثم التقوا ببقيع الغرقد[2] ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فكان الظفر يومئذ للأوس ، وكان رئيس الأوس في حرب حاطب أبو قيس بن الأسلت الوائلي ، فقام في حربهم حتى شحب وتغير وأنكرته امرأته ، ثم جمع قومه وقال لهم : ما كنت رئيس قوم قط إلاّ هزموا ، فرئسوا عليكم من أحببتم ، فرأسوا عليهم حُضَيْرَ الكتائب بن السماك الأشهلي ، فالتقى الأوس والخزرج بمكان يقال له الغَرْس ، فكان الظفر للأوس ، ثم تراسلوا في الصلح فاصطلحوا على أن يحسبوا القتلى ، فأفضلت الأوس على الخزرج ثلاثة نفر فدفعت الخزرج ثلاثة غلمة منهم رهناً بالديات ، فغدرت الأوس فقتلت الغلمان .

وعندما قتلت الأوس الغلمان جمعت الخزرج وحشدت والتقوا بالحدائق ، وعلى الخزرج عبدالله بن أبي سَلول ، وعلى الأوس أبو قيس بن الأسلت ، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كاد بعضهم يفني بعضاً . وسمي بيوم الفجار[3] لغدرهم بالغلمان ، وكان الظفر فيه للخزرج على الأوس ، ويسمى أيضاً يوم الحديقة[4] .

---

(1) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٧٢ ، معجم البكري ٢/ ٢٣٧ ، معجم البلدان ٤/ ٢٢٥ .
(2) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٧٢ - ٦٧٥ ، معجم البكري ١/ ٢٦٥ ، معجم البلدان ٢/ ٢٥٣ .
(3) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٧٦ .
(4) الأغاني/ كتب ٣/ ٧ - ٨ ، معجم البلدان ٢/ ٢٣٢ .

ثم التقوا عند **مُعَبِّس ومُضَرِّس**[1]، وهما جداران، فكانت الخزرج وراء مضرس، وكانت الأوس وراء معبس، فأقاموا أياماً يقتتلون، ثم انهزمت الأوس حتى دخلت البيوت والآطام. ووادعت بنو عمرو بن عوف وبنو أوس مَناة من الأوس الخزرج، وامتنعت بنو عبد الأشهل وبنو ظفر وغيرهم، وأبوا المصالحة حتى يكروا ثأرهم من الخزرج. فألحت الخزرج عليهم حتى أجبرت بعضهم على الموادعة ... ثم سارت الأوس إلى مكة وحالفت قريشاً، وأبو جهل غائب، وعندما عاد كره أن تحشر قريش في حرب داخلية لا مصلحة لها فيها، واحتال عليهم حتى أَلغى هذا الحلف.

ثم دخلت اليهود الحرب، حينما طلبت الأوس من قريظة والنضير محالفتها على الخزرج، وبلغ ذلك الخزرج، **فأرسلوا إليهم يؤذنونهم بالحرب**. فقالت اليهود: إننا لا نريد ذلك، فأخذت الخزرج منهم رهناً على الوفاء، وهم أربعون غلاماً، ثم سكر يزيد بن فُسْحم فتغنى بذلك، فغضبت اليهود فحالفوا الأوس على الخزرج، فقتلت الخزرج الرهن، وقيل في قتلهم خلاف ذلك: **وذلك أن عمرو بن النعمان البياضي قال لقومه: والله لا يمسّ رأسي ماء حتى أنزلكم منازل قريظة والنضير أو أقتل رهنهم، وكانت منازل قريظة والنضير خير البقاع، وأرسل إليهم: إما أن تخلوا بيننا وبين دياركم وإما أن نقتل الرهن**. وهموا بالخلاء ديارهم ولكن كَعْب ابن أسد منعهم، فقتلهم عمرو بن النعمان، وخالفه عبدالله بن أبي بن سَلول - وسمي هذا اليوم **يوم الفِجار الثاني**[2].

ثم كان بينهم **يوم الدُّرَيْك**[3]، ولم نعثر على تفاصيل لهذا اليوم إلا أسمه. ثم كان يوم **قُباء**[4] ولم نعثر على شيء خلا أسمه.

وأخيراً كان بينهم **يوم بُعاث**، ويقول صاحب الأغاني في سببه «وكان سببه أن الحروب المتقدمة كلها كان الظفر في أكثرها للخزرج على الأوس، حتى ذهبت الأوس لتحالف قريظة، فأرسلت إليها الخزرج لئن فعلتم فأذنوا بحرب فتفرقوا، وأرسلوا إلى الخزرج إنا لا نحالفهم ولا ندخل بينكم»[5] وعندما قتل عمرو البياضي غلمانهم جددوا العهد مع الأوس على المؤازرة والتناصر، وأرسلت الخزرج حلفاءها من أشجع وجهينة وأرسلت الأوس حلفاءها من مزينة،

(١) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٧٦ - ٦٧٨.
(٢) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٧٨ - ٦٨٠.
(٣) مجمع الأمثال ٢/ ٥٣٢، معجم البلدان ٤/ ٥٤.
(٤) مجمع الأمثال ٢/ ٥٣٥.
(٥) الأغاني/ ثقافة ١٧/ ٦٨.

ومكثوا أربعين يوماً يتجهزون للحرب ، ثم التقوا ببعاث وعلى الأوس حُضَيْرٌ الكتائب وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي ، وتخلّف ابن سَلول فيمن تبعه من الخزرج ، وتخلف بنو حارثة من الأوس . وكادت الأوس أن تهزم لولا أن برك حُضَيْرٌ وطعن قدمه بسنان رمحه وصاح : واعقراه كعقر الجمل ، والله لا أعود حتى أقتل ، فإن شئتم أن تسلموني فافعلوا ، فعطفوا عليه وقاتلوا وصبروا ، وانهزمت الخزرج ، ووضعت فيهم الأوس مسّ السلاح ، فصاح صائح من الأوس : يا معشر الأوس أحسنوا ولا تهلكوا إخوانكم فجوارهم خير من جوار الثعالب « فانتهوا ولم يسلبوهم » ، وإنما سلبهم بنو قريظة والنضير . ومات في هذه المعركة قائدا الفريقين حُضَيْرٌ وعمرو بن النعمان ، مات الأول متأثراً بجراحه ومات الثاني قتيلاً .[1]

وكان من نتائج بُعاث أن ضعفت روح العدوان والحقد في نفوس البطون البريئة حتى أخذ الناس ينصرفون إلى أعمالهم ، ثم جاء الإسلام ، فدخلوا في هذا الدين الجديد الذي أزال ما بينهم من فرقة .

وحروب الأوس والخزرج تميزت بأمور منها : لا يفني طرف منها الطرف الآخر[2] ، ولا يدخلون على الفريق الآخر حصونهم وآطامهم بل يكفون عنهم بمجرد الانصراف إلى دورهم ، ويؤذن الفريق منهم الآخر بالحرب قبل بدئها ، وحوادث القتل فيها قليلة .

ب ـ حروب الغساسنة والمناذرة :

عرضنا في الفصل الأول من هذا البحث لهاتين الدولتين ، وولاء أولاهما للروم والثانية للفرس ، وعرضنا للهدف من تأييد الدولتين الكبيرتين لهما ، وعرفنا مصيرمن يخرج عن السياسة المرسومة له كما حدث للنعمان بن المنذر ، وكان طبيعياً أن تصطدم مصالحهما تبعاً لاصطدام مصالح الروم والفرس ، إلاّ أنه لم يصلنا من حروبهم إلاّ ثلاثة أيام هي : عين أُباغ ، مرج حليمة ، شَطب .

إلاّ أن هذه الأيام ، على الرغم من قلة عددها ، فقد داخل رواياتها الاضطراب والاختلاف ، فاختلفوا في أي اليومين قبل الآخر عين أُباغ أم مرج حَليمة ، واختلفوا في الملك المقتول ، ومنهم من جعلها يوماً واحداً . أما يوم شطب فلم يصلنا عنه الكثير .

---

(١) الأغاني/ ثقافة ١٧/ ٦٨ وما بعدها ، الكامل لابن الأثير ١/ ٦٨٠ ـ ٦٨١ ، معجم البكري ١/ ٢٥٩ ، معجم البلدان ٢/ ٢٢٣ ، مجمع الأمثال ٢/ ٥٣٢ .
(٢) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٨٠ قول صائح من الأوس : يا معشر الأوس . . .

واشترك عرب العراق وعرب الشام في هذه الحرب ، فالمناذرة يقاتل معهم العرب الذين يخضعون لهم ، وهم عرب العراق ، والغساسنة يقاتل معهم عرب الشام .

أما يوم عين أُباغ[1] ، فسببه أن المنذر بن ماء السماء سار من الحيرة في معد كلها حتى نزل **بعين أُباغ**[2] وأرسل إلى الحارث الأعرج ملك الغساسنة يقول : إما أن تعطيني الفدية ، فانصرف عنك بجنودي ، وإما أن تأذن بحرب . فطلب الحارث مهلة ، ثم جمع عساكره وسار نحو المنذر ، وأرسل يعرض عليه أن يقاتل رجل من ولد المنذر رجلاً من ولد الحارث ، فإن فني اولادهما اقتتلا فمن قتل صاحبه ذهب بالملك .

ولكن المنذر خدع الحارث فأنزل لمبارزة ابن الحارث فارساً ليس ابنه وقتل أبنين للحارث إلى أن كشف الخدعة شمر بن عمر الحنفي من جيش المنذر ، وكانت أمه غسانية ، وكان قد لام المنذر على فعله ، فأخرجه من عساكره وذهب إلى عساكر الحارث وأخبره بالخدعة . ولما كان الغد جمع الحارث جنده وحثهم ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فقُتِل المنذر وهُزِمت جيوشه ، وسار إلى الحيرة يحمل ابنيه والمنذر فأنهبها وأحرقها ، ودفن ابنيه وبنى الغريين عليهما . وقد قدر بعض المؤرخين زمن هذه الحرب بحوالي سنة ٥٧١ م[3] .

ثم ملك الحيرة بعد المنذر أبنه المنذر الأسود[4] ، وعندما استقر حكمه جمع عساكره وسار إلى الحارث الأعرج طالباً بثأر أبيه ، وبعث إليه ينذره ، ورد الحارث بأنه مستعد للقاء ، فسار المنذر حتى نزل بمرج حليمة[5] ، ثم سار الحارث حتى نزل بالمرج أيضاً ، وصنع أهل المرج الطعام لعساكر الحارث ، ودامت الحرب أياماً لم يتصف بعضهم لبعض ، ولما رأى الحارث ذلك دعا ابنته وأمرها أن تتخذ طيباً في الجفان وتطيب أصحابه ، ونادى في المعسكر : من قتل المنذر زوجته أبنتي هنداً . وتحرك لبيد بن عمرو الغساني ، فأخذ فرس أبيه ، ثم شدَّ على المنذر فقتله ، ونزل فاحتزَّ رأسه وأقبل بها إلى الحارث ، فألقى بالرأس بين يديه ، فقال له الحارث : شأنك بأبنة عمك فقد زوجتكها . قال : بل أنصرف فأواسي الرجال ، ورجع وقاتل فقتل ، وانهزمت لخم هزيمة ثانية ، وقُتِلوا في كل وجه ، وانصرفت غسان بأحسن ظفر . ويعد ابن الأثير هذا اليوم من أشهر أيام العرب لأن كلاً من الملكين جاء بحشد عظيم .

(١) الكامل لابن الأثير ١/ ٥٤٠ مجمع الأمثال ٢/ ٥٣٥ .
(٢) معجم البكري ١/ ٩٥ ، معجم البلدان ١/ ٦٩ ، صحيح الأخبار ٢/ ٢٦ .
(٣) تاريخ الاسلام السياسي - حسن ابراهيم حسن ١/ ٥٢ طبعة اولى ١٩٣٥ .
(٤) الكامل لابن الأثير ١/ ٥٤٢ وما بعدها ، خزانة الأدب ٣/ ٣٠٣ - ٣٠٥ تحقيق عبد السلام هارون ، أمثال الضبي ٧٩ ، مجمع الأمثال ٢/ ٥٣٣ مواضع أخرى .
(٥) معجم البلدان ٣/ ٣٣٠ ، صحيح الأخبار ٤/ ١٣ .

وقيل في سبب هذه الحروب إن الحارث الأعرج خطب ابنة المنذر ، وكانت لا تريد الرجال ، وصنعت بجلدها شبيهاً بالبرص ، فندم أبوها على تزويجها وأمسكها . فارسل الحارث يطلب الفتاة فمنعها أبوها واعتلَّ عليه ، ثم خرج المنذر غازياً ، فبعث الحارث إلى الحيرة جيشاً فانتهبها وأحرقها ، فانصرف المنذر من غزاته ، وسار يريد غسان ، فكانت وقعة عين أُباغ .

إلا أنه مهما قيل عن الأسباب ، فإن السبب الحقيقي هو الخلاف بين الفرس والروم الذي كان ينعكس على الغساسنة والمناذرة ، وتشترك بعض القبائل العربية الى جانب هذا أو ذاك .

حروب العرب مع الفرس :

وضحنا في الفصل الأول مدى العلاقات بين القبائل العربية والفرس ، بشكل مباشر وغير مباشر ، وطبيعة هذه العلاقات ، وتعاون الفرس وولاتهم في اليمن جنوباً ، وعمالهم في الحيرة شمالاً للضغط على القبائل العربية . وقد عرضنا لأيام القبائل العربية مع المناذرة من ناحية ، ومع اليمن من جهة ثانية . ولم يبق إلا أن نتحدث عن الصدام المباشر بين العرب والفرس .

وذهب بعض الباحثين[1] إلى أن الجزيرة العربية وقد أجهدتها الخلافات والانقسامات ، فإذا بها تتجه اتجاهاً قوياً ينصاع له أشد الناس في الماضي تأريثاً لنار الخلاف بين العرب ، وهم ملوك المناذرة . فنرى النعمان الأخير يعطف على الوحدة التي عمل على تفكيكها آباؤه . ويرى أن مقتل النعمان وهو نتيجة إحساس الفرس بهذا الخطر الداهم ، وعندها شعر العرب جميعاً بما لم يشعروا به من قبل ، واجتمعت كلمتهم بما لم تجتمع به من قبل ، وهبوا للقاء عدوهم الأول ، الفرس ، انتقاماً للنعمان .

أما أسباب هذا اليوم فقد ذهبوا فيها مذاهب مختلفة ، فالطبري[2] وأبو عبيدة[3] ذهبا إلى أن الذي جرّ يوم ذي قار « قَتْل النعمان بن المنذر اللخمي عديَّ بن زيد العبادي ، أحد تراجمة كسرى» وصاحب الأغاني[4] وابن رشيق[5] يذكران أن « أدراع النعمان ، وتحرشات بكر بالسواد الذي تحميه كسرى» هما سبب هذا اليوم . وذهب عبد القادر المغربي[6] إلى أن كسرى طلب من هاني بن مسعود هنداً ابنة النعمان لادروعه ، وهند زوجة عدى رآها عدى في كنيسة فتزوجها ويستدل على ما يقول بمخطوط في مكتبة لندن اسمه : حرب شيبان مع كسري أنو شروان في شأن الحرقة بنت النعمان « وذهب باحث آخر[7] إلى أن السبب الحقيقي» أن الفرس بدأوا يشكون في

---

(١) تاريخ الشعر العربي ـ البهبيتي ٤٢ .
(٢) تاريخ الطبري ٢/ ١٩٣ وما بعدها .
(٣) النقائض ٢/ ٦٣٩ .
(٤) الأغاني/ ثقافة ٢٣/ ٢٢٠ .
(٥) العمدة ٢/ ٢١٨
(٦) محاضرات المجمع العلمي بدمشق ح ٢/ ٢٢ .
(٧) تاريخ الجاهلية ـ عمر فروخ ١٣٨ ـ ١٤٥ .

ولاء النعمان ، وبذلك يمكن أن يخرج قسماً من العرب من قبضتهم فيتقلص نفوذهم عن جانب من بلاد العرب ، فأراد الفرس أن يعملوا عملاً يحاولون به دون تقلص نفوذهم عن العرب » ويرى جواد علي[1] أن سبب يوم ذي قار « أن بكراً أصيبت بقحط ، فخرجت حتى نزلت بذي قار وأقبل حنظلة بن سيار العجلي ، حتى ضرب قبته بين ذي قار وعين صيد ، فأتاهم عامل كسرى على السواد ليخرجهم منه ، فأبوا فقاتلهم ، فهزموه وانتصروا عليه » .

ولا نريد أن نسترسل في سرد الروايات والأسباب ، لأننا نتبين منها عنصراً بارزاً وهو أن الفرس دولة كبرى تعتبر أن حماها يجب ألاّ يقترب منه أحد كما أنها تعتبر القبائل يجب أن تدين لها بالولاء ، وكانت الحيرة بأساليب مختلفة تقف فاصلاً بين الفرس والقبائل العربية المجاورة وفي مقدمتها بكر ، وعندما ضعفت طمعت بكر وغيرها في سواد فارس فاقتحمته غير آبهة بالفرس ، كما أن العداء الذي يكنه العرب مهما كان غير واضح ، كان له دور في هذه الحرب ، هذا إلى جانب عوامل أخرى ، كلها تداخلت فكان يوم ذي قار .

واختلف الباحثون حول الأساس الذي قامت عليه هذه الحرب ، فبينما يرى بعضهم هذه حرباً مع الفرس في معركة مفتوحة[2] ، يرفض آخر اعتبارها أنها قامت على أساس جنسي أو قومي، ويستدل الطرف الثاني بالقبائل العربية التي حاربت الى جانب كسرى[3] ويصف الميداني هذا اليوم بأنه من أعظم أيام العرب ، وأبلغها في توهين أمر الأعاجم[4] ويؤيد مثل هذا القول ، قول حنظلة بن سيار محرضاً[5]

يا قوم طيبوا بالقتال نفساً   أجدر يوم أن تفلوا الفرسا

والحقيقة أن يوم ذي قار لم يخل من عصبية جامعة ، عصبية أحست أنها أمام خطر داهم ، حقاً لقد حاربت قبائل إلى جانب جند كسرى كتغلب وقضاعة وإياد وطيء ، إلاّ أن ذلك لا يضعف مما ذهبنا إليه وذهب إليه آخرون قبلنا ، ويدعم ما نذهب إليه ، إذا صحت الروايات ، أننا نجد قيس بن مسعود ينسل من صفوف الفرس لينصح قومه بتوزيع السلاح[6] ، كما أننا نجد إياداً تنسحب من صفوف الفرس بناء على اتصال مسبق مع بكر ، لتوهن صفوف الفرس وتنضم

---

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام - جواد علي/ طبعة ١٩٦٨ : ٣/ ٢٩٨ .
(٢) تاريخ الشعر العربي - نجيب البهبيتي ٤٢ .
(٣) النقائض - أحمد الشايب ٦٥ ، العصبية لاحسان النص ١٥٧ .
(٤) مجمع الأمثال ٢/ ٥١٩ .
(٥) النقائض ٦٤٢ .
(٦) النقائض ٢/ ٦٤٠ ، العقد الفريد ٥/ ٢٦٠ .

الى بكر[1] ، كما أن أسرى بني تميم من بني يربوع نراهم يحاربون إلى جانب بكر ببسالة[2] . وربما حاربت تلك القبائل خوفاً من بطش الفرس ، أو لثأر بينها وبين بكر كتغلب مثلاً .

أما زمن هذا اليوم فمختلف فيه أيضاً ، فمنهم من ذهب إلى أنه كان وقد بعث النبيﷺ وخبر أصحابه بها[3] . ومنهم من جعله في السنة الثالثة للهجرة[4] ، ومنهم من جعله عند منصرف الرسول من وقعة بدر[5] ، ومنهم من جعله قبل الهجرة[6] ، وحددها أبو الفرج بعد الهجرة بين بدر وأحد ، وأنها كانت بعد بدر بأشهر[7] . وحدده بعض المستشرقين بحوالي سنة ٦٠٤ - ٦١٠م[8] ، أما مَنْ ذهب إلى أنها كانت يوم ولادة الرسولﷺ فقد جافى الحقيقة[9] .

وفريقا هذا اليوم : بكر جميعها إلاّ حنيفة ومعها أسرى بني رياح بن يربوع وعددهم مائتا أسير ، والفرس ومعها تغلب وقضاعة وأياد وطيء والنمر بن قاسط. وقد حدد عمرو بن الأسود المشتركين حين قال من أصمعيته :[10]

لما سمعتُ نداءَ مُرَّةَ قد عَلا	وابنَـيْ ربيعـةَ في الغبـارِ الأَقتمِ
ومحلّما يمشـون تحـتَ لوائهم	والموتُ تحـت لواءِ آل محلّمِ
وسمعـت يَشْـكر تدْعِـي بحبّيب	تحتَ العَجاجـةِ وهـي تقطـرُ بالدمِ
وحُبيِّب يُزجـون كل طمرَّةٍ	ومـن اللهـازِمِ شَخْـتٌ غـير مصرَّمِ
والجمـعُ من ذُهْـلٍ كأنَّ زهـاءَ هم	جُـرب الجمالِ يقودهـا ابنـا شَعْثَمِ

وورد هذا اليوم في المصادر المختلفة بأسماء متعددة ، فهو يوم ذي قار ويوم قراقر ، ويوم حنوذي قار ويوم الجُبَابات ويوم ذات العَجْرَم ويوم الفذوان ويوم البطحاء بطحاء ذي قار ويوم

---

(١) الكامل لابن الأثير ١/ ٤٩٠ .
(٢) النقائض ٢/ ٦٤٧ .
(٣) العقد الفريد ٥/ ٢٦٠ ، النقائض ٢/ ٦٤٠ ، الكامل لابن الأثير ١/ ٤٨٩ .
(٤) تاريخ ابن خلدون ٢/ ٥٥٩ .
(٥) التنبيه والأشراف للمسعودي ٢٤١ ، تاريخ اليعقوبي ٢/ ٣٤ .
(٦) المحبر لابن حبيب ٣١٠ .
(٧) الأغاني/ ثقافة ٢٣/ ٢٢٨ - ٢٣٦ .
(٨) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام جواد علي ٣/ ٢٩٤ .
(٩) معجم البلدان (طبعة بيروت) ٤/ ٢٩٤ .
(١٠) الأصمعية رقم ٢١ .

صيّد ويوم القبة . وهذا ما دعا بعض الباحثين(١) للقول أنه لم يكن يوماً واحداً ، بل هو جملة معارك وقعت قبلها ، ثم ختمت بذي قار حيث كانت المعركة الفاصلة فنسبت المعارك إلى هذا المكان .

وفي بداية الحديث عن هذا اليوم (٢) نود أن نبين قادة الطرفين : فعلى بكر هانيء بن قَبِيصَة الشيباني ، ويزيد بن مُسْهر الشيباني ، وحَنْظَلَة بن ثعلبة العِجْليّ ، وزيد بن حسان السكوني حليف شيبان الذي أشار بأن يكمنوا للفرس . وفي المعركة كان على الميمنة : بكر بن زيد بن مسهر الشيباني ، وحنظلة بن ثعلبة وهانيء بن قبية على الميسرة ، وهانيء بن مسعود في القلب .

وفي معسكر الفرس وأشياعهم كان النعمان بن زرعة التغلبيّ على تغلب والنمر بن قاسط ، وخالد بن يزيد البَهرانيّ على قُضاعة وإياد ، وإياس بن قبيصة الطائي على جميع العرب ومعه كتيبتا الشهباء والدوسر ، والهامرز على ألف من الأساورة وقيس بن مسعود مساعد لإياس .

ونعود إلى الخبر منذ البداية ، فعندما هلك النعمان جعلت بكر تغير على السواد ، فوفد قيس بن مسعود بن خالد بن ذي الجَدَّين إلى كسرى ، وسأله أن يجعل له أكلاً وطعمه على أن يضمن له على بكر ألاّ يدخلوا السواد ، فاقطعه الأبله وما والاها ، له ولقومه . ولكن قيس بن مسعود لم يكرم قومه ، فاستمرت بكر تغير على السواد ، فلما بلغ كسرى ذلك اشتد حقده على بكر ، وبلغه أن حلقة النعمان واهله وولده عندهم ، وأمر بحبس قيس بن مسعود ، فأرسل قيس ينذر قومه سرا . ثم بعث كسرى إلى هانيء بن مسعود يخبره : إن النعمان كان عاملي ، وقد استودعك ماله وأهله والحلقة ، فابعثها إليّ ، ولا تكلفني أن أبعث إليك ولا إلى قومك بالجنود ، تقتل المقاتلة ، وتسبي الذرية . وأرسل إليه هانيء : إن الذي بلغك باطل ، وإن يكن الأمر كما قيل ، فإنما أنا أحد رجلين ، إما رجل استودع أمانة فهو حقيق أن يردها على من أودعه إياها ، ولن يسلم الحر أمانته ، أو رجل مكذوب عليه ، فليس ينبغي للملك أن يأخذه بقول عدو أو حاسد .

ودعا كسرى إياس بن قبيصة الطائي يستشيره في الغارة على بكر ، فأشار عليه بألاّ يعلم

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ـ جواد علي ٣/ ٢٩٤ .

(٢) مصادر دراسة هذا اليوم النقائض ٣/ ٦٣٨ ـ ٦٤٨ ، المعارف ٦٠٣ ، الأغاني/ ثقافة ٢٣/ ٢٢٠ ـ ٢٤١ ، العقد الفريد ٥/ ٢٦٠ ـ ٢٦٨ ، تاريخ الطبري ٢/ ١٩٣ وما بعدها ، العمدة ٢/ ٢١٨ ، الكامل لابن الأثير ١/ ٤٨٢ ـ ٤٩٠ ، مجمع الأمثال ٢/ ٥١٩ تاريخ ابن خلدون ٢/ ٥٥٩ وما بعدها ، معجم البكري ٣/ ١٠٤٢ ، معجم البلدان ٣/ ٤٢ ، ٧/ ٤٤ ، المفصل في تاريخ العرب قبل الأسلام ـ جواد علي ٣/ ٢٩٣ ـ ٢٩٨ .

أحداً لأي شيء عبر وقطع الفرات ، ولكن ترجع وتضرب عنهم وتبعث العيون عليهم حتى ترى غرة منهم ، ثم ترسل عليهم الجيش فيوقعون بهم وقعة الدهر ، فلم يأخذ برأيه متهماً إياه بالتعصب لأخواله بني بكر ، وأشار عمرو بن عدي العبادي بأن يرسل إليهم جنوداً يكفونه شرهم ، وأشار النعمان بن زُرْعة التغلبي فقال : أيها الملك ، إن هذا الحي من بكر إذا قاظوا بذي قار تهافتوا تهافت الجراد في النار . فعقد للقادة الذين سبق ذكرهم ألوية الجيوش ، وأمرهم إذا فرغوا من عدوهم أن يسيروا الى اليمن ، وعهد إليهم إذا شارفوا بلاد بكر ودنوا منها أن يبعثوا إليهم ابن زُرْعة ، فإن أتوكم بالحلقة ومائة غلام منهم ، يكونون رهناً بما أحدث سفهاؤهم ، فاقبلوا منهم ، وإلاّ فقاتلوهم .

فلما بلغ بكر بن وائل الخبر سار هانيء بن مسعود حتى انتهى إلى ذي قار ، فنزل به وأقبل النعمان بن زُرْعة ، فنزل على ابن أخته مرة بن عمرو . . . بن عجل ، وأخبرهم بإنذار كسرى ، فلم يقبلوا بما عرضه عليهم ، بعد أن تشاوروا فيا بينهم . وأشار حنظلة بن ثعلبة بن سيّار العِجْلّيّ على هانيء أن يخرج الحلقة ، ويوزعها على قومه ، فإن ظفروا ردوها عليه ، وإن هلكوا فأهون مفقود ، ففعل بما أشير عليه .

ثم أقبلت الأعاجم نحوهم في الصباح ، وأمر حنظلة بالظعن فوقفها خلف الناس ثم قال : يا معشر بكر قاتلوا عن ظعنكم ، ولما رأت بنو قيس بن ثعلبة الأعاجم انصرفوا ، فلم يشهدوا ذلك اليوم . وأشار حنظلة بمعاجلة لقاء القوم لأن النشاب الذي من الأعاجم يفتك بهم ، وقال هانيء بن مسعود مثل ذلك ، ثم قام حنظلة إلى وضين أمرأته فقطعه ، وتتبع الظعن يقطع وضنهن حتى لا يفر القوم ويدافعوا عن نسائهم . واقتتلوا صدر النهار ، ثم شد الحوفزان على الهامرز فقتله ، ثم هزمت الفرس وولوا الأدبار ولحقتهم بكر تطارد فلولهم ، وقتل عمرو بن عدى ، وخالد بن يزيد البهراني ، ونجا إياس بن قبيصة ، فأتى كسرى فسأله عن الخبر ، فقال هزمنا بكر بن وائل وأتيناك بنسائهم ، فسرّ كسرى وأمر له بكسوة ، ثم استأذنه في زيارة أخيه المريض بعين التمر ، فأذن له كسرى ، ثم أتى رجل من الحيرة ، فسأله فأخبره الحقيقة ، فأمر به فنزعت كتفاه .

وروي أن النبيﷺ مثلت له الوقعة بالمدينة فرفع يديه ، فدعا لبني شيبان أو لجماعة ربيعة بالنصر ، ولم يزل يدعولهم حتى أري هزيمة الفرس[1] . وابن عبد ربه[2] يروي أن بكراً تنازعت فيا بينها ، فهانيء بن قبيصة همَّ بركوب الفلاة ، وأشار بذلك على بكر ، وقال حنظلة بن ثَعْلَبة :

---

(١) الأغاني/ ثقافة ٢٣/ ٢٣٦ . (٢) العقد الفريد ٥/ ٢٦٠ .

لا أرى غير القتال ، فأنا إن ركبنا الفلاة متنا عطشاً ، وإن أعطينا بأيدينا تقتل مقاتلتنا وتسبى ذرارينا .

قال أبو عبيدة[1] : لما كان يوم ذي قار كان في بكر أسرى من تميم قريباً من مائتي أسير ، أكثرهم من بني رياح بن يربوع . فقالوا : خلّوا عنا نقاتل معكم ، فإنما نذب عن أنفسنا . فقالوا : فإنا نخاف ألاّ تناصحونا . قالوا : فدعونا نعلم حتى تروا مكاننا وغناءنا .

ويزعم البعض أن يوم ذي قار لم يشهده إلاّ بنو شيبان وبنو عجل ، وقال آخرون بل شهدتها قبائل بكر وحلفاؤهم ، ويقول أبو عمرو بن العلاء : إن بشير بن سوادة التغلبي فصل الأمر فحدد القبائل المشتركة[2] .

أيام بين بطون القبيلة الواحدة :

وهذه المجموعة تشير بأصابع الاتهام إلى تلك العصبية الضيقة في المجتمع الجاهلي ، ومدى ما كانت تحدثه في تفتيت ذلك المجتمع العربي ، ولم تكتف بذلك بل عملت على تأريث الخلافات بين بطون القبيلة الواحدة . ويبدو أن هذه الأيام لم تحظ باهتمام الرواة ، فلم تصلنا أخبارها مفصلة كما في المجموعات الأخرى ، وربما أهملت لسبب ما ، لا نستطيع أن نؤكده بل نخمنه ، إما لأنها لم تكن عنيفة ، وإما لأن الرواة لم يرغبوا في روايتها .

ومن هذه الأيام يوم حَرَابيب[3] أو هَراميت[4] ، كما في بعض المصادر ، وكان بين الضباب واخوتهم بني جعفر بن كلاب . وحَرابيب ـ كما يحدثنا الميداني ثلاثة آبار ، كانت بها وقعة بين الفريقين بسبب بئر أراد بعضهم أن يحتفرها[5] .

وفي يوم القَرْعاء[6] ، وهي بقعة فيها ركايا لبني عدانة بن يربوع بن حنظلة ، وكانت بهذه البقعة وقعة بين بني مالك بن حنظلة بن تميم وبني يربوع بن حنظلة بن تميم[7] .

وفي يوم تِياس[8] كانت أفناء من بني سعد بن زيد مناة وأفناء من بني عمرو بن تميم التقت بتياس[9] ، فقطع غَيْلان بن مالك بن عمرو بن تميم رِجْلَ الحارث بن كعب بن سعد بن زيد

(١) العقد الفريد ٥/ ٢٦٨ النقائض ٢/ ٦٤٧ . (٢) نفس المصدر السابق .
(٣) مجمع الأمثال ٢/ ٥٣٣ . (٤) معجم قبائل العرب ٢/ ٦٦٠ .
(٥) أنظر معجم البلدان ٣/ ٨٨٣ . (٦) معجم البلدان ٥/ ٥٥ .
(٧) مجمع الأمثال ٢/ ٥٣٠ ، النقائض ١/ ٢١٤ .
(٨) النقائض ٢/ ١٠٢٥ ، العقد الفريد ٥/ ٢٣٦ .
(٩) أنظر معجم البكري ١/ ٣٢٨ ، معجم البلدان ٢/ ٤٣٨ .

مناة ، فطلبوا القصاص ، فاقسم غيلان أن لا يعقلها ولا يقص بها حتى تحثى عيناه تراباً . فالتقوا واقتتلوا ، فجرحوا غيلان حتى ظنوا أنهم قتلوه .

واختلف سعد والرباب على حنظلة ، وكان بنو عمرو بن تميم حالفوا بكر بن وائل فضاقت حنظلة بسعد والرباب ، فساروا الى عمرو بن تميم ، فردوهم وحالفوهم ، ثم جمعوا لسعد والرباب ورئيسهم ناجية بن عقال ، ورئيس سعد والرباب قيس بن عاصم ، فقال ابن خفاف لسعد والرباب : من لعيال عمرو وحنظلة إن قتلتم مقاتلهم ؟ قالوا : نحن ، قال : فمن لعيالكم إن قتلوا مقاتلكم ؟ قالوا ، هم قال : فدعوهم لعيالهم وليدعوكم لعيالكم ، وتكلم الأهتم بمثل ذلك ورجال من أشراف سعد وساروا الى عمرو وحنظلة إلى النـ ار من حمى ضرِيَّة[1] ، فأجابهم ناجية بن عقال والقعقاع بن معبد بن زرارة ، وسنان بن علقمة ن زرارة إلى الصلح ، وأبي ذلك مالك بن نُوَيْرة[2] .

ولهذا الحوار الذي دار بين رؤساء الفريقين وحكاياتهم دلالة ، فهو يشير الى وعي هؤلاء وفهمهم لخطورة الصدام بين الأقارب وما يمكن ان يحدثه .

ومن هذه المجموعة يوم الفَتاة[3] ، وهو يوم أغارت فيه بنو عامر على بني خالد بن جعفر ، فانهزم بنو عامر في ذلك اليوم بعد مقتلة عظيمة . ولم يحدد لنا الميداني أي بطن من بني عامر .

ومن أيام هذه المجموعة حروب الفَساد[4] ، تلك الحروب التي وقعت بين بطون طيء ، وبين الغَوْث وجَديلة ، ويسمونها زمن الفساد أوعام الفساد ، وقد أشار إلى هذه الحروب شاعر الحماسة قبيصة بن النصراني الجَرْمي حين قال :

لم أَرَ خيلاً مثلها يوم أدركت	بني شجي خلف اللَّهَيم على ظهر
أَبر بأيمانٍ وأجرأ مُقْدَماً	وأنقض منا للذي كان من وتر
عَشِيَّةَ قطَّعْنا قرائن بيننا	بأسيافنا والشاهدون بنو بدر
فأصبحت قد حلَّتْ يميني وأدركتْ	بنو ثُعَل تَبْلي وراجَعَني شِعْري[5]

(١) أنظر معجم البلدان ٥/ ٤٣٢ ، صحيح الأخبار ٣/ ١١ .

(٢) العمدة ٢/ ٢٠٩ ، مجمع الأمثال ٢/ ٥٢٥ .

(٣) مجمع الأمثال ٢/ ٥٣١ .

(٤) مجمع الأمثال ٥٢٧ ، حماسة أبي تمام - شرح المرزوقي ٢/ ٦١٠ ، ٢/ ٩٢ ، التنبيه والأشراف/ المسعودي ص ١٧٦ .

(٥) شرح حماسة أبي تمام للمرزوقي ٢/ ٦١٠ .

ويعدد شاعر آخر من شعراء الحماسة أنواع النِّعمة التي كان الحيان يترددان فيها، وخفض العيش، والأمن الذي كانا يعيشان في ظله قبل تلك الحرب وكأني بالشاعر عن خواطر جميع الإخوة الذين لم يجنوا من تجاربهم إلاّ الويلات.

ولقد أرانا يا سُمَيَّ بحائلٍ ... نرعى القُرِيَّ فكامساً فالأصفرا
فالجزعُ بين ضباعة فُرُصافةٍ ... فعوارضٍ جوّ البسابس مُقْفرا
لا أرضَ أكثرُ منكَ بيضَ نعامةٍ ... وَمذانِباً تُنْدَى ورِوضاً أخضرا
ومُعيَّنا يحمي الصّوار كأنه ... متخمِّطٌ قَطِمٌ إذا ما بربرا
إذ لا يخاف حُدوجُنا قَذْفَ النَّوى ... قبل الفساد إقامةً وتَدَيُّرا[1]

وعلى الرغم من ندرة أخبار حرب الفساد، إلاّ أن المسعودي يحدثنا أنها دامت نحواً من مائة وثلاثين سنة[2]، وفيها ولد حاتم الطائي وأوس بن حارثة وزيد الخيل، ولهذا الخبر دلالة أخرى وهي قدم هذه الحرب لأن أوس بن حارثة كان زعيماً من زعماء طيء يوم ظَهْر الدهناء بين طيء وبني أسد.

أيام أخرى:

وهي أيام لم تندرج تحت أي مجموعة من المجموعات السابقة، ولا رابط يجمعها، لذا فإننا نؤثر ذكرها دون شرحها، وهذه الأيام هي:

ذات الأثل[3] وكان لسليم علي بني أسد، ويوم المعا[4] لبني عجل على بني أسد، ويوم اللُّهباء أو اللهجاء[5]، واللُّهباء هي الصحيحة لبني عمرو بن تميم على بني عدي بن الدِّيْل بن بكر بن عبد مناة بن سعد بن هذيل، ويوم الهَبَاءة[6] لبني اللات على بني مجاشع، ويوم اليَحاميم[7]،

(١) شرح حماسة ابي تمام للمرزوقي السابق ٢/ ٥٩٢.
(٢) التنبيه والأشراف - المسعودي ١٧٦.
(٣) العقد الفريد ٥/ ١٦٦ - ١٦٧، معجم البكري ١/ ١٠٧.
(٤) العقد الفريد ٥/ ٢٤٦، معجم البلدان ٨/ ٩١، معجم البكري ٤/ ١٢٤٠، صحيح الأخبار ٣/ ٢٢٢.
(٥) العقد الفريد ٥/ ٢٤٣، معجم البكري ٤/ ١١٦٤.
(٦) مجمع الأمثال ٢/ ٥٢٣، معجم البلدان ٧/ ٣٤٦.
(٧) معجم البلدان ٨/ ٥٠٠

ويوم صَوْأَر[١] ، ويوم ذي عَلَق[٢] لبني أسد على عامر، ويوم بسيان[٣] لفزارة على بني جشم بن بكر، أو لبني قشير على بني أسد كما يرى البكري، ويوم وَجّ بين ثقيف وخالد بن هوذة[٤] ، ويوم حارث الجولان[٥] وهو يوم لغسان، ويوم بلدح ما ينحد[٦] ، ويوم القَرْن[٧] ، ويوم تَعْشار[٨] ، ويوم الكُحَيْل[٩] ، ويوم قارة أهوى[١٠] ، ويوم حر الدوابر[١١] ، ويوم ساحوق[١٢] ، ويوم تَرْج[١٣] ، ويوم بارق[١٤] .

---

(١) معجم البلدان ٥/ ٣٩٥ ، معجم البكري ٣/ ٨٤٥
(٢) العمدة ٢/ ٢١٧ ، معجم البكري ٣/ ٩٦٤ ، صحيح الأخبار ٥/ ٦٨ .
(٣) النقائض ٢/ ٧٦٠ ، مجمع الأمثال ٢/ ٥٢٦ ، معجم البلدان ٢/ ١٨٢ ، معجم البكري ١/ ٢٥٠ .
(٤) مجمع الأمثال ٢/ ٥٢٩ .
(٥) مجمع الأمثال ٢/ ٥٣٦ .
(٦) مجمع الأمثال ٢/ ٥٣٧ ، معجم البكري ١/ ٢٧٣ .
(٧) النقائض ١/ ٤٠٥ ، مجمع الأمثال ٢/ ٥٢٦ .
(٨) مجمع الأمثال ٢/ ٥٣٧ ، معجم البكري ١/ ٣١٤ .
(٩) النقائض ١/ ٥٠٧ ، مجمع الأمثال ٢/ ٥٣٧ ، معجم البلدان ٧/ ٢٢٠ .
(١٠) مجمع الأمثال ٢/ ٥٣٥ ، النقائض ١/ ٤٠٥ .
(١١) العمدة ٢/ ٢٠٦ .
(١٢) معجم البلدان ٥/ ٨ ، صحيح الأخبار ٤/ ٣٧ .
(١٣) مجمع الأمثال ٢/ ٥٣٤ ، معجم البلدان ٢/ ٣٧٥ ، معجم البكري ١/ ٣٠٩ .
(١٤) معجم البلدان ٢/ ٣٢ .

الباب الثاني

شعر الأيام : دراسة موضوعية وفنية

الفصل الأول
مصادر شعر الأيام

حينا عرضنا لمصادر الأيام في الباب الأول أوجزنا ما وسعنا الإيجاز ، وإنما فعلنا ذلك لأننا ستتصل بالبحث في هذه المصادر مرة أخرى ، فأخبار الأيام ليست منفصلة عن شعر الأيام ، وإن من يسعى لمعرفة أخبار الأيام عليه أن يبحث عن شعـر الأيام أولاً ، فالبحث عن شعـر الأيام والسعي وراء أخبار الأيام هدفان سبيلهما واحد .

وأول مصادر شعر الأيام وأهمها وأوفرها بين أيدينا الآن **دواوين الشعراء المفردة** ، تلك الدواوين التي دونها علماء الطبقة الأولى من الرواة بناء على ما وصلهم من المدونات الشعرية - على رأي من قال بوجود تقييد للشعر الجاهلي - وما أخذوه بالرواية الشفهية عن الرواة أو الأعراب الذين كان العالم يطمئن إلى صدقهم ، وبعض هؤلاء الأعراب كانوا من قبيلة الشاعر الـذين حرصوا على رواية شعر قبيلتهم لما له من أهمية عندهم ، وربما رحل العالم إلى غيره من العلماء ليسمع منهم شعراً لم يصله ، ثم يأتي دور هؤلاء العلماء في قراءة هذه الدواوين على تلاميذهم ، وتناول هذا الشعر بالشرح والتعقيب والنقد والتمحيص ، حدث ذلك كله في عصر التدوين في القرن الثاني الهجري .

وقد روى هذه الدواوين وجمعها ودونها رواة الطبقة الأولى ، البصري منهم والكوفي ثم رواها عنهم تلامذتهم من المدرستين . وأصبح للديوان الواحد أكثر من رواية . وقد ذكر لنا ابن النديم العديد من هذه الدواوين التي رواها أولئك العلماء أمثال الأصمعي وغيره ، كما ذكر لنا الكثير من الدواوين التي صنعها تلاميذ الطبقة الأولى والذين جاءوا بعدهم . وهؤلاء الـذين جاءوا بعد الطبقة الأولى ربما جمعوا بين روايات مختلفة للديوان ، وهذا ما جعل الديوان الواحد له أكثر من رواية فمثلاً : ديوان امرىء القيس : رواه الأصمعي ، وأبو عمرو الشيباني ، وخالد ابن كلثوم ، ومحمد بن حبيب . ثم صنعه من الروايات السالفة ابـن السِّكِّيت ، وأبـو سعيد السكري ، وأبو العباس الأحول ، والأعلم الشنتمري ، والبطليوسي ، وابن النحاس .

وهذا الذي ذكرناه جعل الديوان يضم قصائد اتفق عليها الجميع ، وقصائد أثبتها هذا العالم ولم تثبت عند الآخر ، وتلك المجموعة أضافها العالم الثالث . وهذا يتطلب أناة وفطنة وعلماً من محققي هذه الدواوين .

وبين أيدينا الآن عشرات من هذه الدواوين ، طبع بعضها أكثر من مرة ، منها الطبعة الجيدة التحقيق ، ومنها الرديء ، وبعضها طبع طبعة تجارية لا تظهر النزعة العلمية فيها مطلقاً . ومن هذه الدواوين مازال ينتظر التحقيق العلمي . وللمستشرقين دور هام في تحقيق الكثير من دواوين الشعر الجاهلي في عهد مبكر ، ومنهم من وُفّق في هذا العمل ، ومنهم من لم يحالفه التوفيق . ويرجع السبب في رأينا ـ إلى أن عملية التحقيق تتطلب أدوات التحقيق العلمية عند المحقق ، من معرفة تامة باللغة ، وبالعصر ، وبالخط الذي كتب به المخطوط ، كما يتطلب ثقافة واسعة ، وأناة شديدة . ومن الأسباب انتشار المخطوطات في مكتبات ومتاحف العالم المختلفة ، وإخراج نسخة قريبة من الأصلية يتطلب اطلاعاً على هذه المخطوطات المختلفة ، وتمييز الغثّ منها ، وهذا ما لم يفعله غالبية المحققين ، فمعظمهم يكتفي بمخطوطة واحدة ، وبعض المحققين يظلم الشاعر بحذف النصوص أو الأبيات التي يجد فيها مشقة في تحقيقها أو شرحها ، وربما استبدل بعض العبارات فيبدو النص مضطرباً غير واضح .

وفي رأينا مازال أمامنا جهد كبير لإعادة نشر هذه الدواوين في صورتها السليمة المشرقة ، ومقابلة المخطوطات المختلفة للديوان الواحد لنخرج نسخة قريبة إلى النسخة الحقيقة . كما أننا نرى أن نشر هذه الدواوين يتطلب دراسة دقيقة لطبيعة الحياة في ذلك العصر والمعرفة الوثيقة بطبيعة العلاقات ، وبقادة القبائل وفرسانها ، كما يتطلب دراية تامة بالجزيرة العربية وأماكنها . كل ذلك ضروري لمحقق ديوان من دواوين الشعر الجاهلي ، لأن الشعر مليء بالأعلام والمواضع ، ولا يمكننا تمثل ما يريد الشاعر أن يعبر عنه إلا إذا استطعنا معرفة دور أولئك الذين وردوا في شعره . ولم يستطع الكثير ممن حققوا دواوين لشعراء جاهليين ، بسبب جهلهم بطبيعة الحياة الجاهلية وبطبيعة العلاقات بين الناس ، أن يستوعبوا تماماً ما قصده الشاعر .

وأبرز ما تتميز به نصوص شعر الأيام التي تضمنتها دواوين الشعراء أنها وردت كاملة بمقدماتها الطلليه أو غيرها ، كما وردت بشروحها التي لازمتها منذ القرن الثاني للهجرة . وهذا القول ينطبق على الدواوين التي حققت تحقيقاً علمياً صحيحاً .

ونستطيع أن نزعم أن القبائل التي وصلتنا دواوين لشعرائها كان حظها من الشعر أوفر ، بينما نجد أن القبائل التي لم ينل شعراؤها العناية الكافية ، فلم تصلنا دواوينهم ، نجد هذه القبائل لم يصلنا من شعر أيامها الكثير .

وإن هذه الدواوين لو وصلتنا كما جمعها الرواة العلماء ، وكما شرحوها وعلّقوا عليها ، لوصلتنا أخبار الأيام واضحة ، ولوصلنا النص في إطاره التاريخي الصحيح ، لكن القسم الأكبر من هذه الدواوين وصلنا وقد جُرِّدتْ من هذه الشروح والتعليقات . إلا أن ذلك لا يعني أننا لا نجد بعض هذه الدواوين المحققة تحقيقاً علمياً سليماً ، وفي الصورة المقابلة لا نعدم بعض الذين نشروا هذه الدواوين وقد أضافوا إلى الديوان الأصلي بعض المنحولات عندما يرى شعر الشاعر قليلاً ، كما فعل الورد حينما نشر دواوين الشعر الستة الجاهليين[1]، فهو لم يكتف برواية الأصمعي التي احتفظ بها شرح الأعلم الشنتمري ، بل أضاف إليها زيادات هي في الأكثر منحولات .

وتضم دواوين الشعر الجاهلي ، على الرغم مما أصابها من ضياع وتحريف ، قدراً كبيراً من شعر الأيام ، ويعتبر هذا الشعر بعد توثيقه وتوثيق رواته أقدم المصادر التي وصلتنا من شعر الأيام . وسنعرض في موضع آخر من هذه الدراسة لبيان مقدار هذا الشعر في هذه الدواوين .

والمصدر الثاني من مصادر شعر الأيام **دواوين القبائل** ، ودواوين القبائل كثيرة جداً ، ولكن هذه الكثرة ليست بين أيدينا ، بل في بطون الكتب ، كتب القرن الرابع الهجري ، فقد ذكر أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦ هـ) أن الأصمعي جمع أشعار بني جعدة ، كما جمع أشعار الأنصار[2] ، كما ذكر ابن النديم صاحب الفهرست (ت ٣٨٥ هـ) ثمانية وعشرين ديواناً من دواوين هذه القبائل منسوبة إلى صانعيها[3] كما ذكر الآمدي في « المؤتلف والمختلف » ستين ديواناً من دواوين القبائل[4] .

وعلى الرغم من هذه الدواوين الكثيرة ، وذلك الجهد الخصب الذي بذله علماؤنا الأوائل في جمع أشعار القبائل ، فقد قال ابن قتيبة « والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم في

---

(١) نشرة وليم بن الورد البروسي سنة ١٨٦٩ .

(٢) الأغاني/ بولاق ١٩/ ٨٢ ، ٨٣ ، ٥/ ١٧١ .

(٣) الفهرست لابن النديم ١٥٩ .

(٤) المؤتلف والمختلف للآمدي الصفحات : ٧ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ١٠٢ ، ١٠٧ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٢ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨٦ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٤٦ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٤ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦ .

الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط ، أو يقف من وراء عددهم واقف ، ولو أنفذ عمره في التنقير عنهم ، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال . **ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ، ولا قصيدة إلا رواها**[1] » .

ولكن هذه الكثرة من شعر القبائل ضلت طريقها إلينا ، ففقدت في الطريق ، ولو وصلت لكانت المصدر الأساسي للأيام ولشعرها ، والمصدر الذي لا يضاهيه مصدر لتاريخ تلك الفترة من حياة أمتنا . فلم يصلنا منها إلا شعر هُذيل ، أو قسم من شعر هذيل على وجه التحديد ، وقد طُبع هذا الديوان ثلاث طبعات : الأولى في أوروبا ، والثانية والثالثة في مصر . وقد جاءت الطبعة الأوروبية في أربع مجموعات من صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين السكّري (ت ٢٧٥ هـ) طبعت الأولى في لندن ١٨٥٤ بتحقيق يوسف هل ، والرابعة في ليبزج ١٩٣٣ بتحقيق يوسف هل وقد قامت دار الكتب المصرية بطبع القطعة الخامسة وتتداخل معها القطعة الرابعة . أما الطبعة الثالثة فقد عنى بها عبد الستار فراج بمراجعة محمود محمد شاكر وهي من صنعة السكري ، وقد نشرت دار العروبة جزءين منها .

وهذه القطعة التي وصلتنا ، شعر الهذليين ، حوت شعراً للأيام[2] ولكنه قليل إذا ما قيس بالدواوين الأخرى .

وننتقل بعد ذلك إلى كتب المختارات ، وأقدمها المعلقات ، وقد سميت بذلك لنفاستها أخذاً من كلمة (العلق) بمعنى النفيس[3] .

وأول من رواها في ديوان خاص بها حماد الرواية (٩٥ - ١٥٥ هـ) ، وهي سبع قصائد لسبع شعراء ، وهي عند المفضل الضبي (ت ١٦٨ هـ) سبع أيضاً ، إلا أن المفضل أسقط من رواية حماد الحارث بن حلزة وعنترة وأثبت بدلهما الأعشى والنابغة . وقد شرحت هذه المعلقات أكثر من مرة ، شرحها الزوزني على رواية حماد (ت ٤٨٦ هـ) وشرحها التبريزي (ت ٥٠٢ هـ) وجعلها عشراً جامعاً لروايتي حماد والمفضل ومضيفاً عَبيد بن الأبرص . وأقدم من هذين الشرحين شرح للقصائد السبع لابن الأنباري (٢٧١ - ٣٢٨ هـ) على رواية حماد .

ويستفاد من هذه المجموعة بمقابلتها على دواوين أصحابها ورواياتها الوثيقة ، كما يستفاد

---

(١) الشعر والشعراء - ابن قتيبة ١/ ٦٠ .
(٢) أنظر ديوان الهذليين - طبعة دار الكتب ١٢٤ ، ١٢٦ ، وشرح أشعار الهذليين ٨٤٩ .
(٣) العصر الجاهلي - شوقي ضيف ١٧٦ .

من شرح ابن الأنباري لها لما يتضمنه الشرح من إشارات توضح النصوص . وشعر هذه المعلقات فيه إشارات إلى أيام قبائلهم ونجد ذلك في معلقات كل من : عنترة ، عمرو بني كلثوم ، الحارث ابن حلّزة، وزهير، وعبيد بن الأبرص

وثاني هذه المختارات **المفضليات** ، وقد اختارها المفضل بن محمد الضبيّ ، رأس علماء الكوفة في عصره ، (ت ١٦٨ هـ) ، وتحتوي على مائة وست وعشرين قصيدة ، أضيف إليها في إحدى النسخ أربع قصائد[1] ، وهذه القصائد لسبعة وستين شاعراً ، منهم سبعة وأربعون جاهلياً لم يدركوا الإسلام ، فهي تضم شعر شعراء ينتسبون إلى قبائل بدوية في أواسط الجزيرة وشرقيها بين (٥٥٠ - ٦٥٠م)[2] .

ولم يشرح المفضل هذه المختارات ، لأنه كان يروي الشعر مجرداً[3] ، وإنما الذي شرحها أبو محمد القاسم بن محمد الأنباري (ت ٣٠٤ هـ) وقد أخذها إملاء مجلساً مجلساً عن أبي عكرمة عامر بن عمران الضبي (ت ٢٥٠ هـ) الذي أخذها بدوره عن ابن الأعرابي (ت ٢٣٢ هـ) تلميذ المفضل وربيبه . ولكن المجموعة مع ذلك لم تسلم من الشك في عدد قصائدها[4] ، وربما جاءها الاضطراب في رواياتها من كثرة تلاميذ المفضل الذين رووها عنه .

وذهب بلا شير إلى أن تنوع الطبعات يشير إلى أن غرض المفضل لم يكن تأليف مجموعة نهائية لا سبيل للتبديل فيها بل انتقلت عن طريق الرواية الشفهية .

ومن شراحها قديماً غير الأنباري ، الميداني (ت ٥١٨)[5] ،والمرزوقي (ت ٤٢١ هـ)[6] والتبريزي (ت ٥٠٢ هـ) وميزة هذه المجموعة تكمن في أنها مجموعة موثقة لأن روايتها ثقة ، ولأنها وصلت إلينا كاملة ، غير مضطربة كثيرها ، كما أنها « تصف تقاليد العصر الجاهلي والشعر الجاهلي ، وانطبعت في كثير منها البيئة الجغرافية[7] » كما تعكس اتجاهات الشعر العربي منذ عصور الجاهلية حتى منتصف القرن الأول للهجرة[8] .

وقد طبعت المفضليات أكثر من طبعة ، اثنتان في أوروبا بتحقيق ليال وتوبكه ، وطبعت

(١) ابن النديم جعلها مائة وثماني وعشرين قصيدة قد تزيد وقد تنقص ص ١٠٢ .
(٢) تاريخ الأدب العربي - بلاشير ١٥٨ .
(٣) مراتب النحويين - أبو الطيب اللغوي ١١٥ .
(٤) أنظر الأمالي للقالي ٣/ ١٢٠ ، الفهرست ١٠٢ .
(٥) بغية الوعاة - للسيوطي ١٥٥ .
(٦) بغية الوعاة ١٥٩ .
(٧) العصر الجاهلي - ضيف ١٧٦ وما بعدها .
(٨) تاريخ الأدب العربي - بلاشير ١٥٨ .

في مصر أكثر من مرة آخرها بتحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون. إلا أن الطبعة الأوروبية بتحقيق ليال تمتاز بشرح كامل للقصائد، كما رواها الأنباري، وبها فهارس في آخرها للشعر وللأعلام، بينما الطبعة الأخيرة في مصر حرص المحققان على شرح المفردات وتخريج النص، والإشارة باختصار إلى جوّ النص.

وتضم المفضليات تسعة وثلاثين نصاً من شعر الأيام لاثنين وثلاثين شاعراً، وسنثبتها في جدول خاص في آخر هذا البحث إن شاء الله.

وثالث هذه المختارات «**الأصمعيات**» من اختيار أبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي (١٢٢ ـ ٢١٦ هـ)، وتحتوي على اثنتين وتسعين قطعة[1] وقصيدة لواحد وسبعين شاعراً منهم أربعة وأربعون شاعراً جاهلياً، وأربعة عشر مخضرمون وستة إسلاميون وسبعة مجهولون.

وهذه المجموعة كالمفضليات في الثقة وعلوّ الدرجة، إلا أنها تقل عنها في أمور منها: إن الإسناد غير متصل إلى الأصمعي، ولا إلى الذين أخذ عنهم، ومع ذلك ففي بعض المقطوعات ذكر لرواتها[2]. ومنها أنه لم يرو في مجموعته القصيدة بكاملها وإنما اختار أبياتاً أو قطعة صغيرة وأغفل باقي النص. وقد لاحظ القدماء اختصار الأصمعي روايتها فقال ابن النديم «وعمل الأصمعي قطعة كبيرة من أشعار العرب ليست بالمرضية عند العلماء لقلة غريبها واختصار روايتها[3]».

وقد طبعت الأصمعيات في أوروبا، طبعها الورد عن نسخة خطية سنة ١٩٠٢ في برلين، وطبعت في مصر عن نسخة خطية في دار الكتب بتحقيق عبد السلام هارون وأحمد محمد شاكر سنة ١٩٥٥م، وهي أفضل بكثير من الطبعة الأوروبية.

وقد ضمت الأصمعيات اثنتين وثلاثين قصيدة ومقطوعة من شعر الأيام لثمانية وعشرين شاعراً.

***

(١) في طبعة أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، أما في الطبعة الأوروبية فعددها سبع وسبعون، وبلاشير ١٥٩ يذكر عدتها بأنها اثنتان وسبعون.

(٢) أنظر الصفحات: ٥٣، ٧٩، ١٤٤، ١٤٩، ٩٣، ١٧.

(٣) الفهرست لابن النديم ٥٥.

ونتتقل بعد ذلك إلى لون آخر من المختارات ، ذلك الـذي بني على أسـاس معـين في اختياره ، ثم في تقسيمه وتبويبه . ونعني به كتب **الحماسة** .

وأول كتب الحماسة ، **حماسة أبي تمام** (ت ٢٣١ هـ) ، وليسـت هذه الحماسـة روايـة انتقلت بها إلى أبي تمام ولا رواية أخذت بها عن أبي تمام ، وإنما أخذها أبو تمام من الكتب في ظرف اضطر للبقاء فترة من الزمن في المنزل بسبب الثلوج كما تذكر المصادر ، فانتقاها من الدواوين والمجاميع[١].

وقد سمي بالحماسة لأن أكبر باب من أبوابه هو الحماسة ، وقد بنى اختيار ما فيها من الشعر على أبـواب المعاني ، أولهـا الحماسـة ، والمراثـي ، والأدب ، النسيب ، الهجـاء المديح ، والأضياف ، الصفات ، النعاس والسير ، الملح ، مذمة النساء .

وقيمة حماسة أبي تمام الفنية أضعف من المختارات التي سبقتها بسبب فقـدان الـرواية والإسناد ، وبسبب ما صنعه أبو تمام فيما اختاره من تغيير للنص الشعري[٢] ، ومـا يعيبهـا أن شواهدها تُعطَى مجردة[٣] فقيمتها أدبية أكثر منها تاريخية لأننا لا نعرف أصحابها ولعل أهم ميزة لها أنها أوردت نصوصاً لشعراء مغمورين لم يعرفوا إلا بالإسم وربما اختلف في الإسم .

وقد بقي الكتاب دهراً مطوياً ، لم يقرأه عليه أحد ، كما لم يقرأه هو على أحد ، إلى أن أتيح له النشر بعد وفاة أبي تمام بقرنين من الزمان ،حين شرحه المرزوقي (ت ٤٢١ هـ) ثم شرحه بعد ذلك التبريزي (ت ٥٠٢ هـ) .

وتضم هذه الحماسة ثمانية وثلاثين قطعة من شعر الأيام معظمها لا يتجاوز عدد أبياتـه العشرة أبيات فهي مقطوعات وليست قصائد .

والحماسة بشرحيها مطبوعة ، حققها بشرح المرزوقي عبد السلام محمد هارون ١٩٥١ ويشرح التبريزي حققها الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي .

ولأبي تمام مجموعة أخرى هي « **الوحشيات** » قسمها إلى عشرة أبواب بدأها بباب الحماسة ويشغل هذا الباب حوالي ثلث الكتاب . أمـا الأبـواب الأخرى فهي : المراثي ، الأدب ، النسيب ، الهجاء ، السماحة ، والأضياف ، الصفات ، المشيب ، الملح ، مذمة النساء . وهذه المجموعة مجموعة مقطوعات ، تضم شعراً قيل في الأيام ، ولم تنل عناية كما نالت الحماسة .

(١) شرح ديوان الحماسة للتبريزي ١/ ٣ ـ ٤ .
(٢) مقدمة المرزوقي ١٣ ـ ١٤ .
(٣) العصر الجاهلي ـ شوقي ضيف ١٧٨ .

ومن الحماسات حماسة **البحتري** (ت ٢٨٤ هـ) ، وهي تشبه حماسة أبي تمام من حيث أنها لا تعرف مصادرها ، ولكنها أقل أهمية من حماسة أبي تمام لأنها تضم مقطوعات قصيرة موزعة على مائة وأربعة وسبعين باباً ، ومما يضعف من قيمتها الفنية أن أكثر أبوابها في نزعات خلقية .

ولم يعن القدماء بشرحها كما عُنوا بحماسة أبـي تمـام ، وأشعارهـا منتخبـة من أشعـار الجاهليين . وقد طبعت أكثر من مرة : في بـيروت بتحقيق لويس شيخـو ، وطبعـت في مصر بتحقيق كمال مصطفى سنة ١٩٢٩م . وقيمتها بالنسبة لشعر الأيام تكاد تكون معدومة فهي لا تضم قصيدة كاملة أو مقطوعة تتعلق بالأيام ، وهذا عدا عن عدم توثيق العلماء لها . ولكنها مع ذلك حوت شعراً كثيراً يتصل بالأيام ، وتحقق الفائدة منه إذا قورن بالمصادر الأخرى التي ذكرته . كما أن لها قيمة أخرى وهي أن صاحبها قد قسم الشعر على أبواب كثيرة بحيث يمكن الاستفادة منه بصورة أوضح . وحذا حذو أبي تمام بعد البحتري الأخوان الخالديان : سعيد الخالدي (٣٥٠هـ) ومحمد الخالدي (ت ٣٨٠) ، فجمعا حماسة أسمياها (**حماسة الخالدين أو الأشباه والنظائر**) ، وكان هذان من شعراء سيف الدولة الحمداني .

وتبعهما هبة الله بن علي بن محمد أبو السّعادات فألّف **مختارات ابن الشجري** (ت ٥٤٢ هـ) وهي ضعيفة السند ، وتضم شعراً أغلبه جاهلي ، وقد وزعها على أقسام ثلاثة هي : القسم الأول وقد ضم القسم الثني عشرة قصيدة للملتمس وطَرَفة ، وضم القسم الثاني قصائد لبِشْر وعَبيد وزهير ، والقسم الثالث من شعر الحُطَيْئة .

وقد قال السيوطي[1] عن ابن الشجري «إنه أوحد زمانه في علم العـربية ومعرفـة اللغـة وأشعار العرب وأيامها وأحوالها . وقد ألف كتاب الحماسة ضاهى به حماسة أبي تمام» وقد طبع هذا الكتاب مرتين في القاهرة سنة ١٣٠٦ هـ ، وفي حيدر أباد سنة ١٣٤٥هـ وقد حقق طبعة حيدر أباد المستشرق كرنكو .

وآخر كتب الحماسة هذه ، **الحماسة البصرية لصدر الدين، علي بن أبي الفرج البصري** (ت ٦٥٩هـ) جمعها صدر الدين . وقدمها إلى الملك الناصر أمير حلب[2] . وتضـم بـين قصائـدهـا قصائد من شعر الأيام، ولكنها تفتقر إلى التوثيق لتأخر عمر جامعها .

ومن كتب المختارات كتاب **جمهرة أشعار العرب** لمؤلف مجهول الترجمة ، ومجهول العصر، ينقل عن رواة مجهولين . فنحن لا نجده بين الرواة المشهورين، كل ما نعرفه أنه محمد بن أبي

(١) بغية الوعاة للسيوطي ٤٠٧ .

(٢) تاريخ الأدب العربي ـ بركلمان ١/ ٨٢ .

الخطاب القرشي كما جاء ذلك في العمدة لابن رشيق[1]. أما عصره فيرجح أنه عاش قبل منتصف القرن الخامس لأن ابن رشيق الذي ذكره مات سنة ٤٦٣هـ . فالدكتور شوقي شيف[2] يرى أنه عاش في أواخر القرن الثالث أو القرن الرابع ، ويقترب من هذا الرأي الدكتور ناصر الدين الأسد حيث قال إنه عاش خلال القرن الرابع[3].

ويبدو أنه صنفها في أواخر القرن الثالث معتمداً على ما رواه المدعو المفضل ولا تزال شخصية المفضل هذا مجهولة ، وينقل عن رواة مجاهيل لا نجد لهم فيما بين أيدينا من كتب التراجم.

والجمهرة تضم تسعاً وأربعين قصيدة موزعة على سبعة أقسام: المعلقات، المجمهرات ، المنتقيات، المذهبات، المراثي، المشوبات ، الملحمات. وقد جعل في كل قسم من هذه الأقسام قصائد سبعة.

وطبع كتاب الجمهرة عدة طبعات: طبعة بولاق ١٣١١هـ ، وهي المطبعة الخيرية ١٣٣١هـ ، وطبعته المكتبة التجارية سنة ١٩٢٦ وطبعة أخيرة بتحقيق علي البجاوي سنة ١٩٦٤ ، كما طبعت في بيروت.

وتضم الجمهرة عدة قصائد من شعر الأيام ، وبعضها ذكر في المعلقات والمفضليات والأصمعيات ، ولكنها مع ذلك تصلح للمقارنة مع المصادر الأساسية لهذه النصوص .

فمن المعلقات نجد : معلقة زهير ، ومعلقة النابغة ، ومعلقة عمرو بن كلثوم ومعلقة عنترة . ومن المجمهرات : مجمهرة بشر بن أبي خازم ، ومجمهرة خِداش بن زهير . ومن المنتقيات : منتقاة المهلهل بن ربيعة ، ومنتقاة دُرَيْد بن الصمة . ومن المذهبات : لحسان ، ولعبد الله بن رواحة ، ولمالك بن العجلان ولقيس بن الخطيم ، ولأحيحة بن الجُلَاح ، ولأبي قيس بن الأسلت ، ولعمرو بن امرىء القيس . ومن المراثي : مرثية متمم بن نويرة .

وهكذا فإن نصيب شعر الأيام من هذه المجموعة ست عشر قصيدة ، وتكمن أهمية هذه المجموعة - في نظرنا - أنها ضمت قصائد كاملة لم ترد في مصادرها الأخرى كاملة لطبيعة المصدر الذي أوردها ، ويقلل من قيمتها أنها غير موثقة الرواية[4].

(١) العمدة - لابن رشيق ١/ ٧٨ - ٧٩ .
(٢) العصر الجاهلي - شوقي طيف ١٧٨ .
(٣) مصادر الشعر الجاهلي - ناصر الدين الأسد ٥٨٨ .
(٤) العصر الجاهلي - شوقي ضيف ١٧٩ .

شعر الأيام في غير الدواوين والمختارات :

ونستطيع أن نميز من ذلك : كتب النحو ، وكتب اللغة ، وكتب السيرة ، والتاريخ ، وكتب الأدب العامة ، وكتب التراجم ، وكتب النقد ، والمعاجم . وفي الحقيقة إن هذه المجموعات تأتي في المنزلة الثانية بعد الدواوين والمختارات الموثقة . ولكن لهذه المجموعات أهمية في أنها تتضمن شعراً لم تروه الدواوين التي وصلتنا أو المجموعات الشعرية الموثقة ، وربما ضمت شعراً لمصادر طويت وضاعت على أن نأخذها بحذر وتقص ، فإن لمسنا فيها ضعفاً رفضناها .

أما كتب **النحو** ، فإن النحوي حينما يورد شعراً ليستشهد به ، فإنه لايعنيه قائله ، ولا يعنيه أن يتحرى عنه ، وإنما الذي يعنيه أن يكون هذا الشعر مما يجوز الاستشهاد به ، وربما أورد البيت دون ذكر القائل . ومع ذلك فإن شراح الكتاب أو تلاميذ العالم ربما تولوا توضيح الشعر وشرحه وبيان نسبته كما فعل البغدادي (ت ١٠٩٣ هـ) في خزانة الأدب حين شرح شواهد الرضّي شارح كتاب الكافية لأبن الحاجب ، فقد استطرد عندما عرض للشواهد فأغنى كتابه بكثير من شعر الأيام وأخبارها ، وترجم لبعض الشعراء الجاهليين وتعرض للشعر من حيث الانتحال والصحة .

ومثل ذلك نجده في شرح السيوطي على شواهد المغني (ت ٩١١ هـ) .

ومن هنا فإننا لا نعتبر هذه المؤلفات مصدراً أساسياً من مصادر شعر الأيام وأخبارها ، ولكنها إذا ما قورنت بغيرها في توضيح اللبس إن وُجد ، كما أنها ربما ضمت شعراً من مصادر ضلت طريقها إلينا .

وما قلناه عن كتب النحو ينسحب على كتب **اللغة** ، فهي ليست مصدراً أساسياً لشعر الأيام ، ولكنها إذا دُرست بشيء من الحذر لن تخلو من فائدة ، وبخاصة فيما يتصل بشروح أو استطراد أو مقارنة تلقي بعض الضوء على ما غمض من جوانب النص .

أما النوع الثالث من هذه المصنفات فهو أكثر المصنفات التصاقاً بموضوعنا ، ونعني به كتب **السير والتاريخ** ، ولكنها في نفس الوقت أكثر المؤلفات من حيث احتوائها على شعر مصنوع . فقد كان بعضهم يحتاج ، إلى الشعر للاستشهاد به في قصصهم ، ولم يكونوا جميعهم متفقين في هذا ، بعضهم يعمد إليه عمداً وبعضهم يجده مروياً أمامه ، أو مدوناً فيضطر إلى جمعه من غير تحقيق لصحة الشعر ونسبته ، ويعتذر بأنه لا علم له بالشعر ، مثل ابن إسحاق .

ونستطيع أن نجد شعر الأيام مبثوثاً في مصادر التاريخ التالية بنسب متفاوتة من حيث الصحة والحجم : سيرة ابن هشام (ت ٢١١ هـ) ، كتاب بكر وتغلب الذي يروى عن ابن اسحاق ، الأخبار الطوال للدينوري (ت ٢٨٢ هـ) ، تاريخ الطبري لمحمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) ، ومروج الذهب للمسعودي (ت ٣٤٦ هـ) ، والتنبيه والأشراف للمسعودي أيضاً ، والروض الأنف للسهيلي (ت ٥١٨ هـ) ، والكامل في التاريخ لابن الأثير (ت ٦٢٢ هـ) ، والمختصر في أخبار البشر لأبي الفداء (ت ٧٧٤ هـ) ، والبداية والنهاية لأبن كثير (ت ٧٣٢ هـ) ، وتاريخ ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) ، وتاريخ ابن الفرات (ت ٨٠٧ هـ) ، والإكليل الجامع لأخبار كثير من العرب ووقائعها وأشعارها ، وهو مخطوط لمؤلف مجهول من القرن التاسع للهجرة محفوظ معهد المخطوطات ، وإمتاع الأسماع لما للرسول من الأبناء والأموال والحضرة والمتاع للمقريزي (ت ٧٣٢ هـ) .

وهذه المصادر تصبح نافعة لنا عندما نتناول هذا الشعر الكثير المتصل بالأيام بالنقد والتحميص ، عندها لا بد أن تبدو نافعة لنا ، خصوصاً وأن بعضها ينقل عن مصادر هامة للأيام لم تصل إلينا ككتاب الأيام الكبير لأبي الفرج الأصفهاني ، وكتاب الأيام الكبير لأبي عبيدة .

ويبدو كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير أكثر هذه الكتب أهمية بالنسبة لشعر الأيام بسبب ما ضمه من هذا الشعر ، وبسبب الاقتصاد في احتواء هذا الشعر الذي حرص عليه المؤلف ، وللمكانة التي يتمتع بها صاحب الكتاب .

وسوف نعرض دراسة مقارنة للشعر الذي ضمته هذه الكتب في موضع آخر من هذا البحث إن شاء الله مبينين مصادر هذا الشعر الأخرى .

أما النوع الرابع من هذه المصادر فهو كتب الأدب العامة ، ويشكل هذا القطاع من المصادر حجماً كبيراً في مكتبتنا العربية ، وفي ثنايا هذه المؤلفات انتثرت قصص الأيام وأخبارها وأشعارها ، بل لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن هذا النوع من المصادر هو مصدرنا الأساسي في دراسة أخبار الأيام ، وكما بينا سابقاً فإن دراسة أخبار الأيام متصلة بدراسة أشعارها فهما توأمان لا ينفصلان عن بعضهما . ومن هنا نستكشف أهمية هذه المجموعة ، فهي قد حوت أخبار الأيام وحوت أيضاً شعراً كبيراً .

وسبيلنا لدراسة هذا الشعر وتوثيقه أن نستخرجه ثم نرجعه إلى أصوله في الدواوين أو المجموعات الشعرية الموثقة ، فما وافق منه قبلناه ، وما لم يوافق عرضناه على محك النقد والتمحيص والمقارنة بشعر آخر للشاعر فإن وجدنا تشابهاً قبلناه وإلاّ فإننا نرفضه .

وقد ضمت هذه المجموعة شعراً لا نجد له مصدراً آخر غيرها ، وهذه ميزة وعيب ، ميزة لأنها تلقي مزيداً من الضوء على الأيام ، وعيب لأننا نخشى أن تكون موضوعة ، وخير مثال لهذا كتاب النقائض لأبي عبيدة (ت ٢٠٩ هـ) ، والعقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي (ت ١٢٨ هـ) .

أما بقية هذه المجموعة فهي : أمثال للعرب للمفضل الضبي (ت ١٨٧ هـ) نقائض جرير والأخطل لأبي تمام (ت ٢٣١ هـ) ، المعمرون والصبايا للسجستاني (ت ٢٥٠ هـ) ، المعارف لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) ، عيون الأخبار لابن قتيبة ، والكامل للمبرد (ت ٢٨٦ هـ) ، الحيوان ، والبيان والتبيين للجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) ، الأمالي لأبي علي القالي (ت ٣٥٦ هـ) ، وأمالي الشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ) ، وزهر الآداب للحصري (ت ٤٥٣هـ) وحلية الفرسان وشعار الشجعان لعلي بن عبد الرحمن الأندلسي ، مجمع الأمثال للميداني (ت ٥١٨ هـ) ، نهاية الأرب للنويري (ت ٧٣٣ هـ) ، وسرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة المصري (ت ٧٦٨هـ) ، صبح الأعشى للقلقشندي (ت ٨٢١هـ) ، والأنوار ومحاسن الأشعار للشمشاطي .

وعلى الرغم من أن أصحاب هذه الكتب لا يرمون الى الفائدة العلمية وحدها ، وإنما ينهجون نهج الأسلوب الأدبي ، ويلجأون إلى الاستطراد والتنويع والنقل ، فإن بعضهم لم يغفل نقد الشعر الذي يورده ويبين رأيه في صحته ، ومع ذلك فبعضهم لا يكلف نفسه مشقة البحث والتمحيص ، والرجوع الى المصادر الأخرى للتثبت . ولو أردنا بسط القول في هذا لما اسعفنا البحث وضيق المجال ، ومع ذلك ففي كتابي الجاحظ ، وفي نقائض أبي عبيدة ، وفي كتاب المعمرين ، وفي أمالي القالي ، وغيرها من المؤلفات الكثيرة من هذه الأشارات التي تنبه على ضعف هذا الشعر او اضطرابه أو نسبته إلى أكثر من قائل .

ويعلل أحد الباحثين[1] عدم اهتمام أصحاب هذه المؤلفات بتوثيق الشعر الذي يوردونه بأن الشعر في هذه المؤلفات ليس غاية تقصد ، وإنما هو وسيلة نلتمس لغيرها من الغايات ، فهو يساق حيناً للاستدلال والاحتجاج ، ويساق حيناً آخر للاستشهاد والتمثيل وتقوية الخبر وتزيينه .

وننتقل بعد ذلك إلى مجموعة أخرى من مصادر شعر الأيام ، وهي كتب التراجم ، ومنها طبقات فحول الشعراء لابن سلاّم (ت ٢٢١ هـ) ، والشعر والشعراء لابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) ، وكتاب الأغاني (ت ٣٥٦ هـ) ، والمؤلفات والمختلف للآمدي (ت ٣٧٠ هـ) ، ومعجم الشعراء للمرزباني (ت ٣٨٤ هـ) ..

(1) مصادر الشعر الجاهلي ـ ناصر الدين الأسد ٦١٣ .

وهذه المجموعة تفيدنا في الترجمة لشعراء جاهليين بعضهم من المغمورين ، ولكن بعضها لا يستند إلى رواة في رواياته مثل كتاب الشعر والشعراء لأبن قتيبة . أما الكتاب الذي يزخر بأخبار الأيام وشعرها من هذه المجموعة فهو كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، هذا الكتاب الذي يعرض خبر اليوم كاملاً ، ويسنده إلى رواته الذين نقل عنهم إلى أن يصل أحياناً إلى الرواة الأعراب من أبناء القبيلة ولا يستند إلى رواية واحدة بل يعرض لمختلف الروايات ، وينقدها نقداً علمياً ، وأبو الفرج راوية ثقة نستطيع أن نطمئن إلى دقة ما ينقله على الأقل ، وله ذوق عالم ناقد بصير[1] وقد احتفظ لنا الأغاني بشعر كثير فقدناه ، وبأخبار نقلها عن مصادر ضلت طريقها ولم تصل إلينا . وفيا يتعلق بالأيام فقد أطال الحديث عنها ، وهذا ما دعا أحد الباحثين[2] إلى القول بأن كتاب الأغاني الذي بين أيدينا أضيفت إليه إضافات من النساخ ، نقلوها عن كتاب أبي الفرج في الأيام ويورد أدلة على ما يقول .

ولبلاشير[3] رأي في الأغاني فهو يرى أهميته في احتوائه على ذكر كتب مفقودة ، لكنه يفسد ترتيبه باستطراداته ، ويأخذ عليه أنه لم يورد قصيدة كاملة بسبب ميله إلى الإيجاز على تقديم الأحسن .

وربما فعل أبو الفرج ذلك ، لأنه يعتقد بصحة هذا الذي أورده فقط دون باقي النص ، أو لشكله فيه ، فقد كان محتاطاً إزاء رواته أشد الحيطة ، فمن عُرف بكذبه نبَّه عليه ، وحتى من عرفه بصدقه كان يراجع رواياته على روايات معاصريه ودواين الشعراء مبالغة في الدقة والتحري . وقد تضمن كتاب الأغاني كثيراً من شعر الأيام ، ولعل من أهم مزايا شعر الأيام الذي تضمنه كتاب الأغاني ، أن هذا الشعر قد وصلنا مسنداً إلى رواته ، كما أنه جاء في إطاره التاريخي مما يجعله واضحاً ضمن إطاره العام . كما أن ثمة ميزة أخرى هي أنه يوثق الشعر أو يضعفه ويرده إلى مصادره الأخرى ، ويقارنه بها حتى يطمئن إلى صحته .

أما المجموعة التالية ، والتي نجد فيها إشارات لشعر الأيام ، وهي إشارات صغيرة ، فهي كتب النقد ممثلة في كتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) ، وكتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) ، وكتاب الوساطة للجرجاني (ت ٤٧١ هـ) ، وكتاب العمدة لابن رشيق (ت ٤٦٣ هـ) . وهذه المجموعة لا تخلو من ذكر لشعر الأيام ، ولكنه لا يتعدى البيت أو البيتين في مجال النقد ، أو المقارنة ، أو تمثل بصورة من الصور . وعلى الرغم من أن

---

(١) العصر الجاهلي ـ شوقي ضيف ١٦٣ .

(٢) أبو الفرج الراوية ـ محمد أحمد خلف الله ٢٧٩ .

(٣) تاريخ الأدب العربي ـ بلاشير ١٤٥ .

العمدة تضمن فصلاً خاصاً عن أيام العرب إلاّ أنه ذكرها مختصرة ، ولم يورد شعراً له قيمة فنية . ومع ذلك ففائدة هذه المجموعة في أن إشاراتها البسيطة ربما هدتنا إلى شعر ضائع من شعر الأيام ، وهو كثير ، أو ربما صححت لنا رواية بيت .

بقيت لدينا المجموعة الأخيرة وهي **المعاجم على اختلاف أنواعها** ، منها المعاجم اللغوية كلسان العرب والقاموس المحيط ، ومنها الجغرافية كمعجم البكري (ت ٤٨٧ هـ) ومعجم البلدان لياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ) . **أما المعاجم اللغوية** فقيمتها في الأبيات المفردة الكثيرة التي تنتشر على صفحاتها ، ومن هذه الأبيات ما كان من قصائد لم تصلنا ، كما أن وضع البيت في إطار معجم لغوي يوضح الكثير من جوانبه الغامضة ويجلوها ، وربما أشار المعجم إلى اليوم الذي قيل فيه البيت ، أو وضَّح علَماً ورد في البيت . ويحتاج هذا إلى عمل طويل في قراءة لسان العرب قراءة متأنية ، واستخراج الأبيات المتصلة بالأيام ، ويكون الأمر أكثر سهولة لو كان هذا المعجم الضخم يحتوي على فهارس في آخره للشعر الذي ضمه .

أما المعاجم الجغرافية ، فهي أكثر فائدة من المعاجم اللغوية ، لأنها تترجم لأماكن كان قسم كبير منها مسرحاً لأحداث الأيام ووقائعها . وعندها يجد المؤلف نفسه مضطراً للحديث عن اليوم ، ويضمن حديثه بعض الشعر الذي قيل ، ولكنه لا يورد القصيدة أو المقطوعة كاملة دائماً ، واكتفى بالبيت أو البيتين أو الثلاثة ، ولكن هذه المعاجم مع ذلك ، حفظت لنا الكثير من الشعر الذي فُقِد بفقدان مصادره ، لأن هذه المصادر كانت في متناول أيدي مؤلفي هذه المعاجم في ذلك الحين . ولم يورد أصحاب هذه المعاجم الشعر مجرداً من النقد والتمحيص ، بل أشاروا إلى صحته أو ضعفه ، وأكثرهم دقة البكري في معجمه « معجم ما استعجم» لأنه كان عالماً يملك أداة التحقيق والتثبت من النص الذي يورده .

رواة شعر الأيام وأخبارها

لقد قطع شعر الأيام ، وهو جزء هام وكبير من الشعر الجاهلي ، رحلة طويلة منذ انطلق من أفواه قائليه ، إلى أن استقر في بطون الكتب التي قام بها رجال القرن الرابع في الجمع النهائي للآثار والتراجم والشعر . وفي خلال هذه الرحلة الطويلة لا بد أن يكون قد نقل بوسائل كثيرة أسلمته كل وسيلة إلى الأخرى ، وسنحاول في هذه الصفحات أن نتحدث عن أولئك الذين عُنوا بنشر هذا الشعر ونقله ، إلى أن استقر في أيدي أولئك العلماء الذين تناولوه بالترتيب والنقد والتدوين .

أول مَنْ روى شعر الشعراء هم الشعراء أنفسهم ، وأبناء القبيلة الذي يعتزون بهذا الشعر ويعتبرونه مادة فخرهم وسجل تاريخهم ، ونرى ذلك واضحاً في الكتب التي حققت لنا الإسناد مرفوعاً إلى عصر الشاعر ، جاء في الأغاني[1] عن سبب مقتل قيس بن زهير العبسي « . . . قال الأصمعي حدثني غير واحد من الأعراب . . . ثم في موضع آخر» . . . قال الأصمعي : ثم يرجع إلى حديث العبسيين والعامريين وبعضه من حديث أبي عمرو بن العلاء» وفي حديث الأغاني عن أيام الأوس والخزرج وشعر تلك الأيام يقول[2]» حدثنا . . . . عن أيوب بن عبد الرحمن أحد رَهْط بني » وفي حديثه عن يوم أوارة الثاني يقول أبو الفرج[3]» نسخت من كتاب عمر بن محمد بن عبد الملك الزيات بخطه وذكر أن . . . . . عن هشام بن الكلبي عن أبيه وغيره من أشياخ طيء» وفي حديثه عن زهير الكلبي وحربه بغطفان[4] « أخبرني محمد بن القاسم الأنباري عن أبيه . . . . عن أبي الكلبي عن أبيه عن مشيخة من الكلبيين» .

وبقي أبناء القبيلتين يتناقلون هذا الشعرُ جيلاً بعد جيل ، حتى ظهر الرواة المحترفون للشعر ، وقد ظهروا في الربع الثاني من القرن الأول للهجرة في مكة والمدينة ودمشق ، ويعتبر هذا الدور الثاني من أدوار رواية الشعر الجاهلي . ويقول الدكتور شوقي ضيف « ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن شعراء القبيلة الواحدة كان يروي خلفهم شعر سلفهم ، ونص القدماء على ذلك في غير شاعر» [5] ، كما يؤكد في موضع آخر أن « كل قبيلة أخذت تعنى برواية شعرها الجاهلي الذي يصور مناقبها ومثالب خصومها ، ويتناقله أبناؤها . . . وكان ذلك أكبر عون على حفظ الشعر الجاهلي» [6] .

ويذهب بلاشير[7] إلى أن القصيدة انتقلت بثلاث طرق : إما أن يحملها أفراد العشيرة الذين يهمهم أمر القبيلة والشاعر ، وإما أن يستظهر القصيدة أصدقاء الشاعر ، وإما أن يلازم رواية الشاعر ، وقد يكون هذا الراوي ابن الشاعر أو أحد أقربائه ، وقد يكون غريباً عن القبيلة .

ثم نصل إلى الدور الثالث من أدوار رواية الشعر الجاهلي ، وفي هذا الدور ظهرت طائفة من العلماء عملوا بجد وأمانة في جمع الشعر من الشيوخ المختلفين ، ومن أفواه الأعراب ، ومن

---

(١) الأغاني / كتب ١١/ ٩١ ، ٩٢ . (٢) نفس المصدر ١٥/ ٤٧ .
(٣) الأغاني / ثقافة ٢٢/ ١٨٦ . (٤) الأغاني / ثقافة ١٨/ ٣٠١ .
(٥) العصر الجاهلي ـ شوقي ضيف ١٤٣ ، وانظر الشعر والشعراء ١/ ١٢٧ ، ٢/ ٦٣٥ .
(٦) نفس المرجع السابق ١٤٥ . (٧) تاريخ الأدب العربي ـ بلاشير ١٠٠ .

بعض الصحف المدونة ، ثم تدرس هذا الشعر وتمحصه وتفحصه وتميز صحيحه من فاسده ، والثابت النسبة من المشكوك فيه ، وهذه الطائفة من العلماء هم العلماء اللغويون والنحاة .

ولم تظهر هذه الطبقة من الرواة العلماء قبل مطلع القرن الثاني الهجري[1] أو في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة[2] ، وقد كان هؤلاء العلماء يجمعون الشعر ومعطيات التاريخ والتراجم . وأول شيوخ هذه المرحلة الذين مهدوا الطريق لمن تلوهم : أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) وحماد الرواية (ت ١٥٦ هـ) يقول ابن سلام[3] « وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها : حماد الرواية» ويقول : الأنباري[4] « كان خلف الأحمر أول من أحدث السماع بالبصرة ، وذلك أنه جاء إلى حماد الرواية فسمع منه ، وكان ضنيناً بأدبه» .

ثم أخذت عن هذين العالمين سائر العلماء ، علماء الشعر واللغة ، كخلف الأحمر ، والمفضل الضبي ، والأصمعي ، وأبي عبيدة ، وأبي عمرو الشيباني . وعن هؤلاء أخذ تلامذتهم : كابن الأعرابي ، وابن حبيب والسجستاني . ثم أخذ عنهم السكري وثعلب وابن السكيت ومعاصروهم .

وانقسم العلماء إلى مدارس ، فَوُجِدَتْ مدرسة البصرة ، ومدرسة الكوفة ، ومدرسة المدينة ، ومدرسة بغداد ، ولكل مدرسة تلاميذ يتعصبون لمدرستهم وشيوخهم ، ويوثقون روايتهم ويطعنون في شيوخ للمدرسة الأخرى ، ويتهم بعضهم بعضاً بالوضع والنحل .

ولكننا في دراستنا لرواة شعر الأيام سننهج نهجاً زمنياً فندرس هؤلاء الرواة حسب سنوات وفاتهم ، دون مراعاة تقسيم المدارس لأن رواة الخبر الذي يتضمن الشعر ، والذين يذكرهم أبو الفرج ، أو ابن الأثير ، أو أبو عبيدة فيهم الكوفي والبصري والبغدادي وغيرهم ، وسنشير في أثناء حديثنا إلى المدرسة التي ينتمي إليها .

ورواة شعر الأيام كما وجدناهم في الكتب التي اهتمت بالأسانيد هم: خَلَف الأحمر (ت ١١٥ هـ) ، وابن شهاب الزُّهْريّ (ت ١٢٤ هـ) ، ومحمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ) ، وابن اسحاق (ت ١٥١ هـ) ، وأبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) ، وحَمَّاد الرواية (ت ٥٥٥ هـ) ، والشرقيّ القُطاميّ (ت ١٥٥ هـ) ، والمفضل الضبيّ (ت ١٦٨ هـ) ،

(١) مصادر الشعر الجاهلي - ناصر الدين الأسد ٢٥٢ .
(٢) تاريخ الأدب العربي - بلاشير ١٢٢ .
(٣) طبقات فحول الشعراء - ابن سلام ٤٠ .
(٤) نزهة الألباء - أبو بركات الانباري ٣٧ .

وهشام بن الكلبي (ت ٢٠٤ هـ) ، وأبو عمرو الشيباني (ت ٢٠٦ هـ) ، وهيثم بن عديّ (ت ٢٠٦ هـ) ، وأبو عُبَيْدَة (٢١٠ هـ) ، وابن هشام (ت ٢١٣ هـ) ، وأبو زيد الأنصاريّ (ت ٢١٥ هـ) ، والأصمعي (ت ٢١٦ هـ) ، وأبو نصر الباهليّ (ت ٢٣١ هـ) ، وأبو الحسن علي بن المغيرة (ت ٢٣٢ هـ) ، وابن سلام الجُمَحيّ (ت ٢٣٢ هـ) ، وابن الأعرابي (ت ٢٣١ هـ) ، وأبو عُبَيْدَة القاسم (ت ٢٣٠ هـ) ، والطوسيّ ، وابن السكّيت (ت ٢٤٤ هـ) ، ومحمد بن حبيب (ت ٢٤٥ هـ) ، وأبو العباس الأحول (ت ٢٥٠ هـ) ، وأبو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥ هـ) ، والجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) ، والزبير بن بكار (ت ٢٥٦ هـ) ، وابن قتيبة (ت ٢٦٧ هـ) ، والسكّري (ت ٢٧٥ هـ) ، والأنباري (ت ٣٠٤ هـ) ، واليزيدي (ت ٣١٠ هـ) ، والأخفش علي بن سليمان (ت ٣١٥ هـ) ، وابن دُرَيْد (ت ٣٢١ هـ) ، وابن الأنباري (ت ٣٢٨ هـ) ، وابن عبد ربه (ت ٣٢٨ هـ) ، والأصفهاني (ت ٣٥٦ هـ) ، والخشني (ت ٣٦١ هـ) ، وأبو أحمد العسكري (ت ٣٨٢ هـ) ، وخالد بن كلثوم الكلبي الكوفي .

ابن شهاب الزهري (٥٨ - ١٢٤ هـ) [١] .

محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري ، من بني زُهْرة بن كلاب من قريش ، نزل الشام واستقر بها ، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله : عليكم بابن شهاب فإنكم لا تجدون أحداً أعلم بالسنة الماضية منه .

محمد بن أسحاق بن يَسار (ت ١٥٠ أو ١٥١ أ (١٥٢ هـ) : [٢] .

من علماء الناس بالسير ، مطعون عليه غير موضّى الطريقة[٣] ، روى الخطيب أن ابن أسحاق كان يدفع إلى شعراء وقته أخبار المغازي ، ويسألهم أن يقولوا فيها الأشعار ليلحقها بها[٤] . لقبه مالك بن أنس بالدجّال[٥] ، كانت تعمل له الأشعار فيضعها في كتب المغازي فصار فضيحة عند رواة الأخبار والأشعار ، كما أخطأ في كثير من النسب الذي أورده[٦] .

---

(١) أنظر ترجمته في تاريخ الإسلام للذهبي ٥/ ١٣٦/ ١٥٢ ، وفيات الأعيان ١/ ٤٥١ ، والاعلام للزركلي ٧/ ٣١٧ .

(٢) الفهرست ٩٢ .

(٣) الفهرست ٩٢ .

(٤) تاريخ بغداد ١/ ٢١٤ .

(٥) ياقوت معجم الأدباء ١٨/ ٨ .

(٦) نفس المصدر السابق .

وخلاصة الرأي فيه أنه غير موثق لإيراده الشعر الموضوع كثيراً ، وقد اعترف هو بذلك حين قال : لا علم لي بالشعر إنما أوتى به فأحمله .[1]

محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ) الكوفي[2]

من علماء الكوفة بالتفسير والأخبار وأيام الناس ، ومقدم الناس بعلم الأنساب[3] ، يقول عنه ابنه هشام : قال لي أبي : أخذت نسب قريش عن أبي صالح ، وأخذه صالح عن عقيل ابن أبي طالب . وأخذت نسب كندة عن أبي الكناس الكندي ، وكان أعلم الناس . . .»[4] ولو أخذنا هذا الخبر على ظاهره . لكانت دلالته أن أباه أخذ علمه الذي اشتهر به عن رواة القبائل التي يحدث عنها ، وأن تسلسل الرواية عنده متصل .

الشرقي بن القُطاميّ ، الوليد بن الحُصَيْنْ (ت ١٥٥ هـ) [5] الكوفي

كان كذاباً ، رُوِيَ عن الأصمعي أنه حدث قصة تثبت كذبه[6] ، كما كان أبـو حـاتـم السجستاني يقول عنه : كان موهون الرواية[7] . وهو من أهل الكوفة ، استقدمه منها أبو جعفر المنصور إلى بغداد ليعلم ولده المهدي الأدب ، وكان صاحب سمر .

حمّاد بن ميْسرة بن مبارك مولى بني بكر بن وائل ويعرف بحماد الـرواية (٩٥ - ١٥٥ هـ) [8] الكوفي .

يقول عنه الأصمعي : « كل شيء في أيدينا من شعر امرىء القيس فهو من حماد إلاّ شيئاً سمعناه من أبي عمرو بن العلاء» [9] ويقول عنه يونس بن حبيب البصري « العجب لمن يأخذ عن حماد ، كان يكذب ويلحن ويكسر» [10] ويقول عنه المفضل الضبيّ الكوفي « وقد سلّط على الشعر من حماد من أفسده فلا يصلح أبداً فقيل له : وكيف ذلك ؟ أيخطيء أم يلحن ؟ قال : ليته كان كذلك فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ، ويدخله في

---

(١) طبقات فحول الشعراء - ابن سلام ٨ . (٢ ، ٣ ، ٤) الفهرست ص ٩٥ .
(٥) الإعلام للزركلي ٩/ ١٣٩ . (٦) الفهرست ٩٠ .
(٧) طبقات الزبيدي ٢١٠ .
(٨) تاريخ الأدب العربي - بروكلمان ١/ ٢٤٥ ، معجم الأدباء لياقوت ١٠/ ٢٦٦ .
(٩) معجم الأدباء - ياقوت ١١/ ١٦ . (١٠) يونس بن حبيب - حسين نصار ٤١ .

شعره ويحمل ذلك عنه في الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ، ولا تمييز الصحيح منها إلاّ عند عالم ناقد ، وأين ذلك ؟ »[1] ويقول عنه الأصمعي البصري « كان حماد أعلم الناس إذا نصح فإنه كان متهماً يقول الشعر وينحله شعراء العرب»[2] ويقول عنه خلف الأحمر البصري« كنت أخذ من حماد الصحيح من أشعار العرب وأعطيه المنحول ، وكان يقبل ذلك ، وكان فيه حمق»[3] ويقول الجاحظ« كان مشهوراً بالكذب في الرواية ، وعمل الأشعار ، وإضافته إلى الشعراء المتقدمين ، ودسّه في أشعارهم»[4] واتهمه الشريف المرتضى[5] بأنه كان منسلخاً من الدين ، وزارياً على أهله مدمناً لشرب الخمور وارتكاب الفجور . أما ابن سلام فلم يوثقه وقال عنه « كان ينحل شعر الرجل غيره وينحله غير شعره ويزيد في الأشعار»[6] ويورد قصة مدح أبي موسى الأشعري .

ويروي الفهرست[7] خبراً عن ثعلب الكوفي بأن الوليد بن يزيد طلب من حماد وجناد ما عندهما من هذا الديوان لأنه يعتزم جمع ديوان العرب وأشعارها وأنسابها . أما راويته الهيثم عدى فقد وثّقه فقال « ما رأيت رجلاً أعلم بكلام العرب من حماد»[8] وفعل مثله المدائني فقال « حماد من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها»[9]

وإذا ما انتقلنا إلى المحدثين وجدنا أن بلاشير يقول عنه وعن خلف الأحمر « حماد وخلف من الأعاجم عملاً على إظهار مقدرتهم أمام العرب في نظم القصائد والمقطوعات تفوق في أصالتها تلك التي ارتجلها الجاهليون»[10] ويعتبره صاحب أولى المجموعات الشعرية المعروفة[11] . أما الدكتور طه حسين[12] فلم يوثقه واتهمه بفساد المروءة والتزليف للحكام للكسب والنكاية بالعرب كما اتهمه بالمجون والخروج على الدين .

ويوافق رأي الدكتور شوقي ضيف[13] رأي الدكتور طه حسين فإنه يعتبره متهماً ، ويروي قصته مع المهدي حين اعترف بإضافة أبيات لزهير بن أبي سلمى[14] . ويعد الدكتور ناصر الدين الأسد[15] أكثر ما اتهم به حماد موضوعاً . دعت إلى وضعه عوامل عدة منها : العصبية المتأججة

(1) يونس بن حبيب - حسين نصار ٤١ .
(2) معجم الأدباء ٨/ ٢٦٥ .
(3) الأغاني ٦/ ٩٢ .
(4) أمالي المرتضى ١/ ٩١ .
(5) نفس المصدر السابق ٩٠ .
(6) طبقات ابن سلام ٤١ .
(7) الفهرست ١٣٤ .
(8) معجم الأدباء ٨/ ٢٦٥ .
(9) نفس المصدر السابق ٨/ ٢٥٨ .
(10) تاريخ الأدب العربي - بلاشير ١١٦ .
(11) نفس المرجع ١٠٨ .
(12) في الأدب الجاهلي - طه حسين ١٩١ .
(13) العصر الجاهلي ١٦٤ .
(14) الأغاني ٦/ ٨٩ .
(15) مصادر الشعر الجاهلي ٤٥٠ .

بين المدرستين ، والمنافسات والخصومات الشخصية بين المفضل وحماد ، والعصبية السياسية ، وسعة رواية حماد جعلته يروي ما لا يعرف غيره ويحفظ ما لا يحفظون ، ويرى أن الذي ساعدهم على اتهامه مجونه واستهتاره . المفضل الضبيّ الكوفي (ت ١٦٨هـ)

المفضل الضبي الكوفي (ت ١٦٨ هـ)

عالم كوفي ، راوية للأدب والأخبار وأيام العرب ، قدم بغداد في أيام هارون الرشيد[١] ، صادق في روايته ، حرص على التأكد من صحة ما ينقله أو يتناقله الرواة الآخرون من أشعار[٢] ، وينبه إلى خطر صنع حماد بالشعر ، فيقول : قد سلط . . . إلى آخر الخبر الذي سبق بيانه ، وصله المهدي بخمسين ألف درهم لصدقه وصحة روايته[٣] . ووثّقه الخطيب البغدادي ، وأبو حاتم[٤] ، وأبن سلام[٥] كما وثقه من المحدثين الدكتور شوقي ضيف[٦] ، واعتبره من الذين نقبل رواية شعرهم

أبو عمرو بن العلاء ، زبّان بن عمّار البصري (ت ١٥٤ هـ)[٧] .

ينتسب إلى خزاعي بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم ، من الرواة الثقات ، لم يجرحه أحد من العلماء ، كان يسلم للعرب ولا يطعن عليها . وثقه المحدثون وعدوّه والمفضل والأصمعي من الرواة الذين لا نشك في ثقتهم وأمانتهم ، وتأخذ عنهم الشعر مطمئنين إلى صدقهم وتحريهم الدقة فيما يروون : وهو أحد القراء السبعة أخذ عنه يونس وغيره من مشايخ البصريين . وكانت أخباره عن أعراب أدركوا الجاهلية وللصولي كتاب في أخبار أبن العلاء .

خلف الأحمر، مولى أبي برده بن أبي موسى الأشعري ، البصري (ت ١٨٠ تقريبا)[٨] .

أخذ عن عيسى بن عمرو النحوي ، وأبي عمرو بن العلاء . يقول عنه الأصمعي[٩] « كان خلف يقول الشعر فيجيد ، وربما قال الشعر فنحله الشعراء المتقدمين فلا يتميز من شعرهم

---

(١) طبقات الزبيدي ٢١٠ .
(٢) أنباه الرواة للقفطي ٣/ـ ٢٩٨.
(٣) تهذيب اللغة للأزهري ـ المقدمة ١٠ .
(٤) معجم الأدباء ـ ياقوت ١٩/ ١٦٥ .
(٥) ميزان الإعتدال للذهبي ٤/ ١٧٠ .
(٦) طبقات ابن سلام ٢١ .
(٧) العصر الجاهلي ـ شوقي ضيف ١٦٥ .
(٨) المعارف لابن قتيبة ٥٤٠ ميزان الإعتدال ٤/ ٥٥٦ ، وفيات الأعيان ٣/ ٤٦٦ .
(٩) بغية الوعاة للسيوطي ٢٤٢ .
(١٠) تهذيب اللغة للأزهري ـ المقدمة ص ٩ .

لمشاكلة كلامه كلامهم» ويقول عنه ابن سلام[1] « كان خلف أجمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببيت شعر وأصدقه لساناً ، كنّا لا نبالي إذا أخذنا عنه خبراً أو أنشدنا شعراً ألا نسمعه من صاحبه» ويروي أبوحاتم أنه سمع الأصمعي يقول[2] « سمعت خلفاً يقول : أنا وضعت على النابغة قصيدته الميمية» ويقول عنه أيضاً أبو حاتم[3] « كان من العلماء بالشعر بالبصرة أبوعمرو وخلف والأصمعي وأبو عبيدة ، وكان وضع على عبد القيس شعراً مصنوعاً عبثاً منه ثم تقرأ فرجع عن ذلك وبينه» ويتهمه ابن قتيبة[4] بأنه « كان يقول وينحله المتقدمين» ويقول بذلك أيضاً القالي في أماليه[5] . ولخص القفطي[6] رأي القدماء فيه بقوله « ليس في رواة الشعر أحد أشعر منه ، يبلغ حد اقتداره على الشعر أن يشبه شعره بشعر القدماء ، كما فعل حين نحل ابن أخت تأبط شراً قصيدة في رثاء خاله » .

أما المحدثون، فلم يوثقه الدكتور طه حسين[7]، والدكتور شوقي ضيف[8]، بينما ذهب الدكتور ناصر الدين الأسد[9] إلى أن « كثيراً من الأخبار التي تتهم خلفاً بالرغم من أن رواتها بصريون يتهمون بصرياً فقد انتهت إلى غايتها وكشفت بذلك عن عوارها وهي : تجريح الكوفيين » .

هشام بن الكلبي الكوفي (ت ٢٠٤ أو ٢٠٦ هـ)[10]

عالم بالأنساب وأخبار العرب ووقائعها وأيامها ومثالبها . أخذ عن أبيه وعن جماعة من الرواة ومن مؤلفاته في أخبار الشعر وأيام العرب : كتاب داحس والغبراء وكتاب أيام فزارة ووقائع بني شيبان ، ووقائع الضباب وفزارة ، وكتاب الكلاب وغيرها[11].

ولم يتعرض له القدماء إلا من جهة رواية الأخبار ، ولكنهم لم يتعرضوا لموقفه بالنسبة لرواية الشعر وفي الحقيقة لم يكن هشام بن الكلبي (أبو المنذر) موثقاً كما يلزم ، إذ أخذ الكثير من القصص الشعبي ، ومن مواد أسطورية ، ومن بعض الأخبار الموضوعة عن شعراء

---

(١) طبقات ابن سلام ٢١ .
(٢) طبقات الزبيدي ١٨٠ .
(٣) نفس المصدر السابق ١٧٩ .
(٤) الشعر والشعراء - ابن قتيبة ٢/ ٧٩٠ .
(٥) طبقات الزبيدي ١٧٨ .
(٦) أنباه الرواة ١/ ٣٤٨ .
(٧) العصر الجاهلي - طه حسين ٩١ .
(٨) العصر الجاهلي - شوقي ضيف ١٦٤ .
(٩) مصادر الشعر الجاهلي - ناصر الدين الأسد ٤٥٧ .
(١٠) الفهرست ٩٥ ، معجم الأدباء ١٩/ ٢٨٧ .
(١١) الفهرست ٩٥ - ٩٨ ، ياقوت - معجم الأدباء ١٩/ ٢٨٧ وما بعدها .

الجاهلية[1] ، أي أنه لم يكن يخضع ما يصل إليه لنوع من النقد والتمحيص ليقف من خلال ذلك على الصحيح والموضوع . وذهب بعضهم إلى أن عناوين مؤلفاته لا توحي بكثير من الثقة[2] » .

أبو عُبَيْدَة ، مَعْمَر بن المثنى البصري (١١٠ - ٢٠٨ أو ٢١١ هـ)[3]

تتلمذ على يونس بن حبيب ، وأبي عمرو بن العلاء[4] . أما تلاميذه فمن البصريين: التوزي ، الجرمي ، دَماذ ، وابن سلام ، والباهلي ، والمازني ، والرياشي ، وأبو حاتم والجاحظ ، وعمر بن شبّة . ومن الكوفيين : اللحياني وسعدان . ومن البغداديين الأثرم ، وأبو عبيد القاسم بن سلام ، والرشيد وابن حبيب وحماد بن اسحاق الموصلي[5]

له كتب كثيرة في الأخبار واللغة والشعر ، وفي أيام العرب ووقائعها أهمها فيا يتصل بموضوعنا : شرح نقائض جرير والفرزدق ، وكتاب الخيل ، كتاب أيام العرب الكبير ، كتاب الأيام الصغير ، وقد قاربت مصنفاته المائتين[6] .

وسنعرض فيا يلي آراء معاصرية ومَنْ جاءوا بعده إلى يومنا هذا في الرواية الـذي يعتبر المصدر الأساسي في شعر الأيام وأخبارها .

فتلميذه عمر بن شبّة[7] يقول : كان أبو عبيدة يقول : « ما التقى فرسان في جاهلية ولا إسلام إلا عرفتها وعرفت فارسيها » .

وابن قتيبة[8] يسرد ما كان يقال عنه « كان شعوبياً يطعن في الأنساب اشتهر بأخبار العرب وأيامهم ، كان يبغض العرب ، ألف كتاباً في مثالبهم ، خارجيّ » ويقول عنه الجاحظ[9] « لم يكن في الأرض خارجيّ ولا إجماعي أعلم بجميع العلوم من أبي عبيدة ، كان شعوبياً يطعن في الأنساب » .

والمُبَرِّد[10] يقول عنه « كان ديوان العرب في بيته ، عالم بالشعر والأخبار والنسب ،

---

(١) نشأة علم التاريخ عند العرب - عبد العزيز الدوري ٤١ .
(٢) دراسات عن المؤرخين العرب - مرجليوث ١٠٤ .
(٣) مختلف في وفاته أنظر المعارف لابن قتيبة ٥٤٣ ، معجم الأدباء ١٩/ ١٥٥ ، إنباه الرواة ٣/ ٢٨٥ كما اختلف في ولادته فبعضهم قال ١١٤ وبعضهم ١١٠ هـ أنظر نفس المصادر السابقة .
(٤ ، ٥) بغية الوعاة للسيوطي ٣٩٥ .
(٦) أنظر الفهرست ٥٣ - ٥٤ ، معجم الأدباء ١٩/ ١٦٢ .
(٧) للسيوطي ٤٠١ .
(٨) معجم الأدباء ١٩/ ١٥٦ .
(٩) معجم الأدباء ١٩/ ١٥٦ .
(١٠) الفهرست ٥٤ .

والأصمعي أعلم منه بالنحو ، له علم الإسلام والجاهلية » .

وصاحب الأغاني[١] يراه « من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها .

وصاحب الفهرست[٢] يرى أنه « كان يرى رأي الخوارج ، وعندما مات لم يحضر جنازته أحد ، ولم يكن يسلم منه شريف » .

أما الأزهري[٣] فيذهب إلى «أنه كان مغرىً بنشر مثالب العرب، جامعاً لكل غث وسمين، وهو مذموم من هذه الجهة».

وكان أبو عبيد القاسم بن سلام[٤] يوثقه ، ويكثر الرواية عنه في كتبه .

والسيوطي[٥] يقول عنه « كان في العصر ثلاثة هم أئمة الناس في اللغة والشعر وعلوم العرب ، ولم يرد قبلهم ولا بعدهم مثلهم ، أخذ عنهم جلّ ما في أيدي الناس من هذا العلم بل كله وهم : أبو زيد وأبو عبيدة والأصمعي . . . أما أبو عبيدة فكان أعلم الثلاثة بأيام العرب وأخبارهم ، وأجمعهم لعلومهم ، وكان أكمل القوم » .

ويذكر أبو العيناء[٦] أن أبا عبيدة سُئِل عن أبيه فقال « إنه كان يهودياً » .

ويراه ابن سلام[٧] من أهل العلم ، ويوثقه الحافظ الذهبي[٨] ، ويراه الدار قطني[٩] « لا بأس به إلا أنه يتهم بشيء من رأي الخوارج ويتهم بالإحداث » ويذكر ابن عفير عن أبيه[١٠] أن أبا عبيدة « كان يكثر ذكر العرب حتى نسب إلى الشعوبية ، وله كتاب في ذلك » ويذكر السجستاني[١١] أنه كان يكرمه على أنه من خوارج سجستان . كما يؤكد التوزي[١٢] خارجيته بحادثة يرويها .

وننتقل للمحدثين فنرى أن فريقاً منهم[١٣] لا يوثقه لأنه من الأعاجم الذين يحطون من

---

(١) الأغاني السياسية ١٩/ ٧٩, ٨٠ .
(٢) الفهرست ٥٣ .
(٤,٣) تهذيب اللغة المقدمة ١٤ .
(٥) المزهر ٤٠١ .
(٦) معجم الأدباء ١٩/ ١٥٥ .
(٧) طبقات ابن سلام ٢١ .
(٨) ميزان الإعتدال ـ للذهبي ٤/ ١٥٥ .
(٩) نفس المصدر السابق .
(١٠) أنباه الرواة للقفطي ٣/ ٢٨٠ .
(١١) نفس المصدر السابق ٣/ ٢٨١ .
(١٢) نفس المصدر السابق ٣/ ٢٨١ .
(١٣) أنظر في الشعر الجاهلي ـ طه حسين ١١٤ ، ضحى الإسلام لأحمد أمين ٢/ ٣٠٤ ، العصر الجاهلي لشوقي ضيف ١٥٥ ، نوادر المخطوطات لعبد السلام هارون ٧/ ٣٣١ ـ ٣٣٢ ، يونس بن حبيب لحسين نصار ٨٣ .

شأن العرب ، وأنه وضع كتاباً في مثالب العرب وكتباً في فضائل الفرس بينما نرى فريقاً يوثقه [1] .

ومع ذلك فنرى بعض الباحثين من الفريق الذي لا يوثقه يتراجع فيقول « إن الرواة من مثل أبي عبيدة كانوا يراجعون ما ترويه القبائل ، وكانوا يرفضون ما تبين لهم زيفه ، إما بالرجوع إلى أصول صحيحة أو إلى أذواقهم وما يحسنون من نقد الشعر ومعرفتهم بالشاعر ونظمه » [2] .

أما المستشرقون فقد اختلفوا فيه أيضاً ، فبلاشير [3] يتهمه بأنه بذل جهداً مليئاً بالتعصب في جمع الأساطير المتعلقة بالأمثال والمعطيات عن أيام العرب ومناقبهم ومفاخرهم . . . بينما يتهمه جولد تسيهر [4] بأنه كان يعمل بصورة جدية على نشر أفكار الشعوبية ، وينتهز الفرص للإشارة بفضل الأعاجم وأثرهم ، وأنه كان يسهب في الكلام على مواضع النقص في أنساب العرب .

وذهب بروكلمان [5] وشارل بلات [6] إلى أن أبا عبيدة تأثر بنسبه في موقفه من أنساب العرب فاتجه إلى التأليف في المثالب والتنقيب عن الأخبار التي تحط من شأن العرب وكبريائهم .

أبو عمرو الشيباني الكوفي ، إسحق بن مراد (٩٦ - ٢٠٦ أو ٢١٠ ، ٢١٣ هـ) [7]

راوية واسع العلم باللغة ، ثقة في الحديث كثير السماع ، جاور بني شيبان فنسب إليهم . روى عن أبي عمرو بن العلاء ، وروى عنه ابنه عمرو ، وأحمد بن حنبل ، وأبو عُبَيْد القاسم بن سلام وابن السكيت وأخذ عنه دواوين أشعار القبائل كلها ، جمع أشعار العرب وكانت نيفاً وثمانين قبيلة ، فكان كلما عمل منها قبيلة وأخرجها إلى الناس كتب مصحفاً وجعله في مسجد الكوفة [8] .

قال عنه ثعلب [9] : كان مع أبي عمرو من العلم أضعاف ما مع أبي عبيدة . دخل البادية وكتب عن العرب الكثير ، وقد قصر عند العامة لاشتهاره بشرب النبيذ .

---

(١) النقائض لأحمد الشايب ٦١ ، طه الحاجري - مقال في الكاتب المصري مج ٢ عدد ٦ ص ٢٨٤ ، نشأة علم التاريخ عند العرب - عبد العزيز الدوري ٤٥ .

(٢) العصر الجاهلي - شوقي ضيف ١٦٤ . (٣) تاريخ الأدب العربي - بلاشير ١٢٧ .

(٤) الجاحظ في البصرة - شارل بلات، ٢٠ ، Encyclopaidia of Islam p. 112

(٥) تاريخ الأدب العربي - بروكلمان ٢/ ١٤٢ . (٦) الجاحظ في البصرة - شارل بلات ٢٠١ .

(٧) المعارف لابن قتيبة ٥٤٥ ، أنباه الرواة للقفطي ١/ ٢٢٤ ، ٢٢٩ ، الفهرست ٦٨ ، بغية الوعاة ١٩٢ .

(٨) الفهرست ٦٨ . (٩) ميزان الاعتدال للذهبي ٤/ ٥٥٧ .

ويقول عنه ابن الأنباري[1] : « كان أبو عمرو صاحب ديوان اللغة والشعر وكان صدوقاً » وذكره الخطيب البغدادي[2] فقال عنه « كان رواية أهل بغداد واسع العلم باللغة والشعر، وكان معه من السماع والعلم عشرة أضعاف ما كان مع أبي عبيدة » ، ويتهمه الدكتور طه حسين[3] بفساد المروءة والتكسب والنكاية بالعرب وأنه كان يؤجر نفسه للقبائل يجمع لكل منها شعراً يضيفه إلى شعرائها .

الهيثم بن عديّ (ت ٢٠٦ أو ٢٠٧ هـ)[4]

عالم بالشعر ، والأخبار ، والمثالب ، والمناقب ، والمآثر ، والأنساب ، كان يطعن في نسبه[5] وقد قيل إنه كان يرى رأي الخوارج ، تعرض لمعرفة أصول الناس ، ونقل أخبارهم، فوردت معايب القوم مستورة ، فكرة ذلك[6] . تقول عنه جاريته[7] «كان مولاي يقوم الليل يصلي فإذا أصبح جلس يكذب «تتلمذ على حماد الراوية . وقد وثّقه ياقوت[8] والذهبي[9] فقال عنه «إخباريّ علاّمة راوية «نقل من أخبار العرب وأشعارها شيئاً كثيراً» .

عبد الملك بن هشام (ت ٢١٣ أو ٢١٨ هـ)[10]

هو أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري ، تنازعه أكثر من بلد ، لم يعش حيث نشأ بيته ، وقرّت أسرته ، ثم لم يكن بيته من النسب بالمنزلة التي يحرص الناس على حفظها وروايتها . نشأ بالبصرة ثم نزل مصر . كان إماماً في النحو واللغة العربية ، يحدثنا الذهبي[11] وابن كثير[12] أنه جاء مصر واجتمع بالشافعيّ وتناشدا من أشعار العرب أشياء كثيرة ، « مع أننا نعلم أن ابن هشام حين كان ينقل عن ابن إسحاق أشعاراً في السيرة ، ظاهرة الوضع فاسدة ، لا يستطيع أن يقطع فيها برأي ويقول : هكذا حدثنا أهل العلم بالشعر ، ناقلاً عنهم ، غير محكم ذوقاً اكتسبه من هذا شأنه في استيعاب الأشعار[13] » ولكنه لم يكن هكذا دوماً في السيرة فقد

(١) ميزان الاعتدال للذهبي ٤/ ٥٥٧ . (٢) بغية الوعاة للسيوطي ١٩٢ .
(٣) في الأدب الجاهلي - طه حسين ١٩١ ، الشعر الجاهلي - طه حسين ١٢٢ .
(٤) أنباء الرواة ٣/ ٣٦٩ ، ميزان الاعتدال للذهبي ٤/ ٣٢٥ ، الفهرست ٩٩ .
(٥) الفهرست ٩٩ . (٦) أنباء الرواة للقفطي ٣/ ٣٦٥ .
(٧) معجم الأدباء ١٩/ ٣٠٤ . (٨) نفس المصدر السابق .
(٩) ميزان الاعتدال للذهبي ٤/ ٣٢٤ .
(١٠) الروضي الأنف - للسهيلي ١/ ٥ ، وفيات الأعيان ٣/ ١٧٧ .
(١١) البداية والنهاية لابن كثير ١٠/ ٢٦٧ . (١٢) نفس المصدر السابق .
(١٤) محقق السيرة النبوية مصطفى السقا ورفاقه ١٨ .

أسقط بعض الشعر ، وذكر في بعض المرات أنها منحولة ، ونسب الشعر إلى غير قائله في مرات ثالثة .

عبد الملك بن قريب الأصمعي البصريّ (١٢٣ - ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٧ هـ)[١]

روى عن أبي عمرو بن العَلاء وقُرَّة بن خالد ونافع بن أبي نعيم وشُعْبَة وحماد بن سَلَمة ، وروى عنه أبو عبيد القاسم بن سلام والسجستاني وأبو نصر الباهلي[٢] . وثّقة القدماء ، فقال عنه ابن سلام[٣] « كان الأصمعي من أهل العلم » وابن قتيبة يقول[٤] كان صدوقاً في الشعر « والمبّرد يصفه بأنه بحر في اللغة لا يعرف مثله فيها ، وفي كثرة الرواية [٥] « وكان الأصمعي قد عمل قطعة كبيرة من أشعار العرب ليست بالمرضية عند العلماء لقلة غرابتها واختصار روايتها[٦] ويصفه الذهبي[٧] بأنه « أحد الإخباريين والأئمة الصدوقين « وعبّر الشافعي عن عصبية الأصمعي للعرب في وجه التيار الشعوبي فقال[٨] « ما عبر أحد عن العرب بمثل عبارة الأصمعي » ونقل الخشنيّ عن أبي حاتم[٩] » الشعر للأصمعي والأخبار لأبي عبيدة « وأن أبا عبيدة أكثر علماً من الأصمعي وأكثر أخباراً وأكثر كتباً ، والأصمعي أحضر جواباً وأرضى عند الناس ، ولم يتهم في شيء من دينه » .

ولم نجد من الأقدمين من يطعن فيه إلا أبا زيد فقد قال عن أبي عبيدة والأصمعي إنهما كذابان[١٠].

أما المحدثون[١١] فلم يطعنوا فيه بل وثّقوه . ويعتبره الدكتور شوقي ضيف أحد الثلاثة الذين نقبل ما رووه من الشعر ، ولم نسمع أحداً طعن في روايته منهم .

أبو زيد الأنصاري ، سعيد بن ثابت ، البصري (ت ٢١٤ أو ٢١٥ هـ)[١٢]

روى عن أبي عمرو عن بن العلاء وأخذ عنه ورُؤْبَة بن العَجاج ، وعَمْرو بن عبيد وأبو حاتم ، وأبو عُبّيد القاسم ، وعمر بن شبة ، وجده ثابت أحد الذين جمعوا القرآن

---

(١) الفهرست ٥٥ وبغية الوعاة للسيوطي ٣١٣ وفيات الأعيان ٣/ ١٧٥ .
(٢) تاريخ بغداد ١٠/ ٤١٤ .
(٣) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ٢١ .
(٤) المعارف ٥٤٣ .
(٥) تاريخ بغداد ١٠/ ٤١٤ .
(٦) الفهرست ٥٨ .
(٧) ميزان الاعتدال للذهبي ٢/ ٦٦٢ .
(٨) بغية الوعاة للسيوطي ٣١٣ .
(٩) طبقات الزبيدي ١٨٣ .
(١٠) ميزان الاعتدال ٢/ ٦٦٢ .
(١١) العصر الجاهلي - شوقي ضيف ١٦٦, ١٧٥ .
(١٢) المعارف لابن قتيبة ٥٤٥ ، معجم الأدباء ١١/ ٢١٦ .

الكريم في عهد الرسول ﷺ ، غلب عليه الغريب واللغة والنوادر[1] ، ذهب ابن قتيبة[2] إلى أنه كان يرى رأي القدرية ، مات وقد قارب المائة . ويعتبره الدكتور شوقي ضيف[3] من العلماء الأثبات .

أبو عبيد القاسم بن سلاّم البصري (ت ٢٢٣ أو ٢٢٤ هـ)[4]

أبوه مملوك رومي ، أخذ عن أبي زيد وأبي عبيدة والأصمعي واليزيدي وابن الأعرابي والكسائي والفراء وغيرهم[5] . قال القفطي[6] عنه « الرواة عنه مشهورون ثقات » ووصفه ياقوت[7] بأنه « أمام أهل عصره في فن من العلم » وكان ثقة ثبتاً » كما وثقه أبو حاتم والمبرد وسيبويه وآخرون .

محمد زياد ، أبو عبد الله ، ابن الأعرابي (١٥٠ - ٢٣١ هـ أو ٢٣٣ هـ)[8]

مولى بني هاشم ، وربيب المفضل ، من علماء الكوفيين ورواتهم ، روى عن أبي عبيدة والمفضل[9] ، وروى عن المفضل مفضلياته ، وسمع منه الدواوين وصححها[10] .

وقد أخذ عنه أبو عكرمة الضبيّ ، وثعلب وابن السكّيت[11] . يقول عنه الجاحظ[12] « راوية الأشعار حسن الحفظ لها ، لم يكن أحد من الكوفيين أشبه برواية البصريين منه » كان راوية لأشعار القبائل ، كثير الحفظ ، وكان ينقل عن الكتب . وقد وثّقه ثعلب فقال[13] « لم ير أحد في علم الشعر أغزر منه » والأزهري[14] يوثقه أيضاً فيقول « كانت له معرفة بأنساب العرب و أمها ، سمع من الأعراب ، كما سمع من المفضل دواوين الشعر وصححها » وقد كان ابن الأعرابي يزعم أن الأصمعي وأبا عبيدة لا يحسنان قليلاً ولا كثيراً[15] ، ويذكر القفطي[16] سبب

---

(١) بغية الوعاة للسيوطي ٢٥٤ ، معجم الأدباء ١١/ ٢١٤ .
(٢) المعارف لابن قتيبة ٥٤٥ . (٣) العصر الجاهلي شوقي ضيف ١٧٥ .
(٤) أنباه الرواة للقفطي ٣/ ٢٣,٢١ ، معجم الأدباء ١٦/ ٢٥٤ .
(٥) بغية الوعاة للسيوطي ٣٧٦ ، أنباه الرواة للقفطي ٣/ ١٣ .
(٦) أنباه الرواة ٣/ ١٣ . (٧) معجم الأدباء ١٦/ ٢٥٤ .
(٨) بغية الوعاة للسيوطي ٤٢ ، معجم الأدباء ١٨/ ١٩٦ .
(٩) الفهرست ٦٩ . (١٠) معجم الأدباء ١٨/ ١٩٠ .
(١١) بغية الوعاة للسيوطي ٤٢ . (١٢) أنباه الرواة ٣/ ١٣٠ .
(١٣) أنباه الرواة ٣/ ١٣١ . (١٤) أنباه الرواة ٣/ ١٢٩ .
(١٥) أنباه الرواة ٣/ ١٣٣ . (١٦) معجم الأدباء ١٨/ ٢٠٥ .

خصومة ابن الأعرابي والأصمعي بأنها كانت بسبب ولد سعيد حيث كان ابن الأعرابي مؤدباً لهم .

محمد بن سلاّم الجُمحيّ (١٣٩ - ٢٣٢هـ)(١).

من أهل اللغة والأدب، روى عن الجم الغفير(٢) وروى عنه ثعلب ومشايخ الأدب(٣) كان له علم بالشعر والأخبار، وكان صدوقاً(٤) وقد اتهمه الدكتور طه حسين(٥) بأنه إنخدع بالشعر المتحل للقصص. وله بيوتات العرب وطبقات الشعراء الجاهلين وطبقات الشعراء الإسلاميين (٦).

الطوسي ، أبو الحسن علي بن عبد الله بن سنان التيميّ

عالم راوية للقبائل وأشعار الفحول ، لقي مشايخ الكوفيين والبصريين ، وأكثر مجالسته وأخذه عن ابن الأعرابي . وكان عدواً لابن السكّيت، ويذكر ياقوت سبب العداوة لأنهما ، أخذا عن نصران الخراساني ، واختلفا في كتبه بعد موته (٧) ، وقال عنه المرزباني إنه لم يكن يرغب في الإكثار من توجيه الأسئلة إليه ، واتهمه بالعجز أحياناً .

يعقوب بن إسحاق بن السكيّت (ت ٢٤٦ هـ أو ٢٤٣ أو ٢٤٤ هـ)(٨)

كان عالماً بنحو الكوفيين وعلم القرآن واللغة والشعر ، من علماء بغداد ، راوية ثقة أخذ عن البصريين والكوفيين كالفرّاء وأبي عمرو الشيباني والأثرم وابن الأعرابي(٩) والأصمعي وأبي عبيدة ، كما لقى فصحاء الأعراب وأخذ عنهم(١٠) . يقول عنه ثعلب(١١) « كان متصرفاً في أنواع العلم وكان أبوه رجلاً صالحاً ، حسن المعرفة بالعربية ، وكان يقول أنا أعلم من أبي بالنحو ، وأبي أعلم مني بالشعر واللغة » وقال عنه السيوطي(١٢) لم يكن بعد ابن الأعرابي مثله « وقد أخذ عنه أبو سعيد السكري ، وأبو عكرمة الضبي

---

(١) أنباه الرواة للقفطي ٣/ ١٤٣ .
(٢) نفس المصدر السابق .
(٣) معجم الأدباء ١٨/ ٢٠٤ .
(٤) .لشعر الجاهلي ٩٩ .
(٥) الفهرست ١١٣ .
(٦) الفهرست ٧١ ، معجم الأدباء ١٣/ ٢٦٨ .
(٧) الفهرست ٧٢ ، معجم الأدباء ٢٠/ ٥١ .
(٨) بغية الوعاة للسيوطي ٤١٨ .
(٩، ١٠، ١١) الفهرست ٧٢ .
(١٢) بغية الوعاة للسيوطي ٤١٨ ومعجم الأدباء ٢٠/ ٥٠ .

محمد بن حبيب أبو جعفر البغدادي (ت ٢٤٥ هـ)[١]

عالم بالنسب وأخبار العرب ، يكثر من رواية اللغة ، من علماء بغداد ، موثوق الرواية[٢] ، ينسب إلى أمه[٣] . روى كتب ابن الأعرابي وابن الكلبي وأبي عبيدة[٤] . أتهمه المرزباني بأنه كان يغير على كتب الناس فيسقط أسماءهم ويدّعيها[٥] ، لكن ثعلب وثقه فقال عنه ، «وكان والله حافظاً ، وكان يعقوب أعلم منه ، وكان هو أحفظ للأنساب والأخبار منه[٦] » وله كتب في الشعر منها : كتاب الشعراء وأنسابهم ، ونقائض جرير والفرزدق ، وأيام جرير في شعره ، وصنع شعر لبيد بن ربيعة وشعر الصِّمة[٧] ، والمحبّر .

أبو العباس محمد بن الحسن بن دينار الأحول (ت حوالي ٢٥٠ هـ)[٨]

من العلماء باللغة والشعر ، كان ناسخاً ، وله ذكر بين أئمة اللغة العربية[٩] ، وله رواية نقلت عنه بهذا الشأن في طبقة ثعلب[١٠] ، وقد روى عنه أبو عبد الله محمد بن العباس اليزيدي . وقرأ عليه ديوان عمرو بن الأهثم في سنة ٢٥٠ هـ[١١] . وقال عنه ياقوت[١٢] « كان جيد الدراية حسن الرواية ، واسع الفهم » واتهمه المرزباني بقلة الحفظ واللحن[١٣] وقد جمع أشعار مائة شاعر وعشرين شاعراً منها ديوان ذي الرمة[١٤] .

أبو حاتم السجستاني ، سَهْل بن محمد بن عثمان (ت ٢٥٥ هـ)[١٥]

تلميذ الأخفش ، استمع إلى أبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد ، ومن تلاميذه المبرد وابن دريد[١٦] ويعتبره ياقوت[١٧] بصرياً ، وإماماً في اللغة والشعر . تعلم النحو على سيبويه من

---

(١) أنباه الرواة للقفطي ٣/ ١٢٠ ، ومعجم الأدباء ٢٠/ ٥٠ .

(٢) نفس المصدر السابق ٣/ ١١٩ . (٣) معجم الأدباء ١٨/ ١١٢ .

(٤) نفس المصدر السابق . (٥) أنباه الرواة ٣/ ١٢١ .

(٦) معجم الأدباء ١٨/ ١١٣ ، أنباه الرواة ٣/ ١٢٠ .

(٧) معجم الأدباء ١٨/ ١١٦ ، ١١٧ .

(٨) معجم الأدباء ١٨/ ١٢٥ . (٩) أنباه الرواة للقفطي ٣/ ٩١ .

(١٠) نفس المصدر السابق ، معجم الأدباء ١٨/ ١٢٥ .

(١١ ,١٢ ,١٣) معجم الأدباء ١٨/ ١٢٦ .

(١٤) نفس المصدر السابق ١٨/ ١٢٦ ، والفهرست ٧٩ .

(١٥) الأعلام للزركلي ٣/ ١٢٢ دائرة المعارف ١/ ٩٢ أنباه الرواة ٢/ ٦١ .

(١٦) الفهرست ٥٨ ، بغية الوعاة ٢٦٥ ودائرة المعارف الإسلامية ١/ ٩٢ .

(١٧) معجم الأدباء ١١/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤ وانظر أيضاً Ency. V. I p29 وانظر بروكلمان ٢/ ١٥٩ .

الأخفش ، ولكنه لم يستطع أن يكون عالماً من علماء النحو . ويرجح جولد تسهير[1] وفاته بين ٢٤٨ ، ٢٥٥ هـ ، ولكنه يرجح الرواية الثانية التي يرويها تلميذ السجستاني ابن دريد ويعتبره بروكلمان[2] ثاني تلاميذ الأصمعي في الشهرة بعد أبي عبيد القاسم بن سلام .

عمرو بن بحر بن محبوب الكناني ، الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ)[3]

سمع من أبي عبيدة ، والأصمعي ، وأبي زيد الأنصاري ، كما أخذ النحو عن الأخفش[4] شهد له الجميع بسعة الاطلاع والعلم . وقد لا نجد في كتب التراجم ما ينص على مكانته في رواية الشعر ، ولكننا مع ذلك لا نجد ما يجعله متهماً في روايته ، ولكنّ نلمس مما تحدث به القدماء عنه والمحدثون ، ما يدل على حرصه على التثبت من صحة ما يروي ، وأنه حرص على تحري الصدق ، ولعل تلمذته للأصمعي تجعله أهلاً لذلك .

ويرى الدكتور ناصر الدين الأسد[5] أن الجاحظ ، انطلاقاً من غايته في تأليف كتبه ، كان خليقاً أن يجمع بين دفتيّ كتابه ما يحقق له هذه الغاية ، ويستوي عنده في ذلك الخبر الصحيح والزائف ، والشعر الثابت والمشكوك فيه والموضوع .

الزبير بن بكار (ت ٢٥٦ هـ)[6]

صاحب النسب ، وقاضي مكة ، يعتبره الذهبي[7] ثقة من أوعية العلم ، ولا يلتفت إلى قول أحمد بن علي السليماني حيث ذكره فيمن يضع الحديث . وهو صاحب كتاب نسب قريش وأخبارها . قال عنه ياقوت[8] « كان علامة نسابة إخبارياً » ، وعلى كتابه أنساب قريش الاعتماد في معرفة القرشيين. كان ثقة من أوعية العلم وقد ولي قضاء مكة ومات بها «وله كتاب أخبار العرب وأيامها وكتاب الأوس والخزرج» .

---

(١) Ency.V.I p 29.
(٢) تاريخ الأدب العربي ـ بروكلمان ٢/ ١٥٩ .
(٣) معجم الأدباء ١٦٥/ ١١٤ .
(٤) نفس المصدر السابق .
(٥) مصادر الشعر الجاهلي ـ ناصر الدين الأسد ٦٠٨ .
(٦) معجم الأدباء ١١/ ١٦٤ ، وفيات الأعيان ٢/ ٣١٢ .
(٧) ميزان الإعتدال ٢/ ٦٦ .
(٨) معجم الأدباء ١١/ ١٦١ .

الرياشي العباسي بن الفرج أبو الفضل البصري (ت ٢٥٧ هـ) [١]

عالم باللغة والشعر ، كثير الرواية عن الأصمعي ، وقد أخذ عن المبرد وابن دريد[٢] وثقه الخطيب البغدادي[٣] ، كما وثقه ياقوت فقال[٤] « من كبار النحاة ، وأهل اللغة ، وراوية للشعر ، وكان يحفظ كتب الأصمعي وأبي زيد ، وقرأ النحو على المازني ، وقرأ المازني عليه اللغة ، وكان ثقة فيما يرويه » .

وهو مولى محمد بن سليمان الهاشمي ، وقد مات مقتولاً في فتنة الزنج[٥] .

ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم الدينوري (٢١٣ - ٢٧٦ هـ) [٦]

ولد بالكوفة ، وسمي الدينوري لأنه كان قاضي دينور ، كان لا يغلو في البصريين إلا أنه خلط المذهبين ، البصري والكوفي ، وحكى في مذهبه عن الكوفيين[٧] . ثم سكن بغداد ، وحدث عن أبي حاتم السجستاني[٨] . عده الزبيدي[٩] من الطبقة السادسة . قال عنه الخطيب[١٠] : كان صادقاً وثقة ديناً فاضلاً وعالماًباللغة والأخبار وأيام الناس . وقال عنه ابن النديم[١١] : كان صادقاً فيما يرويه ، وعالماً باللغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه والشعر والفقه . ونقل الذهبي[١٢] عن الحاكم أنه قال عن ابن قتيبة : أجمعت الأمة على أنه كذاب ، ولكن الذهبي يقول[١٣] : ما علمت أحداً اتهم ابن قتيبة في نقله مع أن الخطيب قد وثقه .

السكري ، أبو سعيد الحسن بن الحسين (٢١٢ - ٢٧٥ أو ٢٩٠ هـ)[١٤] الكوفي

سمع السجستاني والرياشي وابن حبيب وعمر بن شبه ، كان ثقة وديناً وصدوقاً[١٥] ، عمل أشعار جماعة من الفحول ، وقطعة من القبائل فمن عمله : شعر امرىء القيس ، والنابغتان ، وقيس بن الخطيم ، وتميم بن أبي مُقْبل ، وأشعار اللصوص ، وأشعار هُذَيْل ، وهدبة بن

(١) معجم الأدباء ١٢/ ٤٦ ، وأنباء الرواة ٢/ ٣٦٩ .
(٢) بغية الوعاة للسيوطي ٢٧٥ .
(٣) تاريخ بغداد ١٢/ ١٣٨ .
(٤) معجم الأدباء ١٢/ ٤٥ - ٤٦ .
(٥) نفس المصدر السابق ١٢/ ٤٤ .
(٦) البداية والنهاية لابن كثير ١١/ ٥٧ ، تاريخ بغداد ١٠/ ١٧١ .
(٧) الفهرست لابن النديم ٧٧ .
(٨) تاريخ بغداد ١٠/ ١٧٠ - ١٧١ .
(٩) طبقات الزبيدي ٢٠٠ .
(١٠) تاريخ بغداد ١٠/ ١٧٠ .
(١١) الفهرست لابن النديم ٧٧ .
(١٣،١٢) ميزان الإعتدال للذهبي ١/ ٣١٤ .
(١٤) أنباء الرواة للقفطي ١/ ٢٩٢ ، معجم الأدباء ٨/ ٩٤ .
(١٥) نفس المصدر السابق ١/ ٢٩١ .

خشرم ، والأعشى ومزاحم العقيلي ، وزهير وغير ذلك[1] . ووثقه ياقوت فقال[2] « راوية ثقة مكثر ، انتشر عنه من كتب الأدب ما لم ينتشر عن أحد من نظرائه ، وكان إذا جمع فهو الغاية في الاستيعاب والكثرة » وقد قدم بغداد وأقام بها[3] .

ثعلب ، أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار ، أبو العباس (٢٠٠ ـ ٢٩١ هـ)[4] الكوفي

إمام الكوفيين في النحو واللغة ، سمع محمد بن سلام وابن الأعرابي والأثرم وسلمة بن عاصم والزبير بن بكّار وغيرهم . وقد روى عنه محمد بن العباس اليزيديّ ، والأخفش والأنباري[5] . ووثقه القفْطي فقال « كان ثقة صالحاً ديّناً مشهوراً بالحفظ وصدق اللهجة بالمعرفة بالغريب ورواية الشعر القديم ، وهو مقدم عند الشيوخ[6] وقال عنه المبرد[7] « هو أعلم الكوفيين » . وقد عمل قطعة من أشعار الفحول وغيرهم ، منها : الأعشى والنابغتان وطفيل الغنوي والطِّرِمَّاح[8] قال عنه المرزباني[9] « إنما فضل أهل عصره بالحفظ ، لا يمس كتاباً بيده ، إنما يتكل على حفظه » .

الأنباري ، أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار (ت ٣٠٤ أو ٣٠٥ هـ)[10]

من أهل الأنبار ، لقي سلمة بن عاصم وأمثاله من أصحاب الفراء ، كما لقي جماعة من النحويين[11] كان إخبارياً ومحدثاً ثقة وصاحب عربية[12] . وقد سكن بغداد ، وروى عنه ولده . وثقه القفطي[13] وياقوت[14] . وله شرح السبع الطوال[15] .

---

(١) الفهرست ٧٨ .
(٢) معجم الأدباء ٨/ ٩٤ .
(٨) نفس المصدر السابق ٨/ ٩٥ .
(٣) أنباه الرواة للقفطي ١/ ١٤٤ , ١٥٠ معجم الأدباء ٥/ ١٠٣ .
(٤) أنباه الرواة ١/ ١٣٨ ، معجم الأدباء ٥/ ١٠٧ .
(٥) نفس المصدر السابق ١٤١ .
(٦) نفس المصدر السابق ١٤٢ .
(٧) الفهرست ٧٤ .
(٨) معجم الأدباء ٥/ ١٠٧ .
(٩) معجم الأدباء ١٦/ ٣١٦ ، أنباه الرواة ٣/ ٢٨ .
(١٠) الفهرست ٧٥ .
(١١) الفهرست ٧٥ ، ومعجم الأدباء ١٦/ ٣١٦ ، أنباه الرواة ٣/ ٢٨ .
(١٢) أنباه الرواة ٣/ ٢٨ .
(١٣) معجم الأدباء ١٦/ ٣١٦ .
(١٤) معجم الأدباء ١٦/ ٣١٦ وما بعدها .

محمد بن العباس اليزيدي (ت ٣١٠ هـ) [١]

روى عن ثعلب ، كما روى عن السكري ديوان الأخطل[٢] . قال عنه ابن خلكان[٣] « كان إماماً في النحو والأدب ونقل الأخبار وأخبار العرب ، حدث عن عمه عبيد الله والرياشي وثعلب وغيرهم . وثّقه الخطيب البغدادي[٤] فقال : كان راوية للأخبار والأدب مصدقاً في حديثه» شغل عن الرواية بتأديب ولد المقتدر[٥] . له أماليه المعروفة بأمالي اليزيدي .

الأخفش ، أبو الحسن علي بن سليمان (ت ٣١٥ هـ) [٦]

قرأ على ثعلب والمبرد وأبي العيْناء واليزيدي[٧] ، كان يضجر كثيراً إذا سُئل عن شيء من النحو ، كما كان حافظاً للأخبار[٨] . قال عنه المرزباني[٩] « لم يكن يتسع في الرواية للأخبار والعلم والنحو ، وكان إذا سئل عن مسائل النحو ضجر . قدم مصر سنة ٢٨٧ هـ وخرج منها إلى حلب سنة ٣٠٠ هـ[١٠] .

ابن الأنباري ، محمد بن القاسم (٢٧١ - ٣٢٨ هـ) الكوفي[١١]

كان صدوقاً زاهداً متواضعاً فاضلاً ، وأديباً ثقة خيراً من أهل السنة ، أخذ عن ثعلب ، وكان يحفظ ثلاثمائة ألف بيت من الشعر شاهداً في القرآن الكريم[١٢] . وثقه الجميع ، وقال عنه ابن النديم[١٣] « ولا تعرف له زلة» عمل عدة دواوين من أشعار العرب الفحول ومنهم : زهير والنابغة الجعدي والأعشى والنابغة الذبياني وغير ذلك . وله من الكتب السبع الطوال في سبعمائة ورقة ، كما شرح المفضليات[١٤] .

---

(١) الفهرست ٥١ .
(٢) أنباه الرواة للقفطي ٣/ ١٩٨ .
(٣) بغية الوعاة للسيوطي ٥٠ .
(٤) تاريخ بغداد ٣/ ١١٣ .
(٥) الفهرست ٥١ .
(٦) معجم الأدباء ١٣/ ٢٤٦ .
(٧) نفس المصدر ١٣/ ٢٥٥ .
(٨) الفهرست ٨٣ .
(٩) معجم الأدباء ١٣/ ٢٤٧ .
(١٠) نفس المصدر السابق ١٣/ ٢٥٥ .
(١١) أنباه الرواة ٣/ ٢٠١ والفهرست ٧٥ .
(١٢) معجم الأدباء ١٨/ ٣٠٦ - ٣٠٧ ، أنباه الرواة ٣/ ٢٠١ .
(١٣) الفهرست ٧٥ .
(١٤) الفهرست ٧٥ .

ابن عبد ربه ، أحمد بن عبد ربه (٢٤٦ ـ ٣٢٨ هـ) [١]

ابن سالم ، مولى هشام بن عبد الرحمن الأموي ، من أهل العلم والأدب والشعر ، من أهل الأندلس ، ليس من الرواة ، لأنه أكثر من يعول على ما يقع إليه من الكتب ، إنما هو أديب شاعر متخير .

وينبغي استقبال الأخبار والأشعار التي رواها بحرص شديد ، ولا نرفضها ، لأنه نقل عن بعض الذين لا يوثق بهم . فنحن نقبل منه ما تؤيده الروايات الصحيحية ، أما ما لم تذكره تلك الروايات فنقف منه موقف الشك . وابن عبد ربه لم يبن كتابه الذي اشتهر به على الرواية .

أبو علي القالي ، اسماعيل بن القاسم (٢٨٠ ـ ٣٥٦ هـ) [٢]

قرأ على عدد من العلماء منهم ابن دريد ، والأخفش والأدباري[٣] . جمع بين العلم والسعة في الرواية ، فكان من أروى أهل زمانه للشعر الجاهلي ، وأحفظهم له ، فضلاً عن ثقة العلماء بما يصدر عنه . ووثّقه الزبيدي فقال عنه[٤] « من أعلم الناس بنحو البصريين ، وأرواهم للشعر واللغة » وقال عنه القفطي[٥] بأنه كان يتعصب للبصريين . وقال عنه ابن خلكان « كان أحفظ أهل زمانه للغة والشعر ونحو البصريين[٦] »

أبو الفرج الأصفهاني ، علي بن الحسين (ت ٣٥٦ أو ٣٥٧ هـ) [٧]

كان عالماً عالي الرواية ، حسن الدراية[٨] . أكثر مروياته أخذت عن الكتب المنسوبة الخطوط ، أو غيرها من الأصول الجياد ، ولم تؤخذ عن الرجال[٩] . أخذ عن الذين سبقوه من العلماء والرواة ، وكان يصعد في رواياته إلى كبار الرواة ومخبري الأعراب . وكان حريصاً على ألاّ

(١) معجم الأدباء ٤/ ٢١٢ ، وفيات الأعيان ١/ ١١٢ .
(٢) انباه الرواة ١/ ٢٠٧ ، ٢٠٩ .
(٣) وفيات الأعيان ١/ ٢٢٧ .
(٤) معجم الأدباء ٧/ ٣١ .
(٥) الرواة ١/ ٢٠٤ .
(٦) وفيات الأعيان ١/ ٢٢٦ .
(٧) الفهرست لابن النديم ١١٥ .
(٨) معجم الأدباء ١٣/ ١٠١ .
(٩) الفهرست ١١٥ .
(١٠) أبو الفرج الراوية ـ محمد أحمد خلف الله ٢٢٤ .

يفوته شيء مما يعرفه الناس ، كما كان « يذهب مذهب الرواة » (١) يأخذ عن الجميع ولكنه يتوخى العدالة والقدرة على الضبط . فكان محتاطاً إزاء « الرواة أشد الحيطة ، فمن عرف بكذبه نبّه عليه ، وحتى الذين عرفوا بالصدق ، كان يراجع رواياتهم على روايات معاصريهم ودواوين الشعراء » (٢) . وكان حريصاً على الإسناد ، ولعل هذه الصفة جاءته لأنه كان من المحدثين ورواة الحديث . وثقه القدماء باستثناء خبر نجده في تاريخ بغداد منقولاً عن الخشني يتهمه فيه « بالكذب والاتساع في الرواية » (٣) .

أما المحدثون فقد وثقوه أيضاً ، إلا أن الدكتور محمد أحمد خلف الله يقول فيما يتعلق برواية أخبار الأيام (٤) « نستطيع أن نعد تدوينه لأخبار أيام العرب في الجاهلية ولأخبار بعض الجاهليين كان من قبيل تدوين الشائعات ، وقد نص أبو الفرج نفسه على ذلك في ترجمته لعبد الله بن هارون بن السميدع » واعتبر بلاشير كتابه مهماً لاحتوائه على مقتطفات من كتب مفقودة ، ولإيراده التراجم ، ولكنه قال إنه أفسده باستطراداته . (٥)

الخشني ، محمد بن عبد السلام (ت ٢٨٦ هـ) (٦)

محمد عبد السلام بن ثعلبة القرطبي الخشني ، أبو الحسن ، لغوي من حفاظ الحديث من أهل قرطبه ، رحل إلى المشرق ، وأقام فيه خمساً وعشرين سنة متجولاً في طلب الحديث ، وانتشر علمه ، كان ثقة كبير الشأن (٧) . قال عنه ابن الفرضي (٨) : الغالب عليه حفظ اللغة ورواية الحديث ، وهو ثقة لقي أبا حاتم والعباسي بن فرج والرياشي أخذ عنهم ، ودخل بغداد فسمع بها من غير واحد الحديث والشعر الجاهلي (٩) .

خالد بن الكلبي الكوفي

من علماء الكوفة (١) ، ومن رواة الأشعار للقبائل ولأخبارها ، عارف بالأنساب وأيام الناس (١٠) ، وقد ذكره الزبيدي في طبقة أبي عمرو الشيباني (١١) . له صنعة في شعر القبائل ، وله من

---

(١) العصر الجاهلي ـ شوقي ضيف ١٦٣ .
(٢) تاريخ بغداد ١١/ ٣٩٨ .
(٣) أبو الفرج الرواية ـ محمد خلف الله ٢٣٤ .
(٤) تاريخ الأدب العربي ـ بلاشير ١٤٥ .
(٥) بغية الوعاة ٦٧
(٦) الأعلام ٧/ ٧٦
(٧) بغية الوعاة للسيوطي ٦٧ .
(٨) الفهرست ٦٦ .
(٩) إنباه الرواة للقفطي ١/ ٣٥٢ .
(١٠) بغية الوعاة للسيوطي ٢٤١ .

الكتب : الشعراء المذكورون ، كتاب أشعار القبائل ، ويحتوي على عدة قبائل[1] .

أبو أحمد العسكري ، الحسن بن عبد الله بن سعيد (٢٩٣ - ٣٨٣ هـ أو ٣٨٠ هـ)[2]

أحد الأئمة في الآداب والحفظ ، وصاحب أخبار ونوادر ، وله رواية متسعة ، وهو يعتبر من المشهورين بجودة التأليف وحسن التصنيف اشتهر في الآفاق بالدراية والاتقان ، وانتهت إليه رياسة التحديث والإملاء للآداب والتدريس بقطر خوزستان[3] . ووثقه القفطي ونعته بالراوية المتقن[4] . روى عن ابن دريد وغيره من الأدباء ، وتتلمذ عليه أبو هلال العسكري[5] . له كتاب صناعة الشعر[1] .

****

والآن وقد فرغنا من هذا العرض المستفيض لرواة شعر الأيام وأخبارها ، والذين ورد ذكرهم في المصادر التي نقلت إلينا تلك الأخبار وأشعارها ، نود أن نناقش هذه الآراء التي تكونت لدينا عن هؤلاء الرواة لنوثق من كان ثقة ، ونحذر من رواية الضعيف الرواية .

ومن الواضح من خلال عرضنا لتراجم أولئك الرواة أن غالبيتهم موثقون ، أو على الأقل لم نجد بين أيدينا من المصادر ما يجرح روايتهم ، ولذا فإننا سنقتصر على ذكر الذين شك البعض في روايتهم وعلمهم ، سواء منهم من طعن في روايته القدماء أم المحدثون .

فممن طُعن في روايته ابن اسحاق ، والكلبي ، والشرقي القُطامي ، وحماد الرواية ، وخلف الأحمر ، وأبو عبيدة ، والهيثم بن عدى ، والطوسي ، وابن قتيبة ، والأخفش ، وأبو العباس الأحول .

ومن هؤلاء الرواة من اتفق الجميع على أنه غير موثق في روايته كابن اسحق والشرقي القُطامي ، ومنهم من طعن البعض في روايتهم ووثقهم الباقون كالكلبي ، وحماد الرواية وخلف الأحمر ، والهيثم بن عدى والطوسي ، وأبو العباس الأحول ، وابن قتيبة ، والأخفش

(١) أنباء الرواة للقفطي ١/ ٣٥٢
(٢) معجم الأدباء ٨/ ٢٣٣ ، أنباء الرواة للقفطي ١/ ٣١١ .
(٣) معجم الأدباء ٨/ ٢٣٦ .
(٤) أنباء الرواة ١/ ٣١٠ .
(٥) نفس المصدر السابق ١/ ٣١٠ - ٣١١ ، وفيات الأعيان ٢/ ٨٤ .
(١) معجم الأدباء ـ/ ٢٣٦ .

وأكثر الرواة الذين أثير حولهم جدل كبير في القديم والحديث فيا يتعلق برواياتهم أبو عبيدة، وحماد الرواية وخلف الأحمر، وابن الكلبي. ولقد عرضنا آراء مختلف الباحثين فيهم، ولكننا بعد دراسة مستفيضة حول هؤلاء وغيرهم رأينا أن طعن القدماء في بعضهم كان سببه التعصب لإحدى المدرستين، ونعني مدرستي البصرة والكوفة، فمن وثقه المنتمون إلى مدرسته طعن فيه أصحاب المذهب الآخر. أو أن يكون الطعن بسبب منهج كل من المدرستين واختلافه، فبينا تتوسع مدرسة الكوفة في الرواية تتشدد مدرسة البصرة. وقد يرجع إلى الاختلاف على كسب مادي، روى لنا القفطي[1] أن ابن الأعرابي كان يقول عن الأصمعي وأبي عبيدة إنهما «لا يحسنان قليلاً ولا كثيراً» ويذكر القفطي السبب بأنه كان بسبب ولد سعيد بن سليم حيث كان ابن الأعرابي مؤدباً لهم، ونافسه عليهم الأصمعي. وقد يكون مصدر الخصومة تنافساً على الشهرة، فقد طعن أبو زيد الأنصاري في الأصمعي وأبي عبيدة واتهمها بالكذب[2]، كما كان الطوسي عدواً لابن السكيت لأنهما أخذا عن نصر الخراساني ثم اختلفا في كتبه بعد موته[3].

وقد لحقت التهمة ببعضهم لأنه عرف عنهم التعصب ضد العرب، ومن هؤلاء أبو عبيدة، فقد اتهم بأنه من أصل يهودي، وبأنه كان يتهم بالطعن في العرب وأنسابهم، وقد أثير جدل كثير بين القدماء والمحدثين حول أبي عبيدة. وخلاصة ما نراه في هذا الراوية أننا لا نستطيع أن نرفض روايته تماماً لأنه المصدر الأساسي لرواية أخبار الأيام وأشعارها، ونقل عنه كل من جاء بعده، كما أننا لا نقبل روايته قبولاً مطلقاً. بل نخضعها للنقد، ولكننا مع ذلك لا نقبل التجريح الشديد الذي غالى به بعض الباحثين في أحكامهم، وحجتهم في ذلك أنه من الموالي ومتعصب لغير العرب، ولو أننا أخذنا بهذه القاعدة لأسقطنا الإفادة بالكثير من علمائنا في العصر الذهبي.
العصر الذهبي.

إن الأحكام التي أصدرها علماؤنا في القديم على بعض الرواة أحكام عامة، إما أن يوثقوا الراوية أو يجرحوه. وإن حاولوا التفصيل في الأمر، فلن يزيدوا على ذكر حادثة معينة تؤيد وجهة نظرهم. ولكننا لا نجد نقداً مستفيضاً لأحدهم. كما أن الصراع بين المدرستين من جهة، وبين العرب وغيرهم المتمثل في الحركة الشعوبية من جهة أخرى، والصراع بينهم على مكاسب مادية، كل هذه العوامل وغيرها تجعلنا نتردد كثيراً في إسقاط رواية أحدهم لمجرد تهمة يلصقها أحدهم به. وينبغي أن نرجع إلى آراء مختلف العلماء فيه، ثم نناقش الدوافع الحقيقية الكامنة وراء كل مدح أو قدح فيه.

---

(١) أنباه الرواة ٣/ ١٢٩.   (٢) ميزان الاعتدال ٢/ ٦٦٢.
(٣) معجم الأدباء ١٣/ ٢٦٨.

شعر الأيام وقضية الانتحال

قبل الخوض في قضية الانتحال وشعر الأيام ، نود أن نفرق بين اصطلاحين ، يتداخلان فيلتبس الأمر علينا ، وتختلف الأحكام التي نصدرها تبعاً لتوضيح مفهومها . وأول هذين الاصطلاحين : الشعر المنحول :

فكيف أنــا وانتحــالي القوا   في بعـد المشيب كفـى ذاك عارا[1]

وثانيهما : الشعر الموضوع ، ونعني به الشعر الذي وضعه أحد الرواة ، وهو مولَّد ، ونسبه إلى شاعر جاهلي .

وقد اختلف العلماء قديماً في استعمال هذين الأصطلاحين ، فابن قتيبة[2] عنى بقوله نحلها المتقدمين : أن يقول بعض رواة الشعر ، أو بعض المولدين شعراً ، ثم ينسبه إلى المتقدمين من الشعراء . أي أنه يستعمل اللفظ على أصل وضعه في اللغة .

أما ابن سلام[3] فإنه قصد أن ينحل الراوي الرجل شعر غيره ، وينحل غيره شعره ، وذلك عند كلامه عن خلف الأحمر ، فإنه أشبه بالاصطلاح ، ويراد به ما يكون عند أحد الرواة من شعر معروف لشاعر متقدم بعينه فينسبه الراوية إلى شاعر متقدم آخر .

وشتّان بين اللفظين : فالذي قصده ابن قتيبة هو الذي يلحق التهمة بالشعر الجاهلي ، أي أنه من صنع مولدين . أما الذي عناه ابن سلام ، فهذا خلط في نسبة الشعر لا أكثر ، وهذا الخلط يقدح في صحة نسبته ولا يقدح في صحته .

فليكن الشعر المنحول هو ذلك الشعر الذي يضعه الراوية المولد أو غيره ، وينسبه إلى شاعر جاهلي . وسنعرض النوع الثاني وهو الشعر الذي اختلف في قائله ، واختلط الأمر فنسبوا الشعر إلى غير صاحبه .

والقضية الثانية التي يجب أن تكون واضحة في أذهاننا قبل الدخول في تفاصيل هذا البحث ، هي موطن الشعر الجاهلي الذي وصلنا ، واللهجة التي وصلنا بها . إن جميع ما نعرفه

---

(١) أنظر مادة « نحل» في اللسان .

(٢) أنظر كتابه الشعر والشعراء لأبن قتيبة ١/ ٦٩ .

(٣) طبقات أبن سلام ٨ .

من شعر الجاهلية إنما هو لأهل نجد والحجاز والبحرين ، أولمن سكن في هذه الأنحاء ، وإن كان أصله من قبائل اليمن[1] . وإن لهجة قريش عمت في الجزيرة العربية منذ أوائل القرن السادس الميلادي واتخذها الشعراء لغة أدبية لهم[2] ، ويرى بروكلمان[3] أن الفصحى كانت لغة فنية قائمة فوق اللهجات ، وإن غذتها جميعاً ؛ وإن هذه اللغة تولدت من إحدى اللهجات النجدية وتهذبت في زمن كندة حينما جمع ملوكها قبائل معد تحت لواء واحد قبيل منتصف القرن الخامس الميلادي . وقد حاول بلاشير تحديد منطقة اللهجة التي ذكرها نالينو معتمداً على القبائل التي كان اللغويون يأخذون عنها مادتهم . وجعل هذه الحدود محصورة بين خطين يمتد أحدهما على مسافة بضعة أميال من جنوبي مكة متوجهاً شرقاً إلى الخليج العربي في البحرين ويمتد ثانيهما في الشمال من ضواحي يثرب إلى شمال الحيرة .[4]

وقد أثار المستشرقون وبعض المحدثين العرب ضجة أخرى تتصل بعرب الجنوب ، والشعر الذي وصلنا منهم ، وردَّ عليهم بعض الباحثين[5] بأن أولئك الشعراء من أصل يمني ، ولكنهم أقاموا في الشمال وتربوا هناك .

وقد رد الأستاذ عباس محمود العقاد[6] على أولئك الذين يزعمون أن لغة قريش لم تكن سائدة ، وأورد أدلة على فهم الجميع لها : وأول الأدلة أن وفود اليمن فهمت عن النبيﷺ ، ونطقت بكلام يفهمه أهل الحجاز ، وثاني الأدلة رحلة الشتاء والصيف مع اليمن والشام ، وثالث الأدلة أن النبيﷺ سمع قصيدة كعب بن زهير ، وقد نظمها بلغة أبيه ، ولا يعقل أن يكون التغيير في لغة النظم قد طرأ عليه فجأة في مدى سنوات معدودات . وآخر هذه الأدلة : الأوزان العروضية فهي لا تخلق بين يوم وليلة ، ولو أن هذه الأوزان وسعت شعراً غير شعر اللغة الحجازية لما غاب خبره ، وإن غلب لفظه ومعناه .

دوافع الانتحال في شعر الأيام :

لقد عرض القدماء لقضية الانتحال في الشعر عامة ، وتنبهوا إلى الرواة الوضاعين وغيرهم الذين يضيفون إلى شعر شعراء جاهليين . ولن نعرض لهذه القضية تاريخياً ، ولو فعلنا ذلك

---

(١) تاريخ الأدب العربي ١/ ٤٢ .
(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ـ نالينو ٥٤ .
(٣) تاريخ الأدب العربي ـ بلاشير ٧٧ .
(٤) الحياة العربية من الشعر الجاهلي ـ أحمد الحوفي ٤٤ .
(٥) اللغة الشاعرة ـ عباس محمود العقاد ١١٩ ـ ١٢١ .

لاستغرق ذلك منا حيزاً كبيراً من هذا البحث . ولكننا سنحاول أن نتلمس دوافع الانتحال فيما عرضوه لنا من شواهد ، ثم ننتقل إلى ما قاله المحدثون العرب ، والمستشرقون في هذه القضية ونخرج بنتائج في نهاية الحديث عن هذه النقطة من البحث

وأول هذه الدوافع رغبة القبائل في التزيد من شعرها لتزيد في مناقبها ، ولتتضح معالم تاريخها في الجاهلية لتتخذه مادة لفخرها على القبائل الأخرى . يقول الجاحظ[1] « وبنو الحارث ابن كعب قبيل شريف ، يجرون مجاري اليمن ، ومجاري سادات أعراب أهل نجد ، ولم يكن لهم في الجاهلية كبير حظ في الشعر ، ولهم في الاسم شعراء ملفقون» ، وهؤلاء الشعراء في الإسلام دفعهم تعصبهم إلى التلفيق حتى تبقى قبيلتهم شريفة عزيزة بين القبائل . ويقول ابن سلام الجمحي[2] « فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها ، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم ، وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم ، وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسن شعرائهم ، ثم كانت الرواة بعد ، فزادوا في الأشعار التي قيلت»

ومن دوافع الانتحال أن الرواة الأعراب الذين كانوا يفدون الحواضر ليرووا شعر الشعراء المتقدمين من شعراء قبائلهم كانوا إذا ما انتهى شعر الشاعر ربما زادوا على أشعاره طمعاً في الكسب . وربما ربطت بعضهم بالشاعر صلة قرابة ، فهو يحقق مجداً لقبيلته وللشاعر ويجني الربح . يقول ابن سلام[3] : أخبرني أبو عبيدة أن داود بن متمم بن نويرة قدم البصرة . . . فلما نفد شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويضعها لنا ، . . . . فلما توالى ذلك منه علمنا أنه يفتعله» .

وربما عمدوا إلى الشعر ينحلونه الشعراء الجاهليين لتزيين القصص ، وبخاصة قصص الأيام ، فالقصة كانت في الأصل نثراً وشعراً ، وربما سقط هذا الشعر في أثناء تلك الرحلة الشفوية الطويلة التي قطعها الشعر حتى دُوِّن ، فيعمد القصاصون إلى وضع الشعر المناسب للقصة . وأصحاب هذا اللون هم كتاب السير والتاريخ ، وقد نص على ذلك ابن سلام في طبقاته[4] . فابن إسحاق في سيرته أورد شعراً لكل شخصية في سيرته تقريباً ، وعندما سئل عن ذلك قال « لا علم لي بالشعر إنما أوتى به فأحمله[5]» وهذا الشعر يزين القصص ويجعل التاريخ مادة محببة الى نفوس السامعين .

(۱) الحيوان للجاحظ ٤/ ۳۸۱ .
(۲) طبقات فحول الشعراء ۳۹ ـ ٤٠ .
(۳) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ٤٠ .
(٤) نفس المصدر السابق ص ۷ .
(٥) نفس المصدر السابق .

وشبيه بهذا تلك الشخصيات التي حيكت حولها الأساطير وصور البطولة الخارقة فنحلت شعراً كثيراً ، فقد أكثر القصاصون من الشعر المتصل بعنترة والمهلهل وحاتم الطائي . وقد نص بعض القدماء على ذلك فقال صاحب الموشح في خبر يرفعه إلى الأصمعي[1] « وأكثر شعر المهلهل محمول عليه » .

وربما كان الدافع إلى الانتحال إثبات حقيقة متصلة بالأيام أو تلفيقها لتجلب فخراً لفريق أو عاراً لفريق آخر . فقد أورد أبو عبيدة[2] البيتين التاليين ، دلالة على أن الأسود كان رئيس الرباب لعوف بن عطية التيمي :

ما زال حَيْنُكم ونقصُ حُلومكمْ   حتى بَلَوْتُم كيفَ وَقْعُ الأسودِ
وقبائلُ الأحْلافِ وَسْطَ بُيوتِكُمْ   يَعْلونَ هامَكُمْ بكلِّ مُهَنَّدِ[3]

ثم أضاف : وبنو أسد وغطفان تقول هذه مصنوعة لأن الأسود لم يشهد النسار.

ويقول أبو عبيدة في موضع آخر[4] «وقد حملت على بشر بن ابي خازم الأسدي هذه القصيدة ، والذي قالها كعب بن ربيعة الأسدي في الإسلام.

وهُمُ تركوا رئيس بني قُشَيْرٍ   شُرَيْحاً للضباعِ وللنُّسورِ[5]

وذكر أبو الفرج صاحب الأغاني[6] بيتين قال إنهما لرجل من بني بكر بن وائل في الإسلام وهي تنحل للأعشى :

ونحـن قهرنـا تغلبَ ابنـةَ وائلٍ   بقتـلِ كُليبٍ إذْ طَغَـى وتخَيَّلا
أبأنـاهُ بالنـابِ الـذي شقَّ ضَرْعَها   فأصبـحَ موطوءَ الحِمَـى مُتَذَلِّلا

ونُحل عامر بن الطفيل البيت التالي لتزهو عامر على تميم بموت معبد بن زرارة أسيراً هزيلاً ، لأن أخاه رفض دفع الفدية التي طلبتها عامر، ونص أبو الفرج على أن صاحب هذا البيت نافع بن الخنجرة بن الحكيم.

قَضَيْنا الجَوْنَ عن عَبْسٍ وكانت   مَنِيَّةُ مَعْبَدٍ فينا هُزَالا[7]

(١) الموشح - للمرزباني ١٠٦ .   (٢) النقائض ١/ ٢٤٠ .
(٣) الحين : الهلاك ، قبائل الأحلاف : القبائل التي تحالفت ضد عامر ، الأسود : الأسود بن المنذر .
(٤) النقائض ١/ ٢٤١ .
(٥) شريح : شريح بن مالك القشيري كان رأس بني عامر .
(٦) الأغاني/ كتب ١٥/ ٣٨ أباناه : قتلنا بها ، الناب : الناقة وهي التي قتلها كليب ،موطوء الحمى : مستباحه .
(٧) نفس المصدر السابق والعقد الفريد ٥/ ١٤٠ نسبه الى عامر بن الطفيل وانظر ديوان عامر ١٠٣

ونستطيع أن نقول إن العصبية كانت وراء هذه الدوافع ، أو وراء معظمها ، وربما برزت هذه الدوافع عندما أفسح الأمويون للعصبيات للظهور والتناحر مرة ثانية ، كما كانت عليه في الجاهلية . ونشأت عصبية للعرب أمام المد الشعوبي في العصر العباسي .

مظاهر الانتحال في شعر الأيام :

يتخذ الانتحال مظاهر مختلفة في شعر الأيام ، ولعلنا نستطيع تمييز المظاهر التالية

١) يعمدون إلى النص ويضيفون إلى أبياته أبياتاً أخرى رغبة في الكثرة وتوضيح الصورة ، ومثال ما نجده في النقائض ، فقد أورد أبو عبيدة الأبيات التالية لعَوْف بن عطية التيمي :

هلاّ فوارسَ رَحْرَحــانَ هَجَوْتَمُ عُشْراً تَنــاوحُ في سَرارةِ وادِ[١]
لا تأكُلُ الإبــلُ الغِـراثُ نَباتَهُ مـا إنْ يقــومُ عِمادَه بعِمادِ[٢]
هلا كَرَرْتَ على ابــنِ أُمـكَ مَعْبَدٍ والعامــريُّ يقولُــه بصِفادِ[٣]
وذكرتَ من لبــنِ المُحَلَّــقِ شَرْبَةً والخيلُ تَعْــدو بالصَّـعيدِ بَدادِ[٤]

ثم قال : وبقية هذه القصيدة مصنوعة .[٥]

وأورد أبو الفرج في أغانيه أبياتاً لذي الإصبع العدواني يرثي فيها قومه ومطلعها :

وليس المرءُ في شيءٍ مــن الإبـرامِ والنَّقْضِ

وقد اعترف أبو عمرو بن العلاء بالأبيات الثلاثة الأولى وقال إن باقي هذه القصيدة منحول[٦] .

وقد أنكر عامر بن عبد الملك وأخوه مسمع بن عبد الملك ما أضيف إلى قصيدة الحارث بن عُبَاد ولم يصححا منه غير أبيات ثلاثة[٧] .

= (قضينا الجون : وفينا دين الجون عن بني عبس ، أي انتقمنا لبني عبس ، معبد : معبد ابن زرارة ، هزال : ضد السمنة ، الجون : الجون الكندي) .

(١) فوارس رحرحان : فرسان تميم ، تناوح : تتقابل ، سرارة الوادي : اوسطه .
(٢) الغراث : الخميصة البطن ، لا يقوم عماده بعماد : كناية عن ضعفه .
(٣) العامري : الرجل العامري الذي أسره ، صفاد : وثاق .
(٤) المحلق : سمة أبل زرارة .
(٥) النقائض ١/ ٢٢٨ . (٦) الأغاني/ ط كتب ٣/ ١٠٦ .
(٧) الأغاني/ ط كتب ٥/ ٤٧ ـ ٤٨ .

٢) وقد يحمل النص بأكمله على شاعر جاهلي لسبب من الأسباب التي سبق ذكرها ، وأمثلة ذلك كثيرة منها ما رواه أبو عبيدة[١] من أن المفضلية التي يرثى بها السَّفَّاحُ بن بُكَيْر بن معدان اليربوعي يحيى بن شداد أحد بني ثعلبة أحد بني يربوع ، هي لرجل من بني قريع يرثي يحيى ابن مسرة صاحب مصعب بن الزبير.

وورد في النقائض أن القصيدة التي مطلعها[٢]

وهــم تركوا رئيسَ بنـي قُشَيْرٍ شَرِيْحـاً للضبــاعِ وللنُّسورِ

ليست لبشر بن أبي خازم ، وإنما حُمِلت عليه ، وأن الذي قالها كعب بن ربيعة الأسدي في الإسلام .

ومن هذا اللون أيضاً البيتان اللذان نُحلا للأعشى ، وهما لرجل من بني بكر بن وائل قالهما في الإسلام[٣]

٣) ومن مظاهر الانتحال أن يتولى راوية أو مجموعة من الناس عملية التزيد في شعر شاعر جاهلي ، لتحقيق غرض ، ومن أمثلة ذلك ما فعله داود بن متمم بن نويرة حينما قدم البصرة وجعل يزيد في شعر أبيه عندما نفد شعره ، ويحتذي على شعره فيذكر المواضع التي ذكرها متمم ، والوقائع التي شهدها[٤] . ومن هذا القبيل ما ذكره صاحب الموشح من « أن كثيراً من شعر امرىء القيس لصعاليك كانوا معه[٥]» والشعر الذي حُمِّل على المهلهل ، ورَوَته الرواة على أنه له ، على الرغم مما يبدو عليه من التوليد[٦] . ومثله ما نُحِل عنترة بن شداد العبسي .

٤) ومن مظاهر الانتحال أن بعض الشعراء المقلين كانوا يتعرضون لعملية سطو على شعرهم من قبل شعراء قبائلهم المشهورين ، فكانوا يسطون على الشعر وينسبونه لأنفسهم ، فقد حدث ابن سلام عن أبي عبيدة قال : « كان قُراد بن الحَنَش المُرِّي من شعراء غطفان ، وكان قليل الشعر جيده ، وكانت شعراء غطفان تغير على شعره ، فتأخذه وتدَّعيه ، ومنهم زهير بن أبي سلمى»[٧]

---

(١) المفضلية رقم ٩٢ .
(٢) النقائض ١/ ٢٤١ . (٣) الأغاني/ ط كتب ١٥/ ٣٨ .
(٤) طبقات ابن سلام ٤٠ . (٥) الموشح للمرزباني ٣٧ .
(٦) أنظر الموشح للمرزباني ١٠٦ ، والأصمعية رقم ٥٤ ، كتاب بكر وتغلب في مواضع كثيرة .
(٧) الموشح للمرزباني ٥٩ .

اختلاط هذا الشعر بين الشعراء : أسبابه ومظاهره :

قلنا في بداية الحديث عن الانتحال وشعر الأيام ، إن هناك فرقاً بين الشعر الذي يضعه الرواة بعد الاسلام وينسبونه إلى شاعر جاهلي ، وبين الشعر يكون لشاعر جاهلي فينسب إلى شاعر جاهلي آخر ، وأسمينا هذا الأخير اختلاطاً في الشعر ونسبته إلى صاحبه .

ونستطيع أن نقول إن هذه الظاهرة تفوق ظاهرة الانتحال في شعر الأيام ، وسبب وجود هذه الظاهرة هو الحياة الجاهلية نفسها وطبيعتها ، وعدم التدوين لهذا الشعر في حينه ، ولكن لهذه الظاهرة أيضاً ، بالاضافة إلى هذا أسباباً نذكرها فيما يلي :

فمن أسباب الاختلاط **اتحاد القصيدتين في الوزن والقافية** ، مما يلبس الأمر على الرواة عبر الطريق الطويل الذي تقطعه القصيدتان . ومن أمثلة ذلك قصيدتا قيس بن الخطيم والربيع بن أبي الحقيق اليهودي[١] .

ومن أسباب الاختلاط **تشابه الغرض** ، مما يسبب اختلاط القصيدتين ، ومثال ذلك ما رواه صاحب الأغاني من أبيات للخنساء ومطلعها :[٢]

ما بالُ عَيْنِكَ منها الدَّمْعُ مُهْرَاقُ   سُحّاً فلا عازبٌ لا ولا راقُ[٣]

وتنسب هذه الأبيات أيضاً لعَزَّة بنت مكدّم[٤] . ومن هذا النوع من الاختلاط بعض أبيات بشر بن أبي خازم الأسدي التي تنسب مشهورة إلى أوس بن حَجَر لوحدة الموضوع والروي[٥] .

وقد يقع الاختلاط بسبب **تشابه الأسماء** مما يوقع الرواة أو النساخ في اللّبس فتُمَاضِرُ بنت الشريد السلمية زوج زهير بن جذيمة رثت ابنها مالك بن زهير ، والخنساء تماضر رثت أخاها صخراً ، فتشابه الغرض وتشابه الاسمان ، فحدث الاختلاط :

كأن العينَ خالطَها قَذاها   لحزن واقعٍ أفنى كَراها[٦]

فروتها بعض المصادر على أنها للخنساء وروتها أخرى على أنها لأم مالك بن زهير .

(١) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٦٨ ينسبها للربيع ، والديوان ينسبها لقيس ص ٩٦ .
(٢) الأغاني/ ط كتب ١٦/ ٢٩ .
(٣) مهراق : نازل منها بغزارة ، سحا : يسيل متتابعا . عازب : بعيد . راق: صانع الرقيه.
(٤) الأغاني/ ثقافة ١٦/ ٢٩ .
(٥) ديوان بشر بن ابي حازم ١٢٣ الأبيات ١٦ - ٢٩ .
(٦) رياض الأدب - شيخو ٤٣ .

وربما وقع الأختلاط بسبب قرابة بين الشاعرين ، فمتمم بن نُوَيْرة ومالك بن نُوَيْرة أخوان ، فالأبيات التالية اختلف في تحديد نسبتها ، فبعض المصادر نسبتها إلى متمم والأخرى نسبتها إلى مالك بن نويرة :

ونحنُ عَقَرْنا مُهْرَ قابوسَ بعدَما رأى القومُ منه الموتَ والخيلُ تُلْحَبُ[1]

عليه دِلاصٌ ذاتُ نَسْجٍ وسَيْفُهُ جُزازٌ من الجُنْثَى أبيضُ مِقْضَبُ

طلبنا بها إنّا مداريكُ قَبْلَها إذا طُلِبَ الشأْوُ البعيدُ المُغَرِّبُ[2]

وأورد أبو تمام الأبيات التالية في حماسته على أنها ليزيد بن حِمَّان السكوني حليف بني شيبان يمدح بني شيبان ومطلعها :

إني حمِدْتُ بني شيبان إذ خَمَدَتْ نيرانُ قومي وفيهم شُبَّتِ النارُ[3]

وقال التبريزي[4] في شرحه للحماسة إن هذه الأبيات لابنه عدي الذي كان مقيماً في بني شيبان .

ويختلف الرواة والمصادر في نسبة الأبيات التالية في قتل قرواش العبسي التي مطلعها[5]

ومن يك سائلاً عنّي فإنّي وجِرْوَةَ لا تَرُودُ ولا تُعارُ[6]

فقد رويت لعنترة كما رويت لشدّاد بن معاوية ، والد عنترة .

ومما يزيد الأمر التباساً تشابه الغرض والصلة بين القائلين ، فمعجم البكري[7] يورد الأبيات التالية التي قيلت في يوم تَرج ومطلعها :

وكان إذا ما أورد الخيلَ بيتةً إلى هَضْبِ اشراكٍ أقام فألجَمَا

---

(١) قابوس : ابن النعمان بن المنذر ، تلحب : تضرب بالسياط ، دلاص : درع . جزاز : مقطوع من . الجنثى : الحداد . مقضب : قاطع . مداريك : ندرك طلبنا . الشأو : الشوط ، ورجل بعيد الشأو بعيد الهمة . المغرب : المعمن في السفر بعيداً .

(٢) النقائض ١/ ٦٩ ، الكامل لابن الأثير ٦٥٠ ينسبانها لمتمم ، والعقد الفريد ٥/ ٢٣٤ ينسبها لمالك ابن نويرة .

(٣) حماسة أبي تمام شرح المرزوقي ١/ ٣٠٠ .

(٤) حماسة أبي تمام شرح التبريزي ١/ ١٦٤ .

(٥) ديوان عنترة ٧٨ .

(٦) جروة : فرس شداد . ترود : تجول .

(٧) معجم البكري ١/ ٢٩٣ .

ويذكر أبو عبيدة ان هذا الشعر لرَيْطَة بنت عباس بن الاصمّ الرِّعْلي ترثى به أباها الذي قتلته خَثْعم ، فأدرك بثأرها عباس بن مِرْداس ، كما أن هذا الشعر يروى للخنساء ترثى به أخاها .

وآخر هذه الأسباب وأكثرها حدوثاً في الشعر هو أن هذا الاختلاط يقع نتيجة سهو يقع فيه الرواة والنساخ ، وبعضهم ، أبي النساخ ، لا يدققون في هذه الأعلام التي قالت الشعر ، وبعضهم يلتبس عليه الخط الذي ينسخ منه ، كما أن بعض الرواة قد يقعون في الخطأ فيخلطون في نسبتهم للشعر لأحد الأسباب التي سبق بيانها .

مظاهر الاختلاط في هذا الشعر :

أكثر الاختلاط وقع في نسبة القطعة أو القصيدة أو البيت لأكثر من شاعر ، فقد روى أبو الفرج الأبيات التالية في رثاء ربيعة بن مكدّم الذي قتل يوم الكَديد .

ولأصرِفَـنّ سوى حُذَيْفَةَ مِدْحَتِي ... لِفَتَى الشتـاء وفـارسِ الأجرافِ
مأوَى الضَّريكِ إذا الرياحُ تناوحتْ ... ضخمِ الدَّسيعـةِ مُخْلِفٍ مِتْلافِ[١]

..... الخ الأبيات ، وينسبها الى كل من : حسان بن ثابت ، ورجل من بني الحارث ابن الخزرج وقيس بن الخطيم[٢] .

وفي يوم الكلاب الثاني قيلت هذه الأبيات عندما أوشكت جموع اليمن أن تسـوق نعم تميم :

في كلِّ عامٍ نَعَـمٌ تحوونَهْ ... يُلْقِحُـهُ قومٌ وتَنْتِجونَهْ[٣]
أربابُـه نوكسى فلا يحمونَهْ ... ولا يُلاقـوَن طِعانـاً دونَهْ[٤]
أنعـمَ الأبنـاءِ تحْسَبونَهْ ... هيهـاتِ هيهـاتِ لما تَرْجُونَهْ[٥]

---

(١) الضريك : الفقير البائس ، تناوحت : أشتد هبوبها ، الدسيعة : الجفنة الواسعة والمائدة الكريمة .
(٢) الأغاني/ ثقافة ١٦/ ٢٧ .
(٣) تحوونه : تستولون عليه . يلحقه : يتعهده ، تنتجونه : تأخذونه .
(٤) أربابه : أصحابه ، نوكى : حمقى .
(٥) الأبناء كل بني سعد بن زيد مناة إلاّ بني كعب بن سعد .

وقد نسبها أبو عبيدة إلى رجل من ضبة[1] ، بينما نسبها أبن الأثير إلى قيس بن عاصم[2] .

وأمثلة هذا النوع من الاختلاط كثيرة لا نستطيع الاسترسال في عرضها لكثرتها .

ومن مظاهر هذا الاختلاط أن يشترك النصان في بعض الأبيات ، ومثال ذلك ما نراه في نصين ، الأول لعنترة يرثى مالك بن زهير[3] ، والثاني لابنة مالك بن بدر الفزاري فقد اشترك النصان في البيتين التاليين :

فلله عينا مَنْ رأى مثلَ مالكٍ ... عقيرةَ قومٍ أنْ جَرَى فَرسانِ[4]

فليتهما لم يشربا قطّ قطرةً ... وليتهما لم يُرْسَلا لرهانِ

ولعل تشابه المرثيين في الأسم هو الذي ساعد على الاختلاط ، بالاضافة إلى أن النصين قيلا في حرب واحدة هي حرب داحس والغبراء ، وأسهم في ذلك تشابه القافية والوزن .

وفي ديوان بشر بن أبي خازم نُسِبَ بيتان من بائية له إلى أوس بن حَجَر ، والبيتان هما :

إذا ما عَلَـوْا قالـوا : أبونـا وأمنا ... وليس لهـم عالـين أم ولا أب

لهـم ظُعُنـاتٌ يهتـدينَ برايةٍ ... كما يستقـلُّ الطائـرُ المُتَقَلِّبُ[6]

وقد ذكرهما صاحب الصناعتين منسوبين إلى أوس بن حَجَر التميمي[7] ، وتكرر هذا في قصيدة أخرى لبشر ، وهي تلك التي يرثى بها أخاه سُمَيْراً الـذي قتلـه شراحيل بن الأصهب الجعفي[8] ، حيث تداخلت ستة أبيات مشهورة النسبة إلى أوس بن حَجَر مع قصيدة بشر . وقد حدث هذا لوحدة الموضوع والروي في النصين .

وقد يقول شاعران شعراً في يوم واحد فيختلط الأمر على الرواية ، كما حدث في يوم عكاظ ،

---

(١) النقائض ١/ ١٥٠ .
(٢) الكامل لأبن الأثير ١/ ٦٢٤ .
(٣) ديوان عنترة ١٧٦ ، العقد الفريد ٥/ ١٥٢ ، أمثال الضبي ٣٣ .
(٤) أمثال الضبي ٣٣ .
(٥) العقيرة : الرجل الشريف يقتل ، فرسان : داحس والغبراء .
(٦) ديوان بشر بن أبي خازم ١١ .
(٧) كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ٣١٥ .
(٨) ديوان بشر ١٢٩ .

فالمفضل الضبي يروي الأبيات التالية التي مطلعها :

فلما دَنَوْنا لِلقِبابِ وأهلِها أُتيحَ لنا ذئبٌ معَ الليلِ فاجرُ[1]

لعوف بن الأحوص ، بينما يقول الأنباري إنها لخِداش بن زهير[2] .

وفي يوم الفِجار الأول حينما ضرب رجلٌ رِجْلَ بَدْر بن مَعْشر الكنانيّ وأنشد :

نحن بنو دَهْمانَ ذو التَّغَطْرُفِ بحرٌ لبحرٍ زاخرٍ لم يُنْزَفِ
نبني على الأحياءِ بالمُعَرَّفِ[3]

واختلف في نسبتها فبعضهم[4] نسبها للأحمر بن مازن ، والبعض الآخر[5] نسبها لرجل من هوازن .

ولعل من أكثر مظاهر الاختلاط في شعر الأيام القصيدة التي رواها أبو الفرج في أغانيه ، وأبو تمام في حماسته في رثاء ربيعة بن مكدَّم فارس كنانة ، الذي قتلته سُلَيْم في يوم الكَديد . فقد أوردها الأغاني في موضعين في الموضع الأول ذكر منها ثمانية أبيات ، أولها :[6]

نَفَرَتْ قَلُوصي عن حجارةِ حَرَّةٍ بُنِيَتْ على طَلْقِ اليَدَيْنِ وهوبِ[7]

ونسب القصيدة إلى الراوية أبي عبيدة ، وإن أبا عبيدة قال عن الشعر إنه لضرار بن الخطاب بن مرداس أحد بني محارب بن فهر . وقال الأثرم نقلاً عن أبي عبيدة ينسب أحد أبياتها إلى مكرّز بن حَفْص بن الأَخْيَف أحد بني عامر بن لؤي ، من قريش الظواهر . وذكرها أبو الفرج ، ذكر بعضاً منها ، في موضع آخر فنسبها إلى حسان بن ثابت ، وذكر منها أبياتاً ثلاثة ، أولها :

---

(١) المفضليات ـ المفضلية رقم ١٠٨ .

(٢) شرح المفضليات ـ مفضلية رقم ١٠٨ .

(٣) بنودهمان : هم بنودهمان بن نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن ، التغطرف : الأختيال في المشي . لم ينزف : لم ينفد ، المعرف : الوقف بعرفات .

(٤) العقد الفريد ٥/ ٢٥١ .

(٥) الأغاني/ ثقافة ٢٠/ ٦١ .

(٦) الأغاني/ ثقافة ١٦/ ٢٦ .

(٧) القلوص : الناقة الفتية ، الحرة : الأرض ذات الحجارة ، طلق : كريم .

نَفَـرَتْ قلـوصِي من حجـارة حرةٍ   بُنِيَتْ على طلـق اليدين وهوب[1]

أما أبو تمام فقد رواها على أنها لحَفْص بن الأحنف الكناني وذكر منها أبياتاً أربعة أولها : [2]

لا يبعـدنَّ ربيعـةُ بنُ مُكَدَّمٍ   وسقـى الغـواديَ قَبْـرَهُ بذَنوب[3]

وينسبها التبريزي إلى حسان بن ثابت[4]

لكن كل هذه الأمثلة التي عرضناها وغيرها لا تُنْقِص من قيمة هذا الشعر الذي ندرسه لندرتها إذا قيست بحجم الشعر الذي يدرس . وقد لاحظنا أن أكثر هذا التداخل يكون اختلافاً على نسبته إلى صاحبه ، وأن بعض هذا الشعر لم يغير موضوعه أو زمنه ذلك الخلط في نسبته إلى قائله .

ضياع شعر الأيام

سبق أن ألمحنا إلى أن الشعر الجاهلي قد سقط منه الكثير في أثناء رحلته الطويلة التي قطعها قبل أن يستقر بين أيدي الرواة العلماء الذين عنوا به ، ودونوه . وسنحاول الآن أن نَدلل على هذا الضياع فيما يتعلق بشعر الأيام بأدلة استنباطية وأدلة صريحة .

فأما **الأدلة الاستنباطية فهي** : أننا نسمع ونقرأ في المصادر عن كثير من الأيام ولا نجد لها شعراً ، وهذا مخالف لما يعرف عن العرب من أنها خلدت مآثرها ووقائعها ، ومفاخرها بالشعر ، فأين تلك الأشعار ؟

وإذا تفحصنا تلك الأشعار التي وصلتنا نجد أنها ليست كاملة ، فبعض المقطوعات نرى أن أول بيت فيها لا يشير إلى بداية طبيعية ، وإنما يشير إلى أنه مبتسر من قصيدة ضاعت ولم يبق إلّا هذه الأبيات القليلة . يقول ربيعة بن مَقْروم الضبي في يوم بُزاخة مفتخراً ، ومبتدئاً بهـذا البيت :

وآل مُزَيْقِياءَ وقـد تَداعتْ   حلائبُهم لنا حتى فَرينا[5]

(1) الأغاني/ ثقافة ١٦/ ٣١ .
(2) الحماسة شرح المرزوقي ٢/ ٩٠٥ .
(3) ربيعة بن مكدم : فارس بني فراس من كنانة ، ذنوب : دلو عظيمة .
(4) الحماسة شرح التبريزي ١/ ٥٢٧ .
(5) النقائض ١/ ١٩٦ .

ويقول سُحَيْم بن وَثِيل الرياحي معيراً طارقاً اليربوعي بقتله جاريه الغسانيين في يوم غَوْل الثاني . ولا نجد من هذا الشعر إلاّ بيتاً واحداً هو :

لقـد كنـتَ جارَ ابنـى هُجَيْمَةَ قبلها ... فلم تُغْنِ شيئاً غيرَ قَتْلِ المُجاوِرِ[1]

ولا نستطيع أن نتصور أن الشاعر قد أفرغ ما كان ينوي أن يهاجم به أولئك الذين غدروا ، ببيت من الشعر .

وورود النص في مصادره المختلفة بأعداد مختلفة يشير إلى أن هذه المصادر نقلت النص عن مصادر ضلّت الطريق إلينا ، وأن النص بكامله لم يصلنا منه إلاّ تلك الأبيات المنثورة في تلك المصادر ، مع أنه يمكن أن تكون المصادر قد تعمدت إيراد بعض أبيات النص لأن طبيعة المصدر لا تهتم بالنص الشعري كاملاً ، فكتب التاريخ تعتني بالشعر لغاية غير تلك الغاية التي تهدف إليها التي يهمها الشعر للاستشهاد على قاعدة أو قصة . والمصدر الوحيد للنص كاملاً هو الدواوين، ولكننا مع ذلك نجد أن هذه الدواوين تنقل النص بروايات مختلفة ، حسب الروايات التي تتيسر لها .

والأعداد الكثيرة للدواوين الشعرية التي صنعها العلماء في القرنين الثالث والرابع ، والتي تضمنها كتاب الفهرست ، ومعجم الأدباء ، وكشف الظنون ، وغيرها من المؤلفات التي حرصت على ذكر تلك الدواوين والذين صنعوها ، أين هي ؟ إننا لا نملك منها إلاّ القليل . وحتى هذا القليل الذي وصلنا فإننا لا نطمئن إلى أنه وصل إلينا سالماً بل نميل إلى أن بعضه قد سقط منه الكثير . وشاهدنا على ذلك تلك الكثرة من المقطوعات التي تزخر بها الدواوين ، وذلك التداخل في المقطوعات بين الدواوين .

وأما النصوص الصريحة التي تشير إلى ضياع قسم كبير من شعر الأيام فتتمثل فيا سنعرضه :

١) جاء في سيرة ابن هشام ما يلي : «قال لَبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب .

أبلـغْ ، إنْ عَرَضْـتَ ، بنـى كِلابٍ ... وعامـرَ والخطـوبُ لهـا موالي
وبلِّـغْ إن عَرَضْـتَ ، بنـى نُمَيْرٍ ... وأخْـوالَ القتيلِ بنـى هِلالِ
بأنَّ الوافـدَ الرَّحَّـالَ أمسَى ... مُقيماً عنـد تَيْمَـنَ ذي طِلالِ

(١) العقد الفريد ٥/ ٢٣٩

ثم يعقب : وهذه الأبيات من أبيات له فيا ذكر ابن هشام[1]

٢) وجاء في طبقات ابن سلام»[2] ذكرنا العرب وأشعارها ، والمشهورين المعروفين من شعرائها وفرسانها وأشرافها وأيامها ، **إذ كان لا يُحاط بشعر قبيلة واحدة من قبائل العرب** ، وكذلك فرسانها وساداتها وأيامها .

٣) ويقول في موضع آخر في خبر يرويه ابن عون عن ابن سيرين عن عمر بن الخطاب[3]« كان الشعر علم قوم لم يكن لهم أصح منه ، فجاء الإسلام ... فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر ... **فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عليهم منه كثير**»

٤) وجاء في موضع ثالث من نفس المصدر في خبر مروي عن أبي عمرو بن العلاء[4] « **ما انتهى اليكم مما قالت العرب إلاّ أقله** ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير»

٥) ويقول في موضع آخر[5] « ومما يدل على ذهاب الشعر وسقوطه ... قلة ما بقي بأيدي الرواة المصححين لطرفة وعبيد»

٦) جاء في « الشعر والشعراء» لابن قتيبة[6]قوله : «الشعراء المعروفون بالشعر عند قبائلهم أكثر من أن يحيط بهم محيط أو يقف من وراء عددهم واقف ، ولو أنفد عمره في التنقير عنهم . ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلاّ عرفه ولا قصيدة إلاّ رواها» .

ثم أورد خبراً عن الأصمعي مضمونه أن فتية جاؤا إلى أبي ضَمْضَم ، وقد شاخ فأنشدهم لمائة شاعر اسمهم عمرو « .... **هذا إلى من سقط شعره من شعراء القبائل ولم يحمله إلينا العلماء والنقلة**»

٧) جاء في مجمع الأمثال للميداني[7] في حديثه عن يوم البَيْداء «**ولهم فيه أشعار كثيرة**» ولكن أين هذه الأشعار الكثيرة؟ لم يصلنا من هذا اليوم إلاّ أسمه . اما **أسباب ضياع هذا الشعر** فيمكن تلخيصها في أربعة أسباب : عوادي الزمن والاضطرابات السياسية ، ونهب المراكز

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ١٨٦ (٢) طبقات ابن سلام ٥ .
(٣) نفس المصدر السابق ٢٢ . (٤) نفس المصدر السابق ٢٣ .
(٥) نفس المصدر السابق ١١٦ . (٦) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ٦٠ .
(٧) مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٥٢٨ .

الحضارية على أيدي المغول والغرب ، وأهمها تلك الرحلة الطويلة التي قطعها الشعر منذ الجاهلية حتى عصر التدوين .

وعلى الرغم مما أصاب الشعر الجاهلي من عوامل الضياع إلاّ أن الذي وصلنا منه كثير ، وكانت عوامل تعمل على صونه ، أو صون ما يمكن صيانته ، وأهم هذه العوامل :

العصبية فقد عنيت بالشعر وحفظته لنا ، وحافظت كل قبيلة على شعرها واعتبر الفرد منهم حفظ هذا الشعر والمحافظة عليه واجباً مقدساً ، ولكن هذه العصبية عبثت به كما عنيت به أيضاً[١] «وقد اهتمت القبائل بحفظ شعر شعرائها الذي يصور مناقبهـا ومثالب خصومهـا ، كما عنيت بالشعر الذي يصور وقائعها وأيامها فهو تاريخها .

ولعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا أن شعر الأيام قد سلم من الضياع أكثر من أي لون آخر من ألوان الشعر الجاهلي لحرص القبائل على روايته وحفظه ولأنه سجل حياتهم في الجاهلية ، ويجب ، كما يقول الدكتور شوقي ضيف « أن لا نبالغ مبالغة أبي عمرو بن العَلاء ، فقد بقي منه كثير ألفت فيه مجلدات ضخام»[٢] .

توثيق شعر الأيام :

وأخيراً ، وبعد أن عرضنا لمصادر شعر الأيام ، ولرواته ، وعرضنا القضية الانتحال في شعر الأيام ، ودوافع الانتحال في هذا الشعر ، وفرّقنا بين الانتحال والاختلاط ، ثم عرضنا لضياع قسم كبير من هذا الشعر . بعد كل هذا نود أن نخرج بما بقي لنا من هذا الشعر ، وكيف نوثق هذا الركام الذي وصلنا ؟ وإلى أي مدى نستطيع أن نثق بهذا الشعر أو نشك فيه ؟ ومتى بدأ العلماء يهتمون بتوثيق هذا الشعر ؟ وما المنهج الذي يمكن أن نضعه لدراسة هذا الشعر وتوثيقه ، وإزالة كل ما علق به من تهم وشبهات .

وأول من عرض لقضية توثيق هذا الشعر وتمييز غثه من سمينه القدماء من علمائنا ، والنصوص التالية تلقى الضوء على منهجهم ، نعرضها وبعد ذلك نحاول استخلاص منهج متكامل .

١) يقول ابن سلام[٣] «وفي الشعر المسموع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه ولا حجة في

---

(١) تاريخ الشعر والعربي ـ نجيب البهيتي ٥١ .
(٢) العصر الجاهلي ـ شوقي ضيف ١٨٨ .
(٣) طبقات فحول الشعراء ٥ ـ ٦ .

عربيته، ولا أدب يستفاد . . . إلى أن يقول» **وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب، لم يأخذوه عن أهل البادية، ولم يعرضوه على العلماء، وليس لأحد إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه ـ أن يقبل من صحيفة، ولا يروي عن صحفي**. وقد اختلف العلماء في بعض الشعر، كما اختلف في بعض الأشياء، أما ما اتفقوا عليه، **فليس لأحد أن يخرج منه**»

٢) ويقول ابن سلام[١] «قال خلاّد بن يزيد الباهلي لخلف بن حيّان الأحمر» بأي شيء ترد هذه الأشعار التي تروي؟ قال له: هل فيها ما تعلم أنت أنه مصنوع لا خير فيه؟ قال: نعم، قال: أفتعلم في الناس من هو أعلم بالشعر منك؟ قال: نعم، قال: **فلا تنكر أن يعلموا من ذلك أكثر مما تعلمه أنت.**

٣ ـ وقد روى ابن سلام البيت التالي لعباس بن مرداس :

وفيك بنو عدنانَ الـذين تلعَّبوا ... بمذحـج حتـى طُرِّدوا كلَّ مطردِ

ويعقب عليه ابن سلام أو راوية كتاب ابن سلام « **والبيت مريب عند أبي عبدالله** »[٢]

٤ ـ ورفض كل من ابن سلام والأصمعي الشعر الذي كانت الرواة قد نحلته ونسبوه إلى الجاهليين ، ونعني الرواة الوضاعين أمثال ابن إسحاق وحماد الرواية إلا إذا كان يأتيهم من مصادر موثقة . [٣]

٥ ـ وجاء في موضع آخر من الكتاب بعد الحديث عن تزيد القبائل من أشعار في الوقائع . . . وتزيّد الرواة قال[٤] « **وليس يُشْكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما صنعوا ، ولا ما صنع المولدون ، وإنما عَضَل بهم أن يقول الرجل من أهل البادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم ، فيشكل ذلك بعض الإشكال . . .**

ويذكر بعد ذلك قصة مروية عن أبي عبيدة وتتعلق بأبي عبيدة وداود بن متمم بن نويرة . . .

---

(١) نفس المصدر السابق ٨ .
(٢) طبقات فحول الشعراء ١١
(٣) نفس المصدر السابق
(٤) طبقات ابن سلام ٣٩

٦ - وقال ابن سلام في حديث يرويه عن أبي عبيدة ، ومضمون الخبر أن داود بن متمم بن نويرة وفد على البصرة فأكرمه أبو عبيدة ، وقضى له حاجاته ، وأخذ ينشدهم شعر أبيه [١] « فلما نفد شعر أبيه جعل يحتذي على كلامه فيذكر المواضع التي شهدها ، فلما توالى ذلك منه علمنا أنه يفتعله » .

٧ - ويقول ابن سلام عن عدي بن زيد [٢] « كان يسكن الحيرة ومراكز الريف ، **فلان لسانه وسهل منطقه ، فحمل عليه شيء كثير ، وتخليصه شديد** »

٨ - وذكر ابن هشام في شرحه لمنهج الكتاب [٣] « ... وتارك بعض ما ذكره ابن اسحاق في هذا الكتاب ما ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم وآله فيه ذكر ... **وأشعار ذكرها لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها ...** »

٩ - وأورد ابن قتيبة [٤] الأبيات التالية للأعشى :

إن محلاً وإن مرتحلا وإن في السفر ما مضى مهملا
استأثر الله بالوفاء وبالحمد وولى الملامة الرجُلا
والأرضُ حمالةٌ لما حمّل الله وما إن تَرُدُّ ما فعلا
يوماً تراها كشبه أرديةِ العَصْب ويوماً أديمها نَغِلا

ويعقب ابن قتيبة بعد ذلك قائلاً : « **وهذا الشعر منحول ، ولا أعلم فيه شيئاً يستحسن إلا قوله :**

يا خيرَ مَنْ يركب المطيّ ولا يشرب كأساً بكف من بخلا

١٠ - وأورد في موضع آخر أبياتاً للبيد بن ربيعة مطلعها : [١]

ألا كلُّ شيء ماخلا الله باطلُ وكلُّ نعيمٍ ، لا محالةَ زائلُ

---

(١) طبقات ابن سلام ٤٠
(٢) طبقات ابن سلام ١١٧
(٣) السيرة النبوية - تحقيق مصطفى السقا ورفاقه ١/ ٤٠
(٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ١٤

وآخر بيت فيها :

وكلُّ امــرىءٍ يومــاً سيعلــمُ سَعْيَهُ إذا كُشِفَــتْ عنــد الإلــهِ المَحاصِلُ

ثم يضيف ابن قتيبة قائلاً : « وهذا البيت الآخر يدل على أنه قيل في الإسلام ، وهو شبيه بقول الله سبحانه وتعالى « وحُصِّل ما في الصدور » أو كان لبيد قبل إسلامه يؤمن بالبعث والحساب ، ولعل البيت منحول » .

وحسبنا هذه الأمثلة ، ولو استرسلنا لطال بنا الحديث ، وسنحاول أن نتفحص هذه الأمثلة لاستخلاص بعض ملامح منهج في توثيق النص .

١ ـ وأول ما يطالعنا من منهجهم في توثيق الشعر هو أنهم كانوا يقبلون ما اتفق العلماء عليه ، فإذا ما اتفقوا عليه ، فليس لأحد أن يخرج منه « وهذا أوثق الدرجات عندهم ، أن تجمع الرواة عليه .

٢ ـ فإذا ما تعذر إجماع الرواة عليه فإنهم يرفضون شعراً يأتيهم من رواة غير موثقين كابن إسحاق وحماد ، إلا أن يأتيهم من مصادر موثقة ، أي أن القدماء لم يكونوا يرفضون الشعر من الراوي الذي عرف عنه الكذب لمجرد صدوره عنه ، بل كانوا يحاولون البحث عنه في المصادر الوثيقة . فليس الأمر سهلاً أن نرفض رواية الراوية للشعر بأكملها لمجرد انه أخطأ مرة فكذب ، أو زلت به قدمه ، إنما نقف منه موقف المتشكك الذي يحاول الوصول إلى اليقين . وهذا ما فعله القدماء ، يتركون الشعر الذي يذكره الرواة غير الثقات إذا لم يروا أحدا من أهل العلم بالشعر يعرفها ، ولم يجدوها في مصدر موثق . فسبيلهم لتوثيق الشعر إذن إما أن يأتيهم من مصادر موثقة ، وإما أن يُروى عن أحد من أهل العلم أنه يعرفه .

٣ ـ ولم يكن القدماء ليرفضوا الشعر لمجرد أنهم لم يسمعوه ، أو أنهم يعتقدون أن فيه مصنوعا لا خير فيه ، بل يخضعونه للنقد والتمحيص ، فربما كان الآخرون يعرفون الرواية بذكر شعر دليلاً على انتحالها لهذا الشعر ، بل ربما كانت في حوزتها مصادر لهـذا الشعـر لم تتيسر للمجموعة الأخرى . ومن هنا نجد للديوان الواحد للشاعر الواحد روايات بصرية ، وأخرى كوفية وبينها تباين ، مما يوحي للوهلة الأولى بأن بعض هذه الروايات ليست صحيحة ، ولكن القول الفصل في ذلك كله لإخضاع هذه الروايات للنقد من قبل أهل العلم ومناقشة رواياتها وأسانيدها .

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ١٩٩

٤ - ولم يكن القدماء ليقنعوا ويرضوا بأخذ الشعر من بطون الكتب والصحف ، ولم يكتفوا بأن يذكر الراوية أنه أخذ هذا الشعر من كتاب كذا أو من صحيفة كذا ، بل لقد عدّوا ذلك عيباً ، **ولا يعني ذلك أنهم يرفضون الشعر المدون في الكتب بل اشترطوا شرطين آخرين ليصلوا إلى شعر موثق ، أولهما : أنه يجب أخذ هذا الشعر عن أهل البادية** ، أصحاب هذا الشعر ورواته ، وأصحاب اللسان القويم الذي لم تداخله العجمة وأصحاب الذوق الفطري السليم الذي يتمثل النص ويستطيع وضعه في إطاره الصحيح .

وثانيهما : أن هذا الشعر المدون في الكتب ينبغي عرضه على العلماء ليقولوا رأيهم فيه ويصححوه إذا وُجد فيه تحريف أو تصحيف .

٥ - ولم يكن القدماء ليقنعوا بالشعر لمجرد وثوقهم من روايته فحسب ، بل كانوا يخضعونه لمقياس تاريخي بالنظر في مضمونه ، هل ما فيه لا يتعارض مع ما كان الجاهليون يعرفونه ؟ وهل فيه بعض الإشارات الإسلامية ؟ وهل ذكر أحداثاً لم يشهدها العصر الجاهلي ؟ إلى غير ذلك من العلامات التي كانت تنير لهم الطريق للحكم على هذا الشعر ، فقد شك ابن قتيبة [١] في البيت الأخير من أبيات أوردها للبيد ، لأنه لمح فيه تشابهاً بينه وبين مضمون الآية الكريمة « وحصل ما في الصدور » . كما رفض الجاحظ [٢] توثيق أبيات رواها الرواة على أنها جاهلية ، لأنها ذكرت إنقضاض الكواكب ، والجاحظ يرى أن انقضاض الكواكب كان معروفاً في الجاهلية قبيل مولد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وينكر أن يكون معروفاً في الجاهلية البعيدة عن مولد الرسول الكريم .

٦ - وآخر مقاييس القدماء ، مما كانوا يحكمون به على الشعر الجاهلي ، هو المقياس الفني ، وقد كانوا يملكون الذوق الشعري السليم ، كما كانوا متمكنين من لغتهم ، حافظين للشعر العربي الذي سبقهم ، كل ذلك أكسبهم ملكة النقد الفطري السليم ، يقرأ الواحد منهم الأبيات من الشعر أو يقرأ عليه فيحكم عليها حكماً مقارباً للصواب .

والإشارات التي تُطالعنا في هذا المجال كثيرة ، منها ما رواه ابن سلام عن أبي عبيدة عندما بدأ داود بن متمم بن نويرة يروي لهم شعر أبيه وعندما نفد شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويضعها لهم ، وقد عرفوا ذلك من معرفتهم لشعر متمم وأسلوبه وصوره التي يستخدمها وطابعه العام ، فإذا هم أمام كلام دون كلام متمم ، عرفوا على الرغم من أنه كان يحتذي على كلامه

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ١٤
(٢) الحيوان للجاحظ ٦/ ٢٧٢ - ٢٧٦

مقلداً، فيذكر المواضع التي ذكرها والده والوقائع التي شهدها، فلما علموا ذلك منه أدركوا انه يفتعله[1] فأولئك العلماء إذن ، لم يكونوا بغافلين عما يفتعله بعض الرواة من الشعر ولديهم أدوات النقد، وملكة تذوق الشعر ومعرفة الجاهلي منه من المولَّد.

وهم يذكرون أيضاً أن الشاعر الذي يسكن المراكز الحضرية يلين لسانه ويسهل منطقه ، فيقترب بذلك من شعر المولدين ، فيسهل عليه الإنتحال ، ويصعب تنقية شعره وتخليصه . وهذا ما حدث لعدي بن زيد فقد « كان يسكن الحيرة ومراكز الريف فلان لسانه وسهل منطقه ، فحمل عليه شيء كثير ، وتخليصه شديد »[2] وهذا فهم واضح للغة الشعر في العصر الجاهلي الممعن في البداوة والفطرة ، له لسانه الخاص ومنطقه الخاص ، وطابعه الخاص ، وصوره الخاصة ، وتصوره الخاص ، فيسهل كل هذا عملية مقارنته بأي شعر مولد ، فينكشف الشعر المنحول ، أما أولئك الشعراء أمثال عدي فليس يتعذر تخليص شعرهم وتنقيته ولكنه صعب على النقاد العلماء .

ومن البادية جاء الخطر يحدق بالشعر الجاهلي لأن الرواة من الأعراب الذين طبعوا بطابعها ، قادرون على نحل الشعر لشعرائهم الأقدمين أو آبائهم ، دون أن يفطن إليهم غير العالم ، ويحتاج العالم إلى أناة وروية لكشف زيف هذا الشعر ، ونحن لم نفقد مثل أولئك العلماء الذين وقفوا لهم بالمرصاد يكشفون زيفهم أمثال أبي عمرو بن العلاء والأصمعي والمفضل وأبي عبيدة وابن سلام ، ولعل حادثة أبي عبيدة مع داود بن متمم بن نويره تعطينا الدليل على ذلك . فلم يكن يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما صنعوا ، ولا ما صنع المولدون فذلك كله يمكن كشفه وبيان زيفه للناس ، وتطهير الشعر العربي منه ، ليعود إلى نقائه وصفائه وإنما عضل بهم وأشكل عليهم بعض الشيء أن يقول الرجل من أهل البادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم[3]

وكان علماؤنا الأقدمون يرفضون النص أو البيت أو المقطوعة إذا أحسوا أي خلل فيها يجعلهم يشكون في أمر صحتها ، وكما قلنا لهم حاستهم المتميزة وقدرتهم على وضع أصابعهم على مواطن الخلل والضعف في النص الشعري فور تأملهم له . فالأصمعي يورد أبيات المهلهل في أصمعياته ثم يقول إنها مولدة[4]

---

(١) طبقات ابن سلام ٤٠
(٢) نفس المصدر السابق ١١٧
(٣) طبقات ابن سلام ٣٩
(٤) الأصمعية رقم ٥٤

وهكذا نخلص إلى أن علماء الطبقة الأولى والطبقة الثانية كانوا بالمرصاد للرواة الذين ينحلون الشعر ، شعراء الجاهلية ، كما كانوا بالمرصاد للأعراب وأبناء الشعراء الذين يتزيدون في شعر شعراء قبائلهم . وأن أولئك العلماء كانوا يخضعون النص لنقد خارجي يتناول الراوية وجو النص وإطاره العام . كما يخضعونه لنقد داخلي يتناولون فيه أفكار النص وملاءمتها لذلك العصر ، وألفاظه وصوره وروحه . وكانوا يستندون في عَملهم هذا إلى تتابع رواية النص الشعري عن رواة ثقات ، وسماعه مشافهة من الأعراب بالإضافة إلى وروده في مصادر وثيقة .

وسار الشعر الجاهلي عامة وشعر الأيام خاصة عبر قرون طويلة ، تناوله العلماء والشعراء بالنسخ والنقل والاقتباس والدراسة والشرح ، كما تناوله بعض العلماء بالجمع في دواوين شعرية ومجموعات شعرية ، واستمرت مسيرته إلى يوم ظهور المطابع قرابة عشرة قرون من الزمن ، لحق الشعر فيها ما لحقه من الآفات ، وأصابه التحريف والتصحيف .

وأول ما أصاب هذا الشعر **فقدان الأصول المتقنة** التي أعانت على استقرار الشعر في الجاهلية وصدر الإسلام .

وثاني ما أصاب هذا الشعر ، هو ما **أصاب الأصول التي صنعها الرواة العلماء** من جهل النساخ القدماء ، فأحدثوا خللاً شديداً في دواوين الشعر ، من إسقاطهم إسناد الرواية ، إلى إسقاطهم اختلاف الرواية المبين في الأصول ، إلى إسقاطهم نسبة كل رواية إلى صاحبها . وبعضهم أسقط تعليق القدماء من العلماء وجرّدوا الشعر منها . وكثير من الدواوين التي وصلتنا ، هي من هذا القبيل الذي دخله تصرف النساخ وعبثهم وجهل بعضهم .

هذا ما أصاب الشعر في القديم قبل أن يصل إلى عصر المطابع ، فإذا ما استقرت بعض أصوله التي وصلتنا في أيدي مَنْ يُحسن نشرها ومَنْ لا يحسن حدث البلاء الأعظم فقد تولى تحقيق هذه الأصول ونشرها من يحسن النشر والفهم ومن لا يحسن ، غير مبال إلا بالمكسب والشهرة . وغير مبالٍ بمقارنة مخطوطات عدة لديوان واحد ليصل إلى النسخة الأقرب إلى الأصل ، وليسهل عليه فكّ بعض ألغاز المخطوط ، بل وربما عمد بعضهم إلى حذف قصيدة بأكملها أو بيت أو عدة أبيات لا لسبب إلا لأنه أشكل عليه أمره ، وربما عمد إلى التحريف تجنباً للإشكال . فاختلط الأمر اختلاطاً شديداً ، وداخل الدواوين فساد جديد بالإضافة إلى فساد لحقها من النساخ . وقد أسهم بعض المستشرقين في طبع بعض هذه الدواوين طبعاً مقارباً ، بسبب وفرة ما لديهم من الأصول التي نفتقدها ، ولو تسنى لأولئك المستشرقين ملكة الذوق الشعري ، وتمثل إطار النص وجوّه وروحه ، ولو كانت لهم دراية تامة باللغة العربية ، واستعمالات ألفاظها المجازية والحقيقية ،

لوصلنا منهم خير كثير . ومع ذلك فلهم بعض الفضل في وضع اللبنة الأولى في بناء نأمل أن يستمر وينقى من الشوائب ويتولاه علماء لهم القدرة على تحقيق تراثنا الشعري وعرضه في صورة مشرقة مشرفة للقارىء ليتسنى له الاتصال ثانية بتراثه .

وبعد ، فما المنهج الذي نقترحه لتوثيق شعر الأيام بعد كل ما عرضناه ؟ في محاولتنا توثيق شعر الأيام ينبغي أن لا يغيب عن عيوننا طرفا القضية ، وهما الرواة والشعر ، ولنبدأ بالرواة أولاً ، وأول ما يجب الاهتمام به التحقق من الرواية وإسنادها ، ووضع رواة السند موضع الدرس والنقد ، والتحقق من نزاهتهم وصدقهم ، فإذا لمسنا خللاً في إسناد الرواية يتعلق بأحد الرواة ينبغي أن لا نطمئن إلا عندما نجد مصدراً آخر يوثق هذا النص .

ولقد يكون هذا الأمر سهلاً لو وصلتنا المصادر متضمنة الرواية بإسنادها ، ولكن الذي وصلنا خليط من هذا وذاك ، وقد ينقطع إسناد الرواية فهلا يرفع إلى رواة الطبقة الأولى . كما أننا ينبغي أن نلاحظ الطعن الذي وصلنا عن هذا الراوية أو ذاك ، فلا يجب أن يغيب عن بالنا الصراع والتنافس بين مدرستي البصرة والكوفة ، وأوثق الشعر ما أجمع عليه رواة المدرستين ، وأوثق الرواة ما وثّقه الطرفان ، فالمفضل الضبي وثقه الكوفيون كما وثّقه البصريون .

ونستطيع أن نميز أنواعاً أربعة من الرواة : رواة عدولاً موثقين ، ورواة متهمين ، ورواة وسطاً بين هذه الفئة وتلك ، ورواة مجهولين ليسوا بموثقين لأنهم مجهولون ولا نعلم من أمرهم شيئاً .

ولقد حفلت كتب تراجم الرواة بالكثير من الأخبار عن أولئك الرواة ، والقارىء المتمعن لتلك التراجم يستطيع أن يخرج بصورة قريبة من الحقيقة فيما يتصل بتوثيق أولئك الرواة أو تجريحهم ، بعد أن يلاحظ الذين يقدحون أو يوثقون أهم في صف الراوية وعن مدرسته ، أم من خصومه من المدرسة الأخرى؟ وهل هنالك مصلحة شخصية في هذا العداء؟ وهل أورد من الأدلة ما يقنع بتجريح الراوية أو يوثقه؟ كل هذه التساؤلات ينبغي لنا أن نثيرها ونحن نقرأ عن أولئك الرواة الذين حملوا لنا شعر الأيام.

ولقد لاحظت من خلال دراستي لرواة شعر الأيام ، أن قسماً كبيراً من آرائهم لبعضهم في بعض إنما تنبع من منبع واحد تقريباً هو التعصب لرواة مدرسته ، فالبصري يتعصب للبصري ، والكوفي يتعصب للكوفي ، إلا أن بعض الرواة نالوا احترام وتوثيق الفريقين . كما لاحظت أن الذين وجّه إليهم الطعن من رواة الأيام وأشعارها وأخبارها قلة قليلة ، إذا نسبوا إلى ذلك العدد الضخم من الرواة . وعلى رأسهم حماد وخلف وشرقي بن القُطامي وابن الكَلْبيّ .

ثم إن هنالك أمراً لا بد من ملاحظته عند دراستنا لموضوع الرواة وهو شيوخ كل راوية وتلاميذه ، لأن ذلك يفيدنا في كشف زيف بعض الروايات ، فقد يذكر راوية أنه سمع من العالم كذا ، وبعد البحث والتحري يتبين أن هذا الراوية لم يدخل تلك البلاد ولم يعاصر ذلك العالم ، ولم يرد اسمه بين قائمة تلاميذه . وهذا يتطلب منا إلماماً بحياة أولئك الرواة بدئها وانتهائها حتى يتسنى لنا نقد سند الرواية .

والرواية لم تصلنا بعد انتشار التدوين ، مشافهة ، وإنما نقلت إلينا على صفحات المؤلفات التي حالفها الحظ ووصلت إلينا ، وهذا أمر آخر متصل بالرواية ، فالعالم الذي ألف الكتاب ينبغي أن نخضعه للنقد ، هل ينقل نقلاً أميناً ؟ هل يهتم بالإسناد ؟ هل يورد الروايات المختلفة ؟ هل يحذف من الرواية ما يحلوله ويُبْقي منها ما يريد ؟ هل ينقل عن رواة بدول ؟ أم أن رواته مجهولون أو غير ثقات ؟ كما أنه ينبغي معرفة المدرسة الفكرية التي ينتمي إليها ويتعصب لها . وأمر آخر ينبغي عدم تجاهله هو زمن تأليف الكتاب ومكانه لما لذلك من أثر في تحديد معالم الكتاب ، كما يجب ألا نغفل عن الهدف من تأليف الكتاب ، لأن الهدف يحدد الأسلوب .

وإذن فإننا حينما نحاول توثيق نص شعري من نصوص الأيام ينبغي أن ننظر في المصدر ونلم بكل شيء عنه ، عن مؤلفه وغرضه من تأليفه وأسلوبه ، كما ننظر في الرواة الذين نقل عنهم مؤلف الكتاب ونخضعهم للجرح والتعديل . فإذا انتهينا من هذا نكون قد انتهينا من النقد الخارجي للنص وهو ما يتصل بمصدره وروايته .

وننتقل بعد ذلك إلى النص نفسه ، وأول ما يجب أن نعرفه هو المصادر التي بين أيدينا والتي أوردت النص أو أجزاء منه ، ثم لا بد من ترتيب تاريخي لهذه المصادر . وبعد ذلك لا بد من توثيق لهذه المصادر ورواتها كما ذكرنا من قبل . ونصطدم هنا بمشكلة هي أن هذه المصادر لم تورد جميعها النص كاملاً ، فمنها من يورد قسماً من النص ، ولا يورده المصدر الآخر . وذلك عائد إلى طبيعة مادة المصدر أولاً ، وإلى الراوية أو المصدر الذي نقل عنه المؤلف . وهنا أثيرت مشكلة دعوى الاختلال بترتيب الأبيات ، إذ ما دام الأمر ليس واحداً في جميع المصادر فسنحتاج إلى ترتيب لأبيات القصيدة ، وربما أهملت بعض المصادر أهمية ترتيبها ، وربما أساء الدارس فهم الترتيب واعتقد بوجود اضطراب في ترتيب الأبيات ، فالانحلال في ترتيب أبيات القصيدة مردّه إذن إلى عاملين : أولهما اختلال الترتيب في رواية الرواة تبعاً لمصادرهم الأولية ، وثانيهما : التشعيث الذي هو سر من أسرار البيان الإنساني ، والذي يزخر به الشعر الجاهلي [1] وهذا التشعيث ربما أساء فهمه الناقد واعتقد ان في القصيدة اضطراباً في ترتيب أبياتها .

(١) مجلة المجلة ـ مقال لمحمود شاكر عدد مايو ١٩٧٠

وينبغي أن نسلم ببعض ما حدث للشعر عبر ذلك الدرب الطويل الذي قطعه حتى وصل إلينا ، يجب أن نسلم باحتمال نسيان بيت من الشعر ، كما نسلم باحتمال تقديم بيت أو تأخيره ، كما نسلم باستبدال كلمة بأخرى ، كما نسلم باحتمال الخلط في نسبة القصيدة بسبب الحياة غير المستقرة التي كان يحياها المجتمع الجاهلي ، وبسبب أن شعر الأيام قيل معظمه في ساحات القتال ، وربما سقط قائله صريعاً ، ولم يكن من الشعراء المشهورين فنسب إلى غير صاحبه ، وقد أسهبنا في أسباب الخلط في شعر الأيام فيما مضى من البحث . وهذا يضع أمامنا النص في روايات مختلفة في بعض الجزئيات ، الأمر الذي كان موضع تهمة وليس دليلاً على نحله ، كما يقول الأستاذ العقاد [1]

وتنشأ مشكلة أخرى تعترض سبيلنا ، وهي أنه كثيراً ما يصادفنا ونحن نجمع مصادر النص أن نجد هذا النص منسوباً لأكثر من شاعر ، وعندها ينبغي أن نتوقف قليلاً لنتحقق من صاحب النص الحقيقي ، وسبيلنا في ذلك هي تنقية تلك الروايات والاعتماد على أوثقها للمقارنة ، ثم الرجوع إلى خبر ذلك اليوم في مصادره الموثقة لمعرفة فرسانه وشعرائه وقتلاه ، والأماكن التي دارت رحى المعركة عليها . كل ذلك سيعين في تعيين صاحب النص الحقيقي ، فالأعلام في الأيام علامات ، إن صحت رواياتها ، تنير لنا الطريق لتوثيق النصوص ، كما أن عملاً آخر يمكننا من تحقيق نسبة النص وهو شعر خصومهم في ذلك اليوم الذي يفند مزاعم هذا الفريق ويرد عليهم وربما كان فيه إشارة إلى صاحب النص تعيننا على معرفته . إن شعر الأيام لو وصلنا كاملاً لأسهمت الأعلام التي تملأ أبياته في حل كثير من المشاكل التي تعترض سبيل الباحث ، ولأمكن ترتيب تلك الأيام تاريخياً ، وبالتالي لأمكن تحديد حقيقة الأوضاع في تلك الحقبة من الزمن .

ونصل بعد ذلك إلى الشعر نفسه ، هذا الشعر منه الجاهلي الأصيل ، ومنه ذلك الشعر الذي انفرد بروايته راوية واحد ، ومنه ذلك الشعر المتصل بالشخصيات التي نالت شهرة في المجتمع الجاهلي والإسلامي كعنترة ومهلهل وحاتم ، ومنه الشعر الإسلامي النزعة ، ومنه الشعر الموغل في القدم في نسبته ، فكيف ننقي هذا الشعر ؟ كيف نستطيع أن نحصل على شعر الأيام الحقيقي دونما شائبة تشوبه ؟ لقد حاول كثير من الباحثين وضع منهاج لذلك ، ومنهم من أسهب ، ومنهم من أوجز ، وسنحاول ان نعرض لبعض هذه المناهج قبل اقتراح منهج لتوثيق شعر الأيام مستأنسين بما عرضوه من آراء .

فالأستاذ العقاد [2] يقول في كتابه اللغة الشاعرة « لا بد من حيلة ناجعة غير حيلة الرفض

(1) اللغة الشاعر - عباس محمود العقاد ١٢٣
(2) اللغة الشاعرة - للعقاد ١٣٤

المطلق أو القبول المطلق أو الظن المتردد بين الطرفين ـ كلما عرضت للناقد مشكلة من مشكلات الأخبار الأدبية أو التاريخية التي يختلط فيها الصدق بالكذب والخرافة بالواقع والحقيقة بالخيال ، ولا يخلو منها مرجع من مراجع التاريخ القديم أو من المراجع العصرية في كثير من الأجيال » ثم يضيف «ونعتقد أن النقد العلمي في العصر الحديث وشيك أن يعتمد على وسيلة من أوثق الوسائل التي تستند إلى الحجة المقنعة ولا تكتفي بترجيحات الظن أو الذوق على ديدن النقاد قبل العصر الأخير » وهو يختار سيرة امرىء القيس لإخضاعه لطريقته ، لأنها ـ كما يقول ـ أكثر السير قبولاً لتطبيق تلك الطريقة على وجه واضح . . .

والدكتور طه حسين [(١)] يتخذ المقياس المركب وسيلته ومنهاجه ، وهو عنده يلتقي بأمرين أولهما ملاءمة اللفظ والمعنى ملاءمة ظاهرة للحياة البدوية في آخر العصر الجاهلي ، ثانيهما : متصل بالخصائص الفنية ، وهي أن يثبت وجود عدة خصائص فنية مشتركة بين طائفة من الشعراء .

ويعرض الدكتور شوقي ضيف [(٢)] خلاصة ما يراه بأنه « يجب أن نشك فيا يشك فيه القدماء ونرفضه ، أما ما وثقوه ورواه الإثبات مثل أبي عمرو بن العلاء والمفضل والأصمعي وأبي زيد ، فحريٌ بنا أن نقبله ما داموا قد أجمعوا على صحته . ومع ذلك ينبغي أن نخضعه للامتحان ، وأن نرفض بعض ما رووه على أسس علمية منهجية لا لمجرد الظن ، كأن يُرْوَى لشاعر شعر لا يتصل بظروفه التاريخية ، أو تجري فيه أسماء مواضع بعيدة عن موطن قبيلته ، أو يضاف إليه شعر إسلامي النزعة ، وغير ذلك مما يجعلنا نلمس الوضع لمسا »

ويعرض الأستاذ محمود شاكر [(٣)] في أثناء دراسته لقصيدة ابن أخت تأبط شراً في رثاء خاله ، لهذه القضية فيرى فيها طريقين : أولهما منهج المقارنة بين الشعر الجاهلي والشعر الإسلامي ، والأمر بعد ذلك كله يجب أن يسبق بدراسة لكلا الشعرين للخروج بالخصائص الفنية ، والفروق بينهما ، تلك الفروق التي تجعلنا نميز هذا من ذاك . وفي رأيه أن هذا المنهج يحتاج لإيضاح معناه وتأصيل حدوده إلى جهد جاهد في تلخيص زيف ما يروى من صحيحه ، قبل البدء في الحديث عنه . أما المنهج الآخر الذي يحبذه وهو أهم باب من أبواب المنهج الأول ، وهو « باب دراسة الشعر ونقده »

---

(١) الأدب الجاهلي ـ طه حسين ٢٦٥ وما بعدها

(٢) العصر الجاهلي ـ شوقي ضيف ١٧٥

(٣) مجلة المجلة ـ عدد يونيه ١٩٧٠ ص ٩ وما بعدها

وخلاصة ما يراه الدكتور ناصر الدين الأسد [1] الاعتماد على آراء القدماء بصحته ما اتفق عليه العلماء الرواة جميعهم ، ثم أخذ هذا القدر المشترك المتفق عليه أصلاً لديوان الشاعر ، ثم يدرس هذا الأصل دراسة دقيقة لنستشف منه روح الشاعر وخصائصه الفنية ، ثم نستخرج من ذلك المقياس الذي نتخذه محكاً تعرض عليه القصائد المتفرقة التي انفرد بها كل راوية عالم بروايتها ، فما استقام منها مع مقياسنا رجحنا صحته ، وما لم يستقم رجحنا أنه مما اختلطت نسبته على الراوية العالم » وواضح أن هذا المنهج خاص بتحقيق شعر شاعر ، لتوثيق ديوان شعره .

ونستطيع ، من خلال ما عرضنا لآراء القدماء والمحدثين في توثيق هذا الشعر ، أن نخرج بصورة واضحة عن توثيق هذا الشعر بالإضافة إلى ما وقعنا عليه من خلال دراستنا الميدانية لهذا الشعر ، ولطبيعة شعر الأيام المتميزة .

وفي رأينا أولاً : أن أوثق هذا الشعر ما ورد في الديوان الذي وصلتنا أصوله صحيحة دون تشويه ، ويليه شعر المجموعات الموثقة ، على أن يوضع هذا الشعر أيضاً بالإضافة إلى اطمئناننا إلى صحة روايته على محكّ النقد ، ومعرفة مدى مطابقته لأحداث اليوم ونتائجه . ونستعين في استكمال صورة اليوم بمقارنة عدة روايات له مع مراعاة ترتيب رواتها زمنياً وأهوائهم ، ودرجة توثيقهم .

ويأتي بعد ذلك الشعر الذي ورد في كتب السير والتاريخ واللغة والأدب والنحو والمعاجم والمجموعات غير الموثقة ، أو التي لم تصل درجة توثيقها إلى درجة المفضليات والأصمعيات ، وهذا الشعر إما أن يكون قد ورد في الديوان الذي بين أيدينا أو في المفضليات أو الأصمعيات ، وحينئذ فإن ورود هذا الشعر في إطار الخبر يوضح جو النص وإطاره العام ويكون أكثر جدوى من ورود الشعر في الديوان دون جوه وإطاره ، وربما ورد الشعر في هذه المؤلفات بعدد أكثر في الأبيات ، وعندها ننظر في هذا الشعر الفائض وندرسه بعناية وندرس راوية الشعر والخبر ونحكم عليه على ضوء ذلك . وأما أن يكون هذا الشعر مما لم يرد في ديوان الشاعر أو مجموعتي المفضليات والأصمعيات ، وهذا الشعر كثير ، وهو يشكل حجماً لا يستهان به .

وينبغي أن نبحث في عدة أمور قبل البت في هذا الشعر ، نبحث أولا في راويته وفي مصدره ، وفي موقعه في إطار الخبر العام ومدى موافقته أو عدم مطابقته لسياق الخبر ، كما نبحث عن العصبية فيه ، فإن وجدناها تكمن وراء إيراد هذا الشعر رفضناه ، ثم نبحث عن البطولات

(١) مصادر الشعر الجاهلي ـ ناصر الدين الأسد ٥١٤

الخارقة التي هي أشبه ما تكون بالأساطير فإن وجدت رفضناه أيضاً ، ثم ننظر في الأماكن الواردة في هذا الشعر ، فإن كانت من الأماكن التي ارتادها الشاعر أو قبيلته أو خاضت عندها أياماً ملنا إلى قبوله بشرط أن يخلو من الموانع الأخرى، إما إنْ وردت فيه أماكن لم يعهدها الشاعر ، ولم تعهدها قبيلته ملنا إلى القول بنحله ، ثم نبحث عن إمكانية وجود الشاعر في ذلك اليوم ، فربما يثبت لدينا أنه كان قد مات ، وأن عهداً طويلاً بين هذا اليوم وذلك الشاعر . ويعيننا في هذه الناحية أن الأعداء لم يكونوا ليسكتوا عن أي تزوير في نتيجة اليوم وشعره ، والشواهد على ذلك كثيرة في النقائض والأغاني .

وبعد ذلك يأتي دور **نقد الشعر داخلياً** ، بالبحث في **ألفاظه** وملاءمتها لذلك العصر وللموضوع الذي نظم فيه الشعر ، وهل فيها ألفاظ إسلامية ، ثم نبحث في **صحتها** ، ومدى مناسبتها لموضوع النص وروح العصر الذي نظمت فيه ، فما وجدنا فيه أفكاراً إسلامية رفضناه . وأخيراً فإننا ننظر إلى **الشعر ككل لنرى روحه العام** ومدى انسجامها مع الروح العامة للشعر الجاهلي .

ومن **الشعر الذي ينبغي تناوله بحذر** ذلك الشعر الذي يشعرنا بوضوح العصبيتين العدنانية والقحطانية ، والشعر الذي يشير إلى مفهوم العصبية الجامحة ضد غير العرب كالفرس مثلاً ، والشعر الذي يسيء إلى العرب .لا نقول برفض هذا الشعر ،ولكن ندرسه بأناة وحرص شديدين قبل أن نقول كلمتنا فيه ، وفي الغالب يكون من الشعر المنحول .

الفصـــل الثانـــي
موضوعات شعر الأيام

تمهيـــد

إن التراث الشعري للأمة العربية هو أهم جوانب تراثها تعبيراً عن جوهر نفوسها ، وتصوير الحقائق في حياتها الماضية في عصر لم يجد فيه أداة لتأريخ حياتهم وجوانب هامة ينقل إلينا من أحوال أمتنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية ما لم نجد مصدراً آخر نقلها إلينا على نحو ما فعل الشعر ، وهو من ناحية أخرى نقل مباشر يتحدث أصحابه إلينا بالشعر دون وسيط ، والوسيط ربما خضع لمؤثرات وربما لم يستطع أن يعطينا الصورة الواقعية التي ترصد الواقع بدقة « فالشعر ـ كما يرى أحد الباحثين ـ أدخل في الحقيقة من التاريخ [1] « لأن التاريخ لا يعطي الحقيقة مباشرة إلا نادراً » ، وهذا القول لا يبتعد كثيراً عن ظروف العصر الذي ندرسه لقلة مصادره التاريخية .

وشعر الأيام هو أكثر ألوان الشعر الجاهلي التصاقاً بما نقول ، فلقد أودعته الأمة من نفسها حيث يودع الشمين القيِّم من حياتها ، واحتفظت به وحفظته ، لأنه يصور مفاخرها وبطولاتها في سبيل الذود عن كرامة القبيلة ضد أي خطر خارجي ، وفي سبيل صون كرامة الفرد في القبيلة ، والتغني بأمجادها وإعلان ذلك لباقي القبائل حتى تفكر ملياً قبل أن تقدم على الاعتداء على القبيلة .

وشعر الأيام تراث ينبع من الضمير الجاهلي في شتى تكويناته الاجتماعية ، وامتلاء بالمحتوى الفكري الذي يتشكل تشكيلاً قومياً لم تشاركه فيه أمة من الأمم المجاورة . وذلك لأن الأيام تتضمن خلاصة الثقافة العربية الأولى ممتزجة بالأساطير والقصص الخرافية ، وملاحم الأيام زاخرة بإشارات ورموز حول آثار الشخوص الأسطورية المنقرضة والبلدان الطامسة أمثال

(١) مجلة المجلة يناير ١٩٦٥ (مقال للدكتور شوقي ضيف بعنوان « تقييم تراثنا الشعري ص ٢١

العماليق (يوم اليمامة) ومعمري حرب البسوس ، وأبنية يوم المشقر . [١] .

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن شعر الأيام لو وصلنا كاملاً لوصلنا تاريخ تلك الفترة واضحاً مشرقاً، ولربما أعطانا تفسيرا آخر لتلك الأيام وأسبابها ودوافعها . ولكن الكثرة من هذا التراث ما تزال مخطوطة ، أو أنها برزت للنور مشوهة محرفة ، تنقصها العناية والأمانة في التحقيق . ومن هنا جاء حكمنا القاسي على هذا التراث . ولعل من أكثر الأحكام فساداً على هذا التراث ما يقال من أنه ليس إلا مدحاً وهجاء ورثاء ، فهو « حكم ناشىء عن نقص في فهم هذا الفن ونقص في استقصاء نماذجه[٢]

ودراستها دراسة مستأنية متعمقة تكشف بواطن هذا التراث وأصالته ، وهو في الحقيقة تمجيد لبطولاتنا في تلك الحقبة من الزمن، وعلى الرغم من أنها بطولات محلية لم تتعد . نطاق الجزيرة، وكان المصطرعون فيها عرباً من الطرفين المنهزم والمنتصر، إلا أنها إذا قيست بمقياس ذلك العصر فإنها تبقى من المنزلة بمكان لأنها تكشف عن نفسية الفرد في ذلك الحين . وهي في نفس الوقت تشخص لنا صور زعماء أمتنا في العصور الغابرة، وصورهم في ساحات الوغى، وصورهم الإنسانية الرفيعة التي تتجلى في القيم والمثل التي آمنوا بها ودافعوا عنها .

وإذا ما حاولنا تصنيف هذا الشعر تمهيداً لدراسته فلا بد من ذكر أمور قبل البدء بذلك تجنباً لأي لبس يقع أو إبهام يسيء إلى الدراسة ويجعلها عائمة غير محدودة المعالم . **أولها** : أن الشعر الذي نتحدث عن الحروب والمعارك والبطولات ، وفي متناول أيدينا ضربان : ضرب يتحدث عن معارك وأيام محددة المعالم ، عرف فيها الفريقان واسم اليوم والدافع . وهذا هو الذي سيشكل العمود الفقري لهذه الدراسة . والضرب الثاني هو ذلك الشعر الذي يتحدث عن وقائع وحروب بشكل عام لا يشير إلى حادثة معينة ، ولعل هذا هو أدخل في التصور والتخيّل والفخر منه في باب الوصف الحقيقي للأيام ، ولعله هو الذي عناه الدكتور علي الجندي حينما قال إن العرب لا يجيون الحروب ، وأما شعرهم الذي يمتلىء بذكرها فهو من قبيل الفخر . ومن المحتمل أن يكون هذا الشعر هو شعر أيام حقيقية ضلت المناسبة والشروح طريقها إلينا ، فبقي الشعر ميتاً لا حراك فيه .

وثانيها : أن هذا الشعر الذي سندرسه ليس كله شعراً قيل في ساحة الوغى ، وليس كله قيل على لسان الفارس الذي يخوض ساحة القتال ، بل منه ما قاله بعض الشعراء بعد انتهاء الأيام بكثير ، ربما بجيل ومنه الشعر الذي قيل من على صهوات الجياد ووسط الغبار المتصاعد في ساحة القتال ، وبعضه قيل والفارس يلفظ أنفاسه الأخيرة . إلا أننا مع ذلك نستطيع إذا توسعنا في

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٢٣

(٢) دراسات في النقد الأدبي ـ أحمد كمال زكي ص ١٥٧ ـ ١٥٨

مفهوم اليوم والحرب أن نوسع إطاره الزمني فيشمل ما قبل الحرب والاستعداد لها وحالة التوتر والعداء الذي يسبق القتال ، وكما يشمل حالة الفرح أو الكآبة بعد انتهاء القتال وعودة كل فريق ظافراً أو مهزوماً . إذا اعتبرنا هذا ، فإن غالبية الشعر الذي ندرسه يدخل في مجال الشعر الذي قيل أثناء القتال أو الاستعداد للقتال ، أو التهيؤ لقتال جديد للأخذ بالثأر .

وننتقل بعد ذلك إلى محاولات تصنيف هذا الشعر ، فنرى الأستاذ الشايب[1] يرد هذا الشعر إلى أبواب أربعة :

١ - شعر يقال في تأييد القبيلة والتحفي بها وبكاء موتاها ووصف مرابعها ونحو ذلك مما هو تاريخ حياتها الخاصة .

٢ - شعر يقال في الثورة عليها والهجاء إذا قصرّت في رعاية الفرد ، أو في الاحتفاظ بمكانتها وشرفها .

٣ - شعر هو فخر بالقبيلة وهجاء لأعدائها وتوعدهم بالويل والثبور ، ثم تأييد مكانة القبيلة عند الاحتكام أو المفاخرة .

٤ - شعر هو ثورة على النظام الاجتماعي كله ولا سيما ذلك النظام الاقتصادي الذي كون في النفوس الفقيرة تبرماً ، فكان منهم الصعاليك .

وموضوعات الشعر الجاهلي عامة والأيام خاصة عند البستاني[2] استأثرت بها المهمة القبلية ، أو على الأقل استأثرت بالأبواب الرئيسية في هذا الشعر وهي : الفخر والحماسة والمدح والرثاء والهجاء .

والأمر مختلف عند القدماء أيضاً فبعضهم يتكثر في العدد مثل صنيع أبي تمام في الحماسة حيث قسّمها إلى أبواب عدة ، وبعضهم يقتضب مثل قدامة بن جعفر[3] وأبي هلال العسكري[4]

وتقسيم الشعر إلى موضوعات أمر فاسد مرفوض عند بعض الباحثين[5] ، لأن الشاعر يتحدث من خلال الغرض عن الجوهر ، ومن خلال المديح والهجاء والرثاء عن مشكلات الإنسان التي يواجهها باستمرار على الرغم من اختلاف الزمن والثقافة . ويرى الدكتور مصطفى

---

(١) تاريخ الشعر السياسي - أحمد الشايب ٣٧

(٢) الشعراء الفرسان - بطرس البستاني ١٢

(٣) نقد الشعر - لقدامة بن جعفر ١٣٣

(٤) الصناعتين لأبي هلال العسكري - طبعة أولى - مصر ١٣٢٠ ص ٩٩

(٥) دراسة الأدب العربي - مصطفى ناصف ٢٣٢

ناصف أن الشعر وفقاً لفكرة الموضوعات التقليدية ضرب من الحلي أو جنس من التصوير ، وأن فكرة الموضوعات غير منبثقة من الشعر نفسه ، وإنما هي منبثقة من خارجه ، أو المجتمع الذي يتطلب الحماسة والمدح والإفتخار[1] « وحجته في ذلك أيضاً » أن الفكرة لا تقوم على تمييز حقيقي ، ويمكن ملاحظة ما فيها من تداخل أحياناً ، وهذا التداخل يعني أننا نقسم الشعر تقسيماً سطحياً ولا نتعمق بحث مادته[2] « وخلاصة رأيه » أنه على الباحث أن ينظر إلى الشعر على أنه وحدة واحدة وقد تختلف وجهة النظر ، ولكن ينبغي أن نبحث عن التيار الأساس الذي يربط أشياء كثيرة[3] « وعندما يتحدث عن عقم تجزئة القصيدة من مقدمتها إلى آخرها يعقب قائلاً » وهكذا تبدو القصيدة ممزقة ويبدو عقل الشاعر مفككاً ، ويصور العقل العربي في صورة ساذجة تخلو من الربط والوحدة ، وينسجم هذا عند الباحثين مع قضايا أخرى مسرفة عن سطحية العقل العربي في العصر الجاهلي . وهذه السطحية هي التي تجعله فيما يقولون - يقف عند ظواهر وعوالم حسية لا يتجاوزها في كثير ، ويروح النقاد ويستشهدون لقضاياهم من خلال معلومات خارجية عن البيئة . هذه المعلومات تؤكد عندهم فكرة التناول الحسي وتمزق جوانب التفكير والبساطة[4] « ويرى هذا الباحث أخيراً أنه » من الممكن أن يدرس الشعر الجاهلي بمعزل عن فكرة الموضوعات التقليدية ، وبعبارة أخرى بمعزل عن فكرة السذاجة العقلية التي تمليها البيئة الخارجية على عقول الباحثين ، فالشاعر ليس مرآة بيئته ، وعقل الشاعر ليس سلبياً موقوفاً على تمثيل عناصر خارجية ، والشاعر الجاهلي قد يبدو أروع وأعمق مما نتصور لأول وهلة ، ولكن صعوبات كثيرة تقف دون جلاء هذا المستوى الخاص الذي نزعمه ، وقد تعترضنا بعض الصعوبات بما يتعلق باللغة وبالأساطير وبالمعاجم ، ولكن على الرغم من ذلك كله لا يزال أمامنا الأمل باقياً من أجل قراءة آثار عقلية أنطح وأوفى مما رسخ في أذهاننا عن فكرة البداوة وارتباطاتها »[5]

وفي دراستنا لشعر الأيام سوف نسلك الطريقين معاً ، نسلك الطريق الأول ، فكرة تقسيمه إلى موضوعات ليسهل تحديد معالمه وأطره التي تحرك فيها ، ونسلك الطريق الثاني في محاولة ربط هذه الموضوعات بأفكار رئيسية تجمعها ، وتزيل عنها سطحيتها ،وبمعنى آخر لا بد أن نجد ربطاً بين هذه الأغراض ينطلق من وجدان الشاعر والقبيلة التي ينطق بلسانها . لا بد أن يجد الشاعر حافزاً ، ويجد القارىء لهذا الشعر تفسيراً لوجود أكثر من غرض في القصيدة

(1) نفس المرجع ٢٣٣
(2) دراسة الأدب العربي - مصطفى ناصف ٢٣٣
(3) نفس المرجع ٢٣٢
(4) نفس المرجع ٢٣٣
(5) دراسة الأدب العربي - مصطفى ناصف ٢٣٥

الواحدة ، لا بد ان نجد التفسير لِمَ هجا الشاعر ثم افتخر وما الدافع لذلك ؟ ولا بد أن نعرف لماذا يمدح الشاعر ثم ينتقل إلى الفخر بعد ذلك .

وبعبارة أخرى فإن الدراسات الحديثة للشعر القديم عامة ، والجاهلي خاصة ، قد استقرت على وجود وحدة تنظم القصيدة ، ولكنهم حاروا بعد ذلك في تسميتها ، فسماها بعضهم الوحدة الموضوعية ، وسماها آخرون الوحدة النفسية ، وسماها فريق ثالث الوحدة الحيوية . ومهما اختلفت هذه التسميات فإن (الوحدة) تبقى قاسماً مشتركاً فيا بينها (١) .

وموضوعات شعر الأيام التي سندرسها كلها موضوعات ، في مضمونها العام ، تتصل بالقبيلة ، يتضاءل فيها الشعر الفردي بل وينعدم أحياناً ، وإن وجد فهو لخدمة القبيلة . ولا تعدو موضوعات شعر الأيام أن تكون كما يلي : شعر الفخر والحماسة ،حديث المعارك ، حديث الفروسية ، الرثاء ، التهديد والوعيد ، نداء الثأر ، المنصفات ، الرغبة في السلم ، المديح ، الاعتذار ، المثل العليا والقيم الأخلاقية .

شعر الفخر والحماسة

لقد جرت عادة شعراء الحرب أنهم عندما يفتخرون فإنهم يضمنون معانيهم عبارات الحماسة ، لأنها مادتهم في حروبهم وإلا فبم يفتخر الفارس ؟ وبذلك يصبح الفخر والحماس شيئاً واحداً يتعذر فصلها ومن هنا آثرنا تناولها معاً كغرض واحد من أغراض شعر الأيام .

إن الشعر الجاهلي عامة ، وشعر الأيام خاصة ، لو شئنا إسقاط ما فيه من شعر الفخر والحماسة ، وروح الفخر والحماسة لما خلص إلينا منه سوى النزر اليسير ، الذي لا يصور لنا شيئاً من حياة العرب قبل الإسلام ، لأن الحياة الجاهلية كانت تفرض على أبنائها تقديس البطولة ، لما هم عليه من التنافس والحروب المستمرة والتحرك المستمر وقد ولّد الفقر وجدب الأرض عداء مستمراً ونزاعاً بين القبائل ، وفتح هذا باب التنافس القبلي والمفاخرة بالانتصارات ، والتهاجي بالانكسارات ، وبكاء الأبطال القتلى في ساحة الوغى .

وقد كان فرسان الجاهلية يترنمون بأشعار حماسية ينظمونها وهم على ظهور جيادهم في ساحة الكر والفر ، ويقولونها وهم يسددون رماحهم إلى نحور الأعداء غير عابئين بالموت ، فإما حياة كريمة وإما الموت تحت ظلال الرماح في عزة وشرف .

(١) أنظر طه حسين - حديث الأربعاء ، محمد النويهي - الشعر الجاهلي ، منهج في دراسته وتقويمه ، نوري حمودي القيسي - الوحدة الموضوعية في القصيدة الجاهلية ، مصطفى ناصف - قراءة ثانية لشعرنا القديم وغيرهم .

وقد عرف العصر الجاهلي اتجاهين للفخر : فخر قبلي وهو الأعم والأكثر انتشاراً في شعر الأيام ، وفخر فردي شخصي نجد منه البيت أو البيتين ينفذ إليها الشاعر من خلال فخره بشجاعة قومه وكفاءتهم في ميدان القتال ، أو ربما وجدناه عند شاعر فارس طريد تخلت عنه قبيلته .

والفخر والهجاء شديد الاتصال بالعصبية والروح القبلية ، فالفخر صدى اعتزاز القبيلة بنفسها وإيمانها بجنسها وفضلها على سائر القبائل حسباً ونسباً وبطولة ومروءة وكرماً ، كما أن الهجاء هو صدى شعور العداء الذي تكنه القبائل المختلفة بعضها لبعض .

والفخر ظاهرة طبيعية بين الجاهليين اقتضتها حياة القبائل المتحاربة ، والأفراد المتنافسين . بل هو ظاهرة اجتماعية عامة يحاول كل أن يثبت إمتيازه وتفوقه على غيره إشباعاً لشهوة العزة وإرضاء لحب التسامي والشرف .

ولم تعرف النزعة الفردية المطلقة التي تصور اعتزاز الشاعر بشخصه وشعوره باستقلال شخصيته عن شخصية جماعته وباستغنائه عنها في شعر الأيام ، وحينما ينزع الشاعر إلى الفخر بنفسه ، فإن فخره في الغالب يكون صدى عصبيته إذ هو يفاخر بذوده عن حياض قومه ومنافحته عنهم وولائه لهم .

ودواعي الفخر في شعر الأيام كثيرة لعل أبرزها **نشوة النصر** وما تحدثه من خيلاء وزهو في نفس الشاعر ، وإحساس بالعزة والقوة والمكانة الرفيعة التي تحتلها قبيلة بين القبائل ، في عصر لا يقدس إلا القوة ولا يعترف إلا بها . كما أن **ثورة الغضب** ربما أدت إلى الفخر كما حدث مع الشاعر عمرو بن كلثوم حينما استفزه عمرو بن هند . فقال معلقته المشهورة . وربما كان داعي **الفخر الرغبة في ذكر الأمجاد الحربية** وهذا ما كان يحدث بعد انتهاء المعارك بزمن ، ويقود إليه المفاخرة ، فيفزع الشاعر إلى أمجاده وأمجاد قبيلته الحربية يفخر به ، وربما لجأ إلى هذا عندما **يحس منزلة قومه بدأت تتضاءل فيهب مذكراً بأمجادها الماضية** .

وكان الشاعر عندما يفخر فإنه يفخر بالمعارك وببطولات قومه ، ولذلك نرى أن الشعر الحماسي الذي يعتبر المادة الأساسية للفخر في شعر الأيام ، استنفد معظم الشعر ، شعر الأيام ، وشغل حيزاً كبيراً منه ، لامتلاء تاريخ القبيلة بالكفاح البطولي الشاق ضد قوى متعددة تحاول حرمانها من الحياة وسلبها حريتها وعزتها . ولعل في تسميته أقدم المختارات في الشعر العربي بالحماسة أكبر دليل على الاهتمام بهذا النوع من الشعر ، ولأن باب الحماسة كان أغزر الأبواب مادة ، وهو باب التعبير عن ضروب الشجاعة المختلفة .

وسنحاول الآن ، وبعد هذا التعريف بهذا اللون من شعر الأيام ، أن نعرض لمعاني الفخر

والحماسة عندهم ، لعلنا نستطيع رسم صورة قريبة من واقع عاشه العرب ردحاً من الزمن .

والصورة الأولى التي تطالعنا في شعر الأيام هي **فخر الشاعر بشجاعة قومه وشدة بأسهم في الحروب**، وهذا اللون كثير في شعر الأيام ، فهذا رَبيعة بن مَقْرُوم الضبّي يذكر أيام قومه ، ويفتخر بقومه ، وبشجاعتهم فهم بنو الحرب خُلِقوا لها ، إذا لبسوا الدروع حسبتهم قروماً ، وأنهم أقاموا بثغر يخاف غيرهم الإقامة به ، ولم يخافون والسيوف والرماح معاقلهم ، وتحتهم الخيول الجُرد التي تكر في ساحة الوغى مسرعة لا تبالي ، كما أنها لا تبرح ساحة الوغى ، ولم تتعود الشكوى ولو بَرَّح بها الألم :

بنـو الحـرب يومـاً إذا استَلأَموا حَسِبْتَهُـمُ في الحـديدِ القُروما
فِدىً ببُزاخَـةَ أَهلي لَهُمْ إذا مَلأوا بالجُمـوعِ الحَزيما

إلى أن يقول :

وثَغْـرٍ مَخُـوفٍ أَقمْنـا به يَهـابُ بهِ غيرُنـا أن يُقيما
جعلنـا السيوفَ به والرماحَ معاقِلَنـا والحـديدَ النَّظيما
وجُـرداً يُقَرِّبْـنَ دونَ العيال خِـلالَ البيوتِ يَلُكْنَ الشَّكيما
تَعَـوَّدُ في الحـربِ أَنْ لا بَراحَ إذا كُلِّمَـتْ لا تَشَـكَّى الكُلوما[1]

وهذا فارس آخر يكرر نفس الصورة في بيتين فيقول يوم رَحْرَحان :

ومعـي أُسـودٌ من حنيفـةَ في الوَغَى للبِيْضِ فوقَ رؤوسِهـمْ تَسْويمُ
قومٌ إذا لبسـوا الحـديدَ كأَنَّهم في البَيْضِ والحَلَقِ الدِّلاصِ نُجومُ[2]

ودُرَيْد بن الصِّمَّة يدعو قومه لقتال الأعداء فيجيبه منهم الشبان والشيب ، يجيئونه ملبين على جرد

---

(۱)المفضلية رقم ۳۸ لربيعة بن مقروم الضبي : استلأمنا : لبسوا للأمة ، السلاح ،القروم : فحولُ الابلُ ، الحزيم : الصلب من الأرض ، بزاخة : موضع الثغر : موضع المخافة ، النظيم : المنظوم ، الجرد : الخيل القصيرة الشعر ، يقربن دون العيال : يؤثرن بالاكرام . يلكن : يمضغن ، الشكيم : لسان اللجام ، كلمت : جرحت

(۲) قتاده بن مسلمه الحنفي حماسة أبي تمام ۲/ ۷۷۰ : حنيفة : من بني بكر ، الوغى : الحرب ، البيض : جميع بيضه وهي الخوذة ، تسويم : علامة وتأثير ، الحلق : الدروع ، الدلاص : اللينة الملساء

كالسعالي ، ولا يأتيه الفرسان فحسب بل يأتيه الراجلة أيضاً ، ولا يجبنون ولكنهم يأتون شجعاناً غير آبهين بالموت .

دَعَـوْتُ الحَـيَّ نَصراً فاستهلّوا بشبـانٍ ذوي كَرَمٍ وشيبِ
على جُرْدٍ كأمثالِ السَّعالِي ورَجْـلٍ مِثْـلِ أهميةِ الكثيبِ
فما جَبُنـوا ولكنّـا نَصَبْنا صُـدورَ الشَّرْعبيةِ للقلوبِ[1]

وطَرفة بن العبد البكريّ الشاعر الذي عُرِف بذاتية مفرطة ها هو يتغنى ببطولة قومه يوم قِضَة ، تَحْلاق اللِّمَم فيقول طالباً منهم أن يسألوا الذين عرفوهم وعرفوا شجاعتهم في هذا اليوم :

سائلـوا عَنّـا الـذي يعرفُنا بقوانا يومَ تَحْـلاقِ اللِّمَمْ
يومَ تُبْـدي البيضُ عن أسوقها وتلف الخيلُ أعـراجَ النَّعَمْ
ونـكرُّ الخيلَ في أدبارِها يومَ لا يـعطفُ إلا ذو كَرَمْ
أجـدرُ النـاسِ برأسٍ صَلْدَمٍ حـازمُ الأمـرِ شجـاعٌ في الوَغَمْ

إلى أن يقول :

خـيرُ حَيٍّ من مَعَـدٍّ عَلِموا لكفـي وجـارٍ وابـنِ عَمّ[2]

وشعر هذا اللون من الفخر القبلي أكثر من أن يُحْصَى .

ويفتخر الشاعر بقومه بأنهم يلبون نداء النجدة دونما إبطاء ودون أن يسألوا مَنْ دعاهم وعلى من استنصرهم ، وخير من عبّر عن هذا المعنى وَدّاك المازني حين قال :

إذا استُنْجِدوا لم يَسْألـوا مَنْ دَعاهُمُ لأيَّةِ حَرْبٍ أم لأيّ مكانِ[3]

وهذا شاعر يفصل في جزئيات الصورة فيعرض لنا حال الذين استصرخوا قومه ليبين فضل قومه ، ويبين حال أولئك من الضيق والشدة ، وقد عبر عن هذا سَلامة بن جندل التميمي يوم جَدود عندما أتاهم صريخ الرِّباب .

---

(١) الأغاني/ كتب ١٠/ ٢٧
(٢) ديوان طرفه ـ تحقيق علي الجندي ١٣٢ ـ ١٣٣
(٣) العقد الفريد ٥/ ٢٠١

غَداةَ أَتانا صريخُ الرِّبابِ ... ولم يَكُ يَصْلُحُ خِذْلانُها
صريخٌ لضبةَ يومَ الهُذَيْلِ ... وضبةَ تُرْدَفُ نِسوانُها
تداركَهُمْ والضُّحَى غُدْوَةٌ ... خَناذيذُ تُشْعَلُ أعطانُها
بأُسْدٍ من الفِرْزِ غُلْبِ الرِّقابِ ... مَصاليت لم يُخْشَ إدهانُها[1]

وكانت قمة الفخر عندهم أن تكون لعشيرته رئاسة القبائل في الحروب إذا دعا داعي الحرب ، فهي قمة الشرف عندهم ، أن تعترف له القبائل بالرئاسة ، فمهلهل يخاطب ابن عُنق الحيَّة متحدثاً عن يوم السُّلاَّن مفتخراً برئاسة القبائل يوم السلان ضد غسَّان :

يومٌ لنا كانت رئاسةُ أهلِهِ ... دونَ القبائلِ من بني عدنانِ
غضبتْ مَعَدٌّ غثُّها وسَمِينُها ... فيه مُمالاةً على غسَّانِ
فأَزاهُمْ عنا كليبُ بطعنةٍ ... في عمرٍو بابْلٍ في بني قحطانِ[2]

وقبل أن يحتدم القتال وتعلو الرماح ، لا بد من خطة حكيمة يضعها أحد المشهورين بالحزم والتدبير لتحقق النصر للقبيلة في صراعها ، وكان هذا مجال فخر لدى النابغة الجعْديِّ ، الذي افتخر بالخطة الحكيمة لرجل من قومه يوم جَبَلَة ، فقد أشار عمرو بن عبد الله بن جعدة على عبس وعامر بأن يضعوا النساء داخل الشِّعْب ثم المقاتلين ثم النَّعم . . .

ونحنُ حَبَسْنا الحيَّ عَبْساً وعامراً ... لحسَّانَ وابنِ الجَوْنِ إذ قيلَ أقْبِلا
وقد صَعِدَتْ وادي بحارٍ نساؤُهُمْ ... كإصعادِ نَسْرٍ لا يرومونَ منزلا
عطفنا لهم عَطْفَ الضَّروسِ فصادفوا ... منَ الهَضْبَةِ الحَمْراءِ عِزّاً ومَعْقِلا[3]

وعندما يتحدث الشاعر عن المعركة ، فإن الصور تتلاحق كثيرة ومختلفة منها الموجزة كالومضة ، ومنها المسهبة التي لا تترك جزئية إلا ذكرتها . ولكننا سنرجىء هذا حتى نتحدث عن حديث المعارك .

---

(1) النقائض ١/ ١٤٨ : الرباب : مجموعة القبائل : ضبة وتميم وعدي وعكل . تردف نسوانها : تجعلها خلفها . خناذيذ : جمع خنذيذ ، الطويل الضخم من الخيل ، أعطانها : جمع عطن وهو مبرك الإبل . الفرز : سعد بن زيد مناة ، غلب الرقاب : غلاظها (الواحد أغلب) ، مصاليت : الصلت البارز والأملس : أدهانها : خداعها وغشها .
(2) أخبار المراقسة ٢٩٧
(3) الأغاني / كتب ١١/ ١٣٦

وعندما تنجلي المعارك ، وتنتهي بهزيمة فريق وانتصار الفريق الآخر ، يشرع الشاعر المنتصر يصور نتائج المعركة بجميع تفاصيلها لا يترك شيئاً إلا افتخر به وذكره في شعره . فهو يسجل قتلهم لسيد القوم وتركه صريعاً تأكل لحمه السباع ، لنستمع إلى ربيعة بن مَقْروم الضبّي يقول يوم إضَم :

وغادَرْنا قَريعَهُمُ صرَيعاً عوائِدُهُ سِباعٌ يَعْتَفِينا(١)

وهذا شاعر آخر يصور نفس المشهد ، وهو عامر بن الطُّفيل فيقول يوم القاع :

لما رأيتُ رئيسَهم فتركتُهُ جَزَرَ السِّباعِ كأنّه لَهْدُ
وثَوى ربيعةُ في المَكَرِّ مُجَدّلاً فَعَلا النَّعِيُّ بما جَدا الجَدُّ(٢)

وعَبيد بن الأبرص يفخر بأن قومه قتلوا كثيراً من الرؤساء ، وتركوهم جثثاً تنهش لحمها السباع :

كم من رئيسٍ قد قتلناه وضَيْمٍ قد أبَيْنا
ولَرُبَّ سيِّدِ مَعْشَرَ ضَخْمِ الدَّسيعةِ قد رَمَيْنا
عِقْبانُه بظلالِ عِقبانٍ تَيَمَّمُ مَنْ ثَوَيْنا
حتى تركنا شِلْوَهُ جَزَرَ السباعِ وقد مَضَيْنا(٣)

وعندما يذكر بعض الشعراء قتل هذا السيد ، لا ينسى أن يذكر بكاء نسوته عليه وتفجعه عليه ، يقول عامر بن الطفيل :

يا رُبَّ قِرْنٍ قد تركتُ مُجَدَّلاً ضخم الدسيعةِ رأسِ حَيٍّ جَحْفَلِ
وتركت نِسْوَتَه لَهُنَّ تَفَجُّعٌ يَنْدُبْنَه أُصُلاً بِنَوْحٍ مُعْوِلِ(٤)

والشاعر الجاهلي كان يفتخر دوماً بقتل المقاتلين فقط وترك غيرهم ، لأن من العار عليه قتل غير المقاتلين ، لا مجال للفخر بذلك ، فحرص على رصد ذلك في شعره ، وقد سجل ذلك عمرو بن

---

(١) النقائض ١٩٦١ : قريعهم سيدهم ، عوائد : زواره ، يعتفين : يزرنه طلبا للحمه

(٢) ديوان عامر بن الطفيل ٤٣ جزر السباع: لحم لهم يجزونه ، اللهد : الورم ، أي أنه انتفخ ، ثوى : أقام ولم يبرح ، المكر : موضع القتال ، جدا : كسب ، الجد : الحظ

(٣) ديوان عبيد ١٣٨ : الضيم : الظلم . الدسيعة : العطية الجزيلة ، المائدة الكبيرة . العقبان : الرايات ، تيمم : تقصد ، الشلو : العضو من الجسم ، جزر السباع : قطعا تأكلها السباع .

(٤) ديوان عامر بن الطفيل ٩٢ : قرن : مثيله في الشجاعة ، رأس الحي : سيده ، الجحفل : العظيم القدر . أصلا : مفردها أصيل ، الوقت بين العصر والمغرب

معد يكرب الزبيدي يوم فَيْف الريح :

فلـم نقتـل شِرارهـم ولكنْ قتلنـا الصالحـين ذوي السلاحِ
قتلنـا مُطْعِـمَ الأضيافِ منهم وأَصحـابَ الكريهـةِ والصَّباحِ
فأنكلنـا الحليلـةَ من بنيها وخَلَّيْنـا الخَـريدَةَ للنِّكاحِ[1]

وفي يوم الكُلاب الثاني جعل قَيْس بن عاصم يقول لتميم :

لما تولَّـوْا عُصَبـاً شوازبا أَقْسَمْـتُ لا أطعـنُ إلا راكِبا
إنّي وجدتُ الطَّعْنَ فيهم صائبا[2]

وعندما يَهْزِم الأعداء شر هزيمة ، ويتمكن الفريق المنتصر من نفيهم من بلادهم نرى الشاعر يفتخر بذلك مسجلاً هذا في شعره ، فهو يمثل ذروة الانتصار على الأعداء ، وهذا عامر ابن الطفيل يفتخر بأنه وقومه تمكنوا من هزيمة مَذْحج ونفيها عن بلادها وفرّقوا فرسانها يوم فَيْف الريح :

ونحـن نَفَيْنـا مَذْحِجـاً من بلادها تُقَتِّـلُ حتـى عاد فَلاًّ شَديدُها
فأَمَّـا فريقٌ بالمَصاصَـةِ مِنْهُمُ فَفَـرُّوا وأُخْرَى قد أُبيرَتْ جُدودُها[3]

ونتيجة لهزيمة الأعداء لا بد من إرغامهم على دفع الأتاوة ، إمعاناً في إذلالهم واعترافاً منهم بالهزيمة ، وبانتصار الأعداء عليهم .

فإنْ لا يُرْهِـقِ الحَدَثـانُ نَفْسِي يُؤدوا الخَـرْجَ لِي عامـاً فعاما
يُؤدوه على رَغْـمٍ صَغاراً ويُعْطُونـا المَقـادَةَ والزِّماما[4]

وبهزيمة القوم ومقتل سيدهم ، وتشتت مقاتلتهم وفرارهم ، تبقى النساء فريسة سهلة يسبيهن الفريق المنتصر ، ففي سبيهن إذلال لقومهن وجلب العار لهم لما كان للمرأة من مكانة في

---

(١) ذيل الامالي ١٤٧ : أصحاب الكريهة : المقاتلون . الحليلة : الزوجة الخريدة الفتـ ـكر ، والخريدة : اللؤلؤة لم تثقب .

(٢) النقائض ١/ ٥٢ عصبا : جمع عصبة وهي الجماعة ، شوازبا : ضامرة .

(٣) ديوان عامر بن الطفيل ٤٦ : مذحج : بطن من اليمن . فلّ : منهزم . المصاصة : أرض ، ابيرت : أهلكت

(٤) ديوان عامر بن الطفيل ١١٥: يرهق : يعجل ، الحدثان : الموت ، الخراج : الخراج . الصغار : الذل ، المقلدة : القيادة .

نفس العربي الجاهلي ، يقول عبيد بن الأبرص مفتخراً :

وأوانسٍ مثلِ الدُّمَى حُورِ العُيونِ قد استَبَيْنا[1]

وهذا امرؤ القيس يقول لشهاب بن شداد بن ثعلبة ولعاصم بن عبيد بن ثعلبة :

إنا تركنا منكُمُ قتلى بخَوْعَى وسَبْيَاً كالسَّعالي
يمشين حول رحالنا مُعْتَرِفاتٍ بجوعٍ وهُزالِ[2]

ويزعم مُسْهِر بن يزيد الحارثي أنه أخذ امرأة عامر بن الطفيل سبية يوم فَيْف الريح ويصور ما آلت إليه من ذل ومهانة في السبي :

وكنّا إذا قَيْسِيَّةٌ دُهِيَتْ بنا جَرَى دمعُها من عينها فتحَدَّرا
مخافةَ ما لاقتْ حليلةُ عامرٍ من الشرِّ إذْ سِرْبالُها قد تعفَّرا[3]

وإمعاناً في إذلال الأعداء يصرح الشاعر بما سيفعل هو وقومه بالخرائد السبايا فيقول عمرو بن معد يكرب يوم فيف الريح :

فأثكلْنا الحليلةَ من بَنِيها وخَلَّيْنا الخريدةَ للنِّكاحِ[4]

ويصور عامر بن الطفيل مشهد السبايا وهن مردفات ، وراء القوم المنتصرين يوم شِعْب جبلة

وجئْنا بالنساءِ مُرَدَّفاتٍ وأذوادٍ فكنَّ لنا طَعاما[5]

وقد أسهب عروه بن الورد العبسي في رسم الصورة لأولئك النسوة بعد السبي

رحلْنا من أجبال ، أجيال طَيِّءٍ نسوقُ النساءَ عوذَها وعِشارَها

---

(١) ديوان عبيد بن الابرص ١٣٨ : أوانس : جمع آنسة ، الطيبة الحديث ، الدمى : الصور منقوشة المزينة فيها حمرة الدم ، حور العيون : شديدة البياض مع شدة السواد . استبينا : أسرنا .

(٢) ديوان امرىء القيس ـ طبعة دار المعارف . ٢١ : خوعى : موضع ،السعالي : الغيلان مفردها سعلاة .

(٣) العقد الفريد ٥/ ١٣٦ : قيسية امرأة من قيس ، دهيت : أصيبت ، سرياها : ثوبها

(٤) ذيل الامالي ١٤٧

(٥) ديوان عامر بن الطفيل ١١١ : مردفات : مراكبات خلفنا ، الذود : القطيع من الابل بين الثلاث الى العشر

ترى كلَّ بيضـاءِ العـوارضِ طفْلَةٍ   تُغـرِي إذا شالَ السِّماكُ صِدارَها
وقـد علمتْ أنْ لا انقـلابَ لِرَحْلِها   إذا تركَتْ، من آخـرِ الليلِ ، دارَها[1]

ولا ينسى شاعر القبيلة ، وهو الحريص على إعلاء شأن قبيلته ، والحط من شأن خصومهما أن يفتخر بأن قومه أجبروا الخصم على الهرب وتسليم زوجته للسبي ، وهذا عامر بن الطفيل يصور ذلك يوم شِعْب جَبَلَة :

وأفلتَنا على الحَوْمانِ قَيْسٌ   وأسلمَ عِرْسَه ثم استقاما
ولـو آسى حليلتَـه لَلاقَى   هنـالِكَ من أسِنَّتِنا حِماما[2]

ويبلغ الحقد والتشفي والفتك بالمنهزم أن افتخر شاعرهم ببقر بطون الحبالى ، إمعاناً في قتل الأجنَّة حيث لا يعودوا في المستقبل إلى محاربتهم :

بقرنا الحَبـالَى من شَنُـوءَةَ بَعْدَما   خَبَطْنـا بِغَيْفٍ الـريح نَهـدًا وجَثْعَما
مُجَنَّبَـةً قد لاحهـا الغـزوُ بعدَما   تُبـاري مَراخيهـا الـوشيجَ المُقَوَّما
ونحـن صَبَّحنـا حيًّ نجرانَ غارةً   تُبِيلُ حَبالاهـا مَخافتنا دَما[3]

وحمى القبيلة كالوطن ، مقدس في نظر أبناء القبيلة ، عليهم ألا يدعوا أحداً غيرهم يدوسه أو يدنسه ، والقبيلة المنيعة هي التي تحمي حماها ، ولكن ذلك لم يكن ليمنعها من استباحة حمى غيرها ، فهذا حقها ما دامت قوية منيعة ، فحمى القبيلة حرام على غير أبنائها ، ولكن حمى غيرها مباح لها ، وهذا شُرَيْح بن الحارث البربوعي يفتخر بذلك يوم طِخْفَة :

---

(1) ديوان عروة بن الورد ٨٦ : عوذها وعشارها : هذا مثل ، وهما في الابل ، الواحد عائذ وهي الحديثة النتاج ، والعشار التي قربت أن تضع وأراد أن من النساء حوامل ومنهن مراضع ، العوارض : الأسنان الضواحك . الطفلة : الناعمة الرطبة . تغري : تشف صدارها ، السماك : النجم ، شال : ارتفع ، الصدار : شيء تلبسه المرأة على صدرها ، إذا تركت من آخر الليل دارها : كأنها سبيت في الليل من آخره ليس لها رجوع . وقد فزعت لأن الغارة إنما تكون في وجه الصبح

(2) ديوان عامر بن الطفيل ١١١ - ١١٢ : الحومان : في طريق اليمامة من البصرة ، العرس : المرأة . استقام : أفلت ، آسى : قاتل عنها . حمام : موت

(3) ديوان عامر بن الطفيل ١١٨ : نهد وخثعم : حيان من اليمن ، خبطنا: ضربنا ضربا شديدا ، لاحها : غيرها ، المراخي : جمع مرخاء وهي الناقة المسرعة نشاطا ، استعارها للخيول ، الوشيج : شجر الرماح ، نجران : موضع باليمن ، تبيل : تجعلها تبول من الخوف دما

حمانا حمى الأسد التي لشبولها تجرّ من الأقران لحماً على لحم
وكنا إذا قوم رمينا صفاتهم تركنا صدوعاً بالصفاة التي نرمي
ونرعى حمى الأقوام غير محرم علينا ولا يُرعى حمانا الذي نحمي[1]

وعبّر عبيد بن الأبرص عن ذات المعنى فقال :

ولقد أبحنا ما حميت ولا مبيح لما حمينا[2]

وكان العرب في أيامهم يحرصون على أسر كبار القوم لما في ذلك من هزيمة معنوية لخصومهم وفخرهم ، ولما في ذلك من كسب مادي يحققونه بالفدية التي يأخذونها . ولقد افتخر شعراؤهم بذلك ، وكان يثير حماسهم أسر الملوك وأبنائهم ، فهو قمة النصر عندهم ، قال عمرو بن كلثوم عن يوم خزاز :

فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفّدينا[3]

وافتخر قرّة بن قيس بن عاصم يوم النّباج بأسر حُمْران وجشّامة الذهلي فارسي بكر فقال :

وحمرانُ أدَّته إلينا رماحنا فنازع غلاً من ذراعيه أسمرا
وجشّامة الذهلي قُدناه عنوةً إلى الحيِّ مصفودَ اليدين مُكَفَّرا[4]

وكان القوم المنتصرون إذا ما أسروا أنعموا على الأسرى من غير الرؤساء ، وعلى أولئك المنعم عليهم أن يعترفوا بالفضل وبالنعمى ، ولكن بعضهم لم يكن يفعل ، وكان هذا يثير الشاعر القبلي . هذا محرز بن المكعبر الضبي يفتخر بأنهم أنعموا على سبعين من بني شيبان يوم نقا الحسن ، يوم قُتل بسطام بن قيس وهُزمت بنو شيبان :

أطلقتُ من شيبانَ سبعين راكباً فآبوا جميعاً كلُّهم ليس يشكُرُ
إذا كنتُ في أفناء شيبانَ مُنْعِماً فجُزُّ اللِّحى إن النواصي تكفُرُ
فلا شكْرَهُمْ أبغي إذا كنتُ مُنْعِماً ولا ودَّهُمْ في آخر الدهر أُضْمِرُ[5]

(1) النقائض 1/ 69 : الأقران : مفردها قرن . المثيل في الشجاعة . الصفاة : الحجر العريض الأملس ، فلت صفاته : ضعفت
(2) ديوان عبيد بن الأبرص 135
(3) الكامل لابن الأثير 1/ 522 ، شرح القصائد السبع الطوال 412 : الصفد : الغل وجمعه أصفاد
(4) الكامل لابن الأثير 1/ 651 ، العقد الفريد 5/ 187 : أدته : أوصلته إلينا ، نازع غلاً : أصبح أسيراً ، أسمر : ذو سمرة ، مصفود : موثق ، عنوة : قسراً .
(5) العقد الفريد 5/ 204

وعلى الرغم من أن قسماً كبيراً من الأيام كان دافعها الغزو من أجل السلب ، إلا أننا نجد شعراءهم ينفون رغبتهم في النهب والأسرى ، ولم يرغب إلا في كسر شوكة القوم ، يقول الحارث ابن ظالم المُرّي عند فتكه بخالد بن جعفر:

وإنـــي يومَ غَمْــرَةَ غــيرَ فَخْرٍ   تركتُ النَّهْبَ والأَسرَى الرِّغابا[1]

وعبّر عنترة عن نفس المعنى فقال :

يُخْبِركِ من شَهِدَ الوَقيعةَ أَنني   أَغْشَى الوَغَى وأَعِفُّ عندَ المَغْنَمِ[2]

وقال عمرو بن كلثوم التغلبي :

فآبــوا بالنهــابِ وبالسبايا   وأُبْنــا بالملــوكِ مُصَفَّدينا[3]

والعربي كان يدرك أن الفخر إن لم تسنده الأفعال ، فلن يكون للكلام أي مفعول أو أثر، لذلك نرى شاعر القبيلة يوضح هذه الحقيقة ، ويفرق بين فخر بالكلام وفخر بالأفعال ، يقول الأعشى يوم ذي قار ، مجيباً أبا كَلْبَة عندما افتخر هذا :

أَبلــغْ أَبا كلبــة التَّيمــيَّ مَأْلُكَةً   فأَنْــتَ من مَعْشَرٍ واللهِ أَشرارِ
شيبــانُ تَدْفــعُ عنــكَ الحــربَ اونَةً   وأَنتَ تنبحُ نَبْحَ الكلــبِ في الغارِ[4]

وفي نشوة الانتصار وقمة الفخر والزهو ، لا ينسى الشاعر حقوق قرابة الدم التي تربطه بالفئة الأخرى التي هزمها ؛ إن كانت هنالك صلة قرابة ، فيذكر أنه لولا هذه القرابة لأمعن في التنكيل بهم ، ولكن للعشيرة حقوقاً ، ولنستمع إلى صخر بن سَلْمان البياضي يقول للأوس يوم الرَّبيع عندما لحقوا بهم حتى حصونهم :

أَلا أَبلــغْ عنــي سُوَيْدَ بنَ صامتٍ   ورَهْــطَ سُوَيْدٍ بلِّغــا وابــنَ الاسْلَتِ
بأَنّــا قَتَلْنــا بالــرُّبَيِّعِ سَرَاتَكُمْ   وأفلــتَ مجروحــاً به كلُّ مفلت
فلــولا حقــوقٌ في العشــيرةِ إنها   أَدلــت بحــقٍّ واجــبٍ إن أَدَلَّتِ
لنالَهُــمُ مِنّــا كما كان نالَهُمْ   مقانِبُ خيلٍ أهلكتْ حــين حَلَّتِ[5]

---

(١) المفضلية رقم ٨٩ : غمرة : جبل كان به يوم ، الرغاب : الكثيرة جمع رغيب
(٢) شرح القصائد السبع الطوال ٣٤٤
(٣) الكامل لابن الأثير ١/ ٥٢٢
(٤) الأغاني / ثقافه ٢٣/ ٢٣٧ : أبو كلبة : أحد بني قيس بن ثعلبة ، مألكه : رسالة
(٥) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٧٣ : ابن الأسلت : قيس بن الأسلت ، الربيع : يوم من أيامهم ، سراتكم : سادتكم ، أدلت : فرضت ، أوجبت .

وكان العربي يعتز بنسبه ويعتز بعشيرته ، ولا يرضى أن يعلو عليه نسب ، وكان يحلو له الافتخار بهذا النسب وهو على ظهر فرسه وسيفه في يده ، كما يحلو له الافتخار في أوقات السلم في المواسم والأسواق ، ولم يكن ليرضى أن يلحق بنسبه مهانة أو يتبرأ منه أو ينكره في أكثر اللحظات حرجاً . ففي يوم أوارة الثاني عندما فتك عمرو بن هند ببني تميم وجيء بالحَمْراء بنت ضمرة بن جابر ، وسألها : إني لأظنك أعجمية ، فقالت مجيبة :

إنـي لبنتُ ضَمْـرةَ بن جابرْ — سـادَ مَعَـدّاً كابـراً عن كابرْ
إنـي لأخْـتُ ضَمْـرةَ بن ضَمْرَهْ — إذا البـلادُ لُقِّمَـتْ بجَمْرَهْ[1]

والفخر بالنسب يكون أقوى لو ذكر الشاعر نفراً من قومه قاموا بأعمال جليلة للقبيلة كأن يكونوا قتلوا رؤساء من قبيلة أخرى أو كان الفضل لهم في النصر وإلحاق الهزيمة بالأعداء ، يقول سُحَيْم ابن وثيل الرياحي مفتخراً بقومه يوم رأس العين :

أليسَ الأكرمـون بنـو رياحٍ — نَمَوْني منهـم عَمّـي وخالي
هُمُ قتلـوا المُجَبَّـةَ وابـنَ تَيْمٍ — تنـوحُ عليهما سود الليالي
وهـم قتلـوا عميدَ بنـي فراسٍ — بـرأسِ العيـنِ في الحِجـجِ الخَوالي
وذادوا يوم طخفـة عن حِماهُمْ — ذيادَ غرائـبِ الإبـلِ النِّهالِ[2]

وقرة بن قيس بن عاصم افتخر بأبيه لأن أباه كان قد شقّ المزاد ليجبر فرسان قومه على القتال والنصر وإلا ماتوا عطشاً فقال قُرَّة :

أنـا ابـنُ الـذي شَقَّ المَزادَ وقد — رَأى بثيـتـل أحياءَ اللهـازمِ حُضَّرا
وصبَّحَهُـمْ بالجيشِ قيسُ بنُ عاصمٍ — فلـم يجـدوا إلا الأسنَّـةَ مَصْدَرا[3]

وهذا شُرَيْح بن الحارث البربوعي يفخر بآل يربوع أولي الشرف الضخم الذين ينتسبون إلى فرع عالي الشرف والهمة ، كما أنهم ملكوا أملاك الغساسنة وأرغموا المناذرة على الاعتراف بفضلهم وجعل الردافة فيهم :

---

(١) الأغاني / ثقافة ٢٢/ ١٩٢ : ضمره بن ضمرة : أحد الحكام الجاهليين من بني نهشل ، لقمت بجمرة : أصابها خطب عظيم .

(٢) العقد الفريد ٥/ ١٩٢

(٣) الأغاني / ط كتب ١٤/ ٨١ : المزاد : جمع مزادة ، وهي وعاء يحمل فيه الماء في السفر ، ثيتل : مكان لهم فيه يوم ، اللهازم : بنو قيس بن ثعلبة وعنزة وعجل وتيم اللات ، صبحهم : فاجأهم صباحا ، مصدر : ما يصدر عنه .

وكنتُ إذا ما بابُ مَلْكٍ قَرَعْتُهُ ... قَرَعْتُ بآباءٍ أُولي شَرَفٍ ضَخْمِ
بأبناءِ يَرْبُوعٍ وكانَ أبوهُمُ ... إلى الشرفِ الأعلى بآبائه يَنْمي
هُمُ ملكوا أملاكَ آلِ مُحَرِّقٍ ... وزادوا أبا قابوسَ رَغْماً على رَغْمِ
علا جَدُّهُمْ جدَّ الملوكِ فأطلقوا ... بطخفةَ أبناءَ الملوكِ على الحُكْمِ[1]

ويحلو للشاعر الفارس ، وهو يفخر ويذكر بطولات قومه ، وانتصاراتهم أن يفتخر بالفضائل التي يمتاز بها قومه ، ولتكون صورتهم أكمل ، فهم فرسان شجعان ، كما أنهم يتحلون بالفضائل التي تعارف عليها المجتمع الجاهلي :

ومن هذه الفضائل الكرم وإتلاف المال لحفظ العرض من الذم ، يقول الأعشى معبراً عن ذلك يوم أوارة :

إذا روَّحَ الراعِي اللقاحَ مُعَجِّلاً ... وأمْسَتْ على آفاقِها غَبَراتُها
أهَنّا لها أموالَنا عندَ حقِّها ... وعَزَّتْ بها أعراضُنا لا نُفاتُها[2]

والكرم أجدى في وقت الشدة عند ما تبخل السماء بالماء ، ويجف الزرع والضرع عندها يصبح الكرم مفخرة ، يقول عامر بن الطفيل معبراً عن هذا المعنى يوم فَيْف الريح :

إذا سَنَةٌ عزَّتْ وطالَ طِوالُها ... وأقْحَطَ عنها القَطْرُ واصفرَّ عُودُها
وُجِدْنا كِراماً لا يُحَوِّلُ ضَيْفَنا ... إذا جَفَّ فوقَ المَنْزِلاتِ جَليدُها[3]

والعرض في الجاهلية محاط بسياج قوي ، يحفظونه ويحافظون عليه ، ويشهرون سيوفهم دفاعاً عنه ، أو لمجرد المحاولة للمساس به ، يقول عمرو بن حَوْط الرياحي يوم طِخْفَة :

فما قومٌ كقومي حينَ يُخْشَى ... على الخَوْدِ المُخَدَّرةِ الفِضاحُ
أذَبُّ عن الحفائظِ في مَعَدٍّ ... إذا ما جدَّ بالقومِ النِّطاحُ[4]

---

(1) النقائض ٦٨/١ : ملك : يعني أبا قابوس . آل محرق : الغساسنة .
(2) ديوان الأعشى ٨٧: أنا لنبذل أموالنا في السنة الشديدة القحط ، حين تغير آفاق السماء ، ويسرع إلى لقاحه يوم بها خشية البرد .
(3) ديوان عامر بن الطفيل ٤٦ - ٤٧: عزت : غلبت ، أجدبت ، طال طوالها : طال مكثها وشدتها ، أقحط : انقطع ، المنزلات : الواحدة منزلة وهي الدار موضع النزل .
(4) النقائض ٦٩/١ : الخود : الشابة الناعمة ، حسنة الخلق ، الفضاح : كشف المعايب ، الحفائظ : أهل الحفائظ المدافعون عن أعراضهم ، النطاح : المنازلة .

ويفتخر سلامة بن جَنْدل التميمي بأنه وقومه منعوا نساءهم وحفظوا أعراضهم يوم مُلْزِق :

بأنّـــا منعنا بالفَــروقِ نساءنَا ونحـنُ قَتَلْنا مَنْ أتانا بمُلْزِقِ [1]

ويعبّر عن هذا المعنى ربيعة بن مقروم الضبي فيقول بأن قومه طوال الرماح غداة الصباح وهم ذوو نجدة ويمنعون حريمهم :

طِوالُ الرمـــاحِ غَدَاةَ الصَّباحِ ذَوو نَجْـدَةٍ يمنعــون الحَريما [2]

والعربي يأبى الذل ولا يقبل أي شكل من أشكاله ، وهم يرفضون المقام بدار الهوان ، وكانت حروبهم بسبب هذا الرفض لذلك ، والثورة عليه ، يقول عمرو بن كلثوم التغلبي :

إذا ما المَلْكُ سامَ الناسَ خَسْفاً أَبَيْنا أَنْ نُقِرَّ الـذُلّ فينا [3]

ويعبر عن رفض الذل والإقامة بدار الهوان ، شاعر ضبة ربيعة بن مقروم حيث يقول :

ودار هَوانٍ أَنِفْنا المُقامَ بهـا فَحَلَلْنـا مَحَـلاًّ كَريما

إذا كان بعضُهُـم للهَوَانِ خَليطُ صَفـاءٍ وأَمَّـاً رَؤوما [4]

والحليف يحمونه مما يحمون أنفسهم ، وهو في منعة بينهم ، والاعتداء عليه بمثابة اعتداء عليهم ، وقد تنشب الحروب بينهم بسبب الاعتداء عليه . يقول عبيد بن الأبرص :

إنـا لَعَمْـرُكَ لا يُضامُ حليفُنـا أبـداً لدنيا [5]

ويقول في موضع آخر :

نحمِـي حقيقَتَنا ونمنـعُ جارَنا ونلفُّ بـينَ أرامِـلِ الأَيتامِ [6]

وحسان بن نُشْبَة العدوي يمدح قوماً ويفديهم بنفسه لأنهم أبوا أن يبيحوا جارهم لعدوهم على الرغم من احتدام القتال وسقوط القتلى :

---

(١) ديوان سلامة بن جندل التميمي ص ١٦

(٢) المفضلية رقم ٣٨ : النجدة الرفعة في كل أمر ، الحريم : ما يجب عليهم منعه

(٣) شرح القصائد السبع الطوال ٤٢٥ سام : أولى الناس الخسف وأراده منهم . الخسف : الظلم والنقصان .

(٤) المفضلية رقم ٣٨ : الرؤوم : التي تعطف على ولدها .

(٥) ديوان عبيد بن الأبرص ١٣٥

(٦) ديوانه ١٢٣ : الحقيقة : ما يحق على الإنسان أن يحميه . نلف : نجمع ونضم

إنّـي وإنْ لم أفْـدِ حيّاً سواهُـمُ فـداءً لتيم يومَ كلـبٍ وحِمْيرا
أبـو أن يُبيحـوا جارَهـم لعَدُوِّهِمْ وقد ثارَ نَقْـعُ الموتِ حتـى تَكَوْثَرا[1]

ولعل هذا النص لعبدالله بن رواحة يجمل لنا بعض ما كان البدوي يفخر به من مكارم فهـو يقول :

وقـد عـلـم القبائـلُ غـيـرَ فَخْرٍ إذا لـم تُلْفَ مائلـةً ركـودا
بأنـا نَخْـرُجُ الشتـواتُ منّا إذا ما استحكمـت حَسَبـاً وجُودا
قدورٌ تَفْـرقُ الأصـالَ فيهـا خضيبٌ لونهـا : بيضـاً وسـودا
متـى ما تأتِ يثـربَ أو تزرهـا تجدنـا نحـن أكرمهـا وجـودا
وأغلظهـا على الأعـداءِ رُكْنـاً وألينهـا لباغـي الخيـرِ عُودا
وأخطبهـا إذا اجتمعـوا لأمرٍ وأقصدهـا وأوفاهـا عُهـودا
إذا نُدْعَـى لثـأرٍ أو لجارٍ فنحـن الأكثـرون بهـا عَديدا
متـى ما تدعُ في جَشْـمِ بن عَوفٍ تجدنـي لا أغَـمَّ ولا وحيدا[2]

ويختلط الفخر القبلي بالفخر الفردي عند بعض الشعراء الذين لا يقبلون بذوبان شخصيتهم ذوباناً تاماً في شخصية القبيلة فتبدو منهم فلتات لسان ، يقول عبيد بن الأبرص مخاطباً حجر بن الحارث وإخوته ، وكان حجر يتوعده في شيء بلغه عنه ثم استصلحه .

اذهب إليكَ فإنّي من بنـي أسَدٍ أهْلِ القِبـابِ وأهْلِ الجُرْدِ والنادي
قد أتـرُكُ القِـرْنَ مُصْفَـراً أناملُهُ كأنَّ أثوابَـهُ مُجَّـتْ بفرصاد
أوْجَرْتُـهُ ونـواصي الخَيْلِ شاحبةٌ سَمْـراءَ عاملُهـا من خَلْفِـه بادي[3]

---

(١) حماسة أبي تمام ١/ ٣٣٧ : نقع : غبار ، تكوثر : تراكم بغزارة
(٢) جمهرة أشعار العرب ٢٣٩
(٣) ديوان عبيد بن الأبرص ٤٩ : أهل القباب: يصفهم بأنه سادة ، الجرد : الخيل القليلة الشعر ، مصفر الأنامل : من النزف ، مجت ، صبغت ، الفرصاد : التوت ، أوجرته : طعنته ، شاحبة : متغيرة اللون ، سمراء : حربه ، العامل : ما سفل عن السنان من الرمح بذراع حيث يعقد اللواء ، بادي : ظاهر .

وعند ما يفتخر عنترة العبسي بيوم الهباءة فإنه يفتخر بفرسان قومه أولاً ويتحدث عن شجاعتهم فيقول :

فجـاءوا عارضـاً بَرِداً وجئْنا حَرِيقـاً في غَرِيفٍ ذي ضِرامِ
وأَسْكَتَ كلُّ صوتٍ غيرِ ضَرْبٍ وعَتْرَسَـةٍ ومَرْمِـيٍّ ورامي[1]

ثم ينتقل إلى الفخر بنفسه وبشجاعته فيقول :

وزعتُ رعيلَها بالرمـحِ شَذْراً على رَبِـذٍ كسِرْحانِ الظلامِ
أَكُرُّ عليهـم مُهْـرِي كَليماً قلائِـدُهُ سَبائِـبُ كالقِرامِ

والفخر الفردي أيضاً له مكان في شعر الأيام ، وعلى الرغم من ضآلته إذا ما قيس بالفخر القبلي ، إلا أنه لم يختف تماماً ، فالشخصية مهما تفانى صاحبها في سبيل قومه لا بد أن تنزع إلى الأثرة وحب الظهور ، ثم إن هذا الفخر الفردي ، كما بينا هو فخر قبلي ، إذ أن هذه الشجاعة مسخرة لمصلحة القبيلة تقاتل أعداء القبيلة وتذود عن القبيلة ، والفارق هنا هو أن الشاعر يتحدث عن نفسه وليس عن أبطال آخرين من قومه ، ففي يوم الكلاب الثاني أسرت تميم عبد يغوث بن الحارث فجعل يتغنى بما كان عليه من شجاعة ومنعة في قومه فقال :

وكنـتُ إذا ما الخيلُ شمصهـا القَنا لَبيقـاً بتصريف القَنـاةِ بَنانيا
وعـاديةٍ سَوْمَ الجَـرادِ وَزَعْتُها بكفِّـي وقـد أنحـوا إليَّ العَواليا
كأنـي لم أركبْ جواداً ولـم أَقُلْ لِخَيْلِيَ كُرِّي نَفِّسِي عن رجاليا
ولـم أَسْبَأ الزقَّ الرَّوِيَّ ولـم أَقُلْ لأيْسارِ صِدْقٍ : أَعظِموا ضَوْءَ نارِيا[2]

وهذا فارس عامر يوم فيف الريح ، عامر بن الطفيل يفتخر بشجاعته ، وبكره على الأعداء ، وبكره يوم فيف الريح ، ولم يزل كذلك حتى بلّ نحره وصدر حصانه دم الأعداء :

---

(١) ديوان عنترة ١٥٨ - ١٥٩ : الغريف : الشجر الملتف ، العترسة : العنف والشدة ، وزعت كففت ، ربذ : الخفيف القوائم في مشيه ، الكليم : الجريح ، سبائب : جمع سبيبة وهي الشقة الرقيقة ، القرام : ثوب من صوف غليظ يفرش في الهودج ، وهو الستر الرقيق الأحمر .

(٢) للمفضلية رقم ٣٠ : شمصها : نفرها ، اللبق : الظرف والرفق ، عادية : خيل عادية ، سوم الجراد : انتشاره في طلب المرعى . وزعتها : كففتها ، انحوا الى : وجهوا إلى ، السباء : اشتراء الخمر ، الروي : الممتلىء ، الايسار : الذين يضربون القداح .

وقـد علموا أنّـي أكُرُّ عليهمُ   عشيَّةَ فَيْفِ الـريح كَرَّ المُدَوَّرِ
وما رِمْتُ حتّى بَلَّ نحرى وصَدْرَهُ   نجيعٌ كهُـدّابِ الـدِّمَقْسِ المُسَيَّرِ(١)

وهذا شاعر عامريّ آخر يفتخر بأنه حرر قبيلته من تسلّط الآخرين عليها بقتله زهير بن جذيمة العبسّي الذي كانت عامر تخضع لسلطانه وتدفع الاتاوة كل عام ، ذلك هو خالد بن جعفر الكلابيّ قاتل زهير بن جذيمة العبسّي ، وقتيل الحارث بن ظالم المُرّي فيا بعد

بلْ كيفَ تكفُرُنـي هَوازنُ بعدَما   أعتقتُهُـمْ فتوالـدوا أحرارا
وقتلتُ رَبَّهُـمُ زهـيراً بعدما   جَـدَعَ الأنـوفَ وأكثـرَ الأوتـارا
وجعلتُ مَهْـرَ بناتِهم ودياتِهم   عَقْـلَ الملـوكِ هَجائِنـاً وبِكارا(٢)

والفخر عند فارس عبس فخر بفضائل يعتز بها ويجعلها قوام شخصيته ، وفخر ببطولته في المعارك ، فعنترة فارس شجاع يغشى الوغى ولكنه يعف عند المغنم :

يُخْبِـرْكَ مَنْ شَهِـدَ الوَقيعـةَ أنني   أغشَى الوَغَـى وأعِفُّ عنـدَ المَغْنَمِ
فأَرَى مَغانِـمَ لو أشـاءُ حَوَيْتُها   فيَصُدُّنـي عنهـا الحَيا وتكرُّمي(٣)

وهو يرفض حياة الذل ويفضل المبيت على الطوى حتى ينال كريم المأكل :

ولقد أبيت على الطَّوَى وأظَلُّهُ   حتـى أنالَ به كريمَ المأكَلِ(٤)

وعنترة ساعة اللقاء خير من فارس معم مُخْول ، رفيع النسب ، وهو بذلك يؤكد قيمة الفارس بشجاعته لا بنسبه :

إنـي امـرؤ من خـير عبس منصباً   شَطْـري وأحْمِـي سائِـري بالْمُنْصَلِ
وإذا الكتيبـةُ أحْجَمَـتْ وَتلاحَظَتْ   الفيتُ خـيرا من مُعِمٍّ مُخْولِ(٥)

(١) المفضلية رقم ١٠٦ : المدور : الذي يطوف بالدوار وهي أعمدة كانوا يتخذونها بحذاء أوثانهم . رمت : برحت ، النجيع : الدم المصبوب ، الدمقس : الحرير ، المسير : برود من اليمن فيها خطوط

(٢) العقد الفريد ٥/ ١٣٧ : ربهم : سيدهم ،الأوتار: جمع وتر وهو الذحل ، عقل الملوك : ديتهم ، هجائن : الابل البيض الكرام . بكار : الفتى من الابل .

(٣) ديوان عنترة ١٥٠

(٤) ديوان عنترة ١١٩ : الطوى : الجوع

(٥) ديوان عنترة ١١٩ المنصب : الأصل والحسب ، المنصل : السيف ، تلاحظ : من اللحظ وهو النظر ، المعم المخول : الكريم الأصل .

ويمكننا ملاحظة بعض الخصائص التي تتضح في شعر الفخر والحماسة ، فالفخر يقوم على الفضائل الاجتماعية التي أقرتها الحياة العربية ، وإن الفخر كان يستقى مادته الأساسية من تلك الحروب التي عمت الجزيرة العربية ، وإن الفضائل التي كان الشاعر الجاهلي يفتخر بها كان يأتي بها لتساند فخره بشجاعة قومه ، وإن تلك الشجاعة وإن كانت تكسبهم المهابة والاستقلال ، إلاّ أنهم يكتسبون احترام الآخرين أيضاً بغير القوة ، يكتسبونه بما يتمتعون به من فضائل تجعلهم في الصدارة بين القبائل . ومن النادر أن نجد قصيدة خصصها الشاعر للفخر بهذه الفضائل منفصلة عن الفخر ببطولات قومه .

كما نلاحظ أن الفخر في ذلك العصر كان قبلياً ، وأن الفخر الفردي كان يلجأ إليه الشاعر حينما يحاول انتزاع اعتراف قومه به ، أو حينما يحاول أحد أفراد القبيلة النيل منه ، ومع ذلك فإن هذا الشاعر كثيراً ما كان يمزج الفخر الفردي بالفخر القبلي ، وترد عنه غوائل الدهر . وتبرز هذه الظاهرة في شعر عنترة .

وكان قوام الفخر في ذلك العصر : الوقائع والأنساب والأحساب والمآثر ، يمزجها الشاعر بنسب متفاوتة حسب ما يقتضيه المقام .

ولكي يحقق الشاعر الغرض الأساسي الذي من أجله الفخر كان يستخدم ألفاظاً قوية ، ويركز على ما كان يقدسه ذلك المجتمع ، وما كان يتعارف عليه ، وكان يختار الوزن المناسب والقافية المناسبة ، ويصبغ الصور التي يعرضها بأصباغ لتحدث التأثير الذي يتطلبه الموقف .

حديث المعارك :

لقد كان الفخر ظاهرة طبيعية بين الجاهليين اقتضتها حياة القبائل المتحاربة والأفراد المتنافسين ، ولذا أكثر مدار الفخر كان حول المناقب والمآثر التي كانوا يفاخرون بها . وكان من أبرزها الفخر بالوقائع والأيام التي انتصرت فيها القبيلة والأيام التي هُزمت فيها القبيلة فيمكن الرجوع إليها من أهاجي خصومها . ومن أولئك وأهاجي هؤلاء ينتظم تاريخ القبيلة الحربي . وكان الفخر بالوقائع والأيام يشكل غالبية شعر الفخر والحماسة في ذلك العصر .

وقد عرضنا في حديثنا عن الفخر والحماسة لبعض نواحي فخر الشاعر بلسان قبيلته بأيامها وما تحققه من انتصارات على الأعداء ، وأسرها كبار القوم ، وسبيها النساء وتغريم أعدائها الأتاوات، كل هذا وغيره عرضناه في مجال حديثنا عن الفخر . ولكننا أجلنا الحديث عن المعارك ، كيف كان الجاهليون يخوضونها ، وكرّ الفرسان وفرّهم ،وتساقط القتلى ، وهزيمة الجبان ، وفرار

المنهزمين ، وعويل النساء ، وحال السبايا من الأعداء ، كل هذا لم نعرضه ، وأجلناه إلى حين إفراد حديث خاص له وهذا هو دوره الآن : .

وأول ما حرص عليه الشاعر الجاهلي ، شاعر القبيلة ، أن يصوره لنا هو **رحلة جيش قومه ورحلة جيش الأعداء قبل اللقاء واحتدام القتال** ، ولقد صور لنا ذلك أوس بن غَلْفاء .

جَلَبْنا الخيلَ من جَنْبَيْ أَرِيكٍ ... إلى أَجَلَى إلى ضِلَعِ الرجامِ
بكل مُنَفَّقِ الجُرْذانِ مَجْرٍ ... شديدِ الأَسرِ للأَعداءِ حامِ
أَصَبْنا مَنْ أَصَبْنا ثم فِئْنا ... على أهلِ الشُّرَيْفِ إلى شَمامِ
وَجَدْنا مَنْ يقودُ يَزيدُ منهُمْ ... ضِعافَ الأَمرِ غيرَ ذوِي نِظامِ
فأَجْرِ يزيدُ مَذْموماً أو انْزَعْ ... على عَلْبٍ بأَنفِكَ كالخِطامِ[1]

فأوس بن غَلْفاء في الأبيات الثلاثة الأولى يتحدث عن جيش قومه العظيم ، كما تحدث عن المواضع التي سلكها هذا الجيش إلى أن لقى الجيش الذي يقوده يزيد، وتحدث عن جيش يزيد الضعيف السيء النظام، ولم ينس الشاعر أن يسخر من يزيد بن الصَّعِق الكِلابي ويهجوه بالضعة والحمق.

وهذا شاعر آخر هو أُنَيْف بن زُيَّان النبهاني الطائي يتحدث عن استعداد قومه لمهاجمة وملاقاة بني أسد يوم ظَهْر الدَّهْناء ، وهو هنا يفصل في جزئيات الصورة أكثر من سابقه ، فقد جمع لهم من جيش عوف ومالك كتائب تورد الأعداء موارد الهلاك وأن هذه الكتائب كثيرة العدد والعدة ، فقد جاوزت سوابق هذه الكتائب وأوائلها بلاد طسم وجديس ، ولواحقها قد شحنت بها هذه المواضع ، وبين مقدمة هذه الكتائب ولواحقها مسافات بعيدة دلالة على كثرتها ، وتحت صدور هذه الدواب قطعة من الرجالة تقدر نبالها للقلوب الغافلة ، وقد منعهم معرفة الضيم كثرتهم وترائهم ، وأنهم عندما بلغوا أسفل الجبل من بطن هذا الوادي بحيث التقى هذان الجنسان من الشجر ، وهذه اشارة الى مواضع العراك والقتال ، دعوا يالنزار ، وقلنا نحن : يالطيء ، ثم يستمر في عرض الصورة :

جَمَعْنا لهم من حَيِّ عَوْفٍ ومالك ... كتائبَ يُرْدَي المُقْرِفِين نكالُها
لهم عَجُزٌ بالحَزْنِ فالرَّمْلِ فاللِّوى ... وقد جاوزتْ حَيَّيْ جديس رعالُها

---

(۱) المفضلية رقم ١١٨: أريك واجلى وضلع والرجام : مواضع ، منفق الجرذان: يخرجها من المنافق ، المجر : الجيش العظيم لا يتبين حركته إذا سار ، الأسر : الشد ، فئنا : رجعنا ، يزيد : يزيد بن الصعق ، العلب : ان تؤخذ حديدة فيقشر بها الأنف حتى يبدو العظم .

وتحتَ نُحورِ الخيل حَرْشَفُ رَجْلَةٍ ... تُتاحُ لِغِرَّاتِ القُلوبِ نِبالُها
أَبَى لَهُمُ أنْ يعرِفوا الضَّيْمَ أنَّهم ... بنو ناتِقٍ كانت كثيراً عِيالُها
فلما أتينا السفحَ من بطنِ حائلٍ ... بحيث تلاقَى طَلْحُها وسَيالُها
دعوا لِنزارٍ وانتسبنا لطيّءٍ ... كأُسْدِ الشَّرَى إقدامُها ونِزالُها(١)

فالشاعر هنا تحدث عن البطون المشتركة في القتال، كما صوّر لنا كثرة جيش قومه، وأسلحتهم وبأن هذا العدد كان له أثر في منع الضيم عنهم، ثم تحدث عن ساعة اللقاء بين الفريقين، وانتماء كل فريق إلى عصبيته، ونداءاتهم لبثّ الحماس في نفوس المقاتلين.

ولعل مالك بن نُوَيْرَةَ كان أكثر تفصيلاً في وصف حركة جيش قومه يوم مُخَطّط، وتحركه عبر الطريق الطويل حتى وصل ديار الأعداء، ولم ينس الشاعر أن يبين لنا غفلة الأعداء عن تحركات هذا الجيش، وكيف وقعت عليهم تلك المفاجأة فيقول:

إلا أكُنْ لاقيتُ يومَ مُخَطَّطٍ ... فقد خَبَّرَ الرُّكْبانُ ما أتَوَدَّدُ
أتاني بِنَقْرِ الخَبَرِ ما قد لَقِيتُهُ ... رَزِينٌ ورَكْبٌ حولَه مُتَعَضِّدُ
يُهِلُّونَ عُمَّاراً، إذا ما تَغَوَّروا ... ولاقوا قُرَيْشاً خَبَّروها فأنْجَدوا
بأفناءِ حيٍّ من قبائلِ مالكٍ ... وعمرِو بنِ يَرْبوعٍ أقاموا فأخْلَدوا
وردَّ عليهم سَرْحَهُمْ حول دارهم ... ضِناكاً ولم يَسْتأنِفِ المُتَوَحِّدُ
حُلُولٌ بفردوسِ الإيادِ وأقبلتْ ... سَراةُ بني البَرْشاءِ لمَّا تأوَّدوا
بألفينِ أو زادَ الخميسُ عليهما ... لِيَنتزِعوا مِرْقاتَنا ثم يُرْغِدوا
ثلاثَ ليالٍ من سَنامٍ كأنهم ... بَريدٌ، ولم يَثْنُوا ولم يَتَزَوَّدوا
فلما رأوا أدنى السِّهامِ مُعَزِّيا ... نهاهم، فلم يلووا عن النَّهْي أسودُ
وكان لهم في أهلِهم ونسائهم ... مَبيتٌ ولم يدروا بما يُحْدِثُ الغَدُ
فقالَ الرئيسُ الحوفزانُ: تلبَّبوا ... بني الحُصْنِ إذ شارَفتُمُ ثم جَدِّدوا
فما فَتِئوا حتى رأونا كأننا ... مع الصبحِ آذِيٌّ من البحرِ مزبدُ(٢)

(١) حماسة أبي تمام -شرح المرزوقي ١٦٩/١: المقرفين: المقرف إذا كان أحد أبويه عربياً والآخر غير عربي، نكالها: عقابها، عجز: مؤخرة، رجله: موضوعة لأدنى العدد، تتاح: تقدر، حرشف: قطعة من الرجالة، الناتق: المرأة الكثيرة الأولاد. الطلح والسيال: شجران، الشري: موضع كثير الأسد.

(٢) الأصمعية رقم ٦٧، العقد الفريد ١٩٨/٥: يهلون: يرفعون أصواتهم بالتلبية، عمارا: =

فالشاعر هنا لم يفته شيء لم يذكره ، ذكر اسم اليوم ، وذكر جيش قومه ، والبطون التي أسهمت في تشكيله ، ولم يفته ذكر عدد الجيش ، وكم سار هذا الجيش ، حتى وصلوا أرض الأعداء ، وحال الأعداء قبل أن يفاجأهم جيش قبيلة الشاعر ، وما أصابهم حين رأوا هذا الجيش . ثم يستمر الشاعر في وصف المعركة ونتائجها بعد هذه الأبيات .

ويحرص الأعشى على أن يبدأ بوصف جيش الأعداء مفصلاً قبل أن يتحدث عن جيش قومه يوم التقى الجيشان بكر وفارس يوم ذي قار :

أتانـا عن بنـي الأحرا ... ر قولٌ لَمْ يكنْ أمما

أرادوا نَحْـتَ أثلتِنا ... وكُنَّـا نمنـعُ الخُطُما

**

فباتـوا ليلهـم سَمَراً ... لِيُسْـدوا غبَّ ما نَجَما

فغبَّـوا نَحْوَنـا جَنَباً ... يُهِـدُّ السَّهْـلَ والأكَما

سوابـغَ مُحْـكَم الماذِ ... يِّ شدُّوا فوقهـا الحُزُما

فجـاءَ القَيْلُ هامَرْزٌ ... عليهـم يُقْسِـمُ القَسَما

يـذوقُ مُشَعْشَعـاً حتى ... لفيـءَ السَّبْـيَ والنَّعَما

وبعد ذلك يقرر في أبيات قليلة مصير هذا الجيش بهذا العدد وبهذه العدة وأولئك القادة ، وبتلك الأماني التي كان يمنّي نفسه بها فيقول :

فلاقَـى الموتَ مُكْتَنِعاً ... وذُهْـلاً دونَ ما زَعَما

أُبـاةُ الضَّيْمِ لا يُعطو ... نَ مَنْ عادَوْه ما حكَما

أَبَـتْ أعناقُهـم عِزاً ... فما يُعْطُـونَ مَنْ غَشَما[1]

معتمرين ، تغوروا : أتوا الغور ، انجدوا : أتوا نجداً . السرح : الابل الراعية ، الضناك : الموثق الشديد ، المتوحد : المنفرد ، بنو البرشاء : ذهل وشيبان وقيس أبناء ثعلبة والبرشاء لقب أمهم . تأودوا : تثنوا ، عرقاتنا : شأفتنا ، يرغدوا : يخصبوا ، سنام : إسم جبل . بريد : رسول الحوفزان : الحرث بن شريك الشيباني ، تلببوا : لبسوا السلاح ، الأذى : الموج ، ملمومة : مجتمعة .

(1) ديوان الأعشى ص ٣٠١ ، النقائض ٢/ ٦٤٥ : بنو الأحرار : يقصد الفرس . أمما : ظالم بعيد عن القصد والرشاد ، نحت أثلتنا : استئصال شأفتنا ، الخطيم : جمع الخطام وهو الزمام ، سمرا : ساهرين ، يسدوا غب ما نجم : يدبروا ما اعزموا عليه ، سوابغ : دروع ، مشعشعاً : الخمر التي مزجت بالماء ، مكتنع : جاثم في انتظاره ، غشم : الظلم .

ويصور لنا الأعشى حال جيش الأعداء ومقدمهم يوم ذي قار ،ويقرن بتلك الصورة صورة ظعن قومه وهن يسرن خلفهم تجري مدامعهن جزعاً وخوفاً من مصير المعركة ، ولكنه لا يلبث أن ينتقل إلى وصف المعركة التي جرت لصالح قومه . وهو لا يظلم الأعداء بل يصور جيشهم اللجب كأنه قطعة من الليل، تقوده البطارقة وأبناء الملوك من الأعاجم .

لما أتَوْنـا كأن الليلَ يَقْدُمُهُمْ   مُطَبِّـقَ الأرضِ يَغْشاها بهم سَدَفُ
بطـارِقٌ وبنـو مُلْكٍ مرازبَةٌ   مِـنَ الأعاجمِ في آذانِها النُّطَفُ

ثم يصف ظعن قومه :

وظُعْنُنـا خَلْفَنـا تجـري مَدامِعُها   أكبادُهـا وَجَـلاً ممـا تَرى تَجِفُ
يحسرنَ عن أوجهٍ قد عايَنَتْ عِبَراً   ولاحهـا غُبْـرَةٌ ألوانُهـا كُسُفُ(1)

وعندما يتحدث الشاعر الجاهلي عن سير المعركة ، فإن الأمر مختلف عند الشعراء ، فبعضهم يسهب في رسم صورة اليوم كاملة ، ومنهم من يكتفي ببعض الصور المركزة ثم يقفز بنا إلى النتيجة ، لنستمع إلى الأعشى يوم ذي قار يقول :

لما أمالـوا إلى النُّشّـابِ أَيْدِيَهُمْ   مِلْنـا بِبيضٍ فظـلَّ الهـامُ يُقْتَطَفُ
وخيلُ بَكْرٍ فما تنفـكُّ تطحنُهُمْ   حتـى تولَّـوْا وكادَ اليوم يَنْتَصِفُ(2)

ويرسم الأعشى صورة للمعركة أكثر وضوحاً وتفصيلاً في قصيدة أخرى عن يوم ذي قار مصوراً ما أصاب فرسانهم ونساءهم بعد الهزيمة التي مُنوا بها فيقول :

تناهتْ بنـو الأحـرارِ إذ صَبَرَتْ لهم   فـوارسُ من شيبـانَ غُلْـبٌ فَوَلَّتِ
وأفلتهـم قيسٌ فقلـتُ لعلَّه   يَبِـلُّ لئـن كانـتْ به النعـلُ زَلَّتِ
فما بَرِحـوا حتـى استُحِثَّتْ نِساؤُهُمْ   وأَجْـرَوْا عليهـا بالسِّهـامِ فذلَّتِ(3)

---

(1) الأغاني / ثقافة ٢٣/ ٢٤٠ ، وانظر ديوان الأعشى ٣١١ : سدف الظلمة ، النطفة : لؤلؤة تعلقها الأعاجم في الأذن . ظعن : جمع ظعينة وهي الزوجة . مدامع : عيون ، تجف : تخفق يحسرن : يكشفن ، الغبره : لون الغبار ، كسف : جمع كاسف وهو المهرم الذي تغير لونه .

(2) الأغاني / ثقافة ٢٣/ ٢٤٠وانظر ديوان الأعشى ٣١١ : البيض السيوف ، الهام : جمع هامة وهي الرأس

(3) ديوان الأعشى ٢٦١ : تناهت : كفت ، غلب : جمع أغلب وهو الغليظ العنق . قيس : هو قيس بن مسعود ، بل : ذهب ، استحث نساؤهم : سيقوا أمام القوم وقد أخذن سبايا ، يدفعن طلبا للإسراع . أجروا عليها بالسهام : اقترعوا عليهن

وفي يوم مُخَطَّط التقت بنو تميم وبنو شيبان ، وهُزمت بنو شيبان ، وصور فارس تميم مالك بن نُوَيْرَة لنا ذلك اليوم عندما أطبق فرسان تميم عليهم بالسهام والرماح حتى بددوهم واستأسر القوم ، وأعمل كماتهم في الأعداء سيوفهم وكأن بين أسنة الرماح والمنية موعداً في ذلك اليوم فلم تخب لهم طعنة :

ضممنـا عليهـم طابنيهـم بصائبٍ ... من الطعنِ حتى استأسروا وتبَّددوا
بِسُمْـرٍ كأَشطـانِ الجَـرور نواهلٍ ... يجـورُ بهـا زَوُّ المَنـايا ويَقْصِدُ
ترى كلَّ صَدْقٍ زاعبـيٍّ سِنانُهُ ... إذا بَلَّـهُ الأَنـداءُ لا يتأَوَّدُ
تقعـن معـاً فيهـم بأيدي كُماتِنا ... كأنَّ المنـونَ للأَسنَّـةِ مَوْعِدُ
تُدِرُّ العـروقَ الأبياتِ ظُباتُنا ... وقـد سَنَّهـا طَرٌّ وَوقْـعٌ ومِبْرَدُ[1]

وعندما يعرض الشعراء لنتيجة المعارك ، **فإن بعضهم يقفز إلى النتائج قبل الحديث عن المعركة** نفسها وكأنه بذلك يسرع إلى النتائج قبل عرض المقدمات ، فالذي سيشيع بين القبائل هو النتيجة ، وهو ما يبقى في الأذهان ، ويتناقله الناس . ففي يوم عُكاظ صوّره لنا عامر بن الطفيل العامريّ على صورة نتائج متتالية دون أن يقدم لنا صورة ذلك اليوم فيقول :

ونحـن صَبَحْنـا حيَّ أَسماءَ غارةً ... أبالـت حَبالَى الحيِّ من وَقْعِها دَمَا
ويومَ عُكاظٍ أنتُـمُ تعلَمونَه ... شهدنـا فأقدمنـا بهـا الحـيَّ مُقْدَما
ونحـن فَعَلْنـا بالحليفـين فَعْلَةً ... نَفَتْ بعدَها عنا الظلـومَ الغَشَمْشَما[2]

ويتغنى ضِرار بن الخطّاب الفِهرّي بيوم عُكاظ ، فيحدثنا أولاً عن القبائل التي جاءتهم وهي هوازن وسُلَيْم ، ثم ينتقل مباشرة إلى نتيجة اللقاء ، وهو أنهم اذاقوهم طعاناً بسمر الرماح ، وفرت سُلَيْم ولم تصبر في المعركة ، كما تبددّت عامر ، وفرت ثَقيف الى الطائف خاسرة ، أما العِنْس فقد قاتلت نصف النهار ثم تولت :

---

(١) العقد الفريد ١٩٨/٥ـ ١٩٩، والأصمعية ٦٧ : طابتيهم : جانبيهم، الجرور من الآبار : البعيدة العقر . زو المنايا : احداثها ، الصدق : الرمح البالغ غاية الجودة ، الزاغبي : منسوب إلى زاغب الخزرجي كان يعمل الأسنة ، يتأود : ينثني ، الطر : التحديد، الوقع : التحديد بالميقعة وهي المطرقة .

(٢) ديوان عامر بن الطفيل : ١٢٩: يوم عكاظ : من حروب الفجار ، الحليقان : أسد وغطفان . الغشمشم : من الغشم وهو الظلم

فلما التقينـا أذقناهُمْ طِعانـاً بِسُمْـرِ القَنـا العائِرِ
ففـرَّتْ سُلَيْم ولـم يَصْبِروا وطـارتْ شَعاعـاً بنـو عامِرِ
وفـرَّتْ ثَقيفٌ إلى لاتها بِمُنْقَلَبِ الخائـبِ الخاسرِ
وقاتلتِ العَنْسُ شَطْـرَ النها رِ ثمَّ تولَّـتْ معَ الصّادِرِ[1]

وهذا شاعر ثالث يتحدث عن نفس اليوم ، يوم عُكاظ ، وهو خداش بن زهير ، فيقول :

أتتْنـا قريشٌ حافلـين بجَمْعِهم عليهـم من الرحمـنِ واقٍ وناصرُ
فلما دَنَوْنـا للقِبـاب وأهلِها أُتيحَ لنـا رَيْبٌ مع الليلِ ناجرُ
أُتيحـتْ لنـا بكرٌ فلـم نستطعهم كأنهـم بالمَشْرَفيَّةِ سامِرُ
ومـا برحـتْ خيلٌ تثـورُ وتَدَّعي ويلحـقُ منهـم أولـونَ وآخِرُ
لدُنْ غُدوةً حتى أتَى الليلُ وانجلتْ عَمايةُ يـومٍ شرُّهُ متُظاهِرُ
ومـا زالَ ذاكَ الـدأبُ حتـى تجاذلَتْ هـوازنُ وارفضَّـتْ سُلَيم وعامِرُ[2]

وحرص بعض الشعراء على ذكر نتيجة اليوم موجزة مركزة لا إسهاب فيها ، فهي لا تتجاوز في صورتها بيتاً واحداً ، وقد صورها أحد شعراء الحماسة ، أُنَيْف بن زَبَّان الطائي فقال بعد أن تحدث عن اللقاء وضرب السيوف والتداني بالرماح قال :

فولَّـوْا وأطرافُ الرمـاحِ عليهمُ قـوادِرُ مَرْبوعاتُهـا وطِوالُها[3]

وبعض الشعراء حرص على ذكر قتلهم للقوم وتشريدهم هرباً من ضرب سيوفهم وكثرة الأسرى الذين استسلموا لهم صاغرين ، وقد صور هذا أوس بن مَغْراء التميمي يوم الكُلاب الثاني فقال بعد أن عدّد القبائل المشتركة في هذا اليوم :

فلما أنْ أتَوْنا لم نُكَذِّبْ ولـم نَسْألْهُـمُ أنْ يُمْهِلونا
قتلنـا منهم قَتْلَى ووَلَّى شَريدُهُـمُ شَعاعـاً هاربينا
وفاظتْ منهم فينـا أُسارَى لدينـا منهـم متخشعينا[4]

---

(1) الأغاني / ثقافة ٧٥/٢٢ : شعاعا : متفرقاً ، لاتها : الهها ، منقلب : مرجع ، نهاية ، العنس : فخذ من ثقيف ، الصادر : الذاهب

(2) الأغاني / ثقافة ٧٥/٢٢ : ناجر : كل شهر في صميم الحر ، سامر : مجلس سمر ، عماية : عمى عماية : لج في الباطل وغوى ، متظاهر : واضح ، الدأب : العادة والشأن

(3) حماسة أبي تمام ١٧٣/١ : قوادر : قدرنهم عليهم ، مربوعاتها : قصارها

(4) الأغاني / ط كتب ٣٣٨/١٦

وفي يوم العُرْقوب بين بني كلاب بن عامر واليمن ، هُزِمت جموع اليمن ، ومع ذلك رفض شاعر مُراد اليمني معاوية المراديّ هذه الهزيمة ، ووجد ما يفخر به ، فتحدث عن ذلك مخاطباً بني عامر بأنه وقومه لم يسأموا الحرب ، وبأنهم تركوا هناك قتلىً من عامر وقد توسدت خدودها التراب وكذلك فقد أسر أبناً طُفَيْل :

لقد علمَ الحَيَّان كعبٌ وعامرٌ ... وحيًا كِلابٍ جَعْفَرٌ وَعَبيدُها
بأنا لدَى العُرْقوبِ لم نَسْأَمِ الوَغَى ... وقد قلعتْ تحتَ السُّروجِ لبُودُها
تركنا لدى العرقوب، والخيلُ عُكَّفٌ ... أساوِدَ قَتْلَى لم تُوَسَّدْ خُدُودُها
ورُحْنا وفينا ابنا طُفَيْلٍ بِغِلَّةٍ ... بماقَرٌ حَيٌّ عادَ فلاًّ شَرِيدُها[1]

وفي يوم الكُلاب الثاني حرص ربيعة بن مقروم الضبي على ذكر بعض القتلى من القادة والأسرى من قادة الأعداء إمعاناً في إذلال أعدائهم وإعلان ذلك للناس فهم أسروا سادتهم وقتلوا فرسانهم ، وتركوهم طعاماً للضباع والذئاب :

ويومَ جُرادَ استَلْحَمَتْ أسلاتُنا ... يَزيدَ ولم يَمْرُرْ لنا قَرْنُ أَعْضَبا
وقاظَ ابنُ حِصْنٍ عانياً في بيوتنا ... يُعالِجُ قِداً في ذراعَيْهِ مُصْحَبا
وفارسَ مَرْدُودٍ أشاطَتْ رِماحُنا ... وأَجْزَرْنَ مسعوداً ضِياعاً وأذؤبا[2]

وهذا ربيعة بن مقروم نفسه يتحدث عن نفس اليوم ، يوم الكُلاب الثاني ، في قصيدة اخرى مفصلاً في عرض لقاء الجيشين بعض التفصيل ، ولكنه حينما يتحدث عن النتيجة يوجزها في بيت واحد فيقول :

فدارتْ رَحانا بفرسانِهِمْ ... فعادوا، كأنْ لم يكونوا، رميما
بطعنٍ يجيشُ له عانِدٌ ... وضَرْبٍ يُفَلِّقُ هاماً جُثُوما
وأضحتْ بتيمَنَ أجسادُهُمْ ... يُشَبِّهُها من رآها الهَشِيما[3]

---

(1) معجم البلدان : ١٠٨/٤ : لبودها : جمع لبد وهو ما يوضع تحت السرج ، غلة : الغل العدوة والحقد الكامن ، فلا : منهزما

(2) المفضلية رقم ١١٣ : استلحمت : جعلته لحما ، الأسلات : القنا الواحدة سلة . الأغضب : المكسور أحد القرنين والعرب تتشاءم به ، قاظ : أقام القيظ كله ، القد : السير من الجلد ، مصحب : عليه صوفه أو شعره ، مردود : اسم فرس صاحبها زياد الغساني ، أشاطت : عرضته للقتل ، أذؤب: جمع ذئب:

(3) المفضلية رقم ٣٨ : رميم : عظام بالية ،يجيش: يغرر لكثرته ، العائد : ما سال من الدم فلم يرقأ

ويعرض لنا مالك بن نُوَيْرَة التميميّ يوم مُخَطط ، وما أسفرت عنه المعركة في ذلك اليوم مبتدئاً بأن ما رآه عينه في ذلك اليوم قد جعلها قريرة ، فقد ظل القوم هناك كأنهم خشب أثل مسند ، والطير يحجل فوق جثث قتلاهم ، والقيود تكبل أيدي أسراهم ، وعندما جنَّ الليل كانوا فريقين ، فريقاً قُتل وفريقاً في الأسر .

فأقررتُ عَيْنِي حين ظَلُّوا كأنَّهُمْ ببطنِ الإيادِ خُشْبُ أَثْلٍ مُسَنَّدُ
صَريعٌ عليه الطيرُ يحجلُ فوقَه وآخرُ مكبولُ اليدينِ مُقَيَّدُ
لَدُنْ غُدْوَةً حتى أتى الليلُ دونَهُمْ ولا تنتهي عن مِلْئِها منهمْ يَدُ
فأصبحَ منهم يومَ غِبٍّ لقائِهِمْ بقيقاءَةِ البُرْدينِ فَلٌّ مُطَرَّدُ
إذا ما استبالوا الخيلَ كانت أَكُفُّهُمْ وقائعَ للأبوالِ والماءُ أبْرَدُ
كأنَّهُم إذ يَعْصِرون فُظوظَها بدجْلَةَ أو فَيْضِ الخُرَيْبَةِ مَوْرِدُ[1]

وإذا كان الشعراء الذين عرضنا لهم قد آثروا الإيجاز والتركيز في عرض صورة المعركة ونتيجتها ، فإنما فعلوا ذلك ، إن كان ما وصلنا من شعرهم كاملاً ، لأن ما يعنيهم من المعركة النتيجة وما يتناقله الناس ، يهمّ الشاعر أن يتسامع بانتصار قبيلته ومنعتها ، وربما وجد من الأفضل أن يذكر بعض القتلى من سادة الأعداء وفرسانهم ، ليكون ذلك دليلاً على انكسار شوكتهم ، وليكون دليلاً دامغاً على هزيمتهم ، فقد كان إعلان قتل سيد القوم وفارسهم مؤثراً في معنويات فرسان القبيلة .

ولكننا نميل إلى تفسير آخر ، وهو أن الشعر الذي قيل في ساحة المعارك أو بعيدها أو قبيلها يميل إلى الإيجاز ، أما الشعر التسجيلي ، إن صح التعبير ، الذي يقوله شاعر القبيلة مسجلاً أيام قبيلته ومفاخرها بعد ان تتضح معالم الصورة أمامه فإنه **يسهب في عرض تفصيلات الصورة وظلالها** ، ولعل ما سنعرضه من الشعر لسلامة بن جَنْدَل التميميّ يؤيد ما نذهب إليه ، فقد صوَّر لنا كيف جاءهم الأعداء يوم مُلْزِق في أبيات ، ثم انتقل يصوِّر لنا كيف أطبقوا عليهم فيقول :

ضَمَمْنا عليهم حافتيهم بصادقٍ من الطَّعْنِ حتى أَزْمَعوا يَتَفَرَّقِ
كأنَّ مناخاً من قُيونٍ ومنزلاً بحيث التقينا من أكفٍ وأسوقِ
كأنَّهم كانوا ظِباءً بِصَفْصَفٍ أخاءتْ عليهمْ غَبْيَةٌ ذات مِصْدَقِ

---

(1) العقد الفريد ٥/ ١٩٨ ـ ١٩٩ ، الأصمعية رقم ٦٧ : غب لقائهم : بعده ، القيقاءة ، الأرض الغليظة ، البردان : غديران بنجد ، الوقائع : جمع وقيعة وهي النقرة في الجبل يستنقع فيها الماء ، الفظوظ : جمع فظ ، وهو الماء يخرج من الكرش .

كأن اختلاءَ المشرفيِّ رؤوسهم هَـويُّ جَنـوبٍ في يبيسٍ مُحَرَّقِ
لدن غدوةً حتى أتى الليل دونهم ولم ينجُ إلا كلُّ جَرْداءَ خَيْفَقِ
ومستوعبٍ في الجَرْيِ فَضْلَ عنانه كمَرِّ الغزال الشادن المُتَطَلِّقِ
فألقوا لنا أرسانَ كلِّ نجيبةٍ وسابغةٍ كأنها متن خِرْنِقِ
ومَنْ يكُ ذا ثَوْبٍ تَنَلْهُ رماحُنا ومَنْ يك عريانا يُوائلْ فيسبقِ
تركنا بجيراً حيث أزحف جدُّه وفينا فراسٌ عانيا غيرَ مُطلَقِ
ولولا سوادُ الليلِ ما آبَ عامرٌ إلى جعفرٍ سِرْبالُه لم يُخَرَّقِ(١)

ويستمر الشاعر في رسم صورة المعركة ونتيجتها بحيث تكتمل صورتها، وتحدث أثرها المطلوب في نفس السامع.

ويحلو لبعض الشعراء الفرسان، وهم في ساحات الوغى أن يتحدثوا عن بطولتهم في المعركة، كما يحرصون على تسجيل حوار يدور بين هذا الفارس وفرسه الذي يلازمه في القتال ويتلقى عنه ضربات السيوف، وقد فعل هذا عامر بن الطفيل العامري يوم فَيْف الريح يوم فقئت عينه:

وقد علم المَزْنوقُ أنِّي أكُرُّهُ على جَمْعِهِمْ كَرَّ المَنيح المُشَهَّرِ
إذا ازوَرَّ من وَقْعِ الرماحِ زَجرتُه وقلت له: ارجعْ مُقْبِلاً غيرَ مُدْبِرِ
وأنبأتُه أن الفِرارَ خَزايَةٌ على المرءِ ما لم يُبْلِ جَهْداً ويُعْذِرِ
ألستَ تَرى أرماحَهُمْ فيَّ شُرَّعاً وأنتَ حِصانٌ ما جدُ العِرْقِ فاصبرِ

ثم يتحدث عن كَرَّةٍ يوم فيف الريح فيقول:

وقد علموا أني أكُرُّ عليهمُ عَشِيَّةَ فيفِ الريحِ كَرَّ المُدَوَّرِ
وما رِمْتُ حتى بلَّ نَحْرِي وصَدْرَهُ نَجيعٌ كهُدَّابِ الدقعسِ المُسَيَّرِ
أَقولُ لنفسٍ لا يُجادُ بمثلِها أَقِلِّي المِراحَ إنَّني غيرُ مُقْصِرِ

ولا ينسى الشاعر أن ينصف الأعداء ويتحدث عن قوتهم، ولا تعارض في ذلك مع عصبيته لقبيلته ففي إنصافهم رفع لقدر قبيلته لأنهم لاقوا جمعاً عظيماً وهزموه:

---

(١) ديوان سلامة بن جندل ١٦

فلـو كان جَمْـعٌ مثلُنـا لم نُبالِهِم ... ولـكنْ أَتَتْنـا أُسْرَةٌ ذاتُ مَفْخَرِ
فجـاؤوا بفُرْسـانِ العَرِيضـةِ كلِّها ... وأَكْلُـبَ طُراً في لبـاسِ السَّنَوَّرِ[1]

وفي يوم الكُلاب الأول التقت تغلب والنمر وبهْراء ومالك بن حنظلة ببكر وضبة والربّاب ويربوع ، وكان سَلَمة وشرحبيل أخوين من بني كِندة ، أحدهما كان على رأس الفريق الأول وهو سلمة ، وأخوه شرحبيل على رأس الفريق الثاني ؛ وقتل في ذلك اليوم شرحبيل الكنديّ ، فحرص جابر بن حُنَيّ التغلبيّ على تصوير مقتل هذا القائد فقال :

ويومَ الـكُلابِ قد أَزالـتْ رِماحُنا ... شرُحْبيلَ إذ آلَى أَلِيَّةَ مُقْسِمِ
لَيَسْتَلِبَـنْ أَدراعَنَـا فأزالَه ... أَبـو حَنَشٍ عن ظَهْرِ شَقَّـاءَ صِلْدَمِ
تناولَـه بالرُّمْـحِ ثم ثَنَـى له ... فخـرَّ صريعـاً لليدين وللفَمِ
وكان مُعادِينـا تَهِـرُّ كِلابُه ... مخافـةَ جمـعٍ ذي زُهـاءَ عَرَمْرَمِ[2]

أما الاقتتال بين الأقارب ،فكان الشاعر حين يتحدث عنه لا ينسى صلة الرحم ويذكرها عند النصر وعند الهزيمة ، يبين أثرها في كبح شهوة القتل والانتقام ، وفي حروب الأوس والخزرج ، وعبس وذبيان ، وبكر وتغلب، نجد الأمثلة الكثيرة ولكن هذه الأيام أيضاً فيها التشفي والشماتة بالمنهزمين لأنهم أصروا على حربهم ، وهم أقاربهم .يصور لنا قيس بن الخطيم نصراً أحرزه قومه على الخزرج فقال :

زُرْناهُـمُ بالخَميسِ ضاحيةً ... نُزْجـي إلى الموتِ جَحْفَـلاً لَجِبا
جاءت بنـو الأوسِ عارضـاً بَرِداً ... تَحْلِبُـهُ الـريحُ مُقْبِـلاً حَلَبا
إن بنـي الأوس حـين تَسْتَعِـرُ الحـ ... ـرْب لكالنـار تأكلُ الحَطَبا
إن بني الأوس معشرٌ صَدَقـوا الضَّـ ... ـرْبَ وَسَنُّـوا الإسـاءَ والنَّدَبا
فَصَمَّـدوا رأسَ كبشِ إِخْوَتِهِمْ ... حتـى تَوَلَّـوْا واستنفـروا هَرَبا
قالـت بنـو الأوس من عفافِهِمُ ... مُـرُّوا ولا تأخُـذُوا لهـم سَلَبا[3]

(١) المفضلية رقم ١٠٦ : المزنوق : اسم فرسه . المنيح: قدح تكثر به القداح لا حظ له ، خزاية : استحياء ، يعذر : يأتي بعذر ، رمت : برحت ، النجيع : الدم المصبوب ، المراح : المرح ، العريضة : الأرض كلها ، أكلب : حي من خثعم ، السنور : الدروع .
(٢) النقائض ١/ ٤٥٨ : أبو حنش: قاتل شرحبيل ، صلدم : الدابة القوية الحافر .ذي زهاء : ذي عدد
(٣) ديوان قيس بن الخطيم ١١٦ : ضاحية: جهاراً ، لجب : كثير الأصوات ، الاساء : الدواء ، الندب : آثار الجراح .

فقيس بن الخَطيم يتحدث عن بطولة قومه ، وعن صدقهم في الضرب يوم اللقاء وأنهم قتلوا سيد الخزرج فهرب الخزرج من المعركة ، ومع ذلك فإن الأوس من عفافهم ، ولأن رابطة تربطهم بالخزرج ، فإنهم أبوا أن يسلبوهم كما يفعلق المنتصر بالمنهزم في الحروب.

وفي يوم البَقيع بين الأوس والخزرج ، وقد هُزم فيه الخزرج ، وقف عبيد بن نافذ الأوسي يفتخر بظفر قومه على الخزرج ، وقتلهم الخزرج وهم أولو رحم ، ثم يدير حواراً على لسان نساء الخزرج حول غياب أزواجهن وتساؤهن هل كل من تخلف من الخزرج قُتل في هذا اليوم ، ويذكر الشاعر على لسان أولئك النسوة أن القتيل كان كريماً ، جزلاً ، حلو الشمائل . وكأني بالشاعر أراد أن يصل إلى هدفين **أولهما** لا يقتلون إلا السادة وفي هذا مفخرة لهم ، **وثانيهما** أن هذا الكلام الذي جاء على لسان نسوة الأعداء يعترف به الشاعر ، فالقتيل تربطه بالشاعر وبقومه صلة رحم ولولا العصبية الضيقة لما اقتتلوا ، يقول عبيد بن نافذ الأوسي:

جادَتْ بأَنْفُسِهـا من مالكٍ عُصَبٌ	يومَ اللقـاءِ فما خافـوا ولا فَشِلوا
عاوركم كؤوسَ الموتِ إذْ بَرَزوا	شَطْـرَ النهـارِ وحتـى أدبَـرَ الأُصُلُ
حتـى استقاموا وقد طالَ المِراس بهم	فكلهـم منْ دمـاءِ القـومِ قد نَهِلوا
تكشّفُ البيضُ عن قَتْلى أُولي رَحِمٍ	لـولا المسالـمُ والأرحـامُ ما نُقِلوا
تقـولُ كلُّ فتـاةٍ غابَ قَيِّمُها :	أكلُّ مَنْ خلفنـا مِنْ قَوْمِنـا قُتِلوا
لقـد قتلتـمْ كريمـاً ذا محافظةٍ	قـد كان حالَفَـهُ القَيْنـاتُ والحِلَلُ
جَزْلٌ نوافِلُـهُ حلـوٌ شَمائِلُهُ	ريّانُ واغلـه تشفـى به الإبِلُ[1]

وفي يوم بُعاث ظهرت الأوس على الخزرج فحرص قيس بن الخطيم على تسجيل هذا النصر والشماتة بالخزرج ، وتصوير تطاير رؤوس الخزرجيين ، ويحذرهم من عدم التصدي للأوس ومحاولة التعدي عليهم ، ويذكرهم ببطرهم لأنهم أوتوا مالاً ، ولا ينسى أن يعيرهم كيف فروا وتركوا نساءهم بلا حماية فريسة للأوس :

معاقِلُهُـمْ آجامُهُـمْ ونساؤُهُمْ	وأيمانُنـا بالمَشْرَفِيَّةِ مَعْقِلُ
كأَنَّ رؤوسَ الخـزرجيين إذ بَدَتْ	كتائِبُنا تَتْـرَى مع الصبـحِ حَنْظَلُ
فلا تقربـوا جُذْمـانُ إن حِمَامَه	وجَنَّتَـه تأذَى بـه فتحمّلوا

(١) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٧٤ : عصب : جمع عصبة وهي الجماعة من الناس ، عاور : أعطاهم كؤوس الموت عارية ، الأصل : جمع أصيل ، قَيِّمها : سيدها ، الحلل : جمع حلة وهي إناء معدني يطهى فيه الطعام ، واغله : الواغل الداخل على طعام القوم وشرابهم من غير دعوة .

إلى أن يقول :

كأنا وقـد أجلـوا لنـا عن نسائهم ... أسـودُ لهـا في غيص بيشَـةَ أشبُلُ

ويذكرهم بأن يتأملوا ما حلَّ بهم وإلا فليستعدوا لمثلها فيقول :

ببئـرِ الـدُّرَيْكِ فاستعـدوا لمثلها ... وأصغـوا لهـا آذانَـكُمْ وتأمَّلوا[1]

وتقتل بنو العشراء قرواشاً العبسّي بحذيفة الذي كان قد قتله قرواش في يوم الهباءة ، ويتصدّى نُهيكة الفزاري ليرصد هذا الحدث وليذكر عبساً بالأرحام ، وبأن قتل قرواش كان طبيعياً لأنه قتل حُذَيْفة :

صَبْـراً بَغِيضَ بنَ رَيْثٍ إنهـا رَحِمٌ ... حُبْتُـمْ بهـا فأنا خَتَكُمْ بـهِ مُجاعِ

فما أَشْطَتْ سُمَيٌّ إنْ هُمْ قَتَلوا ... بنـي أُسَيْدٍ بقتلى آلِ زِنْبـاعِ

لقـد جزتْـكُمْ بنـو ذبيانَ ضاحيةً ... بما فعلتـم كَكَيلِ الصـاعِ بالصاعِ

قتـلاً بقتـلٍ وتعقـيراً بعَقْركُمُ ... مَهْلاً مُهَيْضُ فلا يَسْعَى بنا الساعي[2]

ولا تظهر رابطة القرابة في شعر البَسوس مثل وضوحها في الحروب الأخرى بين القبائل التي ترتبط برباط القرابة ، ومع ذلك فإننا نسمع مهلهلاً يتحدث عن يوم عُنَيْزَة معترفاً بالقرابـة ومعترفاً بتكافئهم في ذلك اليوم .

كأنـا غُدْوَةً وبنـي أبينا ... بجـوفِ عُنَيْزَةٍ رحيا مدير[3]

ويتخذ الحديث عن المعارك طابعاً آخر يتمثل في حديث الشاعر عن جملة من أيام قومه ، وهو في هذه الحالة لا يتحدث إلا عن أبرز حدث في اليوم ونتيجته ، وقـد فعـل ذلك شعـراء كثيرون ، ونحن واجدون منهم في المفضليات والمعلقات الكثير من الأمثلة فربيعة بن مقروم الضبي[4] يتحدث في المفضليات عن أيام بُزَاخة والنِّسار بطخفة والكلاب وذات السُّلَيْم ، وعَبيد ابن الأبرص[5] يتحدث عن حروب قومه بني أسد مع غسان وغيرها ، وعامر بن الطُّفَيْل[6]

---

(1) ديوان قيس بن الخطيم ٨١ وما بعدها : المعقل: الموضع يلجأ إليه ، آجام : حصون ، جذمان : نخل ، الغيص : أصول الشجر

(2) أمثال الضبي ٣٩ ، النقائض ١/ ١٠١

(3) الأصمعية رقم ٥٣

(4) المفضلية رقم ٣٨

(5) الديوان ص ١٣٥

(6) ديوان عامر بن الطفيل ١٠٥

يتحدث عن أيام قومه ، والحارث بن حلزة اليشكري[1] يتحدث عن وقائع قومه في معلقته التي أنشدها على مسمع من الملك ، وفعل مثله عمرو بن كُلثوم[2] التغلبيّ حيث تحدث عن أيام قومه وافتخر بها .

ونحن نميل إلى أن هذا اللون من حديث المعارك هو من قبيل الفخر أكثر منه وصفاً للمعارك على الرغم مما يتضمن من تصوير تبقى لبعضها ، ولكنه تصوير سريع غير مستقل بيوم من الأيام ، إذ ربما أجمل الشاعر الحديث عن أكثر من يوم في بيت شعر واحد ، أي أن هذا الشعر يفقد في رأينا ـ صفة الحيوية والواقعية ـ بالاضافة إلى أنه يقال بعد هذه الوقائع بزمن قد يطول وقد يقصر .

وشبيه بهذا ، أو قريب منه ذلك الشعر الذي تمتلىء به الدواوين والمجموعات الشعرية ، ويتحدث فيه الشعراء عن بطولات واقتتال ، ولكن هذه الأشعار خالية من معالم تحددها ، فلا نجد يوماً قيلت فيه أو أبطالاً خاضوها ، أو قتلى أو أسرى ، لأن هذه المعالم تجعل الشعر شعراً يفيض حيوية وأصالة .

ولعل من أبرز ما يمتاز به شعر المعارك ما تزدحم به من ذكر الأعلام ، أسماء الفرسان وخيولهم وأسماء أماكن اللقاء ، والقبائل المشتركة ، ونكاد نزعم بأنه لو جُرِّد حديث المعارك من هذه الأعلام لما بقيت له سمة من سمات شعر المعارك ، كما أن هذه الأعلام لا يمكن تفسير هذا الشعر على حقيقته وفهمه إلاّ بحلّ رموزها وما غمض منها ، فلكل عَلَم منها دلالته ، ومكانته في ذلك اليوم أو تلك الغزوة .

والميزة الأخرى لشعر المعارك أن هذا الشعر تظهر فيه ملامح قصصية ، ولكنها تكون متفاوتة ، ففي بعضه وبخاصة إذا سلم الشعر من ضياع بعضه ، تبدو قصة اليوم واضحة المعالم ، أو يبدو جانب منها على الأقل ، وفي معظمه لا يعرض إلاّ لمحات خاطفة من ذلك اليوم ، وربما تدخل عامل آخر في ذلك وهو السرعة الفنية ، حيث لم يكن لدى الشعراء الوقت للإطالة والصناعة ، كما أنهم لا تهمهم التفاصيل بقدر ما يهمهم إعلان انتصارهم على الأعداء ، وعندما يسهبون فلأنهم عندها يرون في ذلك ضرورة ملحة ، ونفعاً يعود على قبائلهم .

---

(١) معلقة الحارث بن حلزه

(٢) معلقة عمرو بن كلثوم

الهجاء :

عرَّف ابن رشيق القيرواني الهجاء فقال « الهجاء هو الشتم بالشعر ، وهو خلاف المدح . . . والهجاء ظاهرة السخط أو السخرية . . . يتخذ معانيه من سوءات المهجو أو مثالب قومه . فالمفتخر يلتفت إلى نفسه ليشتق منها مادته ، والهاجي ينظر إلى خصمه لينشر مساويه مقرّاً أو ساخراً . ويفضل النقاد السابقون ما كان من الهجاء عفّاً خالياً من الفحش بحيث تنشده العذراء في خدرها فلا يقبح بمثلها[1] » .

وأكثر الأغراض الشعرية اتصالاً بالعصبية والروح القبلية الهجاء والفخر ، فالهجاء هو صدى شعور العداء الذي تكنه القبائل المختلفة بعضها لبعض ، والفخر هو صدى اعتزاز القبيلة بجنسها ونفسها وفضلها على سائر القبائل . ومن هنا كان تلازم الغرضين في كثير مما انتهى إلينا من شعر الأيام ، لصدورهما عن منبع نفسّي واحد وهو الشعور العصبي .

ويرى الدكتور شوقي ضيف أن الهجاء قد يكون « ظاهرة إحصاء للعيوب والمثالب التي هي في حقيقتها مثالب المجتمع وعيوبه ، ويريد الشعراء من أسلافنا أن يطهروا المجتمع من نقائصها ويستنقذوه من براثنها » ولذا فهو « في حاجة لدراسته كوثيقة اجتماعية وسياسية »[2] .

ويقوم الهجاء على عكس الفضائل الاجتماعية التي أقرتها الحياة العربية في الجاهلية[3] كالكرم والسيادة والشجاعة والنجدة وكثرة العدد والظفر في الحروب والمروءة والشرف والأحساب وشرف الأنساب . ولذا فهو فن قديم أوجدته المنافسات القبلية التي أرثها السعي وراء الكلأ والماء ، كما سعرته الحروب المستمرة بين القبائل .

والهجاء في شعر الأيام إنما يتخذ طريقين ، **كان بعضه هجاء للخصم** ، لسبب قبلي لا شخصّي فقد يهجو شاعر القبيلة أعداء قبيلته لأنهم أسلموا نساءهم وهربوا من ساحة القتال . وقد يهجوهم لغدرهم ، أو لقتلهم أسيراً ، أو لضعة نسبهم ، أو لهزيمتهم في الحروب ، وقد يهجوهم لضعفهم وقلة عددهم . وكما كان الهجاء الخصم فقد كان **أيضاً هجاء لابن القبيلة أو فارسها أو أي فرد منها يخرج عن خط سير القبيلة الذي يحقق لها عزتها** . وقد كثر هذا اللون من الهجاء في شعر الأيام بحيث نراه يفوق اللون الأول من الهجاء ، وسبب ذلك أن القبيلة الأخرى تستطيع القبيلة أن تهجوها بطريقة أخرى وهي الحروب ، أو تهديدها بالحرب ، أما فارس

(١) العمدة لابن رشيق ٢/ ١٣٨

(٢) مجلة المجلة ـ عدد يناير ١٩٦٥ ص ٢٧

(٣) النقائض ٤٠

القبيلة الذي فرّ وأسلم نساء القبيلة للأعداء ، أو نعم القبيلة غنيمة سهلة لهم ، أو ذلك الذي تقاعس عن القتال، أو ذلك الذي تخلى عن قائد فرسان القبيلة فجعله فريسة للأسر، كل ذلك يستحق الهجاء الشديد .

وسنحاول في الصفحات التالية استعراض دوافع الهجاء في شعر الأيام مع عرض لصور هذا الهجاء ، أما الهجاء الشخصي والذي نجده كثيراً في الشعر الجاهلي فليس لنا شأن به إلاّ إذا اتصل بالأيام .

ولعل أكثر صورة للهجاء تطالعنا في شعر الأيام هي هجاء حامل اللواء أو قائد الفرسان إذا فرّ يوم اللقاء مما ينتج عنه هزيمة الجمع ، ففي يوم شِعْب جَبَلَة فرّ النعمان بن قَهْوَس التميمي حامل اللواء ، وكان بعده هزيمة تميم وجموعها فقالت دَخْتنوس بنت لَقيط بن زرارة التميمي تهجوه ولكنها لم تنس شجاعته :[1]

فرّ ابنُ قَهْوَسٍ الشجا ... عُ بكفِّهِ رُمْحٌ متلُ[2]
يعدو به حاظِي البَضيعِ ... كأنّه سِمْعٌ أزلُّ[3]
إنّك من تيم فَدَعْ ... غَطَفَانَ إن ساروا وحلّوا
لا منك عِدُّهُمُ ولا ... آباكَ إنْ هَلَكوا وذلّوا

إلى أن تقول له مذكرة إيّاه بأبيه :

ولقد رأيت أباكَ وَسْطَ ... القَوْمِ يبزو أو يجلّ[4]
متقلّداً رِبْقَ الفُرا ... رِ كأنّه في الجِيد غِلُّ[5]

وفي يوم النِّسار كانت سَلْمَى بنت المُحَلَّقِ العامرية ممن سباهن بنو أسد ، وكان الطفيل وجَوّاب فارسا بني عامر قد فرّا ، فقالت تهجوهما بفرارهما وبأنهما بفرارهما أوقعا النسوة في الأسر[6] .

---

(١) الأغاني / كتب ١١/ ١٣٤
(٢) متل : منتصب
(٣) سمع أزل : ذئب أرسح يتولد بين الضبع والذئب .
(٤) يبزو : يبطش ، يتطاول ، يجل : يعظم
(٥) ربق : حبل
(٦) النقائض ١/ ٢٤٢

لَحَى الإلهُ أَبا لَيْلَى بفرتِه يومَ النِّسارِ وقَنْبَ العَيْرِ جَوَّابا[1]
كيف الفخارُ وقد كانت بمُعْتَرَكٍ يومَ النسارِ بنو ذبيانَ أربابا
لم تمنعوا القومَ إذ شَلُّوا سوامكم ولا النساءَ وكان القومُ أحزابا[2]

ويعزّ على الشاعر العربي أن يجد فريقاً من قومه يفرون عن أصحابهم وينصرفون عنهم ويسلمونهم للأعداء ، فقد حدث يوم نَعْف قُشَاوة بين بكر وتميم أن انصرف بنو سَليط بن يربوع عن أصحابهم ولم يقاتلوا معهم فقال مالك بن نُويرة يهجوهم لأنهم تركوا القتال فسلموا ورجعوا إلى قبيلتهم ،ثم جاءوا يطلبون العذر ، ويذكرهم بأنهم بفعلتهم هذه فإنما يفضحون ذمارهم ، ولذا فلا عتاب لهم ، ثم إنهم بفرارهم في ذلك اليوم قد أخزوا قومهم ، وجلبوا لهم العار ، وأن القبيلة لن تسلم من التعريض بها بسبب ما أقدم عليه أولئك النفر[3] .

لَحَا اللهُ الفوارسَ من سَليطٍ خُصوصاً إنَّهُمْ سَلِموا وآبوا
أجِئْتُمْ تطلبونَ العُذْرَ عندي ولم يخرق لكم فيها إهابُ[4]
دعتكمْ خلفكم فأَجبتموها مجازمَ في أعاليها الجُبابُ[5]
كفِعْلِكُمُ غداةَ لِوَى حُبَيٍّ فهذا من لقائِكُمُ عذابُ
إذا لاقَيْتُمُ أبداً فضحتُمْ ذِمارَكُمُ فليسَ لكم عتاب
فكيف بكم وقد أخزيتموها إذا ذُكِرَ الحَفائِظُ والسِّبابُ[6]

ثم يذكرهم بأنه لو سمع الدعاء بنو رياح للنجدة لهبّوا للنجدة غاضبين :

ولو سمعَ الدُّعاءَ بنو رياحٍ لجاءَ فوارسٌ منهم غِضابُ

ولم يكن يُرضي القبيلة أن يعتزل أحد رؤسائها الحرب لأي سبب من الأسباب ، وكان شاعر القبيلة يقف معرضاً بهذا الزعيم ليحثه على العودة إلى القتال ، ففي حرب البسوس اعتزل

---

(1) لحى : قبحه ولعنه ، أبا ليل : طفيل بن مالك بن جعفر ، جواب : لقب لأنه كان يجوب الآبار يحفرها يتخذها لنفسه ، قنب العير : مخلب الأسد ، أو الجراب .
(2) شلوا : طردوا ، سوامكم : دوابكم
(3) النقائض 1/22
(4) اهاب : الجلد المحيط بالجسم
(5) مجازم : أسقية مملوءة ، الجباب : شبيه الزبد يعلو لبن اللقاح .
(6) الحفائظ : جمع حفيظة وهي الغضب والحمية ، السباب : الشتم

الحارث بن عُبَاد الحرب ، فلم ترض قبيلته بكر عن هذا التصرف ، وانبرى سعد بن مالك بن ضبيعة البكري يعرض به :[1]

يا بُؤسَ للحـربِ التي وَضَعَتْ أَراهِـطَ فاستراحوا[2]
والحـربُ لا يبقـى لجا محهـا التَّخَيُّلُ والمِراحُ[3]
إلا الفتـى الصبَّـارُ في النَّجَدَ ذاتِ والفَـرَسُ الوَقَاحُ[4]
والنَّثْـرَةُ الحَصْداءُ والبيضُ المُكَلَّلُ والرماحُ[5]

ثم يقول معرضاً به وبمن تخلّف عن الحرب معه :

بِئْسَ الخـلائفُ بعدنا أولادُ يَشْـكُرَ واللِّقَاحُ[6]
مَـنْ صَدَّ عن نيرانها فأنـا ابـنُ قيسٍ لا بَراحُ[7]

فهو يجمع بين التعريض به والإثارة حتى يعود هذا الزعيم إلى حظيرة القبيلة. وقد شغلت الإثارة الأبيات الأربعة الأولى من هذا النص .

وكانت القبيلة في الجاهلية تعتز بفرسانها ، وعلى الأخص بفارسها وقائدها الذي يقودها من نصر إلى آخر ، وكان بسطـام بن قيس الشيباني فارس شيبـان ، وفي يوم العُظَالَى أُسر هذا الفارس ، أسرته تميم واتهم شاعر شيبان جماعته بأنهم بتخاذلهم وجبنهم أسلموا فارسهم بسطاماً، فقال العَوَّام الشيباني يهجوهم ، ومذكراً إياهم بشجاعتهم في السباق، ولكنهم في هذا اليوم كانوا نعاماً :

قَبَـحَ الإلـهُ عِصابـةً من وائلٍ يومَ الأُفاقـةِ أَسْلَمـوا بِسطاما
ورأوا أبـا الصَّهْبـاءِ دونَ سَوامِهِمْ عَـرِكاً يُسَلِّيَ نفسَـه وزحاما[8]
كنتـم أُسـوداً في الوغـى فَوَجدتُمُ يومَ الأُفاقـةِ بالغُبَيطِ نَعاما

---

(1) حماسة أبي تمام - شرح المرزوقي ٢/ ٥٠٠
(2) أراهط : أقوام
(3) جامحها : جمحت النار اضطرمت
(4) الوقاح : قليل الحياء
(5) النثرة : الدرع الواسعة المحكمة الرد ، الحصداء : الجدلاء
(6) الخلائف : الذين يخلفون جيلنا
(7) لا براح : لا انحراف
(8) النقائض ٢/ ٥٨٦ والكامل لابن الأثير ١/ ٦١٣

وكانت القبيلة تجلب العار لنفسها إن هي تواطأت مع الأعداء ، ضد بطن آخر من بطون القبيلة ذاتها ، وفي يوم جَدود حجزت يربوع الماء عن بني بكر ، ثم عادت فسمحت بوروده مقابل بعض الغنائم ، وبكر عدو لتميم ، فتصدى قيس بن عاصم المنقري ليربوع يهجوها بسبب فعلتها هذه[1] .

جَزَى اللهُ يَربوعاً بأَسـوأ سَعْيِها ... إذا ذُكِرَتْ في النائبـاتِ أُمورُها[2]

ويومَ جَدودٍ قد فَضَحْتُـم أباكُمُ ... وسالمتُمُ والخيلُ تَدْمَـى نُحورُها

فأصبحتُـمُ واللهُ يفعـلُ ذاكُمُ ... كمهنـوءةٍ جَرْبـاءَ أَبـرزَ كُورُها[3]

وأصبحتُـمُ واللهُ يفعـلُ ذاكُمُ ... كمـوْودةٍ لم يبـقَ إلا زفيرها

إلى أن يقول لهم :

أفخـراً على المَولَى إذا ما بَطِنْتُمْ ... ولُؤْمـاً إذا ما الحـربُ شُبَّ سَعيرُها[4]

هذه هي أبرز دواعي الهجاء لفرد أو مجموعة من نفس القبيلة ، ونلاحظ أن هذا اللون من الهجاء لا يستخدم الا فحاش ، لأن الذين يهجوهم رحمه ، ولأنه يأمل في صلاحهم وعودتهم إلى حظيرة القبيلة ، كما نلاحظ أن دواعي الهجاء كلها بسبب الإضرار بمصلحة القبيلة وسمعتها .

وننتقل الآن الى **الاتجاه الثاني في الهجاء** ، وهو هجاء الأعداء والخصوم . وهذا اللون من الهجاء اتخذ طابع العنف والفحش والتعيير ، لأن الشاعر يهمه تحطيم المهجو واذلاله ، ولا يأمل بأن يكون في صفه وصف قبيلته ، ثم يهجوه على فعلة قام بها ، أو يعيره لِذلِه بسبب زلة ارتكبها تسيء إليه وإلى قبيلته .

وأكثر صور هذا الهجاء هي تعيير الخصم بالفرار من القتال ، ففي وقعة السرارة بين الأوس والخزرج قال عُبَيْد بن ناقذ الأوسي يرد على حسان ويذكره بفراره ، وأنه لولا الفرار لهلك :

لكن فَرارُ أَبـي الحُبـابِ بنفسه ... يومَ السَّرارةِ سيِّءٌ منـهُ الأقربُ

وليٌّ وأَلقَـى يومَ ذلكَ درعَه ... إذ قيلَ جاءَ الموتُ خلفَـكَ يَطلبُ

(١) النقائض ١/ ١٤٦ ، ١/ ٣٢٧ .

(٢) أسوأ سعيها : سماحها لبكر بورود الماء .

(٣) مهنؤة : ماشية أصابت حظاً من البقل ولم تشبع ، كورها : رحلها .

(٤) بطنتم : بطرتم ، كثر مالكم ، المولى : ابن العم .

نجّــاكَ منــا بعــدَ ما قد أشْرعَتْ فيكَ الرماحُ ، هناكَ شدُّ المُذْهَبِ[1]

وفي يوم السؤبان تحدث عنه الشاعر التميمي أوس بن حَجَر ، وذكر طُفَيْل بن مالك العامري وهربه ، وقد نجّاه يومئذ حصانه ، ولو أدركته خيل تميم لما أبقته ،ويعيِّره بأنه فر وأسلم عامراً ابن أمه ، وبأن زوجته تعلمان أنه عائد لأنه متعود على الفرار :[2]

وودَّعَ إخــوانَ الصفــاءِ بقُرْزُلٍ يَمُــرُّ كمــرّيخ الــوليدِ المُقَزَّعِ[3]
ولــو أدركَتْــهُ الخيلُ شالَ برِجْلِهِ كما شال يومَ الخالِ كعبُ بنُ أصمعِ[4]
فِراراً وأسلمــتَ ابــنَ أُمِّــكَ عامراً يُلاعِبُ أطرافَ الوشيجِ المُزَعْزَعِ[5]
وقــد علمــتْ عِرْســاكَ أنــكَ آيبٌ تُخَبِّرُهُــمْ عن جيشهــم كلَّ مَرْبَعِ[6]

وبعد مقتل والد امرىء القيس وشروعه في الاستعداد للأخذ بالثأر من بني أسد تصدى شاعرهم عَبيد بن الأبرص للتعريض به وهجائه ، والسخرية منه ، وتذكيره بأنه لولا ركضه للقي ما لقي أبوه وأهله الذين قتلتهم بنو أسد :[7]

وركضُــكَ لولاه لقيتَ الــذي لَقوا فــذاكَ الــذي نَجّــاك مــا هُنالِكا
ظَلِلْــتَ تُغَنّــي أنْ أخــذتَ ذليلةً كأنَّ مَعــدًّا أصبحــتْ في حِبالِكا

وأسر عُتيبة بن الحارث اليربوعي يوم الرِّغام أنسَ الفوارس بن زياد العبْسي ، وكان أنس هـذا قد قتل عَمْرَ بن عدى في يوم أقْرُن ، فقال عباس بن مرداس السلمي . يعيِّره **لعدم افتدائه بمائتي بعير** :[8]

كثُــرَ الضَّجــاجُ ومــا سمعــتُ بغادرٍ كعُتَيْبَــةَ بن الحــارثِ بن شهابِ
جلَّلْــتَ حنظلــةَ المخازيَ والخَنَا ودَنَسْــتَ آخــرَ هذهِ الأحقابِ

---

(1) الكامل لابن الأثير/1/ 664 .
(2) ديوان اوس بن حجر 61 .
(3) قرزل : فرس طفيل بن مالك ، مريخ الوليد : قضيب يجعل الصبي في اعلاه تمرة وطينة ثم يرمي به بغير ريش .
(4) شال : رفع .
(5) الوشيج : الرماح ، الخال : يوم من أيامهم .
(6) عرساك : زوجتاك . المربع : الموضع يقام فيه زمن الربيع .
(7) ديوان عبيد بن الأبرص 94 .
(8) الأغاني/ كتب 15/ 346 .

وأسرتمُ أنســاً فما حاولتُمْ بإسـارِ جارِكُمْ بنـي الميقابِ[1]
باسـتِ التي ولدتْـكَ واسـتِ معاشرٍ تـركوكَ تَمْرُسُهُـم من الأحسابِ

والأفحاش بينٌ في البيتين الأخيرين .

والأخذ بالثار من الأمور التي يحرص الفرد على القيام به ، وعدم التأخير في ذلك ، وإلاّ لحقه العار إذا قعد عن الأخذ به ، ويتخذ الشاعر القعود عن الأخذ بالثأر حجة يهجو بسببها القاعد عن الأخذ بالثأر والسخرية منه . وهذا عَبيد ابن الأبرص يخاطب امرأ القيس معيراً إياه لأنه يلهو ويعاقر الخمر وقاعد عن الأخذ بالثأر لأنه عاجز عن ذلك .[2]

وأنـتَ أمـرؤٌ ألهـاكَ زِقٌّ وقَيْنَةٌ فتصبـحُ مخمـوراً وتُمْسِي مُتاركا[3]
عن الوتْـرِ حتّـى أحـرزَ الوِتْـرَ أهلُهُ فأنـتَ تُبَـكّي إثْـرَهُ متهالِكا[4]
فلا أنـتَ بالأوتـارِ أدركتَ أهلَها ولا كنـتَ ـ إذ لم تنتصرْ متاسِكا[5]

وكانت أقصى درجات الإهانة والمذلة تلحق بالفارس الذي يفر عن زوجته أو عرضه يسلمه للأعداء ، وقد فر أبو عامر بن الطفيل عن امرأته وعُيِّرَ بذلك وهجاه رجل من ذبيان فقال :

وفَـرَّ عن ضَرَّتَيْه وَجْـهُ خارئةٍ ومـالكُ فَرَّ قُنْـبُ العَـيْرِ جَوَّابُ[6]

وعندما افتخر بنو عامر بأخذهم سبية من بني عبس اسمها « أسماء » تصدّى شاعر عبس عُرْوَة بن الورد يرد عليهم ويعيرهم بأخذه ليلى بنت شَعْواء الهلالية فقال :[7]

إنْ تأخـذوا أسماءَ موقفَ ساعةٍ فمأخَذُ لَيْلَى ، وهـي عذراءُ ، أعجَبُ
لبسنـا زمانـاً حُسْنَهـا وشَبابَها ورُدَّتْ إلى شَعْـواءَ والـرأسُ أشيَبُ
كمأخذنـا حسنـاءَ كُرْهـاً ، ودمعُها غـداةَ اللّـوَى معصوبـةً ، يتصبَّبُ

---

(١) الميقاب : التي تلد الحمقى .
(٢) ديوان عبيد بن الأبرص ٩٤ .
(٣) متارك : تارك ثأره .
(٤) الوتر : الثأر .
(٥) المتاسك : المتمالك لنفسه .
(٦) النقائض ١/ ٢٤٢ .
(٧) ديوان عروة بن الورد ٢٨ .

وفي يوم النِّسار هُزمت عامر، هزمتها بنو أسد، ووقف بِشْرُ بن أبي خازم الأسدي يهجو بني عامر بأنهم تركوا نساءهم سبايا لدى بني أسد، ترتعد فرائصهن من شدة الخوف، وقلوبهن مفزعة خوفاً من المصير الذي ينتظرهن[1].

بنـي عامـر إنـا تركْنـا نساءكُمْ ... من الشَّلِّ والايجاف تَدْمَى عُجوبُها[2]

عضاريطنا مُسْتَبْطِنُو البيض كالدُّمَى ... مُضَرَّجَـةً بالزعفـرانِ جُيوبُها[3]

تَبيتُ النسـاءُ المُرْضِعـاتُ بِرَهْوَةٍ ... تَفَـزَّعُ من خَوْفِ الجَنانِ قُلوبُها[4]

وتعتبر القبيلة كلَّ مَنْ يعين خصومهم أو يناصرهم عدواً لها، ويتصدى شاعرها لهؤلاء يهجوهم ويحذرهم من مغبة التورط في ذلك، ففي حروب الأوس والخزرج ناصرت بنو أسد الأوس فتصدى حسان بن ثابت لهم يهجوهم ساخراً منهم ومن قومهم[5].

وما كثرت بنـو أسـدٍ فَتُخْشَى ... لكثرتهـا ولا طابَ القَليلُ

قُبَيِّلَـةٌ تذبـذبُ في مَعَدٍّ ... أنوفُهُـمُ أذلُّ من السبيلِ

تمَنَّى أنْ تكونَ إلى قريشٍ ... شبيهَ البَغْـلِ شَبَّـهَ بالصَّهيلِ

وإذا ربطت بين قبيلة والشاعر والقبيلة المهجوة رابطة القرابة أحجم الشاعر عن التعرض للنساء لأنهن رهطه، فقد هجا حسان بن ثابت الخزرجي أبا قيس بن الأسلت الأوسي هجاء ممزوجاً بالتهديد والوعيد والفخر إلى أن يقول في آخر القصيدة[6].

وقد أكرمتكم وسَكَتُّ عَنْكُمْ ... سَرَاةَ الأوس لو نَفَعَ السُّكونُ

حَياءً أن أُشاتِمَكم وصَوْناً ... لِعِـرضي إنـه حَسَـبٌ سَمينُ

وأكرمتُ النساءَ وقلتُ رَهْطِي ... وهـذا حيـن أنطِـقُ أو أَبينُ[7]

---

(1) المفضلية رقم ٩٦.

(2) الشل: الطرد، الايجاف: السير الشديد، العجوب: جمع عجب وهو آخر العصعص.

(3) العضاريط الأجراء، البيض: أراد النساء من اعدائه.

(4) رهوة: ما ارتفع من الأرض وما انخفض، الجنان: القلب.

(5) ديوان حسان بن ثابت ٤٠٠ شرح البرقوقي.

(6) ديوان حسان بن ثابت ـ شرح البرقوقي ٤٨٠.

(7) انطق أو أبين: حين أبين لكم عداوتي.

ويتخذ الهجاء أحياناً صورة النقائض ، والنقائض من حيث الشكل تتألف من قصيدتين وفي العادة ينظم أحد الشاعرين المتناقضين قصيدة من وزن خاص وقافية خاصة ، ثم يأتي زميله فينقض القصيدة بقصيدة أخرى من نفس الوزن والقافية ، ويحاول الشاعر أن يتعرض لمعاني الشاعر الآخر فيردها محاولاً نقضها ويفتخر بقبيلته . ويكثر هذا اللون من الهجاء أو الحرب اللسانية في شعر الأيام وبخاصة في شعر حروب الأوس والخزرج ، كما نلاحظ أن هذا اللون من الهجاء يتخذ طابع المبالغة ، ويمتزج بالفخر والحماسة .

ولا نريد أن نسترسل في دراسة هذا اللون ، فقد سبقنا إلى بحثه مفصلاً أساتذتنا ووفوا البحث حقه من البحث والدراسة .

وقد يرفض الشاعر الهجاء ويترفع عنه لسبب ما ، ففي يوم حَوْزة الأول طلبت بنو سُلَيْم من صَخْر بن عمرو بن الشريد السلمي أن يهجو بني غطفان ، فرفض قائلاً : ما بيني وبينهم أقذع من الهجاء ، ولو لم أمسك عن هجائهم إلاّ صوناً لنفسي عن الخنا لفعلت ثم قال :[1]

وعاذلةٍ هبَّتْ بليلٍ تلومُني	ألا لا تلوميني كَفَى اللومُ ما بيا
تقولُ : ألا تهجو فوارسَ هاشمٍ	ومالِيَ أنْ أَهجوهُمُ ثمَّ ماليا[2]
أبى الشَّتْمَ أنى إن أصابوا كريمتي	وأن ليسَ إهداءُ الخَنا مِنْ شماليا[3]

وهكذا نرى أن الهجاء لم يكن عميقاً ولا معقداً ، بل هو حماسة واضحة مستمدة من طبيعة الحياة ، يقف الشاعر فيها عند أفكار عامة ، وصور مأخوذة من القيم التي عاشها المجتمع ، ويسعر هذه الخصومات تاريخ القبائل . ولم يكن الهجاء خالصاً معبراً عن غرض واحد ، وإن انفردت بعض القصائد بموضوع الهجاء ، وإنما هو في الغالب مزيج من الانفعالات المختلطة بالحماسة والفخر في آن واحد . ويتضح هذا في النقائض التي شهدتها بعض الحروب كحروب الأوس والخزرج .

ويلاحظ أن هذا الهجاء كان يجنح إلى الإ[illegible]ش أحياناً ، على الرغم من أن طابعه العام لم يتسم بذلك ، ولكن حدة الخصومة هي التي كانت تميل به الى الإفحاش ، بل إن بعض الشعراء كان يتحاشى الهجاء .

***

(١) العقد الفريد ٥/ ١٦٥ ، الكامل للمبرد - طبعة مصر ١/ ١٩١ .

(٢) هاشم : هاشم بن حرملة .

(٣) الخنا : الفحش في الكلام ، شماليا : أخلاقي .

التهديد والوعيد:

الشاعر لسان القبيلة ، يعبر عما يختلج في نفوس أبنائها من سرور أو غضب أو حزن ، ولقد مر بنا أن الشاعر كان يقف مفتخراً بمناقب القبيلة وبنسبها وبأمجادها إذا كان المقام مقام فخر ، كما كان يتصدى لهجاء كل من يحاول الانتقاص من قبيلته سواء أكان من داخل القبيلة أو خارجها . وربما كان الأمر يتطلب أكثر من هجاء أو توبيخ فيلجأ الشاعر إلى التهديد والوعيد ، تهديد بالانتقام منهم ، وتهديد بكيل الصاع صاعين لكل من تسوّل له نفسه المساس بشرف القبيلة أو سمعتها . ولم يكن الشاعر ، في سبيل قبيلته ، ليحجم عن تهديد الملوك .

وربما اتخذ التهديد أسلوب التذكير بوقائع سبقت لهم ، فقد قتل بنو أسد حُجْراً الكنديّ فتوعدهم امرؤ القيس ، فقال عَبيد بن الأبرص الأسدي مخاطباً امرأ القيس ، ومهدداً إياه ومذكراً بمصير أبيه الذي قتله بنو أسد فقال :[1]

يا ذا المُخَوِّفُنا بمقتلِ شَيْخِهِ	حُجْرٍ تَمَنِّي صاحبِ الأحلامِ
لا تبكِنا سَفَهاً ولا ساداتِنا	واجعلْ بُكاءَكَ لابنِ أُمِّ قطامِ[2]
حُجْرٍ غداةَ تعاوَرَتْهُ رماحُنا	بالقاعِ بينَ صفاصفٍ وإكامِ[3]

ويستمر في وصف مقتل والد امرىء القيس إمعاناً في الحط من شأنه وشأن أبيه إلى أن يقول :

ونسيرُ للحربِ العَوانِ إذا بَدَتْ	حتى نُلَفَّ ضرامها بضرامِ[4]
لما رأيتَ جموعَ كِنْدَةَ أحجمتْ	عنّا وكندةُ غيرُ جِدٍّ كِرامِ
أزعمتَ أنكَ سوف تأتي قيصراً	فلتهلكنَّ إذن وأنتَ شآمي[5]

وامرؤ القيس يتهدد بني أسد لثأر بينهم وبينه وهو أنهم قتلوا أباه ، ويذكرهم بأنه لن يقعده عن حربهم حتى ولو رغبوا هم في السلم ، ويفخر بنفسه وبقومه ، وبما أعد للحرب من عدة فيقول[6] :

(١) ديوان عبيد بن الأبرص ص ١٢١ .

(٢) ابن أم قطام : حجر .

(٣) تعاورته : تداولته ، الصفاصف : جمع صفصف وهو المستوي من الأرض لا نبت فيه ولا علم ، الأكام : جمع أكمه وهي المرتفع من الأرض .

(٤) العوان : التي يقاتل فيها مرة بعد اخرى .

(٥) شآمي : في الشام .

(٦) ديوان امرىء القيس - تحقيق أبو الفضل ابراهيم ١٨٥ .

فـإن تدفِنـوا الـداءَ لا نُخْفِهِ   وإنْ تَبْعَثـوا الحـربَ لا نَقْعُدِ
وإن تقتلونـا نُقَتِّلْكُمْ   وإن تَقْصِـدوا بـالـدم نَقْصِدِ

إلى أن يقول معدداً ما أعده لحربهم :

وأعـددتُ للحـرب وثّابَةً   جَـوادَ المَحَثَّـةِ والمُرْوَدِ[1]
سَبوحـاً جَموحـاً وإحضارُها   كمعمعـةِ السَّـعْفِ الموقَدِ[2]

ويتخذ التهديد والوعيد الطابع القبلي فيأتي على لسان سيد القبيلة ورئيسها ويأتي هذا التهديد عقب هزيمة حلّت بقبيلته ، وكأنه بهذا التهديد يريد رفع معنويات فرسانه ، وإسماع صوت قبيلته للمجتمع القبلي حتى لا يطمعوا فيهم . فقد التقت بنو سُلَيْم وبنو فِراس في أكثر من يوم ، وفي يوم الكَديد هُزِمَت بنو فراس فقال رئيسهم بعد مقتل ربيعة وهو عبد الله بن جذل الطعان يتهدد بني سُلَيْم[3]

فصبـراً يـا سُلَيْمُ كـما صبرنا   ومـا فيكم لواحدنـا كِفاءُ[4]
فلا تبعـد ربيعـةُ من نَديمٍ   أخـو الهُـلاّكِ إن ذُمَّ الشتاءُ
وكم منْ غارةٍ ورعيلِ خيلٍ   تَداركَهـا وقـد حَمِسَ اللّقاءُ[5]

وقال يتهددهم أيضاً[6] .

ولسـتُ لحاصِـنٍ إنْ لم أزُرْكُمْ   كتائـبَ من كنانـةَ كالصرَّيمِ[7]
على قُبِّ البُطـونِ مُضَمَّراتٍ   أضرَّ بنِيِّهـا عَلْكُ الشَّكيمِ[8]

---

(1) المحثة : من الحث والسرعة ، المرود : من إروادها في سيرها ،
(2) سبوحاً : فرسا تسبح في سيرها ، الجموح التي تذهب على وجهها في السرعة . الأحضار : فوق التقريب ، المعمعة : صوت النار في السعف .
(3) العقد الفريد ٥/ ١٧٥ .
(4) كفاء : كفؤ .
(5) رعيل : الجماعة القليلة من الرجال والخيل .
(6) الأغاني/ ثقافة ١٦ / ٣٠ .
(7) الصريم : القطعة من الليل .
(8) قب : جمع اقب وهو ما دق خصره وضمر بطنه . الشكيم : الحديدة المعترضة في فم الفرس .

وفي حرب داحس والغبراء يتهدد قيس بن زهير العبسي بني فزارة ، ويقول بأنه لم يعد مكان للسلم بيننا بسبب غدرهم المتكرر ، ولم يعد مجال بينهم إلاّ القتال ولقاء الفرسان ، ويقسم بأنه ليهبطن بلادهم مع فرسان قومه حتى ترى بها منهم ملاحم تخشع لها الأبصار لهولها :[1] .

إن الهـوادة لا هوادة بيننا | إلا التجاهـدُ فاجْهـدَنَّ فَزارا[2]
إلا التـزوارُ فوقَ كلِّ مُقَلَّصٍ | يهـدي الجيادَ إذا الخميسُ أغارا[3]
فلأهبطن الخيلَ حُرَّ بلادكم | لَحْـقَ الأياطـلِ تنبـذُ الأمهارا[4]
حتـى تزورَ بلادكم وتُـرى بها | منـكم ملاحـمُ تخشـعُ الأبصارا

وعندما يقتل سيد من سادة القوم يتصدى شاعرهم مهدداً بقتل سادة القوم ثأراً لهذا السيد . ففي يوم بطن عاقل قَتل الحارث بن ظالم المريّ خالدَ بن جعفر الكلابيّ ، فتصدّى عبد الله بن جعدة للكلابي مهدداً غطفان :[5]

فلنقتلنَّ بخالـدٍ سَرَاتِكم | ولنَجْعَلَنْ لظالمين نَكالا
فـإذا رأيتـم عارضـاً متهللاً | منـا فإنّـا لا نحـاول مالا

ويلتقي الفرسان في المعركة ، ويطعن أحدهما الآخر برمحه فينجو من تلك الطعنة وينجو من الموت ، ويثور الفارس الآخر ويتوعد هذا الفارس بأنه إن نجا هذه المرة فلن ينجو منها في المرة القادمة ، هذا عامر بن الطفيل يهدد ضُبيعة بن الحارث فارس عبس الذي لحق عامراً يوم أغار على عبس واستاق إبلهم وطعنه برمحه فرار فحمل عليه عامر فطعنه ولكنه نجا فقال عامر :[6]

فإن تَنْـجُ منهـا يا ضُبَيْعَ فإنني | وجَـدِّكَ لم أعْقِـدْ عليكَ التَّمائما[7]
فأنزلتُـهُ إنـزالَ مِثْلِي مِثْلَهُ | بنجـلاءَ بلَّـت ظَهْـرَهُ والمآكِما[8]

---

(1) النقائض 1/ 102 .
(2) التجاهد : القتال .
(3) مقلص : فرس طويل القوائم منضم البطن مشمر .
(4) الأياطل : جمع ايطل وهو ما بين آخر الضلوع الى الورك .
(5) العقد الفريد 5/ 138 .
(6) ديوان عامر بن الطفيل 123 .
(7) التمائم : العوذ .
(8) نجلاء : واسعة ، المآكم : لحمات على رأس الورك .

ويكون التهديد أحياناً بالهجاء بالشعر ، وهذا ما فعله عنترة حينا قتلت بنو العُشراء من مازن قِرْواشاً العَبْسي بحذيفة ، فقال مهدداً بن العشراء بأنه سيأتيهم عنه قصائد هجاء تعمهم وتغمرهم وستكسوهم كالأردية ، وكالقلائد في أعناقهم تَسِمُهُمْ وتميزهم :[1]

سيأتيكُم عنّـي وإنْ كنـتُ نائياً   دُخانُ العَلَنْـدى دونَ بيتـي مِذْوَدُ
قصائـدُ مِنْ قِيلِ امـرىءٍ يحتذيكمُ   بنـي العُشَراءِ فارتـدوا وتَقَلّدوا

ولم يكن الفارس ليتخلى عن فروسيته وجرأته حتى ولو كان مكبلاً ، وفي قبضة الأعداء ، فهو يهددهم ويذكرهم بمن يكون ، أسرَ سُحَيْم بن وَثِيل الرياحي يوم الشِّعْب فقال[2] :

أقـولُ لَهـم بالشِّعْـبِ إذْ يأسرونني   ألـمْ تَعْلَمـوا أنّي ابنُ فارسِ زَهْدَمِ

ولم يكن الشاعر ليقف عند حد في تهديده ووعيده ، فهو يتوعد الملوك إن حاولوا نقض ما بينهم وبين قبيلته ، أو إن هم حاولوا الاعتداء عليها . وقد قتل الحارثُ بن ظالم المُرّيّ ابنَ الملك النعمان ، وفخر بذلك وتوعدَ النعمان فقال :[3]

فأقْسِمُ لولا مَنْ تَعَـرَّضَ دونَه   لخَالَطَـه صافي الحـديدةِ صارمُ[4]
حَسِبْـتَ أَبـا قابـوسَ[5] أنـكَ سالمٌ   ولَمّا تُصِـبْ ذُلّاً ، وأنفُـكَ راغِمُ

ثم يتحدث عن كيفية قتله ابنه ، وبأنه فتك به كما فتك بخالد بن جعفر العامري ثم يذكر السبب فيقول :

أخُصْيَـيْ[6] حِمـارٍ بـاتَ يَكْدِمُ نَجْمَةً   أتـاكلُ جيرانـي وجـارُكَ سالمُ
بدأتُ بهـذي ثم أثْنـي بهذهِ   وثالثـةٌ تُبْيَضُّ منهـا المَقادِمُ[7]

وهذا شاعر آخر يتوعد النعمان بن المنذر ويهجوه ، وهو يزيد بن الخَذّاق الشَّنّي فيقول له بأنه خائن مخادع يخفي ضميره غير ما يبدي ، ويذكره بأنهم قوم يرفضون الخضوع ، وأن أصلهم

---

(1) ديوان عنترة - شرح عبد المنعم شلبي ٤٧ - ٤٨ .
(2) نهاية الأرب للنويري ١٥/ ٤١٨ .
(3) المفضلية رقم ٨٨ .
(4) من تعرض دونه : حرسه ، لخالطه صافي الحديدة : لقتلته .
(5) أبو قابوس : كنية النعمان .
(6) أخصيي حمار : يخاطب النعمان ، يكدم : يعض ، النجمة : النبت على وجه الأرض ليس له ساق .
(7) المقادم : النواصي .

لا يسمح لهم بذلك ، وأنه إن فكر في غزوهم فإن كتائب الموت ستلقاه ، ثم يتساءل هل طمعت فينا لأنك حسبتنا قوماً ضعافاً ولا نحسن الكر والفر :[1]

نعمانُ إنـك خائـنٌ خَدِعٌ	يُخْفِي ضَمـيرُكَ غـيرَ ما تُبْدِي
فإذا بدا لكَ نَحْـتُ أَثْلَتِنا	فعليكهـا إن كنـتَ ذا حَرْدِ[2]
يَأْبَـى لنـا أنـا ذوو أَنَفٍ	وأُصولُنـا من مَحْتِـدِ المَجْدِ[3]
إنْ تغزِ بالخَرْقـاءِ أُسْرَتَنا	تَلْـقَ الكتائـبَ دونَنـا تَرْدِي
أَحَسِبْتَنـا لحماً على وَضَمٍ	أَمْ خِلْتَنـا في البـأسِ لا نُجْدِي[4]

ويتهدد قومٌ قوماً على لسان شاعرهم ، فتصدى شاعر هؤلاء للرد على تهديد أولئك وبأنهم مستعدون لوعيدهم ، وأنهم ملاقون خيلهم على سَفَوان ، وهو مكان تواعدوا عنده وأن الذين سيلاقونهم هم قوم عرفوا دروب القتال كما عرفتها جيادهم ، فهم ليوث طعان في يوم الطعان ، وستعرفون ضربات سيوفهم الصارمة الباترة ، هذا وَدَّاك المازنيّ يرد على وعيد بني شيبان لقومه يوم سَفَوان فيقول :[5]

رُوَيْداً بنـي شَيْبـانَ بعض وَعيدِكُمْ	تُلاقـوا غَداً خيلي على سَفَوانِ
تُلاقـوا جياداً لا تحيد عن الوغى	إذا الخيلُ جالـتْ في القَنـا المُتَداني
عليهـا الـكُماةُ الغُـرُّ من آلِ مازنٍ	لُيوثُ طِعـانٍ كلَّ يومِ طِعانِ
تلاقوهُـمُ فتعرفـوا كيفَ صَبْرُهُمْ	على ما جَنَـتْ فيهـم يَدُ الحَدَثانِ[6]
مقاديمُ وَصَّالونَ في الروعِ خَطْوَهُمْ	بـكلِ رقيقِ الشَّفْرَتَيـنِ يَمانِي[7]

وكما مر بنا فإن التهديد والوعيد قد يأتي ضمن فخر أو هجاء ، فكذلك قد يأتي ضمن رثاء لفارس من فرسان القبيلة أو سيد من ساداتها ، فيتهدد الشاعر الأعداء بالثأر منهم ، فقد قيل

---

(1) المفضلية رقم ٧٨ .

(2) الأثلة: الشجرة، جعلها مثلاً لعزهم، الحرد: القصد.

(3) المحتد: الأصل، الخرقاء: الجهل. تردي: من الرديان، وهو فوق المشي ودون العدو.

(4) الوضم : ما وقي اللحم من التراب من خشبة أو حصير .

(5) العقد الفريد ٥/ ٢٠١ ، حماسة أبي تمام شرح المرزوقي ١/ ١٢٧ وما بعدها .

(6) الحدثان : الدهر .

(7) مقاديم : جمع مقدام ، الروع : الحرب .

لَقيط بن زُرارة يوم شِعْب جَبَلة ، ورثته ابنته دَخْتنوس وهددت وتوعدت بني عامر جزاء ما فعلوا بأبيها فقالت : (١)

فإن تُعْقِــبِ الأيامُ من فارسٍ تكُنْ عليكم حَريقــاً لا يُرامُ إذا سَما(٢)
لنجــزيكُم بالقتــلِ قتــلاً مُضعَفاً وما في دماءِ الخَمْسِ يا مال مِنْ بَوا(٣)
ولــو قتلَتْنــا غالــبٌ كان قَتْلُها علينــا من العــارِ المُجَدَّعِ للعلى

وقد يتخذ التهديد والوعيد أسلوب النقائض ، ففي يوم كَعْب بن عَمْرو المازني كان عاصم يطلب أُحَيْحة بدم أخيه كَعْب ، فقال أحيحة عندما بلغه ذلك : (٤)

نُبِّئْــتُ أنــكَ جئْــتَ تَسْري بــين داري والقُبابَهْ
فلقد وَجَدْتَ بجانبِ الضَّحْيـ ـانِ شُبَّانــاً مَهابَهْ
فتيانَ حربٍ في الحديدِ وشامـرين كأسْـدِ غابَهْ
هــم نكَبُــوكَ عن الطريقِ فبِــتَّ تركب كلَّ لابَهْ(٥)
أعُصَيْـمُ لا تجْــزَعْ فإن الحــرب ليســتْ بالدُّعابَهْ(٦)
فأنــا الــذي صَبَّحْتُكُمْ بالقــومِ إذ دَخلــوا الرُّحابَهْ(٧)
وقتلــتُ كعبــاً قبلَها وعلــوتُ بالسيفِ الذُّؤابَهْ(٨)

وقد أجابه عاصم فقال : (٩)

أبلــغْ أُحَيْحَــةَ إن عَرَضْـ ـتَ بداره عنــي جوابَهْ
وأنــا الــذي أعجلتُهُ عــن مقعــدٍ أَلْهَـي كِلابَهْ
ورميتُــه سهماً فأخطــاه وأغلـ ـقَ ثَــمَّ عليه بابَهْ

---

(١) الأغاني/ كتب ١١/ ١٤٥ .
(٢) تعقب : تترك .
(٣) بوا : كفء ، نظير .
(٤) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٦٠ - ٦٦١ .
(٥) نكبوك : نحوك ، اللابة : الحرة من الأرض .
(٦) عصيم : تصغير عاصم استعمل هذه الصيغة للتحقير .
(٧) الرحابة : الأرض الواسعة .
(٨) الذؤابة : الرأس ، شعر مقدم الرأس .
(٩) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٦٠ - ٦٦١ .

وقد يمتزج الرجاء بالتهديد ، فِدْرهم بن يَزيد يرجو خصمه يوم سُمَيْرْ بعدم التمادي في الظلم ثم يتهدد بغزوه إن لم يتعظ فيقول :[1]

يا مالِ لا تبغـينْ ظُلامَتَنا يا مالِ إنـا مَعْشرٌ أُنُفُ[2]
يا مالِ والحـقُ إن قَنعتَ به فيه وفينـا لأَمرنـا نَصَفُ[3]
إن بُجَيراً عَبْـدٌ فَخُـذْ ثَمَناً فالحـقُ يوفَى به ويُعْتَرَفُ
ثم اعلمـن إن أَردتَ ضَيْمَ بني زيدٍ فإنـي ومَـنْ لَهُ الحَلِفُ
لأُصبحَـنْ داركُمْ بذِي لجَبٍ جَـوْنٍ له من أمامـه عَزَفُ[4]

ونلاحظ أن أسلوب القسم يكاد يصبح صفة ملازمة لشعر التهديد ، وربما غالى الشعراء في قسمهم ، كما يلاحظ أن شعر التهديد اتخذ الصور التالية : التذكير بوقائع سبقت لهم ، التهديد القبلي والتهديد الفردي وهذا اللون يلازم قصائد الفخر والرثاء ، والتهديد بالهجاء بالشعر ، والتهديد بعدم التمادي في الظلم علّ الظالم يرعوي ، التهديد للملوك إذا ما فكروا في غزو القوم ، الرد على تهديد قوم ، التهديد ممزوج برجاء .

وقد يستقل التهديد والوعيد بمقطوعة أو قصيدة ولكن الغالب عليه أن يأتي ضمن موضوعات أخرى كالحماسة والفخر والرثاء والهجاء .

الرثاء :

وهو بكاء الميت ، والتغني بفضائله ، وإظهار اللوعة والأسى على فراقه ، كما أنه تبيان لخسارة القوم بوفاته . ولكن شعر الرثاء في مجموعة شعر الأيام هو صورة من الفخر والحماسة في تلك الحروب ، ولا نجد في رثائهم من التفجع والتوجع للقتيل إلاّ ما جاء على ألسنة النوائح أو نسوة القتيل من أهله كزوجه أو أمه أو شقيقته ، وحتى أولئك النسوة كن يتجلدن ولا يظهرن الجزع والحزن ، لأن القتيل مات في ساحة الشرف دفاعاً عن قبيلته وعن عرضه وحماه .

ولعل ارتباط هلاك القوم بالمنازعات القبلية يجعل الشاعر لا يقنع بالتعبير عن حزنه وأساه ، بل يضيف إلى ذلك التعبير عن شدة سخطه وبالغ حقده على أعداء قومه الذين كانوا سبب

---

(١) الأغاني/ كتب ٣/ ٢١ .
(٢) ظلامتنا : ظلمنا .
(٣) نصف : انصاف .
(٤) بذي لجب : بجيش كثير العدد والعدة ، جون : أسود . عزف : صوت وجلبة .

هلاكهم ، ونرى الشاعر لا يلبث أن يخلع رداء الحزن والأسى ، ويثوب إليه تجلده وتضطرم في صدره الأحقاد فيتوعد القوم بلقاء قريب كما يذكرهم بما فعل بهم ، لقد قتلت تميم ذؤاباً الأسدي يوم خوٍّ ووقف أبوه يرثيه مذكراً بما فعله القتيل بهم من هتك بيوتهم ، ويذكر بقتل عُتَيْبة بن الحارث بن شهاب فارس تميم :[1]

ولقـد علمـتُ على التجلّدِ أنَّ الـرَّزِيَّةَ كان يوم ذؤاب[2]
أذؤابُ إنـي لم أهَبْـكَ ولـم أقُمْ للبيع عنـدَ تحَضُّرِ الأجلاب[3]
إن يقتلـوكَ فقـد هتـكتَ بيوتَهم بعتَيبة بن الحـارث بن شهاب
بأحبِّهِـمْ فَقْـداً إلى أعدائهم وأشَدِّهِـمْ فَقْـداً على الأصحاب

وكان مقتل فارس من فرسان القبيلة يعتبر كارثة لها ، لأنها فقدت شجاعته وقوته ، كما أنها فقدت مثلاً يُحْتَذى في الفروسية ، ويقف الشاعر عندها يرثي هذا الفارس ويبين أثر ذلك الفارس ثم يُقْسِم بأنه ليثأرن لمقتله ، وفي حرب داحس والغبراء قُتِل مالك بن زهير العبسي ، فوقف عنترة يسجِّل ذلك ويتمنى لو لم يكن رهان حتى لا تثور الحرب ويقتل مالك ، ثم نراه يعد القتيل بأنه لو بقي حياً بعده وأمكنه الدهر فسيفعل بالقوم ما تقرّ به عيناه :

لله عينا من رأى مثل مالك عقيرة قوم ان جرى فرسان[5]
فليتهما لم يجـريا نصف غلوة وليتهما لم يرسـلا لرهان[6]
وليتهما ماتـا جميعـاً ببلدةٍ وأخطـاهما قيسٌ فلا يُرَيان

ثم يقول :

لقـد جلَبا حَيْنـاً لِمَصْرَعِ مالكٍ وكان كريمـاً ماجـداً لِهِجان
وكان لدَى الهيجـاء يحمـي ذِمارَها ويطعـنُ عنـد الـكرِّ كل طِعان[7]

---

(1) الامالي للقالي ٢/ ٧٢ ـ ٧٣ .
(2) الرزية : المصيبة الشديدة .
(3) الأجلاب : جمع جلب وهي النعم تجلب من موضع إلى آخر .
(4) ديوان عنترة ـ تحقيق عبد المنعم الشلبي ١٧٧ .
(5) العقيرة : الرجل الشريف يُقْتل .
(6) الغلوة : الطلق .
(7) ذمار : ما ينبغي حياطته والذود عنه .

ثم يبين ما فعله خبر مقتله :

فقد هدَّ ركني فقدُهُ ومُصابُهُ ... وخلَّى فؤادي دائمَ الخفقانِ
فوا أسفا كيف انثنى عن جوادِهِ ... وما كانَ سيفي عندَهُ وسِناني

ثم يعده بأن يثأر له منهم فيقول : (١)

فسوف ترى إن كُنْتُ بعدَكَ باقياً ... وأمكنني دهْرٌ وطولُ زمانِ
وأُقسِمُ حقّاً لو بقيتَ لنظرةٍ ... لقَرَّت بها عيناكَ حينَ تراني

وكان مقتل كُليب بداية حرب البسوس الطويلة بين حيَّيْ ربيعة : بكر وتغلب ، وهجر مهلهل أخوه حياة اللهو التي كان يحياها ، وانطلق يجمع تغلب للأخذ بالثار ، وقد رثاه بقصائد منها هذه القصيدة التي يقطع في آخرها على نفسه عهداً بهجر كل حياة اللهو والدعة ، وبأنه لن يخلع درعه وسيفه حتى تبيد سراوة بكرفلا يبقى لها أثر أبداً . (٢)

خُذِ العَهْدَ الأكيدَ عليَّ عُمري ... بتركي كلَّ ما حَوَتِ الديارُ
وهَجْري الغانياتِ وشُرْبَ كأسٍ ... ولبسي جُبَّةً لا تُستعارُ
ولستُ بخالعٍ دِرْعي وسَيْفي ... إلى أنْ يَخْلَعَ الليلَ النهارُ
وإلا أنْ تَبيدَ سَراةُ بكْرٍ ... فلا يَبْقَى لها أبداً آثارُ

وحينما أسرت بنو مازن قِرْواش بن هُنَيِّ العبسي ، وكان قرواش قتل حُذَيْفة بن بدر الفزاري يوم الهَباءة ، فقتله بحذيفة ، فقال عنترة يرثي قرواشاً ويقارن بينه وبين الذي قُتِل به : (٣)

هَديكُم خيرٌ أباً من أبيكُمْ ... أعفُّ وأوفى بالجوارِ وأحمدُ(٤)
وأطعَنُ في الهيجا إذا الخيلُ صدَّها ... غداةَ الصباحِ السَّمْهَرِيُّ المُقَصَّدُ(٥)
فهلاَّ وفي القَفْواءِ عَمْرُو بنُ جابرٍ ... بذِمَّتِهِ وابنُ اللقيطةِ عِصيَدُ(٦)

(١) الديوان ـ تحقيق عبد المنعم شلبي ١٧٨ .
(٢) أخبار المواقسة ـ حسن السندوبي ٢٧١ ، بكر وتغلب ٤١ .
(٣) ديوان عنترة ـ تحقيق عبد المنعم شلبي ٤٧ ـ ٤٨ .
(٤) هدى : جار يحرم عليهم ما يحرم من الهدى .
(٥) السمهري : الرمح الصلب العود . المقصد : المكسر بنصفين حتى يبين ، أي حين يشتد البأس فتتكسر الرماح في صدور الأفراس .
(٦) القفواء : أسم موضع ، عصيد : هو المأبون ، المكره على الشيء .

ثم يتهددهم بأنه سيرسل إليهم قصائد يهجوهم بها على الرغم من بعده عنهم فيقول :

سيأتيكُمْ عني وإن كنتُ نائياً ... دُخانُ العَلَنْدي دونَ بيتي مِذْوَدُ[1]

قصائدُ مِنْ قبل امرىءٍ يحْتَذيكُمُ ... بني العَشْراءِ فارتَادُوا وتَقَلَّدوا[2]

ولم يكن مقتل سيد القبيلة وفارسها ليوهن العزائم ، ويجعلها تولول وتبكي، ولكنه يثير حقدها وغضبها على الأعداء ، ولا ينسى الشاعر وهو يرثي ذلك السيد أن يذكر القوم بأنهم أخذوا بثأره من القوم قتلاً ومن سادتهم ، ففي يوم خَوّ قُتِل عُتَيبة بن الحارث اليربوعي سيد يَربوع وفارسها ، فرثاه مُتَمِّم بن نُوَيْرَة فقال : [3]

ونحنُ بخَوٍّ إن أُصيبَ عَميدُنا ... وعَرَّد عنهُ كلُّ نِكْسٍ مُرَكَّبِ[4]

أَبأنَا به من سادةِ الحيِّ ستةً ... وكُنَّا متى ما نطلبِ الثأرَ نَغْضَبِ[5]

ولكن الحزن والجزع على الفارس السيد الذي رحل لا بد وأن يطغو على شعر بعضهم ، لما لهذا الفارس من منزلة في نفوسهم ولما يتحلى به من الفضائل ، فقد قُتِل ربيعة بن مكدَّم زعيم بني فراس وسيدهم ، وقاد فرسانهم بعده عبدالله بن جِذْل الطعان ، ومع ذلك فإن هذا الفارس لم يستطع أن يخفي حزنه وجزعه عليه : [6]

خَلَّ عَليَّ ربيعةُ بنُ مكدَّمٍ ... حُزْناً يكاد له الفؤادُ يزولُ

فإذا ذكرت ربيعةَ بنُ مكدَّمٍ ... ظلَّتْ لذكراه الدموعُ تَسيلُ

نِعْمَ الفتَى حَيّاً وفارسُ بهمةٍ ... يرديِ بشكتهِ بكل ذعول

سقتِ الكديدَ ومَنْ به رَجَبِيَّةٌ ... والناسُ إما هالكٌ وقتيلُ

إلى أن يقول وقد عاد إلى رشده وتذكر لحظة الضعف التي انتابته ، ويتذكر واجبه :

كيفَ العَزاءِ ولا تزال خَريدةٌ ... تبكي ربيعةَ - غادةٌ عطبولُ

يأبى ليَ اللهُ المَذَلّةَ إنّمَا ... يُعْطَى المَذَلّةَ عاجزٌ تنبيلُ

(١) العلندي : ضرب من شجر الرمل له دخان شديد ، المذود : اللسان .

(٢) يحتذيكم : يحتذي فلان النعل إذا انتعله ، وهوهنا يحقر من شأنهم .

(٣) معجم ما استعجم - البكري ٢/ ٥١٩ .

(٤) عرد : أحجم ونكل ، نكس : ضعيف وجبان .

(٥) أبأنا : قتلنا .

(٦) الأغاني/ ثقافة ١٦/ ٢٩ .

وعندما قتل مالك بن زهير رثاه الربيع بن زياد العبسي ، وبينّ منزلة القتيل في قبيلته وما فعلته نساء القبيلة عندما علمن بمقتله ، ثم يرى أن قتله لن يجر إلا الويلات والحروب ، ويحذر أولئك الذين سروا بمقتله بأن الأمر لن يكون سهلاً ، فلسوف تستعر الحروب وتطول ويذهب ضحيتها الكثيرون (١)

أفبعدَ مقتـلِ مالكِ بن زهيرٍ ترجـو النسـاءُ عواقـبَ الأطهارِ
ما إنْ أرى في قتلـه لذوي الحِجا إلا المَطِيَّ تُشَـدُّ بالأكوارِ(٢)
ومساعِـراً صدأُ الحـديدِ عليهم فكأنَّما طُلِـيَ الوجُـوه بقارِ(٣)
يا ربَّ مسرورٍ بمقتـلِ مالكٍ ولسـوفَ يصرفُـهُ بشرِّ مَحارِ(٤)

وحياة الجاهلية كانت حياة فروسية وبطولات والبقاء فيها للأقوى ، لذا فقد كان الفارس ينتزع إعجاب العدو قبل الصديق ، فإذا سقط هذا الفارس رثته قبيلته ، كما يرثيه آخرون من غير قبيلته إعجاباً بفروسيته أو لرابطة تربطهم به ، فعندما قُتل ربيعة بن مُكَدَّم رثاه رجل من بني الحارث بن الخزرج فقال : (٥)

أبلـغ بنـي بكرٍ وخُصَّ فوارساً لحقـوا المَلامةَ دون كلِّ لِحافِ
أَسْلَمْتُـمُ جُذْلَ الطعـانِ أخاكم بـينَ الـكَديدِ وقُلَّـةِ الأعرافِ(٦)
حتـى هوى مُتَـزايلاً أوصالُه للخَـدِّ بـينَ جنـادلٍ وقِفافِ(٧)
لله درُّ بنـي علِيٍ إنَّهمْ لـم يثأروا عَوْفـاً وحـيُّ خُفافِ(٨)

وعندما رثى كعب بن زهير ، وكانت أمه من كنانة ، ربيعة بن مكدم أخذ يحض القوم على بني سُلَيْم الذين قتلوه ، ويعيرِّ بالدماء التي أدوها إلى بني سليم وهم لا يدركون قتلاهم عندهم

(١) الأغاني/ ثقافة ١٧/ ١٣٠ ، النقائض ١/ ٨٩ ، أمثال الضبي ٣٠ .
(٢) الأكوار : جمع كور وهي الرحل .
(٣) مساعر : المسعر موقد الحرب .
(٤) محار : مرجع .
(٥) الأغاني/ ثقافة ١٦/ ٢٧ .
(٦) أخاكم : يعني ربيعة بن مكدم .
(٧) متزايلا : تزايل تباين ، جنادل : جمع جندل وهو الصخر العظيم ، قفاف : القف ما ارتفع من الأرض وصلبت حجارته .
(٨) حي خفاف : يعني سليما .

بدرك قتل ولا دية ، فبعد أن عبَّر عن همه وحزنه لمقتله قال : (١)

أبلـغْ كِنانَـةَ غَثَّهـا وسمينَها ... النازلـيـن ربـاعَهـا بالقاطنِ
إن المَذَلَّـةَ أن تُطَـلَّ دِماؤُكُمْ ... ودمـاءُ عوفٍ ضامـنٌ في العاهنِ
أموالـكم عوضٌ لهـم بدمائهم ... ودمـاؤكم ظَلَفٌ لهـم بظعائنِ
طلبـوا فأدرك وِتْرَهُـمْ مولاهم ... وأبـتْ مَحاملُـكم إبـاءَ الحارنِ
شُـدُّوا المآزرَ واثْـأروا بأخيكُمُ ... إن الحفائـظَ نِعْـمَ ربـحُ الثامنِ

وينتزع الفارس إعجاب واعتراف خصمه بشجاعته ، فالفروسية والبطولة يقدرهما مَنْ كان فارساً مثله ، وعندما يسقط هذا الفارس صريعاً في ساحة الوغى ، **يقف خصمه في الميدان يرثيه ويعترف بشجاعته ، وهذا ما سنفرد له غرضاً خاصاً وهو المُنْصِفات .**

وعندما **يفقد الأخ** أخاه في ساحة القتال ، يقتله الأعداء ، فإن مزيجاً من الحزن العميق ، والنقمة على الأعداء ، يحيان على نفس الأخ ، فقد أصبح وحيداً ، وإذا كان الفارس يعنيه أمر فقد فارس من فرسان قبيلته لِعَصَبية تجمع بينهما ، فكيف به إذا فقد أخاه ، وفي يوم اللِّوى قُتِلَ عبد الله بن الصِّمة ، وكان أخوه دُرَيْد نصحه بأن يكتفي بما ناله من القوم ويعود فأبى ، وعندما علم دريد بمقتل أخيه قال مصوراً لنا مشهداً حزيناً ، ومدحاً لذلك الفارس الـذي تجـندل في الميدان ولنستمع إلى مطلع القصيدة يقول : (٢)

أمـرتهمـو أمـري بِمُنْعَـرَجِ اللِّوَى ... فلم يَستبينوا النُّصْحَ إلا ضُحَى الغَدِ(٣)
ومـا أنـا إلا من غَزِيَّةَ إن غَوَتْ ... غَـوَيْتُ وإن تَرْشُـدْ غزيةُ أَرْشُدِ(٤)
تنـادَوْا فقالـوا : أَرْدَتِ الخيلُ فارساً ... فقلـتُ: أعبـدُ اللهِ ذلكُـمُ الرَّدِي ؟(٥)
غداةَ دعانـي والرمـاحُ يَنُشْنَهُ ... كوَقْعِ الصَّياصِ في النسيجِ الممدَّدِ(٦)
وكنـتُ كذاتِ البَوِّ رِيعَـتْ فأقبلتْ ... إلى جِذَمٍ مِنْ مَسْـكِ سَقْـبٍ مُجَلَّدِ(٧)

(١) الأغاني/ ثقافة ١٦/ ٢٨ .
(٢) الأصمعية رقم ٢٨ .
(٣) منعرج اللوى : الموضع الذي كانت به الوقعة التي قتل فيها عبد الله بن الصمة .
(٤) غزية : أحد أجداده ، غزية بن جشم .
(٥) الردى : الهالك .
(٦) الصياصي : جمع صيصة وهي شوكة الحائك التي يسوي بها السادة اللحمة ، ينشه : يتناوله .
(٧) البو : ولد الناقة يذبح ويحشى جلده تبناً لتعطف عليه وترأمه فتـدر عليه ، ريعت: فزعت ، جذم : جمع جذمه وهي القطعة ، المسك : الجلد ، السقب : ولد الناقه ، المجلد : المسلوخ .

فطاعنتُ عنـه الخيلَ حتى تبدّدتْ ... وحتى علانـي حالكُ اللـونِ أَسْوَدُ
طعـانَ امـريءٍ آسى أخـاه بنفسِهِ ... وأعلـمُ أن المرءَ غيـرُ مُخَلَّدِ

ثم يبدأ بذكر محاسن القتيل ومفاخره إلى أن يصل إلى نهاية المطاف فيذكر أنه مما يطيب خاطره أنه لم يكذب في حياته ولم يبخل عليه بما ملكت يده :

وطيب نَفْسِي أنَّنـي لم أَقُلْ لَهُ ... كذبتَ ولَمْ أَبْخَلْ بمـا مَلَكَتْ يَدِي

ويعرض لنا عبد الله بن عَنَمَة الضبّي صورة لفارس بكر بِسْطام بن قيس الذي سقط قتيلاً يوم نقا الحسن ، وكان عبد الله الضبي منقطعاً إلى أخواله بني شيبان ، مبيّناً فيها ما امتاز به بسطام من فروسية ونبل وكرم وشجاعة ، وكيف هوى صريعاً ، ويحق لقومه أن يجزعوا عليه من بعده لأنهم فقدوا بطلاً ومطعاماً ومقداماً : (١)

لأُمِّ الأرضِ ويلٌ ما أجَنَّتْ ... غَداةَ أضَرَّ بالحَسَنِ السبيلُ(٢)
نُقَسِّـمُ مالَـه فينـا وندعو ... أبا الصَّهْباءِ إذ جَنَحَ الأَصيلُ(٣)
أَجِـدَّكَ لن تراه ولن تراه ... تَخُـبُّ به عُذافِـرَةٌ ذمولُ(٤)
حقيبـةُ رَحْلِـه بَدَنٌ وسَرْجٌ ... تُعارِضُـهُ مُرَبَّبَـةٌ دَؤُولُ(٥)
لك المِرْبـاعُ منهـا والصَّفايا ... وحُكْمُكَ والنَّشيطةُ والفُضولُ(٦)
لقد ضَمِنَتْ بنو بدرِ بنِ عمروٍ ... ولا يُوفَى بِبِسطـامٍ قَتيلُ

ويبين لنا كيف سقط صريعاً فيقول :

فَخَـرَّ على الألاءةِ لم يُوَسَّدْ ... كأنَّ جَبينَـه سيفٌ صَقيلُ(٧)

---

(١) الأصمعية رقم ٨ ، النقائض ١/ ١٩١ ، العقد الفريد ٥/ ٢٠٣ .
(٢) أجنت : سترت ، الحسن : كثيب بنجد ، أضربه : دنا منه .
(٣) أبو الصهباء : بسطام ، الأصيل : العشي .
(٤) أجدك : أجدا منك ، العذافرة : الشدة الضخمة واراد الناقة . الذمول : السريعة .
(٥) بدن : درع قصيره دؤول : سرقة المشي في خفة .
(٦) المرباع : ربع الغنيمة ، الصفايا : ما كان يصطفيه الرئيس من خيار الغنيمة ، النشيطة : ما أصابه الجيش في طريقه ، الفضول : ما فضل فلم ينقسم
(٧) الألأءة : شجرة من شجر الرمل .

ثم يبين لنا لم جزع عليه قومه :

فـإن تَجْـزَعْ عليه بنـو أبيه ... لقـد فُجِعـوا وفاتَهُـمُ جَليلُ
بِمِطْعـامٍ إذا الأشـوالُ راحتْ ... إلى الحُجُرات ليسَ لهـا فصيلُ[١]
ومِقْـدامٍ إذا الأبطـالُ خامَتْ ... وعَـرَّدَ عن حليلتِـه الحَليلُ[٢]

ويكون الرثاء أحياناً بكاءً للقوم الذين تفرّقوا وقُتلوا ، فقد فتكت أسد بأهل امرىء القيس عندما قتلت أباه حُجْراً ، فقال يبكيهم ويصور لنا أنهم قُتِلوا غَدْراً ولم يُقتلوا في معركة ، وكيف تناوش جثثهم الطير ، وتنتزع حواجبهم وعيونهم : [٣]

مُلوكاً من بني حُجْرِ بن عَمْروٍ ... يُساقُـونَ العَشِيَّةَ يُقَتَّلونا
فلـو في يومِ مَعْـركَةٍ أُصيبوا ... ولـكنْ في ديارِ بنـي مرينا[٤]
فلم تُغْسَلْ جَماجِمُهُـمْ بِغِسْلٍ ... ولـكنْ بالدمـاءِ مرمَّلينا[٥]
تظَـلُّ الطـيرُ عاكفـةً عليهم ... وتَنْتَـزِعُ الحواجـبَ والعُيونا[٦]

ويقف عَبيد بن الأبرص الأسدي يبكي قومه بني سعد بن ثعلبة الذين أبادتهم الحروب والمنايا في حروبهم مع الغساسنة ، **ويلتفت الشاعر إلى الذين سبقوه من الأقوام ، ويرى أن ما أصاب قومه هو ما أصاب مَنْ قبلهم ، ألا وهو ضراس الحروب والمنايا العواقب** ، ومثل هذه الإلتفاتة قلّما نجدها في شعر الأيام ، لأن الحروب والصراعات لم تكن تسمح للشاعر بالتأمل فيا حوله وما قبله .

لِمَنْ طَلَلٌ لم تعفُ منـه المذانبُ ... فجَنْبـا حِبِـرٍّ قد تَعَفَّـى فواهِبُ[٧]
ديارُ بنـي سعـدِ بن ثعلبَـةَ الأُلَى ... أذاعَ بهم دهـرٌ على النـاسِ رائِبُ[٨]
فأذْهَبهُـم ما أذهَـبَ النـاسَ قبلَهم ... ضِراسُ الحـروبِ والمنـايا العَواقِبُ[٩]

(١) الاشوال : جمع شول وهي الابل التي شالت البانها اي ارتفعت، الحجرات: حظائر الابل، الفصيل: ولد الناقه
(٢) خامت: جبنت، عرد: احجم وفر (٣) ديوان عبيد بن الابرص ص ٨
(٤) بنو مرينا: قوم من أهل الحيرة بناحية الكوفه، غسل: ما غسلت به رأسك أو ثوبك
(٥) الكامل لابن الاثير ١/ ٥١٣، ديوان امرىء القيس ٢٠٠
(٦) الطير: جماعة النسور والعقبان
(٧) المذانب: جمع اذنب وهو اسفل الوادي، حبر، واحب: مكانان
(٨) بنو سعيد قومه، اذاع بهم: فرقهم، رائب: شديد، اذهبهم: افناهم
(٩) العواقب: التي تأتي مرة بعد مرة

الأربُ حيٌّ قد رأينا هُنا لِكُمْ   هُم سَلَفٌ تَزْوَرُّ منه المَقانِبُ[1]
فأقبِلْ على أَفْواقِ سَهْمِكَ إنما   تكلَّفتَ م الأشياءِ ما هو ذاهِبُ[2]

فإذا ما انتقلنا إلى مراثي الشواعر في شعر الأيام فنحن واجدون منه الكثير ، لأن المرأة أكثر جزعاً ، وأقدر على إظهار الحزن والتعبير عنه ، ولأن فقد الفارس الذي ربما كان ولدها أو أخاها أو زوجها أو من فرسان قبيلتها ، يعني فقد سند لها ومدافع عنها .

ففي حرب داحس والغبراء قُتل مالك بن زهير ورثاه الشعراء ، ورثته أمه تماضر بنت الشريد السلمية ، فأظهرت حزنها عليه ، والخسارة التي مُنِيتْ بها عبس بفقده ، ثم ذكرت بعض مآثر القتيل من قِرى الضيف وفروسية ابنها ، ثم تدعو على حذيفة بألا يسقى الماء من الغوادي لأنه فجعها بابنها الفتى الكريم الذي يعلو عبساً لو وُزن بها . وتختم المقطوعة بأنها لن تنقطع عن بكائه ما عاشت : [3]

كأنَّ العينَ خالطَها قَذاها   لِحُزْنٍ واقعٍ أَفْنَى كَراها[4]
على وَلَدٍ وزَيْنِ الناسِ طُرّاً   إذا ما النارُ لم تَرَ مَنْ صَلاها[5]
لَئِنْ حَزِنَتْ بنو عبسٍ عليه   فقد فَقَدَتْ بنو عبسٍ فَتاها

ثم تذكر شمائله ، وبعد ذلك تخاطب حذيفة فتقول :

حُذَيْفَةُ لا سُقِيتَ من الغَوادِي   ولا رَوَّتْكَ هاطِلَةٌ نَداها[6]
كما أَفجَعْتَنِي بفتىً كريمٍ   إذا وُزِنَتْ بنو عبسٍ عَلاها
فَدَمْعِي بعدَه أبداً هَطولٌ   ولا يَرْقَأْ من عينِي بُكاها[7]

وعندما يسقط الفارس الأخ صريعاً ، يهز هذا الحادث الجلل أخته ، فترثيه بالشعر معبرة عن لوعتها وحزنها لفقدها المعين والسند والفارس ، وهذه عَزَّة بنت مكدم ترثي أخاها ربيعة الذي قُتِل يوم الكَديد ، وهي حين ترثيه فإنما تظهر جزعها لفقده ، وتذكر أخاً باراً بها ، وتؤكد له أنها

---

(1) السلف :الجيش المتقدم، تزور منه: تعدل عنه خوفاً، المقانب : جمع مقنب وهي من العشرين فارسا فأكثر

(2) أفواق: جمع فوق وهو موضع الوتر من السهم والأعداء

(3) رياض الأدب ـ لويش شيخو ٤٣ .

(4) كراها : نومها .

(5) صلى النار : اوقدها .

(6) الغادية : السحابة تصب مطرها غدوة ، الهاطلة : السحابة .

(7) رقأ الدمع : جف .

ستبقى باكية له مدى الحياة ، ومما قالته : (١)

لو كانَ يُرْجِعُ مَيّتاً وَجْدُ ذي رَحِمٍ	أبقَى أخِي سالماً وَجْدي وإشْفاقي
أو كانَ يفدى لكانَ الأهلُ كلُّهُمُ	وما أُثمِّرُ من مالٍ له واقي
لكنْ سهامُ المَنايا من نُصِبْنَ لَهُ	لم يغنه طِبُّ ذي طِبٍّ ولا راقي(٢)
فاذهبْ فلا يُبْعِدَنْكَ اللهُ من رَجُلٍ	لاقَى الذي كلُّ حيٍّ مثلَها لاقي
فسوفَ أَبكيكَ ما ناحتْ مطوقةٌ	وما سَرَيْتُ مع الساري على ساقِ

وعندما يغيب الأب ، وتفقد ابنته ذلك الأب الفارس ، فإنها تحزن عليه ، ولا تجد الكلمات التي تعبر عن حزنها ولوعتها ، وهي حينا ترثيه فإنها لا تنسى صولاته وجولاته حينا كان يصول ويجول ، بكت ابنة عُتَيْبة بن الحارث أباها يوم مقتله في خَوّ فقالت : (٣)

على مِثْلِ ابنِ مَيَّةَ فانعياهُ	تَشُقُّ نواعِمَ البَشَرِ الجيوبا(٤)
وكان أبي عُتَيْبَةُ شَمَّرِيّاً	ولا تلقاه يَدَّخِرُ النَّصيبا(٥)
ضَرُوباً باليدين إذا اشْمَعَلَّتْ	عَوانُ الحَرْبِ لا وَرِعاً هَيوبا(٦)

ويمتزج رثاء الأب بالتهديد والوعيد للأعداء الذين قتلوه ، فقد قتلت عامر وعبس لَقيطَ ابن زُرارة يوم شِعْبِ جَبَلَة ، فوقفت ابنته دَخْتَنوس ترثيه وتتوعّد قاتليه لأنه ضُرِبَ بعد قتله من قبل بني عبس : (٧)

ألا يا لَها الويلاتُ ويلةَ مَنْ بَكَى	لِضَرْبِ بني عبسٍ لَقيطاً وقد قَضَى
لقد ضربوا وجهاً عليه مهابةٌ	ولا تحفل الصمُّ الجنادلُ مَنْ ثَوَى
فلو أنكم كنتم غداةَ لَقِيتُمُ	لَقيطاً ضربتُمْ بالأسِنَّةِ والقَنا
غَدَرْتُم ولكن كنتم مثلَ خُضَّبٍ	أضاءتْ لها القُنّاصُ من جانبِ الشَّرا

(١) الأغاني/ ثقافة ١٦/ ٢٩ ، الأمالي للقالي ٣/ ١٢ .
(٢) راقي : صانع الرقية وهي عوذة يرقى بها المريض .
(٣) رياض الأدب - لويس شيخو ١٠٦ ، العقد الفريد ٥/ ٢٥٠ .
(٤) نواعم : البشر : النساء ، مية : أم عتيبة .
(٥) الشمري : الرجل الحازم المحنك ، لا يدخر النصيب : كريم لا يحفظ لنفسه ما يدخره لوقت الحاجة .
(٦) اشمعلت الحرب : إذا قامت على ساق معظم بلاوها ، العوان : الشديدة .
(٧) الأغاني/ ثقافة ١٧/ ١٣٨ .

إلى أن تقول مهددة بالانتقام :

لنجـزيكم بالقتـل قتـلاً مضعَّفاً ... ومـا في دمـاءِ الخمسِ مالٌ من بوا

وتبكي الزوجة زوجها إذا افتقدته ، وسقط في ميدان الشرف ، دفاعاً عن القبيلة ، وهي لا تختلف فيا تقول عن الأم والأخت والبنت ، هذه سُهَيَّة زوجة شدَّاد العبسي ترثيه وقد قتله جبَّار العامريّ بعد يوم الهَباءة بعد أن تظهر حزنها وأرقها لفقده [1]

فَمَـنْ بعـدَ شداد يحمِـي الحَرِيمَ ... إذا الحـربُ قامـتْ وسـالَ العَرَقْ

ومَـنْ يردعُ الخيلَ يومَ الوغى ... ومَـنْ يَطْعَـنُ الخَصْـمَ وَسْـطَ الحَدَقْ

ومَـنْ يُكرمُ الضَّيْفَ في أرضِه ... ومَـنْ للمُنـادِي إذا ما زَعَقْ

ثم تعود ثانية لإظهار جزعها عليه فتقول :

لَقـد صِرْتُ من بَعْـدِه في ضَنىً ... وقلبِـي لأجْـلِ الفِـراقِ احترقْ

ويمتزج الرثاء الفردي ونعي لفارس في القبيلة تربطه بالتي ترثي صلة ، برثاء فرسان قومها الذين اختطفهم الموت ، وتكون المصيبة عامة ، ففي يوم قُلاب قُتل زوج الخِرْنق بنت هفَّان وقُتل نفر من قومها فقالت ترثيهم مذكرة ببطولاتهم وشجاعتهم

لا يَبْعَدَنْ قومِـي الـذين هُمُ ... سُـمُّ العُـداةِ وآفـةُ الجُزْرِ

النازلـونَ بكلِّ مُعْتَرَكٍ ... والطيِّبـونَ مَعاقِـدَ الأُزُرِ [2]

الضاربـون بحَوْمَـةٍ نَزَلَتْ ... والطاعِنـون وخيلُهـم تَجْري

ثم تصور مَصْرَعَهم يوم قُلاب :

لاقـوا غَداةَ قُلابَ حَتْفَهُمُ ... سَـوْقَ العَتِـيرِ يُسـاقُ للعَتْرِ [3]

هذا ثنائي ما بقيتُ عَليهِمُ ... وإذا هلـكتُ أجنَّنـي قَبْرِي

الخالطـونَ نَحيتَهُـمْ بنُضارِهِمْ ... وذوي الغِنَـى منهـم بذِي الفَقْرِ [4]

---

(1) الأمالي للقالي ٢/ ١٥٨ .
(2) معاقد الأزر : كناية عن عفتهم وطهرهم .
(3) العتير : الذبائح التي كانت تقدم للآلهة .
(4) نحيتهم : خسيسهم ، نضارهم : النضار الخالص من كل شيء .

وللأعداء الفرسان إن سقطوا رثاء من الذين سبق أن قدموا لهم خيراً ، ولـو كانـوا من أعدائهم ، ففي يوم الكُلاب الثاني قُتل يزيد بن عبد المَدان ، وهو من أشراف نجران ، وكان أغار على قومها وأسر أخويها ثم أطلق سبيلهما ، فلما قُتل تذكرت صنيعه فقالت زينب بنت مالك ابن جعفر بن كلاب ترثيه على الرغم من انه جاء غازياً لقومها بني تميم :[1]

بـكيتُ يزيدَ بنَ عبـدِ المَدا ... نِ خَلَّـتْ به الأَرْضُ أثقالَهَا[2]

شريكُ الملـوكِ ومَـنْ فَضْلُهُ ... يفضـلُ في المجـدِ أفضالَهَا

فـككتَ أَسـارَى بنـي جعفرٍ ... وكِنْـدَةَ إذ نلـتَ أَقوالَها

ورَهْـطَ المُجالِـدِ قد جَلَّلَتْ ... فواضـلُ نُعماكَ أجبالَها[3]

وتبقى لدينا من صور الرثاء ، **نَدْب نائحة الفارس الذي يُقتل** ، وهو لا يخرج عن كونـه تفجعاً وتوجعاً للقتيل ، وذكر ما أصابهم بعده ، وذكر بعض محاسنه .

ولنحاول أن نستخلص صورة الرثاء في شعر الأيام على ضوء ما عرضنا من شواهد فنرى أن هذا الرثاء في معظمه رثاء قبلي ، وهذا هو طابعه العام ، وعلى الرغم مما نرى من صوره على لسان النائحة أو الأخ أو الأخت أو الأم أو الزوجة وحتى ما جاء على لسانهن فإن بعضه أو معظمه مرتبط بالقبيلة أشد الارتباط .

ودوافع الرثاء كما لاحظنا ، قد يكون الدافع إليه حزن الشاعر لفقد شخص تربطـه بـه رابطة الرحم ، أو رابطة الصداقة والمودة ، أو تربطه به عصبية وولاء الشاعر لقومه ، وانفعاله له بأحداث قبيلته .

وقد يكون المرثيّ واحداً أو جملة ، وقد يكون عاماً يقصد به الشاعر قومه الذين ذهبوا وقُتلوا وشرّدوا وتبدد شملهم ، كما قد يكون المرثي سيداً من سادة القبيلة وأشرافها .

ولعلنا نلاحظ أبرز الموضوعات التي دار حولها شعر الرثاء ، فنجد في مقدمتها الفجيعة وأثرها على النفوس ، وذكر صفات الفقيد ، وما كان يتحلى به من نبل الخلق ، ومن البطولـة والشهامة ، ثم ما عرضه بعض الشعراء من تهديد لأولئك الذين قتلوه بأنهم سيلاقون من قومه

---

(1) رياض الأدب ـ لويس شيخو ٩٣ .

(2) خلت الأرض اثقالها : كأن الأرض لم تعد تحمل يزيد على وجهها لما فيه من الخصال فتخلت بموته عن هذا الحمل الهظ .

(3) رهط المجالد : بنو يزيد بن عبد المدان .

انتقاماً رهيباً ، وأحياناً يلجأ الشاعر إلى ذكر بعض ما فعله القتيل في الأعداء من تقتيل ، أو ما فعله فرسان قومه بهم في محاولة للتخفيف من وقع المصيبة على النفوس ، كما ان بعض صور الرثاء كانت تظهر الجزع وحالة اليأس التي أصابت الشاعر بعد فقده ذلك الفارس . ولكننا **قليلاً ما نجد الشاعر يلتفت إلى ظاهرة الموت ويفلسفها** كما فعل عَبيد بن الأبرص حين رثى قومه الذين بادوا .

ويمتاز شعر الرثاء بصدق العاطفة ، فالشاعر حين يرثي الفارس القتيل ، فإنما يرثي فارساً مدافعاً عن القبيلة وحماها وشرفها ، والقتيل قريب من نفس الشاعر ، فلا يحتاج الشاعر إلى افتعال العاطفة أو تزييفها بل تنثال العبارات انثيالاً دونما تكلف أو عناء .

والملاحظ أن شعر الرثاء الذي وصلنا ليس بالكثير إذا ما قيس بالشعر الكثير الذي وصلنا عن تلك الأيام ، وربما كان السبب في ذلك أن القبيلة لم تكن لتشغل نفسها برثاء قتلاها ، وإنما كانت تشغل بالأخذ بالثأر لهم ، كما أن حرص القبيلة على أن لا تبدو ضعيفة أمام باقي قبائل المجتمع القبلي كان يمنعها من ذكر قتلاها ، لذلك فإن قصائد الرثاء ومقطوعاته التي بين أيدينا هي رثاء لرؤساء أو فرسان القبيلة المشهورين . وربما عدّد الشاعر بعض قتلى قومه في قصيدة واحدة ولكن ذلك أيضا قليل ونادر .

نداء الثأر :

خضعت الجزيرة العربية في العصر الجاهلي لقانونين صارمين هما : **قانون الثأر وقانون الجوار** ، ولم يكن العربي يتساهل في أي منهما ، فكان يحتكم إلى السيف إذا قُتل فرد من قبيلته ، كما كان لا يتهاون بحقوق جاره ، ويستل سيفه إذا ما لحق بهذا الجار ضَيْم . وقد مر بنا فيما مضى أن للثأر قانوناً صارماً بسطناه في حينه ، كما أن للثأر طقوساً يلتزمها كل موتور حتى يدرك ثأره .

وكان دور الشاعر هو الدعوة إلى الأخذ بالثأر ، وقد اتخذت هذه الدعوة صوراً عدة نحاول إجمالها الآن . ربما اتخذ الشاعر أسلوب تذكيرهم بقتيلهم حتى يهبوا للأخذ بالثأر إن كانوا قد قعدوا عنه ، كما فعل لَبيد بن ربيعة العامريّ حينما حضّ على الطلب بدم عُرْوَةَ الرحّال الذي قتله البَراض الكِنانيّ ، فقال :

فأبلـغْ إن عَرَضْـتَ بنـي نُمَيْرٍ ... وأخـوالَ القتيلِ بنـي هِلالِ
بأنَّ الوافـدَ الرَّحّـالَ أضحَى ... مقيماً عنـدَ تَيْمَـنَ ذِي الظِّلالِ[1]

(١) الأغاني/ ثقافة ٢٠/ ٦٦ .

وتحاول الخنساء أن تذكر القوم، قومها، بما أعدت لهم ذبيان إذا ما لاقوها وهي إنما تفعل ذلك حتى يعدوا العدة الحقة لملاقاة الأعداء والأخذ بثأر أخيها، وتذكرهم بأنهم على الرغم من قتلهم هاشماً وابن أخته إلا أنه لا صلح حتى يسبوا الخرائد، وتذكر بأن قومها فطروا على النصر إذا ما التقى الجمعان [1]:

ألا أبلغـا عنـي سُلَيْماً وعامراً ... ومَـنْ كان من عليا هَوازِنَ شاهدا
بأن بنـي ذبيان قد أرصـدوا لكم ... إذا ما تلاقيتم بأَنْ لا تَعاوُدا
فلا تَقْرَبُـنَّ الأرضَ إلا مُسارِقاً ... يخَافُ خميس مطلعَ الشمس حارِدا[2]
فقـد زاحَ عنـا اللـؤمَ إذ تركوا لنا ... أرومـاً فآرامـاً فما آب وارِدا[3]
ونحنُ قتلنـا هاشماً وابـنَ أختِهِ ... ولا صُلْـحَ حتـى نستقيد الخرائدا
فقـد جَرَتِ العـاداتُ أَنا لَدَى الوَغَى ... سنظفـرُ والإنسـانُ يبغـي الفوائدا

وأكثر ما كان يثير فرسان القبيلة صوت السبية وهي في الأغلال تستغيث بهم، وقد أخذت رَيْطة بنت عاصية أسيرة في نساء من قومها في حالة وضيعة، أخذها بنو سليم، فقالت تصوّر حالها وتحرض على الأخذ بالثأر، وتتخيل خيل قومها وقد هبت للأخذ بالثأر لتهدأ تلك العيون التي طال بكاؤها، ويغسل العار الذي لحق بهم بسبب السبي:

أَلامَسـتْ سُلَيْمٌ في السياق وأفحشَتْ ... وأفـرطَ في السَّـوْق القبيح إسارُها
لعـلَّ فتـاةً منهـم أَنْ يسوقَها ... فـوارسُ منّـا وهـي بادٍ شَوارُها
فإنْ سبقـتْ عُلْيا سليم بذَحْلِها ... خُزاعـةُ أو فاتـتْ فكيفَ اعتذارُها
ألا ليتَ شِعْرِي هل أَرَى الخيلَ شُزَّباً ... تُثـيرُ عَجاجـاً مستطيـراً غبارُها[4]
فترقـا عيونٌ بعـدَ طولِ بُكائِها ... ويغسلُ ما قد كانَ بالأمسِ عارُها[5]

ولم تكن الأم لترضى أن يذهب دم ابنها هدراً، لا سيا إذا وجدت أخاً له يأخذ له بثأر ابنها، فقد قُتل عبد الله بن الصِّمة، وشرعت أمه تحض دُريداً ابنها الثاني على الطلب بثأر أخيه

---

(1) ديوان الخنساء ـ دار صادر ٣٢ ـ ٣٣.
(2) مسارق: مستخف، الحارد: القاصد، الخميس: الجيش.
(3) أروم وآرام: جبلان من أرض بني سليم، وارد: جبل صغير في وسط رمل.
(4) شزبا: ضامرة.
(5) ترقا: تسكن وتهدأ.

عبد الله ، ويرد عليها دريد في هذه الأبيات بأنها لن يمر عليها طويل وقت حتى يثأر لها ، فقد شاب رأسه قبل وقت المشيب بسبب بكائها عبدالله ، ويعدها بأنه لن يحذر الموت بعد موت أخيه : (١)

تَكِلْتِ دُرَيْداً إن أَتتْ لكِ شَتْوةٌ	سِوَى هذه حتى تدورَ الدوائرُ
وشيَّب رأسِي قبلَ حينِ مشيبِهِ	بكاؤكِ عبدَ اللهِ والقلبُ طائرُ
إذا أنا حاذرتُ المنيَّةَ بَعْدَه	فلا وألَتْ نفسٌ عليها أُحاذِرُ(٢)

وهذا شاعر قُتِل أخوه غيلة ، فقتل قاتل أخيه نهاراً في بعض الأسواق من الحضر ، ويبدو أن قاتلي أخيه هم بنوعمه كما يبدو من مخاطبته لهم ، فهو يخبرهم بأنه لم يعد مجال للتقاضي والكلام والشعر بعد أن قتلوا أخاه وأن الاحتكام للسيف ، ولن نرضى حتى يرضى السيف ، أي حتى يشفي غليله ويأخذ بثاره ، هذا الشاعر هو شاعر الحماسة الشَّمَيْذر الحارثي : (٣)

بني عمِّنا لا تذكروا الشعر بعدما	دفَنْتُمْ بصحراءِ الغُمَيْرِ القوافيا
فلسنا كمن كُنْتُمْ تُصيبون سَلَّةً	فنقبلَ ضيفاً أو نُحَكِّمَ قاضيا(٤)
ولكنَّ حُكْمَ السيفِ فيكم مُسَلَّطٌ	فنرضَى إذا ما أصبحَ السيفُ راضيا

ويخشى شاعر القبيلة الحريص على سمعتها وكرامتها أن يستجيب بعض سادتها لنداء التعقل ويقبلوا الصلح ، فينبري هؤلاء الشعراء داعين إلى رفض الصلح والاستمرار في القتال حتى يأخذوا بثأرهم وتعلو كلمتهم وتتسامع بهم القبائل . يقول عمرو بن بَرَّقَة الهَمْداني : (٥)

أفي اليوم أُدْعَى للهَوادةِ بعدَما	أُميلَ على الحيِّ المذاكي الصَّلادِمُ
فلا صُلْحَ حتى تَعْثُرَ الخيلُ بالقَنا	وتُضْرَبَ بالبيضِ الخِفافِ الجماجمُ

وهذا شاعر آخر يذكر القوم بما أصاب نسوتهم ، وبأنه لا صلحَ حتى تساق نساء سوق نسوتهم ، أو يموتوا دون ذلك لو كانوا أحرارا ، يقول المرعشي الكلبي : (٦)

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١/ ٣٩٦ ، شاعرات العرب - عبد البديع صقر ١٣٤ .
(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢/ ٧٥٢ .
(٣) وألت : خلصت .
(٤) حماسة أبي تمام - شرح المرزوقي ١/ ١٢٤ .
(٥) سلة : سرقة .
(٦) حماسة البحتري ٣٢ .

لو كنتَ حُرّاً كريماً ذا محافظةٍ ما نُجّيتَ إلا ونارُ الحربِ تشتعلُ
حتى تُساقَ نساءٌ سَوْقَ نِسْوَتِكُمْ بما أصابكُمْ أو يُبْلَغَ الأجَلُ[1]

ويصر القتَّال الكلابيّ على رفض الصلح حتى يمعن فيهم تقتيلاً ويأخذ بثأره منهم : [2]

إني لَعَمْرُ أبيهِمْ لا أُصالِحُهُمْ حتى يُصالِحَ راعي الثَّلَّةِ الذيبُ[3]
أو تنجلي الخيلُ عن قَتْلى مُصرَّعةٍ كأنَّها خُشُبٌ بالقاعِ مَقْطوبُ[4]

ويقترن بالصلح وبقبوله قبول الدية ، ولم يكن قبولها في ذلك الحين أمراً مستساغاً إلا من ابن القبيلة إن كان القتل من غير عمد ، أو تسامح أهلُ القتيل ، وكانت في مقام آخر حين يطول أمد الحروب ويتفاقم الشر فيتدخل الوسطاء ويصلحون بين الحيين ويعدوا ديات كل فريق ثم يدوا الفريق الذي زاد عدد قتلاه . أما في غير هذين الموضعين فكان قبولها عاراً ، وقد صور ذلك شاعر الحماسة حين قال[5]

فلو أنَّ حيّاً يَقْبَلُ المالَ فِدْيَةً لسُقْنا لكم سَيْلاً من المالِ مُفْعَما[6]
ولكن أَبَى قومٌ أُصيبَ أخوهُمُ رِضَى العارِ واختار واعلى اللبنِ الدَّما[7]

وقد وقف شعراء القبائل **يحضون على عدم القبول بالدية** ، ويعيرونهم بقبولها ويصفونهم بأحط صفات الرجال ، هذا القتّال الكِلابيّ يحذر من قبول الدية ، فإن قبلوها فإنما هم يشربون فضول نسائهم عندما تختلط أعقابهن بالدم وذلك تفظيعاً للشأن وتدنيساً للماء : [8]

فإن أنتمُ لم تفعلوا وأتديتُمْ فَمشُّوا بأطرافِ النعامِ المُصَلَّمِ[9]
ولا تَرِدوا إلا فُضولَ نِسائِكُمْ إذا ارتملتْ أعقابهنَّ من الدمِ[10]

(1) حماسة البحتري ٣٠ .
(2) نفس المصدر ٣١ .
(3) الثلة : جماعة الغنم .
(4) مقطوب : ممزوج .
(5) حماسة أبي تمام - شرح المرزوقي ١/ ٢١٦ .
(6) مفعم : ممتلىء ، كثير .
(7) اللبن : كناية عن الأبل .
(8) حماسة البحتري ١٤ وينسبها أبو تمام لكبشه بنت معد يكرب .
(9) اتديتم : قبلتم الدية ، الصلم : قطع الأذن من أصلها .
(10) ارتمل : تلطخ بالدم ، تردوا فضول نسائكم : كانت عادتهم في ورود المياه أن يتقدم الرجال ثم العضاريط والرعاة ثم النساء .

وعندما قُتِل أخو كبشة بنت معد يكرب ، قتله صاحب إبل من مازن لأنه رفض أن يسقيه لبناً ، فجاء أهل القاتل إلى أخيه عمرو فقالوا : إن أخاك قتله رجل منا سفيه ، ونحن يدك وعضدك فنسألك الرحم ألا أخذت الدية ، وهمّ عمرو بذلك فغضبت كبشة وقالت على لسان القتيل عبدالله : (١)

أَرسَلَ عبدُ اللهِ إذ حانَ يومُه ... إلى قومِه لا تعقلوا لَهُمُ دَمي (٢)

ولا تأخذوا منهم إفالاً وأبكراً ... وأُترَكُ في بيتٍ بصعدةَ مُظلِمِ (٣)

ودعْ عنكَ عَمْراً إنَّ عَمْراً مُسالِمٌ ... وهل بطنُ عَمْرٍو غيرُ شِبْرٍ لِمَطعَمِ (٤)

وهذا شاعر آخر هو عبد الرحمن الفزاري يبلّغ قومه بأنهم إن لم يثأروا لأخيهم فليكونوا نساءً للتجمل والكحل ، وليبيعوا الرماح والسيوف بالحلي ، وليبتاعوا المغازل بدلاً من النبل ، وهذا منتهى الهجاء لهم والاتهام بالتخاذل وعدم الرجولة (٥)

يا راكباً إما عَرَضْتَ فبلِّغَنْ ... مُغَلْغَلَةً عني القبائلَ مِنْ عُكَلْ

لئن أنتُمُ لم تثأروا بأخيكم ... فكونوا نساءً للخَلوقِ وللكُحُلْ (٦)

وبيعوا الردينيات بالحلي واقعدوا ... عن الحرب وابتاعوا المغازل بالنبل

وحين كان الفارس منهم يعتزم الأخذ بالثأر ، فإنه كان يخضع نفسه لقيود وتقاليد ، فهو يحرم على نفسه الخمر والدهن والنساء ، وبعضهم يحرم على نفسه كل ما يجلب المتعة والسرور لنفسه ، حتى يدرك بثأره ، فإذا ما أدرك بثأره فإنه يتحلل مما حرّم على نفسه ، ويشير إلى ذلك في شعره مزهواً بالنصر وأخذه بثأره .

فامرؤ القيس حرم على نفسه الخمر حينما قُتل والده ، وعندما هاجم بني أسد وقتلهم تحلل مما حرمه على نفسه وقال في ذلك : (٧)

---

(١) حماسة أبي تمام ـ شرح المرزوقي ١/ ٢١٧ .

(٢) ـ تعقلوا دمي : تقبلوا ديتي .

(٣) فال : جمع افيل وهي صغار الأبل ، الأبكر : جمع بكر وهو الفتي منها . صعدة : مكان باليمن .

(٤) هل بطن عمرو . . . : تزهيد في الدية . .

(٥) حماسة البحتري ١٦ .

(٦) الخلوق : جمع خلق وهو كل شيء مملس .

(٧) الردينيات : الرماح .

(٨) ديوان امرىء القيس ـ تحقيق أبو الفضل ابراهيم ١٢٢ .

حَلَّتْ لِي الخَمْرُ وكنتُ امرأً ... عـن شرْبِهـا في شُغُـلٍ شاغِلِ
فاليومَ أُسقَى غَيرَ مُسْتَحقِبٍ ... إثماً من اللهِ ولا واغِلِ (١)

وحلف ضَمْرَةُ بن ضَمْرَة النَّهشَلي التميمي ، عندما هزَم يوم النسار ، على الخمر إلا إذا ثأر من يوم النسار على بني أسد وحلفائهم ، فأغار عليهم يوم ذات الشُقُوق فهزمهم فقال : (٢)

الآنَ ساغَ لِيَ الشرابُ ولـم أكُنْ ... آتـي التِّجـارَ ولا أشُدُّ تكلُّمي (٣)
حتى صبحتُ على الشقـوقِ بغارةٍ ... كالتَّمْـرِ يُنْثَـرُ في حريرِ الحُرَّمِ
وأبـأتُ يومـاً بالجِفـارِ بمثله ... وأجَرْتُ نِصْفاً من حديثِ الموسمِ (٤)

وكان الثأر يمنع النوم عن عيون أبي قيس بن الأسلت الأنصاري ، وهو وقومه لا يتألمون من الحرب ولكنهم يجزون بها الأعداء كيل الصاع بالصاع : (٥)

قد حَصَّتْ البيضةُ رأسي فما ... أطْعَـمُ غُمضـاً غـيرَ تَهْجاعِ (٦)
لا نألَمُ القتـلَ ونجـزي بِهـا الأعـ ... ـداءَ كَيْلَ الصـاعِ بالصاعِ

ويحرم مالك بن عمرو العاملي اللهو على نفسه ولا ينام النوم الهادىء حتى يقتل سيد بن قُمَيْرٍ إدراكاً بثأره منهم ، وعندها يصبح وإياهم على السواء ، فإن يعودوا بعد ، ولا ينسى أن يطلب من الراكب أن يبلغهم بأنهم إن حزنوا وجزعوا فانه مر بهذه التجربة قبلهم فليجربوا الأمر مثله : (٧)

يا راكباً بلِّغَـنْ ولا تَدَعَـنْ ... بنـي قُمَـيْرٍ وإن هُمُ جزعوا
فلْيَجِـدوا مثـلَ ما وجَـدتُ فإني ... كنـتُ ميتـاً قد مَسَّنـي جَزَعُ
لا أسمـعُ اللهـوَ في الحـديثِ ولا ... ينفعُنـي في الفـراشِ مُضطجَعُ

---

(١) غير مستحقب : غير مكتسبه ولا محتمله ، الواغل : الداخل على القوم يشربون ولم يُدْعَ .
(٢) العقد الفريد ٥/ ٢٤٨ ، معجم البكري ٣/ ٧٩٨ .
(٣) التجار : تسمي العرب بائع الخمر تاجراً .
(٤) أبات : أباء الشيء رجعه .
(٥) المفضلية رقم ٧٥
(٦) حصت : اذهبت شعره ونثرته لطول السيف القاطع
(٧) حماسة البحتري ٣٥.

جَلَّلْتُـه صارمَ الحـديدةِ كالمِلْحَة فيه سفـاسِيفُ لُمَّـعُ[١]
بنـي قُمَـيْرٍ قتلتُ سَيِّدَكُمْ فـاليومَ لا دِمنـةٌ ولا تَبَعُ[٢]
واليوم قمنـا على السـواء فإن تجـروا فدهـري ودهـركم جدع

وقد يأخذ الإدراك بالثأر طابعاً فردياً ، فيأخذ رجل بثار أخيه او ابنه فقد قتل بنو أُسَيِّد بن عمرو بن تميم وائل بن صريم اليَشْكُرِيّ في يوم الحاجر ، فغزاهم باعث أخوه وقتل منهم مائة بأخيه وقال : [٣]

سـائـلْ أُسَيِّدَ هل ثأرتُ بوائلٍ أَمْ هلْ شفيتُ النفسَ من بَلْبالها[٤]
إذ أرسلوني ماتحـاً بدلائهم فملأتُهـا عَلَقـاً إلى أسبالها[٥]
أَلَيْتُ أَثْقَفُ منهـم ذا لحْيَة أبـداً فتنظُـرُ عينُـه في مالها[٦]

ويحلو لبعضهم المقارنة بين من قتله وبين أخيه الذي قتله الأعداء فيفضل أخاه من جميع الوجوه ، ولا ينسى أن يبين للأعداء بأنه قادر على الأخذ بثاره إن عادوا لها : [٧]

يقول قيس بن زهير في مالك بن زهير ومالك بن بدر :

أخـي واللهِ خـيرٌ من أخيكم إذا ما لم يجدْ بطـلٌ مَقاما
أخـي والله خـيرٌ من أخيكم إذا ما لم يجـد راعٍ مَساما[٨]
أخـي والله خـيرٌ من أخيكم إذا الخَفِـراتُ أَبـدينَ الخِذاما[٩]
قتلـتُ به أخـاكَ وخـيرَ سَعْدٍ فـإنْ حرباً حُذَيْفَ وإنْ سَلاما[١٠]
تَـرُدُّ الحـربُ ثعلبـةَ بنَ سَعْدٍ بحمـدِ اللهِ يَرعَـوْنَ البِهاما[١١]

(١) جللته : جلل الشيء عمّه ، صارم الحديدة : السيف القاطع ، سفاسف : جمع سفساف وهو ما دق بين التراب ، والردي من كل شيء .
(٢) دمنة : حقد قديم دائم .
(٣) العقد الفريد ٥/ ٢١١ ، حماسة أبي تمام شرح المرزوقي ٢/ ٥٣١ .
(٤) أسيد : اراد به قبلة أسيد بن عمرو بن تميم ، بلبالها : حزنها .
(٥) الماتح : الذي يدخل البئر فيملأ الدلو عند قلة الماء فيها . أسبالها : اعاليها ، علقا : دما .
(٦) أليت : اقسمت ، اثقف : ادرك . (٧) النقائض ١/ ١٠٢ - ١٠٣ .
(٨) مساما : مرعى الماشية .
(٩) الخفرات : جمع خفرة وهي الشديدة الحياء ، الخدام : جمع خدمة وهي الخلخال .
(١٠) حذيف : ترخيم حذيفة .
(١١) ثعلبة بن سعد : بطن من ذبيان .

وعندما يُقتل حُذَيفة على جفر الهَباءة ، وكان قد غدر بالصبية من عبس ويمثّل به انتقاماً منه لما فعله بالصبية ، تفرح عبس ويعبر شاعرهم عن أن حذيفة نال الجزاء الذي يستحقه ، عبّر عن ذلك عَمْرو بن الأَسْلَع العبسّي حين قال : [1]

إن السماءَ وإنَّ الأرضَ شاهدةٌ ... واللهُ يشهدُ والإنسانُ والبَلَدُ
أنـي جَزَيْتُ بنـي بدرٍ بسَعْيهِمُ ... على الهباءة قتلاً ما له قَوَدُ [2]
لما التقينا على أرجاء جُمَّتها ... والمَشْرَفيَّةُ في أيماننا تَقِدُ [3]
علوتُهُ بحُسامٍ ثم قلتُ لَهُ ... خُذْها إليكَ فأنتَ السيِّدُ الصَّمَدُ [4]

وقد قالت شعراء عبس في قتل حذيفة شعراً كثيراً معظمه فيه إفحاش لما في صدورهم من غل عليه لما فعله بهم ، ولأنه كان سبب الحرب بغدره في الرهان .

ويحرص الشاعر دُرَيْد بن الصِّمَّة على الفخر بظفره بثأره من قاتلي أخيه ، ويتشفى منهم لأنه قتل بعبد الله خير لداته ذُؤاب بن أسماء بن زيد بن قارب ، ويحذرهم من مغبّة العدوان عليه وعلى قومه ، فأينما اتجهوا سيجدوا فرساناً يشبعونهم طعناً وقتلاً [5]

قتلتُ بعبدِ اللهِ خيرَ لِداتهِ ... ذُؤابَ بنَ أَسْماءَ بن زَيْدِ بن قاربِ [6]
فلليوم سُمِّيتُمْ فزارة فاصبروا ... لِوَقْعِ القنا تنزون نَزْوَ الجَنادبِ [7]
تكرُّ عليهمْ رَجْلَتي وفوارسي ... وأُكْرِه فيهمْ صَعْدَتي غيرَ ناكبِ [8]
فإن تُدْبِروا يأخذْنَكُمْ في ظهوركم ... وإن تُقْبِلوا يأخذْنكُمْ في الترائبِ [9]
وإنْ تُسْهِلوا للخيلِ تُسْهِلْ عليكمُ ... بطعنٍ كإيزاغِ المَخاضِ الضواربِ [10]

---

(١) العقد الفريد ٥/ ١٥٨ .
(٢) قود : قصاص .
(٣) جمتها : معظم المساء ، المشرفية : الرماح .
(٤) انظر الشعر في العقد الفريد ٥/ ١٥٧ .
(٥) الأصمعية رقم ٢٩ .
(٦) اللدة : تربك الذي ولد معك .
(٧) النزو : الوثبان .
(٨) الرجلة : جمع راجل وهو الذي ليس له ظهر يركبه. الصعدة: القناة المستوية . ناكب: عادل عنهم ، اكراهها فيهم : ادخالها بقوة
(٩) الترائب: عظام الصدر تسهلوا: تنزلوا السهل من الأرض
(١٠) ايزاغ: اخراج البول دفعة دفعة ، الضوارب: اللواقح. المخاض: الحوامل من النوق

ويقف بعض الشعراء ناصحاً القوم بأن يكفوا عن القتل طالما أنهم قتلوا قاتل سيدهم ، وطالما أن الحيين تربطهما صلة قرابة ، فلِمَ البغضاء والتشاحن ؟ ولم التقتيل ؟ فقد قتل قِرواشٌ العبسيّ حُذَيفة بن بدر الفزاري يومَ الهباءة ، وقتلت بنو العشراء قِرواشاً بعد يوم جَبَلَة بحذيفة ، فوقف نهيكة بن الحارث الفزاري يدعو الحيين إلى التوقف طالما أن كلاً منهم قد أخذ بثأره ويذكرهم بصلة الرحم : (١)

صَبْـراً بَغيضَ بنَ رَيْثٍ إنها رَحِمٌ حُبْتُمْ بها فأناخَتكُمْ بجَعْجاعِ (٢)

فما أشْطَتْ سُمَيٌّ إن هُمْ قَتَلوا بني أُسَيْدٍ بقتلِ آلِ زِنْباعِ (٣)

لقد جزَتكُمْ بنو ذُبيانَ ضاحية بما فعلتم ككيلِ الصاعِ بالصاعِ (٤)

قَتْلاً بقتلٍ وتَعْقيراً بعقركم مهلاً خُمَيْصُ فلا يَسْعى بنا الساعي (٥)

وتسهم الثارات في إذكاء نار الحروب، واشتداد إشتعالها ، فلا ينقضي ثأر حتى يتلوه ثأر آخر، وتستمر الحروب حتى يتدخل أحد الحكماء من أحد الفريقين فيصلح بينهما ، وقد عبر عن أثر الثارات في إذكاء الحروب بشْرُ بن أبي خازم الأسديّ حين قال(٦) .

إذا ما لحِقْنا منهُمُ بكتيبةٍ تُذَكِّرُ منها ذَحْلُها وذُنوبُها(٧)

ويصرّ عامر بن الطفيل العامري على استمرار القتال فلا هوادة بينه وبين الأعداء بعد أن ثوى الفرسان بالمرصد ، ولن يفصل بينهم إلا القتال على صهوات الجياد ، ولسوف يثأر بمالك وبكل قتيل قومه الذين قتلتهم عبس بها وغطفان كلها في حروبها مع عامر ، وسيظل يغزو وطالما أن المرء غير مخلّد(٨) .

ولأثأرنَّ بمالكٍ وبمالكٍ وأخي المَرِّ وراءَ الذي لم يُسْنَدِ(٩)

وقتيلِ مُرَّةَ أثأرنَّ فإنه فَرْغٌ وإنَّ أخاهُمُ لم يُقْصَدِ(١٠)

(١) النقائض ١/ ١٠١

(٢) حبتم بها: دنوتم. جعجاع: جعجاع من الأرض معركة الحرب.

(٣) أشطت: ابعدت، امعنت، جارت . سمي: بطن من فزارة وهي سمي بن مازن، آل زنباع بن جذيمه بن رواحه العبسي

(٤) ضاحية: يقال فعله ضاحية: فعله علانية

(٥) تعقير: العقر اثر كالحز في قوائم الدابة .خميص: ترخيم خميصة لقب احدى بطون عبس،الساعي: الواشي.

(٦) المفضلية رقم ٩٦ (٧) الذحل: الثأر (٨) المفضلية رقم ١٠٧

(٩) مالك ومالك: رجلان من قومه اصابهما غطفان. أخو المروراة: الحكم بن الطفيل، لم يسند: لم يدفن، قتيل مرة: حنظلة بن الطفيل اخوة

(١٠) فرغ: رأس عال في الشرف، يقصد: يقتل

يا أسْمَ أختُ بني فزارة إنني ... غازٍ ، وإنَّ المرءَ غيرُ مُخَلَّدِ[1]
فيئي إليك فلا هَوادةَ بيننا ... بعدَ الفوارسِ إذ ثووا بالمَرْصَدِ
إلا بكلِّ أصمَّ نهدٍ سابحٍ ... وعُلالةٍ من كلِّ أسمرَ مِذْوَدِ[2]

المُنصِفات :

والمنصفة مقطوعة أو قصيدة من الشعر يقولها الفارس مصوراً خصمه أو خصوم قومه ، ومحاولاً إنصافهم بإعطائنا صورة حقيقية لشجاعتهم ونبلهم .

وقد عُرف هذا اللون في شعر الأيام منذ عهد مبكر ، منذ التقى الفرسان في ساحات الوغى ، ويعتبر المهلهل أول من أنصف في شعره حين قال في يوم عُنَيْزَة في حربهم مع بكر :

كأنا غدْوةً وبني أبينا ... بجَنْبِ عُنيزة رَحَيا مُديرِ[3]

ومعنى هذا أن هذا اللون من الشعر عاصر شعر الأيام منذ طفولته ، باعتبار حرب البسوس قديمة العهد في ذلك العصر وهذا يقودنا إلى دواعي ظهور المنصفات في شعر الأيام .

كان الفارس العربي في الجاهلية وبعد الإسلام يحرص على احترام تقاليد معينة آمن بها والتزم بها نحو خصمه ، فهو لم يتعود طعنه من الخلف وهو مدبر ، ولم يتعود الغدر ، ولم يقتله طالما أنه رضي أن يستأسر له ، وكانوا إذا تنادوا بوقف القتال التزم به الطرفان . وهذا الفارس لم يكن ليرضى أن ينازل إلا نده لأن في منازلة مَنْ هو دونه إهانة لفروسيته . فالخصم يجب أن يكون من درجة الفارس ، وقد عرفنا من قصص الأيام أنهم كانوا يرفضون منازلة الفارس إن اعتقدوا انه دونهم في الفروسية . فهمُّ الفارس أن يتسامع العرب في مجالسهم ونواديهم انه نازل فارساً نِدّاً ، فغلبه ، وإذا قتل فيهمه أن يتسامع العرب أن الذي قتله فارس له قدره .

ومن هنا كان الفارس يجد نفسه أمام خصم قوي الشكيمة ، ونتيجة اللقاء لا تتجاوز أحد احتمالين ، إما ينتصر عليه ، أو يُهْزَم . فإذا انتصر هو عليه فيهمه أن يذكر أن هذا الخصم كان شجاعاً صلب العود يحسن مقارعة الأبطال ، وأن القضاء عليه لم يكن سهلاً . وإذا ما هُزِم أمامه فيهمه أن يفهم الناس أنه لم يهزم أمام فارس عادي بل هزمه فارس قوي الشكيمة . ولذا فإن هذا

---

(١) أسم : ترخيم أسماء

(٢) الأصم : الفرس لونه بين الكميت والادهم ، النهد : الضخم المرتفع ، السابح : السريع ، المذود : صفة للرمح .

(٣) الأصمعية رقم ٥٣ .

الفارس الشاعر كان يحرص على إنصاف هذا الخصم في شعره ، ففي الحالين سيكون هذا الشعر يخدم غرضه .

ويجب ألا يغيب عن بالنا أن الفارس كان يعز عليه أن يرى خصمه الفارس الشجاع مجندلاً ، على الرغم من أنه هو الذي قتله ، لأنه فارس ويقدر الفارس الشجاع ولكنها الحرب ، ثم هو لا يغيب عن وعيه أنه سيجندل مثله في يوم من الأيام ، فليحرص على إنصافه علّ خصمه ينصفه عندما يلاقي نفس المصير .

ويطول المشهد عند شاعر من شعراء الحماسة ، وهو زاهر أبو كرام التميمي ، فقد بارز رجلاً من فرسان الجاهلية يقال له تيّم ، فقتله زاهر فأخذ يعظم أمره لأن ثناءه عليه وإكباره له راجع إليه إذ صار قتله ، ونسمعه يقول عن خصمه [1]

لله تَيْمٌ أيُّ رُمحِ طِرادِ ... لاقَى الحِمامَ به ونَصْلِ جِلادِ [2]
ومِحَشِّ حربٍ مُقْدمٍ مُتعَرِّضٍ ... للموت غير مُعَرِّدٍ حَيَّادِ [3]
كالليثِ لا يَثْنيهِ عن إقدامِه ... خوفُ الرَّدَى وقَعاقِعُ الإيعادِ
مذلٌ بمُهْجَتِه إذا ما كَذَّبَتْ ... خَوْفَ المَنِيَّةِ نَجْدَةُ الأنجادِ [4]
ساقيتُه كأسَ الرَّدَى بأسنَّةٍ ... ذُلُقٍ مُؤَلَّلَةِ الشِّفارِ حِدادِ [5]
فطعنتُه والخيلُ في رهج الوغى ... نجلاءَ تَنْضَحُ مثلَ لونِ الجادِي [6]
فكأنما كانت يدي من حَتْفِهِ ... لما أنثنيتُ له على ميعاد
فهوَى وجائِشُها يفورُ بمُزْبِدٍ ... من جَوْفِهِ مُتَدارِكِ الإزْيادِ [7]

ويضطر القتال الكلابي لقتال فارس لم يكن يرغب في ذلك النزال، وتدور الدائرة على خصمه فيقف القتّال الكلابي يتحدث عن ذلك اللقاء وعن إصرار ذلك الخصم على اللقاء ، وعن

---

(١) حماسة أبي تمام ـ شرح المرزوقي ٢/ ٦٧٢ .
(٢) الحمام : الموت .
(٣) معرد : تارك القصد ، حياد : الذي يحيد عن موضع القتال كثيراً .
(٤) مذل : باح .
(٥) ذلق : محددة ذلق كل شيء : حده . المؤللة : المحددة .
(٦) الرهج : الغبار .
(٧) جائشها : الدم الذي يجيش من نجيعه .

قتله إياه ثم يبين لنا ندمه على مقتله ندماً شديداً: (١)

نَشَـدْتُ زِياداً والمَقَامَـةُ بَيْنَنا ... وذَكَّرْتُـهُ أرحـامَ سِعْـرٍ وهَيْثَمِ (٢)
ولما دعانـي لم أُجِبْـهُ لأنني ... خَشيتُ عليهِ وَقْعَـةً من مُصَمِّمِ
فلما أعـادَ الصـوتَ لم ألْفُ عاجزاً ... ولا وكِلاً في كل دهيـاءَ صَيْلَمِ (٣)
ولما رأيتُ أنَّـهُ غَيـرُ منتهٍ ... أملتُ له كفـي بلـدنٍ مقوَّمِ (٤)
ولما رأيتُ أنني قد قتلْتُه ... نَدِمتُ عليه أيَّ ساعـةِ مَنْدَمِ

وينتزع الفارس المقدام إعجاب خصمه ومُنازله، فلقد رأى دريد بن الصمة ربيعة بن مكدّم فارس كنانة وقد انكسر رمحه بعد أن صرع ثلاثة من أصحاب دريد الفرسان، فقال دريد: أيها الفارس إن مثلك لا يقتل ولا أرى معك رمحاً، فدونك هذا الرمح، ورجع يثبط أصحابه عن ربيعة، فانصرف القوم ونجا ربيعة وقال دريد معبراً عن إعجابه بذلك الفارس الخصم (٥)

ما إنْ رأيتُ ولا سمعتُ بمثلِهِ ... حامـي الظعينـةِ فارسـاً لم يُقْتَلِ
أردَى فوارسَ لم يكونـوا نُهْزَةً ... ثـم استمـرَّ كأنـه لم يَفْعَلِ (٦)
متهلِّلٌ تبـدو أسِرَّةُ وَجْهِهِ ... مثـلَ الحُسَـامِ جَلَتْـهُ كفُّ الصيقلِ (٧)
يُزْجِـي ظَعِينَتَـهُ ويسحـبُ رُمْحَهُ ... متوجهـاً يُمْنَـاهُ نَحْـوَ المنزلِ
وتَـرى الفـوارسَ مِن مخافـةِ رمحِهِ ... مثلَ البُغـاثِ خشِيـنَ وَقْـعَ الأجدلِ (٨)
يا ليتَ شِعْـري مَنْ أبـوه وأُمُّه؟ ... يا صاحِ مَنْ يكُ مِثْلَـهُ لم يُجْهَلِ

وعندما ثارت حرب داحس والغبراء بين حيَّي غطفان: عبس وذبيان بسبب الرهان، وقُتل من الفريقين فرسان كثيرون، وكانت صلات القربى وثيقة قبل الحرب، ومكنت في

(١) حماسة أبي تمام- شرح المرزوقي ١/ ٢٠١.
(٢) نشدت: سألت.
(٣) وكل: عاجز جبان. دهياء: شديدة جداً، صليم: داهية.
(٤) لدن: صفة للرمح، وهو اللين، مقوم: مثقف.
(٥) الأغاني/ ط الكتب ١٦/ ٦٦.
(٦) نهزة: صيد لكل واحد.
(٧) الصيقل: الحداد.
(٨) البغاث: طائر صغير بطيء الطيران، الأجدل: الصفر.

نفوسهم بعد أن خنقتها صيحات الثأر والعصبية الضيقة ، ومع هذا فإننا نرى قيس بن زهير العبسي ما إن يرى حمل بن بدر صريعاً حتى تهيج به الذكريات ويذكر صلات القربى ، ثم هو يذكر ظلمه ، ولولا ظلمه لما حدثت تلك الحروب بينهم ، فإذا هو يرثيه فيقول[1]

تعلَّمْ أنَّ خَيرَ النَّاسِ حَيًّا	على جَفْرِ الهَبَاءةِ ما يَريمُ[2]
ولَولا ظلمُه ما زلْتُ أبكي	عليه الدهرَ ما طلعَ النجومُ
ولكنَّ الفتى حَمَلَ بنَ بَدْرٍ	بَغَى والبَغْيُ مرتَعُهُ وَخِيمُ[3]
أَظُنُّ الحِلْمَ دَلَّ عليَّ قَوْمِي	وقد يُستَضْعَفُ الرجلُ الحَليمُ
ومارستُ الرجالَ ومارسوني	فمُعْوَجٌ عليَّ ومُسْتَقِيمُ[4]

تلك هي الصورة الأولى من صور المنصفات ، فارس ينصف فارساً آخر نازله فقتله أو لم ينازله ولكنه من فرسان خصومه . أما الصورة الثانية فهي صورة الفارس الشاعر يسير مع فرسان قومه لغزو قوم ، فانتصر قومه أو انهزموا ، ثم يقف هذا الشاعر ليصور لنا كيف كان اللقاء ، ويعظم لنا براعة الأعداء وبراعة جيش قومه ، لنفس الغاية التي سبق وبيناها .

غزا عباس بن مرداس السلمي وقومه بنو سُلَيْم مراداً ، ووصف لنا هذا الشاعر قوة الأعداء وقوة قومه ، كما وصف لنا كيف كان اللقاء ، وكيف أنهم وجدوا مشقة في التفوق عليهم ، ثم عادوا منتصرين ومما قاله : [5]

فلم أَرَ مثلَ الحيِّ حَيًّا مُصَبَّحاً	ولا مِثْلَنا لما التقيْنا فَوارسا
أَكَرَّ وأَحْمَى للحقيقةِ مِنْهُمُ	وأَضْرَبَ منّا بالسيوفِ القَوانِسا[6]
وأَحْصَنْنَا منهم فما يبلغوننا	فوارسُ منّا يحْبِسون المَحابِسا
إذا ما شَدَدْنا شدةً نصبوا لها	صُدورَ المَذاكِي والرماحَ المَداعِسا[7]
إذا الخيلُ جالتْ عن صريعٍ نكرُّها	عليهم فما يَرْجِعْنَ إلا عَوابِسا

(1) العقد الفريد ١٥٧/٥ ، حماسة أبي تمام - شرح المرزوقي ٤٢٨/١ .
(2) يريم : يفارق ، تعلم : أعلم .
(3) وخيم : لا يستمرأ .
(4) مارست : جربت .
(5) الأصمعية رقم ٧٠ .
(6) القوانس : جمع قونس ، وهو أعلى بيضة الرأس .
(7) المذاكي : جمع مذك وهو ما جاوز القروح بسنة وهو قرح الفرس ، إذا دخل في السادسة ، المداعس : الرماح الغليظة الشديدة التي لا تنثني .

ثم نراه يستمر في وصف اللقاء والقتلى والجرحى من الفريقين ، ولكنه يختتم المشهد بفخر بقومه وبنتيجة المعركة وهي لصالح قومه حيث يقول :

فأبنا وأَبقى طَعْنُنا من رماحِنا مَطارِدَ خَطِّيٍّ وحُمْراً مَداعِسا[1]
وجُرْداً كأنَّ الأُسْدَ فوقَ مُتونِها من القوم مرؤوساً وآخر رائِسا .

وهذا شاعر آخر من شعراء عبد القيس ، المُفَضَّل النُّكْرِي يصور لنا لقاء الجيشين جيش قومه ، وجيش الأعداء ، وينصف أولئك الأعداء ، وهو ينقل صورة متقابلة ،ويصورالأعداء، ثم يتبعها بصورة لقومه ، فيقول منها : [2]

هُمُ صَبروا فصبرهم تَليدٌ على العَزَّاءِ إذ بَلَغَ المَضيق[3]
وهم دَفَعوا المنيةَ فاستقلَّتْ دِراكاً بعد ما كادت تحيقُ
تلاقينا بِغَبْيَةِ ذي طَريفٍ وبعضُهُمُ على بعضٍ حَنيقُ[4]
فجاءوا عارِضاً بَرِداً وجِئْنا كسَيْلِ العِرْضِ ضاقَ به الطريقُ[5]
مَشَيْنا شَطْرَهم ومَشَوْا إلينا وقُلْنا : اليومَ ما تُقْضَى الحقوقُ

إلى أن ينتقل إلى تصوير مشهد القتلى من الفريقين فيقول :

وكَمْ من سيّدٍ منا ومنهم بذي الطَّرْفاءِ مَنْطِقُهُ شَهيقُ
بكلِّ مَجالَةٍ غادرتُ خِرْقاً من الفتيانِ مَبْسِمُهُ رَقيقُ[6]
فأَشْبَعْنا السِّباعَ وأَشْبَعوها فراحتْ كلُّها تَئِقٌ يفُوقُ[7]
تركنا العُرْجَ عاكفةً عليهم وللغِرْبانِ من شِبَعٍ نَعيقُ[8]
فأبكينا نساءَهُمُ وأَبكَوا نساءً ما يسوغُ لهنَّ رِيقُ

---

(١) المطارد : ما يبقى من الرماح إذا انكسرت .
(٢) الأصمعية رقم ٦٩ .
(٣) التليد : القديم ، العزاء : الشدة .
(٤) الغبية : الأرض المنبسطة ، ذو طريق : موضع بالبحرين كانت لهم فيه وقعة .
(٥) عارضاً : ما اعترض الأفق فسدّه ، البَرِد: السحاب ذو البرد العرض: الوادي
(٦) الخرق: الكريم المتخرق في الكرم
(٧) التئق: المتلىء
(٨) العرج : الضباع عيق : صباح .

ولكن هذا الشاعر لا يلبث أن يعطينا نتيجة اللقاء في ختام قصيدته وهو هزيمة أولئك الأعداء الأشدّاء الشجعان فيقول مبيناً أنهم أبقوا على لُجَيْم ولم يرضوا بفنائها .

فلما استيقنوا بالصبر منا ... تُذُكِّرَت العشائرُ والحَريقُ[1]
فأبقينا ولو شِئْنا تَرَكْنا ... لُجَيْماً لا تقودُ ولا تَسوقُ[2]
وأنعَمْنا وأبأَسْنا عليهم ... لنا في كل أبياتٍ طليق

ويتحدث شاعر آخر من شعراء الحماسة ، وهو عبد الشارق بن عبد العُزَّى الجُهَنِيّ عن لقاء بين قومه وردَيْنة ، وكيف أن أولئك الأعداء استغاثوا ببني بهثة عندما شارفهم قوم عبد الشارق ، ويصور لنا في الأبيات الخمسة الأخيرة من القصيدة المرحلة الختامية من المعركة ، ويكاد ينطق على لسانه بتعادل الفريقين ، فالأعداء أقوياء وفرسان قومه أقوياء ، ولولا البيت الأخير الذي يختتم به المشهد لقلنا ان أحداً لم ينتصر : [3]

شَدَدْنا شَدَّةً فقتلتُ منهم ... ثلاثةَ فِتْيَةٍ وقتلتْ قينا[4]
وشَدُّوا شدةً أخرى فجرُّوا ... بأرجُلِ مثلِهم ورَمَوا جُوَيْنا
وكان أخي جُوَيْنُ ذا حفاظٍ ... وكان القتلُ للفتيانِ زَيْنا[5]
فآبوا بالرماحِ مُكَسَّراتٍ ... وأُبْنا بالسيوفِ قد انحنينا
فباتوا بالصعيدِ لهم أحاحٌ ... ولو خفَّتْ لنا الكَلْمَى سَرَيْنا[6]

ذلك ما عرضه لنا شاعر انتصر فريقه ، فأنصف الفريق الآخر اعترافاً منه بفضلهم وبفروسيتهم من جهة ، ورفعاً لقيمة انتصار قومه من جهة أخرى . أما ما عرضه الفارس الذي هزم قومه ، ومع ذلك تحدث عن الموقعة ، وأنصف الأعداء ، واعترف بتفوقهم على قومه ، كما اعترف بهزيمة قومه صراحة ، ونحن هنا أمام احتمالين لا ثالث لهما : إما أن يكون هذا الشعر صحيح النسبة إلى صاحبه ويكون قاله انطلاقاً من مفهوم الفروسية العربية النبيلة التي تعترف

(١) الحريق : الجماعة من الناس .
(٢) القود : نقيض السوق .
(٣) حماسة أبي تمام - شرح المرزوقي ٤٤٨/١ .
(٤) قين : اسم رجل كان مشهوراً فيهم بالبأس .
(٥) جوين : أخو الشاعر .
(٦) الصعيد : وجه الأرض ، الاحاح : العطش ، أو شدة الوجد من الغيظ حتى يسمع له من الصدر صوت .

بقوة الخصم وشجاعته مهما كانت النتيجة ، وإما أن يكون هذا الشعر منحولاً قصد به رفع شأن القبيلة بإيراد شعر على لسان الأعداء يعترفون بقوتها وصمودها . ولا بد لنا من التحري حول هذا اللون من المنصفات قبل أن نتقبله ، نستوثق من رواته ونستوثق من مصادره .

ففي حرب كانت بين زبيد وجَرْم من جهة ونَهْد وبني الحارث بن كعب من جهة ثانية ، انهزمت زبيد في هذه الحرب وانخذلت عنها ، ويقف شاعر زبيد عمرو بن معد يكرب يسجل بأمانة قوة أعدائه ، ويبين لنا كيف أنه تقبل تلك الصدمة بيأس شديد . [1]

لحا الله جَرْماً كلما ذَرَّ شارقٌ ... وجوهَ كِلابٍ هارشَتْ فازبأَرَّت[2]

ظَلِلْتُ كأني للرماح دَريئةٌ ... أُقاتِلُ عن أبناءِ جَرْمٍ وفَرَّتِ[3]

فلم تُغْنِ جَرْمٌ نَهْدَها إذ تلاقتا ... ولكن جَرْماً في اللقاءِ ابْذَعَرَّتِ[4]

فلو أن قومي أنطقتني رماحُهُمْ ... نطقتُ ولكن الرماحَ أجَرَّتِ[5]

وهُزِمت جموعُ اليمن يوم الكُلاب الثاني بعد أن جاؤوا طامعين في القضاء على تميم ونهبها بعد أن أنهكت يوم الصفقة وقُتِّل فرسانها ، وأسر البراء بن قيس الكندي ، ووقف يسجل لنا تلك النتيجة معترفاً بهزيمة قومه ، ومعترفاً بالهدف من غزوهم تميماً ، ومسجلاً ما آل إليه مصيره[6]

قَتَلْنا تميمٌ يوماً جديداً ... قَتْلَ عادٍ وذاكَ يومُ الكُلابِ

يومَ جِئْنا يسوقُنا الحَيْنُ سَوْقاً ... نحوَ قومٍ كأنهمْ أُسْدُ غابِ[7]

ثم يعدد القبائل اليمنية التي سارت إلى تميم ، ويبين لنا بعد ذلك هدف الحملة :

وحشدنا الصميمَ نرجو نِهاباً ... فلقينا البَوارَ دونَ النِّهابِ[8]

---

(1) الأصمعية رقم ٣٤ .

(2) لحا الله : أهلكه ، واللحو نزع قشر العود . أزبأرت : انتفشت حتى ظهر أصول شعرها وتجمعت للوثب .

(3) الدريئة : الحلقة التي يتعلم الرامي الطعن والرمي عليها .

(4) لم تغنها : لم تقاومها ولم تكفها ولكنها فرت منها . ابذعرت : تفرقت وتبددت .

(5) أجرت : قطعت لساني عن مدحهم لفرارهم .

(6) الأغاني / كتب ١٦/ ٣٣٩ .

(7) الحين : الموت ، الهلاك .

(8) الصميم : الصميم من كل شيء المحض الخالص . البوار : عدم تحقيق المقصود .

لقيتنا أسودُ سعدٍ وسَعْدٌ خُلِقَتْ في الحروبِ سَوْطَ عذابِ
تركوني مُسَهَّداً في وثاقٍ أَرقُبُ النجمَ ما أُسيغُ شرابي

ثم نسمعه يبين لنا خوفه وافتداءه نفسه وإلا لسقى الردى كقومه:

خائفاً للردى ولولا دفاعي بمثين عن مُهْجتي كالهضابِ
لَسُقيتُ الردى وكنتُ كقومي في ضريحٍ مُغَيَّباً في الترابِ
تذرفُ الدمعَ بالعويلِ نسائي كنساءٍ بكَتْ قتيلَ الربابِ[1]

المديـــح :

يحاول البعض تصوير شعر المديح في الشعر العربي عامة والجاهلي خاصة بأنه شعر التزلف والتملق للتكسب المادي ، وأن ما وصل إلينا من شعر المديح لا يمت إلى الحقيقة بصلة ، فكله يقوم على المبالغة طمعاً في نيل العطاء ، وكان بعضهم يرمي من وراء هذه التهمة النيل من قيمنا . ولكن هؤلاء الذين أباحوا لأنفسهم القدح في هذا اللون من الشعر العربي ، لعلهم لم يصلوا إلى شعر المديح الذي يتصل بالأيام، فالشعراء المادحون هنا نراهم يسجلون بطولات زعماء القبائل وآثارهم في السلم وحقن الدماء ، وهم في مديحهم إنما يصورون مناقبهم تصويراً يملأ النفس العربية محبة للمثل الخلقية العليا التي كانت تقدرها في شيوخ القبائل وسادتها.وزعمائها ، وكان الشاعر الجاهلي يبتغي تسجيل المآثر والمفاخر ، ودفع هؤلاء الزعماء والسادة إلى التخلق بأجمل الخلق الكريم ، كما تدفع إلى البلاء أروع البلاء في حماية القبيلة يوم يلم بها طائف أو خطر أو حرب وبذلك تكون المدحة في نشأتها تربية قوية وسيرة ذكية وصوتاً قوياً يحفز إلى الدفاع عن حمى القبيلة وقتال أعدائها أحرما يكون القتال[2] .

استعرت نار الحرب بين حيّيْ عبس وذبيان ، وكاد بعضهم يفني بعضاً ، وطوفت عبس في أنحاء الجزيرة ، تجاور كل يوم قوماً غير جيرانها بالأمس ، ثم تقرر ان تعود إلى قومها بناء على نصيحة رؤسائها وعلى ما رأته من غدر من جاورت ، وتعود ويسعى سيدان كريمان في الصلح ويتحملان ديات القتلى من مالهما الخاص ، وهذا عمل عظيم يستحق المديح من شاعر عظيم

---

(1) قتيل الرباب : النعمان بن جساس أو عبد يغوث الحارثي .
(2) مجلة المجلة عدد يناير ١٩٦٥ مقال للدكتور شوقي ضيف بعنوان : تقويم تراثنا الشعري ص ٢٣ .

لسيدين عظيمين ، فيقف زهير ليسجل هذا الحدث وليمدح السيدين بما هما أهل له فيقول : (١)

سَعَى ساعيا غيظِ بن مرةَ بعدَما ... تَبَزَّلَ ما بينَ العشيرةِ بالدمِ (٢)
فأقسمتُ بالبيتِ الذى طافَ حولَه ... رجالٌ بَنَوْه من قريشٍ وجُرْهُمِ
يميناً لَنِعْمَ السيدانِ وُجِدْتُما ... على كل حالٍ من سَحِيلٍ ومُبْرَمِ (٣)
تداركتما عبساً وذبيانَ بعدَما ... تفانوا ودقوا بينَهم عِطْرَ مَنْشِمِ
وقد قلتما إنْ نُدرِكِ السلمَ واسعاً ... بمالٍ ومعروفٍ من القولِ نَسْلَمِ
فأصبحتما منها على خيرِ موطنٍ ... بعيدَيْن فيها من عُقوقٍ ومأْثَمِ
عظيمين في عُلْيا مَعَدٍّ هُدِيتما ... ومن يستبحْ كنزاً من المجدِ يَعْظُمِ
تُعَفَّى الكُلومُ بالمئين فأصبحتْ ... يُنَجِّمُها مَنْ ليسَ فيها بمُجْرِمِ
يُنَجِّمُها قومٌ لقومٍ غرامةً ... ولم يُهَريقوا بينَهم مِلءَ مِحْجَمِ
فأصبحَ يجري فيهمُ من تِلادِكُمْ ... مغانمُ شَتَّى من إفالٍ مُزَنَّمِ

ويترقب عمرو بن هند الأحداث الجارية بين أحياء غطفان ، ويرى حذيفة زعيم فزارة وقد قتلته عبس يوم الهباءة ، وخلفه حصن ابنه ، فطمع فيه عمرو وطمع في غطفان أن يصيب بها حاجته ، فارسل إلى حصن يتوعده ، وأقبل حصن بالحليفين أسد وغطفان حتى نزل زبالة قصداً عنه عمرو بن هند فوقف زهير يسجل هذه الحادثة فيقول : (٤)

ومَنْ مثلُ حصْنٍ في الحروبِ ومثلُه ... لإنكارِ ضَيْمٍ أو لأمرٍ يحاولُهْ
أَبَى الضيمَ والنعمانُ يحرقُ نابَه ... عليه فأفضى والسيوفُ معاقِلُهْ
إذا حلَّ أحياءُ الأحاليفِ حولَهُ ... بذي لجبٍ أصواتُهُ وصواهِلُهْ
يَهُدُّ لَهُ ما بينَ رملةِ عالجٍ ... ومَنْ أهلُه بالغَوْرِ زالتْ زلازِلُهْ

وفي يوم ذي قار ، يوم اللقاء بين بكر وجيوش الفرس ، صمدت بكر وحلفاؤها من القبائل ضد جيوش الفرس وهزموهم شر هزيمة ، ويقف شاعر بكر الأعشى ، ليسجل هذا

(١) معلقة زهير بن أبي سلمى - شرح القصائد السبع الطوال ٢٥٢ وما بعدها .
(٢) تبزل : تشقق وتفطر .
(٣) السيدان : الحرث بن عوف وهرم بن سنان ، من سحيل ومبرم : أمر شديد أو لين .
(٤) ديوان زهير ١٣٩

النصر، وليمدح بني شيبان الذين قادوا تلك الحرب فيقول : [1]

فَدىً لبني ذُهْـلِ بن شيبـانَ ناقتي ... وراكبُهـا يومَ اللقـاءِ وقَلَّتِ[2]
هُمُ ضَرَبوا بالحِنْـوِ حِنْـوِ قُراقِرٍ ... مُقَدِّمَـةَ الهامَـرْزِ حتـى تَوَلَّتِ[3]
فللـه عَيْنـا مَنْ رَأى من عِصابةٍ ... أَشَـدَّ على أيدي السُّعـاةِ من التي[4]
أتتهـم من البطحـاءِ يبـرُقُ بيضُهـا ... وقـد رُفِعَـتْ راياتُهـا فاستقلَّتِ[5]
فثـاروا وثُرْنـا والمنيةُ بيننا ... وهاجتْ علينا غَمْـرَةٌ فتجلَّتِ[6]

ولا يجد الشاعر بُدّاً ، وهو يجد أمامه فارساً شجاعاً ، إلا أن يمتدح تلك الشجاعة وهو يرجو أن يكون الجميع مثلها في الحفاظ على شرف القبيلة وسمعتها ، والقبيلة حينذاك وطن البدوي ودولته ، فقد أبلى أسيد بن حِنَّاءة اليربوعي يوم العُظالى بلاءً حسناً فوقف منهم بن نويرة يمدحه ويتغنى بشجاعته : [7]

لعمـري لنِعْـمَ الحـيُّ أَسْمَـعَ غُدْوَةً ... أُسَيْدٌ وقـد جدَّ الصُّراخُ المُصَـدَّقُ
فأسمـعَ فتيانـاً كجِنَّـةِ عبْقَرٍ ... لهـم رَيِّقٌ عنـد الطعـانِ يُصَدِّقُ[8]
أخـذنَ به جنْبَـيْ أُفـاقَ وبطنَها ... فما رجعـوا حتـى أرقُّـوا وأعتقوا[9]

ويغري فريق من قبيلة طيء بشراً الأسدي بهجاء أحد زعماء طيء ، وهو أوس بن حارثة ، بدافع الحسد والتنافس ، ويستجيب لهم فيهجوه ، ويطلبه أوس وقومه ويظفر به يوم ظهر الدهناء ويأسره ، ثم يطلق سراحه بناء على نصيحة من والدته ، ويغمر حلم أوس وعفوه نفس الشاعر فيفيض شعره بمدح هذا الزعيم ومما قاله فيه : [10]

---

(1) ديوان الأعشى ٢٥٩ .
(2) قلت : علت .
(3) الهامرز : أحد قادة كسرى .
(4) السعاة : الذين يسعون للحرب ويهيجونها وهم الفرس .
(5) استقلت : علت وارتفعت .
(6) الغمرة : الشدة الزحام . تجلت : انكشفت .
(7) النقائض ٢/ ٥٨٤ ، الكامل لابن الأثير ١/ ٦١٣ .
(8) جنة عبقر : عبقر موضع تزعم العرب انه موطن الجن ، ريق : قوة .
(9) أرقوا : أسروا .
(10) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٢٧ وانظر ديوان بشر ٤١ .

إنــي لأرجــو منــكَ يا أوسُ نِعمةً ... وإني لأخرَى منك يا أوسُ راهبُ[1]
وإنــي لأَحـو بالــذي أنـا صادقٌ ... بـه كلَّ ما قلـتُ إذ أنـا كاذبُ
فهــل نافِعــي في اليوم عنــدكَ أنني ... سأشكــرُ إنْ أنعمتَ والشكــرُ واجبُ
فِدىً لابن سُعْدَى اليوم كلُّ عَشيرتي ... بنــي أســدٍ أقصاهُــمْ والأقاربُ[2]
تداركنــي أوسُ بنُ سُعْــدَى بنعمةٍ ... وقــد أمكنتــهُ من يديَّ العَواقِبُ

وحلت الكارثة بأسرة امرىء القيس، فقد فتكت بنو أسد بوالده، وتشتت أسرته ومنع عُوَيْمِر بن شجنة هنداً أخت امرىء القيس، بعد مقتل أبيها، فسجل الشاعر هذا العمل النبيل لعويمر ومدحه فقال[3]

ثيابُ بنــي عوفٍ طَهــاريَ نقيَّةٌ ... وأوجُهُهُــمْ عنــدَ المَشاهِــدِ غُرَّانُ[4]
هُمُ أبلَغــوا الحــيَّ المُضَـلَّلَ أهلَهُمْ ... وســاروا بهــم بـين العراق ونجرانِ[5]
فقــد أصبحــوا واللهُ أصفاهُــمْ بهِ ... أبَـرَّ بميثـاقٍ وأوفَىٰ بجيرانِ

وقد حمت بنو سعد امرأ القيس بعد مقتل والده ريثما يستعد للأخذ بثأر أبيه فمدحهم لعملهم هذا فقال[6]:

منعــتَ الليثَ من أكل ابــنِ حُجْرٍ ... وكادَ الليثُ يودِي بابــنِ حُجْرِ
منعــتَ فأنــتَ ذو مَنٍّ ونُعْمَى ... عليَّ ابــنَ الضَّبّــابِ بحيث تدري[7]
سأشــكركَ الــذي دافعــتَ عنّي ... ومــا يُجْـزيكَ عنّــي غــيرُ شكري
فما جارٌ بأوثــقَ منــكَ عهداً ... فنصرك للطــريد أعــزُّ نَصْرِ

ويمتزج المدح بالإستعطاف حين يكون عبد يغوث أسيراً بعد هزيمة يوم الكُلاب بيد أحد بني تميم، وهو خائف وجل، يخشى أن يقتل بالنعمان بن جساس، فقال مخاطباً أم آسره يطلب

(1) راهب: خائف.
(2) ابن سعدى: أوس بن حارثة، وسعدى أمه.
(3) ديوان أمرىء القيس ـ تحقيق ابو الفضل ابراهيم ٨٣.
(4) ثيابهم نقية: براء من الغدر والذم، غران: مستبشرة، وهي جمع اغر وهو الأبيض.
(5) الحي المضلل: عوف رهط عوير بن شجنة، المضلل: المحير الذي لا يعرف اين ينجيه.
(6) الديوان ٢٦٠.
(7) ابن الضباب: سعد بن الضباب الذي أجاره.

منها أن يرسله ابنها وينطلق به إلى الأهْتَم : (١)

أأهتَـمُ يا خَـيرَ البَـرِيَّةِ والِداً ورَهْطـاً إذا ما النـاسُ عَدُّوا المَساعيا
تدارَكْ أسـيراً عانياً في حِبالِكم ولا تثقفنـي التيم ألْقَـى الدواهيا(٢)

ويضطر الشاعر ، وهو الشاعر القبلي ، الملتزم بخط سير قبيلته ، **يضطر إلى مدح الأعداء إذا كان قوم من قبيلته أسارى في قبضة الخصم** ، ولا يجد أمامه من سبيل إلا مدح أولئك الأعداء لإطلاق سراح السبي والأسرى ، فتلك مهمة تقتضيها مصلحة القبيلة . أغار النعمان بن وائل بن الجلاح الكلبي قائد الحارث الغساني على بني ذبيان وسبى منهم النساء ومنهن بنت النابغة ، ولما عرفها أطلق سراحها وسراح سبي غطفان ، فقال النابغة يمدحه : (٣)

فسكَّنْـتَ نفسي بعدمـا طارَ روحُها وألْبَسْتَنِـي نُعْمَـى ولسـتُ بشاهدِ
وكنتُ امرءاً لا أمدحُ الدهرَ سوقةً فلسـتُ على خـيرٍ أتـاكَ بحاسدِ(٤)
سبقتَ الرجالَ الباهشـين إلى العُلَى كَسَبْقِ الجَوادِ اصطادَ قبل الطَّوارِدِ(٥)

وربما كان أخو الشاعر أسيراً فيمتدح الشاعر آسره من أجل إطلاق سراح أخيه ، كما فعل عَلْقَمة بن عَبَدَة التميمي حينما مدح الحارث الغساني الـذي كان قد أسَرَ أخاه يوم حليمة فقال : (٦)

إلى الحارثِ الوَهّـابِ أعملت ناقتي لكلكلهـا والقصريين وَجيبُ(٧)
لِتُبْلِغَنـي دارَ امـرىءٍ كان نائياً فقـد قَرَّبَتْنِي من نداكَ قَروبُ
إليكَ أبيتَ اللعـنَ كان وجيفُها بمُشْتَبِهـاتٍ هولُهُـنَّ مَهيبُ(٨)

---

(١) النقائض ١/ ١٥٣ .
(٢) عانيا : مهيا . تثقفني : تثقف الرجل في الحرب : ادركه ، التيم: بنو التيم الذين قتلوه بالنعمان بن جساس .
(٣) ديوان النابغة ١٧١ .
(٤) سوقه : دون الملوك .
(٥) الباهشون : المتناولون الطالبون المعروف .
(٦) المفضلية رقم ١١٩ .
(٧) كلكلها : صدرها، الوجيب: اضطراب من شدة السير.
(٨) الوجيف : ضرب من السير

إلى أن يقول مصرحاً بمطلبه :

فلا تحرمنّي نائلاً عن جَنابةٍ   فإني امرءٌ وَسْطَ القِباب غريبُ

وهكذا نرى أن دوافع المدح في شعر الأيام تتلخص في تخليد عمل جليل كمدح زهير لسيدي غطفان ، أو أن يكون المدح تصويراً لبطولة وتمجيداً لها ليحتذي حذوها الفرسان ، وهذا كثير في شعر الأيام ، أو إعترافاً بجميل كفعلة امرىء القيس عندما مدح من منع أخته وحماها ، أو توطيداً لصلة ، أو رغبة في إطلاق أسير .

المثل العليا والقيم الأخلاقية :

لقد فرضت الصحراء على العرب أخلاقاً خاصة ، وألزمتهم بتقاليد لا يستطيعون عنها حولاً ، ثم صارت لهم على مر السنين جِبِلَّة وفطرة ، صوارت لهم عنواناً بين الناس . وفي الحروب مران على الصبر ، وإظهار المزايا الفرسان وحسن بلائهم ، ولقد كان الفارس منهم يخوض غمرات القتال وهو مدرك أنه قاتل أو مقتول ومع هذا فإنه يتحمم الموت ، فشجاعته شجاعة فيها قوة وفيها تحد للموت ، ولكنها فيها أيضا إنسانية وكرم وإنصاف للأعداء ووفاء للوعد . لتوحي لنا بأن أولئك الناس كانوا يجدون من الفراغ ، ومن الطمأنينة ما يجعلهم يشغلون تلك الأسواق بالبيع والشراء والاستماع إلى الخطب والأشعار وتبادل الخبرات والخروج من العزلة .

ولقد تعارف العرب في جاهليتهم على أشهر أسموها الأشهر الحرم ، لا قتال فيها ، وإنما يتفرغون للاتصال ببعضهم في المواسم والأسواق ، ويحجون إلى بيت الله الحرام ، كما تعارفوا أيضاً على قوانين تنظم لقاءهم في هذه الأسواق ، فعرفوا مواعيد لبدئها وانتهائها ، كما عرفوا قوانين لها يلتزمون بها ، فلا أحد يحمل السلاح في السوق ، بل تودع هذه الأسلحة عند رجل يتعارفون عليه وله مكانته ، والفرسان يأتون إلى هذه الأسواق ملثمين حتى لا يعرفهم أعداؤهم فيقتلونهم إذا ما التقوا في ساحة القتال . وتبادل الأسرى يتم في هذه الأسواق ، والتظلم الذي تعجز القبيلة عن حله يحله حكام هذه الأسواق .

وفي غير أوقات الأشهر الحرم كان العربي يجد لديه متسعا من الوقت غير الحرب يقضيه في الصيد واللهو ، وكسب قوته بغير طريق الغزو والنهب ، كما كان يجد لديه الوقت لينظم الأشعار التي تعبر عن وجدانه وأحلامه وأمانيه ولو كانت الحروب تشغل وقته كله لما وصلنا ذلك الشعر الجاهلي الكثير المتعدد الأغراض والطعوم .

وقد بينا سابقاً أن الصلات التي كانت تحكم القبائل فيا بينها لم تكن صلات حربية بل منها الصلات السلمية أيضا ، ولعل الصلات السلمية كانت توازي وتعادل الصلات الحربية ، ولم يكن يمنع أن تقوم صلات سلمية في فترات متقطعة بين قبيلتين متحاربتين ، فلم يكن العداء مستديماً ، فلقد شهدنا الأوس والخزرج قبيلتين متحاربتين ، ثم اختلفتا فتحاربتا ، ولكن تلك الحرب لم تمنع المصاهرة والمجاورة والمتاجرة بينهما . بل تميل إلى أن فترات السلم بين القبائل كانت أكثر من فترات الحرب بين هذه القبيلة وتلك .

ويبدو أن طبيعة الحياة في ذلك العصر ، وجدب الأرض وحياة التحرك والاحتكاك وتلك الحروب بينهم التي كانت تجعل غالب الأمس مغلوب اليوم ، يبدو أن هذه الحياة أجبرتهم على الإعتراف بقيم ومثل تعارفوا عليها وعملوا بها ، ثم صارت مثلاً يفخرون بها ويفاخرون بها غيرهم ، ولقد سبق أن عرضنا لها من خلال حديثنا عن القبيلة ومقوماتها وعن دوافع الحرب في المجتمع الجاهلي ، وفي حديثنا عن أغراض الشعر في هذه الحروب ، ولكننا مع ذلك نرغب في إجمالها هنا لتبدو واضحة المعالم ، ولتبدو نوراً وضيئاً وسط تلك الحروب التي أوشكت أن تدمغ العصر كله بالعدوان والدم والشر .

وأول تلك الفضائل التي حرصوا عليها ، ومدحوا التمسك بها ، وذموا المتخلي عنها الكرم ، وقد تحدثنا في غير هذا الموضوع عن ظاهرة الكرم ورأي بعض الباحثين في وجودها . يقول الأعشى يوم أوارة مفتخراً بإتلاف المال لحفظ العرض : [1]

إذا روّحَ الراعــي اللِّقَــاحَ مُعَجِّلاً	وأمســتْ على آفاقهـا غَبَراتُها
أهَنَّـا لهـا أموالَنـا عنـدَ حَقِّهَا	وعَــزَّتْ بهـا أعراضُنـا لا نفاتُها

والكرم عند الشدة أكبر وأعظم أثراً في النفس ، هذا عامر بن الطفيل يفتخر في يوم فيف الريح بأن بني عامر يكرمون في سنة القحط الشديدة ، والتي لا يجد فيها الضيف قرى : [2]

إذا سنــةٌ عزَّتْ وطــالَ طَواهُا	وأقحطَ عنهـا القطـرُ واصفـرَّ عودُها
وُجِدْنـا كِرامـاً لا يُحَـوِّلُ ضيفَنا	إذا جفَّ فوق المنـزلات جليدُها

وربيعة بن مقروم الضبي يفتخر ببني ضبة بأنهم يهينون أموالهم في الحق إذا الحت على

---

(١) ديوان الأعشى ٨٧ .
(٢) ديوان عامر بن الطفيل ٤٦ ـ ٤٧ .

الناس أزمة شديدة تنسيهم عقوهم : (١)

أليسوا الذين إذا أزمةٌ ... ألحّتْ على الناس تُنْسِي الحلوما(٢)
يُهينون في الحقِّ أموالَهم ... إذا اللَّزباتُ التحينَ المُسيما(٣)

وحرص العرب على المرأة شديد ، وكثيراً ما تغنوا بالحفاظ على العرض ، وكثيراً ما نشبت الحروب بينهم بسبب محاولة قوم الإعتداء على امرأة من قبيلة أخرى ، وكانت معظم القبائل تأخذ النساء معها في الحروب حتى لا تخلفها في الحي فيأتي قوم ويسوقوا النساء ، فيجلب ذلك العار للقبيلة . وحماية النساء مجال فخر لدى الشعراء ، يقول سلامه بن جندل التميمي : (٤)

بأنا منعنا بالفروق نساءَنا ... ونحنُ قتلْنا مَنْ أتانا بملزق

ويفتخر عَمْرو بن حَوْط الرِّياحي في يوم طخفة فيقول : (٥)

فيا قومٌ كقومي حين يُخْشى ... على الخَوْدِ المُخَدَّرَةِ الفضاحُ(٦)
أذبُّ عن الحفائظ في مَعَدٍّ ... إذا ما جدَّ بالقوم النطاحُ(٧)

ويقول ربيعة بن مقروم الضبي مفتخراً بقومه بأنهم يمنعون الحريم : (٨)

طوالُ الرماح غداةَ الصباح ... ذوو نَجْدةٍ يَمْنَعون الحَريما

ولكن ذلك لم يمنع بعض الشعراء الموتورين أن يفخروا بما فعلوه بالنساء السبايا بل نجد عامر بن الطفيل يفتخر ببقر بطون الحبالى ، ولكن ذلك قليل إذا ما قيس بغالبية الشعر ، وتلك المواقف التي تتعمد كشف ستر المرأة بالشعر ، والمواقف والتصرفات قليلة .

والذل مرفوض لدى العربي الجاهلي ، وهو يدفع دمه رخيصاً في سبيل دفعه ، وهو يحارب

---

(١) المفضلية رقم ٣٨ .
(٢) ألحت : لزمت وتتابعت ، الحلوم : العقول .
(٣) يهينون في الحق أموالهم : ينفقون اموالهم في الحقوق التي تعتريهم ، اللزبات : جمع لزبة وهي القحط ، التحين : قشرن . المسيم : صاحب الأبل والغنم .
(٤) ديوان سلامة بن جندل ١٦ .
(٥) النقائض ١/ ٦٩ .
(٦) الخود : الشابة الناعمة حسنة الخلق ، الفضاح : الفضيحة .
(٧) الحفائظ : الأعراض . النطاح : القتال .
(٨) المفضلية رقم ٣٨ .

خصمه على الرغم من اعتقاده بتفوق خصمه عليه لدفع الذل الذي يحاول أن يجعله يعيش فيه .
يقول ربيعة بن مقروم الضبي : [1]

وَدارِ هَوانٍ أنفنـا المُقَامَ ... بِهـا فَحَلَلْنـا مَحَـلاً كَريما
إذا كانَ بعضُهُـمُ للهَوانِ ... خليطَ صَفَـاءٍ وأمـاً رَؤوما

ولقد مر بنا في حروب عبس وذبيان أن عبساً تنقلت في أرجاء مختلفة من الجزيرة العربية ، لأنها كانت تأبى الذل ، فكلما جاورت قوماً لا تلبث أن ترحل عنهم لاحساسها بأنهم يحاولون النيل منها ، والانتقاص من منزلتها ، ومحاولة إلحاق الذل بها .

وقد مر بنا أن القبائل جميعا تعارفت على قانون الجوار ، وكانت القبيلة تجد حماية الجار مصدر فخر لها ، وبأن منعته منعة لها ، وأن أي أذى يلحق به يلحق بها . وتغنى الشعراء بذلك طويلاً ، يقول عبيد بن الأبرص : [2]

إنّـا لَعَمْـرُكَ لا يُضا ... مُ حليفُنـا أبـداً لَدَيْنا

ويقول عبيد أيضاً في موضع آخر : [3]

نَحْمِي حقيقتَنا ونمنـعُ جارَنا ... ونَلُفُّ بـين أرامِـلِ الأيتامِ [4]

ويقول شاعر الحماسة حسان بن نُشْبَة العَدَوي مبرراً مدحه وفخره بتيم بأنها أبت أن تبيح جارها لعدوها على الرغم مما جهزه العدو لها من العدد والعدة [5]

إنـي وإن لم أَفْـدِ حَيّاً سِواهُمُ ... فِـداءٌ لتيم يومَ كَلْـبٍ وحِمْيَرا
أبـوا أن يُبيحـوا جارَهُـم لعدوهم ... وقـد ثارَ نَقْـعُ الموتِ حتـى تَكَوَّرا

وتحرص القبائل على صون الأمانة ، وعدم التفريط بها ، مهما كانت التضحيات ومهما بلغ الثمن ،ولعل صورة يوم ذي قار تعطينا الصورة المشرقة لتحمل القبيلة مسؤولية صون الأمانة ، ولو أدى الأمر إلى ملاقاة جيوش الفرس الجرارة . وقد تغنى شعراء بكر كثيراً بذلك ، وأقسموا بألا

---

(١) المفضلية رقم ٣٨ .
(٢) ديوان عبيد بن الأبرص .
(٣) ديوانه ١٢٣ .
(٤) الحقيقة : كل ما يحق على الانسان أن يحميه ، نلفّ : نجمع ونضم .
(٥) حماسة أبي تمام شرح المرزوقي ١/ ٣٣٧ .

يفرطوا بتلك الأدرع التي أودعها النعمان عندهم ، وأن نجم السماء ، أقرب إلى كسرى من تلك الأدرع ، يقول الأعشى : [١]

فما حَلْقَـةُ النعمانِ يومَ طلبتَها ... بأقـربَ من نَجْـمِ السماءِ تُراقِبُهْ[٢]

ويقول من قصيدة اخرى مُقْسِماً على الحفاظ على الأدرع مهما كلف القوم الثمن[٣] :

حلفـتُ بالملـحِ وبالـرمادِ وبالعُزَّ ... ى وبـالـلاتِ تُسْلَـمُ الحَلْقَـة

حتـى يظلَّ الهـامُ مُنْجَدِلاً ... ويَقْـرَعَ النَّيْلُ طُرَّةَ الدَّرَقَهْ[٤]

والحليف له حقوق وعليه واجبات ، لا يجوز فض الحلف أو الغدر بالحليف ما دام الحلف معقوداً ، ويحرص المجتمع الجاهلي على الحفاظ على قداسة الحلف ويعتبر المساس به عاراً ألصق بالقوم ، ويشبهه النابغة بالفجور ، يقول النابغة عندما قتلت عبس نَضْلة الأسدي وكان بين أسد وذبيان حلف ، وأراد عُيينة بن حِصْن الفزاري عون بني عبس ، فيهب النابغة محذراً[٥]

إذا حاولـتَ في أسـدٍ فُجوراً ... فإنـي لسـتُ منـكَ ولسـتَ منّي

هُمُ دِرْعِـي التـي استلأمْـتُ فيها ... إلى يومِ النِّسـارِ وهُـمْ مِجَنّي[٦]

وإذا كان العربي حريصاً على الأخذ بالثأر فذلك لأنه لا يحب أن يضيع دم ابنه أو قريبه هدراً ، فتعيره القبائل بذلك ، وتطمع في ماله وعرضه ، ولكن هذا الحرص على الأخذ بالثأر يتناساه العربي حينا تصدر عنه كلمة أمان يعطيها لواتره دون أن يعلم أنه الذي يطلبه ، ولا يتزحزح عن موقفه . ففي حرب البسوس ، وفي يوم قِضَة أسر الحارثُ بن عُبَّاد المهلهل كما تقول بعض الروايات ولكنه لم يعرفه ، فطلب منه أن يدله على المهلهل وأعطاه وعداً بإطلاق سراحه ، فقال له : أنا مهلهل ، وكان مهلهل قد قتل ابنه أو ابن أخيه بُجَيْراً ، ومع ذلك لم يقتله وأطلق سراحه .[٧]

---

(١) الأغاني/ ثقافة ٢٣/ ٢٢٩ .
(٢) حلقة النعمان : أدرعه .
(٣) الأغاني/ ثقافة ٢٣/ ٢٣٩ .
(٤) طرة الدرقة : طرف الترس .
(٥) ديوان النابغة ١٩٩ .
(٦) فجور : غدر ، المجن : الترس ، اللأمة : الدرع .
(٧) امثال الضبي ٥٨ .

ومما تعارف عليه ذلك المجتمع من المثل **إطلاق سراح الأسرى** والسبايا ، وعدم المساس بكرامتهم في الأسر والحفاظ على حياتهم ، وفيما يتعلق بالسبي كانوا يطلقونهن دون فدية ، أما الأسرى فكانوا يبادلونهم أو يأخذون فدية . وكانت الأسواق ، وأبرزها عكاظ مكاناً مناسباً لتبادل الأسرى في الأشهر الحرم . وكانوا لا يقتلون الأسير إذا استأسر لهم إلا إذا كان قد قتل لهم رجلاً عظيماً أو كان قد أثخن فيهم . كما كانوا لا يقتلون الرسول مهما كانت رسالته . ففي يوم ذي قار أرسل كسرى النعمان بن زُرْعة التغلبي يحمل تهديداً إلى بكر ومع ذلك ردوه سالماً ولم يقتلوه .

ومن المثل التي برزت وسط خضم الحروب والغزو الذي سادت الجزيرة العربية انهم كانوا **يجنحون إلى المصالحة والسلم** ما وسعهم ذلك ، وما دام ذلك لا يلحق بهم عاراً . بل أننا رأينا أن عبساً في حرب داحس حاولت تجنب الحرب أكثر من مرة ، ولكن تعنت حذيفة وأخوته هو الذي دفع بالقبيلتين إلى الحرب ، ولاحظنا مثل ذلك في حروب الأوس والخزرج ، وفي حرب البسوس حينما أرسلت تغلب وفداً الى بكر تسألها أموراً منها أن تسلمها جساسا أو همّاما فتقتله بكليب ، ولو قبلت بكر لما حدثت حرب البسوس ، ولكن الذي كان يفجر الحرب هو العصبية وخوف القبيلة الأخرى من أن يفسر قبولها لشروط الطرف الموتور على أنه تخاذل أو استسلام . وأكثر ما تبرز هذه الظاهرة ، وهي حب المصالحة ، عند القبائل التي ترتبط برباط القرابة ، أو عند القبائل التي ترتبط بمصالح كقريش وهوازن في حروب الفجار .

وقد أجمع المجتمع على **اعتبار الفرار سُبَّةً** في جبين الفارس الذي يفر ، ولكن ذلك لم يمنع بعضهم من الاعتراف بذلك ومحاولة تبريره ، بل ويحدثنا كيف تمكن من الفرار . يقول عامر بن الطفيل في يوم فيف الريح : [1]

إذا ازوَرَّ من كَرِّ الرمـاحِ زَجرتُهُ وقلتُ له ارجعْ مُقْبِلاً غـيرَ مُدْبِرِ [2]
وأنبأْتُـهُ أنَّ الفِـرارَ خَزايَةٌ على المرءِ مالـم يُبْـدِ عُذْراً فيُعْذَرِ [3]

فعامر يعترف بأن الفرار خزاية وعار ، ولكنه يبيحه إذا وجد عذراً لذلك الفرار ومبرراً ،

(١) ديوان عامر بن الطفيل ٦٢ .
(٢) أزور : مال الى ناحية اخرى .
(٣) خزاية : عار .

وهذا المبرد ذكره لنا شاعر آخر من شعراء يوم الكُلاب الثاني وَعْلَة بن عبد الله الجَرْميّ حيث يقول :[1]

عَذَلَتْنِي نَهْدٌ فقلتُ لنهدٍ ... حين جاسَتْ على الكُلاب أخاها[2]
يومَ كُنّا عليهم طيرَ ماءٍ ... وتميمٌ صُقورها وبُزاها
لا. تلوموا على الفرار فسَعْدٌ ... يالَ نَهْدٍ يخافُها مَنْ يراها

وهو يفخر بنجاته في ذلك اليوم ، ويحدثنا كيف تمكن من الإفلات من الأسر فيقول[3]

نجوتُ نَجاءً لم يرَ الناسُ مثلَه ... كأني عُقابٌ عندَ تَيْمَنَ كاسرُ[4]
خُدارية سَعْفاءُ لَبَّدَ ريشَها ... من الطَّلِّ يومٌ ذو أهاضيبَ ماطرُ[5]

إلى أن يقول موضحاً صورته وهو هارب تطارده فرسان تميم :

كأنا وقد حالتْ حُذُنَّةُ دوننا ... نعامٌ تلاهُ فارسٌ متواترُ[6]

موضوعات أخرى :

وثمة موضوعات أخرى لم نعرض لها ، وآثرنا أن نجملها هنا لقلة الشعر الذي قيل فيها ، بحيث لا يشكل غرضا بارزاً من أغراض شعر الأيام :

ومن أبرز هذه الموضوعات الرغبة في السلم والدعوة إليه ، وهذا اللون من الشعر لا نجده في شعر الحروب التي لا نسمع فيها إلا صوت الحض على القتال ، ولكننا نسمعه في شعر الحروب بين القبائل التي تنتمي إلى أب واحد كحرب داحس والغبراء ، وحرب البسوس ، والحروب بين بطون القبيلة الواحدة ، فهي حروب بين أخوة ، ومن الطبيعي أن تولد أمام هذا الشعور برابطة القرابة والدم فكرة تبغيض الحرب وتزيين السلم بين الفريقين ، ولكن ليس في بدايتها وإنما بعد

---

(١) الأغاني/ كتب ١٦/ ٣٤٠ .
(٢) عذلتني : لامتني ، نهد : قبيلة من اليمن ، جاست : ترددت ، داست .
(٣) المفضلية رقم ٣٢ ، النقائض ١/ ١٥٥ .
(٤) تيمن : موضع باليمن ، الكاسر : الذي يضم جناحيه يريد الانحطاط الى الصيد .
(٥) خدارية : يضرب لونها الى السواد وهي صفة للعقاب ، السعفاء : سواد يضرب الى الحمرة . الأهاضيب : جمع أهضوبة وهي المطرة العظيمة .
(٦) حذنة : ارض لبني عامر، متواتر: متتابع ، صفة للنعام.

أن يكتوي الحيان بنارها . ومن الشعراء دعاة السلم : الربيع بن زياد، وزهير بن أبي سلمى وقيس بن زهير.

يقول الربيع بن زياد عندما عاقد قيس بن زهير ضد فزارة وغطفان [١]

فــإن تكُ حربُــكم أمــستْ عَواناً	فإنــي لم أكنْ عــنْ جنَاها[٢]
ولــكنْ وُلْــدُ سَوْدَةَ أرَّثوها	وحَشّــوا نارَهــا لمن اصطلاها[٣]
فإنــي غــيرُ خاذلِــكمْ ولكنْ	سأسْعَــى الآن إذ بلغــتْ مَداها

ويحذر زهير بن أبي سلمى حيي غطفان من العودة إلى الإقتتال ويذكر بما ذاقوا من ويلاتها فهم قد جربوها : [٤]

ومــا الحرب إلا ما علمتــم وذقتم	ومــا هو عنها بالحديث المرجم[٥]
متــى تبعثوهــا تبعثوهــا ذميمة	ونصر إذا ضربتموهــا فتضرم[٦]
فتعــرككم عرك الرحــل تبغــا لها	وتلقح كشافــاً ثقــم تنتــج فتتئم[٧]
فتنتــج لكم غلمان أشــأم كلهم	كأحــمر عاد ثم ترضــع فتفطم[٨]
فتغلل لكم مالا تغــل لأهلها	قــرى بالعراق من تغير ودرهم

ويقع خلاف بين حيين من غطفان بسبب مقتل جار لأحد الحيين ، ويشتد الخلاف بين الحيين ، ويقف الحُصَين بن الحمام المرّي يدعو الى التعقل وعدم الاقتتال ويخاطبهم بصلة القرابة [٩]

يا أخوَيْنــا من أبينــا وأمنا	ذَروا مَوْلَيَيْنا من قُضاعة يَذْهبا

(١) العقد الفريد ٥/ ١٥٣ ، امثال الضبي ٤٣ .

(٢) حرب عوان : الحرب التي قوتل فيها مرة بعد اخرى ، ولد سودة : حليفة واخوته .

(٣) ارثوها : اشعلوا نارها . حشوا نارها : جمعوا لها الوقود .

(٤) معلقة زهير- شرح المعلقات الطوال ٢٦٧ .

(٥) المرجم : الذي يرمي فيه بالظن .

(٦) ذميمة : ملمومه ، تضرى : تشتد .

(٧) الثفال : جلدة تجعل تحت الرحي ، كشافا : تحمل على الناقة في كل سنة فتلقح وذلك ارادا النتاج . تتئم : تنتج اثنين في بطن .

(٨) احمر عاد : اراد أحمر ثمود .

(٩) المفضلية رقم ٩٠ .

فإن أنتمُ لم تفعلوا لا أبالكم فلا تُعلِقونا ما كَرِهْنا فَنَغْضَبا[1]
متى نَنْتَسِبْ تلقوا أبانا أباكم ولنْ تجدونا للفواحش أقْرَبا

وقبيل إنتهاء حرب داحس والغبراء ، وقد أوشك القوم على التصافي ، قتل حُصَين بن ضمضم عبسياً غدراً ، فغضب حصن بن حذيفة ، وغضبت عبس ، ووقف شُبَيْم بن خُوَيْلد الفزاري يدعو الى السلم ويذكر الطرفين بصلة الرحم وقال في ذلك : [2]

يا قومنا لا تغرونا بمَظْلَمَةٍ يا قومنا واذكروا الآلاء والذِّمما[3]
في جاركم وابنكم إذ كان مقتلُهُ شنعاء شَيَّبَتِ الأصداغ واللِّمَما[4]
عَيَّ المسود بها والسائدون فلم يوجَدْ لها غيرُنا مولى ولا حكَمَا[5]

وفي يوم شُواحيط اقتتل الإخوة فوقف خداش بن زهير يحول دون المضي في هذا العمل ، حتى منعهم من قتل إخوتهم ، وسجل ذلك في شعره فقال مخاطباً المعتدين عليهم[6] .

فيا أخوينا من أبينا وأمنا إليكم إليكم لا سَبِيلَ إلى جَسْرِ
بأنكم من خير قوم لقومكم على أن قولاً في المجالس كالهُجْرِ
دعوا جانباً إنا سننزلُ جانباً لكم واسعاً بين اليمامة والقَهْرِ

ويختتم هذه الأبيات مستنكراً قتل الأخ لأخيه :

وإني لأشقى الناس إن كنتُ غارماً لعاقبة : قَتْلَى خُذَيْمَةَ والخضرِ
أكلَّفُ قتلَ معشرٍ لستُ منهمُ ؟ ولا أنا مولاهم ولا نصرُهُمْ نصري

ومن هذه الموضوعات **الاستعطاف** ، وهو قليل في شعر الأيام لأنه لا يليق بالفارس الذي يمتطي صهوة الجواد ويمتشق الحسام ، ولكن بعض الشعراء هم الذين ورد هذا الشعر على

(١) لا تعلقونا : لا تتوطوا بنا ماكرهنا .
(٢) النقائض ١/ ١٠٦ .
(٣) الالآ : النعم ، الذمم : العهود .
(٤) الأصداغ : جمع صدغ وهو الشعر فوق جانب الوجه ، اللمم : جمع لمة ، وهي شعر الرأس المجاور سحمة الأذن .
(٥) عيّ : عجز .
(٦) العقد الفريد د/ ١٦٢ ، جمهرة اشعار العرب ١٩٢ .

ألسنتهم ، يلجئون إليه لصَرف ملك عن غزو قومهم ، أو لإطلاق سراح الأسرى ، من قومهم ، وغالبية هذا الشعر مرتبط بالحيرة أو مملكة غسان أو ملوك اليمن ، لما كان لهذه الدول من قوة وسيطرة على بعض القبائل العربية . أما استعطاف فارس أسير لآسره فهذا ما لا نجده ، ولو كان الأسير فتاة ، فهي تفضل أن يبقر بطنها كما فعلت المرأة التميمية مع عمرو بن هند يوم أوَارة .

ومن شعراء هذا اللون المُمَزِّق العَبْدِيّ ، وعَبيد بن الأبرص، والنابغة الذبياني. لقد علم الممزق العبدي بأن عمرو بن المنذر اللخمي قد همَّ بغزو قوم الشاعر عبد القيس ، فقال يستعطفه بهذه القصيدة ، فلما بلغته القصيدة انصرف عن عزمه ، ومما قاله الممزق العبدي : [١]

أَرقتُ فلم تَخْدَعْ بعينيَّ وَسْنَةٌ ... وَمَنْ يَلْقَ ما لاقيتُ لا بدَّ يأْرقِ [٢]
تَبيتُ الهمومُ الطارقاتُ يَعُدْنَني ... كما تعتري الأهوالُ رأسِي المُطَلَّقِ [٣]

ويستمر في تصوير حاله ، ثم يمدح الملك بمجده وعزه وتقاه وقوة سلطانه وشجاعته وجوده ورأيه .

علوتم ملوكَ الناسِ في المجدِ والتُّقى ... وقرب نَدىً من عِروةِ العزِ يَسْتقي [٤]
وأنت عمودُ الدينِ مهما تَقُلْ يُقَلْ ... ومهما تَضَعْ من باطلٍ لا يُلَحَّقِ [٥]

ثم يستعطفه في أسلوب طريف معلناً ولاءه ووفاءه فيقول :

أحقاً أبيتَ اللعنَ أن ابنَ فَرْتنا ... على غيرِ إجرامٍ بريقي مُشَرِّقي [٦]
فإن كنتُ مأكولاً فكنْ خيرَ آكلٍ ... وإلا فأدركْني ولَمّا أُمَزَّقِ
أكلفتَني أدواءَ قومٍ تركتُهم ... وإلا تداركْني من البحرِ أغرَقِ
فإن يُتْهِموا أُنْجِد خلافاً عليهم ... وإن يُعْمِنوا مُسْتَحْقِبي الحرب أُعْرِقِ [٧]

---

(١) الأصمعية رقم ٥٨ .
(٢) الوسنة : ثقلة النوم .
(٣) المطلق : الملدوغ .
(٤) القرب : الدلو العظيمة .
(٥) الدين : السلطان والملك مهما تضع من باطل : مهما تسقط من شيء وتبطله .
(٦) ابن فرتنا : يراد به اللئيم . مشرقي : من الشرق وهو بالماء والريق كالغصص بالطعام .
(٧) يتهم وينجد ويعمن ويعرق : يأتي تهامه ونجدا وعمان والعراق . مستحقبي الحرب : حاملي عبئها .

فلا أنـا مولاهـم ولا في صحيفةٍ　　كَفَلْـتُ عليهـم والكفالـةُ تُعتفى [1]
وظَنّـي بـه أن لا يُكَدِّرَ نعمةً　　ولا يَقْلِـبَ الأعـداءَ منـه بمَعْبَقِ [2]

وحاول بنو أسد منع الإتاوة التي كانوا يدفعونها لحُجْر الكندي ، فسار إليهم بجند من ربيعة وكنانة وقيس ، فأتاهم وأخذ سراتهم ، وأباح الأموال ووقف شاعرهم يستعطف الملك بهذه القصيدة ، فرق لهم حجر حين سمع قوله وعفاعنهم ، ومما قاله عبيد : [3]

إمـا تركتَ تركتَ عفـواً أو　　قتلـتَ فلا مَلامَهْ
أنـتَ المليكُ عليهِمُ　　وهُـمُ العبيدُ إلى القيامَهْ
ذلُّـوا لسَوْطِـكَ مثـلَ ما　　ذلَّ الأُشَيْقِـرُ ذو الخِزامَهْ [4]

---

(١) تعتفي : تحتبس .
(٢) لا يكدر نعمة : يعني بالأعتذار ، معبق : لا يدع لأعدائه مستقرا .
(٣) ديوان عبيد بن الأبرص ١٢٦ .
(٤) الأشيقر : تصغير الأشقر ، وهو الأحمر من الدواب ، الخزامة : حلقة من شعر تجعل في وترة أنف البعير يشد بها الزمام .

الفصـل الثالـث

خصائص شعر الأيام الفنية

تمهيـد :

خلصنا في الفصلين السابقين من الحديث عن مصادر شعر الأيام ورواته ، كما عرضنا للأغراض التي نظم فيها شعر الأيام ، ولكننا لم نتعرض لمشكلة هامة من المشكلات التي تعرض دارس الشعر الجاهلي عامة والأيام خاصة . فأين كانت بداية هذا الشعر ؟ وكيف ؟ ومتى ؟ أسئلة ينبغي الإجابة عليها أو محاولة الإجابة قبل الحديث عن خصائص هذا الشعر الفنية .

إن بداية هذا الشعر تتعين بتعيين بداية أيام العرب في ذلك العصر ، ولقد عرضنا فيما سبق لآراء مختلفة في تحديد بداية تلك الحروب بأنها كانت مع ضعف سلطة اليمنيين على قبائل الشمال ، مما جعل تلك القبائل تتمرد على حكمهم أولا ، ثم تتصارع فيما بينها . ولكن لا يحدد لنا الفترة الزمنية تحديدا دقيقاً .

ولقد عرض بعض القدماء لهذا الموضوع بشيء من التلميح ، فقال المرزباني وهو يحدثنا عن عمرو بن قميئة بن سعد بن مالك بن ضبيعة البكري انه عاصر مهلهل بن ربيعة ، وأن بكرا تزعم أنه أول من قال الشعر وقصد القصيد [1] .

وعند الجاحظ أن أول من نهج سبيل الشعر وسهل الطريق إليه امرؤ القيس ومهلهل بن ربيعة [2] . وعند ابن خالويه أنه ابن حذام [3] ، ويرى السيوطي أن أوائل العرب لم يكن لهم إلا

(1) معجم الشعراء - المرزباني ٤ .
(2) الحيوان - للجاحظ ١/ ٧٤ .
(3) المزهر للسيوطي ٢/ ٤٧٧ .

أبيات يقولها الرجل في حاجته ، وقد قصدت القصائد طول الشعر على عهد عبد المطلب أو هاشم ابن عبد مناف. (١)

وعندما عرض المحدثون لهذا الموضوع ، ربطه بعضهم بالرجز ، فقال بعضهم عن امرىء القيس أنه أول من قصد القصائد ووضع قواعد الشعر العربي ، وانه بعث روحا جديدا في الشعر القديم الذي كان مقصورا على الرجز (٢) . وأجمع الباقون تقريباً على أن البحث عن أوليات الشعر الجاهلي كالضرب في صحراء مجهولة لا معالم بها ، لأنه يبحث في عصور ما قبل التاريخ الأدبي ، وأن ما يسمى بطفولة الشعر الجاهلي ليس إلا مجرد آراء تخمينية لا تعدو الحدس والرجم بالغيب، وأن ذلك الشعر قطع مراحل عديدة حتى استوى في صورته الجاهلية التي وصلتنا ،وليس بيز أيدينا أشعار تصور أطواره الأولى ، إنما بين أيدينا صورة تامة لقصائده المقيدة بالتقاليد الفنية المعقدة في الوزن والقافية والموضوعات والأساليب والصياغات المحكمة . (٣)

ونستطيع أن نخلص مما ذهب إليه الباحثون أنّ أولية الشعر الجاهلي غامظة ، وأن وضع تاريخ معين يحددها أمر متعذر، وأن الغالب على الظن أن أوائل هذا الشعر لا يتخطى أقدم المدونات التي بلغتنا بزمن طويل وهي الشعر الذي عاصر حرب البسوس. (٤)

ولما كانت دراستنا متعلقة بالأيام فإننا نرى ألا تعارض بين أقدم نصوص شعر الأيام التي ترتبط بحرب البسوس أو قبيلها ، وبين أولية الشعر الجاهلي التي يظن أنها لا تبتعد كثيراً عن تلك الحرب .

أما من زعم بأن الشعر القديم ، قبل ان يستقر على صورته التي وصلت إلينا ، كان مقصورا على الرجز ، فذلك أمر سنعرض له بالتفصيل حينما نعرض للرجز .

أما المشكلة الثانية التي تعترض دراستنا فهي أن الشعر الذي تجمع لدينا شعر مقطوعات ، إذ أنها تشكل نسبة كبيرة من مجموع الشعر الذي جمعناه ويتصل بأيام العرب في العصر الجاهلي . ودلالة هذا الأولية أن النتائج التي سنتوصل إليها ليست قطعية ، ولا تعطي الصورة الحقيقية لشعر الأيام الذي ندرسه .

---

(١) المزهر للسيوطي ٢/ ٤٧٤ .

(٢) دائرة المعارف الأسلامية - النسخة المترجمة ٢/ ٣٢٣ .

(٣) انظر العصر الجاهلي - ضيف ١٨٣ ، موسيقى الشعر لابراهيم انيس ١٨٤ ، دراسات في الأدب العربي - غرنباوم ١٣٥ ، مجلة المجلة فبراير ١٩٦٥ - مقال للدكتور يوسف خليف ص ١٩ .

(٤) مجلة المجلة - فبراير ١٩٦٥ - مقال للدكتور يوسف خليف ١٩ .

ولا يؤثر تداخل هذا الشعر واضطرابه في النتائج التي نتوصل إليها ، لأننا ندرس شعر الأيام عامة ولا ندرس خصائص شاعر بعينه ، بينا يؤثر الشعر الموضوع على هذه النتائج فيما لو اختلط بشعر الأيام الحقيقي .

لغة شعر الأيام

الشعر هو النبع الرئيسي لصياغة اللغة وتجديدها ، ويعتبر تاريخ الشعر في صورة من صوره تاريخا متعاقباً لأدوار من ولادة ألفاظ الشعر ونضجها وفنائها ، وهي دائما تولد في ثورة ثم تمر بفترات تطورها واتساعها قبل أن تصير الى الجمود والقوالب الآلية .

والشاعر ـ كما تقول اليزابيث درو ـ هو أبداً القلب المفتوح الذي لا يتبجح بشيء ، ولكن ذلك قد لا يكون كذلك ، بل قد يستعمل كل حيل اللغة من البساطة الكاملة الى البلاغة المعقدة فيذكي حرارة عاطفة آنا من خلال الإيجاز ، وآناً من خلال الإطناب ، وطوراً من طريق حذف التفصيلات ، وطوراً من طريق الابتكار [1] .

وليست الألفاظ في بساطتها أو جلاها هي المحك ، وإنما الطاقة او العاطفة او الحركة التي يسبغها الشاعر عليها هي التي تحدد قيمتها ، فكلمة عقاب كلمة تدل على طائر معين هو النسر ، ولكن وَعْلَة الجَرْمِيّ عندما استخدمها ليصور لنا فراره من يوم الكُلاب الثاني ونجاته قد استعملها لتوحي لنا بالحركة السريعة الخاطفة التي تصور فراره ونجاته فقال :

نَجوتُ نجاءً لم ير النـاسُ مِثْلَه ... كأني عُقـابٌ عنـدَ تَيْمَـنَ كاسِرُ [2]

وأراد عنترة أن يصور حاله عندما يظلم وكيف يذيق ظالمه الموت ، ولم يجد خيراً من كلمة العلقم يصور بها مصير ظالمه فقال :

فإذا ظُلِمْـتُ فإن ظلمـي باسلٌ ... مُـرٌّ مَذاقَتُـه كَطَعْـمِ العَلْقَمِ [3]

وعندما أراد الربيع بن زياد العبسي لوم قيس بن زهير على تسليمه رهائن لبني فزارة ، فلم يستمع إليه وحدث ما حدث لهم ، قال يصور الحرب وما تفعل بالقوم ، ولاحظ كيف استخدم لفظة « حش » استخداماً يبين ما تفعله الحرب بالقوم

---

(1) الشعر كيف نفهمه ونتذوقه ـ اليزابيث درو ٨٧ .
(2) المفضلية رقم ٣٢ .
(3) ديوان عنترة ١٤٨ .

أَتَبْقِـى على ذُبيانَ قَتْـلَ مالكٍ فقد حَشَّ جانى الحربِ ناراً تَضَرَّمُ[1]

وأراد ضرار بن الخطاب الفهري أن يعبر عن تفرق بني عامر وهزيمتهم هزيمة منكرة أمام قومه في حروب الفجار ، يوم عكاظ فاختار كلمة « شعاعا » لتوحي بالسرعة الخاطفة التي تلاشى بها بنو عامر وفروا .

ففـرت سُلَيْمٌ ولـم يَصْبِروا وطـارتْ شَعاعـاً بنـو عامرٍ[2]

وعندما هجا يزيد بن الصعق الكلابي بني يربوع وغيرهم ، لم تجد العوراء اليربوعية لفظة تصور بها عنف بني يربوع وفتكهم بسادة بني كلاب قوم يزيد ، خيراً من كلمة « قمع » التي توحي بالضربة القاضية العنيفة لذلك الشيخ الفخور المتعالي :

ألـم تَعْلَـمْ قعيدك يا بـن عمروٍ بأنـا نقمـعُ الشيخَ الفَخورا[3]

ولم تكن لغة شعر الأيام لغة جارية في الاستعمال العام ، بل كانت لغة فنية قائمة فوق اللهجات وان غذتها جميع اللهجات ، فاستمدت ألفاظها من بيئته الجاهلية ، واستخدمتها للتعبير عن الدلالات الحسية والمعنوية للفظة الواحدة .فعندما أراد عنترة ان يتهدد بني العشراء ، أنذرهم بأنه على الرغم من بعد الشقة بينه وبينهم إلا أنه سيهجوهم بلسانه شعراً يحقر من شأنهم ويبين مثالبهم فاختار كلمة « مذود » لتعبر عن معنى الهجاء ، كما انه استعمل كلمة « تقلدوا » الدالة أصلاً على ارتداء الشيء لتعبر عن أن هذه القصائد ستعمهم وستكون كالقلائد في أعناقهم تسمهم وتميزهم :

سيأتيكم عنـي وإنْ كنـتُ نائياً دخـانُ العَلَنْـدِي دونَ بيتـي مِذْوَدُ
قصائـدُ من قيلِ امـريءٍ يحتذيكم بنـي العُشَراءِ فارتَـدوا وتقلَّدوا[4]

وقد أدرك الشعراء سلاح القصيدة ، وما يمكن أن تسهم به في السلم والحرب ، فرب قوم يخيفهم الشعر فيرعووا ولا يتعدوا على حمى القبيلة ، أولا يعودوا إلى الغدر ، وكان سلاح الشعر فتاكا في تلك البيئة ، كما كانت للشاعر منزلته . وهذا ما جعل الشعراء لا يهتمون بالصنعة

---

(1) العقد الفريد ٥/ ١٥٥ .
(3) الأغاني/ ثقافة ٢٢/ ٧٥ .
(4) النقائض ١/ ٧٢ ، العقد الفريد ٥/ ١٨٠ .
(5) ديوان عنترة ٤٧ .

اللفظية كثيراً ، فهمهم منحصر في التعبير بلسان القبيلة عن مفاخرها ، أو مشاكلها التي تعانيها من قبائل أخرى ، أو للرد على شاعر قبيلة أخرى إلى غير ذلك من أغراض شعر الأيام . وشعر هذه طبيعته لا بد وأن يكون واضحاً سهلاً بليغاً ينفذ الى قلوب الناس فيؤثر فيهم ، ولا يمكن حدوث ذلك التأثير إلا إذا كان مفهوما وواضحاً . فشاعر الأيام لا ينظم قصائد معتنى بها لمسابقة شعرية بينه وبين آخرين ، بل هو ينظم شعراً يؤرخ به أحداث قبيلته .

إذن فقد كان الشعراء هؤلاء يعمدون إلى الإبانة والسهولة معتبرين ذلك جزءاً من معاركهم وسلاحاً يصل بهم إلى النصر ، ولولا أسماء الأعلام وبعض الألفاظ المتصلة بتلك البيئة الجاهلية لغدا شعر الأيام سهلاً واضحاً أو بمعنى أدق لكان معظم شعر الأيام واضحاً سهلاً .

ولكن هذا الوضوح لا يقلل من شأن هذا الشعر ، فلم يكن الشاعر ليلجأ إلى الوضوح على حساب الصورة ، فقد عرض شاعر الأيام صور تلك المواقع وأولئك الفرسان المجندلين في ساحات القتال ، وأولئك الآخرين المكبلين في صورة مشرقة الحقت ببعضهم الفخر والزهو ، وبالفريق الآخر المذلة والهوان وسنعرض لهذا عند حديثنا عن الخيال .

ولكن بعض قصائد شعر الأيام وبخاصة تلك التي احتوتها مجموعتا المفضليات والنقائض تبدو أكثر إغراباً من غيرها ، وهذا يدفعنا الى التساؤل والبحث عن إجابة على ذلك التساؤل . وفي رأينا انه يجب التمييز بين الشعراء الفرسان والشعراء من غير الفرسان ، كما يجب التمييز بين شعر يقال أثناء المعركة ، وشعر يقال بعد ذلك بزمن قد يطول وقد يقصر .

فالشعراء الفرسان الذين خاضوا غمار تلك المعارك وتأثروا وأثروا في إحداثها ، إنما تكون الصورة أكثر عمقاً عندهم ، ودرجة الانفعال أوضح مما يدفعهم الى اختيار الفاظ أكثر تعبيراً عن الحالة او الصورة ، أما الشعراء غير الفرسان فإن حديثهم عن المعارك يكون مدفوعاً بولائهم للقبيلة ومعتمدا على ما يروى لهم وعلى الصور العامة ، ولذا فقدرتهم على اختيار الألفاظ ذات الدلالات المعبرة تكون أقل من شاعر فارس خاض غمرات القتال ، كما ان الشعراء الفرسان يميلون إلى السهولة ، بينما يميل الآخرون إلى التنقيح والصناعة .

وفي يوم الكُلاب الثاني هزمت تميم جموع اليمن ، وسنختار شاعرين تحدثا عنها ، الأول : مُحْرِز بنُ المُكَعْبَر الضبي [١] ولم يشهد ذلك اليوم ، والثاني ربيعة بن مقروم الضبي [٢]

---

(١) المفضلية رقم ٦٠ .
(٢) المفضلية رقم ٣٨ .

وقد شهد ذلك اليوم . وان القراءة الأولى المتأنية للنصين سوف يعطينا الفرق واضحاً بين الصورتين ، صورة ذلك اليوم عند ربيعة واضحة تنقل إلينا واقع ذلك اليوم وما أحرزته تميم ، ويختار الشاعر العبارات والألفاظ المعبرة عن المعركة . والثاني لم يشهد ذلك اليوم فجاء حديثنا عابراً . ومما يجعل المقارنة أكثر جدوى أن الشاعرين اللذين اخترنا نصيهما من شعراء المفضليات .

أما وجه المقارنة بين شعر شاعر فارس ، خاض المعارك ، وشعر شاعر لم يخضها ولكنه وصفها ، فسنختار عنترة كمثال للنوع الأول ، والأعشى كمثال للنوع الثاني فإن مقارنة بين ما قاله عنترة في يوم الهباءة ومطلع قصيدته :

نأتــك رقــاش الا عن لمام وأمسى حبلهــا خلــق الرِّمام[1]

أو معلقته التي يتحدث فيها عن يوم الْمُرَيْقِب ، وبين قصيدة للأعشى في يوم ذي قار ، ولتكن التائية والتي مطلعها :

فدىً لبني ذهل بن شيبان ناقتي وراكبهــا يوم اللقــاء وقلَّت[2]

إن المقارنة الأولية تكشف لنا أن الأعشى صرف همه إلى المشاهد العامة الخارجية ، كوصف جيش كلٍّ ، وحالة الإستنفار عند كلٍّ ، وساعة اللقاء وما آلت إليه المعركة في ذلك اليوم . اما عنترة فإنه كفارس لا يكون همه مركزاً بالدرجة الأولى على الإطار الخارجي للمعركة ، بل ينفذ إلى الجزئيات ، فيصف الأسلحة ، ومضاءها ، وكر الفرسان ، والضرب والطعن ومصير الفرسان في المعركة ، ويصور لنا لقاءه مع الفرسان ، ولا يهمل الخيل فهي أداة حاسمة من أدوات القتال ، وينقل إلينا مشاهد مختلفة للقتلى والجرحى الذين يسيل منهم الدماء ، كل ذلك يجسم المعركة ، وينقلها حية ماثلة أمامنا ، تضج بالحركة ، وتضطرب فيها النفوس .

ونلاحظ كذلك أن الشاعر الفارس نفسه ، حينا يقول الشعر قبيل المعركة أو بعيدها نراه يميل إلى الإبانة والإيجاز ، بينا نراه يميل إلى الإطالة والتنقيح وتظهر في شعره بعض آثار الصنعة في اختيار الألفاظ عندما يميل إلى الإطالة والتنقيح وتظهر في شعره بعض آثار الصنعة في اختيار الألفاظ عندما لايشهده ، ففي يوم نَعْف قُشَاوة فرَّ بنو سليط وانصرفوا عن أصحابهم ، وكان مالك بن نويرة مشتركاً في ذلك اليوم فقال يهجوهم [3] .

---

(1) ديوان عنترة ١٥٦ - ١٥٩ .
(2) ديوان الأعشى ٢٥٩ .
(3) النقائض ١/ ٢٢ .

لحـا الله الفـوارسَ من سليطٍ	خُصوصـاً أنهـم سَلِمـوا وآبوا
أجئتُم تطلبـونَ العُـذْرَ عندي	ولم يُخْرَقْ لكم فيهـا إهابُ[1]
دعتـكم خلْفُـكُم فأجبتُموها	مجـازِمُ في أعاليهـا الجُبابُ[2]

ومالك بن نويرة نفسه ، يقول في يوم مُخطَّط ، ولم يشهده ويؤكد هذا في أول بيت حيث يقول : [3]

إلاَّ أكُنْ لاقيتُ يومَ مُخطَّط	فقـد خبَّـرَ الرُّكبـانُ ما أتودَّدُ
أتانـي بنَفْـرِ الخَـيْرِ ما قد لَقيتُمُ	رَزينٌ وركبٌ حولَـهُ مُتَعَصِّدُ
يهُلُّـونَ عُمّاراً ، إذا ما تَغَوَّروا	ولاقـوا قريشـاً خبَّروهـا فأنْجَدوا
ورد عليهـم سرْحَهُـم حول دارهم	ضِنـاكاً ولـم يستـأنفِ المُتَوَحِّدُ[4]
حُلـولٌ بفـردوس الإيادِ وأقبلتْ	سَراةُ بنـي البَرْشـاءِ لمَّا تأودوا[5]
بألفَـينِ أو زادَ الخَميسُ عليهما	لينتزعـوا عِرْقاتِنـا ثم يُرْغِدوا[6]

ولا أعتقد أننا بحاجة إلى المزيد من التوضيح لنلاحظ الفرق بين ألفاظ النصين ، والأمثلة على ذلك كثيرة في شعر الأيام .

وتختلف لغة شعر الأيام باختلاف الغرض ، فالشاعر عندما يفتخر يبحث عن ألفاظ تلائم غرض الفخر ، فيختارها ألفاظاً جزلة معبرة عن معاني القوة ، ذات جرس خاص يوحي بالغرض الذي استعملها الشاعر من أجله ، هذا خداش بن زهير يفتخر بيوم شَمْطَة فيقول : [7]

بأنـا يومَ شَمْطَـةَ قد أقمنا	عمودَ المجـدِ إن له عَمودا
جلبْنـا الخيلَ ساهمـةً إليهم	عوابسَ يَدَّرِ عْنَ النَّقْعَ قُودا[8]

(١) اهاب : جلد ، مجازم : اسقية مملوءة .

(٢) الجباب : شبيه بالزبد يعلو لبن اللقاح .

(٣) الأصمعية رقم ٦٧ .

(٤) السرح : الأبل الراعية ، الضناك : الموثق الخلق الشديد . المتوحد : المنفرد .

(٥) تأودوا : تثنوا ، بنو البرشاء : هم ذهل وقيس وشيبان ابناء ثعلبة ، والبرشاء امهم .

(٦) عرقتنا : شأفتنا ، يرغدوا : يخصبوا .

(٧) الأغاني/ ثقافة ٢٢/ ٧٠ .

(٨) ساهمة : ضامرة ، قودا : جمع أقود وهي الفرس الطويلة الظهر والعنق .

فبتنـا نعقـدُ السيا وباتوا   وقلنـا أصبحـوا الأنسَ الحَديدا[1]
فجـاءوا عارضـاً بَرداً وجئنا   كما أضرمـتَ في الغـابِ الوقودا
فعارَكْنـا الـكُماةَ وعاركونا   عِـراكَ النُّمْـرِ عاركتِ الأُسودا

ولكي تكون الصورة أكثر وضوحاً ، لنختر لشاعر كعنترة مقطعين من نصين أولها يرثي مالك بن زهير فيقول :

ألا يا غرابَ البَـيْـنِ في الطيرانِ   أعرنـي جَناحـاً قد عَدِمْـتُ بناني
تُرى هل علمـتَ اليومَ مَقْتَـلَ مالكٍ   ومَصْرَعَـهُ في ذِلـةٍ وهَوانِ

ثم يقول :

فلله عينا مَنْ رأى مثـل مالكٍ   عَقِـيرةَ قومٍ أن جَرَى فَرَسانِ
فليتهما لم يجـريا نصفَ غَلْوَةٍ   وليتهما لم يُرْسَـلا لِرهانِ
وليتَهما ماتـا جميعـاً ببلدةٍ   وأخطـاهما قيسٌ فلا يُرَيانِ[2]

ولكن حينما يفتخر فإن الألفاظ التي يختارها لتعبر عن ذلك تختلف ، فنسمعه يقول : [3]

لما سمعـت دعـاء مرة إذ دعا   ودعـاءَ عبسٍ في الوغـى ومُحَلِّلِ
ناديتُ عبسـاً فاستجابوا بالقنا   وبـكلِّ أبيضَ صارمٍ لم يَنْجَلِ[4]
حتـى استباحـوا آل عوفٍ عَنْوَةً   بـالمَشْرَفِيِّ وبالوشيجِ الذُبَّلِ[5]
إنـي امـرؤ من خـيرِ عبسٍ مَنْصِباً   شطـرين وأحمِي سائـري بالمُنْصلِ[6]

فالفرق واضح بين الألفاظ ونسيجها عندما رثى ، والألفاظ وتناسقها حينما حاول أن يفتخر ، ففي الحالة الأولى اختار الألفاظ التي توحي بالأسى والتأثر بحيث تخلق جواً مناسبا للحزن ، بينما في المقطوعة الثانية اختار ألفاظاً تنبض بالقوة التي تعبر عن عنترة الفارس الشجاع .

---

(١) السيا : العلامة .
(٢) ديوان عنترة ١٧٦ .
(٣) ديوان عنترة ١١٩ .
(٤) لم ينجل : لم يشحذ .
(٥) المشرفي : السيف ، والوشيج : شجر الرماح ، الذبل : الضامرة .
(٦) المنصب : الأصل والحسب ، المنصل : السيف .

ولن نطيل الحديث ، فإن أي فاحص لشعر الأيام ، وللشعر عامة يلحظ هذا ، كما يلحظ أن مجموعة المفردات التي يستخدمها الشاعر في غرض معين تختلف عنها في غرض آخر . وإن أجود الشعر ما كان ناتجاً من تناسق أجود الألفاظ المناسبة للغرض الشعري الذي ينظم فيه الشاعر.

ويمكننا القول إن شاعر الأيام ، أو بمعنى أدق الشاعر الذي صور لنا جانبا من جوانب تلك الحروب ، قد خص ألفاظاً معينة متصلة بالحرب وبأدواتها ويصفاتها . فالفارس أسد وليث ، والجيش سرب قطا ، أو عصائب طير ، والقتيل في المعركة اختار له الشاعر اكثر من لفظة لتعبر عن حالته ، وسيد القبيلة خصه الشاعر بأكثر من لفظ للدلالة عليه ، والسبايا كالسعالي ، والجرحى يمجون دماءهم ، وخيولهم لها نصيب وافر من الاهتمام عندهم ، والدروع تلمع كأنها النجوم .

وهكذا فلشاعر الأيام قاموس ألفاظ خاص ، والألفاظ التي يستعملها لها دلالات معينة ، متعارف عليها ، وتستحق الدراسة والتوسع فيها ، كما أن هذه المجموعة تعطينا فكرة واضحة عن طبيعة الحياة في ذلك العصر . ويمكننا القول بأن كثرة الألفاظ التي تدل على معنى واحد . كلما كانت أكثر كلما دلت على مدى أهمية ذلك عند شعراء الحرب . ومن السهل إثبات ذلك بإحصاء الألفاظ الدالة على السيف ، والفارس الشجاع ، والدرع والجيش ، وحصر الصور التي حباها إياها الشاعر . فإن ذلك كفيل ببيان قاموس الفاظ وصور شاعر الأيام ، كما هو كفيل بكشف مدى قدرة الشاعر الجاهلي على التصوير والتجسيم .

والأسلوب هو إطار الفكرة ، وهو القالب الذي يصب فيه الأديب أفكاره . والأفكار هنا متصلة بالحرب وما يتفرع عنها . والتعبير عن هذه الأفكار يحتاج إلى أسلوب ربما اختلف عن أسلوب الشعر غير المتصل بالحرب . والشاعر هنا محتاج إلى التعبير عن تلك الأفكار تعبيراً دقيقاً ومؤثرا .

ومما ساعد الشعراء على ذلك انهم كانوا يعبرون عن أفكار محددة متصلة بالأيام ، وأكثر الأفكار التي كانت تدور في شعرهم تتصل بالفارس وهو يصول ويجول ، ويتصل به وهو صريع ، ويتصل به وهو يقارع بطلا آخر ، كما يتصل شعرهم بالجيش وهو زاحف نحو الأعداء ، كما تصوره وهو يتبع فلول الأعداء المنهزمين ، أو وهو يفر هاربا تحت وطأة ضربات سيوف القوم . ويتصل شعرهم بأدوات القتال كالسيوف والرماح والدروع والخيل ، تلك هي أبرز عناصر شعرهم التي استعملوا أساليب مختلفة للتعبير عنها . ولكن تلك الأساليب كانت تشترك في قدر مشترك ثم تختلف في بعض التفصيلات . وسوف نعرض لهذا حينما نعرض للخيال والصور الفنية في شعر الأيام . ولقد عبر عن هذا الذي نذهب إليه شاعر الجاهلية حين قال :

ما أرانـا نقـول إلا مُعارا ... أو مُعاداً من لفظِنا مكرورا[1]

وعنترة العبسي قال في معلقته أيضاً :

هــل غادر الشعــراءُ من مُتَرَدَّمِ ... أم هل عرفتَ الدارَ بعـد تَوَهُّمِ[2]

وإن شعر الأيام الذي بين أيدينا كامل الصياغة ، فقصائد القرن السادس الميلادي تنبيء بأنها ثمرة صناعة طويلة[3] كما يقول جويدي فالتراكيب تامة ، ولها رصيد من المدلولات تعبر عنه ، والعبارة تستوفي أداء مدلولها ، فلا قصور فيها ولا عجز[4] . وقد التزم شعراء الأيام ببعض الأساليب ، التزموها في قصائدهم ، وأصبحت منهجاً يتبعونه في الآداء والتعبير .

وأول ما يطالعنا في شعرهم أنهم يستخدمون في مطالع قصائدهم أفعالاً مشتقة من صيغ التبليغ ، وكأنهم بذلك يريرون إذاعة الخبر ، أو يطلبون من السامع أن يبلغه الناس . يقول صخر بن سليان الخزرجي في مطلع قصيدته

ألا أبلغـا عنـي سُوَيدَ بنَ صامتٍ ... ورهـطَ سُوَيدٍ بلِّغا وابـنَ الأسلَتِ[5]

ويقول حسان بن ثابت كذلك :

ألا أبلــغْ أبـا قيس رسولا ... إذا ألقـى لهـا سَمَعـاً تَبِين[6]

ويقول خداش بن زهير :

فأبلـغ إن أعرضـت به هشاما ... وعبــد الله أبلــغ والوليدا[7]

ويقول لبيد بن ربيعة :

أبلـغ إن عرضـت بنـي كلاب ... وعامر والخطوب لهـا موالي[8]

---

(1) العصر الجاهلي - شوقي ضيف ٢٢٦ .
(2) ديوان عنترة ١٤٢ .
(3) الفن ومذاهبه في الشعر العربي - شوقي ضيف ٤ .
(4) العصر الجاهلي - شوقي ضيف ٢٢٦ .
(5) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٧٣ .
(6) ديوان حسان - دار صادر ٢٥٥ .
(7) الأغاني/ ثقافة ٢٢/ ٧٠ .
(8) الروض الأنف - للسهيلي ١/ ١٢١ .

ويستخدم الشعراء أسلوب الاستفهام للإخبار عن بطولات ومعارك ، وكأنهم يريدون إيصال هذه الحقائق للناس ، وتثبيتها ، يقول أوس بن حجر التميمي يوم السؤبان :(١)

ألـم تر أن الله أنـزلَ مُزْنَةً وعُفْرُ الظباءِ في الكِنَـاس تَقَمَّعُ(٢)

ويقول عامر بن الطفيل يوم عكاظ : (٣)

ألسنا نقودُ الخيلَ قُبّاً عوابساً ونخضب يومَ الروعِ أسيافَنا دَمَا(٤)

ويقول ضرار الفهري مفتخراً بيوم عكاظ (٥) :

ألـم تسـأل الناس عنا شأننا ولـم يُثْبِتِ الأمـرِ كالخابِرِ(٦)

ويقول خداش بن زهير : (٧)

ألـم يبلغك مَنْ لقيتْ قريشٌ وحـيُّ بني كنانة إذ أُبيروا(٨)

وتوكيداً لما يقلون ويعلنون للناس ، فإنهم يستخدمون القسم أيضاً للتأكيد ، وحتى لا يكون أدنى مجال للشك في نفوس السامعين . يقول أوس بن حجر يوم السؤبان .

لعمرك ما آسى طُفيلُ بنُ مالكٍ بني عامرٍ إذ ثابتِ الخيلُ تَدَّعي(٩)

ويقول أُحَيْحَة بن الجُلاح أيضاً :

لعمـرُ أبيك ما يغنـي مكاني مـن الخُلَفاءِ آكلةً عَقولُ(١٠)

---

(١) ديوان اوس بن حجر ٥٧ .
(٢) تقمع : تطرد عنها القمعة وهو ذباب ازرق .
(٣) ديوان عامر بن الطفيل ١٢٨ .
(٤) الغب : من الخيل الضوامر البطون مفردها اقب .
(٥) الأغاني/ ثقافة ٢٢/ ٧٥ .
(٦) الخابر : العليم .
(٧) الأغاني/ ثقافة ٢٢/ ٧٢ .
(٨) أبيروا : اهلكوا .
(٩) ديوان اوس بن حجر ٦١ .
(١٠) الكامل لأبن الأثير ١/ ٦٦١ .

ويقول حسان بن ثابت أيضا :

لعمـر أبيكَ الخـير يا شَعْـثُ ما نبا   عليّ لساني في الخطوب ولا يدي[١]

ويقول حسان بن ثابت أيضاً:

لعمـر أبيك الخير بالحـق ما نبا   عليّ لساني في الخطوب ولا يدي[٢]

وكما استخدم شاعر الأيام القسم لتوكيد ما ينقل إلينا ، فانه استخدم أحياناً تكرار بعض الكلمات لتوكيد ما يقول ، كما استخدم تكرار أنصاف أبيات أو عبارات معينة لها دلالة في ذلك العصر . عندما أراد عبيد بن الأبرص أن يصور لنا الهلع الذي أصاب جموع كنده حينما أحاطبهم بنو أسد قال :

هلاّ سألت جموع كندة إذ تولوا : أين أينا[٣]

وقد فعل الشيء ذاته مهلهل بن ربيعة حينما أراد أن يحذر بكراً من الفرار لأنهم لا مفر لهم من بطشه :

يا لَبَـكر أنشروا لي كُليباً   بالبـكر أينَ أينَ الفِرارُ[٤]

وعندما أراد أن يؤكد منع القوم من نسائهم استعمل نفس الأسلوب في مطلع البيت فقال : [٥]

أبينا أبينا أن تَضيبَ لِثاتُكُمْ   على مرشفاتٍ كالظباءِ عَواطيا[٦]

أما ورود أنصاف أبيات مكررة في الشعر فشواهده أيضاً كثيرة ، منها ما قاله قيس بن زهير حينما ذكر مقتل مالك بن زهير : [٧]

أخـي والله خـير من أخيكم   إذا ما لم يجـد بطـلٌ مَقاما

---

(١) ديوان حسان بن ثابت ١٨٣ .
(٢) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٦٣ .
(٣) ديوان عبيد بن الأبرص ١٣٦ .
(٤) الأغاني/ كتب ٥/ ٥٩ .
(٥) ديوان عنترة ١٩٣ .
(٦) مرشفات : نساء طوال الأعناق ، تضب : تسيل ، عواطيا : التي تقوم على ارجلها وتقطف بأيديها ثمر الشجر .
(٧) النقائض ١/ ١٠٢ .

أخـي والله خير من أخيكم   إذا ما لم يجـد راعٍ مَساما[1]
أخـي والله خير من أخيكم   إذا الخَفِرات أبدينَ الخِداما[2]

وعندما عيرَّ النابغة بني عبس اغترابهم في بني عامر قال : [3]

فأصبحتـم والله يفعـل ذلكم   يَعِـزُّكُمُ مولى مواليكم حَجْلُ[4]
وأصبحتـم والله يفعـل ذاكم   .. النساءَ المرضعاتِ بنـو شكلُ[5]

ولسنا ندعي أن هذه الظاهرة ، أو هذا الأسلوب مقصور على شعر الأيام ، ولكنه أسلوب من أساليب طرقها الشعراء الجاهليون ولكن شاعر الأيام أكثر من اللجوء إليه لما له من أهمية في خدمة مهمة شاعر الأيام الذي يهدف إلى توكيد ما ينقل ، وإيصاله للناس ليتسامعوا به ، فيرتفع شأو القبيلة .

وحديث شعراء الأيام متصل بالحرب ، والحرب متصلة بالقتل والفناء والدمار ، ومتصلة بتغلب فريق على آخر ، لذا فقد كان طبيعياً أن يستعين الشاعر بما وصل إليه من أخبار التاريخ ، تاريخ الأقوام الذين سبقوه ، ووصلته أخبارهم من أصحاب الديانات السماوية كاليهود والنصارى ، أو من الأساطير التي يتناقلها الناس . فاختار من هذه الأخبار ما يعينه في توضيح الصورة التي ينقلها وتعميقها ، لتساعد في التأثير على السامع . أراد عامر بن الطفيل أن يصور لنا ما لاقت بنو عبد القيس من قومه بني عامر ، فلم يجد إلا مصير ثمود يضرب به المثل .

وعبـدُ القيس بالمرداء لاقتْ   صَباحاً مثلَ ما لقيتْ ثمودُ[6]

واستعان بثمود وإرم شاعر آخر ليصور مصير أعداء قومه ، وهو سَلَمة بن الحارث فقال :

حتـى تزورَ الضبـاعُ مَلْحَمَةً   كأنهـا من ثمـودَ أو إرَمَا[7]

---

(1) مساما : مرعى .
(2) الخفرات : الشديدات الحياء ، الخدام : الخلاخيل .
(3) ديوان النابغة ٢١٤ .
(4) حجل : من بني عامر ، يعزكم : يغلبكم .
(5) بنو شكل : بن كعب بن الحريش بن كعب بن ربيعة .
(6) ديوان عامر بن الطفيل ٤٩ .
(7) النقائض ١/ ٤٥٣ ، العقد الفريد ٥/ ٢٢٣ .

وأكثر الشعراء من ذكر ثمود في شعرهم ، فذكر سعد بن مالك البكري حين قال :

إنـا وإخوتنـا غداً كثمـود حِجْـرٍ يوم طاحوا[١]

وذكرها مُحْرِز بن المُكَعْبَر الضبي فقال :

فريقـان منهـم من أتـى البحـرُ دونه ومـودٍ كما أودت ثمـود وتبع[٢]

كما وردت إرم في شعرهم أيضاً ، وارم هي ذات العماد التي وردت في القرآن الكريم ، ويبدو أن لها ذكراً في الكتب السماوية الأخرى ، يقول رُشَيْد بن رُمَيْض العنزي

مَنْ يلقَني يودِ كما أُودتْ إرَمْ[٣]

واستخدمها الأغلب العجلي حينما تحدث عن يوم الزُّوَيْرَيْن فقال : [٤]

جاءوا بزُويرهُمُ وجئنا بالأَصَمّ شيخٌ لنا قد كان من عَهْـدِ إرَمْ[٥]

وقد ذكروا عاداً في شعرهم كرمز لقوم هلكوا ، فقال الأسود بن يَعْفر :

وأسبابُـه أهلكـنَ عاداً وأنزلتْ عزيزاً يُغَنَّى فوقَ غُرفَـةِ مُوكَل[٦]

وأخيراً نستطيع أن نلاحظ في شعر الأيام عامة أن الشاعر لم يكن يعنيه أن يتدرج في رسم أجزاء الصورة ، بل كان يقفز إلى اقتطاع جزء من المشهد ليكون أكثر وقعاً على النفس ، فربما رأى أن مشهد مصرع الفارس مفصلاً يخدم غرضه فيعرضه كنهاية لكل معتد على حماهم ، وأحياناً يرى أن منظر الفارس تنهش لحمه السباع يثير الجزع في نفوس الأعداء فيكتفي بإيراده ، ويعتقد أحياناً أن منظر السبايا أشد تأثيراً في النفس فيصورهن . وقد يقتصر الشاعر على وصف المنظر الخارجي للجيش مصوراً ضخامته وكثرة عدته وأسلحته ويرى أنها تبعث الرعب في نفوس الأعداء ، وقد يقفز من ذلك الى تصوير تشتت الأعداء وتقتيلهم دون أن يذكر تفاصيل ما

---

(١) الأغاني/ كتب ٥/ ٤٦ .
(٢) النقائض ٢/ ١٠٢٢ .
(٣) حماسة البحتري ١/ ١٩٨ .
(٤) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٠٦ ، العقد الفريد ٥/ ٢٠٦ .
(٥) زويرهم : بعيرهم . الأصم : رئيس بكر في هذا اليوم وهو عمر بن مسعود .
(٦) معجم البلدان ٤/ ٢٠٥ .

حدث . وقد عرضنا لبعض هذه المشاهد حينما درسنا أغراض الشعر ، ولن نستطيع الإطالة في ذلك ، لئلا يخرج البحث عن حجمه الطبيعي .

وخلاصة القول في الأسلوب أن الشعر الذي بين أيدينا يصور لنا شعراً ناضجاً يتسم بالرقي اللغوي ، الذي سبقته تجارب طويلة قبل أن يستوى على هذه الصورة . وأن الشاعر كان يعرف ما يهدف إليه ولم يكن ليأتيه ذلك عفوا دون قصد إليه ، بل كان يقصد إليه قصداً ، ليوصله إلى هدفه في التأثير .

الخيال والصور الفنية

ينبع الشعر من مصدرين ، من جبرية غامضة تكمن في اللاوعي ، ومن تنظيم صناعي تام الوعي . فهو عملية تختلط فيها الحياة باللغة ويتزاوج فيها المعنى والمبنى ، ويلعب فيها كل من التنقيح والطبع ودورهما[1] . فالشعر إذن صناعة معقدة تخضع لقواعد صارمة في دقتها بحيث لا ينحرف عنها صناع الشعر . ومن الخطأ الظن بأن الحياة الأدبية في العصر الجاهلي كانت ساذجة بسيطة ، ولعل في أسماء بعض الشعراء ما يوحي بذلك . فقد سمي بعضهم بمهلهل ، والمحبر ، والنابغة ، والمرقش ، وهي أسماء تصور مهارتهم[2] .

والشعر من غير المجاز يصبح كتلة جامدة ، وذلك لأن الصور المجازية جزء ضروري من الطاقة التي تمد الشعر بالحياة ، وأن أقدم نماذج الشعر العربي عامة لا تخلو من الخيال والتصوير ، ولكن ذلك لا يعني أن جميع الشعراء على درجة واحدة من الاهتمام به ، فقد يتخذ شكلاً بسيطاً عند بعضهم ، بينما يتعقد تعقداً شديداً عند الآخرين .

وجانبا الخيال : تحليل وتركيب ، لأنه تحصيل وإشباع ، ثم راحة وسكون ، ثم يأتي دور التفكيك حيث تبرز أثناءها العناصر التي ينحصر فيها الإلهام ، ثم يأتي أخيراً تركيب الصورة[3] . وارتباط الخيال بالواقع ضروري ، وإلاّ أصبح وهماً . فليس الخيال مجرد تصور أشياء غائبة عن الحس ، بل هو حدث معقد ذو عناصر كثيرة ، ويضيف إليه تجارب جديدة ، بل إن الشاعر يستطيع أن يحقق التوازن بين كيفيات متناقضة في ظاهرها .

---

(١) الشعر كيف نفهمه ونتذوقه ـ اليزابث درو ٢٥ .
(٢) الفن ومذاهبه في الشعر ـ شوقي ضيف ٢٢ .
(٣) الصورة الأدبية ـ مصطفى ناصف ١٣ .

وقد منحت البيئة الصحراوية الشاعر الجاهلي وضوحاً وبساطة في رؤياه الشاعرية وتصوره للأشياء ، وأضحت الأمور أمامه واضحة لا تعقيد فيها ، فهو لا يرد فشله ، أو نجاحه ، أو قوته ، أو فروسيته ، أو أي مظهر من مظاهر تتصل به ، أو بقبيلته إلاّ لعوامل يعرفها ويعرف مسبباتها . وقد سبب هذا كله وضوح الفكرة عند العربي وصفاءها ، فقصد في التعبير عنها إليها قصداً دون التواء أو غموض ، وفي أوجز عبارة ومن أقصر طريق ، فجاءت معانيه حسية واضحة - كما يقول الدكتور شوقي ضيف - لا غموض فيها أو أشراك ذهنية تضل في ممراتها وشعبها الفكرية[1] .

ولم يخرج الشاعر الجاهلي في تصوره وخياله إلى أبعد من حدود قبيلته أو الجزيرة العربية على أكثر تقدير ، ولم يتخيل إلاّ ما يراه حوله ، وما يراه ماثلاً أمامه ، كما أنه لم يستطع أن يتخيل صورة مركبة معقدة من عدة صور ، بل إن صوره وأخيلته بسيطة غير معقدة . ولا نجد سبباً لذلك إلاّ طبيعة الحياة القلقة التي كان يحياها ، والتي كانت ترتبط بالمادية ارتباطاً وثيقاً .

وإذا كان هذا الخيال المحدود قد اعتبره بعض النقاد عيباً ، فإنه كان خيراً على شعر الحرب ، فإن الشاعر الذي حرص على انتزاع صوره وأخيلته من واقعه المادي ، وإن كانت قد جعلته لا يتسع بمعانيه ، فإنها جعلته يتفنن في عرض الصورة الواحدة ، وأتاح للشعراء التدقيق في عرض الصورة الواحدة ، ومحاولة كشفها وجلائها ، والتفنن في عرضها ، وحرص كل شاعر على أن يضفي على الصورة شيئاً من شخصيته .

وسنحاول أن نعرض لصورة واحدة عند شعراء مختلفين لنرى كيف عرضها كل منهم ، وما الذي أضافه ، والصورة هي **صورة الفارس القتيل في ساحة القتال** : يقول عبيد بن الأبرص :[2]

قد أتركُ القِرْنَ مُصْفَرّاً أنامِلُه ... كأن أثوابَـه مُجَّـتْ بِفِرْصادِ[3]

وعندما عرض امرؤ القيس للقتل ركز الصورة على أرجلهم فهي قد أضحت كالخشب السابل بعد أن كانت صلبة قوية تحمل فارساً شجاعاً :[4]

---

(1) العصر الجاهلي - شوقي ضيف ٢٢٠ .
(2) ديوان عبيد بن الأبرص ٤٩ .
(3) القرن : المثيل في الشجاعة ، مجت : صبغت ، الفرصاد : التوت .
(4) ديوان امرؤ القيس ٢٥٨ .

نعلوهُـمُ بالبِيض مسنونةً حتـى يُرَوْا كالخُشُـبِ السابل[١]

واهتم ربيعة بن مقروم الضبي بعرض صورة أجساد القتلى ، وقد أصبحت متناثرة هنا وهناك في ساحة المعركة وكأنها الهشيم :

وأضْحَـتْ بتيمـنَ أجسادُهم يُشَبِّهُهـا مَنْ رآهـا الهَشيما[٢]

وحرص عامر بن الطفيل على التركيز على جثة الفارس وقد تعاورت لحمه السباع ، واقتسمته فيا بينها لتأكله :[٣]

لما رأيتُ رئيسَهُـم فتركتُهُ جَـزَرَ السِّبـاعِ كأنـه لَهِدُ[٤]

وعندما أرادت أم قيس أن تصور ابنها قتيلاً لم تشأ أن تتصور جثته ، وإنما تخيلت منزلته بين فرسانه وكأنهم نجوم سماء ، وهو هلالهم الذي افتقدوه .

إذا ما غدا فيها غدوا وكأنهم نجـومُ سماءٍ بينهـن هِلالُها[٥]

والقتل عند أوس بن حجر التميمي يوم زُبالة كأنهم نسور ولكنها سقيت السم بالسيوف فماتت، وكأن السيف سم ناقع يأكله الفارس فيموت:[٦]

وقَتْلَى بجَنْـبِ القُرْنَتَـيْـنِ كأنها نُسـورٌ سقاهـا بالدمـاءِ مُقَشِّبُ[٧]

وهم عنده في موضـع آخـر مثـل جذوع النخيل حين غشيهـا مطر غزير فاقتلعهـا من جذورها ، فهوت بعد أن كانت منتصبة شامخة[٨].

وقَتْلَى كمثْـلِ جذوعِ النخيلِ تَغَشَّاهُـمُ مُسْبِـلٌ مُنْهَمِرْ[٩]

---

(١) السابل: المطروح في الطريق ، مسنونة : محددة .
(٢) المفضلية رقم ٣٨ .
(٣) ديوان عامر بن الطفيل ٤٣ .
(٤) لهد : ورم .
(٥) الدر المنثور ٥٥ .
(٦) ديوان أوس بن حجر ٦ .
(٧) يقال قشبت للنسر : جعلت السم على اللحم فيأكله فيموت .
(٨) ديوان أوس بن حجر ٣٠ .
(٩) مسبل : مطر .

ويحلو لعنترة أن يتصور ذلك الفارس نضلة الذي قتله ورد بن حابس العبسي وقد تناوشته الرماح والهام وغادرته في المعركة ينزف دماً من مواضع الطعن الكثيرة في جسمه ، وكأنه محتطب يجر الأسنة خلفه فتترك آثار الدماء على الأرض :

وغـادرنَ نَضْلَـةَ فِي مَعْرَكٍ يجـرُّ الأسِنَّـةَ كالمُحْتَطِبْ[1]

ويعرض لنا عنترة صورة أخرى لفارس قتيل هو مسعود الكلبي وكأن فرسان عبس ورماحهم قد غادرت مسعوداً وكأن بنحره سبيبة مستطيلة من الثوب اليماني الرقيق الذي يشتمل على خطوط بيض ، وهذه الخطوط البيض هي الرماح التي تعاورته من فرسان عبس فأردته قتيلاً :

وغـادرنَ مسعـوداً كأن بنحره شقيقـةُ بُرْدٍ من يمـانٍ مُفَوَّفِ[2]

والقتيل في صورة ثالثة عند عنترة عليه سبائب من الدماء لونها كلون الأرجوان .

وقِـرْنٍ قد تركتُ لَدَى مكرٍّ عليه سبائبـاً كالأرجوانِ[3]

ولا يثير اهتمام قيس بن الخطيم إلاّ رؤوس الخزرجيين وقد تطايرت بفعل ضربات فرسان الأوس الموفقة كحبات الحنظل .

كأن رؤوسَ الخـزرجيين - إذ بَدَتْ كتائبُنا تترى مع الصبح - حَنْظَلُ[4]

وحرص شاعر الحماسة على ذكر أداة القتل قبل أن يصور لنا القتيل وكيف سقط كجذع النخل المشذب الذي يسقط بقوة دون ترنح أو تأخير مما يشير إلى شدة الضربة وتحكمها :

أقـولُ وسيفـي في مفـارق أغلبٍ وقد خرَّ كالجذع السحوق المُشَذَّبِ[5]

وعرض البراض الكناني قتله عروة الرحال في صورة مشابهة للصورة السابقة حين قال :

جمعتُ له يدي بنصـلٍ سيفي أفلَّ فخرَّ كالجذع الصريعِ[6]

ونكتفي بما عرضنا لصورة الفارس القتيل ، ولعلنا نلاحظ أن كل شاعر حرص على إضافة شيء أو التركيز على جزء من الصورة معتقداً أن هذا الجانب أشد تأثيراً في النفس ، كما نلاحظ أن

---

(١) ديوان عنترة ١٧ .
(٢) نفس المرجع ١٠٨ .
(٣) نفس المرجع ١٧٩ .
(٤) ديوان قيس بن الخطيم ٨١ .
(٥) حماسة أبي تمام شرح المرزوقي ٢/ ٦٩٠ .
(٦) الأغاني/ ثقافة ٢٢/ ٦٥ .

الشاعر الجاهلي في جميع هذه الصور ينزع منزعاً حسياً ، يجعله لا يتغلغل في خفايا الأنسانية ، ولا حتى في أعماق الأشياء الحسية ، كما أن الشاعر انتزع خيالاته وتشبيهاته من العالم المادي المحيط به . كما نلاحظ أن الشعراء حينما عرضوا هذه الصور لم يعرضوها جامدة ، بل بثوا فيها الحركة . ولاحظنا كذلك أن هذه الصور تتسم بالايجاز الذي يتلاءم مع الموضوع الذي يعرضونه وهو حرب وكر وفر وضرب رقاب .

ونستطيع أن نطمئن إلى هذا إذا تتبعنا صورة أخرى أو أكثر من الصور التي عرض لها شعراء الحرب ، فسنلاحظ قدراً مشتركاً وهو المعنى المشترك ، ثم نرى شاعراً يهتم بجزئية من الصورة ، ويضفي عليها شيئاً من شخصيته ، وظلالاً من نفسيته .

والتشبيه أكثر الصور دوراناً في شعر الأيام ، وهو حافل بضروب منها ، وهو شكل من أشكال الصنعة الفنية المبسطة . ويعمل الشاعر دائماً على تركيز أفكاره وأوصافها وتكثيفها ، ووسيلته إلى ذلك تشبيه شيء بآخر في صور جديدة ، أما باستعمال التشبيه العادي ووجه الشبه فيه ظاهر ، أو باستعمال الاستعارة ووجه الشبه فيها ضمني .

ويرى قدامة أن التشبيه من أشرف كلام العرب ، وفيه تكون الفطنة والبراعة عندهم ، وكلما كان المشبه منهم في تشبيهه ألطف كان بالشعر أعرف ، وكلما كان أسبق كان بالحذق أليق[1] .

وقد عد القدماء من العلماء التشبيه المصيب من أركان الشعر ، والتشبيه المصيب هو التشبيه الذي يزيد المعنى وضوحاً ويكسبه تأكيداً ، فقد أراد عامر بن الطفيل أن ينقل إلينا صورة التقاء جيش قومه بجيش الأعداء ، وكيف نفر الأعداء وتشردوا ، فلم يجد صورة ماثلة في ذهنه العربي أوضح من صورة الضأن وقد عاث فيها الذئب ، فأكد هزيمة الأعداء وفزعهم وتشتتهم وانتصار قومه :[2]

لقينا جمعهم صُبْحاً فكانوا كمثل الضأن عاداهن سِيدُ[3]

ويرى الدكتور شوقي ضيف أن التشبيه لا يحتاج بعداً في الخيال ولا عمقاً في التصوير ، وهو لون مفرد بل هو صبغ من أصباغ لون مفرد هو لون التصوير[4] . ولكن ذلك لا يعني أن

(1) نقد النثر ـ قدامة بن جعفر ٥٨ .
(2) ديوان عامر بن الطفيل ٥٠ .
(3) سيد : ذئب . عاداهن : من العدو .
(4) الفن ومذاهبه في الشعر ـ شوقي ضيف ١٤٥ ـ ١٥٢ .

صور التشبيهات متشابهة ، بل أنها تختلف في التعقيد والبساطة ، وتختلف أيضاً في العمق والسطحية من صورة لأخرى ، وربما تعددت أجزاء الصورة حتى استغرقت من القصيدة عدة أبيات .

ولكي يتضح ما نذهب اليه نعرض ثلاث صور لفكرة واحدة ، ونلاحظ الفرق بينها في السطحية والعمق ، وفي التعقيد والبساطة وفي اكتفاء بعضها ببيت واحد بينا احتاجت الأخرى أكثر من بيت شعر :

يقول بِشْر بن أبي خازم مصوراً الجيش[1] :

فإن أهلك عميرٌ فَرُبَّ زَحْفٍ   يشبه نَقْعُهُ عَدْواً ضَبابا[2]

وصوّر الأعشى الجيش فقال يوم ذي قار :

فصبَّحَهُمْ بالحِنو حِنو قُراقِرٍ   وذي قارها منها الجنودُ فقلت

على كل محْبوكِ السراةِ كأنَّهُ   عُقابٌ هَوَتْ من مَرْقَبٍ إذْ تَعلَّتِ[3]

وصوّر عمرو بن الأسود الجيش يوم ذي قار فقال :[4]

وكأنما أقدامُهم وأكفهم   كَرَبٌ تَساقَطَ من خليجٍ مُفْعَمِ[5]

والجمعُ من ذُهل كأن زهاءَهم   جُرْبُ الجمال يقودها ابنا قَشْعَمِ[6]

وتحدث الصمة الجشمي عن جيش قومه يوم الفجار فقال :

وجئنا إليهم كموجِ الأتيِّ   يعلو النِّجادَ ويملا المَسيلا[7]

فبشر بن أبي خازم يهدد الأعداء بجيش كثير العدد يثير غباراً يحجب الأنظار كما يحجب الضباب الرؤيا . وعندما أراد الأعشى أن يصور فرار جيوش الفرس الى السواد بعد هزيمتهم

---

(١) ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي ٢٧
(٢) الزحف : الجماعة يزحفون إلى العدة .
(٣) ديوان الأعشى ٢٦١ .
(٤) الأصمعية رقم ٢١
(٥) الكرب : أصول السعف الغلاظ التي تيبس فتصير مثل الكتف ، مفعم : مملؤ
(٦) زهاءهم : قدرهم أو شخوصهم .
(٧) الأغاني / كتب ١٠/ ٢٧ .

وتتبع بكر بفرسانها لهم تقتلهم ، وكان فرسان بكر يتتبعونهم على خيول محكمة الخلق ، وكأن هذه الخيول وعليها فرسان بكر وقد اندفعت صوب السواد تتعقب فلول المنهزمين مسرعة ، كأنها العقبان حين تنقض على فريستها من مرقبها العالي .

وحينا تحدث عمرو بن الأسود عن الجمع صور أقدامهم وأكفهم وكأنها أصول سعف غلاظ عراض وقد يبست فأصبحت مثل الكتف ، وسقطت في خليج مملوء، وصور الجمع من ذهل في كثرته وكأنه جمال جرب يقودها أبناء شعثم .

أما الصمة الجشمي فقد صور لنا جيش قومه حينا أتى لمحاربة كنانة في حروب الفجار ، فكان كالموج الضخم الصاخب في كثرة عدده وعدته وما يثيره حوله من نقع ، وأن هذا الجيش ليغطي كل مكان ، فهو لا يعجزه مكان من الوصول إليه ، يعلو النجاد ، ويملأ الأودية ، وقد أعطانا الصمة في هذا البيت فكرة واضحة عن قوة هذا الجيش الذي لا يقف دونه عائق ، وعن كثرة عدده بحيث يملأ كل الأمكنة والنجاد والسهول .

وربما اختار الشاعر الموج لما له في نفس العربي ، بدويّ الصحراء ، من رهبة ومن إحساس بالقوة والخوف منه .

وفي حالة ورود تشبيهات غريبة ومعقدة ، فإن الأمر لا يتعدى حدود الطبيعة والبيئة ولذا فإن الأمر يحتاج إلى جلاء غموض بعض المفردات والدلالة الحسية لها أو المعنوية ، ثم يحتاج الأمر إلى تمثل للبيئة الجاهلية ، وتتضح الصورة بعدها ، وتصبح سهلة واضحة .

يقول الفِنْد الزماني أحد فرسان وقادة حرب البسوس[1] :

لَقَيْتُ بهـا إذ كـرِهَ الشَّـكَّةَ أمثالي[2]
كَجَيْبِ الـدِّفْنِسِ الوَرهْا ء ريعت بعـدَ إجفالي[3]

فهذه صورة تبدو غامضة ولكنها ستتضح اذا عرفنا معاني المفردات الصعبة فيها ،وعرفنا مدلولاتها ، وتصبح الصورة أن الفند يريد أن يقول أنه تكلف بتلك الطعنة واحداثها فعل الغلمان ، وأبلى فيها بلاء الشبان وفي وقت كبر فيه وأصبح أمثاله من الشيوخ يكرهون حمل السلاح ، وشبه الطعنة . واتساعها وسرعة خروج الدم منها باتساع جيب المرأة الحمقاء ونزوها

(١) حماسة أبي تمام - شرح المرزوقي ٢/ ٥٤١ .
(٢) الشكة : ما يلبس من السلاح ، تغنيت : تكلفت .
(٣) الدفنس : المرأة ، الحمقاء ، الورهاء : المتساقطة العقل .

في ربوعها واضطرابها في متخرق قميصها . وخص جيب الورهاء لأن عادة مثلها أن تخرج اليد منه ، فيتسع خرقه ، وجعلها مروعة لتندفع في الإجفال وتنزو .

ولا تخلو بعض الصور والتشبيهات من الغموض كهذه الصورة التي عرضها قيس بن الخطيم[1] :

فلا تجعلوا حَرْبَاتِكم في نحوركم كما شَدَّ ألواحَ الرِّتاجِ المَسامِرُ[2]

ولا يقصد الشاعر من التشبيه مجرد التسجيل البارد لوجوه الشبه المادية مهما يكن من دقتها ، بل هو يستعين به لنقل عاطفة الى السامع في تمام قوتها وحرارتها ، فعندما شبه لنا عَلْقَاء ابن الحارث بن آكل المرار وقد هجر جنبه الفراش بسبب ما يعاني من همومٍ تمثل تجافي العَيْرِ الذي به ورم في جوفه يسبب له ألماً ، لم يهدف إلى نقل تشبيه شيء ، بل حمل لنا مع التشبيه عاطفته الحزينة لمصرع أخيه شرحبيل[3] .

إنَّ جَنْبِي عن الفراشِ لَنابٍ كتجافي الأَسَرِّ فوقَ الظِّرابِ[4]

وفي يوم الكَديد قتل ربيعة بن مكدم فارس كنانة ، وأعجب به كثير من الفرسان حياً وميتاً ، ولنسمع دريد بن الصمة يتحدث عنه فيقول :

متهلِّلاً تبدو أَسِرَّةُ وجهِهِ مثلَ الحُسامِ جَلَتْهُ أيدي الصيقلِ
وترى الفوارسَ من مخافةِ رُمحِهِ مثلَ البُغاثِ خَشِينَ وَقْعَ الأجْدَلِ[5]

ولا شك أن أي قارىء لهذا الشعر يحس بأن دريد بن الصمة يكِنُّ احتراماً وإعجاباً بهذا الفارس ، وأن هذه العاطفة وصلتنا عبر ذلك التشبيه الذي صور به شجاعته وخوف الفرسان منه .

والتشبيهات التي ترد في شعر الحرب والأيام كثيرة ، وقد احتاج اليها الشعراء لتقريب الصور التي ينقلونها للناس ، وإذا ما فحصنا تلك التشبيهات على كثرتها نرى أن الصورة البصرية فيها تشكل غالبية تلك التشبيهات . وسبب ذلك أن الشاعر إنما ينقل صوراً من بيئته ،

(1) ديوان قيس ابن الخطيم ١٤٦ .
(2) الرتاج : الباب الكبير يكون عليه باب صغير ، المسامر : المسامير .
(3) الوحشيات ١٣٣ .
(4) الأسر : الرجل المطعون في سرّته .
(5) الأغاني / كتب ١٦/ ٥٦ ـ ٦٤ .

يراها بعينه ، وينقلها لأناس يستطيعون أن يروها بعيونهم ، وما يرى بالعين بين البيئة لا يحتاج الى تحليل . ويلي الصورة البصرية الصورة الذوقية ، ثم السمعية .

ويمكننا أن نتبين من خلال التشبيهات التي عرضها شاعر الأيام أنه استخدم التشبيه لتحقيق واحد من الأهداف التالية أو أكثر من هدف في آن واحد . أولها وأهمها **البيان والتوضيح** ، فقد استغل الشاعر التشبيه ليزيل به اللبس والغموض عن المعنى ، وليجلوه للأنظار ، ويقربه إلى الأذهان . وعندما أحب قيس بن زهير تصوير العلاقة بين عبس وذبيان ، وما وصلت إليه الحال بينهم من العداوة[1] .

فقد جعلتْ أكبادُنا تجتويكُمُ كما يجْتَوي سُوقُ العِضاه الكَرازِنا[2]

تدُرّونَنا بالمُنْكَرات كأنما تَدُرّونَ وِلدانا تَرَمَّى الرهادِنا[3]

وثاني هذه الأهداف التي يحققها التشبيه **المبالغة** ، والمبالغة أمر بالغ الأهمية لشاعر ناطق بلسان قومه ، مصوراً نصراً أصابوه على أعدائهم ، أو مهدداً خصوماً بجيش جرار يأتيهم ، أو مصوراً بطولته في المعارك ليخيف الأعداء .

تحدث الصمة عن جيش قومه الذي غزوا به الأعداء فشبهه بموج البحر العالي الذي لا يحول مكان أو قوم دون أن يعلوهم :

وجئْنا إليهم كَموجِ الأتيِّ يعلو النِّجادَ ويَملا المَسيلا[4]

وقد أكثر الشعراء من تشبيه الجيش الكثير العدد بالموج تصويراً لقوته التي لا تغلب وكثرة عدده ، ولما كان البحر من هيبته في نفوس العرب في ذلك الحين ، تقول دُرَّة بنت أبي لهب عن جيش قومها في حروب الفجار :

مَلْمومةً خَرْساءَ تحسَبُها لمّا بَدَتْ موجاً من البَحْرِ[5]

وشبهوا كثرة الجيش بالقطا أيضاً ، لما كان له من دلالة على الكثرة في ذلك العصر يقول قيس بن الخطيم[6] :

---

(١) أمثال الضبي ٣٨ ، النقائض ١/ ١٠٠ .

(٢) تجتويكم : اجتوى نزع الى وطنه وكره المكان الذي هو فيه ، العضاه : كل شجر له شوك ، الكرازن : جمع كراز وهي القارورة .

(٣) تدروننا : تختلوننا .

(٤) الوحشيات لأبي تمام ٦٦ .

(٥) ديوان قيس بن الحطيم ٧٢ .

وأقبلتْ من أرضِ الحجازِ بِجَلْبَةٍ   تَغُمُّ الفضاءَ كالقَطا المُتَبدِّدِ[1]

وثالث هذه الأهداف التي يحققها التشبيه **التوكيد** ، لأن من شأن التشبيه تقرير شكل المشبه في الذهن ، وتعميق معناه ، والإلحاح عليه بالتثبيت ، وبالتالي فهو يرسم له صورة بارزة المعالم في ذهن السامع ، وبذلك يحقق شاعر الأيام هدفه وهو أن تثبت الحقيقة التي يقررها في نفوس السامعين وأذهانهم . لقد صور باعث بن صُرَيْم اليشكري كتيبة من فرسان قومه فنعتها بأن فرسانها بواسل عند اللقاء وسفع الوجوه ، ولكي يؤكد هذه الصورة ، ويوضحها للسامع رسم صورة ثانية لهم بأنهم كالأُسْد حينا تقف بشجاعة واستماتة للدفاع عن أشبالها ، ولأنها بذلك إنما تضيف ضراوة إلى ضراوتها وشجاعتها الأصلية .

وكتيبةٍ سُفْعِ الوجوهِ بواسلٍ   كالأُسْدِ حين تَذُبُّ عن أشبالِها[2]

وقد أكثر الشعراء من تشبيه الفرسان بالأسد لما عرف عن الأسد من شجاعة وقوة يقول حاجب المازني يوم السُلّيِّ :

عُتَاةٌ قُراةٌ في الشتاءِ مَساعِرٌ   حُماةٌ كُماةٌ كالليوثِ الضراغِمِ[3]

ويرسم لنا شاعر آخر قَتادة بن مَسْلَمةَ الحَنَفي صورة لفرسان وقد لبسوا دروعهم ، ويجب أن يؤكد لنا الصورة لتستقر في نفوسنا ، ولنعلم بأن أولئك الفرسان وهم في البيض والحلق المصقولة الجديدة كأنهم النجوم اللامعة المتلألئة[4] .

قومٌ إذا لَبِسوا الحديدَ كأنهم   في البيضِ والحَلَقِ الدِّلاصِ نُجومُ[5]

ورابع هذه الأهداف **الإيجاز والاختصار** ، والإيجاز من أبرز ما كان يهدف إليه شاعر الحرب ، لأنه يريد اتصال الصورة بأبسط صورة لها وبأوجز عبارة ، فلا أهمية للإطالة عنده لأن هدفه الأساسي الدعاية لقومه ولفرسانه ، ولا يلجأ إلى الإطالة إلا إذا كانت تحقق له شيئاً . أراد شدّاد العبسي أن يصور لنا ملازمته لظهر فرسه جروة ، وذلك دليل على أنه فارس حربٍ لا يكل ولا يستكين ، فصور لنا كل ذلك بعبارة موجزة فقال[6] :

(١) حلبة : جماعة من الخيل ، المتبدد : المتفرق ، الفضاء : موضع بالمدينة لبني خطمه .
(٢) حماسة أبي تمام - شرح المرزوقي ٢/ ٥٣٦ .
(٣) العقد الفريد ٥/ ٢٠٢ .
(٤) حماسة أبي تمام ٢/ ٧٧٠ .
(٥) الدلاص : اللينة الملساء ، الحلق : الدروع .
(٦) العقد الفريد ٥/ ١٥٦ .

فمن يك سائلاً عنـي فإنِّي وجِرْوَةَ كالشَّجا تحتَ الوَريدِ[1]

وتحدث الفِنْد الزماني عن الطعان في القتال، وقوته وأثره، وكيف يسيل الدم غزيراً من موضع الطعنة، فقال ذلك في أوجز عبارة تاركاً لنا تخيل كل ما يريد أن يعبر عنه:

وطعـن كفـم الزِّق غـدا والـزِّقُ مَلآنُ[2]

ولعل هذه الصورة التي رسمها قيس بن الخطيم لرؤوس الخزرجيين حينما بدت كتائب الأوس، من أكثر الصور إيجازاً، إذ اختصر الشاعر الصورة ولم يذكر منها إلا كتائب الأوس ورؤوس الأعداء من الخزرج، أما اللقاء والقتال، وما الـذي جعـل الـرؤوس تنفصـل عن أجسادهم فذلك ما لم يذكره وتركه لخيال السامع:

كأن رؤوسَ الخزرجيـن إذ بدتْ كتائبُنا تَتْرَى مع الصبح حَنْظَلُ[3]

ونستطيع أن نخمن - استناداً إلى ما جمعنا من شعر - أن أكثر عناصر الحرب التي استأثرت بتشبيهات الشعراء، هو **الفارس**، دعامة الحرب الأساسية، فقد عرض له الشاعر وهو يقاتل، ثم وهو صريع، ثم وهو مُوَلِّ الأدبار، ثم وهو جريح. وثاني الصور التي اهتم بها الشاعر هي صورة **الجيش**، وتليها **الخيول** ثم **أدوات القتال** التي كانت معروفة في ذلك الوقت وهي السيف والرمح والدرع. ولم يهمل الشاعر تصوير **اللقاء** بين المتقاتلين، **والطعنة** التي كان يسددها الفارس إلى صدر خصمه أو نحره، كما اهتم بتصوير **السبايا**.

ويستطيع الدارس الفاحص لهـذه التشبيهـات أن يخـرج منهـا بصـورة واضحـة للبيئـة الجاهلية، لأن الشاعر استعان بمواد تلك البيئة لتكوين تلك التشبيهات وصبغها بألوان مختلفة من تلك البيئة.

وإذا ما انتقلنا إلى شكل آخر من أشكال الصورة، وهي **الإستعارة**، نلاحظ أنها واردة في شعر الأيام ولكن ليس بالقدر الذي استعمل فيه التشبيه. ولعل السبب يكمن في طبيعة الاستعارة نفسها، فهي تحتاج إلى أناة وجهد، وتتطلب من صاحبها الدقة في الفكر والجهد في الصياغة. والاستعارة تعتمد على ما في الكلمة من حمل أو خصب كامن[4]. وحينها تستخدم الكلمة

(1) الشجا: ما اعترض ونشب في الحلق من عظم ونحوه.
(2) حماسة أبي تمام - شرح المرزوقي ١/٣٧.
(3) ديوان قيس بن الخطيم ٨٢.
(4) الصورة الأدبية - مصطفى ناصف ١٣٥.

استخداماً مجازياً فإنها تكتسب قوة لم تكن فيها قبل هذا الاستخدام المجازي . وفي الإستعارة نضطر إلى التعبير عن إدراكات غير حسية باصطلاحات وحدود حسية ، وبمعنى آخر تصور العواطف والانفعالات بأشياء من العالم المادي .

حينا أراد الشاعر الجاهلي بشر بن أبي خازم الأسدي أن يصور اشتعال الحرب بين حين ، والحرب كلمة ذات مدلول معنوي ، وعواطف الناس نحوها أيضاً معنوية ، ولذا فإن الشاعر لم يجد بدا من تصويرها بوحش كاسر يفترس الناس وعندما يبدأ افتراسه فإنه يبدي ناجذيه . وبهذا فإن الصورة تتضح للسامع لأنه قادر على تصوير الوحش المفترس :

إذا ما الحربُ أبدتْ ناجذَيْها غداةَ الروعِ والتقتِ الجُموعُ(١)

والحَيْنُ لا يستطيع الإنسان تصوره إلا عندما ينقله شاعر لنا في صورة شخص له القدرة على سَوْق الناس ، وهذا ما فعله البَراء الكندي حينا قال يوم الكُلاب الثاني :

يومَ جئنا يسوقنا الحَيْنُ سَوْقاً نحو قومٍ كأنهم أُسْدُ غابِ(٢)

والحرب تقطع الوشائج والأرحام بين ذوي القربى ، وحتى يوصل زهير بن سلمى هذه الصورة على بشاعتها للناس حتى ينفروا من الحرب ولا يعودوا إليها ،وحتى يقدروا عمل ساعيي غيظ بن مرة اللذين سعيا في الصلح بين عبس وذبيان فقال :

سعـى ساعيا غيظِ بن مرةَ بعدما تَبَـزَّلَ ما بـين العشيرة بالدمِ (٣)

ويحلو لشاعر آخر أن يصور تلك الوشائج وكأنها حبال ، فعندما اختلف الحيان وتحاربا تقطعت هذه الحبال بالسيوف التي رفعت في ساحة الوغى يقول أنيف النبهاني مصوراً ذلك :

ولما عضبنا بالسيوفِ تَقَطَّعَتْ وسائـلُ كانـتْ قبـلُ سِلْماً حِبالُها(٤)

وأكثر الصور دوراناً في شعر الأيام ، على الرغم من قلتها بالقياس إلى التشبيه ، صورة الحرب ، فهي وحش يكشر عن أسنانه ، وهي شر ، وهي تكشف عن ساقها ، وهي تبدي أسنانها ، وهي تلقح وتنتج ، ويتصل بالحرب الموت الذي تجلبه الحرب كما يتصل بها وشائج القربى وصلاتها ، فالحرب تقطع هذه الوشائج .

---

(١) ديوان بشر بن أبي خازم ١٣٤ .
(٢) الأغاني/ كتب ١٦/ ٣٣٩ .
(٣) شرح القصائد السبع الطوال ٢٥٢ .
(٤) حماسة أبي تمام شرح المرزوقي ١/ ١٧٣ .

وتكون الاستعارة أكثر عمقاً في الشعر حين تلتئم الفكرة أو العاطفة مع الصورة الحسية ، وتحتاج إلى صناعة متأنية ، ولذا فإنها تكثر في شعر مدرسة الصنعة ، ولكنها أقل دوراناً في أشعارهم من التشبيه . ولعل هذه الصورة التي عرضها زهير للحرب في معلقته من أعمق صور الاستعارة وأكثرها تعقيداً ، وإغراباً في التصوير :

متـى تبعثوهـا تبعثوهـا ذميمة ... وتضر إذا ضريتموهـا فتضرم
فتعـرككم عرك الرحـى بثفالها ... وتلقـح كشافـاً ثم تنتـج فتتئم
فتنتـج لكم غلمان أشـأم كلهم ... كأحمـر عاد ثم ترضـع فتفطم
فتغلل لكم ما لا تغـل لأهلها ... قرى بالعـراق من قفيز ودرهم(١)

وهي أبيات ترسم صورة بشعة للحرب وما تحدثه من آثار سيئة لا يقتصر ضررها على جيل واحد ، ولكن ضررها يمتد إلى الأجيال التالية ، وقد ساعد زهيراً على رسم الصورة ، ما شاهده بنفسه من ويلات تلك الحرب ، وقدرة على النظم واختيار المناسب من الألفاظ ، والإناة التي كان معروفاً بها ، فهو من أصحاب الحوليات .

وضم شعر الأيام من الصور البيانية **الكنايات** ، والكناية تعتمد على التركيز والإيجاز ، والإيجاز من أبرز خصائص شعر الأيام ، لذا فإنه لم يعدم كنايات بارعة ترد بين الحين والحين . فحينما أراد بشر بن أبي خازم أن يصور هرب بني عامر أمام فرسان بني أسد قال إنهم كانوا كالنعام ، والنعام سريع الجري حين يحس بالخطر :

فأمـا بنـو عامـرٍ بالنسار ... غـداةَ لقونـا فكانـوا نَعاما(٢)

وأراد أن يصور قتل سيد القوم الذي يسمو إلى المجد ، كما تأوي إليه الأرامل في الشتاء طلباً للعون فقال دون أن يذكره :

قَتَلْنا الـذي يسمـو إلى المجـدِ منهم ... وتـأوي إليه في الشتـاءِ الأراملُ(٣)

وأراد عبيد بن الأبرص تذكير امرىء القيس ببني أسد وشجاعتهم وكثرة عددهم ومكانتهم بين القبائل فقال :

اذهـب إليك فإنني من بنـي أسد ... أهلِ القِبابِ وأهلِ الجُرْدِ والنـادي(٤)

---

(١) شرح القصائد السبع الطوال ٢٦٧ وما بعدها .
(٢) ديوان بشر بن أبي خازم ١٩٠ .
(٣) ديوان بشر ١٧٦ .
(٤) ديوان عبيد بن الأبرص ٤٩ .

وأراد عنترة أن يسخر من بني مرة فيعيرهم بجبنهم وبأنهم يفرون من المعارك فتصيب الطعنات في ظهورهم وأكتافهم فقال :

إن الكريم ندوبه في وجهه ونـدوبُ مُرَّةَ لا تُرى في المَنْحرِ
لـكنّ في أكتافهم وظهورهم فبذاكَ فافخرْ بئسَ ذاكَ المَفْخَرُ[1]

وهكذا نرى أن شاعر الأيام لم يهمل الاعتناء بصوره ، ولكنه لم يجعلها هدفاً بل وسيلة لنقل ما يعتمل في نفسه من أحاسيس ، ولا نستطيع إنكار أنه يعمد إلى تشبيهات فيختارها لتمكنه من تقريب الصورة ، أو تجسيمها ، أو ليهول من شأنها يفعل كل ذلك من أجل خدمة الغرض الذي من أجله نظم شعره .

ولكن ذلك الخيال الذي نراه في شعر الأيام خاصة ، والشعر الجاهلي عامة لم يكن من نمط الخيال الابتكاري ، أو المركب ، بل كان حسياً بسيطاً مرتبطاً بالواقع ، وصوره منتزعة من بيئته في شبه الجزيرة المترامية الأطراف ، فقوة الفارس تشبه قوة الأسد أو أي وحش ضار يخشاه ذلك العربي في صحرائه ، وقد ربط النقاد بين هذا النوع من الخيال وعدم وجود شعر ملحمي في الشعر الجاهلي ، لأن الشعر الملحمي يتطلب خيالاً خصباً لا حدود له ، وهذا ما لا نجده في شعر الأيام .

الأوزان والقوافي

ليس بين أيدينا من الأدلة المادية التي تعيننا على تصور طفولة الشعر الجاهلي ، وكل ما عرضه الباحثون من آراء إنما هي آراء تعتمد على الحدس والتخمين ، ومع ذلك فإننا نستطيع أن نقول أن الشعر الجاهلي في أقدم صوره التي وصلتنا والمتمثلة في شعر امرىء القيس وخاله مهلهل ، وهو شعر مكتمل الوزن ، خاضع للأوزان التي وضعها العلماء للشعر الجاهلي عامة .
فإذا ما عرفنا أن التطور في الأوزان يسير بطيئاً لأن ألفة الوزن وشيوعه في البيئة اللغوية يتطلب زمناً طويلاً وإنتاجاً شعرياً كثيراً حتى تستسيغه الأذن .

ومعنى هذا أن الشعر العربي مر قبل أوائل الشعراء الذين وصلنا شعرهم ، بمراحل عديدة تعرض أثناءها للتنقيح والتطور حتى وصل إلى درجة عالية من القوة الفنية إلى أن تهيأت البيئة العربية لمولد الوحدة الموسيقية .

(١) ديوان عنترة ١٩٩ .

ويتفق بروكلمان وجورجي زيدان على أن العرب بدأوا بالسجع بلا وزن ، ثم تطور النظم فنظموا بالرجز ، الذي يعتبر أقدم أوزان الشعر ، وهو يتفق مع السجع بانفراد كل بيت بقافية ، ويختلف عنه بأنه موزون ، ثم وضعوا الأوزان والبحور حسب الحاجة ، وجعلوا كلاً منها لحال من الأحوال . ويرى الباحثان أنهم كانوا ينظمون أولاً المقاطع الصغيرة حتى إذا تحركت نفوس العرب بالحروب بعد استقلالها من اليمن ، وظهر فيها الأبطال والفرسان احتاجوا إلى الشعر فأطالوا فيه[1] .

ويتفق هذا الرأي مع ما ذهب إليه الباحثون في الأدب العربي دون تخيل لما كان عليه الشعر العربي قبل أن يستقر على الحالة التي وصلتنا ، لأن كل ما يمكن قوله في هذا المجال هو مجرد حدس أو تخمين .

ويقول الدكتور شوقي ضيف « ولعل موسيقى شعر لم تنتظم نسبها وتتكامل كما تكاملت وانتظمت في شعرنا العربي منذ أقدم عصوره ، إذ تتساوى الحركات والسكنات في كل بيت من القصيدة ملتقية دائماً عند قافية توثق وحدة النغم وتتيح الفرصة للوقوف عند أي بيت وترديده على السمع » ثم يضيف « إن هذا التكامل والانتظام إنما جاءا من تعانق تلحين الغناء وحركات الرقص وضرباته في شعرنا مع نشأته ، مما جعله يستوفي النغم الطوال والقصار ومواقع النبرات والنقرات ويتمسك بقرار القافية الثابت »[2] .

وإذا استثنينا الرجز من شعر الأيام ، فإننا نلاحظ أن الشعراء لم يستخدموا الأوزان القصار إلا نادراً ، ويعلل الدكتور شوقي ضيف هذه الظاهرة بأنه « كان يميل في تغنيه إلى الرصانة والوقار »[3] .

ونستطيع - استناداً إلى تحليل لأوزان حوالي ستمائة قصيدة ومقطوعة من شعر الأيام - أن نرتب البحور التي استعملها شعراء الأيام على النحو التالي :

الطويل ، الوافر ، الكامل ، البسيط ، الرجز ، المتقارب ، السريع ، الخفيف ، الرمل ، الهزج . وكان نصيب البحر الطويل منها حوالي ثلث هذه القصائد ، وتلاه الوافر فنظموا عليه خمس هذه القصائد . وحتى تتضح الصورة التي نعرضها فإننا لم نأخذ في اعتبارنا عدد

---

(1) تاريخ آداب اللغة العربية - زيدان ١/ ٦٤ - ٦٧ ، تاريخ الأدب العربي - بروكلمان ١/ ٥١ .
(2) مجلة المجلة مارس ١٩٦٥ ص ٤ .
(3) مجلة المجلة مارس ١٩٦٥ ص ٦ .

أبيات القصيدة أو المقطوعة ، لأننا لا نجزم بأن المقطوعة هي في الأصل مقطوعة ، أو أنها فقدت بعض أجزائها قبل أن تصل إلى أيدينا .

ومن المشكلات التي أثارت اهتمام الباحثين فيما يتعلق بأوزان الشعر ، صلة الأوزان بالمعاني . تقول الباحثة اليزابت درو « الجرس يجب أن يكوّن صدى للمعنى[1] » وترى « أن الوزن سيظل دائماً خاضعاً للمعنى الذي قصد إليه الشاعر ، وللألوان الزخرفة المختلفة التي يتطلبها الفكر والإحساس »[2] . وربط الغربيون بين وزن الشعر وبين نبضات القلب ، وهم يرون صلة وثيقة بين نبضة القلب وما يقوم به الجهاز الصوتي ، وقدرته على النطق بعدد من المقاطع . وتزداد نبضات القلب كثيراً مع الانفعالات النفسية ، تلك الانفعالات التي قد يتعرض لها الشاعر في أثناء نظمه . ولذلك عقد الباحثون الصلة بين عاطفة الشاعر وما يتخيره من أوزان الشعر .

وإذا ما رجعنا إلى الشعر الذي ندرسه وسألنا أنفسنا : هل كان الشعراء يتخيرون لشعرهم من الأوزان ما يلائم عاطفتهم ؟ ويجيب على هذا التساؤل ثلاثة من الباحثين المحدثين . أما جورجي زيدان[3] فيرى أن كل بحر له غرض يلائمه فالطويل يوافق الحماسة ، والوافر يوافق الفخر . بينما يرفض الدكتور شوقي ضيف هذا الرأي[4]. أما الأستاذ إبراهيم أنيس فقال : « قد يكون من العسير الإجابة على مثل هذا التساؤل إجابة مقنعة[5] » .

وقبل أن نحاول تحليل الأوزان المستعملة في شعر الأيام وتعليلها ، نود أن نقرر أن القصيدة الواحدة تشتمل على أكثر من غرض ، وبالتالي فإننا لا نستطيع أن نقرر الغرض الذي لاءمه الوزن . والمقطوعات هي التي يمكن إجراء مثل تلك الدراسة عليها لو ضمنا أن تكون مقطوعات في الأصل .

وقد أثار بعض الباحثين وجود صلة بين عاطفة الشاعر وما يتخيره من أوزان الشعر ، ولكن الدكتور إبراهيم أنيس يرد على هذا الرأي بأنه « قد يكون من المغالاة تصور إشتراك الشعراء في العاطفة لمجرد اشتراكهم في موضوع الشعر ، فالحالة النفسية للخنساء حين كانت ترثي أخاها غير الحالة النفسية التي تملكت أصحاب المراثي غيرها ، فشعر الشاعر إذن وإن توقف إلى

---

(١) الشعر كيف نفهمه ونتذوقه ـ اليزابيت درو ٤٩ .
(٢) نفس المرجع ٥١ .
(٣) تاريخ آداب اللغة العربية ـ زيدان ٦٦ .
(٤) نفس المرجع السابق ـ حاشية ص ٦٧ .
(٥) موسيقى الشعر ـ إبراهيم أنيس ١٧٦ .

حد ما على موضوع الشعر يختلف باختلاف الشعراء ، واختلاف تأثرهم بعوامل أخرى لا تحصى»[1] .

ومما يزيد الأمر تعقيداً أننا لا نملك تحديداً دقيقاً للوقت الذي تظم فيه الشاعر النص ، فإذا طالعنا نص شعري يرثي فيه الشاعر فارساً من فرسان قبيلته ، فإننا في الغالب لا نملك تحديد زمن الرثاء ، هل كان وقت المصاب ؟ أم بعد أن هدأت ثورة الفزع وشدة الانفعال والحزن ؟

قد يقول البعض أن الشعر الذي يقال وقت المصاب يكون متأثراً بالانفعال النفسي ولذا فإنه يتطلب بحراً قصيراً يتلاءم وسرعة التنفس ويكون في صورة مقطوعة قصيرة لا تزيد عن عشرة أبيات . ولكن هذا القول يحتاج إلى التثبت من أمرين : الأول تعيين وقت نظم النص ، والثاني : التثبت من أن المقطوعة التي بين أيدينا هي مقطوعة أصلية وليست منتزعة من قصيدة طويلة .

ونعتقد أن كلا الأمرين ليس هيناً . وقد يتحقق القصر في معظم النصوص التي قلت في الرثاء في حرب داحس ، ومع ذلك فإن بعضها قيل وقت الانفعال والتأثر وبعضها ، بعده بقليل . ومع ذلك فكلها من حيث العدد يدخل في عداد المقطوعات وإذا تأملنا البحور التي نظمت عليها وجدناها من البحور الطويلة فبم نفسر هذا؟

لقد اخترنا ثمانين نصاً بين مقطوعة وقصيدة تشترك في موضوع واحد تقريباً هو الحماسة وحديث المعارك ، وهما موضوعان متداخلان ، ومتقاربان فالشاعر حينا يفتخر فإنه يذكر معاركه ومعارك قومه ويتحدث عنها . فكانت النتيجة أن البحر الوافر جاء في مقدمة البحور ، وقد فاز بنسبة عالية حيث خص بست وعشرين قطعة ، وتلاه الطويل وخص بخمس وعشرين ، ووزعت القصائد الباقية على البحور التالية مرتبة حسب وفرة نصيبها :

المتقارب ـ البسيط ـ الرجز ـ الكامل ـ الرمل .

وعندما أجرينا تجربة مماثلة على قصائد في الرثاء كان ترتيب البحور على النحو التالي : الطويل ـ الوافر ـ الكامل ـ البسيط ـ المتقارب .

وسنحاول أن نثبت في نهاية هذه الدراسة جداول إحصائية تشمل جميع شعر الأيام تبين أوزان كل غرض شعري وقافيته كمحاولة أولية لاستنباط أي رابط أو علاقة بين الوزن

(1) موسيقى الشعر ـ الدكتور إبراهيم أنيس ١٧٧ .

والموضوع . لأن هذه الدراسة الأولية التي أجريناها على عدد محدود من القصائد جاءت بنتائج تختلف من موضوع لآخر فيا يتعلق ببحور الشعر .

وسنحاول الآن أن نذكر خصائص أهم بحور الشعر ، والتي استأثرت بغالبية قصائد شعر الأيام ، وهي الطويل ، والوافر ، والكامل ، والبسيط ، والمتقارب ، والخفيف . **فالطويل** وجدنا أنه يصلح لغالبية عظمى من الموضوعات والأغراض ، وهو أكثر البحور صلاحاً لتلك التي تتعلق بالحروب ، وقد وجدنا أنه جاء في المرتبة الأولى في قصائد ومقطوعات الرثاء ، كما تساوي تقريباً مع الوافر في شعر الحماسة والمعارك . وقد وجدنا أنه نظم عليه ما يقرب من ثلث قصائد الأيام . والبحر الطويل تناسبه الأغراض الجليلة الشأن ، كمواقف المفاخرة والمهاجاة والرثاء ، وذلك لكثرة مقاطعه . ويرى الدكتور النويهي أنه « بإيقاعه البطيء الهادىء يلائم العاطفة المعتدلة الممتزجة بقدر من التفكير والتأمل سواء أكانت حزناً هادئاً لا صراخ فيه أم سروراً هادئاً لا صخب فيه[1] » ولكننا كما بينا فإننا لا نستطيع تحديد درجة الانفعال ولا زمن النص ، ومع ذلك فلو تتبعنا القصائد التي نظمت على هذا الوزن فإن النتيجة لن تكون مطابقة تماماً لما ذهب إليه الدكتور النويهي ، فليس من المعقول أن ترثي ابنةٌ أباها وتكون هادئة الانفعال ، فسلمى بنت مالك بن بدر عندما رثت أباها الذي قتلته عبس يوم المعنقة ، نظمت شعرها على هذا البحر فقالت مقطوعة مطلعها :

فللـــه عينـا من رأى مالك   عقــيرةَ قومٍ أن جرى فرسان[2]

كما أننا لا نعتقد أن درجة انفعال عامر بن الطفيل في يوم فيف الريح وهو يوم فقئت فيه عينه ، لا نعتقد أنها ستكون هادئة ، ولا نميل إلى أن حديثه سيكون متسماً بالتأمل والتفكير الهادىء ، ونحن نعلم أمرين من ذلك اليوم الأول :

إن عين الشاعر الفارس قد فقئت ، والثاني أنهم هزموا جموع اليمن ، والنصر يرتبط بالزهو والتباهي والانفعال :

لقد علمتْ عُلْيا هوازنَ أنني   أنا الفارسُ الحامي حقيقة جعفرِ[3]

ومع كل هذه الظروف التي نعلمها فقد جاءت قصيدته من الوزن الطويل ومطلعها :

وكنتُ إذا ما بابُ مَلْكٍ قرعتُه   قرعتُ بآباء أولي شرفٍ ضخْمِ[4]

(1) دراسة الشعر الجاهلي ـ محمد النويهي ١/ ٦١ .   (2) أمثال الضبي ٣٣ .
(3) المفضلية رقم ١٠٦ .   (4) النقائض ١/ ٦٨ - ٦٩ .

وفي يوم طخفة تنتصر تميم انتصاراً باهراً على المناذرة ، ويفتخر شُرَيح اليربوعي بذلك فيقول :

وكنتُ إذا ما بابُ مَلْكٍ قرعتُه قرعتُ بآباءٍ أولي شَرَفٍ ضَخْمِ[1]

ونبحث عن البحر فنجده الطويل . ولن نسترسل في عرض الأمثلة ، ولكننا نكرر ما قلناه سابقاً ، وهو الصلة بين الموضوع والوزن أمر لا يمكن الجزم به ، ويحتاج إلى دراسة مستفيضة قبل أن نقطع بنتيجة نهائية .

ونستطيع أن نقول - إستناداً إلى دراسة ما بين أيدينا من شعر الأيام - أنه استعمل في الأغراض والموضوعات التالية : الفخر ، وصف المعارك ، الرثاء ، المدح ، الهجاء ، الإستعطاف ، إنذار القوم وتحذيرهم ، التهديد والوعيد ، التعبير ، التحريض . ولكن الفخر يستأثر بنصيب وافر من هذا الوزن ويليه وصف المعارك والرثاء .

وننتقل بعد الطويل إلى الوافر ، وهو بحر احتل المرتبة الثانية في مجموعة شعر الأيام ، وكان نصيبه خُمس ذلك الشعر الذي جمع . ويمكن التخمين بأن وزن هذا البحر يتميز بتدفق ، ورنة قوية ملائمة لروح الحماسة ، وتصوير الغضب ، والتعبير بقوة عن معاني الفخر والهجاء ، وقد رأينا أنه جاء في المرتبة الأولى عندما أجرينا دراسة على ثمانين نصاً شعرياً كان موضوعها الفخر والحماسة وحديث المعارك « كما جاء في المرتبة الثانية في مجموعة قصائد الرثاء .

وسنحاول عرض بعض الأمثلة لإثبات ما خمناه أو نفيه ، في حروب الفجار يصور لنا الحارث بن كلدة الثقفي مقتل فارس على يديه فيقول من قصيدة مطلعها :[2]

تركتُ الفارسَ البذّاخَ منهم تمجُّ عروقُه عَلَقاً عَبيطا[3]

وقد اختار لها هذا الوزن ، لملائمة حركة هذا البحر لذلك المشهد الذي يتميز بالحركة والقوة .

وتثور عامر لمقتل عروة الرحال غدراً ، ويغضب لبيد بن ربيعة لمقتله ويحض قومه على الطلب بدم عروة فيقول :

---

(1) النقائض ١/٦٨ - ٦٩ .
(2) العقد الفريد ٥/ ٢٥٩ .
(3) البذاخ : العظيم ، تمج : تلفظ . علقاً عبيطاً : دماً طرياً .

أبلـغ إن عرضـت بنـي كلاب   وعامـرَ والخطـوبُ لهـا مَوالي
وبلِّـغْ إن عرضـتَ بنـي نُمَيْرٍ   وأخـوالَ القتيل بنـي هِلال
بـأنَّ الوافـدَ الرحَّـالَ أمسَى   مُقيماً عند تَيْمَنَ ذي طِلالِ[1]

وكان عمارة بن زياد العبسي يحسد عنترة ، ويعتب على قومه لأنهم أكثروا من ذكر عنترة ، وبلغ ما يقوله عنترة ، فقال يهجوه بقصيدة اختار لها البحر الوافر ومطلعها يشير إلى حدة انفعال عنترة ، ومبلغ غضبه :

أحَوْلي تَنْفُضُ استُكَ مِذْرَوَيْها   لتقتُلَنـي فها أنا ذا عُمارا[2]

ولعنترة قصيدة أخرى من هذا البحر قالها وقد أغارت عليه سليم وهو يرعى في أبل له ، فقاتلهم حتى كسر رمحه ، وكان حاسراً ، فطردوا إبله وذهبوا بها ، وقد ثارت نفس عنترة غضباً وألماً لما حل به من هزيمة وعبر عن ذلك بأبيات من هذا البحر مطلعها :[3]

خُذوا ما أسأرَتْ منها قِداحي   ورِفْدُ الضيفِ والأَنْسُ الجَميعُ[4]

ومعلقة عمرو بن كلثوم التي ملأها فخراً وزهواً وحديثاً عن أمجاد قومه ، كما نعلم جيداً ظروف قولها جاءت من الوافر .

وتغنّى شعراء يربوع بيوم طخفة يوم استردوا ردافة الملك التي كادت أن تنتقل منهم إلى غيرهم ، وهزموا جيش الملك وأسروا قادته ، وكان ذلك اليوم مصدر فخرهم ، ومن الذين تغنوا بذلك اليوم عَمْرو بن حَوْط بن سُلْمِيّ بن هرميّ بن رياح ، قال في هذا اليوم :[5]

قَسطْنـا يومَ طِخْفَـةَ غـيرَ شكٍّ   على قابـوسَ إذ كَـرِهَ الصَّباحُ[6]
لعمـرُ أبيكَ والأنبـاءُ تَنْمي   لَنِعْـمَ الحـقُّ في الجُلَّى رياحُ[7]
أبـوا دين الملـوكِ فهـم لَقاحٌ   إذا هيجـوا إلى حربٍ أشاحوا[8]
...... الخ الأبيات .

---

(١) الأغاني / ثقافة ٢٠/ ٦٦ ، الروض الأنف للسهيلي ١/ ١٢١ .
(٢) ديوان عنترة ٧٥ .   (٣) الديوان ١٠٤ ـ ١٠٥ .
(٤) أسأرت : ابقت ، الأنس : الناس .   (٥) النقائض ١/ ٦٩ .
(٦) قسطنا : قسط لها معنيان متضادان عدل وجار .
(٧) تنمي : تشيع ، تنتشر ، الجلي : الأمر الشديد والخطب العظيم .
(٨) لقاح : فحول ، أشاحوا : اعرضوا ازدراء .

ولكننا مع ذلك لا نستطيع تعميم هذا القول إلاّ باستقراء دقيق لشعر الأيام الذي بين أيدينا ، فقد وجدنا أن الأغراض والموضوعات التي نظمت من هذا الوزن هي التالية مرتبة حسب أكثريتها :

الفخر والحماسة ، وصف المعارك ، الهجاء ، الرثاء ، التهديد والوعيد اللوم .

أما الكامل فيتسم بطابع الجد ، وهو بعيد عن الهدوء والتأمل ، وهما صفتان منتفيتان عن الحرب ، وتتميز موسيقاه بالصخب والجلجلة ، وهي صفة تتفق وروح المعارك والحروب . وسيحتل هذا البحر المرتبة الثالثة ، نظمت من هذا البحر خمس وسبعون قصيدة ومقطوعة ، وتشكل ثمن ($\frac{1}{8}$) شعر الأيام الذي جمعناه . وتأخرت مرتبته حينما اخترنا ثمانين قصيدة موضوعها واحد يتصل بالحرب ، فقد رأينا نصيبه منها اربع قصائد فقط . ويقول الدكتور النويهي عنه « أنه ينسجم مع العاطفة القوية النشاط والحركة سواء أكانت فرحة قوية الاهتزاز أم كانت حزناً شديد الجلجلة»[1] .

وقد وجدنا الأغراض التالية في شعر الأيام نظمت من هذا الوزن : الفخر والحماسة ، حديث المعارك ، الرثاء ، التهديد والوعيد ، المدح ، التحريض على الأخذ بالثأر ، اللوم ، الهجاء .

أما البسيط فقد احتل المرتبة الرابعة في مجموعة شعر الأيام ، وكان نصيبه عُشْرَ المجموعة ، وقد نظمت من هذا الوزن الأغراض التالية حسب أكثريتها :

الفخر والحماسة ، التهديد والوعيد ، حديث المعارك ، الرثاء ، المدح ، التحذير ، الاعتذار ، السخرية من الأعداء .

أما المتقارب ففيه دندنة وقدرة على سرد الأحداث ، فهو ملائم لسرد المعارك ووصفها بعد الفراغ منها ، ولكنه غير مقتصر على سرد المعارك ، إلاّ إذا اعتبرنا أن أي موضوع يتصل بالأيام لا بد وأن يتطرق إلى ذكر المعارك ، ففي يوم الكلاب الثاني قتل يزيد بن عبد المدان قتلته تميم ، وكان قد أسر فيها مضى أخوين لزينب بنت مالك ، فقالت ترثيه :

بكيتُ يزيدَ بنَ عبدِ المُدا ... نِ حلَّتْ بهِ الأرضُ أثقالَها
شريكُ الملوكِ ومَنْ فَضْلُهُ ... يفضلُ في المجدِ أفضالَها

---

(۱) دراسة الشعر الجاهلي - محمد النويهي ۱/ ٦١ .

ورهْـطَ المُجالِـد قد جَلَّلَتْ فواصِــلُ نُعْماكَ أجبالَهَا[1]

وهي من الوافر .

وفي يوم عكاظ من أيام الفجار الآخر يفتخر ضرار بن الخطاب الفهريّ ويسرد أحداث ذلك اليوم من قصيدة مطلعها :

ألم تسأل الناسَ عنّا شأنَنا ولـم يُثْبِتْ الأمرَ كالخابِرِ[2]

وكذلك نجد ربيعة بن مقروم الضبي يفتخر بيوم الكلاب الثاني ، ويختار هذا الوزن[3] .

ونستطيع أن نميز الأغراض التالية التي نظمت من هذا الوزن : حديث المعارك لفخر والحماسة ، الرثاء ، التهديد والوعيد .

ولم يخل الشعر الجاهلي عامة ، وشعر الأيام خاصة من بعض عيوب الوزن ، ولعل أبرزها كثرة الزحافات ، واضطراب الأوزان في بعض الأبيات . ولكن هذين العيبين وغيرهما لا ينتقصان من قيمة هذا الشعر في جملته ، وإن شعراً حملته الينا قرون طويلة ، بوسائل مختلفة ، ليس يستهجن أن تظهر فيه بعض هذه العيوب ، فمرد بعضها كما يقول استاذنا الدكتور شوقي ضيف إلى الرواة والنساخ[4] . وقد تثبت الدراسات الحديثة المتصلة بالوزن والموسيقى صلة ما بين الزحافات والعلل وعاطفة الشاعر وحالته النفسية خلال ولادة العمل الفني .

القوافي :

القافية هي تكرار عدة أصوات في أواخر الأشطر أو الأبيات من القصيدة ، وتكررها هذا يكون جزءاً هاماً من الموسيقى الشعرية ، لأنها بمثابة الفواصل الموسيقية التي يتوقع السامع ترددها . ويذهب الدكتور شوقي ضيف إلى أن القافية هي أهم البقايا التي احتفظ بها من ظاهرة الغناء والموسيقى[5] .

ونعت القوافي - كما يراه قدامه - أن تكون عذبة الحرف سلسة المخرج ، وأن يقصد بتعيير مقطع المصراع الأول في البيت الأول مثل قافيتها ، فالفحول من الشعراء يتوخون ذلك ، ولا يكادون يعدلون عنه[6] .

---

(1) مراثي العرب - شيخو ۹۳ .
(2) الأغاني/ ثقافة ۲۲/ ۷۵ .
(3) المفضلية رقم ۳۸ .
(4) العصر الجاهلي - شوقي ضيف ۱۸٥ .
(5) العصر الجاهلي ۱۹٤ .
(6) نقد الشعر - قدامه بن جعفر ۱۹ .

ومثال ذلك قول عنترة :(١)

طربتَ وهاجتْكَ الظِّباءُ السوارحُ   غَداةَ غدتْ منها سَنِيحٌ وبارحُ(٢)

ولكن ما يقوله قدامه فيما يخص تشابه قافية المصراعين في البيت الأول ليس شرطاً ، فكثير من الشعر الذي وصلنا لا ينطبق عليه هذا الشرط ، ومع ذلك فهو شعر جيد .

ولكن العلماء اتفقوا على عيوب للقافية إن ظهرت فإنها تعتبر عيباً ، وأهمها الإقواء ، وهو أن يختلف اعراب القوافي ، فتكون مرة مرفوعة وأخرى مجرورة ، والإقواء في شعر الأيام ظاهرة لا نستطيع اخفاءها ، فقد وزد في شعر بشر بن ابي خازم الأسدي وامرىء القيس ، وعميرة اليربوعي ، ومهلهل بن ربيعة ، وقيس بن زهير ، وعنترة . يقول عنترة في يوم جفر الهباءة مرتجزاً مقطوعة مطلعها :

إنــي أنـا عنتــرةُ الهجينُ   فــح الأتــانِ قد علا الأنينُ

ويقول منها :

فيشتفــي ممـا به الحزينُ   دارتْ على القــومِ رَحَى المَنونِ(٣)

ويرثي قيس بن زهير قتلى جفر الهباءة بقصيدة مطلعها :

تعلــم أن خــيرَ النــاسِ ميْتٌ   على جفــرِ الهَبــاءَةِ ما يريم

ويقول منها :

ولا تعجــلْ بأمْــرِكَ واستدِمْهُ   فما صلَّ عصــاكَ كمُسْتَدِيمِ(٤)

ويقول امرؤ القيس مادحاً عُوَيْر بن شِجْنَةَ بن عُطارد التميمي بقطوعة مطلعها :(٥)

ألا إنّ قومــاً كنتُــم أمسِ دونَهم   هُــمُ منعــوا جاراتِــكُم آلَ غُدْرانِ
عُوَيْرٌ ومَــنْ مثــلُ العُــوَيْرِ ورَهْطِهِ   وأَسْعَــدُ في ليلِ البلابــلِ صَفْوانِ(٦)

(١) ديوان عنترة ٤١ .

(٢) السوارح : الراعية بالغداة الى الضحى ، السوانح : مفردها سانح وهو ما أتاك عن يمينك من ظبي أو طائر ، البارح : ما أتاك عن يسارك .

(٣) ديوان عنترة ١٩٨ .

(٤) أمثال الضبي ٣٥ ، الأغاني/ كتب ١٧/ ٢٠٦ .

(٥) ديوان امرىء القيس ٨٣ .

(٦) البلابل : الأحزان والفكر ، اسعد في ليل البلابل : وافق وساعد على ما أردت .

وينقل المرزباني خبراً عن أبي عمرو بن العلاء أن النابغة وبشر بن أبي خازم كانا يقويان ، فأما النابغة فدخل يثرب فغُنّيَ بشعره ففطن ، فلم يعد إلى إقواء . وأما بشر فقال له سوادة أخوه : أنك تقوي ، فسأله : وما الإقواء ؟ فأنشده من شعره ، ففطن بشر فلم يعد[1] .

ولهذا الخبر دلالة كبرى ، وهي أن الإقواء عيب من عيوب القافية ، ينكشف إذا ما أنشد الشعر أوغني به ، كما أنه يثبت لنا أن القافية من أهم بقايا الغناء والموسيقى التي احتفظ بها الشعر . ولهذا عده النقاد من عيوب القافية .

أما ثاني عيوب القافية فهو **الإيطاء** ، وهو تكرار كلمة معينة في أبيات القصيدة ، وقد أجاز العلماء تكرار الكلمة في القافية إذا اتفق اللفظ واختلف المعنى . ومثال الإيطاء قول قيس بن زهير :

ومجنبها على القرشي تشري بأدراع وأسياف حداد

ويقول في نفس القصيدة :

كرهنا أن يقر الخسف فينا دفعنا بالمهندة الحداد[2]

وتكثر هذه الظاهرة عند قيس بن زهير في أكثر من قصيدة من شعره ، كما نجد في شعر مهلهل أمثلة لذلك ، وفي معلقة عمرو بن كلثوم ، ومن أمثلة النوع الثاني قول عمرو بن كلثوم :[3]

ونحن إذا عماد الحي خرت على الأحفاض نمنع من يلينا[4]

***

فإن قناتنا يا عمرو أعيت على الأعداء قبلك أن تلينا

وقد اعتبر الإيطاء عيباً لأنه يدل على عجز الشاعر عن الأتيان بكلمة تناسب القافية فيكرر كلمة مما أورده قبل هذا البيت ، على الرغم من غنى اللغة بالمفردات وغناها بالترادف الذي يمكن الشاعر من اختيار الكلمة المناسبة .

وثالث هذه العيوب **التخميع** ، وهو أن تكون القافية للمصراع الأول من البيت الأول على

(١) الموشح للمرزباني ٨١ . (٢) أمثال الضبي ٣١ .
(٣) شرح القصائد السبع الطوال ٣٩٣ ، ٤٠٤ .
(٤) الأحفاض : الأبل التي تحمل المتاع .

روي متهيء لأن يكون قافية آخر البيت بحسبه ، فتأتي بخلافه . يقول وَعْلَة بن عبد الله الجَرْمي يوم الكُلاب الثاني قصيدة مطلعها : (١)

فِدىً لكما رجلي أمي وخالتي غـداةَ الكلاب إذ تحُزُّ الدوابرُ(٢)

فقافية المصراع الأول وهي التاء توحي بأن تكون قافية المصراع الثاني هي التاء أيضاً ، ولكنها جاءت مخالفة لها ، بعد أن تهيأت الأذن للقافية الأولى .

ورابع العيوب السناد ، وهو اختلاف تصريف القافية أو اختلاف ما يُراعى قبل الروي من الحروف والحركات يقول عمرو بن كلثوم : (٣)

إذا وُضِعَـتْ عن الأبطالِ يوماً رأيتَ لهـا جلـودَ القـومِ جُونا(٤)
كأن متونهـنَّ متـونُ غُدْرٍ تُصَفِّقُهـا الـرياحُ إذا جَرَيْنا
وتحملنـا غداةَ الـرَّوْعِ جُرْدٌ عُرِفْـنَ لنـا نقائذ وافْتُلينا(٥)

فقد اختلفت حركة ما قبل الروي وهي حركة (الواو) في جونا ، (والراء) في جرينا ، (واللام) في افتلينا فهي في الأولى ضمه ، والثانية فتحه ، والثالثة كسرة . وأمثلة السناد في مجموعتنا كثير ، وذلك لا يتعارض مع السرعة الفنية التي طبعت معظم شعر الأيام .

وقد استعمل شعراء الأيام القوافي التالية مرتبة حسب استعمالها وورودها في شعرهـم : الراء والميم واللام والباء والدال والنون والفاء والتاء والعين والحـاء والقـاف والكـاف والسـين والياء . ووردت اللام والراء والميم قوافي لنصف هذا الشعر كما نلاحظ أنهم استعملـوا نصف حروف الهجاء .

ويقودنا هذا الذي عرضناه إلى أمر هام وهـو علاقـة القـافية بحالـة الشـاعر النفسية ، وبالموضوع الذي يطرقه الشاعر ، وهو موضوع بدأ بعض النقاد المعاصرين يتنبهون اليه . ولكن الأمر ما زال بحاجة الى التأمل والاستقراء قبل التسرع في إصدار الأحكام الظنية وتعميمها .

لقد اخترنا موضوعين من أبرز موضوعات شعر الأيام هما : الفخر وحديث المعارك

---

(١) المفضلية ٣٢ .
(٢) تحز : تقطع ، الدوابر : الأصول .
(٣) معلقات العرب ـ بدوي طبانة ٣٨٧ ، شرح القصائد السبع الطوال ٤١٦ ـ ٤١٧ .
(٤) جون : سود .
(٥) نقائذ : ما استنقذ من قوم اخرين ، افتلين : فطمن عن امهاتهن .

والرثاء ، وبدأنا نستعرض هذين اللونين في مجموعات أربع من مجموعات الأيام هي : البسوس وداحس والفجار وذو قار . فكانت النتيجة أن الفخر وحديث المعارك قد نظم على القوافي التالية : الراء ، اللام ، والميم ، النون ، التاء ، العين ، والطاء ، الدال ، القاف ، الحاء ، الباء ، الياء ، الفاء ، وذلك دون ترتيب حسب عدد القصائد .

أما الرثاء فقد نظم على القوافي التالية : الباء ، الراء ، الدال ، العين ، الميم ، الحاء ، اللام ، القاف ، النون .

وبمقارنة ما حصلنا عليه تبين لنا أن الفخر يزيد في القوافي التي استعملت على الرثاء ، القوافي التالية نذكرها مع حركتها لما لذلك من أهمية : (نا) ، (طا) ، (قا) ، (ح) ، (يا) ، (ل) ، (ف) .

كما أن الرثاء زادت فيه القافية التالية : (عا) .

ولعلنا نقترب من الصواب إذا قلنا أن هذا المقطع (عا) يوحي بالفجيعة والحزن الشديد ، وأن الشعر الذي ينظم في هذه القافية يكون أكثر تأثيراً وأكثر دلالة على الموضوع الذي نظم الشاعر فيه ، فإذا ما اختار الشاعر بحراً مناسباً ، والفاظاً ملائمة فإن هذا الثالوث : الألفاظ والوزن والقافية مع باقي العناصر المكونة للعملية الشعرية تحدث التأثير المطلوب وهو نقل ما يحس به الشاعر الى الآخرين .

أما القوافي التي اختص بها الفخر دون غيره فإن النظرة الأولى إليها توحي بالقوة والحركة والاضطراب ، كما توحي بالزهو ، وتحدث وقعاً ينهي جميع أبيات القصيدة بتلك النغمة القوية التي تتناسب وموضوع الشعر . ولو نستطيع لاستعرضنا الأمثلة التي توضح ما نذهب اليه . ولكن الشعر الجاهلي في دواوينه ومجموعاته في متناول اليد ونستطيع التثبت مما نذهب اليه أو نفيه .

ونثبت في آخر هذا الفصل جداول تبين أغراض الشعر التي وردت في الشعر الذي تناولناه والقوافي التي نظمت عليها .

انتشار الرجز

الرجز لغة[1] تتابع الحركات ، ومن ذلك قولهم ناقة رجزاء : إذا كانت قوائمها ترتعد عند قيامها . ويقال للريح أيضاً إذا كانت دائمة أنها رجزاء ، وقد رجزت رجزاً . وقال ابن سيده : والرجز شعر ابتداء أجزائه سببان ثم وتد ، وهو وزن يسهل في السمع ويقع في النفس ، ولذلك جاز أن يقع فيه المشطور والمنهوك .

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن كلمة الرجز في حقيقتها صوت الرعد ، أو مرض يصيب الإبل ، وأن استعمالها في هذا اللون من الشعر إنما هو استعمال مجازي اصطلح عليه فيما بعد على أساس أن أغلب الألفاظ على المحسوس أولاً ، ثم قد تستعمل في أغراض معنوية . ويرى أن هذا المصطلح لم يستعمل قبل الأغلب العجلي الذي استنشده والى الكوفة ما نظم في الاسلام فقال :

أرجزاً تريد أم قصيداً لقد طلبت هيّناً موجوداً[2]

وقد سمي الرجز رجزاً لأنه تتوالى فيه حركة وسكون ثم حركة وسكون إلى أن تنتهي أجزاؤه . وهو بذلك يشبه بالرجز في رجل الناقة ورعدتها ، وهو أن تتحرك وتسكن ، ثم تتحرك وتسكن . وقيل أيضاً أنه سمي بذلك لاضطراب أجزائه وتقاربها .[3] وروي عن الأخفش قوله :

سألت الخليل عن البحور . . . . قلت فالرجز ؟ قال : لاضطرابه كاضطراب قوائم الناقة عند القيام[4] .

وإذا انتقلنا بعد ذلك الى الحديث عن نشأته ، فإن البحث يتشعب وتتضارب فيه الأقوال والآراء . وتثار تساؤلات عدة ، وأول ما يثار حوله هل هو متطور عن السجع ؟ وقد حاول كثير من الباحثين الاجابة عن هذا التساؤل ، وأجابوا بالإيجاب . فبروكلمان[5] يعتبر الشعر الجاهلي في أقدم صوره متطوراً عن السجع ، وترقي السجع إلى بحر الرجز المتألف من تكرار سببين ووتد ليسهل على السامع ، ويبلغ أثره في النفس . ويعتبره معروف الرصافي[6] حلقة اتصال بين النثر

---

(١) اللسان مادة رجز .

(٢) الرجز ـ شاكر الجودي ٦ ـ ٩ .

(٣) اللسان مادة رجز .

(٤) العمدة لابن رشيق ١/ ٨٩ .

(٥) تاريخ الأدب العربي ـ بروكلمان ١/ ٥١ .

(٦) الأدب الرفيع في ميزان الشعر وقوافيه ١٢ .

والنظم ، وأن وزنه متولد من السجع . ويتفق احمد حسن الزيات ومحمد بهجت الأثري[1] على أن العرب قد خطوا من المرسل إلى السجع ، ومن السجع إلى الرجز . ومن المستشرقين قال جولد تسيهر[2] بنشأته عن السجع .

ومن التساؤلات التي أثيرت حوله أيضاً : هل الرجز أقدم الأوزان الشعرية ؟ وقد أجاب كل من : بروكلمان وجولد تسيهر وجورجي زيدان والرصافي والزيات والأثري وعبد الرحمن بارود ، بنعم ، بينما رفض هذه الفكرة كل من الباحثين : شوقي ضيف وابراهيم أنيس وشاكر الجودي ونولدكه .

فبروكلمان[3] يعتبر الشعر الجاهلي في أقدم صوره متطوراً عن السجع الذي ترقى بعد ذلك الى بحر الرجز . وجولد تسيهر[4] يعتبر امرأ القيس باعث روح جديدة في الشعر العربي بعد أن كان مقصوراً على الرجز .

واعتبره جورجي زيدان[5] أبسط النظم وأقدم أوزان الشعر الجاهلي . والرجز عند الرصافي أول مولد من الشعر[6] . والشعر الجاهلي - عند كل من الزيات والأثري - متدرجاً ومتطوراً عن الرجز[7] . ويبسط عبد الرحمن بارود لنا السبب ، فيرى أن الرجز أقدم وأعرق من الشعر ، لأن الأبسط في العادة ينشأ قبل المعقد الراقي[8] .

أما الذين رفضوا فكرة أقدمية الرجز على الأوزان الأخرى فقد رفضها - أبراهيم أنيس - لعدم وجود دليل على ذلك ، بل أنه يرجح أن البحر الكامل قد سبق الرجز في الوجود ، وذلك لأن المقاطع العربية بوجه عام قد تطورت من النوع المتحرك إلى النوع الساكن[9] . ويعتقد شاكر الجودي أن الرجز نشأ صدفة . شأنه في ذلك شأن غيره من أوزان الشعر[10] . ويرفض شوقي ضيف الربط بين شيوع الرجز في العصر الجاهلي وسبقه على الأوزان الأخرى ، وإنما رد ذلك

(١) تاريخ الأدب العربي - الزيات ١٧ .
(٢) دائرة المعارف الأسلامية « رجز » .
(٣) تاريخ الأدب العربي - بروكلمان ١/ ٥١ .
(٤) دائرة المعارف الاسلامية « رجز » .
(٥) تاريخ اداب اللغة العربية - زيدان ١/ ٦٥ - ٦٦ .
(٦) الأدب الرفيع في ميزان الشعر ١٢ .
(٧) تاريخ الأدب العربي - الزيات ١٧ .
(٨) الرجز - عبد الرحمن بارود - رسالة ماجيستر ص ٣ .
(٩) موسيقى الشعر - ابراهيم أنيس ١٣١ .
(١٠) الرجز - شاكر الجودي ٢٨ .

الشيوع إلى شعبيته[1] وذهب نولدكه إلى أن العرب أخذت الرجز من الهزج . [2]

وبما أثير حول هذا الوزن ارتباطه من حيث نشأته الأولى بتوقيع سير الجمال في الصحراء ، وقد ربط جورجي زيدان [3] بين الرجز وسير الجمال فقال بأن الوزن مأخوذ في الأصل من توقيع سير الجمال في الصحراء ، وأيد ذلك بأن الرجز أول ما استعمله العرب لسوق الجمال ، وهو الحداء . ولكن الرصافي[4] رفض تلك الفكرة لأن حداء الأبل ووقع الجمال يناسبها الكامل أو مجزوؤه .

ويتصل بما نحن في صدد بحثه تساؤل آخر هو : هل كان الشعر في بدايته مقصورا على الرجز ؟ وقد أيد اقتصار الشعر الجاهلي في بدايته على الرجز ثم تطور الى الأوزان الأخرى جولد تسيهر وزيدان والرصافي والزيات ، بينما رفض هذا الأمر شوقي ضيف وابراهيم أنيس وشاكر الجودي .

وخلاصة ما نراه ، بعد أن عرضنا لمختلف آراء الباحثين ، أن الرجز وزن من أوزان الشعر العربي ، له وزنه الخاص كسائر البحور الأخرى ، لا يختلف عن شعر القصيد إلاّ في شعبيته . وأنه رافق الأوزان الأخرى منذ أقدم المجموعات الشعرية التي وصلتنا ، وهي شعر حرب البسوس فقد وصلنا الرجز وغيره . أما ما زعمه البعض عن أولية الشعر التي تسبق ذلك فذلك مجرد حدس وتخمين ولا يستند إلى أدلة مادية ، لأنه ليس بين أيدينا منه شيء ، ولا يغير من واقع الشعر الذي ندرسه . ونحن نعتقد أن الرجز لو اعتنى الشعراء به ولم يفضلوا غيره من الأوزان عليه ، ولو حاولوا الارتفاع بمستواه الفني كما حدث للشعر من الأوزان الأخرى لسار الرجز جنباً إلى جنب مع باقي أوزان الشعر . ولذلك كله لا نستطيع أن نجزم بأي الأوزان كان أسبق ، كما لا نستطيع أن نجزم أن الرجز متطور عن السجع أو غيره ، كما أننا نرفض ارتباط هذا الوزن بوقع أقدام الأبل وغير ذلك من الفرضيات التي لا نملك الدليل على صحتها .

وقد قرر كثير من الباحثين شيوع هذا الوزن في العصر الجاهلي ، وعرض بعضهم لأسباب هذا الشيوع . وقبل الخوض فيما قالوه نود أن نشير الى حديث ابن مسعود حين قال : الرجز أخف

---

(١) العصر الجاهلي - شوقي ضيف ١٨٦ .

(٢) دائرة المعارف الأسلامية « رجز» .

(٣) تاريخ اداب اللغة العربية ١/ ٦٥ - ٦٦ .

(٤) الأدب الرفيع ١٢

على لسان المنشد ، واللسان به أسرع[1] فهل كانت خفته على لسان المنشد هي الصفة التي جعلته شائعاً في ذلك العصر ؟

لقد أجاب بروكلمان على هذا بأن الرجز المتألف من تكرار سببين ووتد سهل على السامع ، ومؤثر في النفس ، كما أن وزن الرجز يلبي حاجة الارتجال[2] . وزعم جولدتسيهر بأن الشعر العربي قبل امرىء القيس كان مقصوراً على الرجز ، ولم يكن يشاركه في ذلك وزن آخر[3] . أما الدكتور شوقي ضيف فقد وصف هذا الوزن بالشعبية ، وأن تلك الشعبية جعلته أكثر الأوزان شيوعاً في ذلك العصر ، وكان الجاهليون يرتجلونه في كل حركة من حركاتهم وكل عمل من أعمالهم في السلم والحرب[4] . وربط شاكر الجودي بين نمو هذا الوزن وتطوره وبين عوامل وأغراض تتلاءم معها في تقطيعه المتميز بالسرعة والحركة والاضطراب كالحروب . . . .[5]

وعلى الرغم مما قيل عن شيوعيته وكثرته في هذا العصر ، إلاّ أن الذي وصلنا منه لا يرقى إلى منزلة الشيوع . فقد جاء ترتيب هذا الوزن الخامس في بحور الشعر وقد نظم شاعر الأيام من هذا الوزن خمسين مقطوعة ، كلها مقطوعات صغيرة ، لم يتجاوز أبياتها وأشطرها مائة وخمسين .

ولا يبقى أمامنا إلاّ احتمال واحد وهو أن شعراً كثيراً من هذا الوزن قد ضاع ، ولعل في قول الجاحظ وابن حبيب ما يدعم وجهة نظرنا . يقول الجاحظ « كل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال . . . وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى رجز يوم الخصام أو حين يمتح على رأس بئر أو يحدو ببعير أو عند المقارعة أو المناقلة أو عند صراع أو في حرب . فما هو إلاّ أن يصرف همه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي يقصد إليه فتأتيه المعاني ارسالاً وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً »[6] ويقول ابن حبيب « كانت العرب تقول الرجز في الحرب والحداء والمفاخرة وما جرى هذا المجرى فتأتي منه بأبيات يسيرة فكان الأغلب أول من قصد الرجز ثم سلك الناس بعد طريقته »[7] .

وقد حاول أبراهيم أنيس[8] تعليل ضياع معظم الرجز ، فقال بأن الجاهليين نظموا منه مقطوعات قصيرة شاعت بين الناس وتناقلتها الألسن ، ولكنها لم تدون فيما بعد ، وربما لم يرها الرواة مما يستحق أن يدون وأن يتأدب بها ، لأنها تمثل الأدب الشعبي عند الجاهليين ، ومن

---

(١) اللسان « مادة رجز » .
(٢) تاريخ الأدب العربي بروكلمان ١/ ٥١
(٣) دائرة المعارف الاسلامية « رجز » .
(٤) العصر الجاهلي - شوقي ضيف ١٨٦ .
(٥) الرجز - شاكر الجودي ٢٨ .
(٦) البيان والتبيين - الجاحظ ٣/ ١٣ .
(٧) الأغاني/ الساسي ١٨/ ١٦٤
(٨) موسيقى الشعر - ابراهيم انيس ١٢٨ - ١٢٩ .

المحتمل أن تكون الأراجيز تحمل معها في الجاهلية صفات اللهجات العربية .

وذهب الدكتور شوقي ضيف[1] إلى أن الشعراء الممتازين في الجاهلية لم ينظموا فيه ، وربما كان هذا سبباً في إهمال الرواة له .

وفي رأينا أن الرجز الذي وصل إلينا قليل بالنسبة لما نظموه في حروبهم فقد كانوا يرتجزون وهم على صهوات الجياد ، كما يرتجزون وهم يطردون النعم أمامهم ، ونحن نميل إلى الاعتقاد بأن السبب في عدم وصول كل ما نظم من هذا الوزن يرجع إلى طبيعة الرجز أولاً ، فهو مقطوعات صغيرة ، ثم انه يمثل الشعر الشعبي الذي يجري على كل لسان ، فهو ليس بمادة فخر ، ولا مجال للتفاخر به ، لأنه لا يرقى الى الشعر الذي ينظم من الأوزان الأخرى . من أجل هذا لم يكن ليصل إلى منزلة رفيعة تجعلهم ينشدونه في الأسواق التي كانت السبب في انتشار الشعر بين القبائل وروايته ووصول بعد ذلك الى عصر التدوين .

وإذا أضفنا إلى ذلك أن طبيعة شعر الأيام يمثل شعر طبقة معينة من السادة والشعراء الفرسان ، أدركنا أن أولئك كانوا يدركون أن هذا اللون من الشعر لا مجال للتفاخر به . ولا نبتعد عن الحقيقة إذا قلنا أن احتال أن يكون الرجز قد حمل بعض خصائص اللهجات قد جعل الرواة يحجمون عن روايته ، على الرغم من أن بعضهم قد حملوا بعض شعر اللهجات .وينبغي ألاّ يفوتنا أن هذا اللون نظم فيه الشعراء الجاهليين من مختلف الطبقات ولكن ما وصلنا لا يجعلنا نحكم حكماً دقيقاً على حجم ما نظم كل شاعر منه ، ولكننا واجدون من هذا الوزن في شعر امرىء القيس وعنترة ولبيد وغيرهم .

وقد برزت ظاهرة في هذا اللون من الشعر تستحق الدراسة وهي أن كثيراً من الرجز الذي بين أيدينا مجهول القائل ، ولعل السبب متصل بشعبيته وانحطاط منزلته الفنية ، فإن رواية أو شاعراً لا يعنيه كثيراً أن ينسب الى شاعره أو ابن قبيلته .

أما الأغراض التي كان ينظم فيها هذا الوزن فكثيرة ، ونستطيع أن نقول أنه يناسب كل غرض يتسم بالسرعة والحركة والاضطراب كالحروب والصيد والنوح والمفاخرة . ويذهب الدكتور شوقي ضيف إلى أنه استخدم في كل حركة من حركاتهم ، وكل عمل من أعمالهم في السلم والحرب[2] . وحدد كاتب مادة « رجز » في دائرة المعارف الاسلامية اغراض الرجز في الحماسة والرثاء ، وذلك في أقدم قصائد الرجز التي بقيت ، ومع ذلك فإنه لم يقتصر على الحماسة

(١) العصر الجاهلي - شوقي ضيف ١٨٦ .   (٢) العصر الجاهلي - شوقي ضيف ١٨٦ .

وما يشبهها وقتاً طويلاً ، فقد أصبح يستعمل في شعر المناسبات وفي صف الأيام ، وفي المديح والفخر وفي الأمثال الموجزة .

تلك هي استعمالات الرجز بشكل عام ، كما حددها القدماء كالجاحظ وابن حبيب ، والمحدثون من الباحثين . أما في شعر الأيام فإننا لا نملك إلا طريقاً واحداً إذا شئنا الاستناد إلى أدلة مادية ، ونعني دراسة ما بين أيدينا من رجز متصل بالأيام . أما أن نستند إلى أحكام عامة قالها قدماء أو محدثين فلن يكون منها جدوى ، أو فائدة علمية .

ونستطيع أن نقول على ضؤ دراستنا لما بين أيدينا من هذا الوزن أنه استخدم في الأغراض التالية حسب كثرتها : الارتجاز ساعة اللقاء ، والهجوم على الأعداء ، وتحريض القوم ، وحثهم على الثبات والفخر ، ووصف المعارك واللقاء بين الجيشين ، والتهديد والوعيد ، والرد على شعراء الأعداء وتفنيد ادعائهم ، والهجاء والمدح والرثاء .

وتختلف انفعالات الفرسان في ساعات اللقاء واحتدام المعارك ، فقد يكون الشاعر واثقاً من قوته وقوة قومه فيرتجز مفتخراً . ففي يوم قِضَة كان جَحْدَر بن ضُبَيْعَة بن قيس بن ثعلبة البكري يهجم على الأعداء وهو يرتجز :

قد يَئِسَتْ بِنْتِي وَأَمتْ كَنَّتِي	وشَعِثَتْ بعدَ الرِّهانِ جُمَّتِي
رُدُّوا عليَّ الخيلَ إن أَلَمَّتِ	إن لم أناجزها فجُزُّوا لِمَّتِي
قد علمتْ والدةُ ما ضَمَّتِ	ما لفَّفَتْ في خِرَقٍ وشَمَّتِ
إذا الكُماةُ بالكماة التقت . . .	أَمُخَلِّجٌ في الحرب أم أَتَمَّتِ[1]

وفي يوم الفِجار الأول ضرب رَجُلٌ من هوازن رِجْلَ بَدْر بن مَعْشَر الكناني وقال مرتجزاً مفتخراً :

نحن بنو دهمان ذو التطرف	بحر لبحر زاخر لم يُنْزَفِ
نَبْنِي على الأحياء بالمُعَرَّفِ[2]	

وفي يوم شِعْب جَبَلَة يستقبل معاوية بن عبادة بن غفيل بني أسد وهو يرتجز :

---

(١) حماسة أبي تمام - شرح المرزوقي ٢/ ٥٠٧ .

(٢) العقد الفريد ٥/ ٢٥١ ، الأغاني/ ثقافة ٢٠/ ٦١ .

أنـا الغـلامُ الأعْسَرْ الخَـيرُ فيَّ والشرّ
والشرُّ فيَّ أكثرْ[1]

وفي يوم شَعْب جَبَلَة كانت بنو أسد تقاتل عبساً وعامراً إلى جانب حليفتها تميم ، ورأى رجل من بني أسد الابل التي حبسها بنو عامر وبنو عبس بالشِّعْب ، تنحدر عليهم من الشعب ، فقال مرتجزاً ومصوراً هول وقع المفاجأة على نفسه :

زعمتَ أن العِـيرَ لا تُقاتِلْ بلىَ إذا تقعقـعُ الرحائلْ
اختلف الهنـديُّ والذوابلْ وقـالت الأبطـالُ مَنْ يُنازِلْ
بلىَ وفيها حَسَبٌ ونائلْ[2]

ومن الأغراض التي استخدم فيها الرجز تحريض الناس على القتال والثبات في المعركة لإحراز النصر ، ففي يوم ذي قار ثبتت امرأة من عجل في المعركة وكانت تقول :

إن يظفـروا يُحَـرِّزوا فينـا الغُرْلْ إيهٍ فِدىً لكم بنـي عِجلْ

وتقول أيضاً محذرة القوم ومشجعة إياهم :

إن تَهْزِمـوا نُعانِقْ ونفـرش النمارِقْ
أو تُهْزَمـوا نُفارِقْ فـراقَ غـير وامِقْ[3]

ويحاول عمرو بن جبلة بن باعث بن صريم اليشكري رفع الروح المعنوية عند قومه ، فيهون من شأن جيش الفرس على الرغم من كثرة عددهم وعدتهم ، ويطلب منهم أن لا يكرموا إلاّ الذي يثبت عند لقاء الأعداء :

يا قوم لا تغـررْكم هذي الخِرَقْ ولا وميض البِيْض في الشـمس بَرَقْ
مَنْ لَمْ يُقاتـلْ منـكم هذي العُنُقْ فجنِّبـوه الـراحَ واسقـوه المَرَقْ[4]

ويذكر الشاعر قومه بنسائهم وحماهم وكل ما له منزلة في نفوسهم حتى لا يفروا من ساحة الوغى . ففي يوم ذي قار ، وحينما رأى العرب جيوشاً لم يألفوها في أيامهم وفي هذا اليوم فكر

---

(1) الأغاني/ كتب 11/ 190 .
(2) الأغاني/ كتب 11/ 141 .
(3) النقائض 2/ 641
(4) الأغاني/ ثقافة 23/ 232 .

بعض القادة في تجنيب قومهم الهلاك ، فكفروا في الالتجاء إلى الصحراء ليحتموا بها من فتك تلك الجيوش الجرارة . وعندما تصدى لهم يزيد بن المُكَسَّر بن حَنْظَلة بن سَيَّار يذكرهم بأهمية صمودهم ، كما يذكرهم بماضيهم :

مَنْ فَرَّ منكم فَرَّ عن حَرِيمِهْ ... وجـاره وفـرَّ عن نَدِيمِهْ
أنـا ابنُ سَيَّار على شكيمِهْ ... إنَّ الشِّراكَ قُدَّ من أديمِهْ(١)

وأما وصف المعارك ، ولسنا نطمع بأن يصادفنا وصف مسهب لتلك الوقائع كما رأينا في شعر البحور الأخرى ، فقد جاء منه على ألسنة الشعراء الكثير . ففي يوم زَرُود الأول يقول نُعامة ابن شَرِيك مرتجزاً :

استنزلـتْ رماحُنـا سِنانا ... وشيخَـهُ بطِخْفَـةٍ عِيانا
ثـم أخـوه قد رأى هَوانا ... لما فقدنـا بيننـا مَعْدانا(٢)

وفي يوم مُلْزِق يقول الأحدب بن أخي ربيعة بن جراد عندما أسر عمرو بن أبي ربيعة ، وقُتلت منهم قتلى كثيرون :

ذاكَ وعمـسي يوم جيش ملزقِ ... لاقى قطيناً فوقَ ظهـرِ الأبلقِ
فاحتلفنا الطعـن وضربَ الأسوقِ ... ثـم علاهُ بحسـامٍ مُخْفِقِ
يجتثُّ كلَّ ساعدٍ ومرفقِ(٣)

ومن أطول المقطوعات التي بين أيدينا مقطوعة للأغلب العجليّ في يوم الزُّوَيْرَيْن وتحدث فيها عن مجيء القوم ، ومجيء قومه ، وعرض لنا بعض أحداث ذلك اليوم ونتائجه :

جاءوا بزُوَيْرِهـُمْ وجئْنا بالأصَمّْ ... شيخٌ لنـا قد كان من عهـدِ إرَمْ
فكرَّ بالسيفِ إذا الرمـحُ انحطمْ ... كهمـةِ الليثِ إذا ما الليثُ هَمّْ
كانـت تميمٌ مَعْشَراً ذوي كَرَمْ ... مُخَلَّصـةً من الغَلاصِمِ العُظُمْ
قد نَفَخـوا لو ينفخـون في فَحَمْ ... وصـبروا لو صبـروا على أَمَمْ
إذ ركِبتْ ضَبَّـةُ أعجازَ النَّعَمْ ... فلـم تدع ساقاً لهـا ولا قَدَمْ(٤)

---

(١) النقائض ٢/ ٦٤٣ .
(٢) العقد الفريد ٥/ ٢٢٨ .
(٣) ديوان سلامة بن جندل ١٦ .
(٤) العقد الفريد ٥/ ٢٠٦ .

ونظم الشعراء من هذا الوزن شعراً في **التهديد والوعيد** ، فعندما قتلت بنو أسد حُجْراً ، وعلم امرؤ القيس بذلك قال مهدداً بني أسد :

والله لا يذهب شيخي باطلا حتى أبيرَ مالكاً وكاهلا

القاتلينَ الملِكَ الحُلاحِلا خيرَ معدٍّ حسَباً ونائلا

يا لهفَ هندٍ إذ خطِئْنَ كاهلا نحن جلبنا القُرَّحَ القوافلا[1]

وحالفت عبس بني كعب ، وحاولت الأخيرة الغدر بحلفائهم ، ففطن لهم بنو عبس وتصدى عنترة لهم يتهددهم ويحذرهم من مغبة غدرهم بقومه .

قلتُ من القومِ فقالوا سَفَرَهْ والقومُ كعبٌ يبتغون المنكرهْ

ثم اذهبي مني وكوني حَذِرَهْ[2]

واستعمل هذا الوزن في النقائض ، ففي يوم شِعْب جَبَلة جعل لَقيط بن زُرارة التميمي يقول :

عرفتـكمْ والدمعُ م العينِ يكِفْ لفارسٍ أتلفتموه ما خُلِفْ[3]

فقال شُرَيْح بن الأحوص العامري مجيباً :

إن كنتَ ذا صدقٍ فأقحمه الجُرُفْ

وقرِّب الأشقرَ حتى تعترفْ

وجوهنا إنا بنو البيض العُطُفْ[4]

ومن الأغراض أيضاً **الهجاء** ، يقول بشر بن أبي خازم الأسدي هاجياً أوس بن حارثه الطائي ، ذلك الهجاء الذي جر يوم ظهر الدهناء :

إنك يا أوسُ اللئيمُ محتده

عبد لعبد في كلاب تسنده

..... الخ الأبيات : [5]

---

(١) ديوان امرىء القيس ١٣٤ .

(٢) ديوان عنترة ٢٠٠ .

(٣) الأغاني/ كتب ١١/ ١٤٢ .

(٤) نفس المرجع السابق ١١/ ١٤٤ .

(٥) ديوان بشر بن أبي خازم ٥٩ .

وسعى هاشم بن حرملة في الحمالة للصلح بين عبس وذبيان ، فقال أحدهم مرتجزاً ومادحاً ذلك العمل العظيم فقال :

أحيا أبـاه هاشمُ بن حرملهْ ... يوم الرباتـين ويومَ اليَعْمَلَهْ

ترى الملـوكَ حولَـه مرعبلة ... يقتلُ ذا الذنب ومَنْ لا ذنب له[1]

وللرثاء نصيب من هذا الوزن ، على الرغم من ندرته ، ففي يوم شعب جبلة قُتل لقيط بن زرارة التميمي . فجعل لقيط يقول قبيل موته متصوراً ما ستفعله ابنته دختنوس :

يا ليت شعري عنكِ دَخْتَنوسُ ... إذا أتـاكِ الخبـرُ المرسوسُ

أتَحلِـقُ القُـرونَ أَمْ تَميسُ ... لا بل تَميسُ إنهـا عروس[2]

وهكذا فنحن أمام مقطوعات من الرجز ، نظمها الشعراء في أغراض مختلفة هي نفس أغراض البحور الأخرى ، ولكنها تتميز في أنها أكثر التصاقاً بساحات الوغى فهي مقطوعات قالها أصحابها في ساحات القتال ، ووسط غبار المعارك . ولعل هذا سر ضياع قسم كبير منها ونسيان قائليها .

وتتميز هذه المقطوعات التي نظمت من هذا الوزن بسهولة اللغة إذا ما قورنت بغيرها ، كما أنها لا تحمل لهجات قبلية ، كما أنها تكاد تخلو من أثر الصنعة أو التنقيح ، كما تكاد تخلو من الصور البيانية ، فقد نظمها أصحابها وارتجزوها في لحظات انفعال ، فلم يتأنوا في نظمهـا بل ارتجلوها ارتجالاً .

****

الخصائص المعنوية

١ ـ الواقعية :

لقد عاش الشاعر الجاهلي أحداث الأيام ، وكان بين مشترك اشتراكاً فعلياً فيها ، وبـين متأثر بأحداثها ، ولكن الشعر الذي ندرسه يشير إلى أن غالبية الشعراء الـذين شهـدوا تلك الحروب، وتأثروا بها وأثروا فيها، هم الذين صوروا لنا أحداثها، وهم الذين وقفوا مع قبائلهم يذودون عنها بألسنتهم قبل أيديهم.

(١) العقد الفريد ٥/ ١٥٨ .

(٢) الأغاني/ كتب ١١/ ١٤٤ .

ولقد خلقت تلك الأيام مواقف شتى لأولئك الشعراء ، وكان بديهيا أن يعبر الشعراء عن تلك المواقف ، فالقبيلة كان لها أعداء وخصوم ، كما أنها كانت تحتاج إلى من يدافع عنها ، كما كانت بحاجة إلى من يتغنى بمفاخرها ، ويرثي قتلاها ، ويقوّم المنحرفين من أبنائها بتذكيرهم بالواجب القبلي .

وكان الشاعر حينما يفتخر أو يهجو أو يرثي يلبي حاجة أساسية من التزامه نحو قبيلته ، ولكنه التزام ارتضاه الشاعر ورضي به ، ولم يفعله مرغماً ، ويفعله وهو مؤمن بذلك الذي يفعله إيماناً حاراً ، ويكون منفعلاً بتلك الأحداث متفاعلاً معها . فهو حينما يهجو قبيلة مناوئة لقبيلته فإنما يفعل ذلك لإحساسه بأن تلك القبيلة تحاول الإساءة اليه كما تحاول الإساءة الى قبيلته . وهو حينما يرثي بطلاً من أبطالها اختطفته يد المنون ، فإنما يرثي رفيق درب ، وأخاً في السلاح ، لنستمع إلى عنترة يرثي مالك بن زهير :

وقـد جلبـا حَيْنـاً بمصرعِ مالكٍ — وكان كريـمـاً ماجـداً لِهجانِ
وكان لدى الهَيْجاءِ يحمـي ذِمارَها — ويطعـنُ عنـدَ الـكرِّ كلَّ طِعانِ
به كنـتُ أَسْطـو حينما جَدّتْ العدا — غـداةَ اللِّقـا نحـوي بكلِّ يَمانِ
فقـد هَدَّ رُكْنِـي فَقْـدُهُ ومُصابُهُ — وخلّى فُؤادِي دائِـمَ الخَفَقانِ[1]

فعنترة حينما رثاه كان يتنازعه دافعان ، دافع قبلي ، ودافع مباشر يتصل بإحساسه نحو ذلك الفارس الذي سقط ، وكان همه حينما رثاه أن ينفس عن الانفعال الثاني الذي طغى على مشاعره . ولعل هذا ما دعا الدكتور النويهي إلى القول بأن الشاعر الجاهلي « لم يكن مأجوراً لقبيلته ، بل إنه اهتم بأن يصور ما وجده في صميم عاطفته هو ، وكان دافعه الأول أن ينفس عن هذا الشعور الشخصي القوي . ولم يكن همه أن يفوز برضى قبيلته ، ولو كان كذلك لما أنتج أدباً يستحق البقاء والخلود» .

وتعقيباً على هذا الرأي نقول إن الشاعر الجاهلي حقق بالتزامه الهدفين فهو قد عبّر عن ذاته التي هي جزء لا ينفصم من قبيلته ، وهو أيضاً قد عبّر عن قبيلته ووجدانها .

ونستطيع أن نقول أن نوعين من الصدق يتصلان فيما سوف نتحدث عنه فيما بعد مما يتصل بالواقعية ، وهما : الصدق الفني والصدق الواقعي . .

---

(١) ديوان عنترة ١٧٧ .

والشاعر حينما يقول الشعر فإن دافعين يلازمانه : الرغبة في التنفيس عن عاطفته نحو ما رآه وتأثر به ، ثم رغبته في وضع هذا التنفيس في صورة تثير في كل من يتلقاها نظير عاطفته . ويتمتع الشاعر بميزتين لا يتمتع بهما الفرد العادي في القبيلة ، فهو مرهف الحس ، ولديه قدرة انفعالية اقوى واعمق ، ثم لديه القدرة على نقل عاطفته في نوع من الأداء ليثير فينا نظيرها .

والشاعر حينما ينقل إلينا واقعاً من الواقع الكبير الذي يعيشه وتعيشه قبيلته ، فإنما ينقلـه وينقل معه عاطفته التي ثارت تجاه ذلك الواقع .

وهنا تثور أمامنا مشكلة الصدق بشقيه الفني والواقعي ، ونجد أنفسنا أمام آراء متضاربة في هذا الصدد ، سنحاول أن نعرض لها باختصار .

يقول قدامة[1] «والغلو عندي أجود المذهبين، وهـو ما ذهـب اليه أهـل الفهـم بالشعر والشعراء قديماً ، وقد بلغني عن بعضهم أنه قال: أعذب الشعر أكذبه ، وكذا يرى فلاسفة اليونان في الشعر» .

ويقول في موضع آخر[2]« إن مناقضة الشاعر نفسه في قصيدتين أو كلمتين بأن يصف شيئاً وصفاً حسناً ثم يذمه بعد ذلك ذماً حسناً بيناً غير منكر عليه ولا معيب من فعله إذا أحسن الذم والمدح بل ذلك عندي يدل على قوة الشاعر في صناعته واقتداره عليها» .

وواضح من هذين النصين أن قدامة وغيره من النقاد العرب القدماء كانوا يهتمون بشرف المعنى والأصابة في الوصف ، فدعـوا الى اختيار خير الصفات بحيث يصـور الممـدوح أو المحبوب ، أو يصف الموصوف على خير ما يؤلف من الصفات ، دون مبالاة بما يتطلبه صدق الموقف ، أو مراعاة الواقع .

وانطلاقاً من هذا المفهوم عندهم حكوا عن عمر أنه أثنى على زهير بن أبي سلمى ، لا بمدحه هرم بن سنان بما كان فيه من صفات ، بل لأنه مدحه بما كان يجب أن يكون في الرجال[3] .

فالنقاد أولئك لم يطالبوا الشاعر عندهم بالصدق الواقعي ووصف وقائعه كما يراها الشاعر أو كما يشعر بها، وكان رأي أكثرهم ألاّ يتقيد الشاعر بالصدق أو الكذب، بل أن يهتم بالصياغة فهي مقاييس براعته .

(١) نقد الشعر ـ قدامة بن جعفر ٣٤ ، ٣٦ .
(٢) نقد الشعر ـ قدامه بن جعفر ١٤ ، ١٦ . (٣) زهر الآداب ـ للحصري ١/ ١٠١ .

وانطلاقاً من مفهومهم هذا فإنهم لم ينكروا المبالغة ، بل رأى فيها أغلبهم خير مذهب ، فيها يراد جعله مثلاً لكي تثبت الصفة ويعتد بها كما أنهم لم ينكروا الغلو ، فالمهم عندهم الصياغة ، ولا ضير على الشاعر فيا يسوق من معان .

وإذا انتقلنا إلى النقاد المحدثين ، فإننا نجد الأستاذ العقاد يرى أن الصدق يتمثل في تعبير الشاعر عن عاطفته بغذاء من حرارتها لا بوقود من خارجها[1] . وأن الصدق الفني عنده هو صدق الشعور الذي يعبر عنه وصدور ذلك الشعور منه عن مزاج أصيل لا تكلف فيه ولا اختلاف[2] . ويميز الأستاذ العقاد بين الصدق في التجربة ومطابقة الواقع ، فيرى أن الصدق في التجربة هو النفاذ الى روح الموضوع والإحاطة بأصوله ومقوماته ، بخلاف مطابقة الواقع فهي جمع معلومات خارجية حول الموضوع لا تمس روحه ولا تدخل منه في مقوماته[3] .

فالعقاد يطالب الشاعر بالصدق الفني من غير أن يكلفه صحة الواقعة وصحة الصناعة أيضاً . ويقول « يجب ألاّ يخالف الشاعر ظاهر الحقيقة إلاّ ليكون كلامه أوفق لباطنها[4] » وآية الصدق عنده أن تكون نماذج شعر الشاعر تترجم لكل خالجة من خوالج نفسه الشاعرة وآثار تلك الحياة الباطنة والظاهرة .

ويرى في المبالغة ألاّ تعارض بينها وبين تضمين الشعر الصحيح لها ، وهو ينعى على الشعراء فهمهم لاجتناب المبالغة بأنه هو التزام الصحة والنظم في العلم والتحقيق ، لا في الخيال والأوهام . فالمبالغة ليست عيباً في الشعر ما دام الشاعر ملتزماً بالحقيقة الفنية[5] .

والدكتور النويهي يرى في الصدق الذي يتطلبه في الأدب أن يصدق الأديب في التعبير عن عاطفته التي أحس بها فعلا ، وإعلان عقيدته ، وليس معناه أن يكون نقلاً حرفياً للواقع الخارجي بكل حذافيره . ووظيفة الأديب عنده أن يصور عاطفة الإنسان نحو واقع ما ، ونظرته الخاصة الشخصية اليه ، وموقفه منه ، ورده عليه . وبمعنى آخر فإن الصدق الذي يعنيه هو إخلاص الأديب لعاطفته وتجربته الإنفعالية فهو مطابقة الكلام لعقيدة المتكلم[6] .

---

(١) مطالعات في الكتب ـ العقاد ٢٨٦ .
(٢) شاعر الغزل ـ العقاد ٨٦ .
(٣) ساعات بين الكتب ـ العقاد ٤٦ .
(٤) الفصول ـ العقاد ٢٩٠ .
(٥) ساعات بين الكتب ـ العقاد ١٢٢ .
(٦) وظيفة الأدب محمد النويهي ٤٩ ـ ٥٠ .

والفنان - في رأي النويهي - لا يحاول تصوير الواقع كما هو ، بل كما يراه ويعتقده ، ولا يصف جزئيات الطبيعة في تمام حرفيتها بل ممزوجة بعاطفته ومن خلال مزاجه الخاص . ولكنه ليس معنى هذا أن تطلق حريته في التصور إلى حد الانفصام التام عن الحقيقة المادية ، وإلاّ صار ضرباً من تصورات المس[1] .

وعندما يتحدث عن الصنعة ، يرى أن الأدب يقوم عليها ، وهي ركن أساسي فيه ، لأنه - أي الشاعر - لا يستطيع بدونها أن يحقق نقل العاطفة إلى الآخرين ، والصنعة لا تتعارض مع الصدق ، وإنما تتنافى معه حين يبالغ فيها حتى تصيرهي الهدف ، وينسى أنها لم تأت إلاّ لتمكنه من إبراز عاطفة صادقة إبرازاً يثير نظيرها في نفس السامع أو القارىء[2] .

ويضع شروطاً أربعة لكي نصف أديباً بالصدق :

الأول : أن تكون عاطفته التي يدعيها قد ألمت به حقاً ، وأن تكون عقيدته التي بينها هي عقيدته الحقه في الموضوع الذي يتناوله .

الثاني : أن تكون حدة تصويره ناشئة من حدة شعوره وقوة حساسيته ، لا عن رغبة في المبالغة والتهويل .

الثالث : ألاّ يخالف تصويره النواميس البدائية للكون كما نعرفه ، ولا حقيقة السلوك الإنساني فيا نخبره من البشر في تجاربهم ومواقفهم .

الرابع : أن يكون من شأن الصنعة فيه أن تزيد عاطفته جلاء وقربا ، لا أن تقف أمامها حجابا يشغلنا بتأمله عن النظر فيها .

ويرى أن التقدير النهائي مرده الى الذوق الفني الذي ينمو وينضج بإدمان القراء والتأمل والتفكير[3] .

وخلاصة رأيه عرضه في مقدمة كتابه فقال أنه يحاول أن يجد قصد السبيل ، بما يكفل للأديب خياله الخالق ، ويبقيه في نفس الوقت متصلاً بجذور الحقيقة المعاشية التي يحياها الإنسان . وبذلك يكون الأدب قد احتفظ بحريته الفنية والتزم برسالته الإنسانية دون ما تنافر بين الجانبين .

---

(١) نفس المرجع السابق ٦٠ . (٢) نفس المرجع السابق ٧٣ .
(٣) وظيفة الأدب - محمد النويهي ٧٨ .

وإذا ما انتقلنا إلى ناقد آخر هو الدكتور محمد غنيمي هلال نرى أنه يرى أن الصدق الفني أو الأصالة هو الأساس في تقدم الفنون جميعا ، وأن الفصل بين العمل الفني والصدق بنوعيه الفني والواقعي فيه مساس خطير بأسس الفن الجوهرية ، إذ لا يستطيع فنان أداء رسالته إلاّ بالتزام الصدق الواقعي على حسب ما يراه هو أو يفكر فيه كما يعتقده ، أو ما يشعر به ، ثم بالتزام الصدق الفني بالتعبير عن حقيقة أصيلة يرجع في تصويرها إلى ذات نفسه ،لا إلى ما حفظ من عبارات وسرق من جمل . وهو يرى أن هذا الصدق من الفنان قد يتطلب من الفنان أن يتحرر في فنه وأدبه من عقائد سائدة ، أو مزاعم اخلاقية واجتماعية قائمة[1] .

أما المبالغة فيرى فيها أنه ليس من الصواب قبولها على وجه الإطلاق ، ولا رفضها كذلك ، ولا تعميم القبول بقبولها في حال الاعتدال والتوسط كما قالوه بل الصواب قبول هذه الوجوه وسواها على أساس الصدق ، فإذا لم تزيف الحقائق ، ولم تصور غير الواقع ، ولم توهم الباطل ، كانت مقبولة ، بل قد تكون دعامة الصدق الفني لتصوير المعنى ، وإثارة الفكر والخيال ، وتوصيل أعمق الحقائق إلى العقل والقلب[2] .

وخلاصة ما يراه أن ما قاله القدماء ، وأسندوه إلى أرسطو من أن « أحسن الشعر أكذبه » لا أساس له من الصحة ، فالصدق الفني والواقعي دعامته الخلق ، وبدونه لا يوجد فن يعتد به ، وهذا - كما يقول - رأي الفلاسفة جميعها ، في كل عصر وزمان[3] .

وهكذا يتفق كل من العقاد والنويهي وغنيمي هلال على أن المبالغة ليست محظورة في الشعر ، ولكن وظيفتها أن تكون دعامة للصدق الفني لتصوير المعنى وإثارة الفكر ، ولكن وظيفتها أن تكون دعامة للصدق الفني لتصوير المعنى واثارة الفكر والخيال لا لتزييف الحقائق وتصوير الواقع تصويراً خاطئاً . وهذا الرأي قال به قديماً الجرجاني[4]حيث قال بأن الاستعانة بالمبالغة لا تمس بحال قضية الصدق في الأدب والفن إذا كان الكاتب يقصد بإيرادها توكيد المعنى .

وقبل أن نختتم حديثنا عن الصدق نود أن نشير باختصار إلى رأي آخر هو الدكتور مصطفى ناصف ، وهو يرى أن الصدق قد رادف الجودة وسارا معاً في كل مكان ، وأن العناية

(١) في النقد الأدبي - محمد غنيمي هلال ٢٢٤ .
(٢) نفس المرجع السابق ٢٣١ .
(٣) نفس المرجع السابق ٢٣٠ .
(٤) اسرار البلاغة - عبد القاهر الجرجاني ٢٣٨ - ٢٣٩ .

البالغة بالصدق صرفتنا عن تحليل الشعر ذاته ، وهو يرى أن العمل الأدبي ليس ترجمة للعاطفة وإنما هو تأويل لها ، وبما يحيل القول في الصدق والكذب مجرد تعبير عاطفي لا خير فيه تعقد البواعث الإنسانية واختلاطها ، وبما يفضي عن كثير من شؤون النص ذاته السؤال عن صدق الشاعر في حدوده البسيطة[1] .

وبعد ، فقد فصلنا القول في الصدق بشقيه الفني والواقعي ، وعرضنا لمختلف ما ذهب اليه النقاد ، حتى يكون ما سنعرضه تطبيقاً عملياً لذلك .

فالواقعية بمدلولها اللغوي تعني تصوير الواقع والتعبير عنه ، وهي قديمة قدم الأدب والفن ، وموجودة قبل أن يكون لها أنصار وخصوم . وكانت آداب العصور الزمانية والمكانية التي نبع منها وعبر عنها بصدق .

والواقعية الهادفة تتحقق بكل تعبير فني عن الواقع الإجتماعي يستهدف تثبيت ما فيه من قيم أصيلة صالحة وتعميق ما أخذت فيه أو تصبو اليه الجماعة أو الإنسانية من قيمم منشودة ، وتغيير ما في المجتمع من قيم فاسده وأوضاع سيئة ومفاهيم مضلله .

وقد قال معظم الباحثين بواقعية أدبنا العربي في العصر الجاهلي قبل أن توجد الواقعية كمذهب بمئات السنين ، كما كان الشعر بعيداً عن التكلف والإغراق في الخيال ، وكان الشاعر يحاول نقل الأحاسيس والأشياء نقلاً أميناً[2] .

وسنحاول في عجالة أن ندلل على ما أجمع عليه الباحثون من واقع الأيام الذي هو موضوع دراستنا هذه . فقد حاول أولئك الشعراء نقل طبيعة حياتهم الينا كما كانت دون محاولة لتزيين قبيحها أو تغيير واقعها . يقول دريد بن الصمة مصوراً حياة القبيلة الدامية ، ويعترف بأن قومه ليسوا محرمين على القتل بل هم اللحم للسيف:

فإما تَرَيْنا لا تزالُ دماؤنا   لَدَى واتِرٍ يسعَى بها آخِرَ الدهرِ
فإنا لَلَحْمُ السيفِ غيرَ نكيرةٍ   ونُلْحِمُهُ حيناً وليسَ بذي نُكْرِ
يُغارُ علينا واتِرين فَيُشْتَفَى   بنا إن أُصِبْنا أو نغيرُ على وِتْرِ

---

(1) دراسة الأدب العربي - مصطفى ناصف ٣١٢ - ٣٢٢ .
(2) أنظر العصر الجاهلي - شوقي ضيف ٢١٩ ، تاريخ الشعر العربي - نجيب البهبيتي ٦٠ وما بعدها ، الواقعية في الأدب - عباس خضر ٦ .

قسمنـا بذاك الدهـر شطـرين بيننا   فما ينقضي إلا ونحـن على شَطْرِ[1]

ولم يكن الشاعر ليحاول إخفاء ضعف أو عيب في قومه ، حتى ولو كان يصور في قومه قمة الانتصار ، ففي يوم ذي قار يتغنى الأعشى بذلك النصر ، ومع ذلك لا ينكر حالة الذعر والخوف التي انتابت النسوة وهن خلف الجيش يشهدن تدفق جيوش الفرس :

وظعننا خلفنـا تجـري مدامعها   أكبادهـا وجـلاً مما تخف
يحسرن عن أوجـه قد عاينـت عبراً   ولاحهـا عبـرة ألوانهـا كشف[2]

ويرثي امرؤ القيس أهله الذين قتلهم بنو أسد ، ويصور ما أصابهم تصويراً لا تزيين فيه ولا مبالغة ، ولم يحاول أن يخفى النهاية غير اللائقة بهم كملوك :

فلـم تغسـل جماجمهـم بغسل   ولـكـن بالـدمـاء مرملينا
تظـل الطـير عاكفـة عليهم   وتنتـزع الحواجـب والعيونا[3]

ولم يغفل شاعر الأيام نفسه ، والتعبير عن واقعه ، وقد نقله إلينا نقلاً أميناً ، فلم يحاول إخفاء ما يقلل من قدره . فعامر بن الطفيل يعترف يوم فيف الريح بضراوة المعركة وبأن الدماء قد بلت نحره . وصدر حصانه :

وما رمت حتى بل نحري وصدره   نجيع كهداب الدمقس المسير[4]

واعترف قبل ذلك بتركه المعركة ، وبأنه لم يبرحها حتى بل نحره وصدر حصانه الدم الغزير .

ويقول عامر نفسه يوم فيف الريح محدثاً فرسه ومعترفاً بالرماح التي تتناوشه :

ألسـت ترى أرماحهـم فيَّ شرَّعاً   وأنت حصان ماجد العرق فاصبر[5]

وهذا عبد الله بن جذل الطعان يصور حال قومه بعد مقتل ربيعة بن مكدم فارسهم، فيعترف ببكاء نسوته ونسوة قومه ولكن نسوة الأعداء قد بكت قبلهن على قتلاهن :

فإن تك نسواني بكين فقـد بكت   كما قد بكت أم لكرز ومالك[6]

ويعترف عنترة بهزيمته أمام بني سليم لأنه كان حاسراً ويتوعدهم لو كان عليه درعه ،

---

(١) حماسة أبي تمام ٢/ ٨٢٥ .
(٢) الأغاني/ ثقافة ٢٣/ ٢٤٠ .
(٣) ديوان امرىء القيس ٢٠٠ .
(٤) المفضلية ١٠٦ .
(٥) المفضلية ٦١ ، الديوان ص ٦١ .
(٦) العقد الفريد ٥/ ١٧٥ .

ويعترف لهم بالنصر وبحقهم في الإبل :

خذوا ما أسـأرت منهـا قداحي ورفـد الضيف والأنس الجميعُ
فلـو لاقيتنـي وعليَّ درعي علمـت علامَ تحتمـل الدروعُ[1]

ولعل من أبرز المظاهر التي تتجلى فيها الواقعية في شعر الأيام اعتراف **الشاعر الفارس بشجاعة خصمه**، فمهلهل الذي يمتلىء قلبه حقداً على بكر يعترف مع كل هذا الحقد بشجاعتهم في يوم عنيزة :

كأنـا غدوة وبنـي أبينا بجـوف عنيزة رَحَيا مُدير[2]

ودريد بن الصمة يتحدث عن ربيعة بن مكدم وهو فارس من أعدائه وقد قتل من فرسان دريد ثلاثة ومع ذلك فهو يقول عنه :

وتـرى الـدوارس من مخافـة رمحه مثـل البغـاث حشـين وقـع الأجدل
يا ليت شعـري من أبـوه وأمه يا صاح من يكُ مثلـه لا يجهل[3]

وإذا قتل خصمه فلا يخشى أن يعترف صراحة بندمه على قتله ندماً شديداً ، يقول القتال الكلابي :

ولما رأيت أننـي قد قتلته ندمـت عليه أي ساعـة مندم[4]

ويعترف الشاعر بتقتيل الأعداء قومه ، يقول البراء بن قيس الكنـدي في يوم الـكلاب الثاني :

قَتَلَتْنـا تميمٌ يومـاً جديداً قتـلَ عادٍ وذاكَ يوم الكلاب
يوم جئنـا يسوقنـا الحـين سوقاً نحـو قوم كأنهـم أسـد غاب[5]

ولم يكن الشعراء ليخفوا عيوب قادتهم إذا لم يكشفها أولئك القادرة الفرسان أنفسهم ، ولو أن في إظهار تلك العيوب حطاً من شأنهم وشأن قبيلتهم ،في يوم النسار فر الطفيل وجَوَّاب العامريان ، فتصدت سلمى بنت المحلق العامرية تعيرهما بذلك :

---

(١) ديوان عنترة ١٠٥ .
(٢) الأمالي ٢/ ١٣٠ ، الأصمعية رقم ٥٣ .
(٣) الأغاني/ كتب ١٦/ ٦٦ .
(٤) الحماسة البصرية ١/ ١٠٥ ، الأغاني ٢٠/ ١٥٩ .
(٥) الأغاني/ كتب ١٦/ ٣٣٩ .

لم يمنعـوا القـوم إذ شلُّـوا سَوامكم ... ولا النسـاء وكان القـوم أحزابا[1]

وينعت العوام الشيباني قومه بني شيبان بالنعام لجبنهم وهربهم يوم العُظالى.

كنتـم أسـودا في الوغى فوجدتم ... يوم الأفاقـة بالغبيط نعاما[2]

وعندما يقف الشاعر مدافعاً عن قبيلته فإنه ، على الرغم مما عرف عن ولائه لها ، لا يتأخر في تبصيرها بما هي مقدمة عليه وتذكيرها بقوة الخصم أو المصير الذي ينتظرهم . فالنابغة نهى قومه عن الاقتراب من المراعي التي حماها الغساسنة وحذرهم ، ولم يخف ما ينتظرهم لو فعلوا ذلك فقال : [3]

لقـد نهيت بنـي ذبيان عن أقر ... وعـن تربعهـم في كل أصفار

وقلـت يا قوم إن الليث منقبض ... على براثنـه لعـدوة الضاري[4]

ويستعر فيصور حال نساء قومه في حالة غزو ملك الغساسنة بجيشه وأسرهن :

لا أعرفـن ربربـاً حوراً مدامعها ... كأنهـن نعـاج حول دوار[5]

ينظـرن شزرا إلى مرّ عَن عرض ... بأوجـه منكـرات الـرق أحرار[6]

خلف العضاريط من عوذي ومن غمم ... مردفـات على أحنـاء أكوار[7]

يذرين دمـع مزاد دمعهـا درر ... يأملن رحلـة حصـن وابـن سيار

ويصور لقيط بن زرارة التميمي ما فعل عمرو بن هند بقومه يوم أوارة الثاني فيقول[8]

يهـين سراتـكم عامدا ... ويقتلـكم مثـل قتـل الكلاب

فلـو كنتـم ابـلا أسلحت ... لقـد نزعـت للمياه العذاب[9]

ولكنـكم غنـم تصطفى ... ويتـرك سائرهـا للذئاب

---

(١) النقائض ١/١٤٢ . (٢) النقائض ٢/٥٨٦ .

(٣) ديوان النابغة ٨٠ ـ ٨٣ . (٤) منقبض : مجتمع مستعد متهيء للوثوب .

(٥) ربرب : قطيع من البقر ، النعاج : إناث بقر الوحش . دوار : نسك يدار حوله .

(٦) عرض : إعتراض .

(٧) العضاريط : اتباع ، أكوار : رحال ، عوذي وعم : من لخم

(٨) الأغاني / ثقافة ٢٢/١٩٣ ـ ١٩٤ . (٩) أسحلت : أسرعت .

ولكن الشاعر حيناً يفتخر بقبيلته وبأمجادها فإنه ينقل الصورة التي يتمثلها هو لقبيلته : عزيزة منيعة ، لا يطأ حماها أحد ، وتستبيح حمى غيرها ، فرسانها ليوث وغى . ولكنها ليست مبالغة مرفوضة فهي تصور حرص القبيلة على كل ما يرفع من قدرها ، ولا تسمح بما يقلل من قيمتها ، وتبذل دماء بنيها في سبيل ذلك . فالشاعر هنا يعمد إلى المبالغة لتثبيت واقع تحاول القبيلة المحافظة عليه ، ويستخدم مبالغاته من واقع الحياة الجاهلية . هذا شريح بن الحارث اليربوعي يتحدث عن قومه مفتخراً بيوم طخفة :

حمانا حمى الأسد التي لشبولها ... تجر من الأقران لحما على لحم
علا جدهم جد الملوك فأطلقوا ... بطخفة ابناء الملوك على الحكم[1]

ويفخر دريد بن الصمة بفرسان قومه الشيب منهم والشباب ، الفرسان منهم والراجلة ، فيقول :

دعوت الحي نصرا فاستهلوا ... بشبان ذوي كرم وشيب
على جرد كأمثال السعالي ... ورجل مثل أهمية الكثيب

فعددهم كما نرى كثير جداً ، وكذلك فإن القتلى الذين يتركونهم من الأعداء كثيرون :

فكم غادرن من كاب صريع ... يمج نجيع جائفة ذنوب[2]

وفرسان القوم ، عند قتادة بن مسلمة الحنفي ، وعليهم الحديد المصقول كأنهم النجوم ، وهم أسود في الوغى :

ومعي أسود من حنيفة في الوغى ... للبيض فوق رؤوسهم تسويم
قوم إذا لبسوا الحديد كأنهم ... في البيض والحلق الدلاص نجوم[3]

وانتصرت عامر في يوم فيف الريح على قبائل اليمن ، وصور لنا عامر بن الطفيل ما فعله هو وفرسان عامر بنساء القوم ، فقد بقروا بطون الحبالى ، ولم يحاول الشاعر إخفاء تلك الصورة القبيحة من المثلة بالنسوة ، كما يعترف في القصيدة نفسها بأن حبالى نجران كانت تبيل دماً من خوفهن من فرسان عامر ، ولا يخفى ما في هذين المشهدين من قبح ، ولكن واقعية الشاعر المسرفة وحرصه على رصد الواقع أو ما يتخيله واقعاً أجبره على ذلك .

---

(١) النقائض ١/ ٦٩ .
(٢) الأغاني/ كتب ١٠/ ٢٧ .
(٣) حماسة أبي تمام ٢/ ٧٧٠ .

بقرنا الجبالى من شنوءة بعدما — خبطن بفيف الريح نهداً وخثعما

ونحن صبحنا حي نجران غارة — تبيل حبالاها مخافتنا دما[1]

ويتصدى شاعر الأيام لهجاء كل من يحاول النيل من قبيلته ، وأهم ما يتميز به هجاؤهم أن الشاعر كان حريصاً على كل ما يحطم معنويات المهجو ، فتارة يهجو الخصم معيراً إياه بالسبي وبحال السبايا كما فعل امرؤ القيس حين قال :

إنا تركنا منكم قتلى وجر — حى وسبيا كالسعالي

يمشين حول رحالنا — معترفات بجوع وهزال[2]

وتارة يرى أن يستثير المهجو بتصوير حال نسائه ونساء قومه مع الأعداء ، فقد هجا النابغة الذبياني عبساً لمجاورتهم بني شكل فقال[3] :

إذا شاء منهم ناشىء دربخت له — لطيفة طيّ الكشح رابية الكفل[4]

وأصبحتم والله يفعل ذاكم — ... النساء المرضعات بنو شكل

ويستعمل الكثير من شعراء الأيام ، للنيل من خصوم قبائلهم ، الألفاظ المستهجنة والجارحة ، والتي يخدش بعضها الحياء وهو إنما يفعل ذلك ليحطم معنوياته ، ولتأثره البالغ من ذلك الخصم . ففي يوم الهباءة قتل حذيفة بن بدر وكان قبلها قد قتل الغلمة من عبس ، وشفى قتله صدر العبسيين على الرغم من اعترافهم بأن غطفان خسرت قائداً من قوادها ، وعبروا عن ذلك بأقذع الهجاء ، يقول الربيع بن قعنب :

خلق المخازي غير أن بذي حسا — لبني فزارة خزية لا تخلق

تبيان ذلك أن في است أبيهم — شنعاء في صحف المخازي تبرق[5]

ولا نستطيع التمادي في عرض هذه النماذج ، ولكننا نشير إلى بعض الأمثلة لمن شاء الرجوع إليها ، فمن الهجاء المقذع قول قيس بن عاصم[6] ، ورجل من ذبيان[7] ، وبشر بن أبي خازم[8] ، وعقيل بن علفة المري[9] ، والعباس بن مرداس السلمي[10] .

---

(1) ديوان عامر بن الطفيل ١١٨ .

(2) ديوان امرىء القيس ٢١٠ .

(3) ديوان النابغة ٢١٤ .

(4) دربخت : قامت على أربعة ليفعل ما يريد بها .

(5) العقد الفريد ٩٦ .

(6) النقائض ١١٦/١ .

(7) النقائض ٢٤٢/١ .

(8) المفضلية رقم ٤٦ .

(9) العقد الفريد ١٥٧/٥ .

(10) الأغاني / كتب ٣٤٦/١٥ .

وحيناً ارتقى الشاعر الجاهلي وسمت نفسه في تكفيرها ، وأراد تبغيض الناس بالحرب ، لجأ إلى نقل صورة واقعية حية مستمدة من واقعهم لينقل صورة لها ولأثرها وليصل إلى غايته . فعل ذلك زهير بن أبي سلمى حين قال عنها وعن أثرها :

فتعـــركـكـم عرك الرحـــى بثفالها ... وتلقـــح كشافـــاً ثم تنتـــج فتتئم

فتنتـــج لكم غلمان أشـــأم كلهم ... كأحـــمر عاد ثم ترضـــع فتفطم

فتغلل لكم ما لا تغـــل لأهلها ... قـــرىً بالعـــراق من قفيز ودرهم[1]

وينقل لنا امرؤ القيس أو عمرو بن معد يكرب صورة من الواقع للحرب وتطو ـ نشوبها :

الحـــرب أول ما تكون فتية ... تسعـــى بزينتهـــا لكل جهول

حتى إذا استعـــرت وشـــبّ ضرامها ... عـــادت عجـــوزاً غـــير ذات خليل

شمطـــاء جزت رأسهـــا وتنكرت ... مكروهـــة للشـــم والتقبيل[2]

وفي الرثاء ، حيث يجزع القوم لفقد فارس من فرسانهم ، ولكنهم يحاولون إخفاء ذلك فيفتخرون ويذكرون بطولات القتيل ، ويتوعدون ، ومع كل ذلك فإن بعض الشعراء لا يقوى على إخفاء مشاعره الحقة ، هذا الربيع بن زياد العبسي يبلغه مقتل مالك بن زهير فيقول مصوراً أثر ذلك على نفسه وعلى القبيلة :

مـــن كان مسروراً بمقتـــل مالكٍ ... فليأتِ نسْوتنـــا بنصف نهار

يجـــد النســـاء حواسراً يندبنه ... يبـــكين قبـــل تبلّـــج الأسحارِ

قـــد كن يخبـــأن الوجـــوه تستراً ... فـــاليوم حـــين بدون للنظار

يخمشن حرات الوجوه على امرىء ... سهـــل الخليقـــة طيب الأخبار[3]

والأمثلة على أن الشعر الذي قيل في الأيام واقعي في غالبيته كثيرة ، ولكننا اكتفينا ببعض الشواهد ، ولو شئنا استيفاء كل مظاهرها لما اسعفنا البحث وحدوده .

---

(١) شرح القصائد السبع الطوال ٢٦٨ ـ ٢٦٩ .

(٢) ديوان امرىء القيس ٣٥٣ ، الحماسة البصرية ١٨/١ ينسبها إلى عمرو .

(٣) أمثال الضبي ٣٠ .

القصصية

عرفنا أن شعراء الأيام كانوا ، في غالبيتهم ، من الفرسان المقاتلين ، وأن هؤلاء الفرسان تمرسوا بفنون الحرب . وقد كسبهم هذا التمرس وطول مشاهدتهم للمعارك دقة في وصف المعارك وفي حسن التصوير . وقد كانت المعارك في حياتهم مناط عزهم ومدار فخرهم ، يرددونها ، ويرون كل شيء في سبيل الانتصار رخيصاً حتى أرواحهم ولقد استعذبوا الموت في سبيل الكرامة والعزة والشهامة ، ودفعوا أرواحهم ثمناً لعزة قبائلهم واستغلالها الذاتي .

وكان شعراؤهم يصفون لنا تلك المعارك التي كانوا يخوضونها وصفاً دقيقاً يمتلىء حيوية ، ويتسم بالواقعية ، فهو صوت شاعر عاش أحداث تلك الحرب وخاض غمراتها . وكان وصفهم لتلك المعارك مرتبطاً بهدفين :

الأول : قبلي ، يهدفون من ورائه رفع أسم القبيلة عالياً بين القبائل ، حتى يهابها الجميع ، ويعلموا بأسها ، وليفكروا كثيراً قبل أن يقدموا على غزوها .

والثاني : فردي متصل بالقبيلة ، يلجأ فيه الشاعر إلى الفخر بشجاعته وبلائه في تلك الحروب ، ممزوجاً بالفخر القبلي أحياناً ، أو مستقلاً ،وهو إنما يفعل ذلك تعبيراً عن ذاتيته التي لا يستطيع الغاءها ، وتصويراً لبطولة فرسان القبيلة ممثلاً في بطولته .

والشاعر عندما يصف تلك المعارك ، ويصور تلك الأحداث ، فإنه يضع الهدفين السالفين نصب عينه ، فهو يقص علينا المعركة في صور مختلفة سنعرض لهد بعد قليل ، طبقاً لما يراه أكثر تأثيراً في مجتمعه .

والحرب حركة وكر وفر ، وضرب وسقوط فرسان ، وبريق سيوف ، وغبار يحجب الأبصار ، كل مشاهدها حركة ، ولا بد أن يدخل هذا في اعتبار الشاعر عندما يشرع في وصف المعارك ، وأن يختار من الألفاظ والأوزان ما يساعده في تجسيم الصورة بحيث تبدو وكأنها تنبض حركة وحيوية وتأثيراً في نفوس السامعين ، ليحقق الغرض الذي يهدف إليه . ولعل ما نرمي إليه ، توضحه هذه الصورة السريعة في تتابع أحداثها والتي لم تزد على أبيات ثلاثة ، وفيها يصور فيها عمرو بن كلثوم يوم خزاز فيقول :

ونحن غداة أوقد في خزاز رفدنا فوق رفد الرافدينا
فكنا الأيمنين إذا التقينا وكان الأيسرين بنو أبينا

فآبـوا بالنهـاب وبالسبايا وأُبْنـا بالملـوك مصفدينا[1]

فالشاعر انتزع بضعة مشاهد من اليوم ، إيقاد النار فوق خزاز ، ثم الإطباق على الأعداء ولم تكن إلاّ صورة واحدة لتصوير سرعة القضاء عليهم والفتك بهم ، ثم قفز إلى النتيجة الحاسمة وهي النصر الذي عبر عنه بالنتيجة وهي نهب وسبي وملوك مصفدون بالقيود كأسرى . فالشاعر اختار من أحداث ذلك اليوم ما هو كفيل برفع أسم ومكانة قومه في ذلك المجتمع الذي قدس القوة ومجدها .

وحينا عرض خداش بن زهير ليوم العَبْلاء ، عرضه في أوجز صورة ، ولكننا محققة لهدفه وهدف القبيلة فهو يقول :[2]

ألـم يبلغك بالعبـلاء أنـا ضربنا خندفـاً حتـى استقادوا[3]

نُبَنِّـي بالمنـازل عزّ قيس وودُّوا لو تسيخ بنـا البلاد[4]

فقد حقق بهذين البيتين الإعلان عن اليوم وهو يوم العبلاء ، يوم من أيام الفِجار الآخر ، كما حدد النتيجة في تلك الوقعة وهي هزيمة خندف وخضوعها لقومه هوازن ، وألمح في البيت الثاني إلى أن قومه إنما يبنون عز قيس ذلك الفرع الكبير الذي ينتمي إليه قومه .

وقد أجاد عنترة العبسي ، ذلك الفارس الذي ذاع صيته في تصوير مقاطع تفيض حيوية وحركة من تلك المعارك التي خاضها ، يقول في إحدى قصائده مصوراً اللقاء والاقتتال :[5]

فجـاءوا عارضـا برداً وجئنا حريقـاً في غريف ذي ضرام[6]

وأسكت كل صوت غـير ضرب وعترسـة ومرمـيّ ورامي[7]

وزعـت رعيلهـا بالرمـح شذراً على ربـذ كسرحـان الظلام[8]

---

(١) الكامل لابن الأثير ١/ ٥٢٢ ، العقد الفريد ٥/ ٢٤٦ ، شرح القصائد السبع الطوال ٤٠٩ .

(٢) الأغاني/ ثقافة ٢٢/ ٧٢ .

(٣) خندف : أحد فخذي مضر بن نزار .

(٤) قيس : قيس بن عيلان وهو الفخذ الثاني من مضر ، تسيخ : تخسف ، استقادوا : ذلوا وخضعوا .

(٥) الديوان ١٥٨ - ١٥٩ .

(٦) الغريف : الشجر الملتف .

(٧) العرسة : العنف والشدة .

(٨) وزعت : كففت ، الربذ : الخفيف القوائم في مشيه .

ولن نحتاج إلى إيضاح لنبين كيف ينتقل عنترة بنا من زاوية إلى أخرى من زوايا صورة المعركة إلى أن يثبت أعيننا أو خيالنا على صورة رحيل القوم ، أي سيدهم وهو يطعن برمح عنترة .

وقد ربط أستاذنا الدكتور شوقي ضيف بين تلك الحركة التي تميز بها شعر المعارك ، وبين القصصية ، وبين ميل الشعراء إلى السرعة والايجاز فقال إن تلك الحركة قد أتاحت لشعرهم ضرباً من الروح القصصية ، ولكن هذه الروح لم تتسع عندهم لأن حركتهم وميلهم إلى السرعة والإيجاز أضعفت تلك الروح القصصية ولم تتسع عندهم . وبذلك لم يظهر عندهم ضرب من ضروب الشعر القصصي[1] .

وقد ذهب نفس ما ذهب إليه الدكتور شوقي ضيف، الدكتور زكي المحاسني حيث يقول: « ولم يكن وصف شعرائهم للمعارك وصفاً مطولاً يأخذ بالكلام من أوائله حتى ينتهي إلى أواخره كما تدعو الحوادث. فليس لديهم قصائد تمسك بأوائلها حتى تبلغ نهايتها فتريك صوره معركة منذ بداية الوقعة إلى ختامها ، وإنما هي فترات شعر في لمحات وصف مقتضبة مجتزأة يتبين فيها الروح العربي البياني الذي انطوى منذ كان على الإختصار في سرد الصور ، أو الزهد في التقصي» [2] .

ونحن لا ننكر أن البيان العربي يتسم بسمة كبرى واضحة هي الايجاز ، ولكننا نعتقد أن شاعر الأيام كان مدركاً طبيعة مهمته القبلية ، متفهماً لمسؤوليته الأعلامية - إن صح التعبير- التي أوكلتها إليه قبيلته . ولئن كانت صورة تلك الحروب وطبيعتها، على الرغم من الدراسات التي قامت حولها لا زالت غامضة . فإن الواضح في أذهاننا أن طبيعة العصر، وعدم انتشار وسائل الكتابة، واعتماد الشعر على الرواة في تناقله ونشره بين الناس. كل هذه العوامل أثرت على الشاعر، وهو المدرك لهذه المؤثرات قبل أي مخلوق آخر ، فجعلت هذا الشاعر يعطي الصورة بقدر ما تخدم مصلحة القبيلة ، وبحيث يتاح لها الانتشار . ولكن هذا الشاعر لم يكن ليتردد في الاسهاب والإطالة إن رأى في ذلك مصلحة القبيلة ، أو رأى أن الأطالة تعطي صورة أوضح .

وأبسط مثال لما نقول أن خداش بن زهير وصف أياماً من أيام الفجار وهي شمطة ، والحريرة، ونخلة، والعبلاء، وعكاظ . وسلك في تصويره كلاً من هذه الأيام الخمسة أسلوباً مختلفاً ، كما أن الأبيات التي شغلها هذا الوصف تتراوح بين الطول والقصر من حيث العدد ، وبلغت عدة أقلها بيتين ، وأكثرها اثني عشر بيتاً من الشعر .

---

(1) العصر الجاهلي شوقي ضيف ٢٢٥ .
(2) شعر الحرب في أدب العرب - زكي المحاسني ٣٤ .

وإذا كنا نأخذ بعين الاعتبار ضياع وسقوط قسم من الشعر أثناء تلك الرحلة الشفوية ، فإننا نميل إلى الاعتقاد بأنه لو وصلنا شعر الأيام كاملاً لتغيرت الصورة التي نتمثلها عن تصوير الشاعر لتلك الأحداث ، وأمامنا بعض المعلقات والمطولات في المفضليات وفي دواوين بعض الشعراء ، التي أسهب الشعراء في وصف تلك المعارك وأجادوا . ولكننا مع ذلك نعترف بأن الصورة التي عرضها أولئك ما زالت موجزة إذا ما قارناها بتلك الملاحم في الآداب الأخرى .

وقبل أن نضع هذا الشعر في مكانته الحقيقية من ألوان الشعر ، وقبل أن ننفي عنه أو نؤكد القصصية ونبين مدى بروزها فيه ،نود أن نعرض لآراء الباحثين الذين عرضوا لدراسته من هذه الزاوية .

ففريق من الباحثين قال **بغنائية الشعر الجاهلي** ، ومن هؤلاء **بطرس البستاني** الذي قال ان الشعر الجاهلي كان ، غنائياً شخصياً غارقاً في المادة ، قصير القصص، موجز الوصف، متقطع الأنفاس . وقد عزا ذلك إلى عوامل ثلاثة هي : أنانية الشاعر الجاهلي ، وصرفه عنايته إلى التحدث عن غزواته ومشاهده لأنه يباشر الحرب بنفسه ، ولانحصاره ضمن الحدود الوجدانية ، وهو يتغنى ببطولته ، ويردد ذكريات ماضية في نفثات حماسية قصيرة[1] .

والأستاذ أحمد حسن الزيات ينفي أن يكون للشعر القصصي والتمثيلي أثر في الشعر الجاهلي ، وهو يؤكد غنائية ذلك الشعر بطريقة غير مباشرة . ويرى أنهم شغلوا بأنفسهم عن النظر فيمن عداهم[2] .

ويقول الدكتور شوقي ضيف « نحن لا نبعد حين نزعم أن الشعر الجاهلي جميعه غنائي ، فهو يصور نفسية الفرد وما يتخلجه من عواطف وأحاسيس» [3] وذهب نفس المذهب الدكتور حسين نصار حين قال إن شعر الأيام كله شعر غنائي[4] .

وذهب فريق آخر من الباحثين إلى القول **بوجود ملامح قصصية في ذلك الشعر** وأول القائلين بذلك الدكتور طه حسين الذي رجح وجود نوع من الشعر القصصي وهو البالاد، أي القصة القصيرة[5] .

---

(١) الشعراء الفرسان ـ بطرس البستاني ١٦ ـ ١٧ .
(٢) تاريخ الأدب العربي ـ احمد حسن الزيات ١٩ .
(٣) العصر الجاهلي ـ شوقي ضيف ١٩٠ .
(٤) مجلة الأقلام العراقية ـ عدد كانون ثاني ١٩٦٦ ص ١٠٨ .
(٥) حديث الشعر والنثر ـ طه حسين ٥٧ .

وقطع سليان البستاني بوجود نوع آخر من الشعر القصصي ، واعتبر المعلقات رأس الملاحم العربية ، وأنها ملاحم قصيرة مقولة في حوادث مخصوصة ، ومال إلى اعتبار شعر الأيام أقرب إلى القصص منه إلى الغنائي[1] .

وقال الدكتور شوقي ضيف بوجود روح قصصية في الشعر الجاهلي ، ولكن حركتهم وميلهم الى السرعة والايجاز أضعفت ذلك ، ولكنه جعل هذين العاملين عائقاً في سبيل ظهور ضرب من ضروب الشعر القصصي عندهم[2] .

واتفق كل من أحمد حسن الزيات[3] ، وعبد الحميد يونس[4] ، وحسين نصار[5] على وجود الشعر القصصي من نوع البالاد في الأدب الرسمي ، وقطعوا بمعرفة العرب للملحمة التي يتعاقب فيها الشعر النثر.

ويعتبر أحمد كمال زكي شعر الأيام شعراً ملحمياً مستنداً الى أن أبطال الأيام من الرجال والملوك والكهان ،أما الآلهة فيدخل ذكرهم في باب الأساطير ،كما نرى في يوم الزويرين من قصة الجملين الصغيرين اللذين كانا يعبدان، وفي يوم الفجار قصة الصنم دوار . والبطل عنده هو الإنسان المأساوي الذي حدثنا عنه الشعراء الجاهليون . وهو يؤكد بأن الأيام ركزت على الملك والكاهن ! بل كثيراً ما قرنت الملكية بالكهانة[6] .

واعتبر الدكتور المحاسني وسعد الدين الجيزاوي شعر الأيام ملحمة كبرى مقطعة الأوصال ، الأفكار متقاربة ، والخواطر متقاربة أيضاً ، بل متحادية ومتشابهة ويرى بوجود شبه في النسج والمعنى في المعلقات العشر مما يساعد على تآلف ملحمة عربية جاهلية تؤخذ من الشعر الجاهلي ، فتنتخب من مقاطع وقصائد لكل شاعر تمثل فروسيتهم ، وتذكر حروبها وأيامها بالتسلسل والترتيب[7] .

ونفى فريق ثالث وجود ملحمية أو قصصية في الشعر الجاهلي ، ومنهم الدكتور طه حسين

---

(١) الياذة هوميرس - سليان البستاني ١٧٠ - ١٧٢ .
(٢) العصر الجاهلي - شوقي ضيف ٢٢٥ .
(٣) اصول الأدب - الزيات ٣٦٧ .
(٤) مجلة المكتبة العربية مجلد ٢ عدد ٣ ص ١٨ .
(٥) مجلة الأقلام العراقية ١٠٩ .
(٦) دراسات في النقد الأدبي - أحمد كمال زكي ١٥٨ .
(٧) شعر الحرب - زكي المحاسني ٢٤ ، الملحمة في الشعر العربي - سعد الدين الجيزاوي ص ٤ .

الذي عرض لذلك في كتابه « في الأدب الجاهلي » [1] وبطرس البستاني [2] الذي عزا ذلك إلى ثلاثة أسباب عرضناها قبل الآن ، ومحمد مندور [3] الذي عرض وجهة نظره في كتابه « فن الشعر » .

ومنهم الدكتور ماهر حسن فهمي [4] الذي ينفي وجود ملاحم في الشعر العربي ، ويعلل ذلك بخصائص كامنة في الذوق السامي ، أو لأن أصنام العرب ليست لها حياة آلهة الأغريق والتي تطلق وراءها الخيال الخصيب ، ومن القائلين بذلك مرجليوث [5] ، كانت أشق كثيراً من أن تخضع لموضوع طويل ، ولكنه لا ينكر وجود بعض المحاولات ، وظهور بعض الملامح ، ولكنها نادرة .

ونفى الدكتور علي الجندي وجود شعر ملحمي في شعر الحرب ، وربط ذلك بأسباب ثلاثة ، أولها أن العرب لم يتهيأ لهم في جاهليتهم من ظروف البيئة والمعيشة ما يساعدهم على أن يوجد فيهم الخيال الخصب . وثانيها أنه لا للآلهة دخلاً كبيراً في الملاحم وهذه لم يعرفها العرب ، وثالث الأسباب تقديسهم العظيم للقوانين الشعرية الخاصة بالوزن والقافية [6] .

وعلل الدكتور زكي المحاسني خلو الشعر العربي من الملاحم بسببين ، أولهما حبهم للقافية الواحدة التي يجري عليها روى القصيدة زهّدهم في الملحمة التي تقتضي آلاف الأبيات . وثانيهما : ميلهم إلى الإيجاز وغلوهم في اختصار الكم ، والتزامهم مقاطع الجمل الضيقة التي تحمل غزير المعاني [7] .

وخلاصة ما يمكن استنتاجه من آراء جمهرة الباحثين الذين عرضنا آراءهم أنهم يختلفون في فهمهم للشعر الغنائي وللشعر القصصي وللشعر الملحمي ، وأن الذين قالوا بوجود شعر ملحمي في شعر الحرب أو بعدمه ، إنما صدورا في آراءهم عن فهم معين لطبيعة الشعر الملحمي ، كما أن الذين قالوا بقصصية في هذا الشعر أو بعدم وجودها كانوا يصدرون في ذلك عن تصور معين . فبعض هؤلاء الباحثين اعتبر كل قصيدة وحدة مستقلة حينا قال رأيه ، وبعضهم اعتبر

---

(١) في الأدب الجاهلي - طه حسين ٣٢٠ .
(٢) الشعراء الفرسان - بطرس البستاني ١٦ - ١٧ .
(٣) فن الشعر - محمد مندور ٧ .
(٤) شوقي وشعره الأسلامي - ماهر حسن فهمي ١٦٩ .
(٥) دراسات عن المؤرخين العرب - مرجليوث ترجمة حسين نظار ٩٤ .
(٦) شعر الحرب في العصر الجاهلي - علي الجندي ٣٧٦ .
(٧) شعر الحرب في أدب العرب - زكي المحاسني ٢٣ .

شعر الحرب عامة وحدة متكاملة، وذهب فريق إلى اعتبار شعر مجموعة الأيام وحدة منفصلة ومستقلة، كما أن هؤلاء الباحثين اختلفوا في تحديد الشعر الذي يصدرون الحكم عليه، فبعضهم تمسك بالشعر الرسمي، وبعضهم[1] توسع فشمل الملاحم الشعبية التي اتخذت موضوعاتها عن الفرسان الأبطال كملحمة الزير سالم المأخوذة عن قصة مهلهل بن ربيعة .

وقبل أن نمضي في تفصيل ما نراه في طبيعة هذا الشعر نود أن نحدد طبيعة وخصائص كل لون من ألوان الشعر الثلاثة : الغنائي والقصصي والملحمي .

لقد قسم النقاد الأوروبيين فنون الشعر إلى ألوان ثلاثة هي : الشعر الملحمي والشعر الغنائي والشعر الدرامي أو التمثيلي[2] .

أما الشعر الغنائي فكان أسبق إلى الظهور لأن الإنسان البدائي قد ابتدأ يغني لنفسه قبل أن يتخذ الشعر وسيلة لحفظ ماضيه وبطولاته في صورة الشعر الملحمي . وكان هذا الشعر الغذاء الروحي للعربي في عصوره الأولى .

أما الشعر الملحمي فقد تلا الشعر الغنائي في مرحلة الظهور وإن سبقه في التدوين ، وسبب ذلك أن المجتمع عندما يعي ماضيه يحرص على تدوينه في صورة ملاحم . ويرى الدكتور مندور أن الشعر الملحمي « نشأ بعد أن أصبح للبشر ماض يعرفونه وبطولات يتناقلون أخبارها ، ويبالغون في تلك الأخبار حتى يحولها الخيال الشعبي إلى خوارق أسطورية »[3] .

واشترط النقاد والباحثون شروطاً ينبغي توافرها في الملحمة ، أول هذه الشروط أن يكون مضمونها قصة أو قصصاً ذات بطولية قوية ، وأن تقوم هذه القصة على خوارق الأمور والبطولات ، وأن تكون أحداث القصة مختلطة بالأساطير والمعتقدات الدينية ، فتجمع بذلك بين الأساطير التاريخية وأحداث التاريخ الواقعية .

وبالإضافة إلى المضمون اشترطوا فيها أن تكون طويلة ، بحيث يبلغ طول الواحدة منها آلاف الأبيات ، كما اشترطوا فيها أن يفني الشاعر شخصيته إفناء تاماً أو شبه تام في الجماعة التي يصفها من جهة ، والجماعة التي ينشدها من جهة أخرى .

وهكذا فمن السمات البارزة للملحمة الفنية المكتملة الشروط : الطول ، والموضوعية ،

---

(١) الأدب المقارن ـ محمد غنيمي هلال ١٥٩ .

(٢) فن الشعر ـ مندور ٦ ـ ٧ .

(٣) الأدب وفنونه ـ محمد مندور ٥٤ .

والحديث عن الحروب ، والأبطال ، واطلاق العنان للخيال في تصوير مشاركة الآلهة للبشر في المعارك ، كما أن من سماتها الانتشار ، وأن يكون موضوعها منتزعاً من حياة شعب بأسره لا حياة شخص بعينه ، وبمعنى أوضح التعبير عن وجدان جمعي[1] .

أما اللون الثالث فهو الشعر التمثيلي أو الدرامي ، وهو ينقسم الى قسمين متميزين في المسرح اليوناني ، القديم هما التراجيدي والكوميدي ، وهذا اللون لا صلة له بموضوعنا .

وننتقل بعد ذلك إلى نقطة هامة أخرى وهي أن الباحثين قد رددوا عبارة الشعر القصصي والشعر الملحمي ، وأن البعض اعتبر الشعر القصصي مرادفاً للشعر الملحمي ، ومنهم من ميز بين اللونين . ومن الذين جعلوا التعبيرين مترادفين الأستاذ الزيات[2] حيث قسم الملحمة الى قسمين هما الملحمة الطبيعية ، والملحمة الصناعية ، كما أنه قسم الشعر القصصي إلى قسمين أيضاً ، هما الملحمة وهي القصة الطويلة ، والبالاد وهي القصة القصيرة .

ومن القائلين بذلك سليمان البستاني حين قال ان «شعر الأيام هو أقرب إلى الشعر القصصي منه إلى الغنائي وكل قصيدة منه قطعة من ملحمة »[3] .

ويكاد الدكتور طه حسين يصرح بأن الشعر القصصي هو الشعر الملحمي حيث يقول « فلست واثقاً كل الثقة من أن الأدب العربي يخلو من القصص ، وأخشى أن يكون من يجد وجود الأدب القصصي عند العرب إنما جحدوه لأنهم لم يحققوا بالضبط معنى الأدب القصصي . فالذين يقرءون الشعر الجاهلي أو ما صح منه يلاحظون أن مزايا كثيرة من خصائص الشعر القصصي موجودة في الشعر العربي[4] ويقول في موضع آخر من مؤلف آخر له « الشعر العربي ليس فيه قصص»[5] .

ولا نريد أن نناقش عدول الدكتور طه حسين عن رأيه بوجود الشعر القصصي ، فقد نفى وجوده أولاً ثم تراجع فقال بوجوده ،ولكن الذي يعنينا أنه يكاد يصرح بأن الشعر القصصي هو الشعر الملحمي .

---

(١) أنظر في الأدب الجاهلي ـ طه حسين ٣٢٠ ، في اصول الأدب ـ الزيات ٣٥٠ ، الأدب وفنونه ـ محمد مندور ٥٤ .

(٢) في أصول الأدب ـ الزيات ٣٥٢ .

(٣) الياذه هوميرس ـ سليمان البستاني ١٧٠ .

(٤) من حديث الشعر والنثر ـ طه حسين ١٥ ـ ١٦ .

(٥) في الأدب الجاهلي ـ طه حسين ٣٢٠ .

وبعد ، فأمامنا الآن الشروط الواجب توافرها في الشعر حتى يصح أن نسميه شعراً ملحمياً ، وأمامنا شعر الأيام فلنحاول وضع هذا الشعر في المكان الصحيح من ألوان الشعر التي عرفناها . وقبل أن نعرض لذلك نود أن نشير إلى أمور تساعدنا في كشف اللبس الذي يكتنف الموضوع .

وأول ما نريد توضيحه أن تصوير مشاركة الالهة البشر في المعارك أمر درج عليه اليونان ولكن أوروبا لم تتقيد به فيما بعد في ملاحمها كملحمة رولان وغيرها ، وأنه من الممكن الاستعانة بالخوارق بدل الالهة في شعر الملاحم .

والأمر الثاني أنه يجب ان نعترف بأن بعض النقاد قالوا بأن الملاحم اليونانية ، وهي التي حذا حذوها الشعراء فيما بعد ، واعتبرها النقاد النموذج الذي يحتذى ، هذه الملاحم لم تكن من عمل شاعر واحد ، وأنه يمكن وصفها بالشعبية لأن الناس تداولوها ردحاً من الزمن قبل أن تدون .

والأمر الثالث أن محاولة تطبيق قواعد الملحمة اليونانية على شعرنا فيه إجحاف وتجنٍّ عليه ، لأن لكل شعب مزاجه الخاص وبيئته المختلفة ، وأدبه المتميز بسمات خاصة به تختلف عن آداب الآخرين .

والأمر الرابع أن آلهة اليونانيين والتي اشتركت في حروبهم ، وعدت سمة من سمات الملحمة إنما هي آلهة على شاكلة الإنسان ، وقد خلعوا عليها صفات البشر ، فهي قوية ولكنها تضعف أحياناً ، وهي في طبيعتها تلك تختلف عن آلهة العرب في جاهليتهم ، كما أنها تختلف مع معتقدات المسلمين بعد ظهور الأسلام .

وأخيراً فقد حان لنا أن نتساءل : هل نجد في شعر الأيام شعراً ملحمياً ؟ وإذا حكمنا بوجوده فما طبيعته ؟ وما مدى اتفاقه مع شروط الشعر الملحمي ؟؟

إن أيام العرب قد خلقت لونين من ألوان الأدب ، الأدب الرسمي ويتمثل في الشعر الذي وصلنا موثقاً ، ونستطيع أن نطمئن إلى أنه صدر عن الشاعر الذي ينسب إليه ويمتزج بهذا الشعر نثر يوضح مناسبة ذلك الشعر والأحداث التي قيل فيها . واللون الآخر هو الأدب الشعبي ، وهو ذلك الأدب الذي استمد القصاص بعد الإسلام أحداث قصصهم الرئيسية من قصص الأيام الحقيقية ثم نسجوا عليها من خيالهم ، وكلفوا البعض نظم الشعر المناسب لتلك الأحداث التي أضافوها . ونسبوا إلى أبطالهم البطولات الخارقة ، والشجاعة النادرة والمثل الأخلاقية التي يفخر بها كل انسان . وقد زاد احساسهم بالحاجة إلى هذا اللون من الأدب في القرون الوسطى

لاعجابهم بالبطولة ، فوجدت الملاحم الشعبية التي تستوحي مادتها الرئيسية من أحداث الأيام والتي تثبت للنقد التاريخي ، ولكنهم تحاكوا حولها القصص ، وبالغوا في الأحداث والبطولات .

ولنأخذ مهلهلا مثالاً لتلك الملاحم الشعبية ونرى مدى انطباق شروط الملحمة على ملحمته الزير سالم ، فقد استمد القاص أحداث ملحمته أو سيرته من مهلهل أخي كليب سيد تغلب وبكر الذي قتلته بكر غدراً ، فهب أخوه مهلهل للأخذ بثاره وحرم على نفسه كل عيش طيب وهنيء حتى يأخذ بثاره ، ولكن القاص صور كليباً بطلاً قومياً حرر معداً من سيطرة اليمن ليمهد بذلك إلى أن مقتله جريمة كبرى في حق القبيلة ، وليبرر ما سيفعله مهلهل ، وبأن ما سيفعله مهلهل ببكر ليس عملاً انتقامياً شخصياً ، وإنما هو ثار منهم لقتلهم سيداً وزعيماً ومحرراً . وجعل هذا القصاص يراوح بين الشعر والنثر ، ويطول الشعر الذي حصل منه على مقطوعات بحيث يصل ببعض القصائد إلى السبعين بيتاً فأكثر . وجعل يخلق المواقف البطولية لهذا الفارس ، وينتقل به من معركة إلى أخرى ومن مؤامرة إلى أخرى .

وإذا ما حاولنا تطبيق الشروط الواجب توافرها في الملحمة وجدنا منها في ملحمة الزير قصة تدور حولها الملحمة ، كما وجدنا بطولات خارقة ومعارك يخوضها مهلهل ، ووجدنا أن تلك الملحمة تعبر عن وجدان جمعي ، فهو يثأر لأخيه حقا ، ولكن كليباً كان سيداً وزعيماً ومحررا فقتله خيانة . وقد شطح القاص شطحات خيالية تكاد تصل إلى الأساطير ، وبالتالي فيكون قد جمع بين الأحداث التاريخية الواقعية والأساطير التاريخية ، فهي أخبار ولكنها مبالغ فيها حتى تحولت بفضل القصاص إلى خوارق ، كما نجد صفة الشعبية والانتشار متحققة في تلك الملحمة .

وهكذا تكون أحداث حرب البسوس المادة التاريخية لتلك الملحمة ، كما تكون أشعار مهلهل وباقي شعراء بكر وتغلب ، وما نسج على منوالها ليناسب ما خلق من أحداث شعر الملحمة .

ولعل سيرة عنترة وما لاقته من اهتمام أكثر من مثيلتها ملحمة الزير سالم تعطينا صورة أكثر وضوحا لما نذهب إليه . فعنترة في الأيام عبد من عبيد عبس ، أوتي من القوة الجسمية ، وحسن استغلال الفرص ، ملكة وطاقة مكنته من الارتقاء إلى أعلى مراتب الفروسية ، كما مكنته تلك المواهب والمزايا من انتزاع اعتراف أبيه به واعتراف قبيلته به .

وعندما أحس العزبي في القرون الوسطى بحاجته إلى الملاحم لإعجابه بالبطولة ، والتفت الى ماضيه فوجد شخصية عنترة ملائمة كنموذج يحتذى ، وهب قصاصه الشعبي يخلق ملحمة بلغته

الدارجة مستعيناً بما بين يديه من ملامح شخصية لذلك البطل ، وما وصل إليه من أخباره ، ومن أحداث حرب داحس والغبراء ، وتخيل ذلك البطل الذي استطاع أن يرقى بنفسه وبمنزلته من أوساط العبيد والخدم الى فارس عبس بلا منازع ، تخيله القصاص رمزاً لقيادة عرب الشمال أولاً ضد عرب الجنوب الذين يسومونهم الذل ، ويرغمونهم على دفع أتاوة لهم . ولكي يؤهله لتلك المنزلة جعله يتغلب على كافة فرسان القبائل الشمالية ، ثم جعله يقود عبساً وعرب الشمال ضد اليمن وينتصر عليهم . ثم انتقل به إلى محاربة المجوس والانتصار عليهم ، ثم انتقل به الى محاربة النصارى والانتصار عليهم ، ولم يغفل اليهود ، وكأنه بذلك أراد أن يحارب تلك الديانات ويمنعها من الزحف إلى الجزيرة إرهاباً للبعثة النبوية التي كانت على وشك الظهور . ولم يكتف بذلك بل نقله إلى الحبشة وجعله ينتصر على ملوكها .

ولم يغفل القصاص دور الجن والسحرة وبقية القوى الخارقة ، فقد جعل عنترة ينتصر على كل تلك القوى ويهزمها .

كل ذلك فعله المؤلف في سيرة عنترة التي بلغت مجلدات عدة ، وانتشرت في طول البلاد ، والتي تنطق باللغة العربية ، وعرضها . ووجد فيها العرب أمانيهم ووجدانهم الذي أذهله ما آل إليه واقعهم ، وما انتاب الأمة من تفكك وضعف ففزعوا إلى ماضيهم يحرصون على تدوينه في صورة ملاحم .

ونسائل أنفسنا لماذا تأخر ظهور الملاحم الشعبية قروناً عديدة ؟ ولعل الأقرب إلى تصورنا أن ذلك يعود إلى عوامل منها عدم انتشار الكتابة وتأخر عهد التدوين ، ومنها أن مجيء الإسلام ونهيه عن التفاخر بالجاهلية كان سبباً في عزوفهم فترة طويلة عن الاهتمام به ، ومنها أن المسلمين شغلوا بنشر الإسلام في أقطار الأرض الشاسعة وجدوا في ذلك واجباً مقدساً يقومون به ، ولا يعدلون به عملاً آخر ، كما شغلهم عن التفكير في الماضي والرجوع إليه .

وإذا ما انتقلنا إلى الأدب الرسمي ، وهو المتمثل في اللغة الأدبية ، فإن الأمر مختلف جداً . فنحن لا نرى أمامنا إلا قصائد ومقطوعات شعرية ، تمتزج بقصص وأخبار عن تلك الأيام ، ونجد أن قسماً كبيراً من هذا الشعر قد ضاع ، فلا نجد لبعض الأيام شعراً ، كما أننا نجد بعض المقطوعات لا يزيد عدد أبياتها عن البيتين أو الثلاثة ، ونجد بعض الشعر المنسوب إلى بعض الأيام دون أن نجد إشارة من الشعر يتضمنها الشعر إلى ذلك اليوم ، واعتمادنا في ذلك لتحديد اليوم المتصل بذلك الشعر على النثر الذي نقله الرواة توضيحا لذلك الشعر . ويزداد الأمر تعقيداً إذا سقطت تلك المقدمة النثرية وأصبح الشعر خالياً من أية إشارة إلى اليوم المتصل بذلك الشعر .

ولكننا واجدون في القصائد التي وصلت إلينا كاملة سليمة ملامح قصصية واضحة تحكي لنا قصصاً متصلة بالحرب وبأحداثها. وهذا امر ينكره الباحثون فشعر الحرب أكثر موضوعات الشعر اتصالاً بالقصصية، ولكن السؤال الذي يلح علينا هو: هل نجد في شعر الأيام ملاحم؟ أو بعبارة أخرى هل يمكن أن نكون ملاحم بشكل أو بآخر؟

وفي رأينا أن مجموعات الأيام التي بين أيدينا أخبارها وافرة، وشعرها وصل إلينا منه قسم كبير، هذه المجموعة تصلح كل منها أن تشكل ملحمة قصيرة أو متوسطة. ولكي يكون ما نذهب إليه واضحاً لنأخذ مثالاً لذلك حروب العرب مع الفرس والمتمثلة في يوم الصفقة ويوم ذي قار، فإن الأخبار المتعلقة بها وبأحداثها وبمسببات الاحتكاك وفيرة، كما أن الشعر الذي قيل فيها لا بأس به. ألا يستطيع هذا الشعر وذلك النثر الذي يوضح المواقف المتعددة لكل من الفريقين أن يرسم لنا ملحمة عربية؟ ولكن هذه الملحمة ستنقصها الآلهة والخوارق وعندها يمكننا أن نستعين بخيال القصاصين. وعلى الأقل يمكننا القول بأنها تشكل قصة قصيرة، وهي ما سماه النقاد بالبالاد.

وكذلك لو أخذنا مجموعة الأيام العدنانية والقحطانية، ونسقنا شعر هذه الأيام، وأخبارها المنثورة هنا وهناك فإنها تشكل قصة صراع الشمال والجنوب في العصر الجاهلي على الرغم من عدم التصريح بتلك العصبية الكبرى، فلم يفصحوا عنها في شعرهم. ولكن الذي يدفعنا إلى القول بذلك أن بعض أيام هذه المجموعة مثل يوم الكلاب الثاني وفيف الريح وخزاز قد استقطبت حولها الكثير من الشعراء الذين تغنوا بالبطولة في هذه الأيام.

وينطبق ما نقوله على حرب داحس والغبراء، وحرب البسوس، وهما حربان دامت كل منهما قرابة أربعين عاماً، وهو زمن ليس بالقليل، واشتركت في كل منهما قبائل محددة، ونشبت كل منهما لأسباب محددة. ووصل إلينا من شعر كل حرب مقدار من الشعر له قيمته، كما أن أخبارهما في تمناول أيدينا، وقد أوحت كل منهما بملحمة شعبية.

ولكن هذا الاقتراح الـذي قد سبقنا إليه الدكتور زكي المحاسني يحتاج إلى شيء من التجاوز، إذ أن القصائد والمقطوعات المختلفة التي سنضمها مختلفة القافية والوزن، كما أن الاضطراب يعتري بعضها، كما نصطدم بضيق الخيال وارتباط خيال شعراء الأيام بالواقع، فخيالهم حسّي، ونجد أن شعراء الأيام لم يجنحوا إلى الإطالة إلا نادراً، فهم يميلون إلى الإيجاز.

كل هذه عقبات لا تجعلنا نعتبر شعر الأيام شعراً ملحمياً، ولعل هذه الأسباب كانت في أذهان أولئك الباحثين الذين رفضوا اعتباره شعراً ملحمياً، ولكن ذلك لا ينفي عنه صفات

يتصف بها وتجعله يقترب من شعر الملاحم الفنية ، وفي عداد الملاحم ، ان تجاوزنا عن بعض الأمور .

ولنأخذ أي مجموعة من مجموعات الأيام المتميزة ، فاننا واجدون فيهـا أحداثـاً وحروبـاً ومعارك وأبطالاً تتصارع ، وقتلى مجندلين في ساحات الوغى، كما نجـد الصراع بـين أولئـك الأبطال في سبيل تحقيق مكاسب قومية في الإطار الضيق لمفهومها أي في سبيل قبائلهم . ونجد أن الشعراء قد جنحوا إلى المبالغة في تصوير شجاعتهم وشهامتهم ويخلعون عليهم الصفات المثلى . ونجد أن شعر أيام المجموعة مجتمعاً يبلغ المئات من الأبيات مع مراعاة أن ذلك يشكل جزءاً من الشعر ، وأن الكل يفوق ذلك بكثير . ونرى أن هذا الشعر في جملته يتحدث عن موضوع واحد متشعب إلى موضوعات متصلة كلها ببعضها ، فالموضوع الرئيسي هو الحرب وما يتفرع عنها ، كما أن شعراء الأيام تخلوا عن فرديتهم تقريباً فحديثهم عن قبيلتهم ، ونادراً ما يتحدثـون عن أنفسهم وذواتهم ،وإن فعلوا فإنما يصورون بطولة فارس من فرسان القبيلة .

وهكذا فإن معظم سمات الملحمة تتوافر في شعر المجموعة ، ولكننا نعتقد شرطاً واحداً هو إطلاق العنان للخيال ، ومشاركة الآلهة في المعارك إلى جانب الأبطال ، وذلك شرط أوضحنا أن الأوروبيين لم يتقيدوا به ، وأن خيال القصاص أو المؤلف يمكن أن يعوضه بالخوارق، بل وإننا واجدون في الملحمة الغربية - إن جاز التعبير - سمة جديدة وهي امتزاج الشعر بالنثر ، والنثر فيها يحقق أكثر من هدف وفائدة ، أبرزها أنه يوضح بعض المواقف، كما أنه يدفع الملل الذي يحدثه الاستماع إلى آلاف الأبيات من الشعر، وهي ظاهرة موجودة في الأدب اليوناني فقد «كان ظهور النثر اليوناني في القرن السادس قبل الميلاد عندما سئم اليونان شعر الشعراء»[1].

وهكذا نخلص إلى أن في شعر الأيام ملاحم شعبية عرفنا منها ملحمتين ، ملحمة الزير سالم استقى المؤلف مادتها الأساسية من أحداث حرب البسوس وملحمة عنترة واستمد مادتها من أحداث حرب داحس . كما أننا يمكن أن نعتبر شعر كل مجموعة من مجموعات الأيام الواضحة المعالم ملحمة ، ولكنها ملحمة مقطعة بسبب عوامـل بينـاهـا ، أهمهـا ضياع قسـم كبـير من الشعر ، وفقدان أجزاء كبيرة من القصائد .

ونميل إلى الاعتقاد بأنه لو تحقق شرطان هما : وصول كمية أكبر من الشعر ، واتساع خيال

---

(1) من حديث الشعر والنثر - طه حسين ٥٧ .

شعراء الأيام ، لتكونت عندنا ملاحم كثيرة تحكي أحداث تلك الأيام التي اكتوت الجزيرة بنارها قرنا ونصفا من الزمن ، ويخامرنا شك بأن طابع تلك الحروب العام ، وهو أنها حروب داخلية في معظمها قد أقعدهم عن الاهتمام بها والتطور بها ، وحفظ شعرها كاملاً ، بل أن بعض الباحثين اتهم أبا عبيدة وهو أكثر المهتمين بجمعها بالشعبية لأنه حاول أن يجمع مثالب العرب .

انتشار المقطوعات

يتفق العلماء على تسمية البيت الواحد يتيماً ، والإثنان والثلاثة نتفة ، والأبيات التي يتراوح عددها بين ثلاثة وتسعة قطعة من الشعر أو مقطوعة ، والعشرة فصاعداً أو ما فوق الخمس عشرة قصيدة .

فالمقطوعة إذن أبيات من الشعر لا يزيد عدد أبياتها على العشرة أو الخمسة عشر ، ونميل إلى الأخذ بالرأي الأول وهو اعتبارها دون الأبيات العشرة .

ويطالعنا ابن سلام في طبقاته برأي يثير الاهتمام لغرابته فهو يقول « ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حادثة ، وإنما قصدت القصائد وطول الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف »[1]

ولكن هذا القول يحتاج إلى تصـ ـح ، فقد وصلنا قبل عهد عبد المطلب جدّ الرسول صلى الله عليه وسلم ، قصائد مطولة من ـد حرب البسوس ، وبعدهـا ، فإذا عرفنـا أن حرب البسوس حدثت بدايتها بسنة ٤٨٥ م تقريباً[2] ، وعرفنا أن عبد المطلب قد كفل محمداً بعد وفاة أبيه عبدالله ، أدركنا أن القصائد قصدت قبل عهد عبد المطلب بفترة ليست بسيطة إذا ما قيست بعمر الشعر الجاهلي .

والظاهرة التي تثير اهتمام الباحث في شعر الأيام كثرة عدد المقطوعات فيه بالقياس إلى عدد قصائده ومقطوعاته . فقد تجمع لدينا أربعمائة وخمس وسبعون مقطوعة من شعر الأيام بينما لم نحصل إلا على مائة وثمان وعشرين قصيدة ،وقدعملنا إحصاءً لشعر خمس مجموعات من مجموعات الأيام هي : حرب البسوس،وحرب داحس والغبراء ، ويوم ذي قار ، وحرب الفجار ، وحرب

---

(١) طبقات فحول الشعر - ابن سلام ٢٣ .

(٢) تاريخ العرب - فليب حتي ١/ ١٢٠ .

الأوس والخزرج فبلغت في مجموعها قرابة مائتين وسبعين قصيدة ومقطوعة ، وكان عدد المقطوعات فيها مائتي مقطوعة . وهو عدد كبير يزيد على ثلثي المجموع . بل إننا وجدنا في ديوان شعر شاعر وصلنا وهو عنترة العبسي، وجدنا هذا الديوان يضم ستا وعشرين مقطوعة من أصل ثلاث وثلاثين قصيدة ومقطوعة .

ومما لاحظناه في هذا الاستقصاء أن حروب الأوس والخزرج تساوت فيها المقطوعات والقصائد من حيث العدد ، إذ ضمت خمساً وعشرين مقطوعة وخمساً وعشرين قصيدة .

وقبل أن نخوض في تبرير وجود هذا العدد الضخم من المقطوعات علينا أن نميز بين نوعين من المقطوعة : فالنوع الأول منها **طبعي**، والثاني **صناعي** .

أما **النوع الأول** فوجوده متعلق بطبيعة الموضوع ، فالشعر شعر حرب ، وهذا اللون من الشعر يتطلب سرعة في القول ، وسرعة في الإيصال ، وعدم المبالغة ، والإسراف في الوصف ، وإيصال المعلومات التي يريد الشاعر نشرها بين القبائل بأوجز عبارة . فالبراض الكناني يريد أن يبرر قتله عروة الرحال ، ليعلن ذلك للناس ، فلا داعي للإطالة ، لذلك اكتفى بهذين البيتين :

نقمتُ على المرءِ الكلابيِّ فَخْرَهُ وكنتُ قديماً لا أُقِرُّ فَخارا
علوتُ بحدِّ السيفِ مَفْرِقَ رأسِه فأسمَع أهلَ الواديين خُوارا[1]

وعندما رأى العرب في يوم ذي قار كثرة عدد وعدة جيوش الفرس فكر بعضهم بعدم لقائهم ، وانبرى الشعراء يحثونهم على الثبات ، ومن هؤلاء يزيد المُكَسَّر بن حنظلة الذي حذر الناس من الفرار[2]

مَن فَرَّ منكم فَرَّ عن حريمهْ وجارِه وفَرَّ عن نديمهْ
أنا ابنُ سيارٍ على شكيمهْ إن الشِّراكَ قُدَّ من أديمهْ
وكُلُّهُمْ يجري على قديمهِ من قارحِ الهُجْنَةِ أو صميمهْ[3]

ولا نستطيع المضي في عرض أمثلة مختلفة من المقطوعات التي تتلاءم وموضوعات الحرب ، ومنها مثلاً مصرع فارس ، أو لوم فارس لاعتزاله الحرب ، أو إعلان نتيجة يوم ، أو إنذار القوم .

(١) الأغاني / ثقافة ٢٢/ ٦٥ .
(٢) النقائض ٢/ ٦٤٣ .
(٣) قارح الهجنة : الأصل الذي يشوبه ، صميمه : الصميم الخالص من كل شائبة .

ويربط بعض الباحثين بين طبيعة أغراض شعر الحرب وقصر القصائد ، فالشعر إذا قيل وقت الانفعال النفسي فإنه يكون في صورة مقطوعة قصيرة لا تزيد عن عشرة أبيات [1]

وربط باحث آخر بين حال الجزيرة العربية وتطور القصيدة ، فقال إن العرب كانوا لا ينظمون من الشعر إلا المقاطع الصغيرة عند الحاجة ، حتى إذا تحركت النفوس بالحروب بعد استقلالها عن اليمن وظهور الأبطال والفرسان احتاجوا إلى الشعر فأطالوا فيه فظهرت القصائد ، وكان أول من أطالها المهلهل [2]

ولكن هذين الرأيين لا نطمئن إليهما ، ولا يثبتان عند البحث والتحري ، فالباحث لا يستطيع أن يقف على درجة الانفعال وزمن نظم الشاعر ، لأن ذلك لم يصلنا مع شعرهم ، وكل ما يمكن أن نقوله إنما هو مجرد تخمين ، كما أن ربط إطالة القصيدة بتحرك النفوس بالحروب مردود لأن المقطوعات استمر وجودها بعد ذلك التاريخ وبنفس النسبة ، وربما زادت .

وخلاصة القول أن المقطوعة الأصلية إنما أوجدتها ظروف الموضوع التي نظمت فيه ، وطبيعة الغرض ، ولا نستبعد أن يكون لدرجة الانفعال وطبيعته عند الشاعر أثر في طولها أو قصرها . أما حينما كان الشاعر ينظم ليبرهن على مقدرته الشعرية ، وبعد أن تهدأ نفسه ، فإنه كان يعمد إلى التنقيح والإطالة . وتشتمل القصيدة عند ذلك على أغراض متعددة .

أما صلة البحر بالمقطوعة فأمر غير مقبول ، لأن البحور المختلفة منتشرة في المقطوعات بنسب متفاوتة ، وهي في ذلك مثل القصائد التي تتوزع على بحور الشعر العربي المعروفة بنسب متفاوتة .

والنوع الثاني من المقطوعات ، هو تلك المقطوعات المبتسرة من قصائد ضاع باقيها . وهذا النوع من المقطوعات هو الأكثر بين ما نجده من مقطوعات في شعر الحرب . وهذا الرأي الذي نذهب إليه ظنّي ، لأننا لا نزال نحتاج إلى المزيد من الدراسات المستفيضة عن الشعر الجاهلي ، والصلة بين البحور والأغراض وبين البحور والانفعالات النفسية . كما أننا ما زلنا بحاجة إلى المزيد من البحث في المخطوطات المنتشرة في مكتبات العالم قبل أن نصدر حكماً قطعياً .

ولكننا نستطيع أن نلتمس الأسباب لوجود مثل هذا اللون من المقطوعات. وأول الأسباب

(1) موسيقى الشعر- إبراهيم أنيس ١٧٧ .

(2) تاريخ آداب اللغة العربية- جورجي زيدان ١/ ٦٧ .

أن الرواة حينما نقلوا أخبار تلك الأيام ، فإنهم اختاروا من الشعر ومن القصائد ما يفي بغرض اليوم أو الحادثة ، ويعني آخر ما يعضد الخبر ، وكانوا يقتطعون من القصيدة ما يلبي هذا المطلب . أما باقي القصيدة فقد أهملوه ، ثم عدا الزمن على بقيتها فضاعت ولم تصلنا .

ومما يؤكد ما نذهب إليه أننا نجد بعض المقطوعات منتشرة في بطون الكتب التي عرضت لأخبار الأيام مثل كتاب النقائض لأبي عبيدة ، والأغاني ، والكامل لابن الأثير ، والعقد الفريد ، فإذا ما رجعنا إلى دواوين الشعراء التي وصلتنا فإننا نجد هذه الدواوين قد أثبتت القصيدة كاملة . والأمثلة على ذلك كثيرة وليست مقتصرة على لون معين أو على شاعر معين . وهذا ما يدعونا إلى القول بأنه لو وصلتنا تلك الدواوين التي صنعها العلماء الرواة لتغيرت صورة شعر الأيام .

ويبرر أحد الباحثين سقوط أجزاء من القصيدة العربية فيقول « كان الناس يحرصون على الشعر حرصهم على أعز الأشياء لديهم ، وأثمنها ، في حياتهم لأن في الشعر تنفيساً عن المكروب وغناء للواله ، ولكن ذلك لا يبعد بهم إلى حد الاحتفاظ بالقصيدة كاملة تامة الأجزاء والتفاصيل ، وإنما يبقى منها في النفس ما تستبقيه النفس مما هو أوثق اتصالاً بحالتها القائمة بها ، وأصدق تعبيراً عنها . أما بقية القصيدة مما لا يمت إليها بكبير سبب فليست إليه حاجة ، وهو لذلك أقرب إلى أن يضيع ويذهب »[1] .

ولعل في شعر حرب الأوس والخزرج وارتفاع نسبة عدد القصائد المطولة إلى عدد المقطوعات ما يؤيد ما يذهب إليه الأستاذ البهبيتي ، فقد تناقل الناس ذلك الشعر وحفظوه ، وأسهمت النقائض التي سادت ذلك الشعر في حفظ معظمه ، فوصل إلى أيدي الرواة الذين تولوا تدوينه ، ولولا نهي الرسول لهم عن تدارس ذلك الشعر أو الشعر الذي يثير البغضاء لكان شعر تلك المجموعة أكثر المجموعات اكتمالاً .

وأما السبب الثاني لانتشار المقطوعات فهو نسيان الرواة ، وآفة العلم والرواية النسيان ، فقد تكلف أولئك الرواة حفظ مئات القصائد والمقطوعات ولشعراء متعددين ، وكان ذلك في وقت كانت وسائل حفظ الشعر وتدوينه تتم في معظم حالاتها بالرواية ، كما أن الرواة الذين حملوا ذلك الشعر قد نسوا قسماً كبيراً منه ، كما أن أولئك الرواة نسوا قائلي بعض هذا الشعر أو اختلط عليهم الأمر في نسبته إلى أصحابه . وأكثر الشعر الذي نسبه الرواة أو نسوا بعضه هو ذلك الشعر الذي لا يتصل بحادثة أو خبر .

(١) تاريخ الشعر العربي - نجيب البهبيتي ٤٨ .

وينبغي ألا يفوتنا أمر يتعلق بالناقلين والنساخ ، فبعضهم كان ينسخ المقطع الذي يناسبه أو المقطع الذي يريد ربطه بقصة ما . ونلاحظ هذه الظاهرة بوضوح عندما يتيسر لنا المقارنة بين نسخ مختلفة لديوان شاعر ، كما انها تتضح حتى في النسخ المختلفة لكتاب من كتب الأدب ، كما أن النساخ والناقلين كانوا ينقلون عن الكتب أو العلماء ، ما يخدم أغراض التأليف ونوعيته لديهم .

وتبقى لدينا بعد ذلك مشكلة التمييز بين المقطوعة الأصلية والمقطوعة المنتزعة من قصيدة طويلة .

إن التمييز بين المقطوعة الأصلية والمقطوعة المنتزعة من قصيدة أمر بالغ الصعوبة بعد أن ضاع الكثير من الشعر الجاهلي ، ولكننا مع ذلك لن نتردد في محاولة تلمس بعض الإشارات التي تعيننا في التمييز بينهما .

وأول الأدلة على أن المقطوعة منتزعة هو وجود مقدمة لتلك المقطوعة فإن وجود المقدمة ، سواء أكانت طللية أم غزلية ، يقطع بأنها كانت قصيدة في الأصل ، كما نرى في هذه المقطوعة لعنترة ، والتي بدأها بمقدمة طللية فقال : [1]

ألا يا دار عبلةَ بالطَّوى   كرَجْعِ الوَشْمِ في كف الهَدِيِّ[2]
كَوَحْيِ صحائفٍ من عهد كسرى   فأهداها لأعجم طِمْطَمِيِّ
أَمِنْ زَوِّ الحوادثِ يومَ تَسْمو   بنو جرمٍ لحربِ بني عديِّ[3]
إذا اضطربوا سمعتَ الصوتَ فيهم   خَفياً غيرَ صوتِ المَشْرَفيِّ
وغير نوافذٍ يخرجنَ منهم   بطعنٍ مثلَ أشطان الرَّكيِّ[4]
وقد خذلَتْهُمُ ثُعل بن عَمْرٍو   سَلاما فيهم والجَرْوَلِيِّ

ومما يزيد من اعتقادنا في أنها ليست كاملة ، أن راوية الديوان قدم لها بأنه قالها يعدد فيها

(١) ديوان عنترة ١٩٠ ـ ١٩١ .
(٢) الطوي : البئر ، الهدى : المرأة تهدى إلى زوجها .
(٣) الزو : القدر .
(٤) النوافذ : الطعنات تنفذ إلى الجوف .

بلاءه وآثاره عند قومه حينما استلاطه نفر من قومه ونفاه آخرون . ولكننا مع ذلك لا يمكننا الجزم بذلك .

وشبيه بهذه المقطوعة مقطوعة للشاعر لقيط بن زرارة التميمي قالها يعيِّر بني مالك بن حنظلة باحراق عمرو بن هند لهم ، فقد بدأها بمقدمة بسيطة قال فيها :

أمــن دمنة أقفرتْ بالجناب إلى السفح بـين الملا فالهضاب
بـكيت لعرفـان آياتهـا وهـاج لك الشوقَ نَعْبُ الغُراب[1]

ثم ينتقل إلى الغرض الرئيسي .

والأمر الثاني الذي ربما ساعدنا على التعرف على نوع المقطوعة يتعلق بالبيت الأول فيها ، فملاحظة بداية هذا البيت ربما أعانتنا ، فإن وجدنا له صلة بغيره أدركنا أن المقطوعة مبتسرة ، مثال ما نذهب إليه قول ربيعة بن مقروم الضبي في يوم بُزاخة :

وآلُ مُزَيقياءَ وقـد تداعتْ حلائِبُهُـم لنا حتّـى فَرينا
صَبَرْنا بالسيوفِ لهم وكانتْ معاقلُنـا بهـنَّ إذا عَصِيْنا
وغادرنا فُرَيعَهُـمُ صَريعاً عوائِـدُهُ سبـاعٌ يعْتَفينا[2]

ولكن هذا ليس دليلاً قطعياً لأن أساليب الشعراء متعددة ، وهي أوسع من أن نستطيع حصرها .

وأغراض الشعر التي تضمنتها تلك المقطوعات التي تشكل نسبة كبيرة من شعر الأيام كثيرة ، ونستطيع أن نلم منها إذا استعرضنا مقطوعات شعر حروب الفجار لنرى أنها تضمنت الموضوعات التالية : الفخر ، وصف مشهد ضرب فارس ، حض على الطلب بدم عروة ، وصف لمشهد مقتل فارس ، فخر بشجاعة فارس ، وصف للقاء جيشين ، فخر بقتل عروة الرحال تبرير قتل عروة ، مدح قوم حاربوا ببسالة .

والحقيقة أننا لا نستطيع حصر موضوعات شعر المقطوعات لأنها شملت أغراض شعر الأيام كافة ، ولكن هذه المقطوعات تميزت باستقلال كل مقطوعة بغرض واحد بعكس القصيدة الطويلة التي كانت تجمع بين أغراض عدة .

(1) الأغاني / ثقافة ٢٢/ ١٩٣ ـ ١٩٤ .
(2) النقائض ١/ ١٩٦ .

تعدد الغرض في القصيدة الواحدة واختلاطها

عرف شعر الأيام شكلين من أشكال القصيدة ، المقطوعة التي لا يتجاوز عدد أبياتها التسع أو العشر ، والقصيدة المطولة . وقد عرفها منذ أقدم مجموعاته وهي حرب البسوس ، فلقد وصل إلينا من شعر تلك الحرب كلا الشكلين ، على الرغم من غلبة المقطوعات .

وقد بدأت القصيدة العربية تطول تدريجيا حتى إذا شارفنا على حرب داحس والغبراء ، وبرزت مدرسة الصنعة بزعامة زهير بن أبي سلمى فأثرت بشكل غير مباشر على شعر الأيام الذي عاصرها . ولا ريب أن هذه الإطالة قد رافقها اتساع في نطاق الموضوع دون أن يطرأ على سياق القصيدة الأساسي تغير ما .

وقد رافق هذه الإطالة في القصيدة العربية تعدد في الأغراض الشعرية المتصلة بالحرب التي احتوتها القصيدة العربية . وعلل الدكتور شوقي ضيف ذلك بأن الشعراء غلب عليهم الإيجاز ، فالشاعر لا يجعل القصيدة الطويلة تلم بموضوع واحد يرتبط به الشاعر [1] .

وقصائد شعر الحرب نوعان ، نصوص تتناول غرضاً واحداً ، سواء أكانت قصائد أم مقطوعات ، فمن المقطوعات ذات الغرض الواحد قول هلال بن رزين احد بني ثور بن عبد مناه إذ يصف لقاء جيش في ساحة القتال [2]

وبـالبيداءِ لَمّا أَنْ تلاقَتْ ... بهـا كلبٌ وحلَّ بها النُّذُور

فحانــت حِـمْـيَرُ لَمَّا التقَينا ... وكانَ لهـم بهـا يومٌ عَسِيرُ [3]

وأيقنـتِ القبائـلُ من جَنابٍ ... وعامرَ أَنْ سَيَمْنَعُها نَصيرُ [4]

أَجـادتْ وَبْلَ مُدْجِنَةٍ فدرَّتْ ... عليهم صَوْبَ سارية دَرُورُ [5]

فولـوا تحـت قِطْقَطِهـا سِراعاً ... تكبُّهُـمُ المُهَنَّـدَةُ الذكُور [6]

---

(1) العصر الجاهلي ـ شوقي ضيف ٢٢٤ .

(2) حماسة أبي تمام شرح المرزوقي ١/ ٣٤٠ وما بعدها .

(3) حانت : هلكت .

(4) جناب وعامر : بطنان من كلب .

(5) مدجنة : كثيرة الظلام ، سارية : سحابة تسري ليلاً ، درور : كثيرة الدر .

(6) قطقطها : البَرَد الصغير ، تكبهم : تسقطهم لوجوههم .

ومن القصائد التي اقتصرت على موضوع واحد هذا النص لوعلة بن عبدالله الجرمي الذي قال حين أتى أهله بعد أن تمكن من الهرب في يوم الكلاب الثاني ، ويقول في مطلعه [١]

فدىً لكما رجْليَّ أمـي وخالتي   غَـداةَ الـكُلاب إذ تَحُزُّ الدوابرُ[٢]

وعدة أبيات هذا النص إثنا عشر بيتا . ومن القصائد التي تكاد تقتصر على غرض واحد قصائد الرثاء التي تصدر عن شواعر تربطهن صلة القرابة او الزوجية بالقتيل ، لأن قصائد الرثاء التي تصدر عن شعراء القبيلة يتخللها تهديد للأعداء الـذين قتلـوه ، كما قد تتضمـن وصفـاً لبطولات القتيل .

أما النصوص المتعددة الغرض فكثيرة جدا في الشعـر الجـاهلي عامـة ، وفي شعـر الأيام خاصة . ففي يوم الكُلاب الثاني أسرت تميم عبدَ يَغوث بن وقّاص الحارثيّ وقطعوا له عرقاً وتركوه ينزف حتى مات . فقال هذه القصيدة حين جهز للقتل ، بدأها بنهي صاحبيه عن لومه فقال [٣]

ألا لا تلوماني كَفَى اللومَ ما بها   وما لَكُما في اللومِ خيرٌ ولا ليا

ثم رجا مَنْ يأتي العروض أن يبلغ أصحابه أن لا لقاء فقال :

فيا راكبـاً إما عَرَضْتَ فبلِّغَنْ   ندامايَ من نجران أنْ لا تلاقيا[٤]

وبعد ذلك انتقل الى لوم قومه لانهزامهم فقال :

جَزَى اللهُ قومي بالكُلاب مَلامةً   صريحَهُـمُ والآخَـرينَ المَواليا[٥]

ويبين بعد ذلك أنه لو شاء هرب ونجا ولكنه ثبت ليحمي الذمار فقال :

ولو شئتُ نَجّتْني من الخيل نَهْدَةٌ   تَـرى خَلْفَهـا الحُوَّ الجيادَ تَواليا[٦]

ثم ينتقل بعد هذا الى قص قصة أسره وشد لسانه ، وما لقي من هزء نساء تميم به فقال :

أقـول وقد شَدُّوا لساني بنسعة   أمعشرَ تيمٍ أطلقوا لي لِسانيا[٧]

---

(١) المفضلية رقم ٣٢ .
(٢) تحز : تقطع ، الدوابر : الأصول .
(٣) المفضلية رقم ٣٠ .
(٤) عرضت : أتيت العروض .
(٥) الموالي : الحلفاء .
(٦) نهده : مرتفعة الخلق ، الحوة : الخضرة .
(٧) النسعة : قطعة من الجلد .

وأخيراً تحدث عن نفسه ففخر بشجاعته وكرمه ، ومهارته ، في القتال فقال :

فإن تقتلوني تقتلوا بي سيداً وإن تُطلِقوني تَحْرُبوني بماليا [١]

واختتم هذا المقطع بالأسف على لذائذه الماضيات فقال :

ولم أسبأ الزقَّ الرَّويَّ ولم أقلْ لأيسارِ صِدْقٍ : أَعظِموا ضَوْءَ ناريا [٢]

وفي النص الذي عرضناه تعدد للأغراض التي احتواها ، ولكن رابطاً يجمع بينها ، فهي تتمثل بالشاعر بماضيه وبحاضره وبمصيره الذي ينتظره .

ونختار نصاً آخر من حماسة أبي تمام لقتادة بن مسلمة الحنفي قال في يوم وَحْرَحان ، فقد بدأ القصيدة بلوم صاحبته له لأنه أجار الحارث بن ظالم المريّ حين قتل خالد بن جعفر بن كلاب [٣]

بكَرَتْ على من السَّفاهِ تلومُني سَفَهاً تُعَجِّزُ بَعْلَها وتَلومُ

ثم انتقل بعد ذلك إلى غرض آخر فتحدث عن شجاعته ومنازلته القوم فقال :

قاتلتُهم حتى تكافأَ جمعُهُمْ والخيلُ في سيل الدماءِ تَعومُ [٤]

وينتقل إلى الحديث بعد ذلك عن وصف المعركة التي انتهت بقتله سيد القوم فقال :

لما التقى الصفَّانِ واختلف القنا والخيلُ في نَقْعِ العجاجِ أزومُ [٥]

في النقعِ ساهمةُ الوجوهِ عوابس وبهنَّ من دَعْسِ الرماحِ كُلومُ

يممت كبشَهُم بطعنةِ فيصلٍ فهوى لحُرِّ الوجهِ وهو ذميمُ

ويحدثنا أخيرا عن فرسان قومه فيقول مفتخرا بشجاعتهم :

ومعي أسودٌ من حنيفةَ في الوغى للبيض فوقَ رؤوسهم تَسْويمُ [٦]

---

(١) حرب : أخذ ماله وتركه بلا شيء .

(٢) أسبأ : اشتري الخمر ، الروى : الممتلىء . الإيسار : الذين يضربون الأقداح .

(٣) حماسة أبي تمام شرح المرزوقي ٢/ ٧٦٥ .

(٤) السيل : ما سال من المطر والدم .

(٥) الأزوم : جمع أزم ، والأزم : الإمساك والعض وكني به عن الحمية .

(٦) الدعس : الطعن وشدة الوطء ، تسويم : علامة .

قومٌ إذا لبسوا الحديدَ كأنهم   في البيضِ والحَلَقِ الدلاصِ نُجومُ

ويختم القصيدة بهذا البيت معلناً تصميمه على الغزو إن بقي حيا :

فلئن بقيتُ لأرحَلَنَّ بغَزْوَةٍ   تحْوي الغنائمَ أو يموتَ كريمُ

وتتعدد الأغراض في النص الذي عرضناه ، ولكن رابطاً يربط بين هذه الأغراض ، فهو يرد على امرأته التي تلومه لأنه أجار الحارث ، ثم يتحدث عن بطولته ، ولا ينسى ان يتحدث عن فرسان قومه الذين شاركوه القتال ولم ينتصر إلا بتكاتفهم جميعا .

وإذا اخترنا بعد ذلك معلقة لشاعر من شعراء الأيام ، وموضوعها الرئيسي متصل بالحرب ، ولتكن معلقة عنترة العبسي ، فاننا نرى أن عنترة بدأها بمطلع عبر فيه عن سبق الشعراء الى معانيه ، فلم يدعوا مقالا لقائل ، ثم أكمل ذلك المطلع بذكر الديار ، ثم ناجى دار عبلة وحياها واستنطقها علها تخبره عن أهلها الظاعنين عنها . ثم انتقل بعد ذلك الى وصف الناقة التي قد تبلغه دارها، ثم انتقل بعد ذلك إلى وصف فرسه تمهيداً للوصول إلى الحديث عن المعارك، فالفرس وسيلته وأحد أسلحته . وانتقل الى الحديث عن المعارك التي خاضها ، وكيف كان يصارع الأبطال فيصرعهم ، ويخرق بسيفه دروعهم ، ثم يطعنهم برمحه ، ويعلوهم بسيفه ، ثم نراه يتوقف ليعود لينا جي حبيبته التي حرمت عليه ، ويرسل جاريته لتتجسس أخبارها ، ثم نراه يعود إلى وصف بلائه في الحروب ، ويذكر حث قومه له ودعوتهم له ليتقدم الصفوف .

وهكذا تتميز المعلقة المطولة الأغراض التالية: المقدمة ، وقد قسمها إلى ذكر الأطلال، ووصف الناقة ، ووصف الفرس، وذكر الحبيبة ، ثم موضوع المعلقة، وهو الحديث عن بطولاته في المعارك، وتخلل الحديث عن المعارك لحظات تذكر فيها عبلة وبيض الهند تقطر من دمه .

ومعلقة عنترة تثير نقطة هامة تتعلق باختلاط الأغراض وتداخلها بشكل متميز ، فعنترة يذكر حبيبته في أكثر من موضع من القصيدة ، فالأبيات التي ذكرها فيها متناثرة ، وهذا ما يجعل بعض الباحثين يتهمون الشاعر العربي الجاهلي والشعر الجاهلي بالاضطراب ، وأن وحدة البيت هي الأساس، فكل بيت وحدة مستقلة . وفي رأينا أن هذا الاتهام يحتاج إلى دراسة مستفيضة قبل أن نتسرع في إصداره ، فالشاعر الجاهلي على الرغم من عفويته التي يصدر عنها شعره أحياناً ، إلا أن العملية الشعرية ليست عفوية كلها ، بل ان الشاعر الأصيل يصدر عن وعي تام لما يريد ان يقول وكيف سيعرض أفكاره ، ولِمَ قدم هذا وأخر ذلك من الأبيات ، ومدى تأثير ذلك في نفس السامع وبخاصة شاعر الحرب الذي كان ينظم لغرض قبلي ، وليصل التأثير الى الناس ، الأعداء منهم والأصدقاء .

ونعتقد ان الأمر يحتاج إلى دراسة مستفيضة ليس هذا مكانها ، ومع ذلك فإننا نكاد نجزم بأنه لو سلم الشعر الجاهلي من عبث الرواة وجهل النساخ ، وتيسر له الدارسون الواعون لخصائص اللغة العربية والنفسية العربية في ذلك العصر ، والمتمثلون للبيئة الجاهلية ومقوماتها وطبيعتها ، لو تيسر كل ذلك لاكتشفنا جمالاً وعمقاً ودقة في شعرنا ، ولعرفنا ان الشاعر لم يكن يتصرف إلا عن وعي تام لما ينظم ولوجدنا تفسيراً لهذا التداخل والتقديم والتأخير في الأفكار .

ولو تفحصنا قصيدة قصيدة من قصائد شعراء الصنعة لرأيناها متعددة الغرض أيضاً ، ولكن الشاعر قد جعل هذه الأغراض بيّنة في النص ، ويمهد للانتقال من الغرض الى الذي يليه . وتعليل ذلك واضح أيضاً فإن بعض شعراء الصنعة كانوا يمضون حولاً كاملاً وهم ينقحون قصائدهم ولا يخرجونها إلا بعد تنقيح وتدقيق شديدين .

أما شاعر الحرب فإنه يعبر عن أفكاره دونما تنقيح أو إعادة نظر فيها ، إلا إذا كان قد قالها بعد انتهاء الحرب ، ومع ذلك فإن قصائد أولئك الشعراء التي نظموها ، وانفعالات معينة تؤثر فيهم ، قد عبروا عن أفكارهم بشكل انفعالي ودون تنقيح أو ترتيب لأفكارهم ، ولكن هذه الأفكار التي تبدو متداخلة أحياناً ، قد تدفقت على لسان الشاعر لتعطي في شكلها هذا تأثيراً ، ولتعبر عن خبايا نفوسهم .

ندرة المقدمات والمطالع المصرعة

لعل من أعرق الظواهر الفنية التي أرسى دعائمها الشعراء الجاهليون ، وحرصوا على مراعاتها والمحافظة عليها المقدمة بأنواعها المختلفة ، ونجدها مستوفية لجميع مقوماتها في أقدم ما اثر من مطولاتهم ، وقد ردوا فضل ابتكارها إلى شاعر مجهول لم يصلنا إلا اسمه ، فامرؤ القيس يقول :

عوجا على الطلل المحيل لعلنا   نبكي الديار كما بكى ابن حذام [(1)]

وقد عرض لها كظاهرة ملازمة للشعر الكثير من النقاد العرب [(2)] ، ولكنهم لم يعرضوا لها إلا محاولين تبرير وجودها ، فقد أجمعوا على أنها وجدت لتهيئة السامعين وجذب انتباههم لكي

---

(1) أخبار المراقسة ـ حسن السندوني ٢٠٠ .

(2) أنظر الشعر والشعراء ١/ ٢٠ ، الوساطة ٤٧ ، الصناعتين ٤٣٧٠ ، العمدة ١/ ٢٢٥ المزهر للسيوطي ٤٧٧ .

يصغوا إلى الموضوع الأساسي للقصيدة الذي سيلي المقدمة ، أما المحدثون ، فقد عرض لها المستشرق الألماني فالتر براون [1] ، وردها إلى حياة القلق والحيرة التي كان العربي يحياها . أما الدكتور عز الدين اسماعيل [2] فقد ردها إلى الخوف والقلق والخوف من المجهول . أما الدكتور يوسف خليف [3] فرأى فيها فرصة أتاحتها التقاليد الفنية الموروثة ليخفف فيها الشعراء من التزاماتهم القبلية المفروضة عليهم ، وليفرغوا في هذه المقدمة التعبير عن ذواتهم وشخصياتهم في محاولة جاهدة لتحقيق وجودهم الضائع في زحمة هذه الالتزامات . ورأى فيها باحث آخر أنها [4] ليست أكثر من تقليد فني أصله الشعراء الجاهليون .

وقد عرف الشعر الجاهلي أنواعا من هذه المقدمات ، أكثرها انتشاراً وأعرقها المقدمة الطللية ، ويحرص الشاعر على ذكر الأطلال ووصف آثارها ، وما حل بها واحال حالها ، وما تثيره في نفسه من ذكريات عزية . وقد رأى فيها الدكتور يوسف خليف [5] تعبيراً عن ظاهرة الحركة في المجتمع القبلي والتي تعتبر النتيجة الطبيعية للتفاعل الحتمي بين البيئة والحياة .

وعرف هذا الشعر المقدمة الغزلية ، وأفرغ فيها الشاعر الجاهلي آلام الفراق ، وتنازع الشوق ، وزرف الدمع على حبيبته الراحلة ، النائية . وعرف كذلك مقدمة وصف الظعن ، ومقدمة الشباب والشيب ، وأخيراً مقدمة الفروسية التي تكثر عند الشعراء الفرسان .

وليست المقدمة الطللية أو غيرها وقفاً على المطلولات ، فقد عرفت المقطوعات تلك المقدمات ، كما سنعرض لذلك بعد قليل .

ونستطيع أن نقول استناداً إلى الموثق من الشعر أن نزعم أن المقدمات رافقت القصيدة الجاهلية منذ أقدم الشعر الذي وصل إلينا ، ففي شعر حرب البسوس، وهو أقدم شعر نستطيع الاطمئنان إلى صحة بعض المقدمات، ففي المفضلية [6] التي يرثي بها المرقش الأكبر ابن عمه الذي قتل في حرب البسوس نجد مثل هذه المقدمات، وتشغل أبياتاً سبعة ، كما نجد في مفضلية أخرى [7] للأخنس ابن شهاب التغلبي قالها بُعَيْد حرب البسوس يرثي بها قومه ويبكي حالهم التي آلوا إليها.

---

(1) مجلة المعرفة السورية حزيران ١٩٦٣ ص ١٥٦ ـ ١٦١ .
(2) مجلة الشعر المصرية فبراير ١٩٦٤ ص ٣ ـ ١٤ .
(3) مجلة المجلة أبريل ١٩٦٥ ص ٣٥ .
(4) مقدمة القصيدة العربية ـ حسين عطوان ٦٠٢ .
(5) مجلة المجلة ـ أبريل ١٩٦٥ ص ٣٥ .
(6) المفضلية رقم ٤٥ .
(7) المفضلية رقم ٤١ .

والباحث في الشعر الجاهلي يرى القصائد في أغلبها وبعض المقطوعات تلازمها في بداياتها مثل تلك المقدمات ولكنه سيجد عكس هذا الواقع حينها يدرس شعـر الأيام ، ولعـل الأمثلـة البسيطة التالية تعطينا فكرة عما نذهب إليه ، في شعر حرب البسوس ، لا تصادفنا أكثر من خمس أو ست مقدمات ، وفي شعر حرب داحس وهو شعر مرحلة قريبة من نهاية العصر الجاهلي يزيد عدد المقدمات فيصل إلى نحو من اثنتي عشرة مقدمة . وفي حروب الفجار لا نجد أكثر من مقدمة طللية . ولا نظفر من شعر الأيام بأكثر من ستين قصيدة وصلتنا بمقدماتها .

ولعل في هذه الأمثلة القليلة ما يجعل الصورة أمامنا واضحة ، وهي أن شعر الأيام يكاد يخلو من المقدمات بأشكالها وصورها المختلفة . فما تعليل هذه الظاهرة ؟

أمامنا احتمالات عدة ، سنحـاول عرضهـا ومناقشتهـا . **أول** هذه الاحتمالات أن يكون **لطبيعة الموضوع** وما يتسم به من مفاجأة دخل في ذلك فالغزو والقتال يداهمهم فجأة ، ومطلوب من الشعراء ان يعبروا عن تلك اللحظات الزاخرة بالانفعالات . ونحن نعلم جيداً أن شعر الأيام ضربان ، ضربٌ قيل أثناء حدوث الحدث ، وضرب قيل بعد أن هدأت النفوس . ولو توفر لنا معرفة الزمن الذي نظمت فيه النصوص لاستطعنا أن نقول أن الشعر الذي فاجأ حدثه الشاعر فنظم فيه دون مراعاة المقدمة له ما يبرره ، والشعر الذي نظم بعد ذلك بفترة ، ويكون الشاعر قد ابتعد قليلاً عن الجو المشحون بالانفعالات ، فابتدأ القصيدة بمقدمة مناسبة ، فعنترة حينما رثى مالك بن زهير وكان صديقه لم يضمن قصيدته مقدمة [1] بل شرع يعبر عن ألمه وحزنه وخسارة عبس . ولكن عنترة حينما تحدث مفتخراً بيوم الهباءة لـيرد على زياد العبسي الـذي كان يحسـده ويحاول التنقص من منزلته ، بدأ الشعر بمقدمة قال فيها : [2]

نأتْـكَ رَقـاشِ إلا عن لِمامِ وأَمْسَى حَبْلُهـا خَلَـقَ الرِّمامِ [3]

. . . الخ المقدمة التي استغرقت أبياتاً تسعة من القصيدة .

وعندما أسر مهلهل ، وكان سجيناً ، وتذكر قومه وقتلاهم ، وما حل بهم قال مخاطبا ابنة آسره عندما حاولت محادثته :

طَفْلَـةٌ ما ابنـةُ المحلل بَيضا ءُ لَعوبٌ لذيذةٌ في العِناقِ [4]

. . . الخ الأبيات

---

(1) ديوان عنترة ١٧٦ ـ ١٧٨ .
(2) الديوان ١٥٦ ـ ١٥٧ .
(3) اللمام : اللقاء العسير . الرمام : قطع الحبال البالية .
(4) الأغاني / كتب ٥/ ٥٤

ويفتخر عامر بن الطفيل بيوم عكاظ ، ولا ندري متى نظم هذا الشعر ، ويستغرق ذلك أبياتاً عدة ، ولكنه يخلو من المقدمة ، ويقول في مطلعها :

أَلَسْنا نقودُ الخيلَ قُبّاً عَوابِساً   ونَخْضِبُ يومَ الرَّوعِ أسيافَنا دماً[1]

ورب قائل يقول لم لا يعتبر هذا المطلع والأبيات التالية شكلاً من أشكال المقدمة ، وهي مقدمة الفروسية لأنه لا يذكر فيها حديثاً عن حرب معينة ؟

والاحتمال الثاني أن يكون تتابع الأحداث ، وهدف الشاعر التعبير عن تلك الأحداث ، وأنه ليس مطالباً بالصنعة ، بل المطلوب منه التعبير عن تلك الأحداث ولا غبار عليه لو تسرع في النظم ، دون الاهتمام بتقاليد القصيدة الجاهلية ، ودون صناعة دقيقة متأنية .

لكن هذا الاحتمال لا يثبت للنقد لأن الشاعر الذي تجاهل وجود المقدمة ،فلم ترد في هذا النص، قد ذكرها في قصيدة أخرى لها نفس الظروف والأجواء . فالأخنس التغلبي عندما رثى قومه وبكاهم في مفضلية اهتم بالمقدمة فشغلت ثمانية عشر بيتاً[2] ، والمرقش الأكبر حينا رثى ابن عمه الذي قتلته بكر ، وتأثر لذلك قطعا رثاه بقصيدة من المفضليات واهتم بالمقدمة فشغلت أبياتا سبعة[3] ،ولكن عنترة حينا رثى مالكا لم يهتم بالمقدمة[4] ، مع ان شعره الذي وصل إلينا ضمت قصائده مقدمات مختلفة الأشكال والصور . وأميمة بنت أمية بن عبد شمس ترثي أخاها الذي قتل في حروب الفجار يوم عكاظ بقصيدة بدأتها بمقدمة تصور حزنها وحالتها النفسية بسبب ما أصابها[5]

والاحتمال الثالث أن تكون القصائد بمقدمات حينا نظموها ، ولكن هذه المقدمات ضاعت فيا ضاع من هذا الشعر . ويعضد هذا الاحتمال أن شعر الأيام خاصة تندر فيه المقدمات ، لأن المقطوعات غالبة عليه ، ولأن هذه المقطوعة بعضها منتزع من قصائد ، سقط باقيها ولم نعثر عليه .

ويدعم هذا الاحتمال أن الشعراء الذين سلمت أشعارهم ودواوين شعرهم من الضياع أو العبث والتحريف قد حوت دواوينهم الكثير من هذه المقدمات ، وأقرب مثال لما نذهب إليه ديوان عنترة وشعر مهلهل . ومما يؤيده أيضا أن شعر الشعراء الذين لم تصل إلينا دواوينهم في

(1) ديوان عامر بن الطفيل ١٢٨ .
(2) المفضلية ٤١ .
(3) المفضلية ٤٥ .
(4) ديوان عنترة ١٧٦ .
(5) الأغاني / ثقافة ٢٢/ ٨٠ .

معظمه شعر مقطوعات وخال من المقدمات حتى لو وجدت القصائد . ولكن هذه ليست قاعدة مطلقة بل نجد ما يقيدها ويضعفها .

والحقيقة التي يمكن أن نزعمها أن شعر الأيام ما زال مبعثرا ، ولا نستطيع أن نقطع برأي في ظاهرة كهذه إلا أن نخمن ، وكانت النتيجة ستكون أقرب إلى الحقيقة لو وصل إلينا جو الشعر الذي قيل فيه ، إذن لاستطعنا التمييز بين ما قيل فور حدوث الحدث ، وما قيل بعد ذلك ، ولقرنا على ضوء ذلك .

بقيت كلمة أخيرة وهي أن شعر الأيام الذي ضمت قصائده مقدمات قد عرف أنواع المقدمة المختلفة : الطلليه والغزلية والفروسية ومقدمة الشباب والشيب[1] . ووصف الظعن . كما أن المقطوعات عرفت المقدمة أيضاً . [2]

وما دمنا قد ذهبنا إلى احتمال فقدان مقدمات الكثير من قصائد الأيام فإنه من الطبيعي ان يسقط معها المطالع المصرعة ، هذا لو وجدت مطالع مصرعه ، لأن السرعة الفنية التي طبعت شعر الأيام تجعل اهتمام الشاعر بهذه الصفة الموسيقية أمرا نادر الوقوع .

مواكبة الشعر لأحداث الأيام

لعلنا لا نبالغ إذا قلنا أن أخبار الأيام لم تصل إلينا إلا عن طريق الشعر ، سواء أكان شعر هذه الأيام الذي رواه الرواة كجزء من شعر الشعراء الذين رووا شعرهم ، أو الشعر الذي نظمه شعراء العصر الأموي ، ذلك العصر الذي احتدمت فيه العصبيات القبلية وبعثت من مرقدها بعد ان كاد الإسلام يطمسها ويستبدل بهذه العصبية الدين الجديد . وعلى وجه التحديد ذلك الثالوث الشعري المتمثل في جرير والفرزدق والأخطل ، فقد أثار جرير والفرزدق من خلال تراشقهما بالهجاء والتفاخر أحاديث عن أيام القبائل وحروبهم ، وكان لتميم حصة الأسد من تلك الأيام التي ذكرت في نقائضهما ، وعندما شرح أبو عبيدة نقائضهما أسهب في الحديث عن تلك الأيام التي أشار إليها في شعرهما .

أما دواوين الشعر التي رواها الرواة فقد حملوا بالإضافة إلى الشعر مناسبة هذا الشعر وإطاره التاريخي ، ودعاهم ذلك إلى التحدث عن اليوم الذي قيل فيه هذا الشعر بإيجاز .

---

(1) ديوان عنترة ١٧٨ .

(2) ديوان عنترة ١٩٠ .

وعندما عرض المؤرخون لتلك الأيام استعانوا ببعض هذا الشعر الذي وجدوه في متناول أيديهم ليدللوا على صحة ما يقولون ، فعلوا ذلك لما للشعر من منزلة في نفوس الناس ، ولأثره في تزيين الخبر ، وهذا الأثر دعا بعضهم إلى إيراد الشعر دونما تحقيق في هذا الشعر أو في مصادره أو رواته .

ولا نستطيع قبل أن نبحث في استطاعة شعر الأيام تغطية أحداث تلك الأيام بكاملها ، إلا أن نشير إلى بعض المشكلات التي تعترض سبيلنا . **وأول هذه المشاكل ان القسم الأكبر من شعر الأيام ليس بين أيدينا** ، وهو موزع بين مفقود لم يصل إلينا ولن يصل ، وبين مدفون في بطون المخطوطات من تراثنا والتي لم ترَ النور بعد ، ثم تواجهنا بعد ذلك مشكلة أن كتاباً أو كتباً دونت شعر الأيام مستقلة لم يصل إلينا ، على الرغم مما أشار إليه ابن النديم وغيره من أن أبا عبيدة الف كتاباً في الأيام ، ونميل إلى أنه ضمنه شعر تلك الأيام ، كما ان أبا الفرج له كتاب في الأيام تضمن ألفا ومائتي يوم . ولو كان وصلنا ديوان شعر للأيام ، أو مؤلف كامل لتلك الأيام لتغيرت الصورة ومن المشكلات التي تعترض الباحث ان **شعر الأيام مثلا في قصائده لم يكن هدفاً في حد ذاته** ، بل كان وسيلة يقتطف منه المؤرخ والأديب ما يناسبه ويناسب مؤلفه ليستشهد به . وقد كان لهذه العملية تقطيع لأوصال ذلك الشعر وتناثره ، وقد كان أولئك العلماء والذين نرجح ان شعر تلك الأيام كان في متناول أيديهم ، كانوا يسقطون ويهملون ما لا يلزمهم فيضيع وينساه الناس . لأن كل جيل ، بعد انتشار التدوين والكتابة ، كان يتصل بما هو مدون فحسب . ومما يؤكد زعمنا ان تميما هي أكثر القبائل حظا في بقاء قسم كبير من أيامها ومن شعر تلك الأيام ، كما ان تلك الأبيات المفردة والتي تطالعنا في شعر الأيام الذي بين أيدينا أكبر دليل على ما نذهب إليه ، فقد حفظت تلك الأبيات المفردة لأن مؤلفا نحويا أو عالما من علماء العرب قد احتاج إليها فدونها ، وذكر مناسبتها وأسقط باقي القصيدة لأنها لا تعنيه .

ففي يوم غول الثاني عير سحيم بن وثيل الرياحي طارقاً بقتله جاريه ، ولا نتصور أن يكون ذلك متمثلاً في بيت واحد من الشعر نظمه على بحر من بحور الشعر التي عرف أنها تستخدم في الموضوعات التي تستغرق أبياتاً عدة . فنحن لا نرى إلاّ هذا البيت أورده ابن عبد ربه في العقد الفريد .

لقد كنتَ جارَ ابنَيْ هُجَيْمَـةَ قبلها فلم تُغْنِ شيئاً غير قتل المُجاورِ[1]

ومما يدعم وجهة نظرنا هذه أن القصيدة التي وردت في مجموعة المفضليات وفي دواوين

(1) العقد الفريد ٥/ ٢٣٩ .

الشعراء الذين قدر لدواوينهم أن تصل طويلة ومكتملة البناء ، في حين نجد المقطوعات نسبتها كثيرة جداً في الشعر الذي ورد في غير الدواوين والمفضليات . ويتضح هذا الذي نذهب إليه بشكل عملي إذا قارنا بين نص لشاعر ورد في ديوانه وبين ذلك النص أو القسم الذي أورده كتاب تاريخ أو أدب ، ففي يوم الفجار الأول للأنصار ، وهو يوم من حروب الأوس والخزرج ، يقول عبد الله بن رواحة حينما جرح قيس بن الخطيم :

رميناكَ أيامَ الفِجار فلم تَزَلْ حَمِيّاً فمن يشرب فلستَ بِشاربِ[1]

ولكننا نجد أن ذلك النص يزيد على الخمسة عشر بيتاً من الشعر أوردها محقق ديوان قيس ابن الخطيم[2] .

ومن العقبات التي تعترض سبيل البحث الصحيح ذلك العبث الكثير ، والتحريف عن عمد أو عن جهل من النساخ والرواة وأخيراً المحققين ، فإن أية نظرة فاحصة في نص في مصادر مختلفة عرضت أجزاء منه تكفي لكي نلاحظ التحريف الذي قد يصل إلى حد تغيير المعنى وتغيير نتيجة المعركة التي يتحدث عنها ذلك النص . ومن المضاعفات التي يحدثها ذلك التحريف تغيير بعض الأعلام فيه والتي لها أهمية بالغة في رصد أحداث تلك الأيام .

ولقد عرضنا فيما سبق من بحثنا إلى ضياع مقدمات الكثير من قصائد شعر الأيام ، وعلى الرغم من أن الاعتقاد السائد لدى الكثيرين أن المقدمة قد تبدو غير ذات أهمية ؛ إلا أنها قد تكشف لنا أشياء تتصل باليوم أو بطبيعة الغرض . أو تكشف لنا عن نفسية صاحب النص . ولقد رأينا أن بعض شعراء الأيام من فرسان تلك الحروب تحدث في مقدمة قصائده عن فرسه أو غير ذلك مما يتصل بالحرب مستعيضاً بذلك عن تلك المقدمة الطللية أو الغزلية المتعارف عليها ، كما فعل عنترة وغيره .

افتخر عامر بن الطفيل العامري بيوم عكاظ من أيام الفجار الآخر ، وبدأ قصيدته بمقدمة ضمنها حديثاً عاماً عن الحرب والفرسان وفخر بفرسان قومه وبحمايتهم الذمار ، ثم انتقل إلى موضوع الشعر الرئيسي ، فقال :

أَلَسْنا نقودُ الخيلَ قُبّاً عوابساً ونَخْضِبُ يومَ الروعِ أسيافَنا دَما

ونَحْمِي الذمارَ حين يَشْتَجِرُ القَنا ونُثْني عن السِّربِ الرعيلَ المُسَوَّما

---

(1) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٧٦ .

(2) ديوان قيس بن الخطيم ١٣٥ .

ونستلبُ الحُوَّ العوابسَ كالقَنا ... سَواهِمَ يحملنَ الوشيجَ المُقَوَّما[(١)]

وأخيراً فإن من المشكلات الهامة اختلاف المؤرخين والرواة أحياناً في إسناد الشعر إلى خبره ، وهم يفعلون ذلك حيناً لا يرد ذكر اليوم في الشعر الذي يوردونه ، فيجتهد كل منهم أو يفتعل قصة لذلك الشعر، هذا إذا لم يكن في حوزته مناسبة ذلك الشعر من رواية الشعر، لأنه لو سلمنا بأن كل شعر خلا من ذكر اليوم مختلق ، ومن فعل المؤرخين لألغينا شعراً كثيراً ، ولأضفنا خللاً جديداً يقوض بنياناً تعاورته عوامل هدم كثيرة ، من داخله ومن خارجه .

ويتصل بالإسناد أيضاً اختلافهم في إسناد الشعر إلى صاحبه ، لأن ذلك يضيف اضطراباً جديداً إلى الصورة العامة لأحداث تلك الأيام ، وبخاصة أن معظم الشعراء اشتركوا في تلك الأيام ، ففرق بين أن يسند هذا الشعر إلى الحوفزان بن شريك أو أن يسند إلى غيره ، لأن معناه أن الحوفزان عاش حتى شهد يوم ذي قار ، وتتغير الصورة إذا ثبت لنا أنه مات قبل أن يشهده :[(٢)]

لما رأيتُ الخيلَ شكَّ نُحورَها ... حِرابٌ ونُشّابٌ صَبَرْتُ جَناحا
على المَوْتِ حتى أنزلَ اللهُ نَصرَه ... ووَدَّ جَناحٌ لو قَضَى فاستراحا[(٣)]

**

ولكننا لا نملك تغيير حقائق وصلت الينا ، فلا نملك أن نضيف اليها عوضاً عن ذلك الذي ضاع ولا نملك إلا أن نصحح ما نستطيع تصحيحه بالمقارنة وترجيح الروايات الموثقة. فبين أيدينا مجموعة ضخمة من شعر الأيام بلغت أكثر من ستمائة قصيدة ومقطوعة ، ومطلوب منا أن نقرر هل هذا الشعر يرصد أحداث الحرب ويغطيها من بدايتها إلى نهايتها ؟

قبل الاجابة عن ذلك التساؤل نود أن نوضح المقصود بأحداث الحرب وحيثياتها، فالحرب تنشب بين قبيلتين أو أكثر ، ولا بد من سبب لنشوب تلك الحرب ، وقد تطول الحرب فتستمر أكثر من لقاء ، كحرب البسوس ، وحرب داحس والغبراء ، وحروب الفجار ، وحروب الأوس والخزرج ، وللحرب قادة يقودون فرسان قبيلتهم ومقاتليها ويوجهونهم . وفي الحرب يلتقي الطرفان ويقتتلان ، ويسقط قتلى وجرحى ، ويقع أسرى في أيدي الأعداء ، وتسبى سبايا ،

(١) ديوان عامر بن الطفيل ١٢٨ .
(٢) النقائض ٢/ ٦٤٦ .
(٣) جناح : اسم فرسه .

وتساق انعام كغنائم . وفي الحرب تحاك الدسائس والحيل كوسائل للتغلب على الأعداء . وترتفع أصوات خافتة تنادي بالسلام ووقف القتال بين المتحاربين وتدعو إلى الصلح وسط ذلك الصخب وقعقعة السويف .

تلك هي أبرز الأحداث والتفاصيل المتصلة بالحرب ، ولنحاول أن نتصل بالشعر لنرى مدى تغطيته لتلك الأحداث .

ولنأخذ يوماً هاماً من أيام العرب وننظر في الشعر الذي وصل إلينا لنرى مدى مواكبة هذا الشعر لأحداث ذلك اليوم ، وهو يوم ذي قار ، وبين أيدينا من الشعر الذي قيل فيه قرابة أربعين مقطوعة وقصيدة ، وحتى تكون الصورة واضحة فإننا ننبه إلى أنه لا بد من أن نستعين بالنثر لتكوين صورة واضحة المعالم .

وأسباب هذا اليوم كما أوضحناها في غير هذا الموضع كثيرة ولكن الشعراء عرضوا لنا سببين ، الأول أدرع النعمان ، يقول بعض شعراء بني ربيعة مفتخراً بأنهم منعوا أدرع النعمان :

ألا مَنْ لليلٍ لا تغـورُ كَواكِبُهْ	وهمٌّ سرى بين الجوانح جانبه
ألا هل أتاها أنَّ جيشـاً عَظرَمْرَماً	بأسفـلِ ذي قارٍ أُبيدَتْ كتائبُهْ
فما حَلْقَـةُ النعمانِ يومَ طلبتَها	بأقربَ من نجمِ السماءِ تُراقِبُهْ[1]

وذكر قيس بن مسعود السبب الآخر وهو اعتداء قومه بكر على سواد العراق الذي يحميه كسرى ، فقد تعهد قيس بن مسعود أمام كسرى بمنع قومه من الاعتداء عليه مقابل منحة سنوية ، ولكنه لم يستطع فحبسه كسرى ، بسبب تغريره به فقال وهو محبوس :

الا أبلـغ بنـي ذُهْـلٍ رسولاً	فمَـنْ هذا يكون لكم مكاني
أيأكُلهـا ابـنُ وَعْلَـةَ في ظليفٍ	ويأمَـنُ هيثـمٌ وابنـا سِنانِ ؟
ويأمـن فيكم الـذهلي بعدى	وقـد وَسَمـوكم سِمَـةَ البيانِ
ألا من مبلـغ قومـي ومَـنْ ذا	يبلِّغُ عن أسيرٍ في الأواني ؟[2]

ويقول الأعشى أيضاً مصراً على عدم التفريط بأدرع النعمان :

حَلَفْـتُ بالملـحِ والرمـادِ وبالعزَّ	ى وبـالـلاتِ نُسْلِـمُ الحَلَقَةْ

(١) الأغاني/ ثقافة ٢٣/ ٢٣٩ .
(٢) نفس المصدر السابق ٢٣/ ٢٢٢ .

حتـى يظـلَ الهـامُ مُنْجَدِلاً ويقـرعُ النَّبْـلُ طُرَّةَ الدَّرَقَةْ(١)

وقد اختلفت الأقوال حول القبائل المشتركة في ذلك اليوم ، فشعراء شيبان يدعون أن شيبان فقط هي التي حاربت الفرس ، وأدعى آخرون أن آخرين اشتركوا معها . ولكن عمرو بن الأسود حدد لنا المشتركين في ذلك اليوم فقال من أصمعيته(٢)

لما سمعتُ نداءَ مُرَّةَ قد علا وابنَـيْ رَبيعـةَ في الغبـارِ الأَقْتَمِ

ومُحلِّماً يمشـون تحـتَ لوائهم والموتُ تحـتَ لواءِ آلِ مُحلِّمِ

وسمعـتُ يَشْـكُرَ تدَّعِـي بحُبَيِّبٍ تحتَ العَجاجةِ وهي تقطرُ بالدمِ(٣)

وحُبَيِّبٌ يُزْجَـون كلَّ طِمِرَّةٍ ومن اللهازمِ شَحْتُ غيرِ مُصرَّمِ(٤)

والجمعُ من ذهـلٍ كأنَّ زُهاءَهُمْ جُرْبُ الجِمالِ يقودها ابنا شعيثِم(٥)

قَذَفوا الرماحَ وباشَروا بنحورِهِم عنـد الضرابِ بكلِ ليثٍ ضَيْغَمِ

وكان واضحاً في هذا اليوم أن العرب يقاتلون عدوا من خارج الجزيرة ولم يكن قتالاً بين قبائل عربية ، ويبدو أن ذلك كان واضحاً لدى بعضهم ، فهذا حنظلة بن ثعلبة يقول محرضاً ومبيناً شرف القتال في هذا اليوم :

يا قوم طيبـوا بالقتـالِ نَفْساً أجـدرُ يومٍ أنْ تَفُلُّوا الفُرْسَا(٦)

وترتجز امرأة من عجل وقومها يقاتلون الفرس فتقول محذرة من مغبة الهزيمة(٧)

إن يَظْفَروا يحُـرِّزوا فينا الغُرْلْ إيهٍ فِدىً أبي لكم بنـي عجل(٨)

وهي بذلك تحدد اشتراك عجل في هذا اليوم .

ويقف أبو كلبة ، أحد بني قيس بن ثعلبة ، مؤنباً الأعشى والأصم لمدحهما شيبان خاصة

---

(١) نفس المصدر ٢٣/ ٢٣٩ .

(٢) الأصمعية رقم ٢١ .

(٣) تدعى : تنتسب .

(٤) الطمرة : المستفزة للوثب والعدو . الشخت : الدقيق .

(٥) زهاءهم : قدرهم .

(٦) تاريخ الطبري ٢/ ٢٠٩ ، النقائض ٢/ ٦٤٢ .

(٧) النقائض ٢/ ٦٤١ .

(٨) الغرل : الرماح الطويلة .

فيقول : مشيراً إلى اشتراك اللهازم وبني عجل ، واعترافا باشتراك شيبان :

لـولا فوارسُ لا ميلٌ ولا عزُلٌ ... مـن اللهـازم ما قاظـوا بذي قار

ثم يقول :

إن الفـوارسَ من عجـلٍ هُمُ أنِفوا ... مـن أنْ يُخلُّوا لِكِسْرى عَرْصَـةَ الدارِ
قد أحسنَتْ ذُهلُ شيبانٍ وما عَدَلَتْ ... في يوم ذي قارَ فرسـانُ ابـن سَيَّارِ
هم الـذين أتوهـم عن شمائلهم ... كما تَلَبَّسَ وُرَّادٌ بِصُدَّارِ[1]

وقد غضبت شيبان لأن بعض القبائل العربية تقاعست عن نصرتهم خوفاً من بطش كسرى ، وظهر هذا الغضب والعتاب لقبائل معد على لسان الأعشى حينما قال :

لـو أنَّ كلَّ مَعَـدٍّ كانَ شاركنا ... في يوم ذي قار ما أخطاهُمُ الشَّرَفُ[2]

وقد حدد شعراء هذا اليوم اسمه ومكان اللقاء ، فقال الأعشى من قصيدة له :

هُـمُ ضربـوا بالحِنْـوِ حنـوِ قُراقِرٍ ... مُقَدِّمَـةَ الهامُـرْزِ حتـى تَوَلَّتِ

ويقول في بيت آخر من نفس القصيدة :

فَصَبَّحَهُـمْ بالحِنْـوِ حِنْـوِ قُراقِرٍ ... وذي قارِها منهـا الجنـود فَفُلَّتِ[3]

وذكر اليوم أعشى ربيعة حين قال :

ونحـنُ غَداةَ ذي قارٍ أَقَمْنا ... وقـد شهـد القبائـلُ مُحْلِبينا[4]

ويقول العديل المجلي مبيناً أهمية ذلك اليوم :

وما يَعُدُّونَ من يوم سمعتُ به ... للناس أفضلَ من يوم بذي قارِ[5]

وسماه ابن قرد الخنزير التيمي يوم كسرى فقال متحدثاً عن بني لجيم :

---

(١) الأغاني/ ثقافة ٢٣/ ٢٣٧ ، تاريخ الطبري ٢/ ٢١١ .
(٢) ديوان الأعشى ٣٠٩ . الأغاني ثقافة ٢٣/ ٢٤٠ .
(٣) ديوان الأعشى ٢٥٩ .
(٤) تاريخ الطبري ٢/ ٢١٢ .
(٥) النقائض ٢/ ٦٤٦ ، العقد الفريد ٥/ ٢٦٦ .

هُمُ ضَرَبوا الكتائبَ يومَ كِسْرَى أمامَ النّاس إذ كرهوا الجِلادا[1]

وذكر عمرو بن الأسود ذلك اليوم بأحد أسمائه وهو ذات العجرم :

ولقد أَمرتُ أخاكَ عَمْراً أَمْرَه فعَصَى وضَيَّعَـهُ بذاتِ العُجْرُمِ[2]

ولقد حدد أحد شعراء هذا اليوم عدد الجيوش ، فقال بكير ، أصم بني الحارث بن عباد :

زحفـوا بجمـع لا تُرَى أقطارُهُ لقحــتْ به حربٌ لغـير تَمام

عربـاً ثلاثـةَ ألـفٍ وكتيبةً ألفين أَعْجَمَ من بني الفَدّامِ[3]

ويبدو أن البعض قد علم باستعدادات الفرس ، وأنهم على وشك الزحف للقضاء على بكر ، فلم يضن هؤلاء على بكر بالتحذير لكي تستعد ، ومن هؤلاء مرداس أو عباس بن مرداس السلمي الذي كان مجاوراً فيهم ، ورأى الجيوش تقبل نحوهم فقال :[4]

أبلـغ سراة بنـي بكر مغلغلة إنـي أخاف عليكم سربة الـدار[5]

إني أرى الملك الهامرز منصلتا يزجي جياداً وركباً غير أبرار

وكان قيس بن مسعود محبوساً عند كسرى ومع ذلك بعث يحذرهم ويحدد لهم الأماكن التي عليهم تجنبها فقال من قصيدة :

وصاة امرىء لو كان فيكم أعانكم على الدهـر والأيام فيهـا الغوائل

فـإياكم والـطف لا تقربنه ولا البحر إن الماء للبحـر واصل[6]

وأما لقيط الأيادي - وكانت أياد قد حاربت إلى جانب جيش الفرس - فقد كتب اليهم يحذرهم ويحثهم على تسليم القيادة إلى قائد كفء ليحقق هزيمة الفرس فقال :

---

(١) الأغاني/ ثقافة ٢٣/ ٢٣٩ .

(٢) الأصمعية رقم ٢١ .

(٣) الأغاني/ ثقافة ٢٣/ ٢٣٨ ، تاريخ الطبري ٢/ ٢١١ ، النقائض ٢/ ٦٤٤ .

(٤) الأغاني/ ثقافة ٢٣/ ٢٢٨ .

(٥) سربة الدار ؛ السربة السفر القريب ، السربة : الجماعة ينسلون من المعسكر فيغيرون ويرجعون . مغلغلة : رسالة .

(٦) الأغاني/ ثقافة ٢٣/ ٢٢٤ .

قوموا قياماً على أمشاط أرجلكم ثم افزعوا قد ينال الأمن من فزعا
وقلدوا أمركم لله دركم رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا[١]

ولقد أحس بعض المقاتلين والقادة برهبة من لقاء تلك الجيوش التي لا قبل لهم بها ، وأدرك القادة والشعراء ذلك فهبوا يهونون من أمرهم ، هذا عمرو بن جبلة اليشكري يقول مرتجزاً[٢] :

يا قوم لا تغرركم هذى الخرق ولا وميض البيض في الشمس برق
من لم يقاتل منكم هذى العنق فجنبوه الراح واسقوه المرق[٣]

وحدثنا المؤرخون أن فكرة اللجؤ إلى الصحراء وعدم ملاقاة جيش الفرس قد راودت بعض القادة ، وأن الفريق المعارض لجأ إلى قطع وضن النساء ليدافع كل عن حريمه . ووقف يزيد المكسر بن حنظلة مرتجزاً :

من فر منكم فر عن حريمه وجاره وفر عن نديمه[٤]

أما الأبطال والفرسان الذين أبلوا في ذلك اليوم فقد أغفل الشعراء بعضهم ، ومع ذلك ذكروا بعضهم ، يقول سويد بن أبي كاهل اليشكري مفتخراً بيزيد بن حارثه اليشكري الذي حمل على المرزبان فقتله :

منا يزيد إذ تحدى جموعكم فلم تقربوه المرزبان المسودا[٥]

وذكر أبو كلبة ابن سيار العجلي فقال مصوراً بطولته وبطولة فرسانه :

قد أحسنتْ ذُهلٌ شيبانُ وما عدَلَتْ في يوم ذي قار فرسانُ ابن سيَّارِ
هم الذين أتوهُم عن شمائلهم كما تَلَبَّسَ وُرَّادٌ بِصُدَّارِ[٦]

وذكر بكيْرٌ ، أصمّ بني الحارث بن عباد بطولة أبي قيس فقال :

شَدَّ ابنُ قيسٍ شدةً ذهبتْ لها ذِكْرَى له في معْرِقٍ وشآمِ[٧]

---

(١) العقد الفريد ٥/ ٢٦٨ . والحماسة البصرية ١/ ٨٩ .
(٢) الأغاني/ ثقافة ٢٣/ ٢٣٢ . (٣) العنق : الجماعة من الناس .
(٤) النقائض ٢/ ٦٤٣ . (٥) النقائض ٢/ ٦٤٣ .
(٦) الأغاني/ ثقافة ٢٣/ ٢٣٧ ، تاريخ الطبري ٢/ ٢١١ ، النقائض ٢/ ٦٤٥ .
(٧) الأغاني/ ثقافة ٢٣/ ٢٣٨ ، النقائض ٢/ ٦٤٥ ، تاريخ الطبرى ٢/ ٢١١ .

ويشير حنظلة بن ثعلبة إلى أحد الفرسان في ذلك اليوم وهو عُمَيْرٌ فيقول :

هــذا عُمَـيـرٌ تحتـه الْأَدُّ يُقْدِمُـهُ ليس له مَرَدُّ[1]

وكان نصيب قادة كل من الجيشين من الاهتمام قليلاً ، فلم يذكروا إلاّ الهامرز والمرزبان ، والنعمان بن زرعة وهؤلاء من قادة جيش الفرس ، وذكروا ابن سيار . يقول أعشى ربيعة :

فولونـا الـدوابـرَ واتقونا بنُعمان بن زُرْعَـةَ أكتعينا[2]

ويقول مرداس السملي أوعباس مرداس بن السلمي :[3]

إنـي أرى الملكَ الهامُـرْزَ مُنْصَلِتاً يُزْجِي وَرْكباً غـيـر أبرارِ[4]

أما جيوش الفريقين فقد أسهبوا في وصفها وبخاصة جيش الفرس ، ولعلهم فعلوا ذلك للمبالغة في تصوير انتصارهم على جيش دولة لم يفكروا يوماً بهزيمتها . ويعتبر وصف الأعشى للجيش وللقاء الفريقين من أدق الوصف وأجمله حيث يقول مصوراً جيش الأعداء :

لما أتونا كأنَّ الليلَ يَقْدُمُهُمْ	مُطَبِّقَ الأرض تغشاها بهم سَدَفُ
بطـارقٌ وبنـو ملك مرازبةٌ	مـن الأعاجـم في آذانهـا النُّطَف
من كلِّ مَرْجانةٍ في البحـرِ أحرزَها	تيارُهـا ووقاهـا طينَهـا الصدفُ
كأنمـا الآلُ في حافـاتِ جمعِهِمُ	والبيضُ بَرْقٌ بدا في عارض يكِفُ

ويتحدث عن جيش قومه فيقول :

وجندُ كسرى غداةَ الحنوِ صبَّحَهُمْ مِنّا	غَطاريفُ تُزْجِي الموتَ فانصرفوا
لقـوا ململمـةً شهبـاء يقدمها	للمـوت لا عاجـزٌ فيهـا ولا خَرِفُ
فَرْعٌ نمتْـه فروعٌ غـيـرُ ناقصةٍ	موفـقٌ حازمٌ في أمـره أنِفُ
فيهـا فوارس محمـودٌ لقاؤهم	مثـلُ الأسِنَّـةِ لا ميلٌ ولا كُشُفُ
بيضُ الوجوهِ غداةَ الـروعِ تحسبهم	جِنّـانَ عبس عليهـا البيض والزغفُ

---

(١) تاريخ الطبري ٢/ ٢٠٩ .

(٢) تاريخ الطبري ٢/ ٢١٢ ، النقائض ٢/ ٦٤٦ .

(٣) الأغاني/ ثقافة ٢٣/ ٢٢٨ .

(٤) منصلتا : جادا ومتقدما القوم .

وصور الأعشى لنا نتيجة المعركة في أبيات قليلة فقال :

لما التقينــا كشفنــا عن جماجمنا ... ليعلمــوا أننــا بكرٌ فينصرفوا

لما أمالــوا إلى النشــاب أيديهم ... مِلْنا ببيض فظل الهــام يختطفُ

وخيلُ بكرٍ فما تنفكّ تحصدهم ... حتــى تولــوا وكاد اليوم ينتصفُ

قالــوا البقية والهنــدي يحصدهم ... ولا بقية إلاّ السيف فانكشفوا[1]

وعلى الرغم من اضطراب ترتيب هذه الأبيات في المصادر المختلفة إلاّ أنها تعطينا صورة واقعية لذلك اليوم .

وتحدث شعراء آخرون عن نتيجة المعركة ، فهذا ضرار العجلي يخبرنا بفرار ضبة لجعراء بعد أسر تسعين كهلاً منهم كما أنهم قتلوا سيدهم الأصجم الضبي :

كسونــا الأصجَــم الضبِّــي لمّا ... أتانــا حَدَّ مصقــولٍ رقيقِ

وفــرَّتْ ضبــةُ الجعــرا لما ... أجَــدَّ بهــنَّ إتعــابُ الوَسيقِ

أسرْنــا منهــم تِسْعيــنَ كَهْلاً ... نقودُهُــمُ إلى وَضَــحِ الطريقِ[2]

ويخبرنا العُدَيْل بن الفَرْخ العِجْليّ بما استلبوه من القوم المنهزمين فيقول :

جئنـا بأسلابهـم والخيلُ عابسةٌ ... يوم استلبنا لِكسْرى كلَّ إسوارِ[3]

وأفلت في هذا اليوم النعمان بن زرعة التغلبي وأخبرنا بهـذا شعراً مرثـد بـن الحـارث الشيباني :

وأَفْلتَنــي النعمانُ قابَ رماحِنا ... وفوقَ قطاةِ المُهْرِ أزرقَ لَهْذَمِ[4]

وقُتِل الهامُرْز في هذا اليوم فأخبرنا الأعشى بذلك في شعره فقال :

فجــاء القَيْلُ هامُرْزٌ ... عليهــم يُقْسِــم القَسَما

---

(1) ديوان الأعشى ٣٠٩ ، العقد الفريد ٥/ ٢٦٦ ، وأورد بعض هذه الأبيات الأغاني/ ثقافة ٢٣/ ٢٤٠ .

(2) النقائض ٢/ ٦٤٨ .

(3) نفس المصدر ٢/ ٦٤٦ ، العقد الفريد ٥/ ٢٦٦ .

(4) الأغاني/ ثقافة ٢٣/ ٢٣٣ .

يذوق مُشَعْشَعاً حتى يُفِيءَ السبيَ والنَّعما
فلاقَى الموتَ مكتنعاً وذُهْلاً دون ما زَعما(١)

وبالغ الشعراء في تصوير كثرة عدد القتلى من الفرس زهوا بذلك النصر الذي حققوه على الفرس ، فقال الأعشى :

لما أمالوا إلى النُّشّابِ أيديهم ملنا ببيضٍ فظل الهامُ يُقْتَطَفُ(٢)

ويقول من قصيدة مصوراً ما كانت عليه حالهم وما آلت اليه :

أذاقوهمو كأساً من الموتِ مُرَّةً وقد بَذِخَتْ فرسانُهم وأَدَلَّتِ

ويحدثنا الأعشى عن هزيمة الأعداء ومصير نسائهم فيقول : (٣)

فما برحوا حتى استُحِثَّتْ نِساؤُهُمْ وأُجْرَوا عليها بالسهامِ فَذَلَّتِ(٤)

ويبدو أن قيس بن مسعود وفد على كسرى بعد يوم ذي قار ، فهب الأعشى يلوم ويذكّر ذي قار ويذكره بحاجة بكر إليه وبمنزلته : (٥)

أَقَيسَ بنَ مسعودِ بنِ قيسِ بنِ خالدٍ وأنتَ امرؤ ترجو شبابَكَ وائلُ
أَطَورَيْنِ في عامٍ : غزاةٌ ورحلةٌ ألا ليتَ قيساً غَرَّقَتْه القَوابلُ(٦)

ثم يذكره بذلك اليوم وبالقتل فيقول :

كأنكَ لم تَشْهَدْ قرابينَ جَمَّةً تعيث ضِباعٌ فيهمُ وَعواسِلُ(٧)
تركتَهُمُ صَرْعَى لَدَى كلِّ مَنْهَلٍ وأقبلتَ تَبْغي الصلحَ أُمُّكَ هابلُ(٨)

---

(١) ديوان الأعشى ٢٩٩ ، تاريخ الطبري ٢/ ٢١٢ .
(٢) ديوان الأعشى ٣٠٩ .
(٣) نفس المصدر ٢٥٩ .
(٤) استحثت نساؤهم : طلب منها الأسراع في السير ، أجروا عليها بالسهام : اقتسموها .
(٥) ديوان الأعشى ١٨٣ .
(٦) القوابل : جمع قابلة وهي المرأة التي تساعد الوالدة لتلقي الولد عند الولادة .
(٧) عواسل : جمع عاسل وهو الذئب .
(٨) هابل : الأم التي ثكلت ولدها .

ويبدو أن أولئك القتلى من بكر لأنه يلومه على فعلته وكأنه نسي أولئك القتلى وذهب يبغي الصلح .

وبعد هذا العرض المستفيض لشعر يوم ذي قار فإننا بمقارنة ما أورده هذا الشعر بما ذكره المؤرخون من أحداث هذا اليوم نرى أن هذا الشعر قد غطى معظم أحداث ذلك اليوم ، ولئن قصر في تغطية بقية الأحداث فإن له فضلاً وهو أنه رصد لنا بعض الأحداث التي لم تذكرها مصادر أخرى غير الشعر .

وتعليل ذلك التقصير الذي بدا إما أن يكون متصلاً بالرواة وإهمالهم او نسيانهم بعض الشعر ، وأما أن تكون تلك الأحداث لم تثر اهتمامهم .

ونستطيع أن نطبق هذا المنهج الذي استخدمناه في هذا اليوم على الأيام التي وصلنا قدر كاف من شعرها ، أما الأيام غير المحظوظة والتي فقد الكثير من شعرها فإننا نقف عاجزين .

كما يمكن تطبيق ذلك على مجموعات الأيام التي تربط بينها رابطة ما ، كحرب داحس وحرب البسوس ، وحروب الفجار ، وحروب الأوس والخزرج ، وسندرس مدى تصوير كل من شعرى مهلهل وعنترة لأحداث حربي البسوس وداحس .

ونختم حديثنا هذا بالاشارة الى نقطتين هامتين ، الأولى أن الرواة والمؤرخين اتهموا أواتهم بعضهم بمحاولة المطابقة بين الحادثة والشعر ، ولكن ذلك لا يؤثر على مضمون الشعر إلاَّ إذا كان منحولاً فنحن درسنا الشعر ولم ندرس إشارات الرواة وربطهم الشعر بحادثة ما إلاَّ نادراً .

والنقطة الثانية أن الشعر قصر عن تحديد الأحداث بصورة ثابتة تاريخياً ، فهذا ليس من وظائفه ، بل يكفي أنه نقل الينا صورة حية واضحة محددة عن أحداث اليوم . أما التحديد التاريخي ، وباقي التفاصيل المتصلة بذلك فقد عجزت كتب التاريخ عن ذلك .

الباب الثالث

نماذج متميزة من شعراء الأيام

الفصل الأول

مهلهل بن ربيعة بطل حرب البسوس

قبيلته - نشأته وحياته - دراسة لجوانب شخصية المهلهل بطل حرب البسوس - دوره في هذه الحرب - المهلهل بطل أسطوري شعبي - صورته في الأسطورة الشعبية - مدى اختلافها واتفاقها مع الواقع التاريخي - دراسة موضوعية وفنية في شعره ، إلى أي مدى يصور شعره أحداث البسوس .

***

الفصل الأول

مهلهل بن ربيعة
بطل حرب البسوس

قبيلته :

تنتسب قبيلة تغلب بن وائل إلى ربيعة ، فهي تغلب بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى ابن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان . وتتفرع من هذه القبيلة بطون عدة منها[1] :

الأراقم وهم جُشَم وعمرو وثعلبة ومعاوية والحارث ، بنو بكر بن حبيب بن غَنْم بن تغلب، وقد سموا بالأراقم لأن عيونهم كعيون الأراقم . ومنها كليب وائل ، وهو ابن ربيعة بن الحارث بن زهير بن جشم وأخو المُهَلْهِل بن ربيعة ، ومنها بنو كنانة بن تَيم بن أسامة ، وبنو حارثة ابن ثعلبة بن بكر بن حبيب قوم الهُذَيْل بن هبيرة ، ومنها أيضا بنو عديّ بن معاوية بن غنم بن تغلب قوم الأخنس بن شهاب فارس العصا ، ومنها بنو العدوكس بن عمرو بن الحارث بن جشم قوم الأخطل .

ويعتبر ابن عبد ربه بكراً جُمْجُمة، ولا يعتبر تغلب جمجمة مثلها[2] . وجماجم القبائل التي تجمع البطون وينسب إليها دونهم نحو كلب بن وبرة إذا قلت الكلبي استغنيت أن تنسب إلى شيء من بطونه ، وعدّ ابن عبد ربه من الجماجم ثماني .

ويروي ابن إسحاق أن ديار ربيعة بن نزار وألفافها ومواليها ما بين مكة ووادي كندة

---

(١) العقد الفريد ٣/ ٣٥٩ .

(٢) المصدر السابق ٣/ ٣٣٦ وانظر مادة (جم) في اللسان .

وبطن ذات عروق وما والاها من البلاد ، وعندما تفرقت كلمتها تصدت لها قحطان فأجلتها إلى العراق وسكنت مكانها حكم بن سعد بن العَشِيرة من مَذْحِج[1] .

أما تغلب فكانت بالجزيرة الفراتية بجهات سِنْجار ونصيبين وتعرف بديار ربيعة ، ويروي البكري في معجمه « أن منازل تغلب ما بين خفان والعذيب »[2] .

ومن أوديتها : ظبي ، والأحصّى . ومن مياهها : البِشْرُ وقُباقِب والبني والثُّوَيْر[3] .

وقد كان للملوك التبابعة في اليمن سلطان على شبه الجزيرة ، يرسلون عمالهم على معظم قبائل نزار ، ويخضعونها لسلطانهم ، وتدفع لهم هذه القبائل الإتاوات ، وقد مر بنا أن هذه السلطة كانت لا تتدخل في شؤون القبيلة الداخلية ، ثم ظهر من قبائل نزار رجال أشداء استطاعوا أن يجمعوا بعض القبائل تحت لوائهم ، ويقاوموا نفوذ أولئك العمال ، ويحاولون التخلص من سلطان اليمن ، وبعضهم كان يقوم مؤيداً من ملوك الحيرة .

وكان ربيعة بن الحارث أحد أولئك النفر القلائل الذين اجتمعت عليهم قبائل معد ، فقد قادهم في الوقائع بينهم وبين قبائل اليمن . فقد حدّث أبو عمرو الشيباني فقال[4] : « كان أبرهة ابن الصباح حين طلع نجداً أتاه زهير بن جناب الكلبي ، فأكرمه أبرهة وفضله على مَنْ أتاه من العرب ، ثم أمَّره على ابني وائل تغلب وبكر ، فوليهم حتى أصابتهم سنة شديدة ، فطالبهم زهير بالإتاوة ، فأقامهم زهير في الجدب ومنعهم النجعة ، حتى يؤدوا ما عليهم فكادت مواشيهم تهلك . فدخل عليه ابن زيابة التيمي ، وكان أحد الفتاك ، وكان زهير نائماً فوضع السيف في بطنه حتى أخرجه من ظهره ، غير أنه لم يصب أعفاج بطنه فسلم زهير وظن التيمي أنه قتله . . . » ثم يمضي الخبر فيحدثنا أن زهيراً جمع الجموع من بني كلب ، ومن أطاعه من أهل اليمن ، وسار بهم نحو بكر وتغلب ، فأصابهم على ماء يقال له « الحبى » فتلقوه وقاتلوه قتالاً شديداً ، فهزمهم وأسر كليباً ومُهلهلاً ابنَيْ ربيعة واستاق أموالهم ، وسبى نساءهم ، وأسر جماعة من فرسانهم ووجوههم . ثم أجمعت قبائل ربيعة أمرها ، ولمت شملها ، وكرت على جموع زهير ، فاستردت أسلابها وافتكت أسراها . وجمعهم ربيعة بن الحارث إليه وهاجم بهم زهيراً وقبائل كلب ، والتقوا عند السُّلاّن ، من أرض تهامة مما يلي اليمن ، فهزمهم وشتت شملهم ، ومزق جمع القبائل اليمنية ، وفتكوا بهم ، وبددوهم .

(١) كتاب بكر وتغلب ٢٨ ، ١١٩ .
(٢) معجم ما استعجم - البكري ٢/ ٥٠٥ .
(٣) انظر العقد الفريد ٣/ ٣٥٩ - ٣٦٠ ، نهاية الأرب للقلقشندي ١٨٦ .
(٤) الأغاني / ثقافة ١٨/ ٣٠٣ .

واستمرت قبائل معد مستقلة زمناً بعد السلان تحت سيادة ربيعة بن الحارث والد كليب والمهلهل حتى أواخر القرن الخامس الميلادي[1] . إلا أن شوكة زهير اشتدت في أواخر عهد ربيعة ، فاسترد ما كان له من نفوذ على معدّ ، فضرب عليهم الجزية وعسفهم عسفاً شديداً . فسار إليه كليب على رأس جيش في عهد أبيه فهزمه بخزاز وفرّق جمعه ، وكان زهير قد أسن[2] . ويروي ابن الكلبي فيقول :[3] « حدثني من أثق به غير واحد من العرب أن كليب بن ربيعة كان رأس الناس وفارس نزار يوم السلان ، وكان رأس نزار يوم خَزازَى الأحوص بن جعفر ابن كِلاب » .

ويحدثنا الرواة أن مضر وربيعة اجتمعت بعد يوم خَزازَى على تنصيب ملك عليهم يقضي بينهم ، وأنهم اختلفوا ممن يكون الملك ، وتفاقم الخلاف وأجمع أشرافهم على تدارك الحال ، وإصلاح ذات البين ، فوجدوا أن أنسب حلّ لهم أن يقصدوا الحارث بن عمرو المقصور بن حجر آكل المرار ملك كِنْدة ويولوه عليهم وقصدوه . وشرحوا له حالهم وتعهدوا بالطاعة ، فأقام أولاده الخمسة ملوكاً على قبائل نزار ، فكان منهم شرحبيل على بكر وحنظلة ومن إليهم ، وكان معد يكرب المعروف بغلفاء على تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة ومن معهم ، وقال ابن الكلبي ، إن سَلَمَة كان على تغلب وبكر[4] . واستتب السلم بين رؤساء ربيعة وملوك كندة زمناً .

وتولى السيادة على قبائل ربيعة كليب بن ربيعة بعد موت أبيه ، وكان لَبيد بن عَنْبسة عامل كندة قد تزوج أخت كليب ، فطغى على ربيعة ، وكان مصيره القتل على يد كليب . وعندها استعدت قبائل ربيعة لمقاتلة اليمن ، وقدمت قبائل اليمن فنزلت خَزاز وعليهم أقيال حمير ، والتقى النفير في جوعهم ، وكان الأحوص بن جعفر على مضر ، ومُرَّة بن ذُهل على ذُهل وشيبان ، وذهل بن حارثة على ربيعة ، وطرفة بن العبد على قيس . وكان يقودهم جميعاً كليب ، وجعل السفّاح التغلبي على مقدمة الجيش ، والتقى الجمعان في خَزاز فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فانهزمت جموع اليمن وانتصرت نزار نصراً مؤزراً[5] .

وكان يوم خزاز أعظم يوم التقته العرب في الجاهلية ، فإن نزاراً لم تنتصف من اليمن ،

(1) أخبار المراقسة ـ حسن السندوبي ٢٣٩ .
(2) أخبار المراقسة ـ حسن السندوبي ٢٤٠ .
(3) كتاب بكر وتغلب ٢٣ .
(4) الكامل لابن الأثير ١/ ٥٤٩ .
(5) الكامل لابن الأثير ١/ ٥٢٠ ـ ٥٢٢ .

ولم تزل اليمن قاهرة لها في كل شيء حتى كان يوم خَزاز ، فلم تزل نزار ممتنعة قاهرة لليمن في كل يوم التقوا به بعد خَزاز حتى جاء الإسلام .

وكان لتغلب أيام مع بعض القبائل ، فمن أيامها مع بني يربوع : ثبرة ، وإراب واللِّوَىٰ وزَرود الثاني ، والشُّعْب وقد هُزِمَتْ في أكثرها يربوع .

ومن أيامها مع سعد بن تميم ، ذَوِيهْدَى وقد هزمت فيه سعد ، كما حاربت عمرو بن هند يوم الحُسَيْن .

وقد اشتركت في أيام مع غيرها ، ففي يوم أوارة حاربت إلى جانب المنذر والنمر بن قاسط قبيلة بكر ، وفي يوم بُزاخة حاربت إلى جانب الغساسنة وإياد ضبّةَ . وفي يوم صُبَيْعات تحالفت مع تميم في حربهما مع الحارث بن عمرو الغساني حينما نهشت حية ابنَ الحارث فاتهم به تميماً وتغلب ، وفي يوم ذي قار حاربت تغلب إلى جانب الفرس ضد بكر وشيبان وبني عجل . وفي يوم الكُلاب الأول تحالفت تغلب مع النمر بن قاسط وبهراء وبني مالك بن حنظلة ضد بكر وضبة والرباب ويربوع .

نشأة المهلهل وحياته :

قبل أن نخوض في نشأته نود أن نعرض لمشكلتين متصلتين به ، أولاهما اسمه وثانيهما لِمَ سُمِّيَ بهذا الإسم ؟أما اسمه فقد ذهب فريق من العلماء إلى أن اسمه امرؤ القيس[1] ،وقال فريق آخر إن اسمه عديّ[2] ، وذهب بعضهم إلى أن عدياً هذا هو أخو مهلهل[3] ، وهو القائل لما مات أخوه مهلهل قصيدة ذكر فيها مَنْ قُتِل من بكر في الحروب :[4]

ما أُرَجِّي في العيش بعدَ ندامى ‏ ‏ ‏ ‏ قد أراهم سُقُـوا بكأس حَلاقِ

---

(١) أمثال الضبي ٥٥ ، الأغاني / ط. الكتب ٥/ ٥٧ ، العمدة ١/ ٨٦ ، معجم الشعراء للمرزباني ٧٩ سمط اللآليء ١/ ١١١ ، المؤتلف والمختلف ٨ ، خزانة الأدب تحقيق عبد السلام هارون ٢/ ١٦٤ ، المزهر ٢/ ٤٥٦ العقد الفريد ٣/ ١٢٠ ، أمالي اليزيدي ١١٦ .

(٢) أمثال الضبي ٥٥ ، سمط اللآليء ١/ ١١١ ، النقائض ٢/ ٩٠٥ ، العمدة ١/ ٨٦ ، سرح العيون ٥٠ ، خزانة الأدب ٢/ ١٦٤ ، المزهر ٢/ ٤٥٦ ، الشعر والشعراء ١/ ٢٩٧ ، معجم المرزباني ٧٩ ، الأغاني ٥/ ٥٧ ، المؤتلف والمختلف ٨ .

(٣) معجم الشعراء للمرزباني ٧٩ .

(٤) المرجع السابق ٨٠ .

بعــد عَمْــرٍو وعامــرٍ وحُيَيٍّ   وقتيلٌ صَدوفَ وابــنِ عِناقِ
وامرىء القيسِ ميِّتٌ ما كُرِّمَ أو   دَى وخلىً عليَّ ذاتَ العَراقي
وكليبٌ عُبْــرُ الفَــوارِسِ إذْ   عــ ـيِيَ رُماةُ الأكفِّ بالإنفاقِ[1]

وبعضهم قال إن مُهلهلاً هو امرؤ القيس وهو عدي بن ربيعة[2]،ومعظم المتأخرين منهم ذكروا أنه يقال له امرؤ القيس، ويقال إنه عدي.

ولكن الأمر الذي لم يختلفوا فيه أن أخا كُليب هو مهلهل ، فقد أجمعوا عليه ، ولكنهم عادوا فاختلفوا في سبب تلك التسمية ، فذهب بعضهم[3] إلى أنه سمي كذلك لأنه كان يهلهل الشعر أي يرققه . وذهب فريق[4] آخر إلى أنه سُمِّيَ لبيت شعر قاله :

لما ترقل في الـكُراع شديدهم   هلهلتُ أثْـأرُ جابراً أو صنبلا[5]

وقال فريق ثالث[6] إنه سمي بذلك لهلهلة شعره كهلهلة الثوب أي اضطرابه واختلافه .

وخلاصة ما يمكن استخلاصه من هذه الروايات أن مهلهلاً هو الاسم الذي غلب عليه والذي وصلنا شعره كما وصلتنا أخباره ، وسواء أكان اسمه عدياً أم امرأ القيس أم الاسمين معاً فلن يغير ذلك من مجرى الأحداث التي سنعرض لها ، وبخاصة أن القدماء عندما عرضوا له نبهوا إلى تعدد أسمائه ، ولن يشكل الأمر علينا إلا عندما نعرض لحادثة أسره يوم قِضَة .

وتكاد تكون حياة امرىء القيس قبل مقتل أخيه كليب غامضة ، وهذا شأن التاريخ في العصور الموغلة في القدم ، لا يهتم إلا بالسادة والقادة ، فقد كان المهلهل بعيداً عن السلطة منصرفاً إلى حياته الخاصة . ولكننا نستطيع من بعض النتف من الأخبار التي بين أيدينا ، ومنها خبر أسره في إحدى معاركهم مع قبائل اليمن هو وأخوه كليب . ونستطيع أن نقول إن مهلهلاً ، كأي فارس من فرسان القبيلة ، حارب تحت إمرة والده ثم تحت إمرة أخيه كليب ، ثم ينزوي مهلهل بعد استقرار الأمر والزعامة لأخيه كليب ، ويكاد يهمله التاريخ لولا ما ذُكر عندما قُتل

---

(١) كأس حلاق : كأس المنية ، ذات ذات العراقي : الداهية .
(٢) أمثال الضبي ٥٥ .
(٣) العمدة ١/ ٨٦ ، سمط اللآلىء ١/ ١١٢ ، النقائض ٢/ ٩٠٥ ، الشعر والشعراء ١/ ٢٩٧ ، الاشتقاق ٣٣٨ ، آمالي القالي ٢/ ١٢٩ .
(٤) العمدة / ٨٦ سمط اللآلىء ١/ ١١٢ ، آمالي القالي ٢/ ١٢٩ ، المزهر ٢/ ٤٣٤ .
(٥) ترقل : تسرع ، الكراع : من الإنسان ما دون الركبة إلى الكعب .
(٦) العمدة ١/ ٨٦ ، طبقات ابن سلام ٣٣ اللسان ١٤/ ٢٣١ .

كليب من أن الخبر جاءه وهو يشرب بصحبة همّام بن مرة ، فنعلم أن مهلهلاً كان منصرفاً إلى ملذاته ، وقد ركن إلى حياة الدعة في ظل سيادة أخيه كليب على بكر وتغلب .

وعندما بدأ قرن الفتنة ينجم بين كليب وجساس أراد مهلهل تخفيف حدة التوتر بينهما ، ويرد كليباً أخاه عن بعض غيّه ، فغضب كليب وقال له : إنما أنت زير نساء ، والله إن قتلت ما أخذت بدمي إلا اللبن ، فقال مهلهل يرد عليه[1] :

أخٌ وحريمٌ سيءٌ إن قَطَعْتُه	وسُنَّةُ عَزْمٍ هَدْمُهـا لك هادِمُ
وقفتُ على ثِنْتَيْنِ إحداهما دمٌ	وحربٌ بهـا منا تُجَرُّ الغلاصم
ومنقصــةٌ في هذه ومذلّةٌ	وشرٌّ شِمِــرٌ بينــكم مُتفاقِمُ
فما أنتَ إلا بينَ هاتيـن غائص	وكلتاهما بحرٌ وذو الغيِّ نادمُ[2]

تلك هي المرحلة الأولى من حياته ، قضاها في كنف والده وأخيه محارباً ، ثم مستسلماً للدعة والراحة بعض الوقت عندما استتب الأمر لأخيه .

ونقطة التحول الهامة في حياته هي مقتل أخيه كليب على يد جساس بن مرة ، فقد بلغه الخبر وهو ينادم همام بن مرة ، وكانا صديقين حميمين ، تعاقدا على ألاّ يكتم أحدهما شيئاً عن الآخر ، فجاءت إليه أَمَة فأسرّت إليه خبر قتل جساس كليباً . فقال له مهلهل : ما قالت ؟ فلم يخبره فذكره العهد بينهما ، فقال : أخبرت أن جساساً قتل كليباً ، فقال : أست أخيك أضيق من ذلك[3] .

وهجر مهلهل معاقرة الشراب ، وحياة اللهو والدعة ، وراح يبكي أخاه ويندبه ويرثيه بالأشعار ولا يحدث سوى الوعيد في أشعاره حتى أيس منه قومه وقالوا : إنه زير نساء وسخرت منكم بكر ، وقالوا أيضاً : إنما مهلهل نائحة ما عنده خير ، وهمّت آل مرة بالرجوع إلى الحي ، وبلغ كل ذلك مهلهلاً فانتبه لما هو غارق فيه من الأحزان وهول الصدمة ، وشمّر عن ساعد الجد ، وتزعم قومه للمطالبة بالثأر ، وآلى على نفسه أن لا يقرب النساء ولا يشم الطيب ولا يشرب الخمر ولا يلهو ويقتل بكل عضو من كُليب رجلاً[4] .

---

(1) بكر وتغلب ٢٣ وشرح الحماسة للتبريزي .

(2) الغلاصم : جمع غلصمة وهي صفيحة غضروفية عند أصل اللسان ، شمر : شديد .

(3) الأغاني/ ط الكتب ٥/ ٣٩ .

(4) بكر وتغلب ٤٦ .

وتستعر نار الحرب بين بكر وتغلب ، ويقود تغلبَ المهلهلُ ، ويمعن في تقتيل بكر ، ويحقق لقومه الانتصار تلو الانتصار على بكر ، وكانت عشيرة الحارث بن عُبَاد قد اعتزلت الحرب لما رأوا من بغي جساس بقتله كليباً ، وقال الحارث حينئذ : «لا ناقة لي في هذا ولا جمل»[1] ثم إن بني تغلب لقوا بجير بن الحارث بن عُبَاد وهو غلام في إبله فأتوا به مهلهلاً فسأله عن نفسه ، فأخبره بأنه ابن الحارث الذي اعتزل أمر هذه الحرب ، فأمر به المهلهل فضربت عنقه وقال : بؤ بشسع نعل كليب . فبلغ الحارث الخبر فغضب وقرر دخول الحرب[2] .

والتقى الحيان بكر وتغلب في يوم قِضَة أو يوم التحالق ، وأسر في هذا اليوم مهلهل ، أسره الحارث بن عُبَاد ، وتذكر الروايات أنه لم يعرفه ، وهذا أمر يحتاج إلى إيضاح ، فمهلهل زعيم تغلب ، والحارث سيد من سادات بكر ، والقبيلتان كانتا متجاورتين وبينهما قرابة ، ومما يزيد الأمر إبهاماً أن بعض المصادر تشير إلى أن أخت المهلهل ، أم بجير كانت زوجة الحارث بن عباد فكيف لا يعرفه إذن ؟ وفي رأينا أن الأمر لا يخرج عن أحد احتمالين : إما أن يكون مهلهل قد غيرته الحرب طيلة هذه السنين ، ويوم قِضَة كان بعد سنين من بدئها ، فلم يعرفه الحارث ، وإما أن يكون الذي أسره الحارث ليس مهلهلاً وإنما أخوه . وربما كان مهلهل لابساً لأمته فلم يعرفه الحارث .

ويمضي الخبر فيذكر لنا أن الحارث طلب من الفارس الأسير أن يدله على أحد ابني ربيعة مهلهل أو عدي ـ كما في رواية الضبي ـ قال : فما لي إن دللتك على أحدهما ؟ قال : أخلِّيَ عنك ، قال : فالله لي عليك بذلك . قال : نعم . فلما استوثق منه قال : فإني عديّ بن ربيعة . قال الحارث : فأحلني على امرىء شريف كريم الدم . فأحاله على عمرو بن أبان فحمل عليه أبو بجير فقتله[3] ، وفي ذلك يقول الحارث :[4]

لَهْفَ نفسي على عَديٍّ ولم أعرفْ ... عـدياً إذ أمكنتْنِـي منـه اليَدانِ
طُلَّ مَنْ طُلَّ في الحـروبِ ولـم أو ... تِـر بُجَـيراً أبأْتُـه ابـن أَبانِ[5]
فـارس يضرب الكتيبـة بالسيـ ... ـفِ وتَسْمـو أمامَـهُ العَيْنَانِ

---

(1) أمثال الضبي ٥٦ .
(2) أمثال الضبي ٥٧ ، بكر وتغلب ٥٨ والأغاني/ كتب ٥/ ٤٧ .
(3) أمثال الضبي ٥٧ ، الأغاني/ كتب ٥/ ٤٨ ـ ٥١ .
(4) أمثال الضبي ٥٨ ، الأغاني/ كتب ٥/ ٤٩ .
(5) طل : اهدر دمه ، ولم يثأر به ولم تؤخذ ديته ، أوتر : أخذ بثأره .

وفي الأغاني[1] « أن الحارث أسر عدياً ، وهو مهلهل، بعد انهزام الناس وهو لا يعرفه . فقال له : دلني على المهلهل ، قال : ولي دمي ؟ قال : ولك دمك ، قال : ولي ذمتك وذمة أبيك ؟ قال : نعم ، ذلك لك ، قال : فأنا مهلهل . قال : دلني على كفء لبجير ، قال : لا أعلمه إلاّ امرأ القيس بن أبان ، ثم جز الحارث ناصية مهلهل ، وقد قصد امرىء القيس فشد عليه فقتله» .

وهزمت تغلب في ذلك اليوم شر هزيمة ، وكانت أول موقعة تهزم فيها في حروبها مع بكر ، كما كانت بداية النهاية بالنسبة لحياة مهلهل . ويعود المهلهل بعد الوقعة والأسر إلى أهله ، وقد هدته الهزيمة وتقتيل قومه ، كما أذله الأسر ، وهو الفارس الذي لم يغلب من قبل . وزاد من ألمه أن النساء والولدان جعلوا يسألونه عن ذويهم ، تسأل المرأة عن زوجها وابنها وأخيها ، ويسأل الغلام عن أبيه وأخيه . ويثير هذا المشهد في نفسه الألم كما يثير ذكريات الماضي مع بكر ، كما يثير الرغبة في الانتقام ، فيقول :

لَيْسَ مِثْلِي يُخَبِّـرُ النـاسَ عن آ ... بائِهِـمْ قُتِّلـوا ويَنْسى القِتالا
لـم أَرِمْ عَرْصَـةَ الكَتيبـةِ حتـى ... انتعـل الـوَرْدُ من دمـاءٍ نِعَالا[2]
عرفَتْـهُ رمـاحُ بكرٍ فما يأ ... خُـذْنَ إلاّ لَبانَـه والقَذالا
غلبونـا ولا محالـةَ يومـاً ... يقلـبُ الدهـرُ ذاكَ حالاً فَحالا

وتحدثنا المصادر والرواة بعد ذلك عن رحلتين للمهلهل ، الأولى مع قومه بعد يوم قضة ، وكانت إلى العراق هرباً من البكريين الذين تعقبوهم من منزل إلى منزل حتى لحقوهم بأطراف الجزيرة وما يليها من البلاد[3] .

والثانية وكانت بعد الأولى واقتصرت على المهلهل وأهل بيته دون بقية التغلبيين ، ويبدو أن فارس تغلب وزعيمها ، قد هدته الهزيمة ، كما هده منظر تشرد قبيلته ، فلم يرد لهم مزيداً منه ، فقرر الرحيل عن قومه ليطفىء جمرة الحرب ، وفي نفس الوقت فإنه كان قد شفى نفسه من بكر وأخذ بثاره وهدأت نفسه قليلاً ، ولا ننسى عامل الكبر وأثره في إطفاء جذوة الشباب المشتعلة . وكانت هذه الرحلة إلى اليمن بعيداً عن منازل القوم .

---

(1) الأغاني/ كتب/5/ 48 - 49 .
(2) عرصة الكتيبة : ساحة الكتيبة ، الورد من الخيل : ما بين الكميت والأشقر .
(3) بكر وتغلب 89 .

ونزل المهلهل في جَنْب ، وهم حي من اليمن ، فخطب إليه رجل منهم ابنته ، فأبى قائلاً : إني طريد غريب فيكم ، ومتى أنكحتكم قال الناس اعتسروه ،ولكنهم أكرهوه على تزويجها ، وأمعنوا في إذلاله فكان مهرها أدماً[1] ، فقال مصوراً حالتي الذل واليأس اللتين وصل إليها في غربته بعيداً عن قومه :[2]

أعزِزْ على تغلب بما لَقِيَتْ	أخْتُ بني الأكرمين من جُشَمِ[3]
أنكحَها فقدُها الأراقمَ في	جَنْب وكان الحباءُ من أَدَمِ[4]
لو بأبانين جاءَ يخطُبُها	زمل ما أنفُ خاطبٍ بدَمِ[5]
ليسوا بأكفائنا الكرام ولا	يُغْنُون من عَيْلَةٍ ولا عَدَمِ[6]
أصبحتُ لا مُنْفِساً أصبتُ	ولا أبْتُ كريماً حراً من النَّدَمِ[7]

وقرر المهلهل مغادرتهم بعد ما فعلوا به ما فعلوا ، فانحدر عائداً إلى ديار قومه ، فأخذه عمرو ابن مالك بن ضبيعة البكري بنواحي هجر ، فطلب إليه أخواله بنو يشكر ، لأن أم مهلهل المرادة بنت ثعلبة بن جشم اليشكرية أن يدفعه إليهم فعل[8] ، وأقام عند خال أمه المحلل بن ثعلبة ، فسقاه خمراً ، فلما طابت نفسه تغنى متغزلاً ومفتخراً بما كان من أيامه الغابرة وذاكراً أخاه ، فقال :[9]

طَفْلَةٌ ما ابنة المُحلل بيضا	ءُ لَعوبٌ لذيذةٌ في العناق[10]
فاذهبي ما إلَيْك غيرُ بعيدٍ	لا يُؤاتي العِناقُ مَنْ في الوِثاقِ
ضربتْ نَحْرَها إليَّ وقالتْ	يا عديّاً لقد وقتك الأواقي[11]
ما أُرَجِّي في العيش بعدَ نَداما	يَ أراهم سُقوا بكأس حَلاقِ

---

(1) بكر وتغلب ٩١ ، الأغاني/ ط الكتب ٥/ ٥٠ ، الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ٢٩٨ .

(2) الأغاني/ ط الكتب ٥/ ٥١ ، العقد الفريد ٥/ ٢٢ .

(3) أعزز : هان .

(4) الأراقم : قومها من تغلب ، الحباء : المهر ، أدم : جلد .

(5) أبانين : من ديار تغلب ، زمل : ضرج .

(6) عيلة : فقر ، حاجة . (7) منفسا : مال منفس مال كثير .

(8) الأغاني/ ط الكتب ٥/ ٥١ ، الكامل للمبرد ٨١٥ ، الشعر والشعراء ١/ ٢٩٩ .

(9) الأغاني/ ط الكتب ٥/ ٥٤ ـ ٥٦ ، بكر وتغلب ١١٤ ـ ١١٥ .

(10) طفلة : رخصة ، ناعمة ورقيقة .

(11) الأواقي : جمع واقية وهي كل ما وقيت به شيئاً .

ويستمر بعد ذلك في التغني بماضيه ويرثي قتلى قومه ، ويصور لنا ما انتهت إليه حاله من بعدٍ عن قومه وأسر ومهانة .

ونصل إلى نهاية بطل حرب البسوس ، فنجد أنفسنا أمام أكثر من رواية لنهايته ، ونستطيع أن نلخص هذه الروايات فيا يلي :

الرواية الأولى تذهب إلى أنه فارق قومه ولم يزل مقيماً في أخواله بني يشكر ضجِراً من الحرب ، وبقي وحيداً عند أخواله إلى أن مات[1] .

وتذهب الرواية الثانية إلى أنه عندما طابت نفسه بعد أن شرب وتغنى بما كان من أمره وأمر كليب ، وأدى من سمع هذا الشعر من الشبان ، شبان بني قيس بن ثعلبة ، إلى عمرو بن مالك ، فأقسم ألا يذوق عنده خمراً ولا ماء ولا لبناً حتى يرد ربيب الهضاب ، وربيب جمل كان أقل وروده في الصيف الخمس ، فقال قوم : بئس ما حلفت وأرسلوا الخيول في طلب البعير فأتوا به بعد ثلاثة أيام ، ومات مهلهل عطشاً[2] ، وقيل أنه تحلل من يمينه وسقاه من ماء الحاضرة ، وهو أوبأ ماء ، فمات[3] .

وتذهب ثالث الروايات إلى أنه قتل ، وتمضي فتحدثنا بأنه عندما أسن وخرف ، وكان له عبدان يخدمانه ، وكان يغير من حين لآخر بمعاونة بعض صعاليك تغلب على بني بكر ، فمله العبدان ، وانتهزا فرصة خروجه بهما إلى سفر ، وعزما على قتله ، فلما عرف ذلك أوصاهما :

مَــنْ مُبْلِــغ الحَيَّيْنِ أنَّ مُهَلْهِلاً   لــلــه دَرُّكُمـا ودَرُّ أَبيكُما

ثم قتلاه ورجعا فقالا : مات . فقالت ابنته : إن مهلهلاً لا يقول مثل هذا الشعر وإنما أراد :

مَــنْ مبلــغ الحيين أن مهلهلاً   أمسى قتيلاً في الفــلاة مُجَدَّلا
لـلـه دركما ودرّ أبيكما   لا يبـرحُ العَبْـدانِ حتّـى يُقْتَلا

فضربوهما حتى أقرّا بقتله[4] .

(١) الخزانة ٢/ ١٧٣ تحقيق عبد السلام هارون ، سرح العيون ٥٢ .
(٢) الأغاني/ كتب ٥/ ٥٢ ، خزانة الأدب ٢/ ١٦٣ حرب بكر وتغلب ١١٤ ، سمط اللآلىء ١/ ٢٦ .
(٣) الأغاني ٥/ ٥٢ .
(٤) بكر وتغلب ١١٥ ـ ١١٦ ، طبقات الشافعية ١/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠ ، خزانة الأدب ٢/ ١٧٣ ـ ١٧٤ ، سمط اللآلىء ١/ ٢٦ سرح العيون ٥٢ .

ومهما اختلفت الروايات فإن قدراً مشتركاً من الرواية يجمع بينها ، فمهلهل قد هدتـه الحروب ولجأ إلى أخواله بني يشكر ، وتتفق الروايات الثلاث على أنه مات عندهم ، ولكنهـا تختلف في كيفية موته ، وهذا ليس بذي بال ما دام أنه لم يمت في حرب ، وإنما مات بعد أن اعتزل الحرب بعد أن عانى منها الكروب وذل الأسر واعتزال قومه .

وقد حاول بعض الباحثين تحديد وفاته على وجه التقريب ، فمنهم من ذهب إلى أنها سنة ٥٠٠ م[١] ، ومنهم من حددها لسنة ٥٢٥ م[٢] وآخر جعلها ٥٣٠ م[٣] ، وقاربه آخر فجعلها ٥٣١ م[٤] .وهذه التواريخ التي حددت ليست بذات قيمة كبيرة ، إلاّ أنها تجعله مات في أوائل القرن السادس الميلادي ، ونستطيع أن نستعين بتاريخ آخر يحدد لنا زمن وفاته على وجه التقريب ، وهو أن عمرو بن هند ملك الحيرة هو الذي عقد الصلح بين الحيين وأنهى حالة العداء بينهما ، وقد حدث هذا بعد موت مهلهل الذي كان يقود قبيلته للثأر ، وكان المحرك الأساسي لها .

●●●●

دراسة لجوانب شخصيته :

يحتار الدارس لشخصية المهلهل بن ربيعة حين يحاول أن يطبع هذه الشخصية بطابع مميز ، وسبب ذلك إختلاط الشخصية الحقيقية بالأسطورية وبما نسج حوله . ولكننا من الإشارات القليلة المبعثرة هنا وهناك في بطون المصادر نستطيع إن نقول أن عوامل عدة اجتمعت وخلقت منه شخصية مميزة .

فقد نشأ المهلهل في كنف زعيم وسيد من سادات معد ، هو ربيعة الذي كان أحد ثلاثة نفر فقد اجتمعت عليهم معد كلها ، وكان قائدها يوم السلان ، وحقق بهم هزيمه جموع اليمن[٥] ومن ينشأ في كنف سيد من سادات العلم لا بد وإن يتعلم الفروسية وضروب القتال .

وتحدثنا المصادر عن اشتراك مهلهل في حياة أبيه في القتال ، وأنه أسر في أحد الأيام هو وكليب ، ثم أطلق سراحهما[٦] .

(١) روضة الأدب - أغا ابكاريوس ٢١٨ .
(٢) الأعلام - للزركلي ٥/ ٩ .
(٣) تاريخ الأدب العربي - فروخ ١/ ١١٠ .
(٤) تاريخ اداب اللغة العربية - زيدان ١/ ١٣٥ .
(٥) خزانة الأدب - تحقيق عبد السلام هارون ٢/ ١٦٦ .
(٦) المعمرون والوصايا - للسجستاني ٣٥ .

وفي عهد كليب وهو ثالث الثلاثة الذين اجتمعت عليهم معد كلها ، وقادها كلها يوم خزاز ففض جموع اليمن وهزمهم[1] ، وقف مهلهل إلى جانب أخيه يسانده ، ثم لم يلبث أن ركن إلى حياة الدعة واللهو تاركاً الزعامة والسيادة لكليب يصرف الأمور بحكمة وشجاعة .

وفي ظل سيادة أخيه تحدثت عنه الروايات فاتهمته بالخنوثة ، واللين ، وبأنه زير نساء ، مستغلين الحياة التي ركن إليها . يقول ابن قتيبة[2]« وكان فيه خنث » ويقول صاحب الأغاني[3] « كان فيه خنث ولين ، وكان كثير المحادثة للنساء ، وكان كليب يسميه زير نساء » وجاء في الاشتقاق[4] كليب كان يسميه زيراً ، الذي يعجبه حديث النساء » وروى صاحب العقد الفريد إنه لما أتاه موت أخيه كان يشرب فقال « اليوم خمر وغداً الأمر[5] » .

وبمناقشة هذه الروايات وغيرها لا نخرج إلا بنتيجة واحدة هي أن المهلهل كان مه محادثة النساء وشرب الخمر ، ولكن هذه الحقيقة ليست كاملة . فهل هذه الصورة تتناسب مع ماضيه الفروسي؟ نحن نميل إلى أن هذه الصورة لا تمثل الحقيقة كلها ، ومما ساعد على إنتشارها وتأكيدها أن كليبا بعد يوم خزاز استقرت له الأمور ، وأصبح سيد بكر وتغلب ، ولم يقد قبيلته في أيام لنرى بطولة مهلهل أو وقوفه إلى جانب أخيه . وربما ساعد على تأكيدها رغبة الرواة في تصوير هول الفاجعة عليه بأنها قلبت حياته من زير نساء إلى بطل ، وذلك أجدى في تصوير رد الفعل العكسي العنيف الذي قلب حياة المهلهل .

وفي رأينا أن مهلهلا شأنه شأن أي سيد من سادات القبائل كان لا يجد غضاضة في الاستمتاع بوقته حين تهدأ نار الحروب ، فيفزع الى الصيد أو اللهو لقضاء الفراغ الذي يعاني منه ، ولو كان مهلهل مخنثاً لما تمكن بين يوم وليلة من قيادة تغلب في حروب الثأر ضد أختها وجارتها بكر ، وقيادتها قيادة حكيمة حققت لها النصر على خصومها في كل المعارك إلا قضة . ولا نتصور أن المهلهل المخنث بمجرد أن بلغ أسماعه خبر مقتل كليب ينقلب إلى أسد هصور ، وحتى لو انقلب فكيف يعقل أن تستجيب له تغلب وتسلم أمرها إليه ليقودها في حروبها ، كان الأمر سيكون صعباً عليه لو لم يكن يتمتع بما يؤهله لذلك من حصافة رأي وشجاعة واحترام القبيلة له .

---

(١) خزانة الأدب ٢/ ١٦٦ عبد السلام هارون .
(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ٢٩٧ .
(٣) الأغاني / كتب ٥/ ٥٧ .
(٤) الاشتقاق ٣٣٨ .
(٥) العقد الفريد ٣/ ١٢٠ .

ولقد كانت نقطة التحول في حياته وشخصيته مقتل أخيه كليب . فلقد نقلته نقلة مفاجئة ، من حياة يعتمد فيها على كلمة أخيه وتدبيره الأمور إلى حياة جديدة يواجه هو فيها الأحداث، ويتحتم عليه جمع شمل قبيلته وقيادتها بعد موت قائدها . وعندها نرى صورة مغايرة له ، صورة الفارس الشاب المندفع الذي خسر أخاه غدراً في غير ساحة حرب ، فهب طالباً بثأره ، واستمر في القتال ظامئاً لا يرتوي . مخالفاً لكل رغبات السلم التي كان يبديها قومه ، بل نراه يقتل حتى الذين اعتزلوا الحرب ، ولم يترك حلبة القتال إلا عندما غلب وهزمته بكر يوم تحلاق اللمم ،عندها آثر الرحيل إلى اليمن والابتعاد عن مسرح الأحداث ، علّ السلام يرفرف على ربوع الحيين .

وهذه مرحلة ثالثة في حياته ، وكانت مرحلة امتزجت فيها آلام الهزيمة وذل الأسر ، بمتاعب كبر السن ، وبما خلفته الحرب من آلام ومصائب على قومه . فلقد رأى بنفسه النساء والولدان يهرعون إليه بعد عودته من يوم قضة يسألونه عن ذويهم . ويحتار ذلك القائد الذي لم يتعود الهزيمة فيأ بجيبهم ويعتزم الرحيل بعيداً عن قومه لعل السلام يعود إلى تلك الديار ، ولكن بعد أن ثأر لأخيه ، وقتل ، وشفى النفس . وتتابعت الأحداث تضيف إليه أحزاناً جديدة ، فقد أكرهه القوم على تزويج ابنته وساقوا إليه المهر جلوداً .

وأخيراً قرر الفارس وقد قاربت حياته على الانتهاء ، العودة إلى قومه ، فأسر وأخذه أخواله وبقي فيهم إلى أن مات ، يعاني من آلام الغربة ومذلة الأسر .

تلك هي الجوانب التي نلمحها في شخصية ذلك الفارس ، وما زالت جوانب كثيرة غامضة في شخصيته ، وهذا ما دعا الدكتور طه حسين إلى الشك فيه[1] ويقول فيه « وليس مهلهل في حقيقة الأمر إلا بطل هذه القصة ، فقد عظم أمره وارتفع شأنه بمقدار ما نميت هذه القصة وطول فيها » .

حرب البسوس ودور المهلهل فيها :

نستطيع أن نعد بداية حرب البسوس وإمكانية التصادم بين الحيين منذ يوم خزاز ، فلقد فض كليب جموع اليمن وهزمهم ، فاجتمعت عليه معد كلها وجعلوا له قسم الملك وتاجه ، وتحيته وطاعته ، فغبر بذلك حيناً من الدهر ، ثم لم يلبث أن داخله زهو شديد فبغى على قومه . وكانت بكر وتغلب قد استقرتا بعد خزاز في مكان واحد فيما بين الذنائب والكلاب وواردات

(١) في الأدب الجاهلي ـ طه حسين ٢٣٩ .

والقصب وما والاها[1]، وكان يربط بينهما رباط من الصهر والحلف والمحبة ، ولكن كليبا بلغ من بغيه أنه كان يحمي مواقع السحاب فلا يرعى حماه ، وكان يحمي من المرعى مدى الصوت لكلبه فيختص به ، وإذا قال إنه قد أجاز صيد كذا وكذا فلا يصادفها شيء ، وكان يجير على الدهر فلا تخفر ذمته ، ويقول وحش أرض كذا في جواري فلا يهاج ولا يورد مع إبله أحد ، ولا توقد مع ناره نار حتى قالت العرب « أعز من كليب وائل »[2] .

وكان كليب قد تزوج جليلة بنت مرة بن ذهل بن شيبان، وكان أخت جساس، وكانت جساس خالة تسمى«البسوس بنت منقذ التميمة» وقد جاورت ابن أختها جساساً، وكان لها ناقة يقال لها : سراب ، فمرت إبل كليب بسراب وهي معقولة بفناء البسوس ، فلما رأت سراب الإبل خلخلت عقالها وتبعت إبل كليب فاختلطت بها ورآها كليب فأنكرها فرماها بسهم في ضرعها . فنفرت وولت حتى بركت بفناء صاحبتها فبرزت البسوس صارخة : واذلاه ؟ وأنشأت تقول :

لَعَمْري، لو أصبحتُ في دارِ مُنْقِذٍ	لما ضيم سَعْدٌ وهو جارٌ لأبياتي
ولكنني أصبحتُ في دارِ غُرْبَةٍ	متى يعدُ فيها الذئبُ يعدُ على شاتي
فيا سعدُ لا تُغْرَرْ بنفسك وارتحل	فإنك في قوم عن الجارِ أموات[3]

فلما سمع جساس صوتها سكنها وقال : والله ليقتلن غداً جمل عظيم أعظم عقراً من ناقتك .

ثم انتجع الحي فمروا على نهر يقال له شبيث فنهاهم كليب عنه ، ثم على آخر يقال له « الأحص » فنهاهم عنه ، حتى نزلوا على الذنائب فمر جساس بكليب وهو على غدير الذنائب منفرداً فقال : أطردت أهلنا عن المياه حتى كدت تقتلهم عطشاً ؟! . فقال كليب : ما منعناهم من ماء إلا ونحن له شاغلون فقال جساس : هذا كفعلك بناقة خالتي قال : أوقد ذكرتها . أما أني لو وجدتها في غير إبل مرة لا ستحللت تلك الإبل .فعطف عليه جساس فطعنه فأذراه ، ووجد الموت فقال : يا جساس أسقني ؟ فقال : هيهات ، تجاوزت شبيثاً والأحص ؟[4] .

---

(1) بكر وتغلب ٣٠ .

(2) أنظر أمثال الضبي ٥٥ ، الأغاني/ كتب ٥/ ٣٤ - ٣٥ ، خزانة الأدب ٢/ ١٦٦ (ت/ عبد السلام هارون) .

(3) خزانة الأدب ٢/ ١٦٧ .

(4) المصدر السابق ٢/ ١٦٧ - ١٦٨ .

وتمتزج هذه الرواية برواية أخرى في الأغاني ؛ فهو يذكر قصة البسوس ، ولكنه يسبقها بقصة سؤال كليب زوجته أخت جساس : هل تعلمين على الأرض عربياً أمنع مني ذمة ؟ فسكتت،ثم أعادعليها السؤال ثانية فسكتت،ويكرر السؤال فتجيب: نعم أخي جساس وندمانه ابن عمه عمرو ، فينزع رأسه من يدها ، وكانت تغسله ويأخذ قوسه فيرمي فصيل ناقة البسوس ويقتله ، ثم لقي كليب ابن البسوس فقال : ما فعل فصيل ناقتكم ؟ . . . . ثم يعيد السؤال على زوجته وتصرُّ على الجواب نفسه ، ويضمرها في نفسه، حتى مرت به إبل جساس ، فرأى الناقة فأنكرها ، فقال : ما هذه الناقة ؟ فقالوا لخالة جساس ، قال : أوقد بلغ من أمر ابن السعدية ان يجير عليّ بغير إذني ، أرم ضرعها يا غلام . . .[1] وتتفق رواية أبي عبيدة في النقائض مع هذه الرواية تقريباً[2] .

والمتأمل لهذه الروايات يرى أن سبب نقمة رجالات بكر على كليب إنما ترجع إلى عوامل عدة، أهمها أنهم لاحظوا أن كليبا استأثر بالمراعي الخصبة وبالمياه وبالسيادة وبغى عليهم وهم يحسون أنهم هم الذين سودوه على القبيلتين ، كما أننا نلحظ إصراراً من كليب على التعالي على قومه وعلى بكر أيضاً ، ويصر على منعهم من حق حماية الجار وحق الإجارة نفسها ، وقد أحست بكر أنه قد تجاوز حدوده التي أعطوها له كسيد لهم . وإذا كان قومه الأقربون تغلب قد تجاوزوا عن سيئاته بحكم رابطة العصبية فإن بكراً ، وقد برز منهم رجال يعتقدون أنهم كفؤ للقيادة ككليب ، لم تستطع تحمل ظلمه لهم ، والنفس العربية مفطورة على رفض الظلم بأي شكل من أشكاله ، وأينما كان مصدره .

واشترك في قتل كليب جساس بن مرة وابن عمه عمرو بن الحارث ، فقد طعنه جساس برمح فأنفذ حضنيه ، وعطف عليه عمرو فاحتز رأسه ، وفي ذلك يقول مهلهل :

قتيلٌ ما قتيلُ المرءِ عمرو وجساس بن مرةَ ذو ضرير[3]

وكان همام وقتها ينادم مهلهلاً ، فجاءت أمة إليه فأسرت إليه قتل جساس كليبا[4] ، وفي رواية أخرى أن جساس ابن مرة ركب فرسه فركض ليؤذن أصحابه فمر على مهلهل وهو وهمام يضربان بالقداح . فلما دنا من همام أخبره الخبر ثم مضى[5] ،ولم يستطع همام أن يكتم الخبر عن

(1) الأغاني / كتب ٥/ ٣٥ ـ ٣٦ .
(2) النقائض ٢/ ٩٠٥ .
(3) الأغاني / كتب ٥/ ٣٧ ، النقائض ٢/ ٩٠٥ .
(4) خزانة الأدب ٢/ ١٦٨ .
(5) أمثال الضبي ٥٦ .

مهلهل لعهد كان بينهما ، فسخر مهلهل منه وقال : استه أضيق من ذلك .

ووقعت الحرب وتمايز الحيان بكر وتغلب ، واعتزلت كل قبائل بكر الحرب لأنهم رأوا شيبان قد تمادت عندما أقدمت على قتل كليب سيد ربيعة بناقة ،فظعنت لجيم ،وكفت يشكر، واعتزل الحارث بن عباد بقومه[1] . وبقيت شيبان وحدهـا ، وانضمت النمر بن قاسط إلى تغلب ، كما انضمت أيضاً غفيله بن قاسط[2] .

وأفاق مهلهل من غفوته واجتمعت عليه فرسان قومه ، فاستعد لحرب بكر ، وترك كل لهو . ثم أن بني تغلب قالوا : لا تعجلوا على اخوتكم حتى تعذروا فيا بينكم وبينهم ،فانطلق رهط من أشرافهم وذوي أسنانهم حتى أتوا مرة بن ذهل بن شيبان فعظموا ما بينهم وبينه وخيروه خصلة من أربع : إما أن يحيي لهم كليبا ، أو يدفع إليهم جساسا لقتله به ، أو هماما لقتله به ، فإنه كفء له ، أو يمكنهم من نفسه وفاء من دمه[3] ،فسكت مرة وقد حضرته وجوه بكر بن وائل فقالوا : إنك غير مخذول فقال : أما جساس فإنه غلام حديث السن ركب رأسه فهرب حين خاف ولا علم لي به ، وأما همام فأبو عشرة وعم عشره ، ولو دفعته إليكم صيح بنوه في وجهي وقالوا دفعت أبانا بجريرة غيره ، فهل لكم إلى غير ذلك . فهؤلاء بنيّ فدونكم أحدهم فاقتلوه ،وأما أنا فلا أتعجل من الموت ، ولكن هل لكم إلى غير ذلك ، قالوا وما هو ؟ قال : لكم ألف ناقة يضمنها لكم بكر بن وائل . فغضبوا وقالوا:لم نأتك لترذل لنا،أي تعطينا رذال بنيك ولا تسومنا اللبن ، ثم تفرقوا فوقعت الحرب بينهم[4] .

وقد التقت القبيلتان في أحد عشر يوماً ، كما وصلتنا ، عشرة منها بين بكر وتغلب ، ودخل في الأخير أطراف أخرى ، ثم اختلفت الروايات في ترتيب هذه الأيام ، فهي عند ابن قتيبة[5] : عُنيزة ، واردات ، الحِنْو ، القُصيبات ، قِضَة ، تَحلاق اللمم . وهي عند أبي الفرج[6] : عنيزة ، واردات ، الحنو ، القصيبات أو بطن السرو ، قضة أو التحالق والثينة والفيصل ، الكُلاب . وهي عند ابن عبد ربه[7] والبكري[8] : النهى والذنائب وواردات وعنيزة

(١) الآمالي للقالي ٣/ ٢٥ .
(٢) خزانة الأدب ٢/ ١٦٩ .
(٣) الخزانة ٢/ ١٦٩ ، الأغاني / كتب ٥/ ٤٠ ، أمثال الضبي ٥٦ .
(٤) أمثال الضبي ٥٧ والأغاني / كتب ٥/ ٤٠ .
(٥) المعارف لابن قتيبة ٦٠٣ - ٦٠٧ ، الشعر والشعراء ١/ ٢٩٩ .
(٦) الأغاني / كتب ٥/ ٤١ .
(٧) العقد الفريد ٥/ ٢١٨ - ٢٢٢ .
(٨) معجم البكري ٤/ ١٣٦٢ .

والحنو وعُوَيْرضات ، ضريَّة ، القُصيِّبات ، قِضَة ، وهي عند أبي الفداء[1] : عنيزة ، والنهى ، والذنائب ، وواردات ، والقصيبات ، وقضة . وهي عند صاحب الخزانة[2] النهى ، والذنائب ، وواردات ، وعنيزة ، وقضة .

وكانت أول وقعة لهم على ماء كانت بنو شيبان نازلة عليه هو النهى ، وذلك بعد أن تمايز الحَيَّان عندما تفاقم الشر بينهما ، ورئيس تغلب المهلهل ، ورئيس شيبان الحارث بن مرة ، فكانت الدائرة لتغلب على بكر ، وكانت الشوكة في شيبان ، واستحرّ القتل فيهم ، إلا أنه لم يقتل أحد في ذلك اليوم من بني مرة .

ثم التقوا بالذنائب وهو أعظم وقعة كانت لهم ، فظفرت بنو تغلب وقتلت بكر مقتلة عظيمة ، وفيها قُتِل شراحيل بن مرة بن همام قتله عتاب بن قيس ابن زهير بن جشم ، وقُتِل الحارث بن مرة قتله كعب بن زهير بن جشم . وقُتل من بني تيم الله جميل بن مالك بن تيم الله ، وعبد الله بن مالك بن تيم الله ، وقتل من بني قيس بن ثعلبة سعد بن ضُبَيْعة بن قيس وتميم بن قيس بن ثعلبة قتله عمرو بن الفدوكس جد الأخطل .

ثم التقوا بواردات ، والرؤساء الذين كانوا في اليوم السابق ، فظفرت بنو تغلب واستحر القتل في بكر ، فقتل يومئذ شعثم وعبد شمس ابنا معاوية بن عامر بن ذهل بن ثعلبة ، وسيّار بن حارث بن سيّار ، وقتل همام بن مره قتله ناشرة ، وكان همام رباه وكفله ، ومر به مهلهل مقتولاً فقال : والله ما قتل بعد كليب قتيل أعز عليَّ فقداً منك . وزعم بعضهم أن هماماً قتل يوم القُصيبات[3] . كما زعموا أن بُجيراً قتل يوم واردات معتمدين على قول مهلهل[4] :

فإنـي قـدْ تركتُ بواردات ... بُجَـيراً في دمٍ مثـلِ العبيرِ
هتـكتُ به بيوتَ بنـي عُبادٍ ... وبعضُ الغَشْمِ أشْفَى للصدورِ[5]

والحقيقة أن بُجيراً سُلَّ ولم يؤخذ في مزاحفة ، كما اتفقت معظم الروايات .

ثم التقوا بعُنَيْزة ، فظفرت بنو تغلب ، ثم كانت بينهم معاودة ووقائع كثيرة ، منها :

(١) المختصر في اخبار البشر لأبي الفداء ١/ ٩٦ .
(٢) خزانة الأدب ٢/ ١٧٠ .
(٣) الأغاني/ كتب ٥/ ٤٥ يروي ذلك عن مقاتل .
(٤) الأغاني/ كتب ٥/ ٤١ .
(٥) الغشم : الظلم .

الجنو ، وعُوَيْرضات ، وأنيق ، وضرِيّة ، والقصيبات . وكانت الدائرة فيها على بني بكر . وأصيبت فيها بكر حتى ظنوا أنهم لن يستقبلوا أمرهم . وقد وصف المهلهل هذه الأيام ونعى على بكر في قصيدة طويلة هي الرائية ، ومطلعها :

أَلَيلَتنــا بذِي حُسُــمٍ أَنِيري ... إذا أَنتِ انقضيتِ فلا تَحُوري[1]

ثم إن المهلهل أسرف في القتل ، ولم يبال بأي قبيلة من قبائل بكر أوقع ، وكانت - كما مر بنا - أكثر بكر قد قعدت عن نصرة بني شيبان لقتلهم كليبا ، وكان الحارث بن عُبَاد قد اعتزل تلك الحروب قائلاً . . . لا ناقة لي في هذا ولا جمل[2]، فاجتمعت قبائل بكر إليه فقالت: قد فني قومك، فأرسل بجيرا إلى مهلهل وقال له : قل له : إني قد اعتزلت قومي لأنهم ظلموك، وخليتك وإياهم . وقد أدركت ثأرك وقتلت قومك . فأتى بجير إليه فقتله مهلهل على الرغم من تحذير امريء القيس بن أبان له بألا يقتله ، وقد قال التغلبي حينئذ : والله ليقتلن بهذا الفتى رجل لا يسأل عن أمه يعني بشرفها هي أعرف من ذلك . وعندما بلغ الحارث خبر مقتل بُجير قال : نعم القتيل أصلح بين حيي وائل ، وظن أن المهلهل قد أدرك به ثأر كليب وجعله كفئاً له . فقيل له . إنما قتله بشسع نعل كليب .

وسواء أصحت هذه التفاصيل أم كانت من نسج خيال الرواة ، فإن الحارث بن عُبَاد قد أحس أن مهلهلاً قد تمادّى في حربه . وأنه يجب أن يوقف عند حده ، لأنه قد أخذ بثأره ، ونهض الحارث وتولى أمر بكر ، وذكر بعضهم أن الفند الزماني كان رئيس بكر . وكان أول يوم شهده الحارث يوم قِضّة ، وهو يوم تحلاق اللمم ويوم الفيصل ويوم الثنية .

والتقى الفريقان عند قِضة ، وقد سبقت بكرٌ تغلبَ إليه فسقت وأسقت ثم صدرت ، وخلوا تغلب . وتحالق القوم - أي بكر - ليعرف بعضهم بعضاً ، ولتعرفهم النساء ، وقال جَحْدَر بن ضُبَيْعَة : لا تحلقوا رأسي فإني رجل قصير تشينوني ، ولكن أشتريه منكم بأول فارس يطلع عليكم فطلع عليه ابن عناق فشد عليه فقتله ، ومدحه مِسْمَع بن مالك بذلك فقال :

يا ابن الذي لما حَلَقْنا اللَّمما ... ابتاعَ منّا رأسَه تَكَرُّما

بفـارس أول مَنْ تَقَدَّما[3] .

---

(1) خزانة الأدب - تحقيق عبد السلام هارون ٢/ ١٧١ .
(2) المصدر السابق ٢/ ١٧٢ .
(3) الأغاني / كتب ٥/ ٤٣ .

وكان جحدر يرتجز يومئذ ويقول :

رُدّوا عليَّ الخيلَ إن ألَمَّتِ إنْ لم أقاتِلْهُمْ فجزّوا لِمَّتِي[1]

ويقول طرفة مفتخراً بذلك اليوم :

سائلوا عنّا الذي يعرفُنا بقوانا يومَ تحلاقِ اللِّمَمْ
يوم تبدي البيضُ عن أسْوُقِها وتلُفُّ الخيلُ أعراجَ النَّعَمْ[2]

وأسر مهلهل في هذا اليوم ، على الرغم من اختلاف الروايات في تفصيل خبر الأسر ، وهُزمت تغلب شر هزيمة ، وقُتِل عمرو وعامر التغلبيان قتلهما جَحدر بن ضبيعة ، وعاد مهلهل إلى قومه يجرر أذيال الهزيمة ويطارده ذل الأسر وهو الفارس الذي لم يهزم قط . وجعل النساء والولدان يستخبرونه عن ذويهم فقال :

ليس مثلي يخبِّر النـاسَ عن آ بائهم قُتِّلوا وينسى القِتالا

ويعترف في البيت الأخير من هذه القصيدة بالهزيمة ولكننا نلمح أنه بالاضافة إلى اعترافه هذا فإنه يحس بأن دوره قد انتهى وبأن أيام النصر قد ولّت حيث يقول :

غلبونا ولا محالة يوماً يقلبُ الدهر ذاكَ حالاً فحالا[3]

وقرر أن يرتحل بأهله بعيداً عن قومه لعل نار الحرب تنطفىء وتعود الحياة إلى ما كانت عليه[4] .

وكان سبب هزيمة تغلب يوم قِضة ، أن الحرب كانت قد أنهكت فرسانها ، ولكن الحارث بن عُباد البكري عن المعركة ، ولكنه متأهب لها إذا جَدَّ الجد ، وحانت ساعة ضرورة التدخل ، ولذلك فقد غذّى المعركة بفرسان لم تنهكهم الحرب ، وبقائد لم تؤثر في معنوياته المعارك السابقة . وقد أكثر شعراء بكر من التغني بانتصارهم يوم قِضة ، فهو اليوم الوحيد الذي انتصروا فيه ، وكان النصر الحاسم الذي وضع حداً لتمادي مهلهل في الأنتقام.

---

(١) المصدر السابق ٥/ ٤٤ .

(٢) ديوان طرفة ١٣٢ .

(٣) الأغاني/ كتب ٥/ ٥٠ .

(٤) اعتمدنا في سرد احداث هذه الحرب على المصادر التالية : الأغاني/ كتب ٥/ ٣٤ وما بعدها ، الأغاني/ ثقافة ٢٣/ ٢٥٤ ـ ٢٥٦ ، العقد الفريد ٥/ ٢١٨ ـ ٢٢٢ ، أمثال الضبي ٥٥ ـ ٦٠ ، المعارف لأبن قتيبة ٥ ـ ٦ ، خزانة الأدب ٢/ ١٦٤ ، وما بعدها ، الميداني ٢/ ٥٢٩ .

وباعتزال مهلهل الحرب فإن الحرب لم تنته نهائياً ، ولكنها بقيت تأخذ شكل المناوشات الفردية ، وحتى بعد موته لم تتوقف المناوشات بين القبيلتين ، إلى أن قام عمرو بن هند ملك الحيرة ، وكانت أم هند عمة أمرىء القيس بن حُجْر ، فقد سعى إليه زعماء الحيين ليصلح ذات البين . فدعا الملك رؤساء الفريقين ، ودعاهم إلى التراضي ، ونجح في مسعاه ، وضماناً لاستمرار الصلح ، أخذ من كل حي مائة غلام رهناً عنده ، وألف بهم كتيبة يغزو بها من يشاء ، ثم كادت الحرب تنشب من جديد عندما هبّت ريح سموم عليهم فأهلكت عامة التغلبيين ونجا البكريون ، وأثارت هذه الحادثة ثائرة تغلب ، وهبوا يطلبون من بكر أن يؤدوا ديات أبنائهم . وأبى البكريون ، ووقع النزاع بين الزعماء واحتكم الجميع الى الملك ، ومثّل تغلب عمرو بن كلثوم ، ومثل بكراً النعمان بن هَرِم اليشكريّ وأنشد كل منهم معلقة ، بعد أن قام الحارث بن حلِزة اليشكريّ عندما رأى أن الملك يوشك أن يهم بالنعمان . وأمر الملك برفع الستور حتى صار الحارث مع الملك على مجلسه ، وجزّ نواصي السبعين بكرياً الذين كانوا بين يديه ودفعها إلى الحارث[1] .

ودامت هذه الحرب كما يذكر المؤرخون والرواة أربعين سنة[2] ، وحددها بعضهم بأنها كانت بين سني ٤٩٥ و ٥٣٥ ميلادية[3] ، بينما رأى آخر أن نهايتها سنة ٥٢٥ م بواسطة المنذر الثالث ملك الحيرة[4] .

ويذكرون أن آخر من قُتِل في تلك الحرب جساس بن مرة قاتل كليب . قتله ابن كليب الهَجرس[5] ، وقيل إن جساساً مات حتف أنفه ولم يُقْتَل[6] .

ويروي صاحب الأغاني أنه لم يكن بينهم من قتلى تعدّ ولا تذكر إلّا ثمانية نفر من تغلب وأربعة من بكر عدّدهم مهلهل في رائيته التي مطلعها :

أليتنـا بذي حُسُـمٍ أنيري   إذا أنت انقضيت فلا تحُوري

---

(١) شرح القصائد السبع الطوال ٣٧٠ .
(٢) مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٥٢٩ ، والاشتقاق لابن دريد ٣٣٨ ، والأغاني/ كتب ٥/ ٤١ .
(٣) تاريخ الأدب العربي ـ عمر فروخ ١/ ١١٠ .
(٤) تاريخ العرب ـ فيليب حتي ١/ ١٢٠ .
(٥) الأغاني/ كتب ٥/ ٦١ .
(٦) المصدر السابق ٥/ ٥٢ .

فقد عدّد مهلهل أربعة من بكر في رائيته ، ثم عاد فعدد لنا ثمانية من تغلب في قصيدة أخرى مطلعها :

طَفْلَةٌ ما ابنةُ المحلّل بيضا ءُ لَعوبٌ لذيذةٌ في العناقِ

ويدعم عامر رأيه هذا الذي يرويه أبو الفرج بأن آباء القبائل هم الـذين شهـدوا تلك الحروب فعدوهم عداً بينهم وبين بنيهم ، فلن يصلوا إلى خمسمائة[1] ، ولكن أخاه مسمع بن عبد الملك يكذب أخاه ، ويستهجن رأيه لأنه يحتج بشعر مهلهل ، ويذكر بعض القتلى الذين لم يردوا في شعر مهلهل ومنهم : أبو مكنف الذي قُتل يوم قِضة ، وناشره وحبيب الذي قُتل يوم واردات ، وأبن القبيحة الذي قتله سعد بن مالك بن ضبيعة يوم قضة[2] ولقد أحصينا القتلى الذين وردوا في المصادر التي عرضت لهذه الحرب فوجدناهم ستة عشر بكرياً ، وثمانية من تغلب. ولكن مبالغة كبيرة في عدد القتلى تطالعنا في بعض المصادر ، ويبدو أن أبن اسحاق هو الذي أولع بذلك كما فعل في السيرة فقد ذكر في يوم النَّهْي من أن القتل استحرّ في بني شيبان ولكن أين القتل ؟ لم يذكر أحداً ، ومثله يوم الذنائب « وقُتلت بكر يوم الذنائب » ويروي أبن اسحاق خبراً يرفعه إلى غير واحد من العلماء يعدد فيه القتلى من أشراف بكر وأشراف تغلب ، ويعقب بعد ذلك فيقول : « هؤلاء أشرافهم وما دونهم لا يُحصى ولا يُعد » [3] .

وقد كان مهلهل بن ربيعة فارس تغلب في هذه الحرب وقائدها ، قادهـا ضد بكر التـي غدرت بأخيه كليب سيد ربيعة فقتلته غدراً بعيداً عن ساحة القتال . وقاد قبيلته في جميع أيام هذه الحرب، لم يتخلف في واحدة منها إلى أن هُزمت تغلب يوم قِضّة ، فقرر الرحيل إلى اليمن .

وكما كان فارسها وقائدها فقد كان رئيسها الذي يواجهها ، ولم يكن يستمع إلى أي صوت للسلام يدعوه للتعقل والاكتفاء ، حتى رأيناه يقدم على قتل أبن الحارث بن عبّاد وهو يقول له : بؤبشسع نعل كليب وينشد :

كم قتيلٍ في كليبٍ حُلاَّمْ حتى ينالَ القتلَ آلُ هَمَّامْ[4]

وبمقتل بجير انضم للحرب عنصر جديد قوي كان معتزلاً لها هو الحارث وقومه ، وكان السبب المباشر في هزيمة تغلب والقضاء على مهلهل معنوياً ، فلم تقم له بعد ذلك قائمة .

---

(١) الأغاني/ كتب ٥/ ٥٣ ـ ٥٤ .
(٢) المصدر السابق ٥٥ .
(٣) نفس المصدر السابق ٥/ ٤٧ .
(٤) حرب بكر وتغلب ١١٧ ـ ١١٩ .

وبالاضافة إلى قيادة قومه ورئاستهم فإنه كان شاعر تغلب الذي سجّل حروبهم وكان الناطق الرسمي باسمهم يتهدد ، ويرثي ويفخر ويبرر ما يقوم به ، وسنعرض لذلك بمزيد من التفصيل عند حديثنا عن تصوير شعره لأحداث قومه .

ولا نجد في المصادر المختلفة التي روت أخبار تلك الحرب وأخبار بطلها ، مصدراً يحدثنا عن ولد ذكر له ، يتولى الأمر من بعده ويساعده في حياته ، ويحدثنا ابن حزم[1] عن ثلاثة إخوة له وهم : كليب وعديّ وسَلَمة ، ولكننا لا نعثر على أي خبر للاثنين الآخرين إلاّ ما ورد بشأن الذي أسره الحارث فقد ذكرت بعض المصادر أنه عدى أخو مهلهل وليس مهلهلاً .

كما أن هذا البطل الذي كرّس حياته أو جلها في قيادة قبيلته ضد أختها التي قتلت سيدها ، لم نجد من يرثيه ، أو على الأصح ، لم يصلنا شعر يرثيه إلاّ ما رثته به ابنته سليمى ، فلقد رثته كما وصلنا بقصيدتين ، تحدثت فيهما عن بطولته وفروسيته وشهامته فقالت :

أعينيَّ جودا بالدموع السوافح ... على فارس الفرسان في كلِّ صافح
ألا تبكيان المُرْتجَى عنـد كلِّ مَشْهَد ... يثيرُ مع الفرسان نَقْـعَ الأباطح
عَـديّاً أخـا المعـروف في كل شَتْوَة ... وفارسها المرهوبَ عنـد التكافُح[2]

وقد تكررت نفس المعاني في القصيدة الثانية ، فهو المرتجى عند الشدائد وهو المستغيث به العباد ، وهو حامي الذمار ، وهو الذي يجير الجيران ، وهو كافل اليتيم . ولا ندري لم ركّزت ابنته على هذه الفضائل وأهملت فروسيته فلم تذكرها إلاّ في بيت واحد مع أن مهلهل اشتهر بقيادته في حربها ضد بكر ، وربما غلبت عليها طبيعة المرأة فأحست بأنها فقدت نصيراً كبيراً لها ، ولكل ضعيف مثلها كاليتيم والمستغيث والمستجير .

وربما كان سبب ذلك أن مهلهلاً مات بعيداً عن قومه ، كما مات وقد تشتت قومه وتفرقوا ، وكانت الحرب قد خفّت حدتها أو هدأت قبل فترة من الزمن ، ولو كان مهلهلاً مات في ساحة الوغى لانبرى الشعراء من قومه لرثاء الفارس الذي سقط في ميدان القتال . أما وقد مات ميتة طبيعية ، وكان قد أسن فلا داعي للتحمس في رثائه ، وربما رثوه بشعر لم يصلنا ، ولكنا نميل إلى أن موت مهلهل بعيداً عن قومه ، وبعيداً عن ساحة الوغى ، وقد شاخ ، كل هذا خفف من وقع موته عليهم .

---

(1) جمهرة الأنساب ـ لابن حزم ٣٠٥ .

(2) بكر وتغلب ١١٧ .

ولا نجد شاعراً من خصومه أو القبائل المحايدة رثى هذا البطل ، كما فعلوا مع غيره من الفرسان في الأيام الأخرى ، والسبب هنا واضح ، فلقد عطف الجميع على قضية اغتيال أخيه ، واعتزلت بعض أحياء بكر الحرب إحساساً منها بظلم بكر لأختها تغلب ، ولكن تمادي مهلهل في القتل وسفك الدماء ، وعدم توقفه عند حد ، أفقده هذا العطف . ونقموا عليه ، كما أن موته بعيداً عن ساحة القتال كان له الأثر في نسيان القوم له ، فلم يعد ذا قيمة .

وإذا ما حاولنا العثور على نصوص تشير إلى بطولات تفصيلية له في هذه الحرب فإننا لن نظفر بطائل لأن أخبار تلك الأيام لم تصلنا بكامل أحداثها ، وإنما وصلنا النزر اليسير منه الذي يحدد لنا خطوطها العريضة . وهذا ما حاول القصاص الشعبي أن يستكمله حين عرض لصورة ذلك البطل .

ولكن هذا القصاص الشعبي اهتم بجانب واحد فقط ، هو إبراز بطولة المهلهل ومهارته في فنون القتال ، دون التفات إلى ذكر اليوم ، باستثناء يوم قضّة الذي ذكره بالاسم ، أو تركيز على صورة المعركة إلاّ ما كان متصلاً بالبطل ، ونجد نفس هذا العيب ، إن جاز لنا أن نعتبره عيباً ، في سيرة عنترة ، حيث أهمل كاتب السيرة تفاصيل أيام حرب داحس والغبراء وركّز على معارك عنترة وحروبه مع القبائل الأخرى والأمم الأخرى .

●●●●●

المهلهل بطل أسطوري شعبي

قبل الخوض في عرض صورة المهلهل في الأسطورة الشعبية ، نود أن نتوقف قليلاً لتوضيح مفهوم الأسطورة . فملر وفرويد[1] يعتبران الأسطورة مرضاً عقلياً ويذهبان إلى صلتها بالسحر ، وتفهمها جين هاريسون[2] قصة خيالية صرفة ، وفي مفهومها أننا حينما نقول إن شيئاً ما أسطوري ، فنحن نعني أنه لا وجود له وحدد راجلان[3] الأسطورة ببعدها عن الحقائق التاريخية ، وقال إنه لا شأن للاسطورة بالتأملات أو التفسيرات ، كما أنها لا شأن لها بالحقائق التاريخية .

(1) البطل في الأدب والأساطير - شكري عياد ٧٧ .
(2) نفس المرجع ٨٦ .
(3) نفس المرجع ٨٦ .

وهكذا فنحن أمام صورتين لا بد من توضيح معالم كل منها قبل أن نحدد معالم بطلنا، ونرسم صورة بطل حرب البسوس في الأسطورة الشعبية . الصورة الأولى البطل التاريخي ، والثانية البطل الأسطوري . والبطل في التاريخ هو الصانع الوحيد له ، ذلك ما آمن به المؤرخون . ونحن نلمس البطل عن طريق الأحداث التاريخية التي أحاطت به وسجلت طموحه . ويؤكد بليشانوف[1] أن « الزمان والمكان ومدى التغييرات التي يحدثها هؤلاء الأبطال هي عوامل تعتمد على الأحوال الاقتصادية وعلى تجاذب المصالح الطبقية التي تنمو في تلك الأحوال» . وبمعنى آخر فإن البطل « لا يستطيع التأثير في التاريخ ما لم يكن الزمن مؤاتياً له ، وما لم يكن الأوان يانعاً» [2] .

أما البطل الأسطوري فإنه يستعين بقوى خارقة ، ويأتيه العون من الآلهة وهو عون خارق . والبطل هنا يتعامل مع كائنات غريبة هي مزيج من الانسانية والحيوانية والألوهية ، بل إننا نجده يتعاون مع قوى الطبيعة ، التي تُصَوَّر هي أيضاً تصويراً حيوياً[3] .

وفي أساطيرنا العربية لا وجود لآلهة كما في أساطير غيرنا وقد حاول أحد الباحثين تحديد إطار أساطيرنا العربية فقال . . أساطيرنا العربية بالرغم من تنوعها تدور حول فكرة واحدة هي إمكان السمو بالانسان وابلاغه مرتبة الآلهة ، فيحيا الأنسان حياة الأبدية بعد أن كتب عليه الموت . . ولذلك كانت بطولة أساطيرنا وملاحمنا غير قاصرة على الآلهة ، إذ شاركهم فيها نفر من البشر الذين بلغوا أو كادوا يبلغون مرتبة الآلهة» [4] .

وفي بحثنا هذا نحن أمام صورتين للمهلهل ، إحداهما ، وقد سبق عرضها ، صورته في التاريخ كما صوره لنا الشعر وروايات الرواة . والثانية صورته في السيرة الشعبية ، وهي التي تظهر المهلهل بطلاً قريباً من أبطال الأساطير ، ولكنه ليس أسطورة ، إذا فهمناها كما فهمها راجلان أو جين هاريسون ، بل إن بطلنا فارس من التاريخ ، عرفته الجزيرة العربية . ولكن صورته داخلها التحريف والمبالغة لعدة أسباب . وبعبارة أخرى فإن بطلنا مزيج من التاريخ والأسطورة . ويرى أحد الباحثين[5] أن الأسطورة والتاريخ يلتقيان حول سيرة البطل القديم ،

---

(١) السيرة ـ ماهر حسن فهمي ٥١ .
(٢) نفس المرجع ٥٢ .
(٣) البطل في الأدب والأساطير ـ شكري عياد ٧٤ .
(٤) قصصنا الشعبي ـ فؤاد حسنين ٢٦ .
(٥) السيرة ـ ماهر حسن فهمي ٢٠ .

فالأسطورة تجمح بالخيال وتضفي عنصر الخرافة . . . بينا التاريخ يحارب الخرافة ويعتمد تسجيل الحقائق وتفسيرها .

ولقد وصلتنا صورة المهلهل الأسطورية ، إن صح التعبير ، من خلال السيرة الشعبية ، وهي نفس الطريق التي نقلت إلينا صورة عنترة . والسيرة - كما يذهب الدكتور ماهر فهمي[1] - كانت وما زالت أكثر نبضاً بالحياة من التاريخ ، ففيها نلمس البطل مجسماً ونراه ناطقاً . أما في التاريخ فإننا نلمس البطل عن طريق الأحداث التاريخية التي أحاطت به وسجلت طموحه ، لا عن طريق المشاعر والانفعالات ، واستبطان الأحاسيس الداخلية .

وقد مهّد المؤلف لظهور المهلهل على مسرح الأحداث بعرض علاقة قيس عامة بملوك اليمن ومحاولة ملوك اليمن إخضاعها، ثم إخضاع ربيعة بحييها بكر وتغلب، وقد نجحت جيوش اليمن في ذلك وذهب الرؤساء والسادة إلى تبع يسلمون عليه ويقبلون يديه ويطلبون لأنفسهم الأمان ، ولكن المؤلف جعل والد كليب والمهلهل لا يفعل كما فعل الباقون لأن نفسه الأبية لم تقبل ذلك الهوان ، وكان جزاؤه الموت شنقاً[2] . أما مرة فقد صوره المؤلف منهزماً ، ثم يتقدم إلى الملك طالباً الأمان وداخلاً في طاعته قائلاً للملك « نحن الآن عبيدك وطوع يديك» [3] ولا يخفى على الناقد لم فعل المؤلف هذا حينما صوّر كلاً من ربيعة ومرة على النحو الذي رأينا .

ثم ينتقل فيصور لنا أن تُبَّعاً رغب في جليلة بنت مرة ، وكانت مخطوبة إلى كُليب ، ويطلب مرة رأى كليب الذي يضع خطة تعتمد على الحيلة لقتل تُبَّع بوضع رجال شجعان في الطبقات السفلى من صناديق الهدايا التي ترافق العروس ، ولكن منجماً يكتشف الحيلة ويبلغها لتبع ، ثم يسترضيه كليب وقومه فيخفي الأمر وينجح كليب في قتل تبع ، وينشد تبع شعراً قبيل مقتله يذكر فيه أن امرأة ستظهر ، وسوف تعمل على الأنتقام لتبع من كليب[4] .

ويظهر مهلهل في القصة لأول مرة حينما ذُكر كأحد إخوة كليب ويصفه المؤلف بقوله « وكان من جملتهم المهلهل الملقب بالزير ، وكان جميل الصورة كأنه البدر وهو صاحب السيرة والوقائع ، وكان في تلك الأيام **ابن عشرة أعوام**» ويستمر في رسم صورته فيقول عنه بأنه « فارس شجاع كالسبع ، فصيح الكلام . منعكف عن الشراب وإنشاد الأشعار» [5] ويحاول كليب دفع أخيه في طريق السيادة والزعامة وترك حياة الشراب ولكن مهلهلاً يرد عليه قائلاً « ما دمت أنت في الوجود

(١) المرجع السابق ٢٢ .
(٢) قصة الزير ١٠
(٣) نفس المرجع ١١ .
(٤) نفس المرجع ٢٧ .
(٥) قصة الزير ٣١ .

وأنا في خير لا أحسب حساباً للغير، ولكن إن جار عليك الزمان، وأحاطبك الحساد فأنا أرد عنك الأثقال»[1] .

ويتدخل المنجمون ثانية في سياق القصة حين يخبر منجم أولاد مرة بأن الأمير جساساً لا بد أن يقتل كليباً ، ثم يظهر الزير ويأخذ بثأره ويقتل منهم كل أمير وجبّار بعد وقائع تستحق الاعتبار . . . ويعتريهم الكدر ويقرر أولاد مرة التخلص من مهلهل قبل أن يكبر[2] .

وهكذا يجعل المؤلف بداية الصراع بين القبيلتين نبوءة المنجم ، كما يجعل مهلهلاً يتصدى لمكائدهم وهو بعد صغير السن ، والمؤلف يفعل ذلك ليصوره لنا بطلاً منذ الصغر .

وتهتدي بكر الى الوسيلة المنفذة لخطتها في التخلص من مهلهل ، وتجد في جليلة إبنتهم وزوجة كليب خير منقذ لخطتهم . وتستعين جليلة بكل حيلة لتتخلص من مهلهل ، وهي تستخدم في ذلك زوجها كليباً تحرّضه على أخيه ، فهي تارة تتهمه بأنه راودها عن نفسها ، وأخرى تطعن في أخلاقه ، وثالثة تطلب من كليب أن يذهب إلى بئر السباع وهناك يتركه بعد أن يقطع الحبل ، ورابعة تتمارض وتطلب حليب السباع فيذهب مهلهل ويحضره لها دون أن يمس بسوء . والمؤلف ينجيّ مهلهلاً من كل تلك المكائد ، ويجعله يتغلب على أخيه حيناً بارزه ، كما يخضع الأسود ويركبها[3] . ونجد كليباً في نهاية المطاف يثوب إلى رشده ويقتنع ببراءة أخيه من كل ما نسب اليه ، ويرى فيه سنداً قوياً ، ويطلب منه أن يبقى إلى جواره يعينه ، ولكن مهلهلاً يرفض ويطلب منه أن يأمر له بصيوان كبير مجهز بالفرش الثمينة عند بئر السباع ، وأن يزوده بالخدم وبالطعام والشراب وطلب منه أن يبقى وحيداً حتى يبتعد عن كيد النساء[4] .

وهكذا يضع المؤلف ملامح جديدة في شخصية بطله ، فهو شجاع وبيته عند السباع ، وهو يريد أن يبتعد عن النساء وكيدهن وليس زير نساء كما قالوا عنه ، وهو لم يعتزل القوم إلاّ عندما أحاطوه بالمؤامرات والدسائس ، ولم يعتزلهم ليتفرغ للشراب كما قالوا عنه أيضاً .

ويعقد المهلهل في هذه الفترة صداقة مع ابن عمه همام بن مرة ، وتستمر هذه الصداقة والعزلة عن القبيلتين ثلاثة أعوام .

ثم تظهر المرأة العجوز ، تلك المرأة التي ذكرها تبّع في ملحمته قبيل موته ، والتي نعتها بأنها

---

(1) نفس المرجع ٣١ . (2) قصة الزير ٣٣ .
(3) نفس المرجع ٣٣-٤٣ . (4) نفس المرجع ٤٥ .

سوف تظهر بعده وتلقي الفتنة في القبائل وبسببها يُقْتَلُ كُليب وتثور الحرب بين بكر وتغلب . ويصفها المؤلف بأنها ذات مكر واحتيال وخداع وساحرة ماكرة . . . وكانت صغيرة حينها قتـل أخوها تبع ، وبلغها الخبر بعد أن كبرت فصممت على السـير إلى تلك الـديار وقتـل كليب الغَدّار[١] .

ويحدثنا المؤلف بعد ذلك أن كليباً سار إلى المهلهل يعرض عليه التنازل عن رئاسة القوم له ، وذلك بسبب تقدمه في السن . ولكن الزير يرفض ذلك ما دام كليب حياً . ويأتي دور أخت تَبّع ، لكي توقع بين الحيين ، ووسيلتها في ذلك الناقة . وحاول جساس إرضاءها ولكنها تصر على مطلب من ثلاثة ، وكل واحد منها مستحيل التحقيق ، إما أن يملأ حجرها بالنجوم ، أو أن يحيي لها الناقة ، أو أن يقدم لها رأس كليب يعوم بالدماء[٢] . ولم يجد جساس بُدّاً من قتـل كليب ، فيقتله وبذلك يحقق نبوءة المنجم . ويكتب كليب بدمه قبيل موته على صخرة وصيته لأخيه ضمَّنها رغبة في عدم مصالحة مهلهل بكراً مهما فعلوا وإلاّ فإنه بريء منه ، كما طلب منه أن يحصدهم حصداً[٣] .

ويُفزع الخبرُ مُرّةَ وقومه ، ويعرض على أولاده رأيه في إسكات الفتنة التي توشك أن تعصف بالقبيلتين ، فيرى بأن يوثقوا جساساً ويرسلوه إلى مهلهل وإخوته ليقتلوه بكليب . ولكن أولاد مرّة رفضوا الفكرة لأنهم رأوا أن جساساً هو الذي سيخلف كليباً في الرئاسة ، لأن المهلهل في نظرهم لا همَّ له إلاّ الطعام والشراب[٤] . ويمعن المؤلف في رسم شخصية المهلهل كما يراها الطرف الآخر فيجعل ابن أخته شيبان ابن همام ينصح خاله مهلهلاً بأن يترك فكرة الحرب ويعود إلى الشراب لأنه عاجز عن فعال الأبطال ، مما حدا بالمهلهل إلى قتله[٥] .

ويقود المهلهل قومه في حرب الثأر ، وتدور الوقائع ، ويمعن المهلهل فيهم تقتيلاً ، ففي يوم الذنائب يقتل منهم ثلاثين ألفاً . . . ثم يوقف القتال بسبب مقالة منجّم نصحه بوقف القتال ست سنوات[٦] .

وتلعب الحيلة دوراً هاماً في قصة الزير ، كما يلعب التنجيم دوراً مماثلاً . فبالحيلة قتـل كليب تبعاً ، وبها أيضاً قتل كليب ، وبها استرد المهلهل مهره عنّدم عندما غزا جساس الديار وهو غائب وأخذه . وبالحيلة أيضاً حاولت بكر إيقاف الحرب التي كادت تفنيها . فقد عمدت إلى

(١) قصة الزير ٤٧ . (٢) نفس المرجع ٥٦ .
(٣) نفس المرجع ٥٩ . (٤) نفس المرجع ٦٢ .
(٥) نفس المرجع ٦٥ . (٦) نفس المرجع ٧٥ .

وضع رجل داخل قبر كليب حتى إذا مر المهلهل على القبر حسب عادته وسأل أخاه : هل اكتفيت ؟ يجيبه الرجل من الداخل بصوت خافت : لقد اكتفيت يا أخي . ولكن المهلهل سرعان ما يكتشف الحيلة ويستمر في حربه[1] .

ويضطر جساس وقومه للهجرة الى الحبشة والسودان ، ويستجيرون بالملك الرعيني ابن أخت التبع حسان ، وترافقهم جليلة ، وشرحوا للملك ما حل بهم ، وذكروه بما فعله كليب بالملك تبّع ، وقرر الملك قتال المهلهل وأمر بالاستعداد لغزو بلاده[2] .

وعلم الزير بأمر هذا الغزو ، فصبر حتى جنّ الليل ، فغير زيه وتنكر ، وجعل نفسه كأحد شعراء العرب الذين يقصدون الأمراء ، وقصد إلى صيوان الرعيني ، فسلم عليه ، ثم تمكن من القضاء عليه بحيلة وقتله برمح كان يخفيه تحت ثيابه[3] .

وأصبح المهلهل بعد أن هزم ملك الحبشة وجيشه ، فارس العرب والعجم ، وعظم الأمر على جساس فقصد العابد نعمان ورجاه أن يتوسط لدى المهلهل لإيقاف القتال فترة من الزمن ، ووافق المهلهل على ذلك . وعاد المهلهل إلى اللهو وشرب المدام . . . ومغازلة النساء[4] .

ورأى جساس أن الفرصة مؤاتية لقتله ، وحاول عندما علم بأن المهلهل وحيد طريح الفراش في الخيام ، فقصد الحي في ثلاثة آلاف مقاتل . وهجم الجيش على المهلهل وهو سكران وقبضوا عليه ونزلوا عليه بالسيوف فأثخنوه بالجراح ، ثم أسلموه إلى أخته «ضباع» « زوجة» «همام» . . لقتله بابنها الذي قتله . ولكنها لم تظهر حزنها على ما آل إليه أخوها ، بل أظهرت الفرح ، ثم وضعته في صندوق محكم ، وألقته في البحر ، وأخبرت إخوتها وبني عمها بما حل بالزير وأشاعت بين قوم جساس أنها أحرقته بالنار[5] .

وذلت تغلب بعد غياب فارسها وبطلها ، وقصدوا جساساً واعترفوا له بالسيادة ، وطلبوا منه الأمان ، فنهب أموالهم وأخذ نوقهم ، واشترط عليهم ألا يوقدوا ناراً[6] . . ورحل أخوه المهلهل بأولادهم وأطفالهم حتى لا يلحق بهم الذل . وكأن مؤلف القصة لم يشأ الإخوة المهلهل أن يلحق بهم أي ذل أو هوان .

ووصل الصندوق الذي وضع فيه المهلهل إلى بيروت الإسرائيلية ، كما وصفها المؤلف

---

(١) قصة الزير ٨٠ .
(٢) نفس المرجع ٨٢ ـ ٨٤ .
(٣) نفس المرجع ٨٥ ـ ٨٧ .
(٤) نفس المرجع ٨٩ .
(٥) قصة الزير ٩٠
(٦) نفس المرجع ٩٢ .

وفتح الصندوق ، وأخرج المهلهل وعُولج من جراحه ، وحينما شُفي تماماً قصّ على ملك بيروت قصته فلم يصدقه وأمر بحبسه[1] .

وظل المهلهل في السجن حتى نشبت حرب بين برجيس الصليبي وحكمون اليهودي ، وهزم جيش حكمون ، وكان المهلهل يقف يرقب سير تلك الحرب ، ثم سنحت له الفرصة فعرض على حكمون أن يحارب فسمح له ، وأظهر بطولة خارقة ، واعترف بشخصيته لحكمون الذي أكرمه[2] .

ويقرر المهلهل العودة إلى أهله وديار قومه ، ويطلب جواداً جرّبه في القتال إسمه الأخرج ويهبه الملك ذلك المهر . ويعود مهلهل إلى الديار متنكراً بعد أن ترك المهر في الميناء في حراسة رجال ، ويذهب إلى بنات أخيه ويجدهن ذليلات حزينات بعد هزيمة تغلب ، وتحكم خالهن جساس بهن وبقومهن ، ويكشف أمره لهن بعد أن طلب منهن إبقاء الأمر سراً[3] .

ولكن جساساً يتمكن من إكتشاف أمر المهلهل والمهر ، ويأخذ المهر من العبيد ويستعد لقتال المهلهل وقومه ، ويلتقي الفريقان في معركة ضارية أبلى فيها المهلهل ، وأحرز نصراً مؤزراً على جساس وقومه وهرب جساس عندما رأى ما حل بقومه من العذاب[4] . وفكر جساس وأخوه سلطان ، حينما رأوا ألا جدوى من قتال المهلهل ، في الذهاب إلى مهلهل ، ليعرضا عليه ملك الشام ودفع الجزية له والخضوع له . وذهبا فعلاً إليه معهم جليلة وعرضا عليه الفكرة ، ولكنه رفض إلا إذا رجوا اليمامة ابنة أخيه ووافقت . وذهبت جليلة وأخوها سلطان إلى ابنتها اليمامة يرجوانها ولكنها رفضت[5] .

ويلجأ سلطان وأخوه إلى الحيلة مرة أخرى للإيقاع بالزير وأسره ، وذلك بحفر عدة حفر ، ليقع فيها الزير وفرسه فيأسرونه ويتخلصون منه . ولكن هذه الحيلة أيضاً فشلت بسبب قوة الحصان ، ونجا الزير من هذه المكيدة[6] . وتعقد بعد ذلك هدنة مدتها شهران بين الحيين .

ويلتقي الحيان في معركة ، ويطلب شيبون ، ابن أخت المهلهل ، خاله للمبارزة ، ويقتله المهلهل . ثم يلتقيان مرة أخرى فيُقتل هيام ، يقتله المهلهل[7] .

---

(1) نفس المرجع ٩٥ .
(2) نفس المرجع ٩٦ .
(3) نفس المرجع ١٠٣ .
(4) قصة الزير ١٠٩ .
(5) نفس المرجع ١١٢ - ١١٣ .
(6) نفس المرجع ١١٣ .
(7) نفس المرجع ١٢٢ .

ويدخل المعركة عنصر فتيٌّ لم تفنه الحرب بعد ، وهو الفِنْد الزماني وقومه الذين استنجدت بهم بكر ، وكان يوم قِضَة ، واشتركت النساء في القتال . ولم يشأ المؤلف أن يجعل بطله يؤسر ، ولكنه جعله جريحاً مثخناً بالجراح ، وهُزمت تغلب وقتلت فرسانها ، وحققت بكر نصراً ساحقاً في ذلك اليوم[1] .

أما المهلهل فقد زاد حنقة على بكر ، فجمع الفرسان والأبطال ، وتجهَّز للحرب . وهنا يأتي دور الجرو بن كليب الذي كان بين أخواله ، ويعرف حقيقة أمره ، وترحل به أمه عن أهلها ، ويجمع المؤلف بينه وبين أخته اليمامة التي تتعرف عليه[2] .

ويختفي المهلهل عن مسرح الأحداث ليتصدى للثأر ابن كليب الذي يتفق مع عمه على حيلة لقتل خاله جساساً ، وكان جساس قد رأى بعض هذه الحيلة في منامه . وعندما التقى الفريقان برز الجرو إلى الميدان فبرز إليه المهلهل فالتقاه الجرو ، وطعنه بالرمح طعنة كاذبة ، فألقى المهلهل بنفسه على الأرض من ظهر الحصان وصاح الجرو أن قد نلنا المنى بقتل الزير ، وصاح على جساس ليقطع رأسه ، وعندما اقترب منه جساس ، نهض الزير على قدميه . . . واستعطفهما جساس ولكن الجرو طعنه حتى أجهز عليه[3] .

وعندما يصل المؤلف إلى نهاية المهلهل فإنه يكتفي برواية واحدة ، وهي التي تحدثنا أنه قتل بيد عبدين كانا يرافقانه في غزواته أواخر أيامه[4] . أما مدة الحرب بين القبيلتين فقد ذكرها المؤلف أنها امتدت أربعين عاماً[5] .

تلك هي صورة المهلهل كبطل أسطوري كما رسمته لنا السيرة الشعبية ، وقد لعب السحر والتنجيم ، والنساء والحيل ، كما لعبت القوة الخارقة لحصانه ، دوراً بارزاً في رسم صورة ذلك البطل . ولم ينس المؤلف أن يخرج بطله من دائرة القبيلة والجزيرة كذلك فيجعله يقاتل ملك الحبشة وينتصر عليه . كما أن بطله قد انتصر على الوحوش الكاسرة وقد لعب دوراً حاسماً في ترجيح كفة ملك بيروت على الروم . والبطل هنا ينتصر على كل الأعداء مهما كانت القوى التي يستعينون بها ، وحيلته تنجح وتنطلي على الأعداء ، أما حيلهم فلا يكتب لها النجاح . والجيوش هنا جرارة ، والقتلى بالآلاف المؤلفة .

---

(١) نفس المرجع ١٢٣ .
(٢) نفس المرجع ١٣٦ .
(٣) قصة الزير ١٣٩ .
(٤) نفس المرجع ١٥٠ .
(٥) نفس المرجع ١٤١ .

وقبل أن نبين مدى توافق هذه الصورة الأسطورية لبطلنا مع التاريخ أو اختلافها ، نود أن نشير إلى صورة البطل في عملين آخرين ، أحدهما كتاب بكر وتغلب وماجرى بينهما وراوية هذا الكتاب ابن اسحاق الذي ينقل عن الآخرين كابن الكلبي . ويذكر لنا ابن إسحاق أن الرياسة كانت في بني يشكر ثم تحولت إلى بني تغلب ، ويشير المؤلف إلى الصراع بين مضر وربيعة ، ويذكر عوف بن منقر التميمي والد البسوس خالة جساس ، كزعيم من زعماء مضر[1] . وحينما ينتقل المؤلف بنا إلى المهلهل وقد علم بنبأ مقتل كليب يصفه « بأنه كان ثملاً ، وبأنه كان لا يعرف بالجراءة في الحروب ، بل كان صاحب لهو ونساء ومعاشقة . . . وكان كليب يسميه زير نساء »[2] .

ولم يزل مهلهل يبكي أخاه ويندبه . . . ولا يحدث سوى الوعيد في أشعاره حتى أيس منه قومه وسخرت منه بكر . . . فأقسم ألا ينزع درعه حتى يثأر لكليب[3] . ثم يحدثنا عن إنهزام مهلهل وقومه نحو العراق ، وعن مفارقة مهلهل قومه وسيره بما له وإخوته إلى أرض اليمن . ثم يعود ويقاتل البكريين ويهزم . ثم يحدثنا عن مقتل جساس بيد ابن أخته الهجرس ، ولكن الحرب تستمر بعد مقتله . ويستجير مهلهل وقومه ببني كلب بن وَبْرة ، ثم تعود تغلب إلى مصالحة بكر ، ولكن مُهلهلاً يبقى مع بني كلب وعندما يصل بنا إلى نهاية مهلهل فإنه يذكر لنا روايتين : إحداهما قصة أسره وتسليمه لعوف بن مالك البكري الذي حبسه ثم أطلق سراحه بفدية مقدارها مائة من الإبل ، ويلحق بعد ذلك بأهله إلى مذحج[4] . وهناك يقتله العبدان . والثانية : أنه أسر وحُبس عند عوف بن مالك ثم موته وهو أسير كما يذكرها الأغاني .

والكتاب الثاني لمحمد فريد أبي حديد ، « مهلهل سيد ربيعة » . وقد جعل المؤلف الصراع بين بكر وتغلب قائماً قبل مقتل كليب ، وأن مهلهلاً وهماماً كانا في شغل شاغل عن تلك النار والمتأججة[5] . وجاء الخبر مهلهلاً وكان ثملاً فلم يصدقه ، ولكنه غيرَّ سلوكه حينما رأى قومه يكسرون السلاح ويعقرون الخيل لخيبة أملهم فيه . يصور لنا المؤلف أن بكراً لم تكن راغبة في الحرب ، وأنها رحلت إلى أرض اليمن لتبتعد عن تغلب ، كما أن تغلب لم تكن راغبة في الحرب ، وأن قبائل كثيرة من بكر ارفضت من حول شيبان . وعرض جساس على والده تسليم

(١) كتاب بكر وتغلب .
(٢) نفس المصدر ٤٠ .
(٣) كتاب بكر وتغلب ٤٦ .
(٤) نفس المصدر ١١٠ وما بعدها ـ ١١٥ .
(٥) مهلهل سيد ربيعة ـ محمد فريد ٤١ .

نفسه للمهلهل لوضع حد للفتنة التي تكاد تعصف بهم . ولكن أبـاه وقومه يخافـون مقالـة العرب[1] . ويجعل المؤلف مهلهلاً يترك القتال بعد مقتل صديقه ونديمه همام[2] .

وعندما يتناول قصة أسره يوم قِضة يجعل الحارث بن عُبَاد يطلق سراحه بعد رجاء زوجته أخت مهلهل الحارث أن يطلق سراحه بعد أن يدلّه على تغلبي آخر يقتله ببجير فدلّه على امرىء القيس بن أبان[3] ،ثم يجعل المؤلف مهلهلاً يفارق قومه بعد أن أمعنوا في لومه .ويصل بنا إلى نهاية المهلهل فيحدثنا عن أسره من قبل عوف بن مالك ،وعن مقتله وهو في الأسر، وقتله زبيب، بعير لِعَوْف،بعد أن رفض محاولة من زوجة عوف بن مالك لإنقاذه من الأسر والموت لأنه تذكّر كلمة الحارث بن عباد حينا أطلق سراحه، ورد عليها قائلاً . . . «لن أشتري حياتي بالذلة مرتين»[4] .

مدى اختلافها واتفاقها مع الواقع التاريخي :

تتفق الصورة الواقعية لمهلهل مع الصورة الأسطـورية في وجـود هذا البطـل كحقيقـة تاريخية ، وبكونه أحد رؤساء تغلب . كما تتفق في أنه ظهر على مسرح الأحداث حينا قتل أخوه كليب غدراً ، وبأنه كان قبل ذلك بعيداً عن مسرح الأحداث ، يلهو مع صديقه ونديمه همام بن مرة . وتتفق الصورتان في المحرك المباشر لتلك الحرب وهو ناقة البسوس، ولكنهما تختلفان في الدوافع الحقيقية للبسوس ، فبينما تميل السيرة إلى ذكر قرابتها للمتبع حسان ، وبأنها فعلت ذلك عن تخطيط للإنتقام من كليب ، تكاد كتب الأدب تسكت عن الدوافع الخفية وراء عملها . ولا تختلف الصورتان في أن المهلهل شمّر عن ساعد الجد حينا حلت الكارثة ، وأنه قاد فرسانه للثأر ، ولم يعتزل الحرب إلا بعد هزيمته في يوم قِضَة . وتلتقي الصورتان في نهاية المهلهل مقتولاً بيد عبديه ، وتتفقان أيضاً في مدة تلك الحرب .

أما أوجه الإختلاف فهي كثيرة ، فالسيرة تبرز لنا جذوراً بعيدة في العداء بين ملك اليمن وكُليب ، ومقتله بيد كُليب ، وذلك ماحدا بأخته « سعاد» وهي نفسها البسوس إلى التفكير في حيلة للثأر من كُليب ، وقد نجحت فعلاً . وبينما تسكت كتب الأدب والتـاريخ عن طفولـة المهلهل فإن سيرته تتحدث عنه فارساً شجاعاً جميل الخلقة وهو ابن عشر . وتعتمد السيرة على

---

(١) نفس المرجع ١٠٧ .
(٢) نفس المرجع ١٢٣ .
(٣) نفس المرجع ١٦٤ .
(٤) مهلهل سيد ربيعة - محمد فريد ١٨٠ - ١٨١ .

السحر والتنجيم والتنبؤ بالغيب ، وقوى السحر هذه هي التي تهيء التربص بالمهلهل من قبل قبيلته بكر ، لأنه سوف ينتقم لأخيه منهم حيناً يشب ، والتبع يقول في ملحمته قبيل موته أن امرأة سوف تظهر وتفسد بين بكر وتغلب وتكون السبب في مقتل كليب وإشعال نار الحرب بينهما . والتنجيم هو الذي يجعل مهلهلاً يوقف الحرب أكثر من مرة .

وتلعب الحيلة دورها في دفع الأحداث ، والحيلة من قبل المهلهل ناجحة ، وتنطلي على الآخرين وتحقق أهدافها ، أما حيلة الآخرين فمكشوفة ومقضي عليها بالفشل ، لأن المهلهل تسنده قوى خفية تجعله لا يتعثر في أعماله .

وتختلف صورة المهلهل في كتب التاريخ والأدب عن صورته الأخرى ، فبينما تصوره كتب الأدب ماجناً لا هَمَّ له إلاَّ الشراب ، تصوره لنا السيرة بطلاً فارساً مقداماً وهو ابن عشر ، يفسد كل مؤامرات جليلة للتخلص منه ، يقهر الأسود الكاسرة ويسخرها ، بل ويعيش بينها . وبينما تصوره كتب التاريخ على وشك القعود عن الأخذ بالثأر ، ولا يفعل إلاَّ التهديد بالشعر ، تصوره السيرة رجلاً حكيماً ، حتى أن أخاه يعرض عليه أن يتنازل له عن حكم القبيلتين لأنه كبر .

أما صورة الوقائع فلم تعرضها كتب الأدب إلاَّ عرضاً سريعاً قريباً من الواقع ، بينما صورة هذه الوقائع في السيرة مبالغ فيها ، فالجيوش آلاف مؤلفة ، والقتلى بالآلاف . وبطولة المهلهل لا يمكن وصفها . وقد نقلت السيرة لنا صورة يوم قضة خلاف ما نعرف عنه على الرغم من اعترافها بهزيمة تغلب ، إلاَّ أن مهلهلاً لم يؤسر ، بل جُرِح .

ونقلت السيرة المهلهل من بكر وتغلب نقلة خارج الجزيرة ، فجعلته يحارب ملك الحبشة ويتغلب عليه وعلى جيشه ، كما نقلته مرة أخرى حيناً جرح وأسر ووضع في صندوق ، وألقي في البحر ووجد نفسه بعد أن شفي من جروحه في بيروت . واشترك في حرب ملكها اليهودي ضد ملك نصراني . ولا ندري السبب الذي حدا بمؤلف السيرة أن يفعل هذا ويجعل المهلهل المسيحي ، لأن تغلب كانت تدين بالنصرانية ، يحارب الى جانب اليهودي ضد نصراني ، ربما كان الوفاء والعرفان بالجميل ، كما أننا لا نعلم الدافع الحقيقي وراء ذلك .

ولا ندري لماذا سكتت السيرة عن ذكر أولاد أو بنات مهلهل ، فلم يرد ذكر لهم . وقد استبعد كاتب السيرة قصة أسره بيد عوف بن مالك البكري ومقتله في الأسر ، واكتفى بالرواية الثانية . وأغلب الظن أن الأولى رفضها لأنها ستنتقص من بطولته ، فهو لم يجعله يؤسر إلاَّ مرة بعد أن جرح ونجاه منها وضع أخته ضباع إياه في صندوق . وعلى الرغم من أنه قتل بيد عبديه إلاَّ أن ذلك لا ينقص من بطولته لأنه صوره لنا وقد شاخ وعُمِّر واصبح كالأطفال في تصرفاته .

. ولم تنل سيرة بطل حرب البسوس اهتماماً كما نالته سيرة عنترة بطل حرب داحس ، فسيرة عنترة نالت اهتماماً ورواجاً ، وكتبت في مجلدات عدة ، ومنها الشامية ، والحجازية ، والعراقية ، بينما سيرة المهلهل أو الزير لم تنل إلاّ اهتماماً يسيراً . ويرجع السبب في رأينا إلى أكثر من عامل منها : شخصية عنترة ، وأنه كان أحد الأغربة العرب ، واستطاع انتزاع اعتراف القبيلة به ، وهي بذلك تصور لنا حرباً وصراعاً ضد التفرقة العنصرية وضد العبودية ، وتنقل إلينا مضموناً إنسانياً . ومنها منزلة قبيلة عبس في التاريخ الجاهلي ، ومنها البعد الزمني فمهلهل وحرب البسوس أبعد عهداً من حرب داحس التي حدثت قبيل الإسلام . ولعل من أبرزها أيضاً ارتباطها بالصراع بين العرب والأجناس الأخرى ، وهو ما أطلق عليه اسم الشعوبية ، وفي سيرة عنترة صراع واضح للعرب مع الأجناس الأخرى . وقد استغلت السيرة نسب عنترة من جهة أمه . وقد يكون قرب عهد سيرة عنترة وحياته من عهد الإسلام ، وهو الذي جعل كاتب السيرة يستغل عنترة ليقود صراع العرب ضد الأديان الأخرى الوثنية وغير الوثنية ، كما قاده ضد الأجناس الأخرى .

ومما هو واضح أن سيرة عنترة نسبت إلى راوية عالم هو الأصمعي ، بينما سيرة مهلهل لم تنسب إلى راوية ، ولكن كتاب بكر وتغلب الذي هو أقرب إلى التاريخ منه إلى السيرة ينسب إلى ابن إسحق وهو راوية متهم مطعون في رواياته . ونحن نلمس أثر سيرة عنترة واضحاً في باقي السير بينما العكس ليس صحيحاً .

ومن الفروق البيّنة بين السيرتين أن سيرة الزير لا تتضمن اتصال الزير إلاّ باليمن والحبشة واليهود ، بينما سيرة عنترة تتضمن صراعاً مع كل قبائل الجزيرة العربية أولاً ، شمالها وجنوبها ، ثم مع كل جيران الجزيرة العربية من روم وفرس ويهود وأحباش وسودان ، بل المغرب كله . ولا نجد سبباً لذلك إلاّ أن الصراع في زمن المهلهل كان على أشده بين قبائل الشمال وملوك اليمن ومن والاهم .

دراسة موضوعية وفنية في شعره :

يرتبط الحديث عن أولية الشعر العربي بذكر حرب البسوس ، فإليها ترجع أقدم مجموعة من الشعر العربي التي تستند إلى مصادر صحيحة نسبياً . ويعتبرون مهلهلاً أول من قصَّد القصيد وذكر الوقائع في قتل أخيه كليب بن ربيعة[1] كما اعتبره بعضهم أنه أول من أرقّ المراثي[2]. واعتبره الفرزدق أول الشعراء[3] .

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ٢٩٧ ، زهر الآداب للحصري ١/ ٢٣٤ ، المزهر للسيوطي ٢/ ٤٧٦ ، الأغاني/ كتب ٥/ ٥٧ .
(٢) الأمالي للقالي ٢/ ١٢٩ . (٣) النقائض ١/ ٢٠٠ .

وقد كانت حرب البسوس مجالاً لتفتح قرائح الشعراء حتى قيل إن أول ما طول الشعر إنما كان في أحداثها لما رثى مهلهل أخاه بقصيدة بلغت الثلاثين بيتاً .

وعندما نحاول دراسة شعر مهلهل نصطدم بعقبتين : أولهما أن ديوان هذا الشاعر الذي حيكت حوله الأساطير والقصص مفقود ، فهو ليس بين أيدينا ، على الرغم من أن المصادر أشارت إلى أن الأصمعي جمع شعر مهلهل ، فقد ورد في الفهرست[1] أن ديوان مهلهل بن ربيعة قد صنعه أبو سعيد السكّري ، كما صنعه من قبل الأصمعي .

وورد في كشف الظنون[2] ذكر ديوانه ضمن ذكره أبو مروان بن سراج مما رواه عن أبي سهل الحراني مما لم يتقدم ذكره من قبل .

والثانية : أن هذا الشاعر نسجت حوله القصص الشعبية والأساطير ونحلت عليه الأشعار ، وطُوِّلت بعض القصائد فاختلط الصحيح من أشعاره بالمنحول اختلاطاً يصعب أحياناً الفصل بين النوعين . وبخاصة أن القصاص الذين وضعوا هذه الأشعار وأوكلوا أمر نظمها إلى من يحسن النظم قد وضعوا في اعتبارهم أن تتضمن أحداث حرب البسوس بحيث لا يبدو هناك أي تناقض .

وقد اتهمه ابن سلام[3] على لسان بعض العرب بأنه كان يتكثّر ويدّعي في قوله بأكثر من فعله ، ويرى الدكتور طه حسين[4] أن المهلهل لم يتكثّر ولم يدّعِ ـ كما قال ابن سلام ـ وإنما تكثرت تغلب في الإسلام ونحلته ما لم يقل . وبأنها لم تكتف بذلك بل زعمت بأنه أول من قصّد القصيد وأطال الشعر .

ووصف بعض القدماء[5] شعره بأنه فيه اختلاف واضطراب ولكنهم لم يفصحوا عن مظاهر هذا الاضطراب ، وسئل الأصمعي عنه ، فقال : ليس بفحل ، ولو كان قال مثل قوله :

أليلتنا بذي حسم أنيري

---

(١) الفهرست ١٥٨ .

(٢) كشف الظنون ـ حاجي خليفة ٣٩٧ .

(٣) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ٣٣ .

(٤) في الأدب الجاهلي ـ طه حسين ٢١٦ .

(٥) العمدة لابن رشيق ١/ ٨٦ ، الاشتقاق ٦١ ، طبقات ابن سلام ٣٣ ، لسان العرب ١٤/ ٢٢٣١ .

لكان أفحلهم ، ثم أضاف : وأكثر شعره محمول عليه[1]

وشعر مهلهل في رأي الدكتور طه حسين[2] فيه هلهلة واختلاط ، ولكن هذا الاختلاط وتلك الهلهلة يشترك فيهما مع غيره من الشعراء الذين هلهل شعرَهم الرواةُ الذين وضعوه من قصاص وغيرهم . ولكن شعر المهلهل مشكوك فيه جملة عند الدكتور طه حسين بسبب استقامة الوزن واطراد القافية وملاءمته لقواعد النحو مع قدمه ، وسهولة لفظه ولينه وإسفافه[3] .

وفي رأينا أن شعر مهلهل بن ربيعة لم يصلنا كاملاً ، كما لم يصلنا في صورته الأصلية ، وإنما تعرض للضياع ، كما تعرض لعملية التعويض عما فقد منه ، فأضيفت الأبيات إلى القصيدة لإطالتها ، ونحلت قصائد وبخاصة في رثاء كليب والتفجع عليه ، وتصوير بطولة مهلهل الخارقة . أما قدم هذا الشعر فأمر عرضناه له عند دراستنا لخصائص شعر الأيام الفنية ، في الفصل الثالث من الباب الثاني . ويزيد الأمر تعقيداً أن ديوانه لم يصلنا ، ولو وصلنا لاستطعنا استخلاص الخصائص الفنية للشاعر ولاستطعنا تمييز الصحيح من المنحول على ضوء المقياس الفني الذي نستخلصه .

وأكثر الشعر المنسوب إلى مهلهل ورد في كتاب بكر وتغلب الذي يرويه مؤلفه عن محمد بن إسحاق يرفعه إلى غير واحد من العلماء، وقد نهج هذا الكتاب في رواية الشعر أكثر من طريق، فأحياناً يذكر راوية الشعر فيقول رواه ابن اسحاق أو أبو المنذر،وأحياناً كثيرة لا يذكر الرواة أو المصادر . وابن اسحاق وأبو المنذر راويتان متهمان، كما أن ظاهرة تلفت أنظارنا في هذا الشعر، وهي أن هذا الكتاب تضمن قصائد مطولة بلغ بعضها الخمسين بيتاً ، وهذه نقطة تثير الشك في هذا الشعر .

وبعض هذا الشعر في مصادر نطمئن إليها كالأصمعيات ، والأغاني ، وحماسة أبي تمام ، ولكن الذي نلاحظه أن الأبيات التي وردت في هذه المصادر التي نثق في صحة ماتورده بعض الشيء ، قليلة بالنسبة للقصيدة في كتاب بكر وتغلب وفي هذا ما يؤكده التكثُّر من الشعر ونسبته إلى المهلهل .

وبعض هذا الشعر ويشترك فيه كتاب بكر وتغلب والمصادر التي لا نقبل شعرها إلاّ إذا وجدنا مصادر أخرى توثقه كالعقد الفريد ومصادر التاريخ والكتب الأدبية .

---

(1) فحولة الشعراء ٢٢ .
(2) في الأدب الجاهلي ـ طه حسين ٢١٦ .
(3) في الأدب الجاهلي ـ طه حسين ٢٣٩ .

وخلاصة ما نريد أن نصل إليه أن شعر المهلهل الذي ورد في مصادر موثوقة نادر جداً إذا ما قيس بالشعر الذي بين أيدينا ومنسوب إلى الشاعر . فنحن لا نكاد نطمئن تماماً إلى أكثر من ثماني قطع ، ونشك في غالبية الشعر المنسوب إليه ، ونجزم ببعض الأشعار المنحولة أو الموضوعة عليه . فالقصيدة المنسوبة إليه والتي نظمت على نمط قصيدة الحارث بن عُبّاد والتي منها :

قربا مربط المشهر مني لكليب الذي أشاب قذالي

فإن الوضع فيها بيّن ، وكذا حكاية مقتله ، والبيتان اللذان قالهما فهما للمرقش الأكبر ، وقد وردا ضمن قصيدة للمرقش الأكبر في المفضليات .

وتلك مشكلة تعترضنا ، فإذا ما أردنا دراسة شعره ومدى تصويره أحداث تلك الحرب ، واقتصرنا في دراستنا على الشعر الموثق فإننا لن نظفر بطائل . وإذا ما قبلنا كل الشعر المنسوب إليه فإن الأمر لن يستقيم لنا ، فلنسلك طريقاً وسطاً بين الطريقين ، ولا سيما ونحن لا نحقق ديوان شعره وإنما ندرس الصورة العامة لهذا الشعر ومدى تصويره أحداث قومه . لذا فإننا سنقبل الشعر الذي ورد في المصادر الموثقة ، والذي ورد في بكر وتغلب وورد بعضه في المصادر الموثقة ، لأن ورود بعضه يشير إلى أن أصله موجود وإنما زيد عليه أو عوض الذي فقد منه .

والأغراض التي طرقها المهلهل فيما وصلنا من شعره تكوّن مجموعة متصلة بحرب البسوس وذيولها ، إذ لا نكاد نعثر بقصيدة أو مقطوعة له قبل حرب البسوس ، كما أن الشعر الذي نسب إليه بعد اعتزاله الحرب قليل . وموضوعات شعر حرب البسوس عند المهلهل محدودة النوعية ، وفي مقدمتها ذلك الشعر الذي رثى به أخاه ، وهو في غالبيته منحول عليه ، إما القصائد كاملة ، وإما النص الأصلي وقد طَوَّله الرواة . ويروي القالي أنه سمي مهلهلاً لأنه أول من أرق المراثي[1] .

ورثاء مهلهل مزيج من التفجع على أخيه ، وذكر فساد الأمر من بعده،وكيف آلت الأمور ، وأحياناً أخرى يرثيه ويتهدد بكراً ، وثالثة يرثيه ويذكر ما فعل ببكر، وفي بعض هذه القصائد يصف لنا مقتل كليب . وقد رثاه مهلهل بثلاث عشرة قصيدة ومقطوعة لا نكاد نطمئن لأكثر من خمس منها أو بعضها ، ونشك بالباقي لانفراد ابن إسحاق بروايتها .

ويصوّر لنا مهلهل حال القوم من بعد مقتل كليب فيقول بأن القوم تصدروا المجلس من بعدك فلم يعد لهم سيّد يتصدر المجلس ، وأصبحوا يتكلمون في كل أمر عظيم ، ولِمَ لا يفعلون

(١) الأمالي للقالي ٢/ ١٢٩ .

ذلك وقد ذهبت ، ويتساءل من يقوم مقام كليب فيقول[1] :

نُبِّئْتُ أنَّ النـارَ بعـدَكَ أُوقِدَتْ ... واستبَّ بعدكَ يا كُليبُ المَجْلِسُ[2]
وتكلمـوا في أمـرِ كلِّ عَظِيمةٍ ... لـو كنـتَ شاهدَهم لم يَنْبِسوا
ذهبَ الخِيارُ من المَعاشرِ كلِّهم ... واستبَّ بعدَكَ يا كُليبُ المَجْلِسُ
أَبنـي ربيعـةَ مَنْ يقـومُ مقامَهُ ... أم مَنْ يَرُدُّ على الضريكِ ويُحْبَسُ[3]

ويصور لنا في هذه الأبيات كيف تغير الأمر من بعده ، ويتهدد بكراً بأنه لن يتوقف حتى يبيد منهم ما يشفي غليله ، بل حتى تذوق آل بكر كلها الموت ، ويقـوِّض بنيانها المرفوع ، وتتخطف لحومهم سباع الطير وتنقر أعينهم ، وتجرُّ السباع أعضاءهم وضلوعهم[4] .

لما نَعَى الناعِي كُليباً أظلمت ... شمسُ النهـارِ فما تريدُ طُلُوعا
قتلـوا كليبـاً ثم قالـوا ارتعوا ... كَذَبوا لقـد منعـوا الجيادَ رتوعا
كلاَّ وأنصـابٍ لنـا عاديَّةٍ ... معبـودةٍ قد قُطِّعَـتْ تَقْطِيعا
حتـى أُبِيدَ قبيلـةً وقبيلةً ... وقبيلـةً وقبيلتيـنِ جميعا
وتـذوقَ حَتْفـاً آلُ بكرٍ كلَّها ... ونَهُـدَّ منهـا سَمْكَهـا المَرْفوعا
حتـى نَرَى أوصالَهـم وجماجماً ... منهم عليها الخامعاتُ وقوعا[5]
ونَرَى سباعَ الطيـرِ تنقُر أعيناً ... وتجـرُّ أعضـاءً لهـم وضُلوعا

وفي مقطوعة أخرى يصف لنا مقتل أخيه ، ويذكر قاتليه ، ويتفجع على أخيه ولكنه لا يجزع بل يصمم على أن يسقي قاتليه كأس الردى كما سقوه أخاه فيقول : [6]

قتيلٌ ما قَتِيلُ المـرءِ عَمْرٍو ... وجساسِ بنِ مُرَّةَ ذي صَرِيمِ[7]

---

(1) سمط اللآلىء 1/ 299 ، حماسة أبي تمام شرح المرزوقي 2/ 928 .
(2) استب بعدك المجلس : صار بعضهم يسب بعضا ويصك في وجهه الكلام القبيح .
(3) الضريك : الفقير البائس والأحمق .
(4) بكر وتغلب 52 .
(5) الخامعات : الضباع .
(6) الكامل لابن الأثير/ طبعة مصر 1/ 314 .
(7) ذو صريم : ذو عزيمة وإحكام امر .

أصـاب فؤادَه بأصَـمِّ لَدْنٍ   فلم يعطف هناك على حميمِ[1]

فـإنَّ غداً وبعـد غدٍ لَرَهْنٌ   لأمـرٍ ما يُقـامُ له عظيمِ

جسيماً ما بكيتُ به كليباً   إذا ذُكِرَ الفِعـالُ من الجَسيمِ

سأشربُ كأسَها صِرفاً وأسقي   بـكأسٍ غـيرِ مُنطِقـةٍ مُليمِ

ويصور في هذه القصيدة مناقب القتيل ، وبأن الدنيا بعد رحيله عنها لم يعد فيها خير ، ويتحدث عن كرم أخيه وشجاعته ورئاسته ، ومطلع هذه القصيدة :[2]

كليبُ لا خيرَ في الدنيا ومَنْ فيها   إذ كنـتَ خَلَّيْتَهـا فيمـن يُخَلّيها

ويختتم هذه القصيدة بتصميم على عدم مصالحة بكر الذين غدروا برئيسهم ، ويصور استحالة هذا الأمر بأنه لن يصالحهم حتى يصالح راعي الغنم الذئب .

لا أصلحَ اللهُ منا مَنْ يُصالِحكم   حتى يصالحَ ذئبُ المَعْزِ راعيها

ونرجح بأن القصائد المفرطة في الطول ، والقصائد المبالغ في الحزن والتفجع فيهـا ، كلبهما منحول ، لأن القصيدة العربية كانت في مهدها ، ولم يكن وقت مهلهل ، وهـو قائد الحرب ، ليسمح بتطويل قصائده ، ثم إن مركز مهلهل وقيادته قومه ، وما اشتهر عنه من شجاعة لا تسمحان له بالبكاء على أخيه ، بل إن الثأر يجعله يتنكب قوسه ويمتطي صهوة جواده للانتقام من قاتلي أخيه وليس القعود والبكاء عليه كما تفعل النائحات .

والموضوع الثاني في شعر مهلهل هو التحريض على الثأر من بكر ، وهو يفعل ذلك لتلتف تغلب حوله لمقاتلة بكر والانتقام منها ، وكأنه كان يفعل ذلك كلما أحس برغبة القوم في التوقف والمصالحة ، فقد حدثتنا الروايات عن رفضه لأي صوت سلام يصدر عن أي من رجال القبيلة ، ونحن نسمعه يقول مناجياً نفسه ، ومخاطباً قومه[3] :

كلُّ قتيلٍ في كُليبٍ حُلاَّمْ   حتـى ينالَ القتـلُ آلَ هَمّامْ[4]

---

(1) الأصم : السيف الصلب المصمت .

(2) الكامل لابن الأثير- طبعة مصر 1/ 319 ، بكر وتغلب 44 - 46 .

(3) الأغاني/ ص الكتب 5/ 47 .

(4) الحلام : الصغير من الغنم والمقصود هنا أنه لا يعدل أخاه .

ويلجأ مهلهل إلى تصوير حال نساء تغلب وما لحق بهن من الذل بعد مقتل كليب ليثير فرسانهم للانتقام والثأر دون الإلتفات إلى أي نداء للسلم يصدر من الطرف الآخر ، ويتهدد في ختام القصيدة بكراً فيقول :[1]

فلأتـركنّ به قبائـلَ وائلٍ ... قَتْلَى بكل قرارةٍ ومَكانِ

قتلى تَعاورها النسـورُ أكفَّها ... ينهشْنَهـا وجواجـلُ الغربانِ

ويكثر في شعره شعر التهديد الذي يرسله إلى بكر ، تهديد وهو يرثي أخاه ، وتهديد وهو يتحدث عن أخذه بثأر أخيه ، وتهديد وهو يمعن في قتل بكر ، وكأنه كان يرسل التهديد في كل مناسبة ليرهب بكراً . يقول في مطلع مقطوعة له بعد أن شفى نفسه من أخذ ثأر أخيه[2] :

يا لبـكرٍ أَنْشِروا لي كُليباً ... يا لبـكرٍ أينَ أينَ الفرارُ

يا لبـكرٍ فاظعنـوا أو فحلّوا ... صرَّحَ الشرُّ وبـانَ السِّرارُ[3]

وينذرهم في موضع آخر ، فيخيرهم بين ردّ كليب حيّاً أو أن ينتظروا ضرب سيفه الذي لا يجلب إلاّ الموت فيقول :[4]

قـلْ لبنـي ذُهْـلٍ يَرُدّونَه ... أو يَصْبِروا للصَّيْلَم الخَنْفَقيق[5]

فقـد ترووا من دَمٍ مُحْرِمٍ ... وانتهـكوا حُرْمَتَـهُ من عُقوق[6]

ولا يخلو شعر مهلهل تصوير بعض أحواله الشخصية ، ولكن هذا الحديث لا يلبث أن يرده إلى الحديث عن تلك الحرب التي اكتوى الحيّان بنارها ، فعندما قرر مهلهل اعتزال الحرب ، وانحدر إلى اليمن ونزل في جنب ، وهناك أجبر على تزويج ابنته لهم وساقوا إليه مهرها جلوداً من أدم ، فقال يصور حاله اليوم ، وكيف كانت بالأمس ، وكيف لو جاء يخطبها هذا الذي أكرهه ، وهو عزيز في قومه قبل أن يبتعد حزيناً مهزوماً فيقول :

---

(١) بكر وتغلب ١١٢ - ١١٣ .

(٢) الأغاني/ ط الكتب ٥/ ٥٩ .

(٣) صرح الشر : اكشف . السرا : خط بطن والكف والوجه والجبهة .

(٤) جمهرة أشعار العرب ٢١٨ .

(٥) الصيلم : السيف أو الداهية ، الخنفقيق : السريعة جدا .

(٦) محرم : في حرمة أو عهد أو ميثاق .

هـان على تغلـب بمـا لقيتْ أختُ بني الأكرمين من جُشَم
أنكحَهـا فقدُهـا الأراقـمَ في جَنْـب وكان الحبـاء من أَدَم
لـو بأبانـين جاء يخطبُها ضرُّجَ ما أنف خاطبِ بدم
ليسـوا بأكفائنـا الـكرام ولا يُغْنـون من عيْلَـةٍ ولا عَدَم
أصبحتُ لا مُنْفِساً أصبتُ ولا أُبْتُ كريـاً حراً من النَّدَم[1]

وتبقى البقية الباقية ، وهي أغلب شعره ، التي تصور أحداث حرب البَسوس ابتداء من مقتل كليب ، واندلاع الحرب ، وحتى نهاية مهلهل . وسنحاول في الصفحات القادمة أن نرى **إلى أي مدى استطاع تصوير أحداث تلك الحرب ، أو على وجه الدقة إلى أي مدى استطاع ما تبقى من شعره تصوير أحداث هذه الحرب .**

فما أن يبلغ الخبر مسامع مهلهل حتى نراه يعلن بدء الحرب فيقول :

فإن يطلع الصبحُ المنيرُ فإنني سأغدو الهُوَيْنا غير وانٍ مُعَرِّدِ
وأُصبِـح بكراً غارةً صيلميةً ينال لَظاهـا كلَّ شيخٍ وأمردِ[2]

وها هو يخاطب قلبه بأن ينجز يوم اللقاء نخباً من بني الحصن ليأخذ بثأره منهم وتهدأ نفسه ، وليستريح كليب في قبره .

أيها القلبُ أنجِـز اليومَ نَحْباً من بني الحصن إذ غدوا وذُحُـولا[3]

وشروط الصلح عند مهلهل هي أن يعيدوا له كليباً حياً :

يا لَبكـرٍ أَنْشِروا لي كُليباً يا لبـكر أين أينَ الفرارُ[4]

وإن لم يفعلوا ، وليسوا بقادرين على الوفاء بهذا الشرط فإنه قد أقسم الا يرضى بقتل بعضهم بل سيقتلهم أينما وُجدوا[5] :

آليتُ باللـهِ أرضَى بقِتْلِهِمُ حتى أُبَهْرِجَ بكراً أينما وجدوا[6]

---

(1) الأغاني/ ط الكتب ٥/ ٥١ ، بكر وتغلب ٩١ .
(2) بكر وتغلب ٤١ .
(3) الأغاني/ ط الكتب ٥/ ٥٦ .
(4) نفس المصدر ٥/ ٥٩ .
(5) العقد الفريد ٥/ ٢٢٠ .
(6) أبهرج : أبيح دمهم .

ولن ينهي الحرب التي أشعلها إلاّ إذا أباد قبائل وقبائل،وفلق الرؤوس بالسيوف ، وتقوم ربات الخُدور حواسراً يمسحْن ذوائب الأيتام :

حتـى نُبيدَ قبيلـةً وقَبيلةً قهـراً وَنَفْلِـقَ بالسيوفِ الهام
ويقُمنَ رباتُ الخُدورِ حواسراً يمسحن عَرْضَ ذوائبِ الأيتامِ[1]

وحينما يتحدث مهلهل عن وقائع تلك الحرب فإننا نرى أسلوبين من هذا الحديث ، الأول يذكر أياماً بعينها في شعره ، والثاني يتحدث عن حروبه بشكل عام دون تخصيص .

حينا يتحدث مهلهل عن فساد الأمر بعد أخيه يذكر أخذه بثأره ، ويذكر يوم الذنائب في معرض حديثه فيقول :

ولقد شفيتُ النفسَ من سرَواتهم بالسيفِ في يوم الذنيبِ الأغْبَسِ
إن القبائلَ أضرِمَتْ من جمعنا يوم الذنائبِ حَرْموتٍ أحمسِ[2]

ويرد ذكر هذه الوقعة في قصيدة أخرى قالها حينما أدرك بثأر أخيه فقال :

فـإن يكُ بالذنائـبِ طالَ ليلي فقـد يُبـكى من الليلِ القَصيرِ
فلـو نُبِشَ المقابرُ عن كُليبٍ فيخبـرَ بالذنائـبِ أيَّ زيرِ[3]

والوقعة الثانية التي ذكرها مهلهل في شعره وقعة واردات ، فقد ذكرها في شعره مرتين الأولى حينما تحدث عن أكثر من وقعة عندما أدرك بثأر أخيه ، وقد ذكر لنا ما فعله بالقوم ، ومن قتل منهم ، فيقول :

بيوم الشَّعْثَمَـيْنِ لَقَـرَّ عَيْناً وكيف لقاءُ مَنْ تحتَ القبورِ
فإنـي قد تركتُ بواردات بُجَيْراً في دمٍ مثـلِ العَبيرِ
وهمامَ بنَ مُرَّةَ قد تَرَكْنا عليه القَشْعَمانِ من النسورِ[4]

وأفرد في المرة الثانية مقطوعة بأكملها للحديث عن يوم واردات فقال معرضاً بجساس الذي فر إلى الشام وإلاّ لذاق طعم الردى ، ويعلن بأنه سيستمر في قتلهم حتى تبكيهم العيون ، وحتى

(١) الأصمعية رقم ٥٤ . (٢) بكر وتغلب ٥٠ .
(٣) أغبس : مظلم . (٤) الأصمعية رقم ٥٣ .
(٥) المصدر السابق .

تقذف الحاملات كل جنين مخافة من وقع سيوفهم .

لــو أن خيلي أدركَتْــكَ وجدتَهُمْ	مثــلَ الليوثِ بسِرْغِــبٍ عَرين
فــلأوردنَّ الخيلَ بطــنَ أراكةٍ	ولأقْضِيــنَّ بفعــلِ ذاكَ دُيوني
ولأقتلنَّ جَحاجحــاً من بكرِكم	ولأُبــكِيَنَّ بهــا جفــونَ عُيون[(١)]
حتــى تَظَــلَّ الحامــلاتُ مَخافةً	مِــن وقعنــا يقذفــنَ كلَّ جَنين[(٢)]

وعندما يعرض لوقعة عنيزة فإنه يكتفي بأن يصور اقتتال قومه وبني بكر وكأنها رَحَيا مدير ، وبأن صليل البيض وهو يضرب بالذكور كان يسمع في اليمامة لولا الريح ، وقد كانت حروبهم بالجزيرة ، وبين الموضعين عشرة أيام ، ولذا فقد اتهمه القدماء بالكذب[(٣)] ، وقد أنصف خصوم قومه في هذا البيت لأنه جعلهم نِدّاً لقومه في القتال ، ومن هذا التفسير قال بعضهم إن الفريقين تكافئوا في هذا اليوم[(٤)] :

كأنــا غُدْوَةً وبنــي أبينا	بجَــوْفِ عُنَيْزةٍ رَحَيا مُدير
فلولا الريحُ أُسمِعَ أهلَ حَجْرٍ	صَليلَ البيضِ يُقْدَعُ بالــذُّكورِ[(٥)]

وورد في بعض شعره ذكر لوقعة كانت لهم بعَمْق ، وهو يصور لنا هذه الوقعة بأنه ينادي ركب الموت وهم فرسانه الذين يجلبون الموت للأعداء فيطلب منهم أن يسيروا بغلس ، لأن تلاع العمق قد درّت بالموت[(٦)] .

أُنــادي بِرَكْبِ المَوْتِ للمــوتِ غَلِّسوا	فــإنْ تِلاعَ العَمْــقِ بالموتِ دَرَّتِ[(٧)]

وتحدث مهلهل عن يوم خزاز ، وهو اليوم الذي تألق فيه كليب وقاد مَعَدّاً كلها ضد جموع اليمن ، وقد أسهب مهلهل هنا على غير عادته في حديثه عن أيام البَسوس ، ولا نجد تفسيراً إلاّ أحد احتمالين : أن يكون قد قال هذا الشعر عندما خلا إلى نفسه واعتزل الحرب ، وإما أن يكون

---

(١) جحاجح : جمع جحجح وهو السيد السمح الكريم .

(٢) الكامل لابن الأثير طبعة مصر ١/ ٣٢١ .

(٣) العمدة لابن رشيق ٢/ ٥٩ ، أمالي القالي ٢/ ١٣٤ .

(٤) الأغاني ٥/ ٤١ ، الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ٢٩٩ والأصمعية رقم ٥٣ .

(٥) حجر : موضع باليمامة ، الذكور : أجود السيوف وأيبسها وأشدها . يقدع : يضرب .

(٦) معجم البكري ٣/ ٩٦٨ .

(٧) غلسوا : سيروا بغلس والغلس ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح . تلاع : جمع تلعة وهي ما ارتفع من الأرض .

هذا الشعر منحولاً عليه . وهو يتحدث عن هذا اليوم في معرض حديثه عن كُليب فيقول :

إلى رئيسِ النـاسِ والمرتجى	لعقـدةِ الشَّـدِّ ورَتْـقِ الفُتوقْ
مَـنْ عرفـت يومـاً خَزازٌ لَهُ	عَلْيا معـدٍ عنـد أخْـذِ الحُقوقْ
إذ أقبلـتْ حِمْـيرُ في جمعِها	ومذحج كالعـارضِ المُسْتحيقْ
وجمـعُ همـدانَ له لَجْبَةٌ	ورايةٌ تَهْـوِي هُوِيَّ الأنوقْ
تلمـعُ لَمْعَ الطـيرِ راياتُه	على أواذي لُجِّ بحـرٍ عَميقْ
فاحتـلَ أوزارهـم أَزْرُهُ	بـرأيِ محمـودٍ عليهـم شَفيقْ
وقـد علتهـم للقـا هَبْوَةٌ	ذات هَياجٍ كلهيبِ الحَريقْ(١)

أما وقعة قِضة أو وقعة تحلاق اللمم كما سماها شعراء بكر ، وهي تلك الوقعة التي عجلت بنهاية مهلهل كقائد وفارس لتغلب ، وعجلت في إنهاء الحرب ، فقد ذكرها مهلهل على غير عادة الشعراء الذين يحاولون تناسي الأيام التي تهزم فيها قبائلهم . وقد جاء حديثه عنها بعدما نجا من الوقعة ، وعاد إلى الحيّ فأقبلت عليه النساء والولدان يسألونه عن الرجال والأهل فقال يخاطبهم :

ليسَ مِثْلِي يخَبِّـرُ النـاسَ عن آ	بائِهِـم قُتِّلـوا ويَنسَى القِتالا
لم أرِمْ عَرْصَةَ الكتيبةِ حتى انـ	ـتَعَـلَ الـوَرْدُ مِن دمـاءٍ نِعالا
عرفتْـه رمـاحُ بكرٍ فما يأ	خُـذْنَ إلاَّ لبانَـه والقَذالا
غَلَبونـا ولا محَالـةَ يومـاً	يقلبُ الدهرُ ذاكَ حالاً فَحالا(٢)

ومهلهل هنا ، على الرغم من هزيمته وهزيمة قومه ، واعترافه هو نفسه بذلك في هذا الشعر ، إلاّ أنه لا يتخاذل ولا يبدو منهزماً فما زال محتفظاً بروح الفارس الذي قاد قبيلته قرابة أربعين سنة ، ولكن مشهد النسوة والأطفال وهم يسألونه عن ذويهم أثر في نفسه كأب وكرجل يتزعم القبيلة ، ولعل ما رآه من تقتيل فرسان قومه ، بالأضافة إلى ما رآه في الحي ، كل هذا جعله يقرر الإعتزال .

وعندما يتحدث مهلهل عن حروبه مع بكر بشكل عام دونما تحديد ليوم معين فإنه يتحدث عن أمور كثيرة متصلة بتلك الحرب وبأي حرب شبيهة بها في تلك الفترة . فنحن نسمعه يتحدث عن إسرافه في القتل فيقول :

(١) جمهرة أشعار العرب ٢١٨ .　　(٢) الأغاني/ كتب٥/ ٥٠ .

أكثـرتُ قتْـلَ بنـي بكرٍ بربهـم حتى بكيتُ ومـا يبكي لهـم أحدُ
آليتُ باللـهِ لا أرضَى بقتلهـم حتـى أبَهْـرِجَ بكراً أينَما وُجدوا[1]

ويقول في موضع آخر بأنه لو قتل جن الخابلين كما قتل بكراً لنفدت الجن :

لو كنت قتَّلتُ جنَّ الخابلـين كما قتَّلتُ بكراً لأضحى الجنُّ قد نفَـدا[2]

ولا يفوته في بعض قصائده أن يحصي لنا القتلى من قومه ومن بني بكر ، وهو بهذا العمل ، لو صحَّ هذا الشعر المنسوب إليه ، يقدم لنا سجلاً صحيحاً ودقيقاً وتاريخاً لتلك الأيام . ففي رائيته عدَّد لنا بعض القتل من بكر وهم : الشعثمان وبجير وهمام ، وفي قصيدة أخرى قالها وهو أسير لدى عمرو بن مالك عدّد لنا بعض قتل قومه في تلك الحرب فقال :

ما أُرجّيِ في العيش بعد نَداما يَ أراهم سُقُوا بكأسِ حَلاقِ
بعـد عمـرٍو وعامـرٍ وحُيَيٍّ وربيع الصدوفِ وابنيْ عَناقِ
وامرىءِ القيسِ مَيِّت يوم أودَى ثـم خلّيَ علَيِّ ذاتِ العَراقي
وكليبٍ سُمِّ الفـوارسِ إذ حُمَّ رمـاةُ الـكماةِ بالإيفاقِ[3]

ولا يفوته أن يذكر أسرى بكر في تلك الحرب فيقول مصوراً حالهم في الأسر .

فجـاؤا يُهْرَعـون وهـم أُسارَى نقودُهُمُ على رَغْـمِ الأنوفِ[4]

ويبرر لنا مهلهل تقتيله بني بكر فيقول إنهم الذين بدأوا بالقتل فقتلوا سيدهم ، ويرى أن ما يفعله هو الأخذ بالثأر :

فقتـلاً بتقتيلٍ وعقـراً بعقركُمْ جزاءُ العُطاس لا يموت مَنْ اتَّـأرْ[5]

ويعلن لهم في موضع آخر بأنه لن يترك وتره ولن يهدأ حتى يشفي غليله منهم وسيأتيهم بفتيان تغلب الشجعان على خيول أصيلة كالسعالي ، وغداً يساقون رماحهم من دماء بكر فيقول :[6]

(1) العقد الفريد 5/ 220 .
(2) اخبار المراقسة 270 .
(3) الأغاني/ كتب 5/ 54 ـ 56 .
(4) أخبار المراقسة 281 .
(5) البيان والتبيين 3/ 320 .
(6) جمهرة أشعار العرب 218 .

غـداً نُساقِـي - فاعلموا بيننا ـ رماحَنـا من قانـيءِ كالرَّحيق

بِكلِّ مِغْـوارِ الضُّحَـى فاتكٍ شَمَـرْدَلٍ من فوق طِرْفٍ عتيق

سَعَـالِيٌّ يحملن من تغلب فتيانَ صدق كليوث الطَّريق

ليس أخـوكم تاركاً وِتْرَهُ وليس على تَطْلابكم بالْمُفيق[١]

وعلى الرغم من تلك الموجة العارمة من الحقد التي طغت على شعره ، فإنهم لم تستطع أن تخنق صوتاً خافتاً لم يمت في موجة الثأر والحقد ، ونعني به ذلك الشعر الذي يعبرّ عن الحيين **كقبيلتين تربطهما القرابة** والجوار والمصاهرة . وقد ورد ذلك في موضعين ، في الأول نصّ على ذلك صراحة حين قال مصوراً ما بين بكر وتغلب بعد قتل كليب :

أصبـح مـا بـين بنـي وائلٍ مُنْقَطِعَ الحبلِ بعيد الصديق[٢]

وفي الموضع الثاني ذكر اجتماع ولد معد في دارهم بتهامة وما وقع بينهم من الحرب ، ولا ندري هل عنى بذلك بكراً وتغلب أم عنى دائرة قبيلة أوسع تشمل معداً كلها فقال :

غَنِيَتْ دارُنا تهامةَ في الدهـ ـرِ وفيهـا بنـو مَعَـدٍّ حُلولا

فَتَساقوا كأسـاً أُمِرَّتْ عليهم بينهـم يقتل العـزيزُ الذَّليلا[٣]

وقد سجل لنا شعر مهلهل بعض المواقف التي كانت بين القبيلتين ، في أواخر الحرب ، فقد حدث أن أجدبت تغلب فذهب مهلهل إلى مرة بن همام يرجوه أن ترعى إبلهم في مراعي بكر فقبل مرة ، ولكن صُغَيْراً بن كلاب وكان شيخاً مجرباً رفض وقال : لا نصالحهم حتى يعطونا خيلهم ، ونعطيهم معزانا ، وبلغ ذلك القول مهلهلاً فقال :

هَزِئَـتْ أبناؤنـا من فعلنا إذ نبيع الخيلَ بالمعزى اللجاب

واعلمـوا أنَّ لَدَيْنـا عُقْبَةً غـير ما قال صُغَـيْرُ بنُ كِلاب

إنمـا كانـت بنـا موصولةً أكل الناس بها أَحْرَى النهاب[٤]

---

(١) شمردل : صبي جلد . سعالي : جمع سعلاة وهي الغول أو أنثى الغول وأراد هنا خيولا كالسعالي .

(٢) جمهرة أشعار العرب ٢١٨ .

(٣) معجم البكري ١/ ١٩ .

(٤) بكر وتغلب ٩٨ ، الأشتقاق لأبن دريد ٣٥٤ أورد البيتين ١ ، ٢ .

ولم يفت الشاعر المهلهل تصوير أحواله المتصلة بتلك الحرب ، فقد نزل عندما اعتزل العرب في جَنْب ، وهم حي من اليمن ، وأجبروه على تزويج ابنته ، فقال يصور لنا ذلك ويقارن حالة اليوم بحالة بالأمس ، وكيف سيكون الأمر لو جاء يخطبها وهي عَزيزة في قومه ، فإنه سيضرج أنفه بالدم لأنهم ليسوا بأكفاء تغلب الكريمة الحسب والنسب ، ويعبر لنا عن حالة من الندم أصابته بسبب تركه قومه والتجائه إلى أولئك القوم حين يقول :

أصبحت لا مُنْفِساً أصَبْتُ ولا   أُبْتُ كريماً حراً من الندم[1]

وعندما كان في الأسر لدى عمرو بن مالك ، ولعبت الخمر برأسه قال يذكر ماضيه وحاله يومذاك ، وبدأها بالمطلع الغزلي كعادة الشعراء في ذلك الحين ، ولو أنه غزل ربما كان يوهم بالحقيقة حيث يقول :

طَفْلَةٌ ما ابنةُ المحلَّل بيضا   لُعوبٌ لذيذةٌ في العِناق

فاذهبي ما إليك غير بعيدٍ   لا يُؤاتي العناقُ مَنْ في الوَثاق

ثم ينتقل إلى تصوير حاله بعد رحيل فرسان تغلب الذين التهمتهم الحرب الضروس فقال :

ما أُرَجِّي في العيش بعدَ نداما   يَ أُراهُمْ سُقُوا بكأس حَلاقِ

ويختمها بهذين البيتين ، مبيِّناً فيها أنه لا يرجو لذة العيش بعد أن آل أمر قومه إلى ما هم عليه من التشتت والهزيمة :

لستُ أرجو لذة العيش ما   أَزْمَتْ أجلادٌ قَدٌّ بساقي

جلّلوني جِلْدَ حَوْبٍ فقد   جعلوا نفسي عندَ التراقي[2]

وبعد ، فقد وصلنا إلى نهاية رحلتنا مع شعر مهلهل بن ربيعة ، ورأينا أنه على الرغم من ضياع هذا الشعر ، ومن اضطراب بعضه ، إلاّ أنه قد حفظ لنا الإطار العام لهذه الحرب ، فقد ذكر معظم الوقائع التي حدثت فيها ، كما ذكر لنا بعض ما جرى بين الحيين ، وذكر أسره ، ورحيله ، وتصميمه على الثار ، وعدّد لنا القتلى من الحيين . وإن كنا نأخذ عليه ، فإننا نأخذ عليه الإيجاز في الوصف ، فهولم يعرض لنا تلك الوقائع بأحداثها مفصلاً ، كما فعل بعض الشعراء ، وربما لم يفعل ذلك انطلاقاً من ميل الشعراء الفرسان إلى الإيجاز وإلى القفز إلى النتائج دون

(١) الأغاني/ كتب ٥/ ٥١ .   (٢) الأغاني ٥/ ٥٤ ـ ٥٦ .

الإسهاب في الجزئيات ، فهذه لا تهم ، وإنما الذي يعنيهم أن ينتشر الخبر في صورته الرئيسية إلى أسماع الناس . وإننا لنلحظ أخبار تلك الحرب أنها وردت مختصرة ولم ترد مفصلة باستثناء يوم قِضَة فجاء شعر مهلهل متمشياً مع ذلك ، ولو كانت تغلب انتصرت يوم قِضَة لسمعنا الكثير من مهلهل ، ولكن الهزيمة أقعدته وهدّت عزيمته .

***

وننتقل بعد ذلك إلى دراسة شعره دراسة فنية ، ولعل أول ما يطالعنا في هذا الشعر أنه في غالبيته **شعر مقطوعات** ، إذا اتبعنا نفس القاعدة التي عرضنا لها وهي أن نعتبر الشعر شبه موثّق لَوْ وَجَدْنا بعضه ورد في مصادر موثقة . فإننا لا نجد من شعره الذي يزيد على الأربعين قطعة وقصيدة ، بين منحول وموثق ومشكوك فيه ، أكثر من أربع قصائد وردت في مصادر موثقة وغير موثقة بنسب متفاوتة في عدد أبياتها . وأما كتاب بكر وتغلب فقد انفرد برواية قصائد مفرطة في الطول ، بلغ بعضها خمسين بيت وبعضهامائة بيت. وإذا علمنا أن مهلهلاً اعتبره بعض القدماء أول من أطال في الشعر ، فإن الإنتحال بيّنٌ في كتاب بكر وتغلب . وقد عمد إلى المقطوعات أو القصائد المتوسطة فأطال فيها ، ونسج على منوالها .

ويغلب على الشعر الذي وصل إلينا في المصادر ، عدا كتاب بكر وتغلب ، قلة عدد الأبيات، ففي الشعر الذي جمعناه ثماني مقطوعات كل واحدة منها عبارة عن بيت واحد، وعدد آخر تضم الواحدة بيتين أو ثلاثة أو أربعة .

وكما أننا نرفض تلك المطولات التي ذكرها كتاب بكر وتغلب ، فإننا نرفض أن يكون مهلهل قد صوّر حال بكر وقد هُزموا في بيت واحد حيث يقول :

فجاؤا يُهْرَعونَ وهـم أسارَى ... نقودهـم على رَغْـمِ الأنوفِ[1]

ونلاحظ أن مطلع هذا البيت توحي بأنه سبق بأبيات ، فجاءت نتيجة ما عرض في الأبيات المفقودة . ويحدثنا البكري أن مهلهلاً قال يذكر حرباً لهم كانت بعَمْق ، ولا نجد إلاّ بيتاً واحداً من الشعر هو :

أنادِي برَكْبِ الموتِ للموتِ غلِّسوا ... فإن تِلاعَ العَمْقِ بالموتِ درَّتِ[2]

(١) أخبار المراقسة ٢٨١ .

(٢) معجم البكري ٣/ ٩٦٨ .

ونتساءل هل أفرغ مهلهل كل ما كانت تجيش به نفسه حين بدأ يتحدث عن ذلك اليوم ، في هذا البيت ؟ ونجيب على ذلك بالنفي ، لأن النصر يثير النشوة والطلاقة في النفس ، والشاعر أحق الناس بترجمة ذلك إلى شعر . وشبيه بالحالة السابقة هذا البيت الذي يذكر بكراً بأنهم الذين بدأوا بالقتل وبالغدر ، فإنهم يلاقون ما فعلوا :

فقتـلاً بتقتيلٍ وعَقْـراً بعقْرِكُم   جزا العُطاسِ لا يموتُ مَنْ ثَأَرْ[1]

فأين الحديث عن يوم هذا القتل ؟ وأين المقدمات ليأتي هذا الحديث نتيجة لها ؟ كل ذلك لا نجد له أثراً .

**

والظاهرة الثانية التي تطالعنا في شعره هي انعدام المقدمات الطللية وغيرها، ففي مجموعة شعره الصحيح منها والمشكوك والمنحول، لا نكاد نعثر إلاّ على أربع قصائد مبتدئة بمقدمة . أولاها انفرد بروايتها ابن اسحاق ويقول في هذه المقدمة :

أهـاجَ قذاءَ عينـي الادكار   هُـدُوًّا فالدمـوع لهـا انحدارُ

وصـار الليلُ مشتمـلاً علينا   كأن الليلَ ليس له نَهارُ

وبتُّ أراقبُ الجـوزاء حتَّى   تقـارب من أوائِلِهـا انحدارُ[2]

ومن البيّن في هذه المقدمة أنها تصور حالة الشاعر النفسية ، وما يعانيه من ألم وحزن بسبب مقتل أخيه غدراً .

والثانية أيضاً مما انفرد به ابن اسحق ، وهي التي أنشأها ، فيا يزعمون ، معارضاً قصيدة الحارث بن عباد ، ويقول في مطلع المقدمة :

هـل عرفـتَ الغـداة من أطلال   رَهْـنِ ريْحٍ وديمـةٍ مِهْطالِ[3]

والثالثة وقد ذكر هذا الشعر صاحب الأغاني ، وورد بعض هذه القصيدة في كتب الأدب الأخرى ، وهي مقدمة غزلية لقصيدة قالها وهو أسير في أخريات حياته ، وفيها يقول :

---

(١) البيان والتبيين ـ الجاحظ ٣/ ٣٢٠ .

(٢) بكر وتغلب ٤١ .

(٣) بكر وتغلب ٦٥ ـ ٦٨ .

طَفْلَـةٌ ما ابنـةُ المحلّل بيضا   ءُ لعُـوبٌ لذيذةٌ في العِناقِ
فاذهبـي ما إليك غـير بعيد   لا يؤاتِي العِناقَ مَنْ في الوَثاقِ
ضربـتْ نَحْرَهـا إليَّ وقالت   يا عَدِيّاً لقـدْ وقَتْـكَ الأواقِي[1]

والمقدمة كما علمنا من سياق خبر أسره ربما كان حديثه فيها ليس تقليداً جرى عليه الشعراء ولكنه غزل حقيقي في ابنة المحلل ، وهو يخبرها بأنه لا يمكن أن يؤاتي العناق لشخص أسير مثله .

وفي الرابعة يطلب زجر العين أن تبكي الطلول ، وأن تكف عن ذلك إلى ما هو أهم ، وهو غل في الصدر بسبب مقتل كليب . فهو يعترف في هذه المقطوعة التي ذكرها صاحب الأغاني ببكاء الأطلال ، ولهذا دلالته العميقة ، معناها أن البكاء على الأطلال كان معروفاً في عهده . يقول فيها :

ازجر العـين أن تبـكّي الطُّلولا   إنَّ في الصـدرِ من كليبٍ غَليلا[2]

وما سنقوله هنا سبق وقلنا بعضه حينما عرضنا لظاهرة انعدام المقدمات أو ندرتها في شعر الأيام ، وقد عللنا تلك الظاهرة في حينه . ولكننا هنا أمام موقف جديد وخاص ، وهو أن مهلهلاً ، كما يذهب الكثير من العلماء أول من هلهل الشعر ، فمن المحتمل أن تكون المقدمة الطللية في زمنه لم تنضج بعد ، ولم تتخذ نسقاً معيناً يلتزمه الشعراء ، ولكننا لا نستطيع أن ننكر وجودها في حرب البسوس ، ففي المفضليات ، وهي مجموعة شعرية موثقة ، قصيدة للمرقِّش الأكبر يرثي بها ابن عمه ثعلبة بن عوف بن مالك بن ضبيعة ، الذي قتلته تغلب ، قتله المهلهل في حرب البسوس[3] . كما أننا وجدنا في شعره قصيدة بدأها بمقدمة غزلية . ولا يبقى بعد ذلك أمامنا إلا احتمالان ؛ أولهما أن طبيعة الشعر الذي نتحدث عنه لم يكن يتطلب تلك المقدمات الطللية ، ولكن قصيدة المُرقِّش وقصيدة مهلهل نفسه تلغي هذا الزعم . وثانيهما : أن تلك المقدمات ضاعت ولم يجد فيها أولئك المحدثون الذين رووا لنا أخبار تلك الحروب أدنى فائدة فأهملوها ، ولم تصل إلينا . وهذا الاحتمال أقرب الى الترجيح فيما نزعم .

**

(١) الأغاني/ كتب ٥/ ٥٤ .
(٢) الأغاني/ كتب ٥/ ٥٦ .
(٣) المفضلية رقم ٥٤ .

والمتأمل لشعر مهلهل بن ربيعة يلحظ ظاهرة بادية الوضوح فيه ، وهـو أن لغتـه سهلـة وواضحة ، وهذا ما جعل الباحثين يشككون في أمر صحته وصحة نسبتها الى ذلك العصر الذي اتسمت لغته بطوابع معينة . ونستطيع أن نلمس ذلك من قراءتنا لأية قصيدة أو مقطوعة له ، كما أن شعر مهلهل لا يحمل الكثير من سمات ذلك العصر الإجتماعية ، أو الصور والتشبيهات المتصلة بتلك البيئة ، وهذا سبب آخر يجعلنا نميل مع القائلين بكثرة الشعر المنحول عليه . لأننا حينا درسنا شعر الأيام وموضوعاته المختلفة ، قلنا إن ذلك الشعر حمل الينا الكثير من طبيعة قائليه ، والكثير من سجاياهم ، والكثير أيضاً من الملامح البيئية ، والتي يمكن الإستعانة بها لرسم صورة للحياة الاجتماعية في ذلك العصر.

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن ألفاظه وتراكيبه تتسم بالشعبية وتكاد تقترب من اللغة الدارجة ، وتبتعد عن أساليب البلاغة التي اعتبر النقاد ذلك العصر أساساً لها . ولكننا ، إنصافاً للشاعر ، وحرصاً على الدقة فيا نذهب إليه ، نقول إن الذي نذهب إليه هذا إنما نعني به شعر مهلهل في صورته المشوهة التي بين أيدينا والتي يختلط فيها الشعر الصحيح بالشعر المنحول عليه .

أما المعاني التي تتردد في شعره فتكاد تكون مكررة في كل قصيدة ، فهو شديد الحزن على أخيه ، وهو لن يهدأ له بال إلا إذا أمعن في تقتيلهم ، وهو دائم المناداة على أخيه ، وأن أخاه كان سيد الحيين ، وأنه سيقتل بكراً أينما وجدهم ، ولن يتوقف إلا إذا نشروا له كليباً . ولم يكن مهلهل الوحيد في هذا المجال ، فقد كان شعراء الجاهلية يدورون حول معان مشتركة ، ولكن كل شاعر كان يلوّن المعنى ويخرجه في قالب يبدو جديداً ، ولكن مهلهل تميَّز بأنه نفسه كرر معاني أكثر من مرة في قصائده ، ولم يتسم شعره بالايجاز ، فقد بلغت بعض قصائده مائة بيت . ولا ندري إن كانت هذه الظاهرة قد ألصقت به بسبب ما نحل عليه من الشعر ، أو أنها صفة أساسية تميَّز بها شعره . ولكن الإحتال الأول أقرب إلى الصحة .

ويكثر في شعره تكرار شطر بيت معين في القصيدة الواحدة ، ففي رائيته يتكرر هذا الشطر ست مرات ، « على أن ليس عدلاً من كليب» [1] .

وفي قصيدة أخرى يتكرر هذا الشطر ثلاث مرات : « يا خليلي ناديا لي كليبا» [1] وقد نقبل ظاهرة التكرار هذه كوسيلة استخدمها الشاعر للضغط على معان معينة ، ليفرغ شحنة من الإنفعال يحس بها ، وليتقلها للناس بأمانة وصدق . ولكن الذي نرفضه أن يتكرر شطر ست

---

(1) الأمالي للقالي/ ٢/ ١٣٠ ، الحماسة البصرية ١/ ٢٢ ، الأغاني/ كتب/ ٥/ ٣٧ ، بكر وتغلب ٦٩ .

مرات . وفي رأينا أن هذا التكرار الذي لا جدوى منه هو من عمل القصاص الذين تكثّروا من شعر هؤلاء الفرسان كمهلهل وعنترة .

وفي شعر مهلهل بعض الأضطراب في الوزن ، وتظهر فيه بعض الزحافات ، وهذه ظواهر يشترك فيها مع الشعر الجاهلي ، وقد رددناها إلى طبيعة الطريقة التي انتقل الشعر بها ، وإلى النسّاخ والرواة بشكل خاص .

ومما يلفت النظر أن مهلهلاً - فيا نسب إليه من شعر - نسج ثلاثة أرباع شعره على سبعة حروف هجائية ترتيبها حسب درجة استعمالها على النحو التالي : الميم ، الدال ، اللام ، الراء ، الهاء والسين والنون . وربما أمكن ربط بعض هذه القوافي بموضوعات الشعر والأغراض التي يدور حولها معظم شعر مهلهل وهو البكاء على أخيه ، والتصميم على الثأر من بكر ، والفخر بانتصاراته عليهم . وقد بحثنا ذلك بالتفصيل حينا عرضنا للقوافي في شعر الأيام .

ولم تخل قوافي شعره من عيوب القافية وأبرزها الإقواء والسناد ، ولكنها قليلة بالنسبة لشعره عامة ، ولا تقلل كثيراً من قيمة الشعر لو سلم من العيوب الفنية الأخرى .

ونتساءل بعد كل ما عرضنا : هل يصلح شعر مهلهل لكي يكون نواة لملحمة من نوع ما وفي صور ما تحكي أحداث حرب البسوس ؟

نستطيع أن نقرر على ضوءما سبق أن بيَّنا من طبيعة الملحمة ،كما فهمها النقاد والباحثون في الغرب والشرق ، أن شعر المهلهل في صورته الرسمية ، ونعني الشعر الموثق ، لا يمكن أن يشكل جزءاً من ملحمة لأنه مقطع الأوصال ، مبعثر هنا وهناك ، ومعظمه مفقود . أما شعره المنحول عليه والمشكوك فيه والصحيح ، فإنه يصور أحداث البسوس لو توفرت فيه شروط : أولها أن يتضافر مع شعراء البسوس ، لأنهم صوروا جوانب لم يعرض لها المهلهل . وثاني هذه الشروط لو تخفف شعره من تلك النزعة الخطابية والتقريرية التي تفسد قابليته . وثالث الشروط لو حذفنا بعض شعر الرثاء لأنه طغى على باقي شعره فهو من حيث عدد القصائد والمقطوعات يشكل ثلث شعره ، ومن حيث حجم الشعر يبلغ ضعف باقي شعره . وقد يصور شعره ملحمة يبكي فيها أخاه كبطل من أبطال ربيعة قتل غدراً ، ولكنه لن يكون ملحمة فنية تتوافر فيها خصائص الملحمة التي تعارف عليها النقاد .

---

(١) بكر وتغلب ٩٤ .

الفصل الثاني

عنترة العبسي

قبيلته ـ نشأته وحياته ـ دراسة لجوانب شخصيته ـ عنترة بطل عبس ـ مشاركته في حروب قومه ـ دوره في تلك الحروب ـ عنترة بطل الأسطورة الشعبية ـ صورته في الأسطورة الشعبية ومدى اختلافها واتفاقها مع الواقع التاريخي ـ دراسة موضوعية وفنية في شعره ـ إلى أي مدى يصور شعره أحداث قومه ؟

الفصل الثاني

عنترة العبسي

قبيلة عبس.

عبس بن بغيض بطن عظيم من غطفان، من قيس بن عيلان، من العدنانية. وهم: بنو عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان[1]. وقد تفرعت من هذه القبيلة بطون منها: بنو عَوْذ بن غالب، وبنو رواحة بن ربيعة بن قطيعة، وبنو جذيمة، وبنو جروة بن الحارث[2].

وينقسم غطفان إلى ثلاثة أفخاذ عظيمة: أَشْجَع بن رَيْث بن غَطفان، وعبس بن بغيض، وذبيان[3]. كما تنقسم ذبيان إلى ثلاثة بطون: مرة وثعلبة وفزارة[4].

وقبيلة عبس إحدى جمرات العرب[5]، وهي تلك القبيلة التي لا تدخل في أحلاف مع غيرها، ولا تجاورهم لقوتها الذاتية وترهبها القبائل الأخرى[6].

ومن رجالها المشهورين: زهير بن جذيمة سيد غطفان كلها، بل وسيد هوازن، وابنه قيس بن زهير، وعنترة الفوارس، والربيع بن زياد، والحطيئة، وعروة بن الورد[7].

---

(1) أنظر جمهرة انساب العرب لابن حزم ٢٥٠ - ٢٥١، العقد الفريد ٣/ ٣٥٠، نهاية الأرب للقلقشندي ٨١، المعارف لابن قتيبة - طبعة مصر سنة ١٣٠٠ هـ ص ٢٧، صفة جزيرة العرب ٤٢، معجم قبائل العرب - عمر كحالة ٢/ ٣٨.

(2) الاشتقاق لابن دريد ٢٦٥.

(3) معجم قبائل العرب ٣/ ٨٨٨.

(4) نفس المرجع السابق ١/ ٤٠٣.

(5) المحبر لابن حبيب ٢٣٤.

(6) اللسان «جمر».

(7) العقد الفريد ٣/ ٣٥٠.

وقد اختلف العلماء قديماً في تحديد مواطن القبائل وتعيين حدودها ، ومن الطبيعي أن يمتد هذا الاختلاف إلى تحديد موطن عبس وديارها وحدودها . وسبب هذا الاختلاف عائد إلى عدم اكتشاف جميع الأماكن في الجزيرة والتي تحدث عنها العلماء قديماً ، كما يمكن رده إلى كثرة الحروب والانتقال الدائم الذي جعل القبائل لا تكاد تستقر في مكان ما ، بل إن القبائل نراها تنساح من ديارهم إلى ديار أحلافها بسبب الحرب مما دفعها إلى الانتقال في الجزيرة العربية ، كما يمكن رده إلى تداخل قبائل غطفان نفسها .

فمن خلال استعراضنا لأحداث حرب داحس والغبراء نجد أن عبساً قد ارتحلت إلى بني شيبان وجاورتهم، ثم رحلت عنهم إلى بني سعد بن زيد بن مناة بن تميم ، ثم ارتفعوا إلى الشام فحالفوا تغلب بعد تطواف طويل ، ثم عادوا فحالفوا بني عامر . وهذا الارتحال جعل مواطن عبس التي وردت في أشعار شعرائهم تشمل كل تلك الأماكن التي سكنتها ، بالإضافة إلى أن حاجة القبيلة إلى المرعى والماء تدفعانها إلى الارتحال . فإذا ما أضفنا عاملاً مضللاً آخر وهو ورود مواطن في شعر بعض الشعراء دون أن تسكنها قبائلهم ، فإن ذلك كله يجعل من المتعذر علينا تحديد موطن قبيلة عبس وأية قبيلة أخرى على وجه صحيح . ومع ذلك سنحاول أن نعرض لبعض ما قالوه في محاولة منا لتحديد موطنها أو منازلها .

يقول البكري[1] «كانت منازل عبس فيما بين أبانين والنقرة وأبانين والربذة» ويكتفي عمر كحالة بالقول « وكانت منازلهم بنجد» [2] بينما يراها ابن بليهد النجدي[3] « متوسطة في بلاد نجد لأن جبل الرحرحان من جبال الربذة . ومن معدن النقرة إلى جبل الرحرحان ، وهذه قطعة من نجد » ويقول في موضع آخر[4] « وأما بلاد عبس فهي واقعة في بلاد غطفان شمال أبانين وغربي الجواء وشرقي النقرة » ويقول حسن القرشي في محاولة لتحديد موطن عبس فيقول « إنها مجاورة للمدينة في الجبهة الشرقية في الحرار والأودية الواقعة فيما بين المدينة وبين فدك وخبر منساحة إلى الشرق على ضفاف وادي الرمة الذي ينحدر من المرتفعات الواقعة شرقي المدينة وشماليها ، ومنتشرة على روافد هذا الوادي من الأودية التي تأتيه من الشمال ومن الغرب[5] » .

---

(1) معجم البكري ٤/ ١١٧٨ .
(2) معجم قبائل العرب ٢/ ٧٣٨
(3) صحيح الأخبار - ابن بليهد ٣/ ١٩ .
(4) نفس المرجع ١/ ٢٢٣ .
(5) فارس بني عبس - حسن القرشي ٢٧ .

وعلى هذا فديارهم تمد غرباً بجبلي أبانين وجبل قطن ، وشرقاً بالرمال الواقعة شرقي القصيم ، وشمالاً بأطراف القصيم الشمالية ، وجنوباً بإقليم السر . ومجمل ما يمكننا القول به إن ديار عبس هي القصيم ونواحيه .

وإذا ما بحثنا عن جيران عبس ، فبنو أسد من الغرب ، وبنو تميم من الشرق ، وبعض قبائل قيس عيْلان من الجنوب ومنهم بنو عامر ، وفي الجهة الغربية ذبيان . وسنرى عندما نعرض للحرب كيف أثر هؤلاء الجيران في توجيه الحرب .

وعلى الرغم من كل هذه المحاولات لتحديد موطن عبس وحدودها ، فإنها لا تشكل حدوداً مرسومة ولا خطوطاً واضحة ، وإنما هي أماكن متناثرة في شبه الجزيرة ، وكل ما نجنيه هو تبيّن منازل القبيلة في أزمنة مختلفة . ويمكننا القول إن هذه الأماكن والبلاد ليست وقفاً على عبس وحدها ، بل شاركتها فيها قبائل أخرى عديدة من أهمها بطون غطفان .

وإذا ما حاولنا تبيّن مكانة قبيلة عبس في العصر الجاهلي ، فإن أول ما يطالعنا أنها كانت إحدى جمرات العرب . ويروي لنا اليعقوبي[1] أن عبساً استطاعت في وقت ما انتزاع سيادة قيس من فزارة ، ولكنها لم تستطع الاحتفاظ بها مدة طويلة ، بل اغتصبها منها بنو عامر بن صعصعة . وتحدثنا المصادر أن زهير بن جذيمة العبسي كان سيد غطفان كلها بل سيد هوازن ، وأن هوازن كانت تدفع له إتاوة كل سنة[2] .

وكانت عبس محاطة من جميع جهاتها بأحلاف لذبيان من طيء وأسد وتميم وضبة والرباب وعامر بالإضافة الى ذبيان نفسها ، وقد اضطرت عبس لقتال أولئك الجيران وغيرهم ، ولأكثر من سبب لعل مشاكل التجاور في مقدمة تلك الأسباب ، فقد كان كل من الفريقين يطمع في السيطرة على الفريق الآخر بالاستئثار بالمراعي وموارد المياه .

ومن أيام عبس مع تميم : أقرن والصرائم والسؤبان ، وقد هُزمت عبس في هذه الأيام الثلاثة . كما التقت عبس مع عامر في أيام أهمها : ذات الرَّمْرَم والنشأة والتخانق أو شُعَر ، وسُقُف ، ورُكْبَة ، والرُّميثة . وهزمت عامر في أربع منها هي : التخانق ، وسُقُف ، ورُكْبة ، والنَّشأة . كما هُزمت عبس في باقي الأيام . وكان الصراع مع عامر يدور حول هدف واحد هو الاحتفاظ بالسيادة على هوازن ، كما هدفت عامر إلى الاستقلال ، ثم انتزاع السيادة من عبس ، وقد أفلحت في النهاية كما حدثنا اليعقوبي ، بل لقد انتهى الأمر بعبس أن لجأت إلى عامر متناسية قتل عامر لزهير بن جذيمة ، حدث ذلك بعد أن أرهقت حرب داحس والغبراء عبساً .

(١) تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٢٦ . (٢) العقد الفريد ٥/ ١٣٥ .

ولعبس مع ضبة يوم أعيار أو النقيعة ، وفيه انهزمت عبس .ولها مع بكر يوم زُرود الأول ، وسببه طمع بكر في نهب عبس فغزاهم الحوفزان ، وهُزمت عبس في ذلك اليوم أيضاً . ولها مع هوازن يومان هما ؛ ذات الأثل والصَّلْعاء ، وقد هُزمت فيهما عبس .وكان لها مع غنيّ يومان أيضاً هما : النفراوات ومَنْعِج وقد هُزِمَت فيهما عبس أيضاً . وقد التقت مع بني أسـد يوم السُّلَيْل وهُزِمَت فيه أيضاً .

أما قبيلة طيء فقد كان بينها وبين عبس غارات صوّرها لنا عنترة في بعض شعره ، ولاقى حتفه في إحدى هذه الغارات على يد رجل من طيء .

وهكذا رأينا أن التجاور كان له الأثر في نشوب الحروب ، فقد رأينا عبساً تتصـ ـم مع جيرانها جميعاً ، ولم يبق من القبائل المجاورة واحدة إلاّ وكان لها معها أيام .

ولكن ظاهرة تحتاج إلى تعليل ، وهي أن عبساً هُزِمَت في معظم الأيام التي ذكرنا ، ومع ذلك فقد بدأت عبس حربها مع ذبيان قوية متماسكة ، ولا نملك من تعليل إلاّ أن تلك الأيام كانت غارات محدودة كما كانت معظم الأيام في ذلك العصر ، ولذا فلم تؤثر تلك الأيام على تماسك عبس بل زادتها تماسكاً .

وعلى الرغم من أن عبساً فقدت ملكها غدراً ، وهو زهير بن جذيمة ، إلاّ أنها استطاعت الصمود فترة طويلة من الزمن كجمرة من جمرات العرب ، ولولا حرب داحس لما انطفأت تلك الجمرة .

نشأة عنترة وحياته

لعل شاعراً عربياً لم يحظ بالاهتمام وبالعناية كذلك الاهتمام الذي حظي به عنـترة على مر العصور مما حدا بالجاحظ إلى نسبة ذلك إلى الحظ[1] . ومع ذلك فإن الأخبار المبثوثة في بطون الكتب بمجموعها تعجز عن إعطائنا صورة واضحة المعالم عن حياة هذا البطل العربي ، بل تبقى هناك ثغرات عديدة وفجوات تحتاج إلى خيال الملهم حتى تكتمل صورة عنترة الحقيقية .

ونستطيع أن نخمن أن حياة عنترة الأولى ، أو الفترة الأولى من حياته كعبد من عبيد بني عبس ، لم تسلط عليها الأضواء ، ولم يكن أحد يظن أن هذا العبد سيكون له شأن في القبيلة ،

(١) الحيوان ٢/ ١٠٣ .

ولذلك لم يهتم به أحد ، ومن هنا نجد أن أكثر الاضطراب حاصل في الفترة الأولى من حياته ، ولم يسعفنا بشعر يرصد تلك الفترة . ولا يعني هذا أن القسم الثاني في حياته لا يخلو من اضطراب شأنه في ذلك شأن سائر شعراء الجاهلية وما ذلك إلاّ بسبب بعد الشقة، وانتقال تلك الأخبار والأشعار بطريق الرواية الشفوية قروناً طويلة .

وأول ما يطالعنا من اختلاف في حياته هو الاختلاف في أسمه فهو عنتر[1] ، وعنترة[2] ، وعنترة الفلحاء[3] ، وعنترة الفوارس[4] ، وذهب بعض الباحثين إلى أن عنترة لقب خلع عليه بعد تميّزه بالبطش ، ولم يكن اسمه ، ثم غلب عليه اللقب وشاع فمحا اسمه الأول[5] . ومن كناه التي وردت في المصادر العربية أبو المغلس[6] وأبو عبلة[7] .

وإذا ماخلصنا من اسمه وألقابه ، وعرفنا أن الاسم الذي عُرف به ذلك الشاعر الفارس عبر عصور التاريخ هو عنترة ، سواء أكان ذلك اسم أم لقب خلع عليه ، إذا ما انتهينا فإننا نصطدم بعقبة أخرى ، تلك هي من يكون والد هذا الفارس ؟ فبعض المصادر ذكرت أن أباه هو عمرو بن شداد[8] ، وبعضهم ذكر أنه شداد[9] ، وزعم آخرون أنه عمرو بن معاوية[10] ، وذهب فريق رابع إلى أن شداداً عمه نشأ في حجره فنسب اليه[11] ، وهناك من يقول أن أباه معاوية العبسي[12] .

---

(١) استنادا الى بيت الشعر : ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم .

(٢) اللسان (عتر)

(٣) الأغاني ٨/ ٢٣٧ ، المخصص لابن سيده ٣/ ٤٧ ، المزهر للسيوطي ٢/ ٤٣٢ ، شرح شواهد المغني ١٦٠ .

(٤) العقد الفريد ٥/ ١٥٣ .

(٥) مقدمة شرح ديوان عنترة ـ ابراهيم الأبياري .

(٦) المزهر ٢/ ٤٢٦ ، شرح الحماسة للتبريزي ١/ ٨ ، شرح المعلقات السبع لابن الأنباري ٢٩٣ .

(٧) شرح الحماسة للتبريزي ١/٢١٨ ، شرح المعلقات السبع لابن الانباري ٢٩٣

(٨) الشعر والشعراء ١/ ٢٥٠ ، خزانة الأدب ١/ ١٢٨ ، الأغاني/ كتب ٨/ ٢٣٩ .

(٩) النقائض ٩٧ ، أنساب الخيل ٦٧ ، طبقات ابن سلام ٢٧ ، المحبر ٣٠٧ ، شرح القصائد الطوال ٢٩٣ ، تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٦٣ ، الإشتقاق ١٧٠ ، المؤتلف والمختلف ١٥١ ، معجم الشعراء ٢٤٦ ، الأغاني ٨/ ٢٣٧ شرح الحماسة للمرزوقي ١/ ٤٢٥ حيلة الفرسان ١٥٦ ، الخزانة ١/ ١٢٨ ، مجمع الأمثال ٢/ ٢٤٤ .

(١٠) شرح شواهد المغني ٢/ ٢ عن أبي عبيدة .

(١١) ورد في شرح الديوان لأبي بكر عاصم بن أيوب .

(١٢) شرح القصائد الطوال/ ٢٩٣ ،أسماء المغتالين لابن حبيب/ ٢١٠ ، شرح ديوانه للبطليوسي، شرح الحماسة للتبريزي ، البديع لابن المعتز/ ٢٨ .

وإذا حاولنا تعليل ذلك الإضطراب ، فإن السبب الأساسي يرجع إلى نشأته المغمورة فترة طويلة من الزمن كعبد من عبيد عبس ، وتأخر اعتراف والده به بعد صراع طويل ، كما أن الفترة الزمنية الطويلة التي قطعها الخبر والرواة يتناقلونه مشافهة، كل هذه العوامل ولدت الإختلاف، ويشاركه في هذا الإضطراب الكثير من شعراء الجاهلية .

أما تاريخ ولادته فلا نستطيع الجزم بتاريخ ، وكل ما نستطيع أن نخمنه أنه عاصر أحداث حرب داحس والغبراء من بدايتها ، من يوم المُرَيْقِب ، كما تشير إلى ذلك أشعاره التي نطمئن الى صحتها ، وهو لم يعاصرها فحسب ، وإنما شارك في أحداثها إبتداء من يوم المريقب حيث قتل ضَمْضَماً المُريّ ، فإذا ما عرفنا أن الفارس لا يشترك في القتال الحقيقي ويعرف كفارس إلاّ عندما يقارب العشرين ، وعرفنا كذلك أن الحرب حددت نهايتها في حدود سنة ٦٠٠ م(١) ، فإن بدايتها ستكون حوالي سنة ٥٤٠ م ، وتكون ولادة عنترة قياساً على هذا ما بين ٥٢٠ - ٥٣٠ م وبعيننا على تقريب هذه الحقيقة إلى الأذهان معاصرة عنترة واجتماعه بعمرو بن معد يكرب المخضرم وعُروة بن الوَرْد العبسّي(٢) .

ويعتبر عنترة أحد الأغربة العرب ، لأن أمه زبيبة الحبشية ، جارية من جواري عبس ، ولم يكن عنترة ينكر ذلك بل اعترف به في شعره فقال : (٣)

يقدّمـه فتـىً من خـير عَبْسٍ ... أبـوه ، وأمّـهُ من آلِ حام
عجوزٌ من بني حامِ بن نوحٍ ... كأن جَبينَهـا حَجَـرُ المقامِ

ويقول في موضع آخر مصرحاً بما يحس به من نقص في النسب من جهة أمه ، وبأنه يعوض ذلك النقص بفروسيته :(٤)

إنـي امـرؤ مـن خـيرِ عبسٍ منصباً ... شطـري وأحمـي سائـري بالمُنْصَلِ(٥)
وإذا الكتيبـةُ أحْجَمَـتْ وتلاحَظَتْ ... أُلفيتُ خـيراً من مُعِـمٍّ مُخْوِلِ(٦)

---

(١) التنبيه والأشراف للمسعودي/ ١٧٤ .
(٢) الأغاني/ دار الكتب ـ ٨/ ٢٤٦ .
(٣) ديوان عنترة/ ١٥٩ .
(٤) الأغاني/ دار الكتب ـ ٨/ ٢٤٠ ، ديوانه ١١٩ .
(٥) المنصب : الأصل والحسب ، والمنصل : السيف .
(٦) تلاحظت : من اللحظ وهو النظر ، وهذه حال المتردد في أمره . والمعم ، المخول : الكريم الآباء والأمهات .

وجلس يوماً في مجلس قبيلته بعدما كان قد أبلى واعترف به أبوه ، وأعتقه ، فسابه رجل من عبس وذكر سواده وأمه وإخوته ، فسبه عنترة وفخر عليه وقال فيا قاله له : « إني لأحضر البأس ، وأوفي المغنم ، وأعف عند المسألة ، وأجود بما ملكت يدي» [1] .

ونحل الرواة والقصاصون عليه شعراً قاله في سواده واعتزازه به ، ولكن هذا الشعر لم تثبت لنا صحته ، وإنما فعلوا ذلك لإبراز بعض المواقف في القصة ، ولاستخدامه كعنصر للتشويق .

وتتميز فترتان في حياة ذلك الفارس ، الفترة الأولى عاشها عبداً من عبيد عبس ، وظيفته الأساسية رعي الإبل وحلبها والخدمة التي لا تجلب له إلا الذل والضعة ، ولكنها معَ ذلك كانت فترة تكوين في حياته فقد صقلته تلك الفترة ، وجعلته يتعلم ضروب الفروسية وفنون القتال ، كما أنها هذّبت نفسه وصقلتها ، فقد كان يخلو في تلك المهامه إلى نفسه ، وهو يرعى الإبل ، وتعلم ركوب الخيل ، واستعمال أدوات القتال ، كما علمته الصبر فكانت فترة بناء لجسمه ولعقله ولنفسه ولفروسيته ، وظل بعيداً عن حياة القبيلة وصراعاتها يرقب ما يجري حوله دون أن يتدخل لأن مركزه الإجتماعي لم يكن يتيح له أكثر من ذلك . وقد أرضعته تلك الفترة لبن الحرية على الرغم من أغلال العبودية التي كان يرسف فيها . فنشأ محباً لهذه الحياة كارهاً للذل ولكل ما يمس كرامته .

وخلاصة ما يمكن أن نصف به هذه الفترة بأنها كانت فترة البناء الحاسمة التي كانت إرهاصا للفترة المقبلة الهامة في حياته .

يحدثنا ابن الكلبي أن بعض أحياء العرب أغاروا على بني عبس ، فأصابوا منهم واستاقوا إبلاً ، فتبعهم العبسيون فلحقوهم وقاتلوهم وعنترة فيهم كعبد مرافق ، فقال له أبوه : كر يا عنترة ، فقال : العبد لا يحسن الكر وإنما يحسن الحلاب والصرّ ، فقال كر وأنت حر ، فكرّ وهو يقول : [2]

أنــا الهَجــيـنُ عَنْتَرَهْ   كلُّ امرىءٍ يَحْمِي حِرَهْ [3]
أسْــودَهْ وأحْمَرَهْ   والشَّعَــراتِ المُشْعَرَهْ [4]
الواردات مِشْفَرَهْ

(١) شرح القصائد السبع الطوال/ ٢٩٣ .
(٢) الأغاني/ دار الكتب ـ ٨/ ٢٣٩ .
(٣) حرة : جانبه ، ناحية .
(٤) مشفرة : المشفر : شفة البعير ، واستعمل في الشفة الغليظة .

وقاتل يومئذ قتالاً حسناً ، فادعاه أبوه بعد ذلك وألحقه بنسبه . ولم يجحد ابن الكلبي ذلك الحي ولا الواقعة . وقال غير ابن الكلبي : إن عبساً أغاروا على طيء ، فأصابوا نعماً ، فلما أرادوا القسمة قالوا لا نقسم لك نصيباً مثل أنصبائنا لأنك عبد . فلما طال الخطب بينهم كرّت عليهم طيء ، فاعتزلهم عنترة وقال : دونكم القوم ، فإنكم عدوهم . واستنقذت طيء الإبل . فقال أبوه : كرّ ياعنترة . فقال : أو يحسن العبد الكر؟ فقال له : العبد غيرُك ، فاعترف به ، فكرّ واستنقذ النعم ، وجعل يقول :[1]

أنــا الهجــين عنترة الــخ الأبيات

ونتساءل بعد ذلك هل كان عنترة فارساً من فرسان القبيلة وهو عبد؟ وإلاّ فلم يقسم له فرسان قبيلته ؟ وإذا كان هذا صحيحاً فإنه لا يتفق مع ما عرف من سيرته أنه كان عبداً يرعى الإبل . إن طلب أبيه منه أن يكر يعني أن أباه كان يعلم بفروسيته وإلاّ لما دعاه ، فهل سبق أن أبلى عنترة في بعض حروب القبيلة ؟ تلك أسئلة لم تصلنا أخبار تؤكدها أو تنفيها . ولكننا نميل إلى أن عنترة كان عبداً وهذا لا جدال فيه ، ولكن شجاعته كانت معروفة لدى القبيلة ، ولم يكن بعيداً عن الأحداث ، وكان يتحيّن مثل هذه الفرصة حتى يسترد مركزه الإجتماعي ، بل ينتزعه انتزاعاً من مجتمع لا يعترف إلاّ للجنس العربي بحق الحرية والسيادة . ونرجح أن الرواة بالغوا في تصوير مذلته وضعة مركزه في المرحلة الأولى من حياته ، حتى يبدو انتزاعه اعتراف أبيه به ، واعتراف القبيلة به ، عملاً بطولياً ونقطة تحول في حياته تلفت الأنظار اليها .

وكان لعنترة إخوة من أمه ، فأحب عنترة ، بعد أن نال حريته واعترف به أبوه ، أن يدعيهم قومه ويحدثنا أبو الفرج في رواية عن إبن الأعرابي وأبي عبيدة كيف استطاع أن يجبر قومه على الاعتراف بهم[2] .

وقد عرف عنترة المرأة الأم في حياته ، ورثى لوضعها الاجتماعي كما رثى لوضعه ، إلاّ أنه لم يصلنا منه ما يشير إلى محاولة إخفاء نسبه ، كما عرف زوجة الأب ، سمية أو سهية ، وهي التي حاولت الإساءة إليه ، وسببت له الألم والضرب المبرّح من أبيه لأنها اتهمته بأنه راودها عن نفسها . وقد حدث ذلك قبل أن يدعيه أبوه ، ثم إنها بكت عندما رأت ما به من الجراح فقال :[3]

أمِنْ سُمَيَّةَ دَمْعُ العين مذروفُ لو أنَّ ذا منكِ قبل اليوم معروفُ[4]

(١) الأغاني/ ٨/ ٢٣٩ - ٢٤٠ .
(٢) نفسه/ ٢٤٣ .
(٣) الأغاني/ دار الكتب - ٨/ ٢٣٧ - ٢٣٨ ، ديوان عنترة/ ١٠٩ .
(٤) مذروف : من ذرف الدمع : صبه .

كأنَّها يومَ صدَّتْ ما تكلِّمُني ... ظَبيٌ بعُسْفانَ ساجي العينِ مطروفُ[1]
تجلَّلتني إذ أهوى العصا قِبَلي ... كأنها صنَمٌ يُعتادُ معلوفُ[2]
العبدُ عبدُكم والمالُ مالُكم ... فهل عذابُكَ عني اليومَ مصروفُ

ويذكرهم عنترة في هذه القصيدة بما يفعله من أجلهم في الحرب: [3]

تَنْسَى بلائي إذا ما غارةٌ لقحت ... تخْـرُجُ منهـا الطُوالاتُ السَراعيفُ[4]

ولو ثبتت صحة هذا الشعر بأنه قيل لزوجة أبيه ولم يكن قد نال حريته بعد، فإن ذلك يعني أن عنترة خاض المعارك إلى جانب فرسان قومه، واعترفوا بهذه الفروسية قبل أن ينال حريته واعتراف أبيه به. ولكن هذا الشعر ربما كان قد نظمه في غير هذه المناسبة ويتضح ذلك إذا تدبرنا المعاني الواردة فيه.

ولكن ابن الأنباري يذكر في شرحه لمعلقته أن الأبيات التالية من المعلقة عنى بها امرأة أبيه حيث يقول: [5]

يا شاةَ ما قنص لمن حلَّتْ له ... حَرُمَتْ عليَّ وليتهـا لم تحْرُمِ
فبعثتُ جاريتي فقلتُ لها اذهبي ... فتَجَسَّسي أخبارَها ليَ واعلمي
قالتْ: رأيتُ من الأعادي غِرَّةً ... والشاةُ مُمكنةٌ لمن هو مُرْتَمِ

ويرد ذكر سهية في شعر عنترة في موضع آخر حيث يقول في حرب كانت بينهم وبين جديلة طيء: [6]

إنَّا كذلك يا سُهَيَّ إذا ... غَـدَرَ الحليفُ نقودُ بالخَطْمِ

والمرأة الثالثة في حياته عبلة، تلك الفتاة التي اقترن اسمها به، وتغنّى بها في شعره وهو

---

(1) عسفان: منهل من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة. وساجي الطرف: ساكن النظر... ومطروف: طرفت بثوبه أو غيره فهي مريضة قد فترت.
(2) تجللتني: علتني ووقعت علي. ومعكوف يعكف عليه.
(3) الأغاني/ دار الكتب- ٨/ ٢٣٨، ديوانه/ ١٠٩.
(4) لقحت: اشتدت. والسراعيف جمع سرعوف، وهو كل خفيف طويل، يريد الخيل.
(5) شرح القصائد السبع الطوال/ ٣٥٣.
(6) الديوان/ ١٥٥.

يخوض غمرات القتال ، وكانت الملهم لذلك الفارس البطل . وقد تضاربت الروايات بشأن نهاية تلك العلاقة بينهما ، فذهب البعض إلى أنه تزوجها[1] ، وقال آخرون إنه لم يتزوجها[2] .
وربط الذين قالوا بزواجه بين حريته إذ قال له أبوه : كر وقد زوجتك عبلة « وفي مصدر آخر» فاستلحقه أبوه يومئذ ، وزوجه عمه عبلة ابنته « وفي مصدر ثالث» « انك ابن أخي وقد زوجتك ابنتي عبلة» . وعلل الذين قالوا بعدم زواجه ذلك بأن العرب كانت تمتنع عن تزويج بناتهم لمن يشبب بهن . وأثبتوا ذلك أيضاً بأن شعر عنترة خلا من ذكر زواجه بها ، وهي كانت طالما داعبت خياله ، بل إن في لاميته التي رواها الأصمعي ما يشير إلى أنه لم يتزوجها . حيث يقول مخاطباً إياها[3] :

فَلَـرُبَّ أبلـجَ مثـلِ بَعْلِكِ بادنٍ ضخمٍ على ظهرِ الجَـوادِ مُهَبَّلِ[4]
غادرتُـه مُتَعَفِّـراً أوصالُـهُ والقـومُ بـين مُجَـرَّحٍ ومُجَدَّلِ

وتزداد حيرتنا أننا نقرأ في ديوان شعره بيتين قالهما لعرسه وقد نصحته بالهرب يوم غدير قَلْهَى ، وهي عبسية :[5]

تقـولُ ابنـةُ العبسيّ قَرِّبْ جمالَنا وأفراسَنـا ثم انـجُ إن كنـتَ ناجيا
فقلـتُ لهـا من يَغْنَـم اليومَ نَفْسَهُ وينظُـرْ غداً يَلْـقَ الـذي كان لاقيا

ولكننا لا ندري مَنْ تكون تلك الزوجة العبسية . ولا تسعفنا سيرته . بدليل يرشدنا إلى شخصيتها .

والمرأة الرابعة في حياته ، من بحيلة ، تزوجها عنترة ، ورد ذكرها في ديوانه حينا لامته في فرس له كان يؤثرها على خيله ويطعمها ألبان إبله ، فقال : [6]

لا تذكري مهـري ومـا أطْعَمتُهُ فيكون جِلْدُكِ مثـلَ جلـدِ الأجربِ[7]

---

(1) مجمع الأمثال 2/ 244 ، ديوان المعاني لأبي هلال العسكري 1/ 110 ، شرح شواهد المغني 165 .
(2) عبده بدوي : الشعراء السود 231 - محمود الحفني : سيرة عنترة 32 .
(3) الديوان 121 .
(4) الأبلج : النقي ما بين الحاجبين ، والعرب تستحسن ذلك . ومهبل : ثقيل .
(5) الديوان 198 .
(6) الديوان 20 .
(7) فيكون جلدك مثل جلد الأجرب : يهددها بالبعد عنها وهجران فراشها .

إن الغَبُـوقَ له وأنتِ مسوءةٌ فتـأَوَّهي ماشئتِ ثم تَحَوَّبي[١]
كذبَ العتيقُ وماءُ شَنٍّ باردٍ إن كنتِ سائلتي غبوقاً فاذهَبي[٢]

والنتيجة التي يمكن أن تكون أقرب إلى الحقيقة أن عنترة لم يتزوج عبلة ، كما نشك في أنه تزوج غيرها ، بدليل أنه لم يرد ما يشير إلى أنه أنجب ، فقد أغفل الرواة ذكر أي ولد له ، ولعلنا نقترب من الحقيقة إذا خمنا أنه لم ينل حريته إلا بعد أن تقدمت به السن ، وشغل فترة من الزمن بحب عبلة ، وشغل باقي عمره بالحرب فعشقها ، فلم يتـزوج ووجـد عزاءه في انتصاراتـه وفروسيته التي طار ذكرها في الآفاق .

وقد عاش المرحلة الثانية من حياته يتنقل من معركة إلى أخرى ، لم يعرف حياة مستقرة . فقد شغلته كما شغلت قبيلته حرباً طويلة دامت أربعين عاماً .

وحينما نصل إلى نهاية هذا الفارس فإن الغموض يكتنفها أيضاً ، فقد اختلفوا في نهايته كما اختلفوا من قبل في نهاية المهلهل .

ففي رواية أبي الفرج عن أبي عبيدة وابن الكلبي أن عنترة أغار على بني نبهان من طيء فطرد لهم طريدة وهو شيخ كبير ، فجعل يرتجز ويقول :

آثارُ ظُلْمانٍ بِقاعٍ مُحْرِبِ

وكان وزر بن جابر النبهاني في فتوة فرماه ، فقطع مطاه ، فتحامل بالـرمية حتى أتـى أهله ، وأخبرهم عن قاتله :

وإنَّ ابنَ سَلْمَى عنـده فاعلمـوا دَمِي وهيهاتَ لا يُرجَى ابنُ سِلْمَى ولا دَمِي[٣]

وفي رواية ابن الكلبي أن الذي قتله هو الأسد الرهيص[٤] ، ولكن الآمدي يرفض هذه الرواية[٥] ، أما أبو عمرو الشيباني فيروي لنا أن عنترة غزا طيئاً مع قومه ، فانهزمت عبس ، فخرّ

---

(١) الغبوق شراب العشي . ومسؤة : محزونة . والتحوب : التوجع .
(٢) العتيق : التمر . والشن : القربة الخلق الصغيرة .
(٣) الأغاني / دار الكتب ـ ٨/ ٢٤٥ ـ وانظر أيضاً الإشتقاق / ١٦٦ .
(٤) الأغاني / دار الكتب ـ ٨/ ٢٤٥ .
(٥) الآمدي : المؤتلف والمختلف ١٣٨ .

عن فرسه ولم يقدر أن يعود فيركب من الكبر ، فدخل وغلاً ، وأبصره ربيئة طيء فنزل إليه ، وهاب أن يأخذه أسيراً فرماه[1] .

ويطالعنا أبو عبيدة برواية رابعة فيذكر بأن عنترة كان قد أسنّ واحتاج وعجز بكبر سنه عن الغارات ، وكان له دين على رجل من غطفان بكر ، فخرج يتقاضاه إياه ، فهاجت عليه ريح من صيف وهو بين شرح وناظرة ، فأصابته فقتلته[2] ، وكان ذلك بعد يوم جَبَلَة[3] .

والقدر المشترك بين هذه الروايات أن عنترة كان قد أسنّ عندما مات ، وأنه لم يمت في غارة أو معركة ، بل مات برمية سهم أو بريح ، وبمعنى آخر فهو لم يمت على فراش الراحة ، كما أنه لم يمت في ساحة قتال ، بل مات ميتة وسطاً بينهما . كما أن جميع الروايات لم تذكر أنه أسلم أو أدرك الإسلام ، بل إنه مات قبيل الإسلام .

أما سنة الوفاة فهي ضرب من التخمين، ومع ذلك فقد حددها بعض الباحثين بسنة ٦١٥ م[4] ، بينما جعلها آخر بين ٦٠٨ - ٦١٠م[5] .

شخصيته

اهتمت كتب الأدب بعنترة ، بل وأسرفت في ذكر اسمه ، واتخذته مثالاً للشجاعة والحب العفيف وروت الكثير من شعره ، إلا أن القليل من هذه الكتب اهتم بحياته وبذكر أخباره . وليس عنترة هو الوحيد الذي وصلتنا أخباره من العصر الجاهلي ، بل ويشاركه في تلك الصورة المضطربة الكثير منهم . ولعل السبب في ذلك أن الرواة كان اهتمامهم مركزاً على الشعر وحده ، فلم يكن يعنيهم إلا الشعر ، ولم يوردوا من أخبار الشاعر ومن لمحات حياته إلا ما يساعد على تفسير هذا الشعر وإلقاء بعض الضوء عليه .

---

(١) الأغاني / دار الكتب - ٨/ ٢١٥ .

(٢) الأغاني / كتب ٨/ ٢٤٥ ، الشعر والشعراء ١/ ٢٥٢ ، أسماء المغتالين لابن حبيب ٢١٠ ، الإشتقاق ١٦٦ ، خزانة الأدب ١/ ١٢٩ .

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ٢٥٢ .

(٤) تاريخ العرب - فليب حتي ١/ ١٢١ ، معلقات العرب - طبانه ١٨٢ ، تاريخ آداب اللغة العربية - جورجي زيدان ١/ ١٣٠ .

(٥) سيرة عنترة - محمود الحفني ٤٧ .

وقد دفع هذا الغموض الذي يحيط بحياة عنترة بعض الباحثين إلى رفض شعره وإنكار وجوده كإنسان حقيقي عاش في الجاهلية ، واعتبره شخصية أسطورية اتخذها الرواة والواضعون أساساً يستمدون منه مادة لقصصهم ومرجعاً ينسبون إليه أشعارهم المنحولة[1] .

وعلى الرغم مما أظهرته هذه الكتب من نقص في عرض حياته ، إلا أننا نستطيع أن نميز منها نقط إرتكاز نستطيع أن ننطلق منها ، وبالإستعانة بشعره الموثق ، لنرسم شخصية ذلك الفارس الشاعر ، فقد عرفنا أنه ولد من أمة حبشية اسمها زبيبة ، وأنه قضى فترة من حياته يعاني من هذه العبودية ، وأن أباه أجبر على إلحاقه بنسبه عندما احتاجت القبيلة إلى شجاعته ، وذكرت لنا بعض أخباره مع زوجة أبيه ، وحبه لعبلة ، ثم قفزت بنا إلى مقتله أو موته .

ونستطيع من خلال هذه الأخبار المبثوثة هنا وهناك ، ومن خلال شعره أن نتبين بعض العوامل التي أسهمت في تكوين شخصيته . وأول تلك العوامل عامل الوراثة فقد ولد عنترة لأم حبشية وأب عربي ، وبالتالي فقد اكتسب صفات من أبويه ، من أمه قوة البنية ، إذ لا نتخيل سيداً من سادات عبس يبني بجارية إلا إذا كانت من كمال الجسم ونضارته ما يجعله يُقبل عليها ، كما أخذ عن أمه الصفات الحامية ، ومنها قوة الإحتمال ، وصفة المراوغة ، كما اكتسب من أبيه قوة الجسم ، والصفات العربية الأخرى .

والعامل الثاني في تكوين شخصيته ، هو الفترة الأولى من حياته التي قضاها بعيداً عن أعين القوم يتدرب في الفلوات على أعمال الفروسية واستعمال السلاح ، يفعل ذلك كله وهو بمنأى عن أعين القوم الذين لم يكونوا ليسمحوا له بذلك . وقد أهلته هذه الفترة لتولي القيادة في معارك قومه فيما بعد ، كما كانت السبب في نيله حريته وإلحاقه بنسب والده .

والعامل الثالث الذي أثر في بناء تلك الشخصية هو عقدة اللون ، فعنترة أحد الأغربة ، لأن أمّه أمة سوداء ، وقد قضى الفترة الأولى من حياته مهملاً بسبب تلك العقدة ، وناضل من أجل التغلب على هذه العقدة ، فتدرب واتقن ركوب الخيل ، وصناعة الكر والفر ، وأجبر والده على إلحاقه بنسبه ، ولكن ذلك لم يمسح هذه الصفة من أذهان قومه ونفوسهم . فقد ظل يعاني منها حتى وهو في قمة إنتصاراته ، يحدثنا أبو عمرو الشيباني أن عبساً غزت تميماً وعليهم قيس بن زهير ، وطلبتهم تميم بعد أن انهزمت عبس ، فوقف لهم عنترة ، وحامى عن الناس ، فلم يصب مدبر . فساء قيساً ما صنع عنترة يومئذ وقال حين رجع : والله ما حمى الناس إلا ابن السوداء[2] .

---

(1) حديث الأربعاء ـ طه حسين ١/ ١٤١ .

(2) الديوان ١١٨ .

وكانت له منافرات مع بعض فرسان القبيلة الذين رفضوا الإعتراف له بالمنزلة التي اقتسرها منهم بفروسيته وشجاعته ، ومنهم عمارة بن زياد العبسي ، وبلغ الأمر بعنترة إلى هجاء عمارة عندما بلغه قول عمارة لقومه : إنكم أكثرتم ذكره ، والله لوددت لو لقيته خالياً حتى أعلمكم أنه عبد فقال عنترة مخاطباً عمارة[1] :

متى ما تَلْقَنِي فَرْدَيْنِ تَرْجُفْ ... رَوانِفُ أَلْيَتَيْكَ وتُسْتَطارا[2]

وسيفي صارمٌ قَبَضَتْ عليه ... أشاجِعُ لا ترى فيها إنتشارا[3]

وعلى الرغم مما لاقى من محاولة للتقليل من شأنه في قبيلته ، إلا أننا لا نسمع في شعره الصحيح النسبة إليه ، أي بيت يشير فيه إلى لونه أو عبوديته إلا هذا البيت[4] :

المالُ مالُكُم والعبدُ عبدُكُمُ ... فهل عذابُك عني اليوم مصروفُ

وقد قاله ضمن قصيدة نسبها الرواة إلى أنها قيلت عندما ادّعت سمية أو سهية زوجة أبيه أنه راودها عن نفسها ، فضربه ضرباً مبرحاً . ولكن قراءة القصيدة لا تشير إلى أن المخاطبة يمكن أن تكون زوجة أبيه ، بل هي معشوقة له لأنه يقول فيها[5] :

أمِنْ سُهَيَّةَ دمعُ العَيْنِ تذريفُ ... لو أنَّ ذا منكِ قبلَ اليومِ معروفُ

كأنَّها يومَ صَدَّتْ ما تُكَلِّمُني ... ظَبْيٌ بعُسْفَانَ ساجي الطرفِ مَطْروفُ

تجلَّلتني إذ أهْوَى العَصا قِبَلي ... كأنها صَنَمٌ يُعْتادُ مَعْكوفُ

وإذا ما اعتبرنا أن قصة هذه الأبيات ليست إلا من افتعال الرواة ، وأنها ليست زوجة أبيه ، فإن هذا البيت لا يشير إلى عبودية مادية ، بل إنه كعاشق لها أسير لها ، فالمال وهو ملك لها .

وإذن فنحن أمام احتمالات ثلاثة فيما يتعلق بعبوديته التي جرها لونه ، إما أنه لم يكن قيناً قط ، وهذا يخالف كل ما ورد عنه مؤكداً عبوديته ، وأنه انتزع حريته انتزاعاً من القبيلة ومن والده . وإما أنه لم يقل شعراً في تلك الفترة التي كان فيها قيناً ، ويجب أن نطمئن إلى ما ورد في

---

(1) الديوان ٧٥ .

(2) فردين : منفردين . والروانف : جمع رانفة وهي أسفل الألية . وتستطار : تذعر .

(3) أشاجع : جمع شجع وهو العظم الذي يصل الاصبع بالرسغ .

(4) الديوان ١٠٩ .

(5) الديوان ١٠٩ ـ الأغاني : دار الكتب ـ ٨/ ٢٣٧ .

معلقته وسبب نظمها ، وهذا ما رفضه جميع الباحثين الذين لم يتصوروا أن يكون أول شعر يقوله عنترة يكون قصيدة متماسكة طويلة مكتملة البناء الفني ، ولو أن هذا لم يمنع بعض الباحثين من قبول ذلك التعليل الساذج ، فأخذوا به وقالوا إنه لم يقل شعراً في تلك الفترة من حياته[1].

والإحتمال الثالث أنه ترفّع عن العبودية فرفض تسجيلها على نفسه في شعره . ونحن نميل إلى الإحتمال الثالث ، ونرى أن عنترة حاول أن يبرز في شعره مركزه في القبيلة في المرحلة الثانية من حياته ، فهو يقول في يوم الهباءة مصوراً جيش عبس[2] :

يقدّمُهُ فتــىً من خــيرِ عَبْسٍ ... أبــوه ، وأمــه من آلِ حامِ
عجوزٌ من بني حامِ بنِ نوحٍ ... كأن جبينهــا حَجَــرُ المقامِ

فهو قائد جيش عبس ، وأبوه من خير عبس ، وأمه لم يخف نسبها فهي من آل حام .

ويقول في موضع آخر عندما حاول قيس بن زهير أن يتنقص مما فعله يوم هزمتهم تميم[3] :

نــاديتُ عبســاً فاستجابــوا بالقنَا ... وبــكلِّ أبيضَ صارمٍ لمَ يَنْجَلِ

فهو قائدهم يناديهم فيجيبوه ، ويتقدمهم للهجوم على الأعداء ، إلا أننا نسمعه في موضع آخر يتحدث عن بطولته فيقول :

يدعــونَ عنتــرَ والرِّمــاحُ كأنها ... أشطــانُ بئــرٍ في لَبَــانِ الأدهمِ

ثم يردفه ببيت آخر يكشف عما كان يعاني من ألم بسبب تنكر قبيلة عبس له ، وعدم إعترافهم الفعلي به كنّد لهم فيقول :

ولقــد شَفَــى نفسي وأبــرأ سُقْمها ... قيلُ الفــوارسِ ويك ، عنتــر أقدِمِ[4]

وتشبهاً بالسادة ، سادة عبس ، وهروباً مما يعانيه ، ركز على صفة من صفاتهم وهي معاقرة الخمر ، فذكرها في شعره ، ولكنه لا يفقد وعيه ، فعرضه وافر لم يكلم[5] :

(١) الزيات : تاريخ الأدب العربي ٤٨ ـ حسن القرشي : شاعر بني عبس ٣٥ .
(٢) الديوان ١٥٦ .
(٣) الديوان ١١٨ .
(٤) الديوان ١٥٣ .
(٥) الديوان ١٤٨ ـ ١٤٩ .

ولقــد شربــتُ من المُدامة بعدَما ... ركد الهواجرُ بالمَشــوفِ المُعْلَمِ (١)

بزجاجــةٍ صفــراءَ ذات أسرَّةٍ ... قُرِنَتْ بأزهَــرَ في الشِّمال مُفَدَّمِ (٢)

فــإذا شربــتُ فإنني مُسْتَهْلِكٌ ... مـالي وعـرضي وافـرٌ لم يُكْلَمِ (٣)

وتبقى بعد ذلك مشكلة تؤرقه وتلك مشكلة النسب ، فهو هجين نصفه غير عربي ، ولم يخف ذلك في شعره ، بل أظهره وحاول إقناع نفسه والناس بأنه بفعاله خير من مُعِمٍّ مخول ، وبأن نصفه عبسي ، والنصف الآخر حامي ولكنه بفعاله يحمي شطره الآخر من قبل أمه :

إني امرؤٌ من خيرِ عبسٍ منصباً ... شطري ، وأحمي سائري بالمُنْصلِ

ويقول في نفس القصيدة :

وإذا الكتيبةُ أحْجَمَتْ وتلاحَظَتْ ... أُلفيتُ خـيراً من مُعِــمٍّ مُخْوِلِ (٤)

وهو يهجم على الأعداء وهو يرتجز معترفاً بنسبه من جهة أمه فيقول :

أنــا الهجــين عنترهْ ... كل امــرىءٍ يحْمـي حِرَهْ (٥)

وهكذا نرى أن عقدة اللون جرّت عليه عبوديته والأعمال الحقيرة التي كان يقوم بها في الفترة الأولى من حياته ، كما جرّت عليه طيلة حياته تعالي السادة البيض عليه . ونستطيع أن نعدّ من آثارها السلبية عليه أنها أثرت في علاقاته مع المرأة ، ولكنها كانت خيراً عميماً لأنها أعطته نوعاً من التحدي ، ذلك التحدي الذي خلق منه فارساً متميزاً ، لم يكن نبراساً لفرسان العصر الجاهلي ، بل نموذج الفارس العربي على مر العصور ، وإلاّ لما كان الرسول ﷺ يقول «ما وصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه إلاّ عنترة» (٦) .

---

(١) ركد الهواجر : ركدت الشمس وقام كل شيء على ظله . والمشوف : الدينار والدرهم ، وقيل : الكأس ، وقيل : البعير المهنأ . ومعلم : فيه علامه .

(٢) ذات أسرة : ذات طرائق وخطوط . وأزهر : ابريق من فضة أو رصاص ومفـدم : مشـدود فمـه بخرقة .

(٣) يكلم: يجرح .

(٤) الديوان ١١٩ .

(٥) الديوان ٩٢ .

(٦) الأغاني ـ دار الكتب ـ ٨/ ٢٤٣ .

والعامل الرابع الذي طبع شخصيته بطابع مميز ، **هو حبه لعبلة** ، ذلك الحب الذي رأى فيه بعض الباحثين[1] ظاهرة مرضية أخذت على الشاعر كل أقطار نفسه ، وهو حب كأنه نوع من السقم ، لأنه شقي به أكثر مما سعد ، وكانت عبلة تسمعه ما يكره ولم تكن تحفظ عهوده . بينما يرى فيه باحث آخر[2] طريقاً سلكه لبلوغ مآربه وهو الأرتفاع إلى مستوى أبناء السادة الأحرار ، فقد وجد المرأة العربية طريقاً يسلكه ، فبدأ بزوجة أبيه وراودها عن نفسها ، ثم بدأ يتغنى بحبه لعبلة . وقد فعل كل ذلك للتغلب على عقدة النقص التي يعاني منها .

ونحن نميل إلى أن المرأة كانت حافزاً له لا نوعاً من السقم ، وأنه شغل بالفروسية أكثر مما شغل بالمرأة ، ولم يكن يعنيه جسد المرأة بقدر ما يعنيه الجانب الروحي ، وربما كان يحس أن المرأة الحرة تتعالى عليه ولكنه لم يكن يتذلل لها ، ولم يصلنا من شعره ما يشعرنا بذلك . وقد نسيها في غمرة انتصاراته . لقد شغلته حروبه ومحاولة إثبات وجوده عن أي شيء آخر . ولا ننفي أنه أحب عبلة ، ولكننا ننفي أن تكون شغله الشاغل . ولعل الذين حاولوا إبراز موضوع حبه قد تأثروا بكاتب سيرته الذي ركز على حبه ومر بحرب داحس سريعاً .

والعامل الخامس الذي أثر في شخصيته هو الشعر ، فالشعر كان سلاحه كما كان فرسه وسيفه ورمحه وسلاحه ، يدافع به عن نفسه وعن قبيلته ، كما يدافع بالسلاح ، ويصور به مواقفه مع قبيلته في صراعها معه وصراعه معها كما يصور به بطولاته ، وخلجات نفسه . ولم يصلنا عنترة عبر العصور بهذه الصورة الواضحة المعالم لولا شعره ، فقد كان شعره عاملاً هاماً من العوامل التي أوضحت الكثير من جوانب شخصيته . وهو عند أحد الباحثين[3] سلماً ارتقى به إلى درجة السادة ، وحل به عقدة كان يعاني منها . ولكننا نرى أن هذا الشعر كان وسيلته إلى التأثير على السامعين وإلى نشر مآثره بين الناس . بل لقد هدّد بهذا الشعر حين توعد بني العُشَراء الذين قتلوا قرواشاً فقال :[4]

سيأتيكمُ عنّي وإن كنتُ نائياً ... دخانُ العَلَنْدِي دونَ بيتي مِذْوَدُ[5]
قصائدُ من قيلِ امرىءٍ يحْتَذيكمُ ... بني العُشَرَاء فارتدوا وتقلَّدُوا[6]

---

(1) عبده بدوي : الشعراء السود ۲۲۸ .
(٢) محمود حفني : سيرة عنترة ٥٧ .
(٣) محمود حفني : سيرة عنترة ٥٧ .
(٤) الديوان ٤٧ ـ ٤٨ .
(٥) العلندي : ضرب من شجر الرمل وليس بحمض له دخان شديد . ومذود : لسان يعني الهجاء .
(٦) يحتذيكم : احتذى فلان النعل : اذا انتعله ، ويحتذيهم بالذل : يحقر من شأنهم فكأنهم منه موطىء النعل، وبنو العشراء : الذين قتلوا قرواشاً العبسي .

وعندما حاول قيس بن زهير أن يغض من شأنه كان شعره سلاحه . وعندما عرّض به عماره بن زياد كان الشعر سلاحه أيضاً يعرّض به بأبن زياد . وكذا فإن الشعر لا ينظمه إلا العربي الذي ينتمي إلى الأرومة العربية ، والفارس الذي قضى معظم عمره ممتطياً صهوة جواده . وبذا فإن هذا الشعر كان درعاً واقياً له كما كان سيفه وفرسه ورمحه .

وبعد هذا العرض السريع للعوامل التي أثرت في تكوين شخصيته يحق لنا أن نتساءل ما الشخصية التي كونتها تلك العوامل ؟ ونستطيع الاجابة عن هذا التساؤل بشيء من التركيز لأننا سنعرض لبطولته في موضع آخر فنقول إن هذه العوامل خلقت لنا فارساً عربياً أنموذجاً للفارس في ذلك العصر وقدوة للأجيال التي تلته . فهو يجمع بين عوامل الفروسية المختلفة ، قوة في الجسم ، وحسن استعمال للسلاح بالمران والدربة ، وخبرة شديدة اكتسبها بالمران بعيداً عن أعين الرقباء ، ثم استكمل بناءها في ساحات القتال . أي أنه جمع بين القوة الفطرية والقوة المكتسبة ، كما أنه أضاف إليها قوة فكرية تدل عليها تلك النصوص المتناثرة التي تصوره لنا فارساً يحسن الأمر وليس بالفارس المتهور الذي يعتمد على القوة الجسمية فحسب .

كما تتميز فروسيته بأنها كانت تسندها قوة أخرى لا تقل أهمية عنها ، ونعني القوة القولية وملكة الشعر التي أسهمت إلى حد كبير في نقل أحاسيس هذا الفارس في شتى المواقف إلى الناس ، كما أنها مكنته من الدفاع ضد كافة الخصوم من داخل القبيلة وخارجها ، كما أسهمت في إنصافه .

وتتميز فروسية عنترة بالمثل العليا والقيم التي كان يحرص عليها ، فهو يكره الظلم ، سهل الخليقة إلا إذا ظلم فإذا ظلم فإنه يغدو إنساناً آخر ، وهذا يتمشى مع خط الفروسية الذي يحارب الظلم :(1)

أثني عليَّ بمـا علمـتِ فإنني ... سَهْـلٌ مُخالَقتـي إذا لَمْ أُظْلَمِ
فـإذا ظُلِمْتُ فإن ظلمي باسلٌ ... مُـرٌّ مذاقتُـهُ كطعْـمِ العَلْقَمِ

وعنترة الفارس يقدم على الحرب غير هيّاب ولكنه يعف عند المغنم ، فلا همّ له إلا تحقيق النصر :(2)

يخبـركِ مَنْ شَهِـدَ الوَقيعـةَ أنني ... أغشَى الوغَى وأعفُّ عندَ المَغْنَمِ (3)

---

(1) الديوان ١٤٨ . (2) الديوان ١٥٠ .
(3) الوقيعة : الوقعة . والوغى : الصوت والجلبة ثم غلب الصوت في الحرب .

فـأَرَى مغانـم لو أشـاءُ حويتُها   فيصدُّنـي عنهـا الحَيا وتكَرُّمي

وهو حين يقدم بعد اقتناع فإنه لا يندم بعد ذلك على فعلته :[١]

وإذا حملتُ على الكريهةِ لم أقُلْ   بعدَ الكريهـةِ ليتَنـي لم أفْعَلِ

والفارس ينبغي أن يكون عفيف اللسان لا يشتم الناس في أعراضهم ، فساحة الوغى هي الفيصل :[٢]

ولقد خشيتُ بأنْ أموتَ ولم تَدُرْ   للحربِ دائرةٌ على ابنَيْ ضَمْضَمِ[٣]

الشاتِمي عِرْضِي ولـم أشتِمْهُما   والنـاذِرَيْن إذا لقيتُهما دَمي

والفروسية تتطلب العفة في كل شيء ، كما تتطلب نفساً أبية تترفع وتصبر ولا تذل أبداً :

ولقد أبيتُ على الطَّـوَى وأظلُّهُ   حتـى أنـالَ به كريمَ المأكَلِ

وهذا البيت هو الذي جعل النبي ﷺ يقول عند سماعه له[٤] : ما وصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه إلاّ عنترة . وترتبط الفروسية بالكرم ، فالكرم من شمائل الفارس ، وهذا عنترة يقول :[٥]

وإذا صَحَـوْتُ فما أُقصِّرُ عن نَدى   وكما علمـتِ شمائِلي وتَكَرُّمي

وهو لم يكن كريماً بالقول فحسب ، بل إن رواة ديوانه يحدثوننا أنه كان لا يكاد يمسك إبلاً حتى يعطيها إخوته ويقسمها في الناس[٦] .

ويقف أمام المرأة هذا الموقف الكريم نفسه ، فكثيراً ما كان يسبي النساء ، ولكنه لم يكن يراود السبية عن نفسها ، بل يدع لها حريتها لتقبله زوجاً أو ترفضه ، فإذا ما قبلته أدى إلى أهلها صداقها[٧] :

---

(١) الديوان ١٢٠ .
(٢) الديوان ١٥٤ .
(٣) ابنا ضمضم : هرم والحصين .
(٤) الديوان ١١٩ ـ وانظر حاشية الصفحة نفسها .
(٥) الديوان ١٤٩ .
(٦) انظر مقدمة القصيدة الرائية ص ٧٥ ـ وشرح معلقته لابن الأنباري ـ والشعر والشعراء ١/ ٢٥١ .
(٧) الديوان ١٨٥ .

مـا استَمْـتُ أنثـى نَفْسَهـا في موطـن   حتـى أوَفيَّ مَهْرَهـا مَوْلاها[1]

وهو يحدثنا أنه دائماً يغض الطرف عن جاراته حتى لا يؤذيهن بنظراته :[2]

وأغض طَرْفي مابَدَتْ لِي جارتي   حتـى يُواري جارتـي مأواها

وهو إنما يفعل ذلك فلأنه لا يتبع هوى النفس ، بل يكفها ويفطمها عن هذا المأرب أو ذاك الذي قد يلتمسه صغير النفس . وكان عنترة بفعلته هذه إنما يبدو وكأنه « عاهد نفسه الكريمة أن يرد للسبية اعتبارها وكرامتها أولاً قبل أن يقربها ، وأما امرأة جاره فإن وفاءه له جعله لا يمد عينه إليها» وهذا « قمة المجد النفسي الخلقي الذي لا يقل روعة عن المجد الحربي الذي أحرزه» [3]

والفارس الأبي ليس بأناني فإذا ما دعاه فارس مكروب لنجدته لبّاه ، فليس المهم أن يحقق النصر لذاته بل ينبغي الترفع عن الأنانية ، فقد حدّث عن يوم شِعْب جَبَلة فقال مصوراً ذلك :[4]

ومكروب كشفتُ الكَرْبَ عنه   بضربـةِ فَيْصَـلٍ لمّا دَعاني
دعاني دَعْوَةً والخيلُ تَجْري   فما أدري أباسْمي أم كَناني

إلى أن يقول لنا ما فعله :

ففرَّقْـتُ المواكبَ عنـه قَهْراً   بطعن يَسْبِـقُ البَـرْقَ اليمَاني

وتختلط الحماسة بالحب في حياة عنترة وفي شعره ، فهو أبداً على صهوة جواده يكتوي بنار الحرب ويذيق الأعداء طعم الردى ، ولكنه أبداً يذكر عبلة ويقرن ابتسامة ثغرها بصورة ماثلة أمامه هي صورة بريق السيف حينما يمتشقه الفارس :[5]

ولقـد ذكرتـكِ والرمـاحُ نواهلٌ   منّي وبيضُ الهِنْدِ تَقْطُرُ مِنْ دَمي
فـوَدِدْتُ تَقْبيلَ السيوفِ لأنها   لَمَعَتْ كبـارقِ ثَغْـرِكِ المُتَبَسِّمِ

ويصف الدكتور طه حسين عنترة فيقول « وفي عنترة معنى الرجولة الكاملة ، فهو رقيق رقة لا تنتهي إلى الضعف ، وهو شديد دون انتهاء إلى العنف ، وصاحب شراب دون الإفراط إلى

(١) استام الأنثى : راودها عن نفسها . ومولاها : سيدها .
(٢) الديوان ١٨٥ .
(٣) شوقي ضيف : البطولة في الشعر العربي ٣٠ .
(٤) الديوان ١٧٨ .
(٥) الديوان ١٥٠ .

إفساد الخلق والمرؤة وصاحب صحو دون أن ينتهي به الصحو إلى التقصير عما ينبغي للرجل الكريم من العطاء ، وهو مقدام إذا كانت الحرب ، عفيف إذا قسمت الغنائم»[1].

ويعتبر الدكتور شوقي ضيف تجسيد معاني البطولة الحربية والنفسية والخلقية في أشعاره السبب في تنصيب العصور التالية لعصره تمثالاً للبطولة العربية وكأنه أصبح الناطق عن شعاراتها[2].

عنترة بطل عبس في حروبها

خلصنا آنفاً إلى أن عنترة قد تضافرت عدة عوامل في تكوينه الفروسي ، فغدا فارساً معلماً ، ومثالاً يحتذى في الأجيال التالية له ، ولكن الأمر يحتاج إلى وقفة لنرى مدى اعتراف قومه بفروسيته وبزعامته لهم في المعارك التي خاضوها ضد خصومهم . وسوف نعرض لثلاث مجموعات من وجهات النظر لنخلص في النهاية إلى نتيجة نقيس عليها ونطمئن إليها .

١ ـ قال أبو عمرو الشيباني « غزت بنو عبس بني تميم وعليهم قيس بن زهير ، فانهزمت عبس ، وطلبتهم تميم ، فوقف لهم عنترة ، ولحقتهم كبكبة من الخيل فحامَى عنترة عن الناس . فلم يصب مدبر ، وكان قيس سيدهم ، فساءه ما صنع عنترة يومئذ . فقال حين رجع « والله ما حمى الناس إلاّ ابن السوداء . وكان قيس أكولاً . فبلغ عنترة قوله ، فقال يعرِّض به» [3]

٢ ـ وورد في مقدمة المعلقة « وجلس عنترة يوماً في مجلس بعدما كان قد أبلى واعترف به أبوه وأعتقه فسابه رجل من بني عبس وذكر سواده وأمه وإخوته . فسبه عنترة وفخر عليه وقال فيما قاله له : إني لأحضر البأس وأوفي المغنم ، وأعف عند المسألة ، وأجود بما ملكت يدي ، وأفضل الخطة الصماء . .» [4] .

٣ ـ واستلاط عنترة نفر من قومه ونفاه آخرون ، ففي ذلك يقول عنترة قصيدته يعدّد فيها بلاءه وآثاره عند قومه[5] .

---

(١) حديث الأربعاء ـ طه حسين ١/ ١٥١ .
(٢) البطولة في الشعر العربي ـ شوقي ضيف ٣٠ .
(٣) مقدمة القصيدة في الديوان ١١٨ .
(٤) شرح القصائد السبع الطوال ٢٩٣ .
(٥) مقدمة قصيدة في الديوان ١٩٠ .

٤ ـ وجاء في مقدمة قصيدة له في الديوان « وكانت بين عنترويين عمارة بن زياد ملاحاة . فقال يذكر أيامه التي كانت له في حرب داحس والغبراء ، ويذكر يوماً انهزمت فيه عبس فثبت من بين الناس ، فمنع الناس حتى تراجعوا ، وكأن عبساً أرادت النزول ببني سليم في حرثهم . فبلغ ذلك حذيفة بن بدر الفزاري . فتبع بني عبس فهزمهم واستنقذ ما كان في أيديهم . فلم يزل عنترة دون النساء واقفاً حتى رجعت خيل عبس ، وانصرف حذيفة حتى انتهى إلى ماء الهباءة . . . »[1] .

٥ ـ وجاء في الأغاني « سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الحطيئة : كيف كنتم في حربكم ؟ فقال الحطيئة : كان قيس بن زهير فينا ، وكان حازماً ، فكنا لا نعصيه . وكان فارسنا عنترة فكنا نحمل إذا حمل ونحجم إذا أحجم »[2] .

٦ ـ وجاء في الأغاني «قيل لعنترة: أنت أشجع العرب وأشدها؟ قال: لا . قيل: فبم إذاً شاع لك هذا في الناس ؟ قال : كنت أقدم إذا رأيت الإقدام عزماً ، وأحجم إذا رأيت الإحجام عزماً ، ولا أدخل إلاّ موضعاً أرى لي منه مخرجاً ، وكنت اعتمد الضعيف ، فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأثني عليه وأقتله»[3] .

٧ ـ ويقول عمرو بن معد يكرب « ما أبالي من لقيت من فرسان العرب ما لم يلقني حرّاها وهجيناها ، يعني بالحرين عامر بن الطفيل وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، وبالعبدين عنترة والسُلَيْك» [4] .

٨ ـ ويقول عنترة :

ناديت عبساً فاستجابوا بالقنا   وبكل أبيضَ صارمٍ لم يَنْجَلِ [5]

٩ ـ ويقول أيضاً

يقدمه فتىً من خير عبسٍ   أبــوه ، وأمــه من آلِ حام [6]

١٠ ـ ويقول أيضاً

---

(١) الديوان ١٥٦ .
(٢) الأغاني/ كتب ٨/ ٢٤٤ .
(٣) الأغاني/ كتب ٨/ ٢٤٤ .
(٤) الأغاني/ كتب ٨/ ٢٤٦ .
(٥) الديوان ١١٩ .
(٦) الديوان ١٥٩ .

ولقد شَفَى نَفْسي وأَبرأ سُقْمَها   قيلُ الفوارسِ وَيْكَ عنتر أقـدِم[1]

**

فنحن أمام نصوص مختلفة، ولكنهـا في حقيقة أمرها يمكن ردها إلى مجموعـات ثلاث، المجموعـة الأولى تلك التـي تشـير إلى عدم اعتراف قوم عنترة ببطولته وقيادته لفرسانهـم في الحروب، ولكنها تعترف ضمناً له بهذا الشرف، ففي النص الأول كان قيس بن زهير عليهـم وكان سيدهـم، وإذاً فما مركز عنترة؟ أغلب الظن أن الأيام في الجاهلية كانت تتطلب رئيساً للقـوم في اليوم كما يكون لليوم فرسانه الذين يقودون المقاتلين وتبقى للرئيس صفـة الرئاسـة والمشورة. ولـكن قيسـاً ساءه أن يكون عنتـرة العبد هو الذي دافع عن الناس.

وفي النص الثاني ما يشير الى بطولة عنترة التي أجبرت أباه والقوم على الحاقه بهم، ولكنه يشير إلى أن بعض القوم يرفض الاعتراف له بذلك. وفي النص الثالث كذلك ما يشير إلى أن قوماً من قبيلته رفضوا الاعتراف به نداً لهم وحاولوا الانتقاص من شأنه مما جعله يرحل عن عبس، ولكنه ذكرهم بمناقبه وببلائه في الحروب.

ويرينا النص الرابع خصماً آخر لعنترة هو عمارة بن زياد اخو الربيع بن زياد أحد قادة حرب داحس فهو يرفض الإعتراف لعنترة بالفضل مما جعل عنترة يعدد لهم بطولاتـه في حرب داحس والغبراء.

تلك هي نصوص المجموعة الأولى وهي تبين لنا مدى تعنُّت القوم ورفضهم الإعتراف بفضله وبشجاعته وببطولته اعترافاً رسمياً، ولكنهم يعترفون بذلك اعترافاً واقعياً، فهو اعتراف منتزع منهم رغماً عنهم.

وإذا ما انتقلنا إلى النصوص التي يرويها فريق منصف من قومه ومن خارج حدود قبيلته، فإننا نجد الحطيئة يعترف بقيس بن زهير سيداً لهم يطيعونه إن أبدى رأياً أو مشـورة، ولكنـه يضيف بأن عنترة كان فارسهم المقدم عليهم، ولم يكن فارساً فحسب بل فارساً محنكاً يعرف متى يحمل على الأعداء ومتى يحجم عنهم، وكان فرسان قومه يطيعونه. فهم يطيعونه كما يطيعون قيس بن زهير كل في حدود اختصاصه.

ولهذا النص أهمية كبرى في أنه يؤكد وجود عنترة كشخصية تاريخية حقيقية، كما يؤكد أن

(1) الديوان ١٥٤.

عنترة كان في تلك الحروب حراً كواحد منهم وإلاّ لما سمح له بقيادتهم ، فالعرب لا تسمح لعبد بقيادة فرسان القبيلة .

أما النص السابع فهو اعتراف من خارج حدود القبيلة بفروسية عنترة لأنه يأتي من فارس زبيد عمرو بن معد يكرب الذي أدرك الإسلام وأسلم وأبلى في حرب الفتوح الأسلامية .

أما المجموعة الثالثة فهي نصوص على لسان عنترة ، ومن البديهي أن يحاول عنترة فيها إثبات ما حاول بعضهم إنكاره ففي النص السادس يرفض عنترة الفارس المتواضع أن يعترف بأنه أشد العرب وأشجعها، ولكنه حينا يسأل عن السر في شهرته وفروسيته يجيب بأنه كان فارساً محنكاً ذا تجربة ، فهو يقدم حين ينفع الإقدام، ويحجم إن رأى فيه عزماً ، ولا يضع نفسه في موضع إلاّ إذا عرف كيف سيخرج منه ، كما يعتمد التأثير النفسي في القتال، فهو يعتمد التأثير لأنه يختار فارساً عادياً فيقتله بضربة شديدة مما يؤثر في نفسية الشجاع فترتعد فرائصه مما يمكّن عنترة منه . ويمعنى آخر فإن عنترة يجمع القوة الجسمية الى استعمال الفكر والتدبير للأمر والتخطيط له، ثم يضيف إليها التأثير في الأعداء .

أما النصوص الثلاثة الأخيرة ففيها تقرير من عنترة بأنه كان قائد فرسان قومه في لقاءاتهم مع الأعداء ، بلا منازع ، وأن ذلك عزاءه الوحيد ، والذي يشفي نفسه من عقدتها .

ويحدثنا ابن حزم أن عُوَيمر بن عدي بن ربيعة فارس بني عقيل دعا عنترة إلى المبارزة قائلاً له : أبرز إلي ، أيها العبد ، فإن قتلتك فلأخيفن أصحابك بعدك ، وإن قتلتني رجعت بإبل قومي ، فلم يقدم عنترة على مبارزته . .[1] .

وهذا النص لا يشير إلى جبن عنترة بقدر ما يؤيد ويؤكد سياسته بأنه لا يقدم إلاّ حين يكون الإقدام عزماً ، كما أنه اعتراف غير مباشر بزعامة عنترة لفرسان عبس لأنه إن قتله فليخيفن أصحابه بعده .

ويذكر عامر بن الطفيل في قصيدة له أن عنترة فرّ في غارة لعامر على بني عبس تاركاً عبلة وعيره بذلك فقال :[2]

ونجـا بعنتـرة الأغـرُّ من الرَّدَى   يهـوي على عَجَـلٍ هُوِيَّ الأجْدَلِ[3]

(١) ابن حزم : جهرة أنساب العرب ٢٩٠ - ٢٩١ .
(٢) ديوان عامر بن الطفيل ٩٣ .
(٣) الأغر : فرسه . وهوهويا : انحط في المضي ، انقضى . والأجدل : الصقر .

وتركتَ عبلةَ في السواء لفتية   باتوا على كُتُفِ الخيولِ الجُـوَّلِ[1]

وفي هذين البيتين ، إن صحت نسبتهما إلى عامر بن الطفيل ، اعتراف بقيادة عنترة لفرسان عبس ، لأنه لم يكن متزوجاً من عبلة حتى يكون مسؤولاً مباشراً عنها ، وإلاّ فالمسؤولية له قائد فرسان القبيلة المسؤولين عن حماية الحمى ونساء القوم ونعمهم . وتبقى مسألة فراره ، فهي تحتمل الصدق والكذب . فربما كان عنترة خارج الحمى في غارة مع فرسان عبس ، فجاء عامر وفرسانه والحي خلوف ، وربما وجد عنترة في ترك ساحة القتال غير المتكافىء بسبب عنصر المفاجأة ، الفرصة في انقاذ أرواح فرسان قومه .

وننتقل بعد هذا إلى الحديث عن حرب داحس ، قبل أن نمضي في الحديث عن مشاركة عنترة في حروب قومه .

حرب داحس والغبراء :[2] .

قبل أن نخوض في ذكر هذه الحرب التي دامت أربعين عاماً نود أن نشير إلى بعض الملاحظات ، وأولها أن أخبار هذه الحرب تخضع ، مثل غيرها من الحروب في ذلك العصر ، لخلافات كثيرة في الجزئيات ، فليس هناك اتفاق على افراس السباق ولا على عدد المعارك وأسماء القتلى والقاتلين . ومع أن هذه الحرب جرّت اليها جميع رجال القبيلتين فهي لم تعد رجالاً يفكرون بحكمة وتعقل يسعون للصلح فكانت خاتمتها مشهودة يوم وقف المربون يدفعون من أموالهم ديات القتلى التي بلغت ثلاثة آلاف بعير .

وقد أكثر شعراؤهم من ترديد إسم بغيض في قصائدهم متوخين تذكير القوم برابطة الدم والقرابة لأن بغيضاً كان أبا عبس وذبيان وأنمار، فالنابغة الذبياني يقول :[3]

صبـراً بغيضَ بنَ رَيْثٍ إنهـا رَحِـمٌ   حُبْتُـمْ بهـا فأناخَتْـكُمْ بجعجَـاعِ

---

(١) السواء : الوسط ، أي بينهم . والجول : من الجولان .

(٢) اعتمدنا في دراسة هذه الحرب على المصادر التالية : أمثال الضبي ٢٦ ـ ٤٤ الأغاني/ دار الكتب ـ ١٧/ ١٨٧ ـ ٢٠٨ ـ النقائض ١/ ٨٣ ـ ١٠٨ ـ إبن قتيبة : المعارف ٦٠٧ ـ إبن الأثير : الكامل في التاريخ ١/ ٥٦٦ ـ ٥٨٣ العقد الفريد ٥/ ١٥٠ ـ ١٥٩ ـ ابن رشيق : العمدة ٢/ ٢٠٢ ـ ٢٠٧ الميداني : مجمع الأمثال ٢/ ٥٣٣ ، ٥١٩ ـ خزانة الأدب ١/ ١٢٨ ـ نهاية الأرب ١٥/ ٣٥٦ وما بعدها ـ البكري : معجم ما استعجم ٢/ ٥٣٢ ، ٣/ ١٠٢٤ ، ٢/ ٣٦٥ .

(٣) ديوان النابغة/ تحقيق شكري فيصل ٢١٦ .

ويكرر ذلك قيس بن زهير فيقول :[1]

فيا ابني بغيض راجعا السلمَ تَسْلَمَا ... ولا تُشْمِتا الأعداء يفترقِ الشَّمْلُ

وقد كانت ذبيان قبيل هذه الحرب تدير حروباً داخلية بين عشائرها بالإضافة إلى حربها مع عبس التي نشبت وما زالت الخلافات قائمة ، في حين كانت عبس متماسكة ، ومن المحتمل أن يكون مرد ذلك إلى قوة العائلة الحاكمة في عبس .

وإذا ما بحثنا في بطون الكتب التي اسعفتنا بأخبار القبيلتين عبس وذبيان فإننا لا نكاد نعثر على غارة بينهما قبل حرب داحس .بل إننا نجد ذبيان تثأر لعبس عندما أغارت عليها بنو جشم، وقتل في تلك الغارة عبد الله بن الصمة ، وذكرها عنترة في شعره فقال :[2]

فـإن يكُ عبـدُ اللـهِ لاقَـى فوارساً ... يردون خالَ العـارضِ المُتَوَقِّدِ[3]

فقـد أمكنـتْ منـكَ الأسنـةُ عانياً ... فلـم تَجْـزِ إذ تَسْعَـى قتيلاً بِمَعْبَدِ[4]

وارتبط رجالاتهم مع بعض في علاقات اجتماعية طيبة ومصاهرة،وقد رأينا أن الحارث بن ظالم المري قتل خالد بن جعفر قاتل زهير بن جذيمة ، وكانت كل منها تعتبر ما يلحق الأخرى من أذى أو عار هو عارها أو أذى يلحق بالقبيلتين . ويمكننا تلخيص العلاقة بينهما بأنها كانت علاقة دم وجوار . ولكن تلك العلاقة كان يشوبها ما نشب بينهما من تحاسد وتنافس على السيادة .

وهكذا فقد كانت أسباب الصراع بين القبيلتين مهيأة ، فالتنافس بينهما ، وضغط العامل الاقتصادي الذي كانت تعاني منه القبائل العربية ، والذي كان يشتد بسبب التجاور والخلاف على موارد الماء والكلأ .

وقد كان الرهان بمثابة الشرارة التي أشعلت نار الحرب بين القبيلتين بين قيس بن زهير وحذيفة بن بدر ، ولن نخوض في تفاصيل ذلك الرهان ومقداره واختلاف رواياته ، وإنما يعنينا أن ذلك الرهان كان الإشارة التي أعلنت بدء الحرب بينهما فقد كان المفروض لو جرى الفرسان

---

(1) الميداني : مجمع الأمثال ٢/ ٢٤٤ .

(2) ديوان عنترة ٤٦ - الشعر والشعراء ٢/ ٧٥٢ .

(3) الخال: لواء الجيش . والعارض : ما سد الأفق من الجراد والنحل ، يريد به الجيش . والمتوقد : الذي له مضاء ونشاط .

(4) العاني : الأسير .

دون تصدي كمين فزارة لأحدهما أن يسبق فرس قيس بن زهير ، ولكن النتيجة اختلفت وأحست عبس بأنها أهينت ، وطالبت بالرهان فرفضت فزارة ، ولم ترفض وحسب بل طالبت هي بالرهان .

وقد مال القوم إلى تجنب الحرب ، فطلب زهير ولو ناقة واحدة ينحرها فيطعم الناس حتى لا يقال إنه ظلم ، وهمَّ بعض بني فزارة بإعطاء عبس ناقة ولكن قومه منعوه ، وعندما قتلت عبس إبن حذيفة الذي ذهب يطالب بالرهان دفع الربيع بن زياد العبسي ديته لفزارة حسماً للنزاع . وعندما قتلت فزارة مالك بن زهير طالبتهم عبس بالدية التي دفعوها دية لابن حذيفة رفضت فزارة .

ونستمع إلى سيد عبس ، وقائدهم في تلك الحرب ، وهو قيس بن زهير يتنصل من مسؤولية عبس عن إشعال تلك الحرب فيقول :(١)

إن تكُ حربٌ فلم أجْنِها جَنَتْها صُبارَتُهُمْ أو هُمُ

ويقول بعد مقتل حَمَل بن بدر يوم الهَباءة :(٢)

فلا كانت الغَبْرا ولا كان داحسٌ ولا كان ذاكَ اليومَ يوم رهانِ

وعندما حالفت عبس إحدى القبائل ، وطالبهم القوم بدية حليف ، قال قيس ساخطاً على تلك الحرب التي جعلتهم يرتحلون عن ديارهم :(٣)

لَحَى الله قوماً أرَّشوا الحربَ بيننا سَقَوْنا بها مُرّاً من الشرب آجِنا(٤)

وهذا شاعر آخر من عبس يشير إلى ذلك الرهان النحس فيقول :(٥)

إن الرِّباطَ النكد من آلِ داحسٍ جَرَيْنَ فلم يُفْلِحْنَ يومَ رِهانِ(٦)

وتخطف الحرب ابن حذيفة بن بدر ، وتبكيه أمه أم قرفة ، ولا تنسى الرهان وما جلبه من ويلات فتقول :

---

(١) امثال الضبي ٣٢ .
(٢) ياقوت : معجم البلدان ٨/ ٤٤٠ .
(٣) امثال الضبي : ٣٨ .
(٤) أرشوا : أشعلوا . وآجن : ماء فاسد متغير اللون والطعم .
(٥) امثال الضبي ٤٤ .
(٦) الرباط : الخيل .

فيا يوم الرهـان فُجِعْـتُ فيهِ　　بشخصٍ جاز عن حدّ الصفاتِ
ولا زال الصبـاحُ عليكَ ليلاً　　ووجه البـدرِ مُسْوَدُّ الجهاتِ
ويا خيلَ السبـاقِ سقيتِ سُمَّاً　　.مُذابـاً في المياه الجاريات[1]

وعندما يقتل مالك بن بدر الفزاري ، وترثيه ابنته سلمى ، ولا ترتسم أمامها إلا صورة الرهان الذي أودى بأبيها فتقول :

فليتهما لم يَشْرَبـا قطُّ قطرةً　　وليتهما لم يُرْسَـلا لرهانِ[2]

وقد سألت جماعة من فزارة وعبس حذيفة أن يفك الرهان ، وصور ذلك أحد شعراء فزارة فقال متحدثاً بلسان الذين لا يريدون الشر أن يعمّ : وهو أبو جعدة الفزاري :

آلَ بدرٍ دَعَـوا الرهانَ فإنا　　قـد مَلَلْنا اللجاجَ عندَ الرهانِ
ودعوا المرءَ في فزارة جاراً　　إن ما غاب عنكم كالعيان[3]

وقد بدا لنا من الروايات المختلفة لتلك الحرب أن فزارة ممثلة بحذيفة ، قد ظلمت أختها عبساً ، وقد حاول شعراء عبس أن يوضحوا ذلك ، فقال الربيع ابن زياد العبسي[4] :

فـإن تكُ حربُـكُمْ أَمْسَـتْ عَواناً　　فإنـي لم أكُنْ ممـن جَناها[5]
ولـكن وُلْـدُ سَوْدَةَ أرثُوها　　وحشّـوا نارَهـا لِمَن اصطلاها[6]

وعلى الرغم من كل ما أبداه أولئك القادة ، فإن الحرب استمرت بينهما أربعين عاماً ، ولم يستطع أحد وضع حد لها ، وكانت كلما أوشكت على الانتهاء أشعلتها العصبية وأثارها الثأر .

وكانت بداية الحرب تأخذ شكل الغارات تقوم بها إحداهما ضد الأخرى ، ثم كان لهم أول يوم التقوا فيه وهو يوم **المُنَيْقَة أو المريقب** فهزمت فزارة وقُتل مالك بن بدر أخو حذيفة ، وأمسك

(١) لويس شيخو : رياض الأدب ٤٠ .
(٢) أمثال الضبي ٣٣ .
(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١/ ٥٧٠ .
(٤) أمثال الضبي ٤٣ .
(٥) الحرب العوان : التي قوتل فيها مرة بعد مرة .
(٦) ولد سودة : حذيفة وقومه .

الربيع بن زياد بحذيفة بن بدر وأسره ، ولكنه منع قومه من قتله . وظل أسيراً حتى اجتمعت غطفان وسعت في الصلح .

وقد اتفقوا على هدر دم القتل ببعضها ، وأن يعقلوا دم مالك بن بدر ، وأهدر دم من قتل في هذه الوقعة ، وأطلق سراح حذيفة ، فساءت سمعته في قومه .

وعندما تفاقم الشر بين القبيلتين ، اتفق بعض عقلاء الفريقين على وضع حد لحقن الدماء ، فمشى الأسلع بن عبد الله العبسي فقصد سبيع بن عمرو بن ثعلبة ورهن لديه سبعة صبية أو أكثر ريثما يتدبرون شؤون الصلح ، وبقيت الصبية لديه حتى وافته المنية ، فسلمها لابنه مالك بعد أن حذره من مغبة التفريط في هؤلاء الصبية ويسلمهم إلى حذيفة .

ولكن حذيفة لم يزل يخدع مالكاً حتى دفعهم إليه ، فجعل يبرز كل يوم غلاماً منهم باليعمرية يضعه غرضاً لنباله ويرميه حتى يخرقه النبل .

وكان الربيع بن زياد قد نصح قيس بن زهير بألا يدفعوا برهائن إلى فزارة ، وفي ذلك يقول الربيع :

أقـولُ ولـم أملِكْ لقيسٍ نصيحةً	أرى ما يرى واللهُ بالغيبِ أعلَمُ
أتبقـى على ذبيانَ في قتـلِ مالكٍ	فقد حشَّ جاني الحربِ ناراً تَضرَّمُ[1]

ولما بلغ بني عبس ما فعله حذيفة أتوهم باليَعْمَرية ، فلقوهم بالحرة ، حرة اليعمرية ، فقتلوا منهم اثني عشر رجلاً منهم : مالك بن سبيع ، وأخوه يزيد ، والحارث بن بدر ، وهرم بن ضمضم .

وبعد هذا اليوم دخلت الحرب مرحلة جديدة تميزت بالعنف ، وقد أصبح كل حي واتراً أو موتوراً ، وتميزت أيضاً بدخول حلفاء ذبيان الحرب ، فقد دخلها كل من أسد وطيء وبطون من غطفان . وقد عملت عبس بما أشار به قيس بن زهير على قومه بترك الأموال والنعم والضعفاء واتخاذ طريق للمقاتلين غير طريق الأموال والنعم فيشغل الأعداء بجمع المال . وقد حدث ما توقعه قيس فشغل الفزاريون بجمع الأموال ، فأدركتهم عبس وهم متفرقون فوضعت فيهم السلاح .

وهرب حذيفة حتى استغاث بجفر الهباءة ، وكان اليوم حاراً ، فرمى بنفسه في ماء الجفر ،

---

(١) العقد الفريد ٥/ ١٥٥ والفاخر ٢٢٥ .

ومعه أخوه حمل بن بدر وغيره ونزعوا سلاحهم ، فأدركهم العبسيون وهم على تلك الحال ، فحملوا عليهم وهم ينادون لبيكم لبيكم ، يريدون الصبية الذين قتلهم حذيفة ، فقتل في ذلك اليوم حذيفة قتله قِرواش العبسّي وقُتل حَمَل بن بدر قتَلَه الحارث بن زهير واسترجع سيف أخيه مالك .

وتميزت هذه الواقعة بالوحشية ، حيث مثّلوا بالقتلى ، وقطعوا رؤوسهم ، ولم يستمع قيس إلى صوت حذيفة وهو يناشده الرحم ، ويقول له : يا قيس اين العقول والأحلام ؟ وتذهب بعض الروايات إلى أن فزارة خسرت ما يزيد على أربعمائة قتيل ، لذا فقد سماها بعضهم **وقعة البوار** . كما خسرت عبس عشرين قتيلاً ولم يبق من أسرة بدر إلا حصن بن حذيفة بن بدر الذي استبقاه القوم لصباه .

وعندما انتهت الموقعة ، والتقط كل من القوم أنفاسه ، ندم قيس على قتل حذيفة وأخوته ، وكأنه تذكر قوله له : لئن قتلتني لا تصلح غطفان أبداً . يقول قيس بعد هذا اليوم :

شَفَيْتُ النفسَ من حَمَل بن بَدْرٍ	وسيفي من حُذَيْفَةَ قد شفاني
فإن أَكُ قد بردتُ بهم غَليلي	فلم أَقطعْ بهم إلا بناني
فلا كانت الغبرا ولا كان داحسٌ	ولا كان ذاكَ اليوم يوم رهانِ[1]

ويبكي قيس حمل بن بدر الذي قُتل في هذا اليوم فيقول مشيراً إلى ظلم بني بدر له ولقومه :

تعلَّم أنَّ خيرَ الناس مَيْتٌ	على جَفْرِ الهَبَاءَةِ ما يَريمُ
ولولا ظُلْمُهُ ما زلتُ أبكي	عليه الدهرَ ما طلعَ النُّجومُ[2]

ويرثى حذيفة فيقول مشيراً إلى مركزه في قيس جميعها ، وإلى منزلته في نفسه :

أقامَ على الهباءةِ خيرُ مَيْتٍ	وأكرمُهُ حذيفةُ لا يَريمُ
لقد فجعتْ به قيسٌ جميعاً	موالي القومِ والقومُ الصميمُ[3]

وعلى الرغم من فجيعة عبس وفزارة بمقتل حذيفة ، فقد شفى مقتله غليل العبسيين الذين مازالت صورة أبنائهم الذين قتلتهم حذيفة ماثلة في أذهانهم ، لذا فقد أكثروا القول في قتله وفي

(١) حماسة أبي تمام شرح المرزوقي ١/٢٠٣ ، ومعجم البلدان ـ ياقوت ٨/٤٤٠ .
(٢) أمثال الضبي ٣٥ .
(٣) الكامل لابن الأثير ١/٥٧٩ .

ما فعله به القوم ، ولم ينسوا أن يشيروا إلى ظلمه وبغيه . وبقتله خلا مقعد الرئاسة في فزارة ، ولكن عبساً أحست بما فعلت وبأثره البعيد المدى ، وبنتائجه المرتقبة .

ولم يجد قيس بن زهير سيد عبس بداً من الخروج ، بعد يوم الهباءة ، هو وقومه إلى أرض بعيدة لكي تتوقف الحرب التي زادت ضراوتها وشملت أرضاً جديدة وقبائل أخرى . وقد فعل ذلك أملاً في إيجاد فرص للسلام ، وليتمكن سعاة الصلح من تهدئة النفوس ، ولن يتم ذلك إلا بالابتعاد مؤقتاً .

أما ذبيان فلم تخلف الحرب من زعمائها من يتدبر أمرها إلا سنان بن أبي حارثة المري الذي قادهم وجمع شملهم وأخذ يطوف في أحياء العرب متخذاً من مقتل حذيفة ذريعة لتجديد الحرب والثأر ، فضم إلى ذبيان غطفان كلها ، وبني أسد وطيء .

وكان قيس مازال في أرض عبس لم يرحل ، فأشار على قومه بعدم لقاء القوم ، ولكنه أشار أيضاً بإرسال الظعائن والأموال إلى بني عامر ، ولا تتعرض عامر لهم لأن عبساً تطلبهم بثأر زهير بن جذيمة ، ويبقى بعد ذلك المقاتلون ، ونصحهم بعدم منازلة القوم إلا إذا أبوا الا القتال ، وعندها يناجزهم المقاتلة ، وتكون الأموال في مأمن فإن ظفرت عبس فتكون لم تخسر شيئاً ، وإن هزمت كان الأهل والأموال في مأمن .

وقدمت ذبيان وحلفاؤها ، والتقى الفريقان على ذات الجراجر ، وكثرت الضحايا من كلا الفريقين ، ثم التقوا في اليوم التالي فازدادت الخسائر ، وظهرت في هذا اليوم شجاعة عنترة . وعندما كثرت الضحايا تطير الناس من سنان بن أبي حارثة المري ، وتذكروا منعه حذيفة من الصلح ، وتوقفوا عن القتال ، ثم توقف سنان بعد ذلك بفترة لأن قومه فتروا فعاد إلى منازله .

وعند ذلك أحست عبس أن لا مقام لها في أرضها ، فقررت الرحيل ، فأخذوا طريق بني شيبان بن بكر ، وبقوا مجاورين بكراً إلى أن شرع غلمانهم يتعرضون لأموالهم ، فعزموا على الرحيل ، فلحقتهم شيبان فتصدت لها عبس وهزمتها .

وسارت عبس بعد ذلك إلى هجر لمحالفة ملكهم معاوية بن الحارث الكندي الملقب بابن الجون ، فنزلوا بهجر وامتاروا منها .

ثم حلوا على بني عبشمي بن سعد بن زيد مناه وهم بالفروق ، وظلوا إلى جوارهم ، وقد أمهلتهم بنو سعد ثلاث ليال فأقاموا ، ثم شخصوا عنهم ، فاتبعهم ناس من بني سعد ، فقاتلهم العبسيون فامتنعوا حتى رجع بنو سعد وقد خابوا ولم يظفروا بشيء ، وكانوا قد هموا

بالغدر بعبس ، وقد خلد هذه الوقعة عنترة في شعره .

وسار بنو عبس بعد ذلك ، فرحلوا إلى **كلب بعراعر** ، فاجتمعت عليهم بنو كلب لمنعهم من ورود الماء ، وأرادت أن تغنمهم ، فاقتتل الفريقان وهُزمت كلب وقُتل رئيسهم مسعود بن مصاد الكلبي ، وغنمت عبس أموالهم وذراريهم وخلد تلك الوقعة في شعره فارس عبس .

وسارت عبس بعد ذلك الى **اليمامة وفيها بنو حنيفة** ، ووجدت عبس في هذا الحي خير مجير لهم ، لأن عبساً ترتبط بقرابة نسب مع حنيفة ، فحنيفة أخوال عبس ، ولعزة هذا الحي ومنعته . ومكثوا أطول مدة مكثوها مجاورين لقوم حتى ذلك اليوم ، مكثوا ثلاث سنين ، ولكن القوم لم يحسنوا جوارهم وضيقوا عليهم . واضطرت عبس إلى الخروج من جوارهم جادين في السير ثلاثة أيام بلياليها .

وراسلت عبس **بني ضبة** ، وكانت ضبة في تلك الأيام تحارب تميماً لأنها كانت تأكل من ضبة أبناءها قبل أن يتربوا ، فرغبت ضبة في الأستعانة بعبس ، فقبلت جوار عبس ، ولكن ضبة عندما انقضى أمرها مع تميم لم تجد مبرراً للإبقاء على ذلك الحلف فافتعلت المضايقات لجيرانها ، فاقتتل الفريقان وهزمت ضبة .

وخرجت عبس تريد الشام ، وربما كانت قاصدة الغساسنة خصوم بني ذبيان ، وتنبهت لذلك بنو عامر ، ففاوضت عبس في الإنضام والمحالفة معها ، فحالفت عبس **بني شكل** ، وهجاهم النابغة لمجاورتهم بني شكل فقال :[1]

لحي الله عبساً آل بُغَيِّضٍ ... كَلَحْيِ الكلاب العادياتِ وقد فَعَلْ[2]
فأصبحتُمْ واللهُ يفعلُ ذلكم ... يَعُزُكُمُ مولى مواليكم حَجَلْ[3]

ثم قررت عبس الخروج من حلف بني شكل ، ونزلت الى جوار **بني عامر** في ديارهم ، ومكثوا فيهم حتى غزتهم الأحلاف كلها يوم شعب جبلة . وهزمت ذبيان وتميم والأحلاف في ذلك اليوم شر هزيمة .

---

(١) ديوان النابغة/ تحقيق شكري فيصل ٢١٤ .
(٢) لحى : قبح ولعن .
(٣) يعزكم : يقهركم ويغلبكم .

ثم غزت ذبيان بني عامر وعبس يوم شعواء ، وأسرت في تلك الوقعة قرواش بن هني العبسي ثم قتله بحذيفة عندما عرفته امرأة كانت متزوجة في عبس .

وظلت عبس في جوار عامر حتى كان يوم شُواحط ، فاختلفت عبس مع حلفائهم لأنهم طالبوها بدية رجل من غطفان قتله يهودي وجده مع امرأته ، ورفضت عبس دفع ديته ، وتذكر قيس بن زهير حاله وقومه وتذكر الذين تسببوا في تلك الحرب التي شردتهم كل هذا التشرد فقال قصيده بدأها بقوله :[1]

حَمَى الله قوما أَرَّشُوا الحربَ بينَنا ... سقونا بها مُراً من الشرْبِ آجنا

ويشير إلى الحادثة فيقول :

أُكلَّف ذا الخِصْيَيْنِ إن كان ظالماً ... وإن كان مظلومـاً وإن كان شاطِنا[2]

ولنسمعه يشير إلى تآمر القبائل المختلفة عليه وعلى قومه فيقول :[3]

إذا قلت قد أفلتُّ من شرِّ حَنْبَص ... لقيتُ بأُخرى حَنْبَصاً مُتَباطِنا[4]

فقد جعلتْ أكبادُنا تَجْتَويكم ... كما يجتوي سُوقُ العِضاةِ الكَرازِنا[5]

وبلغ النابغة تحسر قيس وما قاله فقال يرد عليه متشفيا :[6]

ابـكِ بكاء النسـاء إنـكَ لنْ ... تهبِـطَ أرضـاً تَحَيُّهـا أبدا

نحـن وهبنـاكَ للجَـريش وقد ... جـاوزتَ في الحـي جَعْفَـراً عَدَدا

ثم إن بني عبس ارتحلوا عن بني عامر ، فساروا يريدون بني تغلب ، فأرسلوا إليهم أن ارسلوا إلينا وفداً ، فأرسلت إليهم بستة عشر راكباً فيهم ابن الخمس التغلبي قاتل الحارث بن ظالم ، وقد سرّت تغلب بمجيئهم ، لأنهم يطلبون تغلب بثأر ، وعندما أتى الوفد بني عبس قال

---

(١) أمثال الضبي ٣٨ ـ النقائض ١/ ١٠٠ .

(٢) ذا الخصيين : الرجل الثقيل . وشاطن : بعيد .

(٣) امثال الضبي ٣٨ ـ النقائض ١/ ١٠٠

(٤) حنبص : اسـم ، والحنبصـة : الروغـان في الحرب.

(٥) تجتويكم : نبغضكم . والعضاة : كل شجر له شوك . والكرازان : جمع كرزين وهي الفأس الكبيرة .

(٦) أمثال الضبي ٣٨ .

قيس بن زهير انتسبوا نعرفكم ، وعندها عرف إبن الخمس فتحاوروا ، فقتله قيس بالحارث بن ظالم . وعند ذلك قال قيس مخاطباً قومه : يا بني عبس ارجعوا إلى قومكم فهم خير أناس لكم فصالحوهم ، أما أنا فلا أجاور بيتاً غطفانياً أبداً ، فلحق بعُمان فهلك بها .

وأورد لنا أبوحاتم وصية لقيس بن زهير يوصي بها قومه فيقول « وأنهاكم عن الرهان فإني به أثكلت مالكاً ، وعن البَغْي فإنه صرع زهيراً ، وعن السرف في الدماء ، فإن قتل أهل الهباءة أَلزمني العار . . . ثم أنشد :[1]

إن يومَ الْهَباءةِ أورثني الذُّ لَّ فأصبحتُ ظالماً مظلوما

وقرر الربيع بن زياد العودة إلى قومه ، ومعه بنو عبس ، ونسمعه يلوح بما فعله قيس به وبعبس ثم اعتزل فيقول متهماً قيس بمسؤولية إشعال الحرب[2] .

حَـرَّقَ قيسٌ عليَّ البلادَ حتـى إذا اضطرمَتْ أجذَما[3]
جَنِيَّةُ حربٍ جناهـا فما تُفَـرِّجُ عنـه ومـا أَسْلَما[4]

محاولة الصلح :

وأرسلت عبس وفداً يسعى في الصلح مع بني ذبيان برئاسة الربيع بن زياد ، فوفد الوفد على الحارث بن عوف وعرفوه بأنفسهم ، وقال لهم الحارث : **إن كنتم قد احتجتم إلى قومكم فقد احتاج قومكم إليكم** . وتدلنا هذه العبارة على أن الحرب كانت قد انهكت الحيين ورغب كل منهما في إنهائها . وطلب منهم الحارث أن يتوجهوا إلى حصن بن حذيفة بن بدر سيد ذبيان . فساروا اليه ، فانطلق معهم إلى الحارث بن عوف ، واتفق الطرفان على إنهاء الحرب المريرة وكان من بنود الإتفاق أن يلتزم حصن فلا يغدر بالقوم بعد الصلح . وخصوصاً وأن عبس ما زالت صورة الصبية وما فعله والده بهم ماثلة أمامهم . وقد التزم حصن بدفع ديات القتلى من ماله ، كما التزمت عبس بدفع ما يفرضه عليها رجال الصلح . ويذكر وهب بن منبه[5] أن مكان

---

(١) المعمرون والوصايا ١٤٤ .
(٢) أمثال الضبي ٤٠ ـ حماسة أبي تمام شرح المرزوقي ٢/ ٤٨٤ .
(٣) حرق : الهب . وأجذم : أسرع في السير .
(٤) تفرج : تفرق ، وتكشف .
(٥) وهب بن منبه : التيجان ١٢٣ .

المشاورات كان سوق عكاظ كعادة العرب آنذاك ، وكانت لجنة التفاوض مكونة من عوف بن حارثة ، وحصن بن حذيفة ، وهرم بن سنان ممثلاً لعبس ، والربيع بن ضبيع الفزاري ممثلاً لجميع الأطراف . وقد فرضت اللجنة غرامات بلغت في جملتها على عبس ثلاثة آلاف بعير ، ويبدو أن عبساً كانت قد أرهقها التجوال فلم تعد تملك ما تدفع من هذه الغرامات فتشارك في حملها الحارث بن عوف وهرم ابن سنان وحصن بن حذيفة . وتم الإتفاق واصطلح الحيان .

ويبدو أن بعض بطون ذبيان لم تكن راضية عن هذا الصلح ، لأنها أحست بأنها لم تأخذ بثأرها من عبس ، ومن هؤلاء الممتنعين حصين بن ضمضم المري الـذي لم يحضر الإتفاق ، وامتنع عن دفع الديات المترتبة عليه ، وتنافر القوم ، فقال الربيع : يا حصين طال الشر وغدر الدهر ، وقال عنترة : يا حصين الحرب خير لي والصلح خير لك . فنهره حصـين قائـلا له : أسكت يا عبد بني عبس ، ثم حمل حصين بن ضمضم على رجل من عبس فقتلـه ، وكادت الحرب تتجدد لولا أن حصن ابن حذيفة انحاز إلى عبس لأن القتيل أمه من فزارة ، فقام الحارث بن عوف فبعث بابنه إلى بني عبس ، فرضيت عبس بالدية واحتملها سنان بن خارجة ، وعرف ذلك اليوم **بيوم قطن** .

ثم إن عبساً تحركت تريد بلوغ **غدير قَلْهَى** فسبقتها إليه بنو ثعلبة تريد منعها ورود الماء ، وتدخلت فزارة وبنو مرة محاولتين حجز القوم عن بعضهما ، والسماح لعبس التي كادت تمـوت عطشاً ، بورود الماء . فأبت بنو ثعلبة وأقسموا ألاّ يردوا الماء إلاّ إذا دفعت عبس ديتي عبد العزى بن حذار ومالك بن سبيع فاضطرت عبس إلى دفعها .

وهكذا وضعت حرب داحس والغبراء أوزارها بعد أن دامت أربعين عاماً ، انساحت عبس خلال تلك الفترة في مختلف أرجاء الجزيرة ، وسويت جميع الخلافات وحمل الديات هرم بن سنان والحارث بن عوف ، وخلد عملها زهير بن أبي سلمى في معلقته فقال :

يمينـا لنعـم السيدان وجدتما	على كل حال من سحيل ومبرم
تـداركتما عبسـا وذبيان بعدما	تفانـوا وبقـوا بينهـم عطـر منشم
وقد قلتما أن ندرك السلـم واسعا	بمـال ومعـروف من القـول نسلم
فأصبحتما منهـا على خـير موطن	بعيدين فيهـا من عقـوق ومأثم
عظيمـين في عليا معـد هديتما	ومن يستبح كنزا من المجد يعظم
وأصبـح يحـدي فيكم من افالها	مغانـم شتـى من أفـال مزنم

تعفى الكلوم بالمئين فأصبحت ينجمها من ليس فيها بمجرم
ينجمها قوم لقوم غرامة ولم يهريقوا بينهم ملء محجم[1]

ولم تكن عبس ممثلة في بعض سادتها ميالة إلى الحرب مع ذبيان لأنها كانت تريد أن تخلو بحرب هوازن ، يقول الربيع بن زياد العبسي مخاطباً قيس بن زهير . ظلموك في جوارك وظلمتهم في دمائهم ، وقتلوا أخاك بابنهم ، فإن يؤ الدم بالدم فعسى أن تلقح الحرب أقم معك ، وأحب **الأمرين إلى مصالحتهم ونخلو بحرب هوازن»** [2]

دور عنترة في تلك الحرب :

لقد عرضنا من خلال حديثنا عن حياة عنترة وشخصيته بأن عنترة شارك مشاركة فعالة في حرب داحس والغبراء ، بل وإن تلك الحرب « البوتقة التي انصهرت فيها مزاياه من الشجاعة في القتال والصبر على مر الكفاح في سبيل نصرة مبادىء قومه ورفع شأن قبيلته» [3] .

ولكننا هنا سنحاول إثبات دوره في تلك الحرب اعتماداً على أمرين ، أولهما نصوص من خلال حديث الرواة والمؤرخين تشير إلى اشتراكه في أيام تلك الحرب ، وثانيهما ما ورد في شعره الموثق .

يقول ابن قتيبة[4] « **وكان عنترة قد شهد حرب داحس والغبراء فحسن فيها بلاؤه ، وحمدت مشاهده»** ويتحدث ابن الأثير[5] عن يوم ذات الجراجير فيقول « **فلما كان الغد عادوا إلى اللقاء فإقتتلوا أشد من اليوم الأول ، وظهرت في هذه الأيام شجاعة عنترة بن شداد . . .»** .

وذكر صاحب العقد الفريد ، وهو يتحدث عن يوم المُرَيْقب ، عنترة فقال[6] « وقتل منهم أبو الحصين المري قتله عنترة الفوارس» .

---

(١) شرح القصائد السبع الطوال ٢٦ وما بعدها .
(٢) الكامل لأبن الأثير ١/ ٥٧٤ .
(٣) حسن القرشي : فارس بن عبس ٦٢ .
(٤) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١/ ٢٥٢ .
(٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١/ ٥٨٠ .
(٦) العقد الفريد ٥/ ١٥٣ .

وروى له البطليوسي والأصمعي والأعلم الشمنتري قصيدة وذكروا في مقدمتها: «قال يذكر يوم الفَروق ، وقد اشترك فيه عنترة ، وقتل في ذلك اليوم معاوية بن نزال جد الأحنف» ومطلعها[1] :

ألا قاتلَ اللهُ الطلولَ البَواليا وقاتلَ ذكراكَ السنينَ الخَواليا
وقَولكَ للشيءِ الذي لا تنالُه إذا ما حَلا في العينِ يا ليتَ ذاليا
ونحنُ منعنا بالفَروقِ نساءَنا نُطَرِّفُ عنها مُشعلاتٍ غَواشيا[2]

وجاء في الأغاني أن عمر بن الخطاب سأل الحطيئة : كيف كنتم في حربكم ؟ فقال الحطيئة : كان قيس بن زهير ، وكان حازماً ، فكنا لا نعصيه . وكان فارسنا عنترة . . .[3]

ذلك ما أسعفتنا به كتب التاريخ وكتب الأدب العامة ، فإذا ما انتقلنا الى ديوان شعره ، وجدنا رواة الديوان من الطبقة الأولى قدموا لبعض القصائد بحديث أشار وا فيه إلى اشتراك عنترة في بعض الحروب فقد ذكر ابو عمرو الشيباني أن عنترة وقف عندما انهزمت عبس وطلبتهم بنو تميم ، «حامى عن الناس ، فلم يصب مدبر . . .»[4] .

ويحدثنا ابن الأنباري عن سبب قول عنترة المعلقة ، ويروي لنا قصة ذلك ، ويقول أن عنترة أول ما قال من الشعر يذكر قتل معاوية بن نزال وغيره ، وكان عنترة يومئذ لا يقول من الشعر إلاّ البيت والبيتين في الحرب[5] .

وجاء في مقدمة قصيدة أخرى في الديوان وهي تلك التي قالها يذكر أيامه التي كانت له في حرب داحس والغبراء «ويذكر يوماً انهزمت فيه عبس . . .»[6]

وأول ما يلفت أنظارنا في النصوص التي عرضنا لها أن كتب التاريخ تكاد تهمل عنترة إهمالاً تاماً ، فنحن لا نجد ابن الأثير يذكره إلا عند حديثه عن يوم ذات الجراجر ، والضبي عندما يتحدث عن تلك الحرب لا يذكره كمقاتل وإنما يذكره مرتين أو ثلاثا كشاعر يفخر ببعض الأيام .

---

(1) ديوان عنترة ١٩٢ .
(2) نطرف : نرد . ومشعلات : منتشرات . وغواشيا : محيطة بالقوم .
(3) الأغاني/ دار الكتب-٨/ ٢٤٤ .
(4) الديوان ١١٨ .
(5) شرح القصائد السبع الطوال ٢٩٤ .
(6) الديوان ١٥٦ .

أما ابن قتيبة فيذكر أنه شهد الحرب وأبلى فيها بلاء حسنا . وذكره ابن عبد ربه في يوم المريقب كفارس ، أما كشاعر فقد ذكره في غير ذلك اليوم .

وعندما يتحدث الحطيئة عن عنترة فإنه يعمم ولا يخصص ، فهو فارسهم في الحرب ولكنه لم يخصص تلك الحرب .

وحين ننتقل إلى الرواة الذين رووا شعره وجمعوا ديوانه فإننا واجدون بعض المقدمات لقصائد تذكر مناسبة القصيدة ، ولكننا نقف من هذه المقدمات موقف الحذر لأنها ربما أضيفت إلى الديوان ، وبما يحرمنا من الحقيقة كاملة أن الذين جمعوا الدواوين في القرنين الثالث والرابع وما بعدهما أهملوا تعليقات وشروح ومقدمات شرحها رجال الطبقة الأولى . ولو وصلتنا تلك الشروح والمقدمات لوصلنا خير كثير.

وإذا فليس أمامنا إلا أن نستكمل الصورة من شعر عنترة الذي نطمئن إليه ، لأننا لم نتثبت من كتب التاريخ والأدب الا من اشتراكه في المريقب ، وذات الجراجر والفروق ، وقطن . ورب قائل يقول ربما ذكر عنترة اليوم في شعره دون أن يشهده وذلك محتمل حدوثه لو أن عنترة لم يكن معاصراً لتلك الحرب ، ولولا أن بعض العلماء ذكروا أنه شهد تلك الحرب ولولا تلك العبارة الغامضة التي ذكرها ابن الأثير حين قال « وظهرت في هذه الأيام شجاعة عنترة » . وثمة شيء آخر نطمئن إليه وهو أن عنترة لم يكن يحظى باحترام وباعتراف سادة القبيلة ، فانه لو افتخر بيوم أنه شهده وكان مدعياً لردوا عليه وطعنوا فيه ولوصلنا ذلك بطريق او بآخر ، ولكن شيئاً من ذلك لم يصلنا .

وإذا ما جلنا في الديوان فإننا نظفر بالكثير ، فلقد ذكر عنترة الأيام التالية في شعره الذي نستطيع أن نطمئن إليه : يوم أقرُن[1] ، ويوم الجفار[2] ، ويوم عُراعر[3] ، ويوم المُرَيْقِب[4] ، ويوم الهباءة[5] ، ويوم جَبَلة[6] ، ويوم الفروق[7] ، ويوم غدير قَلْهَى[8] ، ويوم اليعمرية[9] .

تلك أيام حرب داحس ، أما الأيام مع القبائل الأخرى والغارات فسنعرض لها في غير هذا الموضع .

---

(1) الديوان ١٨ .
(2) الديوان ٤١ .
(3) الديوان ١٠٦ .
(4) الديوان ١٤٢ و ١٩٩ .
(5) الديوان ١٥٦ .
(6) الديوان ١٧٨ .
(7) الديوان ١٩٢ .
(8) الديوان ١٩٨ .
(9) الديوان ١٩٨ .

ونستطيع أن نطمئن إلى النتيجة التالية وهي أن عنترة كان فارس تلك الحرب ، وأنه أبلى في تلك الحرب ولكن الزعامة الرسمية لم تكن له في مجتمع تسوده العصبية للجنس واللون ، ولولا شعره لما عرفنا عن عنترة شيئاً ذا أهمية . فهو لم يكن يحظى باعتراف سادة القبيلة نفسها التي وهب فروسيته لها وفي سبيلها . بل ونستطيع أن نطمئن أيضاً إلى أن عنترة قاد فرسان قومه في كثير من هذه الحروب على الرغم من إهمال المؤرخين والرواة لتلك الحقيقة ، فقد ذكروا فرساناً غيره أقل منه شأناً في يوم الهباءة وغيره .

عنترة بطل الأسطورة الشعبية وصورته في الأسطورة :

عرضنا لصورة عنترة في التاريخ الجاهلي من مصدرين : الروايات والشعر ، وقد لاحظنا أن تلك الصورة لم تكن مكتملة الخطوط ، بل أننا وجدنا فيها ثغرات تحتاج إلى خيال المؤلف لملئها . ورأينا كذلك أن هذا الشاعر الفارس نحلت عليه الأشعار حتى غدا شخصية أسطورية تقريباً لتعدد الروايات المحيطة بحياته ، ولكثرة ما نحل من شعر . مما حدا بالدكتور طه حسين إلى إنكاره كإنسان حقيقي عاش في جاهلية ما قبل الإسلام ، واعتبره شخصية أسطورية اتخذها الرواة والوضاعون أساساً يستمدون من فنه مادة لقصصهم .

ولكننا عرضنا فيا مضى لتكوين شخصية عنترة كحقيقة تاريخية واقعة وليس كأسطورة ، وهذا أمر لا يحتمل الطعن فيه . ولكن الذي يمكن أن نجعله محك الاختبار هو تلك الروايات التي ضخمت حياته وابتعدت بها عن الواقع التاريخي .

وبعد موت عنترة بقرون ، ولأسباب متعددة لا مجال للخوض فيها ، ولكننا نرى من بين تلك الأسباب فروسية عنترة وتحديه لمجتمعه الذي لا يعترف بأمثاله ، ومنها أيضاً ذلك الحب الذي تغنى به فارس عبس . فالحب الذي نشأ بريئاً شريفاً ، وتغنى به فارس عاش حياته تحت ظلال السيوف ، والثورة التي قادها ذلك الفارس مكافحاً ضد أسرته وضد قبيلته واستطاع أن يحصل على حقوقه كاملة ، ثم ما أبداه هذا الفـارس من بطولـة في حروب عبس ، كل هذه العوامل لفتت أنظار القصاصين والرواة ، فاهتموا به ، وجمعوا أخباره ، وأضافوا إليها من نسج خيالهم ، فكانت سيرة عنترة .

ويرى الدكتور عبد الحميد يونس[1] أن « وجدان الشعب العربي احتفل بعنترة في كل مكان ، وجعل منه نموذجاً يصعّد إليه الأفراد كلما حزب الأمر ، أو هجع الوجدان العربي عن

(١) مجلة المجلة المصرية ـ عدد سبتمبر ١٩٥٩ ص ٢١ .

الاعتصام بسَوْرَة الحمية العربية ، وكلما ارتطم الشعب العربي بعدو يريد أن يتحيفه أو يعتدي على حماه » .

والمحور الأساسي الذي تدور حوله السيرة هو شخصية عنترة ، ويعتمد عليها المؤلف كشخصية تاريخية في بناء الشخصية الأسطورية التي يريد أن تحقق له أهدافاً عدة .

وترتبط سيرة عنترة ، في الصورة التي رسمت ، بالحب ، والحب دعامة من دعامات الفروسية في الشرق العربي والغرب المسيحي في ذلك الوقت الذي وضعت فيه السيرة . مما حدا ببعض الباحثين إلى إعتبار القصة غرامية في أساسها ، تتمثل فيها آداب الجاهلية وأ‌علاق أهلها وحروبهم وعاداتهم إذ أن أكثر الأسماء الواردة فيها لها مسميات حقيقية تاريخية ، إلا أنها جاءت في سياق قصة يعبق جوها بالكثير من عناصر الأسطورة والخوارق والمعجزات والأخبار المروية عن هذه الشخصية وما يدور حولها من شخصيات بمثابة نواة حكيت حولها شبكة من الأساطير[1] » .

ومصادر هذه القصة أو السيرة الشعبية هي ما نقله الرواة عن صاحبها وفي مقدمتهم أبو عبيدة والأصمعي وابن هشام وجهينة الأخبار وغيرهم من الرواة .

ولن نتعرض لواضعها الحقيقي ، لأن القول فيه كثير ، ومعظمهم يسندونها إلى الأصمعي ، ولكن هذا بعيد عن الحقيقة وفي السيرة ما يشير إلى عكس ذلك ولكننا نستطيع أن نميز أنواعاً ثلاثة من هذه السيرة : السيرة الحجازية ، وهي أطولها ، والسيرة الشامية ، والسيرة العراقية .

وسنحاول بعد ذلك أن نعرض لعناصر تكوين شخصية عنترة كما عرضتها السيرة في صورتها الأسطورية ونبين مدى اختلافها أو اتفاقها مع الواقع التاريخي .

وأول ما سنعرض له **قبيلة البطل** ، بني عبس فقد عرضت لها السيرة بأنها لم تكن قبيلة ككل القبائل ، وإنما هم قوم غزو وأرباب سيف ، كرام ، يلبون نداء المستغيث[2] . وهذه الصورة التي عرضها المؤلف للقبيلة ليست ببعيدة عن الواقع التاريخي الذي يذكر لنا عبساً إحدى جمرات العرب . ولكن المؤلف يجعل عبساً لا تحارب القبائل العربية فحسب ، وإنما انتقل بها إلى خارج الجزيرة إلى بلاد الحيرة وفارس وبلاد غسان . ويتحرك بها في أنحاء مختلفة من الجزيرة العربية مستغلا رحلة عبس أثناء حرب داحس والغبراء .

(1) مصادر الدراسة الأدبية ـ يوسف داغر ٣٤ .
(2) السيرة ١/ ٨٧٦ .

وعندما يعرض المؤلف لنسب عنترة وولادته ، فإنه يصور لنا كيف تم اللقاء بين زبيبة وشداد ، وكيف قاومت باقي الفرسان مخالفة بذلك سلوك باقي الإماء في مثل تلك المواقف ، ليمهد بذلك إلى نبل أصلها[1] ، ثم نراه فيا بعد يكشف لنا أصل تلك الأمة ، وبأنها ابنة النجاشي ملك الحبشة ، وذلك حينما يتوجه عنترة إلى بلاد النجاشي ، فيكتشف أن أمه ابنة النجاشي[2]. وبذلك يحقق له مؤلف السيرة نبل نسبه من ناحية أمه ، وهي نقطة الضعف التي شكا منها عنترة التاريخي ، والتي سببت له إزدراء فرسان قومه .

وعندما يعرض مؤلف السيرة لولادة البطل فإنه لا يجعله ميلاداً كأي ميلاد ، فهو يُصفه لنا أسود أدغم مثل الفيل ، معبس الوجه ، مغلغل الشعر ، كبير الأشداق . . .[3]

ويتحدث مؤلف السيرة عن مشكلة النسب في أكثر من موضع من السيرة ، فيثير مشكلة النسب عندما يرحل عنترة عن قومه غاضباً ويحالف مجموعة من الفرسان ، ويعرض له رئيسهم نصف نصيب الفارس منهم ، وهو بعمله هذا إنما يكرمه ، وعلى الرغم من كل هذا فإن عنترة يقبل هذا الوضع ويثيره المؤلف مرة أخرى عندما يحاول عنترة تعليق معلقته على جدران الكعبة فيرفض الشعراء الآخرون أصحاب المعلقات بسبب أنه ليس عربي الأصل ، ويعالج المؤلف هذا الموقف بقتال عنترة لهم وحبسهم ثم العفو عنهم ، ومناقشة معلقته فنياً ، والإقرار بصلاحيتها للتعليق[4] .

وعندما يصور لنا المؤلف صراع البطل مع قبيلته ، فإن أهداف هذا الصراع عنده هي لنيل **حقوقه أولاً** ، وحقوقه هي اعتراف القبيلة به فارساً ، وإلحاق أبيه له بنسبه ، والإعتراف به كفؤا للزواج بعبلة . وفي سبيل نيل هذه الحقوق يستغل المؤلف ما ورد في الروايات التاريخية من ملاحاة بين عنترة وعمارة بن زياد وقيس ابن زهير . فيحسم لنا تلك الخلافات ، ويجعل الظروف المحيطة بالقبيلة تخدم أهداف عنترة ، فالقبيلة دائماً تقع في مآزق ولا يخلصها إلا عنترة من الذل والأسر وغيره من المآزق[5] . وخصومه يقعون في الأسر ولا يجدون من يخلصهم من الأسر إلا عنترة[6] فيضطر بعضهم للإعتراف بفضله وبفروسيته كما حدث مع شأس بن زهير[7] ويضطر عنترة في صراعه مع القبيلة إلى ترك القبيلة والرحيل عنها لأنه يرى المكائد تحيط به من خصومه ،

---

(1) السيرة ٥/ ٤٠٢ .
(2) السيرة ١/ ٧٧ .
(3) السيرة ١/ ١٣٥ .
(4) السيرة ٤/ ١٥ .
(5) السيرة في مواضع مختلفة .
(6) السيرة ١/ ٣٨٨ .
(7) السيرة ١/ ٤١٩ .

ولكنه عندما يعود يجدها في حال من الذل فيهب لنجدتها . وفي إحدى هذه المرات ينتزع عنترة اعتراف أبيه به[1] وينتزع من عمه موافقته على زواجه من عبلة .

ثم تبدأ مرحلة صراعه مع قبيلته لتثبيت تلك الحقوق التي نالها ، ويتغلب عنترة على كل العوائق والأعداء الذين يعترضون سبيله ، فيتغلب على عمارة بن زياد ، ويخلص شأس بن زهير من الأسر ، ويذيع أمر عنترة في الجزيرة العربية فارساً مقداماً .

وبنيل عنترة حقوقه الذاتية من قبيلته التي كانت تأبى الإعتراف بها ، فإنه ينتقل لمرحلة جديدة ، وهي مرحلة صراعه ضد مجتمعه العربي كله ، ليصبح عنترة فارس الجزيرة بلا منازع .

وعندما يعرض مؤلف السيرة لنشأة عنترة الأولى ، وهي تلك النشأة التي أهملها الرواة والمؤرخون فإن مؤلف السيرة يجعل ذلك المولود ليس مولوداً كباقي الأطفال ، فهو قوي البنية ، يمزق الثياب ، يقتل ذئباً ويعود برأسه إلى أبيه مما يجعل شداداً يقول لزبيبة « إعلمي أن أولادك شياطين » . . .[2]

ويستمر المؤلف في عرض المواقف التي تمهد لميلاد بطل عظيم ، ويصوره لنا وهو يتعلم الفروسية والطعن بالرمح والتحكم في الخيل ، ويجعل المؤلف شيبوباً أخاه من أمه يصطنع الحيل للتستر على أفعال أخيه ليبعد عنه أنظار القبيلة التي لم تكن تعترف بهذا الحق للعبيد .

وعندما يعرض لصلة عنترة بالمرأة ، فإنه يركز في المرحلة الأولى من حياته على عبلة ، وما قاساه في سبيل الحصول عليها ، ولا ينسى أن يعقّد الأمور فيأسرها أكثر من مرة ، ويجعل عنترة يخلصها من الأسر ، ويجعلها محط أنظار فرسان العرب وساداتها . ولكنه يتغلب عليهم ولا يزوجه المؤلف إلا بعد أن يكون قد أذلّ جميع أعدائه وتبوأ مكان الصدارة في الفروسية غير منازع ، ويقر له زعيم عبس قيس بن زهير بزواجه من عبلة ، وتستعد القبيلة لزواجه . وفي هذا الزواج يتم تتويج عنترة ملكاً على الفرسان إذ يقدّم على جميع المشهورين من الفرسان ، ويقبل أولئك الفرسان عليه بالهدايا وبالشعر . . .[3] وكأنما أراد المؤلف أن يقرن فوزه بعبلة التي أحبها وسيطر عليه حبها بفوزه في ميدان الفروسية .

وعلى الرغم من بقاء عبلة حية حتى يموت عنترة في الأسطورة ، إلا أن المؤلف جعل عنترة يكرر صورة شداد وزبيبة فيجعله المؤلف يتصل بنساء أخريات غير عبلة ، ويجعلهن ينجبن منه

---

(1) السيرة ٣/ ٢٣١ .
(2) السيرة ١/ ٨٢ .
(3) السيرة ٣/ ٢٣١ .

أولاداً ، ولا يجعل عنترة يلازم أولئك الزوجات ، بل يرحل ، وبالتالي فإن عنترة لا يعرف ولده ولا يلتقي بهم إلا في ساحات القتال ، ويتعرف عليهم حينئذ ويتغير الموقف . ويبدو أن المؤلف فعل هذا ليؤكد استمرارية عنترة كبطل أسطوري في شخص أبنائه .

ويبدو لي أن المؤلف اعتمد على بعض الروايات التي تذكر أن عنترة تزوج غير عبلة ، واستغل هذا فزوجه من أكثر من واحدة ، وعلى الرغم من أن التاريخ لم يذكر لنا ولداً لعنترة إلاّ أن المؤلف جعل له أكثر من ولد .

كما أن مؤلف السيرة ، وبعد أن حقق لعنترة أمنية عظيمة ، وهي الحصول على عبلة ، فإنه حرره من عاطفته وجعله يخوض **صراعاً مع عاطفته** ، وجعله يرحل عن عبلة ، كما يرحل عن نساء أخريات اتصل بهن ويفعل المؤلف ذلك ليحرر البطل من عاطفته ليتفرغ لأهداف أخرى أكبر من مطامحه الذاتية ، وأبعد حدوداً من حدود مجتمعه القبلي المتمثل في عبس .

ولا ينسى المؤلف ما كان للشعر من مكانة في ذلك المجتمع الجاهلي خاصة والمجتمع العربي عامة ، ولذلك فقد رأى أن شخصية عنترة لا يكتمل بناؤها كشخصية نموذجية ، ولينقلها من اطارها المحلي إلى إطار أوسع ، **إلاّ بالاعتراف بمكانته الشعرية** ، فمهد لذلك بعقد مناظرات شعرية شهدها عنترة مع غيره من الشعراء الفرسان[1] ، وجعل قمة هذه المواقف مشهد تعليق عنترة معلقته على جدران الكعبة ، ولم يسق الخبر هينا لينا ، بل أثار اعتراض الشعراء الآخرين من اصحاب المعلقات ويبارزهم عنترة ويأسرهم ثم يفك أسر الرهائن من الشعراء ، وتعقد بعد ذلك مناظرة شعرية لغوية تثبت فيها جدارة عنترة الشعرية واستحقاق معلقته التعليق[2] . والمؤلف يعتمد في هذه الحادثة على أن عنترة من أصحاب المعلقات العشر .

أما فروسية عنترة فقد كانت تشكل المادة الأساسية للسيرة ، وهي محور السيرة الأساسي وكل ما عرضه دونها فإنما هو لخدمة هذا الهدف ، فالمؤلف أراد أن يجعل من عنترة بطلا أسطوريا لسيرة تحمل الكثير من أحزان العرب وطموحهم وشوقهم إلى التغلب على المعوقات التي تضغط عليهم ، ولذا فقد احتفل وجدان الشعب العربي بها .

وقد تدرج المؤلف في عرضه لفروسية عنترة تدرجاً يتمشى مع منطق الحياة والتاريخ ، وجعلها تنمو نمواً طبيعياً لا افتعال فيه . فعنترة نشأ قوي البنية ، يصرع الذئب وهو ما زال صغيراً ، وهو يتدرب سراً في الصحراء على ألوان مختلفة من فنون القتال . وحتى يبدو الأمر لا غرابة فيه فإن المؤلف جعل شيبوباً أخاه يبعد عنه انظار بني عبس بما يصطنعه من حيل .

(١) السيرة ٤/ ١٠ ، ١٥ .
(٢) السيرة ٤/ ١٥ .

ثم يجعل المؤلف فروسية عنترة تظهر معلنة عندما تقع قبيلته في مأزق فيتقدم عنترة لينقذها ، وقبل أن يخرج المؤلف بعنترة من إطار قبيلته ، فإنه يجعله يخوض صراعاً ضد فرسان قبيلته وسادتها ، ويجعل الصراع على الظفر بعبلة المحور الذي يدور حوله الصراع . ويتغلب عنترة على خصومه ، ولا يكون الظفر بسهولة ويسر ، بل إنهم يتآمرون عليه ، ويؤجرون القتلة والسفاكين للايقاع به ولكنهم يفشلون . ويستعين بعض خصومه بأعداء لعبس من الخارج للقضاء عليه ولكنهم يفشلون أيضاً . ويشترك عمه ، أبو عبلة ، وبقية أعمامه على قتله وتدخل الوحوش في الصراع هذه المرة ولكن عنترة يقتل الأسد ويشوي لحمه[1] . ويبالغ المؤلف فيجعل عنترة يتصدى لفرسان غطفان الذين أغاروا على عبس والحي خلوف ، وعمره أربع عشرة سنة ويسترد الأسلوب منهم ويهزمهم . ولا ينسى المؤلف أن يصور لنا أن هذه الأنتصارات تزيد من محبي عنترة من قبيلته ، كما تزيد من بغض مبغضيه والحقد عليه وعنترة الفارس العربي هو المدافع عن النساء المستضعفات وهي مسمة من سمات الفارس العربي الذي يجب أن يتصف بهذه الصفة الكريمة .

ولا يصور لنا المؤلف عنترة في هذه المرحلة بطلاً لا يهزم ، بل إن المؤلف يجعله يهزم في صراعه ضد أبناء قبيلته ولكنها ليست هزيمة سيف ، بل هزيمة بسبب مركزه الأجتماعي ، فيضطر للهجرة أكثر من مرة عن قبيلته . ولكنه عندما يعود يجد عبساً في مأزق فيخلصها مما هي فيه .

والمؤلف يستقي مادته من بعض الروايات التاريخية ، ويضيف اليها ، فالروايات تذكر لنا صراعاً بين عنترة وبعض سادة عبس ، ولكن هذه الروايات لم تذكر لنا كيف تم هذا الصراع ، ولم تذكر لنا تآمرهم عليه واستنجادهم برجال من خارج القبيلة . وربما فعل المؤلف ذلك إرهاصاً للمرحلة التالية من مراحل فروسيته التي سينقله فيها من فارس عربي في عبس إلى فارس العرب .

وقد مهد المؤلف لهذه المرحلة حينما ذكر أن أبا عبلة طلب من عنترة مهراً لعبلة ألفاً من النوق العصافير وهذه لا توجد إلاّ لدى النعمان ملك الحيرة . وبذلك أخرج عنترة إلى جيران الجزيرة العربية ، ويجمعه المؤلف مع فارس أسطوري له قيمته في الأساطير الفارسية ، وهو (رستم) ، ويتم اللقاء بينهما وتنتهي الجولة بهزيمة رستم[2] .

ويدبر المؤلف في براعة قصصية لقاءات مختلفة بين عنترة والعديد من فرسان العرب في الجاهلية ، وتختلف سبل اللقاء ، منها اللقاء المباشر في ساحات القتال ، ومنها اللقاء المفاجىء ،

---

(١) السيرة ١/ ٩٩ . (٢) السيرة ٧/ ٢٦٠ .

ومنها الصراع على غرض واحد . ويستغل المؤلف تاريخ الجزيرة العربية في ذلك الوقت ، وما حفل به شعرهم من ذكر الأبطال الفرسان ، فيجمعهم بعنترة ومن هؤلاء : بسطام بن قيس الشيباني ، وعمرو بن معد يكرب ، وذو الخمار ، ودريد بن الصمة ، وزيد الخيل ، وعامر ابن الطفيل ، وغيرهم .

والبطل في هذه اللقاءات مؤيد بقوة خارقة قال عنها الكاتب « إن الله عز وجل أسكن في عنترة سراً خفياً لا يعلمه إلاّ الله اللطيف الخبير ، وكان من عادته أنه يقاتل الفارس إلى أن يحل به التعب ، فإذا انفصل عنه وتأخر قليلاً ، رد الله عز وجل عليه قوته وضاعفها فيرجع الى خصمه ويأخذه من الميدان أسيراً أو يتركه قتيلاً » [1] .

ويقدر المؤلف عدد الفرسان الذين التقى بهم عنترة فأسرهم أو قتلهم بسبعين جباراً من جبابرة الفرسان ، ويركز المؤلف على نقطة هامة ، فعنترة لا ينتصر عليهم بالسيف فحسب ، وإنما هم بعد هزيمتهم يعترفون بهزيمتهم وبفروسيته ويسلمون له القيادة ، وبعضهم كان ينضم إلى صفه ، وعقد المؤلف بينه وبين بعضهم صداقات .

وكما جمع المؤلف بين عنترة وفرسان الجزيرة العربية ، فإنه لم ينس حاتماً الطائي ، الذي اشتهر بكرمه وبفروسيته فجمع بينه وبين عنترة ، وقد فعل ذلك ليضيف الى عنترة فضلاً جديداً واعترافاً من حاتم بفروسيته ، وربما استغل المؤلف صلته عبس وطيء الحربية .

وينتقل المؤلف بعنترة الفارس البطل الذي تغلب على فرسان الجزيرة ليؤكد بطولته الذاتية ، وتفوقه عليهم إلى عنترة كفارس يحارب الظلم أينما وجد ، وكان عرب الشمال يحسون بتعالي عرب الجنوب عليهم ، وقد خضعت قبائل شمالية كثيرة لنفوذ الجنوبيين ، لذلك استغل المؤلف ذلك ، ليجعل عنترة الفارس الشمالي يقود فرسان الشماليين ضد فرسان الجنوبيين ، فيهزم الجنوبيون ، وبذا أكد المؤلف تفوق فرسان الشمال على فرسان الجنوب . وقد فعل ذلك انطلاقاً من الصراع بين العصبيتين العدنانية والقحطانية في الإسلام .

ولا ينسى المؤلف أن يجعل عنترة يتغلب على كل قوة ، فهو يتغلب على السحر بقوة أسطورية في أحد المواقف .

ويدخل المؤلف عنترة وهو يقود معارك ضد أصحاب الديانات في ذلك الحين ، فجعله يقود معركة ضد النصارى في بلاد الشام ، ويدخل عنترة دمشق مؤيداً ملك الفرس ضد

---

(1) السيرة ٣/ ٢٥٠ .

النصارى ، ويجعله يهدم الكنائس ، ويخلص الأسرى . كما يثير حرباً بين **العرب والمجوسيين** ، ويجعل عنترة يقود العرب ضد **الفرس** عندما حاول ملكهم الأساءة الى العرب والسير اليهم واحتلال بلادهم ، ويؤسر عنترة في هذه الحروب أكثر من مرة ولكن المؤلف يخلّصه من الأسر بأساليب مختلفة ، فمرة ينجو من الأسر بحيلة من قيس بن زهير مستغلاً بذلك ما روته الرواة من سعة حيلة قيس . وعندما يؤسر عنترة وهو يحارب الفرس ينقل الى عاصمة كسرى ومعه عبلة . ويجعل المؤلف إبن كسرى يقع في غرام عبلة فتقتله عبلة ، فيطلق أخوه قبار بن كسرى سراح الأسرى طمعاً في ملك أبيه ، وبمعنى آخر ليعينه عنترة في تثبيت ملكه ، وهنا يثبت المؤلف لعنترة دوراً جديداً وهو مقدرته على **إزالة ملك وإقامة ملك آخر** .

ويحارب عنترة قبيلته عبساً لأول مرة عندما تتحالف عبس وفزارة ضده ويؤيدها الغساسنة الذين رغبوا في إدخالهم الديانة المسيحية .

وهكذا نرى أن عنترة في هذه المرحلة ، انتقل من الصراع من أجل تحقيق مطامحه الذاتية ، ونيل حقوقه من قبيلته وتثبيتها ، إلى انتزاع اعتراف فرسان العرب بفروسيته وزعامته ، ولكنه في هذه المرحلة جعله يمثل دور **القائد الذي يتزعم الجزيرة العربية ضد أعدائها** الذين يحاولون النيل منها محاولاً الابقاء على استقلالها ، والقضاء على كل من تسوّل له نفسه أن يطأ أرضها ، فهو قد حارب الفرس ، وحارب اليمن ، وحارب الغساسنة ، وحارب النصارى الذين حاولوا أن يدخلوا الناس في دينهم ، كما حارب اليهود ، فقد جمعه المؤلف بيهودي ثم غدر به ذلك اليهودي وأسره ، وقد فعل المؤلف ذلك ليصور غدر اليهود .

ويبدو أن المؤلف فعل ذلك ليمهد للدين الجديد ، الذي كان على وشك الظهور . فهو يحارب النصارى واليهود والوثنية .

ولم يكتف المؤلف بالجزيرة العربية وبجيرانها لينقل عنترة إليهم بل أنه نقله عبر البحار ، فنقله في رحلات الى السودان ، وبلاد السند والهند ، وبلاد النجاشي .

فرحلة السودان جعلها بناء على طلب من غمرة ، أم إبنه غصوب ، لتخلص أموالها . وقد فعل المؤلف ذلك ليصنع لقاء بين الساميين والحاميين ، كما جمع من قبل بين العرب والفرس والروم . ويأسر ملكهم ويجبره على المصالحة . وفي السودان يجمعه المؤلف بشيطانة داهية صاحبة حصن الغمام ، وتنتهي المعركة بتدمير حصنها وقتلها هي وابنها .

ويتوغل في رحلته حتى يصل الى بلاد الحبشة وهناك يلتقي بأخواله ، ويكتشف أن أمه زبيبة هي إبنة النجاشي ملك الحبشان ، وكان أبوها قد زوج أمها بالملك بسام وهو أبو الملك همام .

أما رحلة السند والهند فقد جعلها المؤلف بسبب عداء بين أبناء عنترة وفارس إسمه «عبد هياف» فيستنجد هذا الفارس بملك السند والهند صديقه، الذي يسير بجنوده نحو الجزيرة العربية، فيجتمع العرب عند عنترة لمقاومة الغزو الجديد، فيكونون جيشاً كبيراً يقوده عنترة ويرأسه دريد بن الصمة[1].

ثم ينقلنا المؤلف إلى معركة أخرى في قلب الجزيرة إذ يقود الأحباش والسودان جيوشاً جرارة للثأر، ويقابلهم عنترة والفرسان والعرب ويهزمونهم ويلحقون بهم إلى بلاد الحبشة[2].

ويسير المؤلف عنترة بعد ذلك إلى الجزائر حيث ولداه في الأسر، فينتصر ويعود ثانية إلى الحجاز، ويجمع المؤلف بملك الأندلس فيقتله عنترة ...[3].

ويربط المؤلف بين عنترة وقيصر، ويجعل قيصر يكلفه بمهام للقضاء على الخارجين على مملكته، وإعجاباً به وتقديراً له يصنع له ولأخيه شيبوب تماثيل[4].

وعندما يصور المؤلف نهاية ذلك البطل الأسطوري، فإنه يستعين بإشارة وردت في كتب الأدب، وهي أن عنترة قتل على يدي الأسد الرهيص، ولذلك يجعله عائداً من انتصاره على خارج على ملك قيصر واستيلائه على قلب أخت ملك الروم وتزوجها ثم تركها عائداً إلى بلاده، وفي طريق العودة يقدم عليه الأسد الرهيص الحاقد عليه، فيكمن لعنترة بجوار بعض الغدران، فإذا ما أقبل عنترة إلى الغدير رماه الأسد الرهيص بسهم، ويجعل الأسد الرهيص يموت بعد إطلاق السهم مباشرة، وهذا ما لم يرد في الخبر. ويدرك عنترة أن نهايته قد اقتربت ويشير على عبلة بالذهاب إلى أحد الرجلين، إما إبن الطفيل وإما زيد الخيل، وينصحها بالزواج من أحدهما[5].

ويقف عنترة متحملاً آلامه التي تأخذ في الازدياد، ويركب حصانه ويتقلد سيفه ويطلب من عبلة ومن معها من فرسان أن يسرعوا إلى ديار عبس، بينا يقف هو ليحميهم. ويقف فرسان الأعداء الذين هاجموا القافلة بعيدين، لا يجسر أحدهم على الإقتراب منه. ثم يسقط عنترة عن الجواد عندما يتحرك، ويدفنه الأعداء احتراماً له.

ونهاية البطل تتفق مع الرواية التي وصلتنا عن طريق الرواة في أن قاتله الأسد الرهيص، ولكنها تختلف في أن المؤلف جعل البطل يموت في الوقت الذي تصل فيه بطولته إلى القمة.

(1) السيرة ٦/ ٢٥٢.
(2) السيرة ٦/ ٢٦.
(3) السيرة ٨/ ٨٧.
(4) السيرة ٨/ ١٤٦.
(5) السيرة ٨/ ١٧٦.

ولا ينسى المؤلف أن يجعل لعنترة جذوراً ممتدة بعد موته ، فقد صور لنا مواقف أبنائه وبناته ، ويصور بطولاتهم ومعاركهم . وكأنما فعل المؤلف ذلك ليصور لنا أن البطل الأسطوري لا ينتهي دوره بموته ، بل إنه يترك جذوراً تتولى إتمام الرسالة من بعده ، فالمؤلف لا يريده أن يموت ، وأن تموت رسالته .

وهكذا نرى أن المرحلة الأخيرة من حياة عنترة ، جعلها المؤلف أسطورية بحتة ، فعنترة لم يخرج من الجزيرة العربية كما وصلنا من الروايات . كما أن عنترة لم يتصل باحدى الدول ولا بأي من الملوك التي عرض لها المؤلف . ولكن المؤلف فعل ذلك ليجعل من عنترة بطلاً وقائداً يقود الجزيرة العربية في نضالها ضد أعدائها الطامعين فيها .

وقد اعتمد المؤلف على مصدرين أساسيين في سيرته كمادة أساسية ، فالمصدر الأول وهو ما يتصل بحياة عنترة ، فقد استقاه المؤلف مما بين أيدينا من روايات . أما المصدر الثاني فهو ما وصلنا من أخبار عن الجزيرة العربية في العصر الجاهلي ، وما حدثنا به الرواة من صلات الجزيرة العربية بجيرانها ، فاستغلها المؤلف ونسج حولها القصص ليؤكد انهزام أولئك الأعداء أمام قوة العرب ، **يقودهم فارس العرب جميعاً عنترة .**

ولم يجعل المؤلف عنترة بطلاً لا يهزم ولا يؤسر ولا تصيبه الرماح ، فقد أسره أكثر من مرة ، وجرح في إحدى المعارك ، ولكنه كان يثبت بطولته ويرقى بها عندما يصور تخلصه من الأسر بشتى الحيل ، وبالقوة التي يمتلكها . وبمعنى آخر فقد جعله إنساناً ولكنه يتمتع بقوة أهلته لما وصل إليه من مركز عظيم حتى اعتبره أحد المؤرخين أخيل العرب[1] .

أما أيام داحس والغبراء فيبدو أنها لم تحظ باهتمام المؤلف ، وربما تجاهلها اعتماداً على أن الروايات التاريخية لم تذكره في تلك الحروب كثيراً ، وربما ـ وهذا ما نميل اليه ـ أنه لم يشأ أن ينقل إلينا صورة اقتتال بين قبيلتين تربط بينهما أواصر القربى ، ومما يؤيد ما نذهب إليه أن عنترة لم يصوره المؤلف يحارب قبيلته إلا مرة واحدة في سيرته ، وفي لقاءات عنترة بفرسان الجزيرة العربية فإن المؤلف كان يهدف إلى انتزاع اعترافهم به وبفروسيته ليمهد إلى توليه قيادتهم بدليل أنه كان لا يقتل معظم أولئك الفرسان ، في حين لم يكن يتورع عن قتل خصومه من غير العرب . بل أنه كان يجمع بينهم ويربط بينهم بصداقات متينة امتدت حتى موته ، كعامر بن الطفيل وزيد الخيل ، مخالفاً بذلك ما روته كتب التاريخ والأدب .

---

(١) تاريخ العرب ـ فيليب حتي ١/ ١٠٧ .

ونستطيع أن نوجز أوجه الإتفاق بين الصورتين على الوجه الآتي : فهما تتفقان في انتمائه إلى عبس ، وأن أباه عبسي ، وأمه من أصل حامي ، وأنه خاض صراعاً طويلاً ومريراً ضد قبيلته حتى استطاع انتزاع الإعتراف به كفرد حر من أفراد قبيلته ، وتتفقان بأنه عانى تجربة حب لابنة عمه عبلة . وعنترة في الصورتين شاعر من أصحاب المعلقات ، وفارس من فرسان عبس حارب مع قبيلته خصومها من ذبيان وطيء وتميم وغيرها من القبائل .

أما أوجه الإختلاف بين الصورتين فتتمثل في حالتين : الأولى : وهي اتفاق الصورتين في **الفكرة الأساسية ثم تبالغ الصورة الأسطورية في رسمها ، ونجد ذلك متمثلاً** في نسب عنترة من جهة أمه فقد جعلها مؤلف السيرة إبنة ملك الحبشة . كما نجده متمثلاً في صراعه مع قبيلته . فقد بالغ مؤلف السيرة في رسم صور هذا الصراع وأشكاله وأبعاده وجميع أعداء عنترة من عبس يستعينون بأناس من خارج عبس ، وهذا ما لم نألفه في مجتمع تحكمه العصبية القبلية . ونجد هذا أيضاً في حبه لعبلة فقد اختلفت الصورة في السيرة كثيراً عن الحقيقة ، وجعلت عنترة يصارع عاطفته نحو عبلة ، ويتغلب عليها . وينصحها في النهاية عندما يوشك على مفارقة الحياة بالزواج من أحد فارسين حددهما لها .

وأما الصورة الثانية للاختلاف فتتمثل في أمور كثيرة أهمها مولد عنترة ، فالتاريخ يهمل ميلاده ولا يذكره إلاّ عندما شب فارساً ، بينما نرى السيرة ترسم لنا عنترة يولد ميلاداً غريباً يوحي بمستقبله وبطولته الأسطورية . ولم يحدثنا التاريخ أو المصادر الأخرى بأن عنترة كان فارس الجزيرة العربية ولا فارس عبس بلا منازع ، بل إن الروايات تشير إلى أنه بعد صراع مرير اعترف به كفارس من فرسان عبس . ويعقد مؤلف السيرة صلات كثيرة بين عنترة والمرأة ، ويجعله يكرر صورة شداد وزبيبة . وبينما نجد الروايات تسكت عن ولد عنترة فإن مؤلف السيرة يجعل عنترة ينجب أولاداً ، ولا يلتقي بهم إلاّ حينما يشبوا فرساناً ، ويبارزهم في ساحات الوغى فيعرفهم .

وأخيراً فإن من الملامح الأسطورية البارزة في السيرة هي رحلات عنترة في الجزيرة وخارجها وخوضه غمرات القتال ضد جيوش كثيرة متعددة الأجناس والألوان، وتطوافه به لبلاد السند والهند شرقاً ، إلى المغرب والأندلس غرباً ، إلى السودان والحبشة جنوباً ، إلى بلاد فارس والروم شمالاً .

ولكننا مع ذلك نستطيع أن نزعم أن عنترة البطل الأسطوري مازالت له جذور تاريخية تربطه بواقع كان قائماً . وكل ما فعله مؤلف السيرة أنه استغل إشارات تاريخية بسيطة ونسج عليها من خياله بما يناسب روح العصر الذي كتبت فيه ، ويناسب وجدان الأمة آنذاك .

ونود أخيراً أن نعقد مقارنة عاجلة بين بطلي حربي البسوس وداحس والغبراء . وأول أوجه الإتفاق بين البطلين أن الصراع بين عرب الشمال وعرب الجنوب بارز في السيرتين . ونرى كذلك أن السحر والتنجيم يلعبان دوراً هاماً في تحريك أحداث السيرتين . وفي السيرتين نجد مهلهلاً وعنترة يصارعان الوحوش الكاسرة ويقهرانها .

أما أوجه الإختلاف فأبرزها أن صورة مهلهل في سيرته بطل يهب للأخذ بثأر أخيه الذي قتل غدراً ، أما صورة عنترة فهو بطل يحارب الظلم ويطارده أينما وجد ، داخل الجزيرة العربية وخارجها . ومنها أن مهلهلاً لم يخض صراعاً مع قبيلته ، ولم يتآمر عليه فرسانها ، وعلى العكس من ذلك نجد عنترة يتآمر عليه الكثيرون من قبيلته ، ولم ينصرفوا عنه إلا حينما أجبرهم على الإعتراف بمنزلته ومكانته في القبيلة . ولم يعقد مؤلف سيرة المهلهل لقاءات بين البطل وفرسان الجزيرة وعلى العكس من ذلك فعل مؤلف سيرة عنترة إذ أنه جعله يلتقي مع معظم فرسان الجزيرة البارزين ، ويقاتلهم ويغلبهم ويعترفون له بالسيادة عليهم . وقد أغفل مؤلف سيرة المهلهل ذكر أولاد المهلهل ، بينما اهتم مؤلف سيرة عنترة بأولاد عنترة وجعلهم يكملون دور أبيهم ورسالته . وأخيراً فإن المرأة لعبت دوراً هاماً في السيرتين ولكنه مختلف ، ففي سيرة مهلهل لعبت جليلة زوجة كليب دوراً هاماً في التآمر على المهلهل ، وكانت المنفذ لمخطط القضاء عليه ، كما لعبت اليمامة بنت كليب دور المحرّض لعمها على أن يستمر في الحرب . أما في سيرة عنترة فقد كانت عبلة محور السيرة والحافز الذي يحفز عنترة على المضي قدماً في إنتزاع حقوقه ليصبح في منزلة السادة وليستحق عبلة ، بل وغادر الجزيرة العربية طلباً للنوق العصافير مهراً لها ، كما بارز مشاهير الفرسان الذين تقدموا يطلبون الزواج بها .

دراسة موضوعية وفنية في شعره :

عنترة من الشعراء الفرسان ، وهو أحد أصحاب المعلقات السبع ، ويروي ابن الأنباري أنه قبل أن يقول معلقته كان لا يقول من الشعر إلا البيت والبيتين في الحرب ، إلى أن سابه رجل عبس فذكر سواده وأمه وإخوته ، فقال له الرجل مما قال : أنا أشعر منك . قال له عنترة : ستعلم[1] .

فعنترة إذا لم يكن يقول في الحرب إلا البيت أو البيتين، وعندما نبحث عن شعره في غير الحرب قبل المعلقة فإننا لا نظفر بطائل . وهذا ما حدا بالكثير من الباحثين إلى القول بأن هذه

(1) شرح المعلقات السبع الطوال ٢٩٣ - ٢٩٤ .

المقدمة موضوعة لافتعال مناسبة للمعلقة ، إذ لا يعقل ألا يتقن الشاعر إلا قول البيت أو البيتين ثم ينظم معلقة تزيد على الثمانين بيتاً .

ونفتش عن شعر عنترة في غير الحرب وما يتصل بها فإننا لا نظفر بشيء ، وبخاصة الشعر الذي قاله في الشطر الأول من حياته . وقد أوحى هذا للأصمعي بالقول بأن عنترة ذهب بعامة ذكر الحرب[1] . معتمداً على أن الشعر الذي رواه لنا الأصمعي متصل بالحرب وما يتصل بها .

ونستطيع أن نقول أن شعر عنترة الذي وصلنا لا يمثل كل شعره ، فهو لا يدور إلا حول موضوعين الحرب والحب وهما يمتزجان معاً . كما أن كثرة المقطوعات فيه ربما أيدت بعض هذه الشكوك ، ولا نطمئن إلى ما ذكره السيوطي من أن عنترة من الشعراء المقلين[2] ، لأن الحرب تنطق الشعراء ، فما بالنا وعنترة قضى جل حياته على ظهر فرسه محارباً أكثر من خصم . وإذا حاولنا البحث عن تعليل لفقدان شعره فإننا لن نقف على سبب محدد ، وبخاصة أن الشعر المنسوب إليه كثير ، ولكننا نعتقد أن شعره ضاع كما ضاع شعر غيره من الفرسان ، وشعر الجاهليين عموماً . كما نضيف إلى أن الرواة تحرّجوا من نقل كل ما نسب إليه لكثرة ما نسب إليه ، وما نسج حوله من قصص .

أما منزلة عنترة الشعرية فهي عند الأصمعي أنه من أشعر الفرسان[3] ، واعتبره الضبي من الفحول[4] ، وجعله أبو عبيدة في الطبقة الثالثة مع المرقش الأكبر وكعب بن زهير والحطيئة وخداش بن زهير ودريد بن الصمة وعروة بن الورد والنمر بن تولب والشماخ بن ضرار[5] . بينما جعله إبن سلام في الطبقة السادسة مع سويد وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة[6] .

ونستطيع أن نطمئن إلى ثلاث وثلاثين قصيدة ومقطوعة رواها الأصمعي ورواها البطليوسي ، وانفرد ببعضها البطليوسي ، منها عشر قصائد يزيد عدد أبياتها عن عشرة أبيات ، وثلاث وعشرون مقطوعة . ويقودنا هذا إلى تبرير هذه الظاهرة ، ومحاولة تعليلها ، فمن المحتمل أن تكون هذه المقطوعات قصائد في الأصل ، ففقدت بعض أجزائها ، ولم يبق منها إلا

(1) فحولة الشعراء للأصمعي ٣٥ .
(2) المزهر للسيوطي ٢/٤٨٧ .
(3) فحولة الشعراء للأصمعي ٢٧ .
(4) جمهرة أشعار العرب ٧٦ طبعة سنة ١٣٣٠ هـ .
(5) جمهرة أشعار العرب ٧٦ ـ طبعة سنة ١٣٣٠ هـ .
(6) طبقات ابن سلام ١٢٧ .

مقطوعات ، وثمة إحتمال آخر وهو أن حياة الفروسية وما يواكبها من إضطراب وعدم استقرار لا يناسبها إلا المقطوعات ، فالشاعر لا يجد الوقت الكافي للإطالة في نظم الشعر ، وأخيراً لم لا يكون الموضوع هو الذي يملي على الشاعر قلة عدد الأبيات؛ فبعضها نظمه في غرض لا يتطلب الإطالة .

ونستطيع كذلك أن نقسم شعر عنترة الذي قاله في الحماسة والحرب الى قسمين متميزين ، القسم الأول وهو ما قاله في خضم المعارك وقعقعة السيوف ، والقسم الآخر قاله بعد الحرب ، ودفعه إلى قوله الفخر ببطولاته وبطولات قومه .

أما موضوعات الشعر التي نميزها في ديوان عنترة فهي : الفخر والحماسة وحديث المعارك ، والتهديد والوعيد ، والهجاء والرثاء ، وشعر الحب والحرب .

وقبل أن نخوض في عرض هذه الموضوعات نود أن نتحفظ فنذكر أن بعض هذه الاغراض تضمنته قصيدة أو مقطوعة واحدة ، وبعض القصائد اشتمل على أكثر من غرضين ، وهذا لا ينفي أن بعض المقطوعات انفرد بها موضوع واحد .

أما حديث المعارك عند عنترة ، فهو مادة عنترة الشعرية الأساسية ، وهو مادة فخره .ويأخذ حديثه عن المعارك عدة صور ، فهو تارة يتحدث عن جيش قومه ويصوره كأن سراياه عصائبُ طير تتجه صوب الماء لتشرب ، وهذه السرايا مزودة بالرماح الردينية التي تنفذ في حجباتهم ، وكأن أصواتها هذه كأصواتها وهي تنفذ من ثقب الثقاف حين تثقف[1] :

كأنَّ السرايا بيـن قَوٍّ وقارةٍ   عصائـبُ طـيرٍ يَنْتَحِـينَ لَمْشرَبِ

ويتحدث عن بعض أسلحة هذا الجيش فيقول :[2]

تَصيحُ الرُّدَيْنِيَّاتُ في حَجَباتِهِمْ   صياحَ العَوالي في الثقافِ المُثقَّبِ[3]
كتائبُ تُزْجَى فوقَ كلِّ كتيبةٍ   لـواء كظـلِّ الطائرِ المُتَقلِّبِ

وعندما يتحدث عن كفاءة جيش قومه ، ومصابرتهم في القتال ، وما يفعلونه أثناء المعركة ، ويختم المشهد بأثر ذلك في نتيجة المعركة ، وذلك عندما التقوا بالجفار ذلوا ، أي الأعداء

---

(1) الديوان ١٩ .   (2) الديوان ١٩ .

(3) الردينيات : الرماح المنسوبة إلى ردينة . والحجبات : جمع حجبة وهي حرف الورك . والعوالي : رؤوس القنا أو انصافها التي تلي الأسنة والثقاف : ما تسوى به الرماح . والمثقب : المثقوب .

ورد القوم على أعقابهم خاسرين على الرغم من أنهم لم يكونوا عزلاً من السلاح[1].

فلم أرحيّا صابروا مثل صبرنا ... ولا كافحوا مثل الـذين نُكافحُ[2]
نُزاحفُ زَحْفاً أو نُلاقي كَتيبةً ... تُطاعنُنا أو يَذْعَرَ السَّرْحَ صائحُ[3]
فلما التقينا بالجفار تَضعْضَعوا ... وَرُدَّت على أعقابهنَّ المسالحُ[4]
وسارتْ رجالٌ نحو أُخرى عليهم الحَديدُ كما تَمشي الجمالُ الدَّوالحُ[5]
إذا ما مَشوا في السابغات حسبتهُم ... سُيولاً وقد جاشَتْ بهِنَّ الأباطحُ

وأن جيش قومه يقتل الأعداء علانية في ساحة الوغى عندما يثور الغبار فوق الرؤوس، ولا يقتلونهم غدرا كما يفعل الآخرون الذين يقتلون الفرسان بعد أن يأسروهم، كما فعلوا بقرواش العبسي حينما قتلوه وهو أسير فيقول[6]:

قتلتُ سَراتَكُمْ وخَلَسْتُ منكُمْ ... خَسيلاً مثلَ ما خُسِلَ الوَبارُ[7]
ولـم نقتلكـم سراً ولكنْ ... عـلانيةً وقد سَطَـعَ الغُبارُ[8]

وعلى الرغم مما اتهم به عنترة من فردية مفرطة تسود شعره، وعلى الرغم مما عانى من تآمر قومه عليه، فإن لبطولات فرسان قومه حديث في شعره. نسمعه يصور لنا بطولة ورد بن حابس العبسي حينما قتل نضلة الأسدي فيقول[9]:

يُذَبِّبُ وَرْدٌ على إثْرِهِ ... وأدركه وقعُ مِردي خَشِبْ[10]
تتابعَ لا يبتغي غَيْرَهُ ... بأبيضَ كالقَبَسِ المُلتَهِبْ[11]

---

(1) الديوان ٤٢ - ٤٣.
(2) المكافحة: المضاربة والمدافعة تلقاء الوجه.
(3) السرح: المال السائم.
(4) تضعضعوا: ذلوا. والمسالح: جمع مسلحة وهم قوم ذو سلاح.
(5) الدوالح: التي تمشي متثاقلة من ثقل ما تحمل.
(6) الديوان ٧٨ - ٧٩ - أمثال الضبي ٣٦.
(7) خسل: نفي. والخسيل: الرذل من كل شيء. والوبار: جمع وبر وهي دويبة على قدر السنور غبراء أو بيضاء. من دواب الصحراء.
(8) سرا: ختلا. وسطع: انتشر.
(9) الديوان ١٨.
(10) يذبب: يعجل منفردا. والمردي: حجر يرمى به.
(11) تتابع: توالى، والأبيض: السيف، والقبس: الشعلة تقتبس من معظم النار.

وتقتل بني العشراء قرواشاً بحذيفة ، فيرثيه عنترة رثاء فارس لفارس ، لا يبكيه ولكنه يذكِّر الأعداء بما فعله بهم هذا البطل في ميدان الوغى قبل أن يغدروا به فيقول :[1]

وأطعــنُ في الهيجا إذا الخيلُ صَدَّهَا | غــداةَ الصبــاحِ السَّمْهَرِيُّ المُقَصَّدُ[2]
فهــلاَّ وفي الغَـبْـوَاءِ عمرُو بنُ جابرٍ | بذِمَّتِــهِ وابــنُ اللقيطــةِ عِصْيَدُ[3]

ويحلو لفارس عبس أن يعقد مقارنة بين فرسان قومه وفرسان الأعداء يوم التقى الجمعان عند جفر الهباءة فالأبطال تحملهم الخيل ، وتنطلق بهم كالسهام ، وأينما حلوا يثيرون النقع الذي يصاحبه الموت الزؤام للأعداء . وفرسان كهؤلاء يحملون إلى فرسان الفريق الآخر تحملهم خيل مسومة أصيلة ، وهم هنا فرسان قومه ، وعلى كل فرس فارس جبار ، متعطش لشرب الدماء ، دماء الأعداء ، وبأيديهم السيوف والرماح القاطعة اللامعة . وعندما يلتقي الطرفان يسكت كل صوت غير صوت ضرب السيوف والرماح ، وصوت الرامي ، ووقع المرمي الـذي أصابتـه الرماح :[4]

وخيلٍ تحمـلُ الأبطـالَ شُعْثاً | غداةَ الرَّوْعِ أمثالَ السهامِ[5]
عنـاجيج تَـخُـبُّ على رَحاها | تثـيرُ النقـعَ بالموتِ الزُّؤامِ[6]
إلى خيلٍ مُسَوَّمَـةٍ عليها | كماةُ الرمحِ في رَهَـجِ القَتامِ
عليهـا كلُّ جَبَّـارٍ عَنيدٍ | إلى شُرْبِ الدماءِ تراهُ ظامي
بأيديـهـم مُهَنَّـدَةٌ وسُمْرٌ | كأن ظُباتِها شُعَـلُ الضِّرامِ[7]
فجـاؤا عارضـاً بَرِداً وجئنا | حريقـاً في غريفٍ ذي ضِرامِ[8]
وأسكتَ كلُّ صوتٍ غيرُ ضربٍ | وعتْرَسَـةٍ ومَرْمِـيٍّ ورامي[9]

---

(1) الديوان ٤٧ .
(2) الهيجا : الحرب ، والسمهري : الرمح الصلب العود ، والمقصد : المكسر بنصفين حتى يبين .
(3) الغبواء : اسم أو لقب ، وعصيد : المأبون ، ومنه ، عصدته على الأمر : اذا أكرهته عليه .
(4) الديوان ١٥٨ .
(5) شعثاً : جمع أشعث ، وهو المتسخ الرأس والبدن .
(6) عناجيج : جمع عنجوج وهو النجيب من الإبل . ونخب على رحاها : تسرع حيث نسرح .
(7) ظباتها : جمع ظبة وهي حد السيف .
(8) الغريف : الشجر الملتف .
(9) عترسة : شدة وعنف .

هذا فيما يتعلق بقومه ، أما حديثه عن معاركه ، أو عن دوره في القتال فقد تركزت على مواقف له مع فرسان ، يلتقي بهم ، ثم يصرعهم . وعنترة يختار أولئك الفرسان ذوي سمات خاصة متميزة ، فهو قد ترك زوج غانية مجدلاً في ساحة الوغى ، وقد طعنه طعنة نجلاء ، جعلت دمه يسيل منه بغزارة[1] :

وحليلِ غانيةٍ تركتُ مُجدَّلاً	تمكو فريصتُه كَشِدْقِ الأَعلَمِ[2]
سبقَتْ يدايَ له بعاجلِ طعْنَةٍ	ورشاشِ نافذةٍ كلونِ العَنْدَمِ[3]

ويصور لنا في مشهد آخر فارساً مدججاً بالسلاح تحاشاه الفرسان خوفاً منه ولكن عنترة جادت له يداه بطعنة عاجلة بسيف صادق الطعن ، فشك بالرمح الأصم ثيابه ، ويخرج الدم غزيراً منه ليدل السباع فيأتينه ليأكلن لحمه ، وهو يعلل لنا قتله على الرغم من أنه فارس كريم ، ولكن الكريم لا يحرم دمه على القنا :[4]

وَمُدَجَّجٍ كَرِهَ الكُماةُ قِتالَهُ	لا مُمْعِنٍ هَرَباً ولا مُسْتَسْلِمِ[5]
جادَتْ له كفِّي بعاجلِ طَعْنَةٍ	بمثقَّفٍ صَدْقِ الكعوبِ مُقوَّمِ[6]
برحيبةِ الفَرْغَيْنِ يهدي جَرْسُها	بالليلِ معتسَّ الذئابِ الضُّرَّمِ[7]
فَشَكَكْتُ بالرُّمحِ الأَصَمِّ ثيابَهُ	ليسَ الكريمُ على القنا بمحرَّمِ
فتركْتُهُ جَزَرَ السِّباعِ يَنُشْنَهُ	يَقْضِمْنَ حُسْنَ بنانِهِ والمِعْصَمِ

ويتكرر هذا المشهد ، وهو يصور فيها دائماً فارساً شجاعاً ، يصرعه عنترة ، ويترك لحمه للسباع لتأكله ولكنه لا ينكر هزيمة لحقت به ، بل يذكرها مع تعليل هزيمته لأنه كان حاسراً ،

---

(1) الديوان ١٤٩ .

(2) حليل : زوج ، والغانية : التي استغنت بزوجها ، أو الشابة ، وتمكو : تصفر ، والفريصة : الموضع الذي يرعد من الدابة والانسان اذا خاف ، والأعلم : المشقوق الشفة العليا .

(3) النافذة : الطعنة التي تنفذ الى الجانب الآخر ، والعندم : صبغ أحمر .

(4) الديوان ١٥٠ - ١٥١ .

(5) المدجج : الذي توارى بالسلاح .

(6) المثقف : المقوم والمصلح . والكعوب : عقد الأنابيب ، وصدق : صلب .

(7) الرحيبة : الواسعة ، والفرغ : ما بين كل عرقوبين ، والجرس : الصوت ، والمعتس : المبتغى المطالب ليلاً ، والضرم : الجياع .

(8) ثيابه : درعه وقيل : قلبه ، وقيل : بدنه .

(9) الجزر : جمع جزرة وهي الشاة والناقة التي تذبح وتنحر ، وينشنه : يتناولنه .

ويقرنها بصورة أخرى ليبني السامع هذه الهزيمة ، فيذكر قتل فارس آخر وتركه ملطخاً بدمائه التي تنزف منه : [١]

فلو لاقيتني وعليَّ درعي علمتَ علامَ تُحتمَلُ الدُّروعُ
تركتُ جُبيلَةَ بنَ أبي عَديٍّ يَبُلُّ ثيابَهُ عَلَقٌ نَجيعُ [٢]

ويبين لنا ما يفعله في المعركة ، فهو يكر عليهم إن لحقوا به وبقومه ، وعندما يلتحم الفريقان يشد على الأعداء ، أي أن عنترة يهجم عندما تلتحم الخيل ويحس بأن قومه في ضيق ، وهو ينزل إلى ساحة الوغى ويثبت عند اللقاء حينا يفر الفارس منها فزعاً : [٣]

إن يُلحقوا أكْرُرْ وإن يُستَلحَموا أشْدُدْ وإن يُلْفَوا بضَنْكٍ أنْزِلِ
حين النزولُ يكونُ غايةَ مِثْلِنا ويفِرُّ كلُّ مضلَّلٍ مُسْتَوْهِلِ [٤]

ويرافق عنترة في معاركه فرسه وسيفه ورمحه ودرعه وأدوات قتاله ، وهذه يضفي عليها عنترة سمة الشجاعة والصبر والقوة والمنازلة ، فهو في معاركه يتنقل على فرس يدحو بيديه دحوا ، وهذا الحصان تتعاوره الرماح من الفرسان الشجعان وهو يتحملها صابراً لا يشكو ولا يئن : [٥]

إذ لا أزالُ على رَحالةِ سابحٍ نَهْدٍ تَعاوَره الكُماةُ مُكَلَّمِ [٦]

ويصور لنا هذا الحصان في مشهد آخر وكأنه أداة من أدوات القتال فهو يرمي الأعداء بثغرة نحره وبلبانه حتى لبس نحره ولبانه ثوباً من الدم : [٧]

ما زلتُ أرميهمْ بثُغْرَةِ نَحْرِهِ ولَبانِهِ حتى تَسَرْبَلَ بالدَّمِ [٨]

ويكرر هذا المشهد في قصيدة أخرى ، فهو يكر على الأعداء مهره وهو كليم ، وقد تقلد

---

(١) الديوان ١٠٥ .

(٢) علق : دم ، ونجيع : ما ضرب لونه الى السواد .

(٣) الديوان ١١٩ .

(٤) مستوهل : ضعيف يفزع .

(٥) الديوان ١٤٩ .

(٦) الرحالة : السرج يعمل من جلود الشاة بأصوافها يتخذ للجري الشديد ، والسابح من الخيل : الذي يدحو بيديه دحوا كأنه يعوم ، والنهد : الغليظ ، والكمي : الشجاع .

(٧) الديوان ١٥٣ .

(٨) الثغرة : الهزيمة التي في الحلق .

بسبائب حمر هي دماؤه التي تسيل ، وتقع السهام على موضع واحد تقريباً من هذا المهري وهو نحره وكأنها توارته :[١]

أُكَرُّ عليهــم مُهْـري كَلِيماً   قلائِــدُهُ سبائِبُ كالقِرامِ[٢]
إذا شَكَتْ بنافـذةٍ يَداهُ   تَعَرَّض موقفــاً ضَنْكَ المُقامِ
كأنَّ دُفُـوفَ مَرْجِـعِ مِرفَقَيْهِ   توارتهـا منـازيعُ السِّهامِ[٣]

وعندما يتحدث عنترة عن سيفه ودوره في المعركة ، فإنه كشعاع البرق ، قاطع لا فلول فيه ولا صدوع ، رقيق الحد ليجمع بين الخفة وسرعة الفتك بالأعداء . ويحمل رمحاً مستقيم القناة ، أملس ، صلباً ، إذا لمع ليلاً يحسبه الرائي ناراً ملتهبة :[٤]

وسيفـي كالعقيقـةِ وهـو كِمْعي   سِلاحِي لا أَفَلَّ ولا فُطارا[٥]
وكالوَرَقِ الخِفافِ وذاتُ غَرْبٍ   ترى فيها عن الشِّرْعِ ازْوِرارا[٦]
ومُطَّرِدُ الكُعُـوبِ أحصُّ صَدْقٌ   تخـالُ سِنانَـه باللَيل نارا[٧]

والحماسة والفخر عند عنترة قسمان ، قسم فردي يخصه هو ، وقسم آخر قبلي متصل بقبيلته ، والقسم الأول أغلب في شعره . أما القسم الفردي فإن مادته الأساسية هي الفخر ببطولته في المعارك ، وقد عرضنا لهذا الجانب أو لمعظمه في حديثنا عن المعارك ، وقد كان عنترة يفخر بأنه قائد القوم ، وبأنهم عندما يشتد الكرب فإنهم يدعونه لنجدتهم ، وهذا ما يشفي نفسه ويخفف من وطأة ما يحس من محاولة قومه أو بعضهم التقليل من شأنه :[٨]

ولقد شَفَى نفسي وأبرأ سُقْمَها   قِيلُ الفوارسِ وَيْكَ عَنْتَرَ أَقْدِمِ

(١) الديوان ١٥٣ .
(٢) الكليم : الجريح ، وسبائب : جمع سبيبة وهي الشقة الرقيقة ، والقرام : ثوب من غليظ الصوف يفرش في الهودج ، وقيل : هو الستر الرقيق الأحمر وهو المراد هنا .
(٣) الدفوف : جمع دف وهو الجنب ، ومنازيع : جمع منزعة ، من نزعت : اذا رميت .
(٤) الديوان ٧٦ .
(٥) العقيقة : شعاع البرق ، والكمع : الضجيع ، وأفل : ثلم ، وفطار : فيه صدوع وشقوق .
(٦) غرب : حدة ، والشرع : الأوتار .
(٧) الكعوب : جمع كعب ، وهو عقدة ما بين الأنبوبتين من القصب والقنا . والاطراد : استقامة الشيء ، وأحص : أملس ، وصدق : صلب مستو .
(٨) الديوان ١٥٤ .

وعلى الرغم من عقدة عنترة من جهة أمه فإنه لم يستطع تجاهلها ، بل ذكرها وافتخر بأنه يتقدم الجيش كقائد لهم وأن أباه من خير عبس ، وأمه حامية الأصل :(١)

يقدمه فتىً من خيرِ عَبْسٍ أبـوه ، وأمـه من آلِ حَامِ

ويكرر هذا المعنى في موضع آخر ، ويضيف إلى أنه يعوض هذا الذي يلحقه من ضعة النسب من جهة أمه ببطولته في القتال حيث يقول :(٢)

إني امرؤٌ من خيرِ عبسٍ منْصِباً شَطْرِي ، وأحْمِي سائري بالمُنْصلِ

وعنترة كفارس يأبى الظلم وينفر منه ، ويفضل أن يبيت على الطوى على أن يصيبه ظلم أو يذل لقوم ويصور البيت التالي نفسية الفارس العربي على مر الأزمان وما ينبغي أن تكون عليه دوماً(٣) :

ولقد أبيتُ على الطَّوي وأظلّهُ حتى أنـالَ به كريمَ المأكلِ

وعنترة الذي عرفت عنه القوة والبطش بالأعداء ، إنما هو سهل مخالقته بشرط ألا يظلم ، لأنه إذا ظلم فإنه لن يكون متساهلاً مع الـذين يظلمونه ، بل سيذيقهـم كأساً مرة الطعم كالعلقم :

أثْنِـي عليَّ بما علمتِ فإنّني سَهْلٌ مخالقتي إذا لم أُظْلَمِ
فإذا ظُلِمتُ فإن ظلمي باسلٌ مُرٌّ مَذاقتُه كَطَعْمِ العَلْقَمِ(٤)

وافتخر بجملة فضائل تعتبر من شيم الفارس العربي ، كالكرم ، ونبل الأخلاق ، ونجدة الملهوف ، وكف لسانه عن شتم اعراض الناس رغم شتمهم له ، وشكر المنعم على نعمه . وقد عرضنا لها في موضع آخر من هذا البحث .

أما الجانب الآخر من شعره في الفخر ، فهو ما يتصل بالفخر القبلي ، وهو كثير في شعره على الرغم مما شاع عن فرديته بسبب صراعه مع قبيلته ، وسنعرض لبعض نماذج من هذا الفخر

(١) الديوان ١٥٩ .
(٢) الديوان ١١٩ .
(٣) الديوان ١١٩ .
(٤) الديوان ١٤٨ .

الذي تركز على الفخر بفرسان قبيلته وعلى بطولتهم يوم اللقاء . هذا عنترة يحدثنا عن فرسان قومه يوم حرحان فيقول[1] :

أبَيْنَا فلا نُعْطِي السواءَ عَدُوَّنا ... قياماً بأعضادِ السَّراءِ المعطَّفِ[2]

بكلِّ هَتوفٍ عُجْسُها رَضْوِيَّةٍ ... وسَهْمٍ كسَيْرِ الحِمْيَرِيِّ المُؤنَّفِ[3]

فإنْ يكُ عِزٌّ في قُضاعَةَ ثابتٌ ... فإنَّ لنا برَحْرَحانَ وأسْقُفِ

كتائبَ شُهْباً فوقَ كلِّ كتيبةٍ ... لواءٌ كظِلِّ الطائرِ المُتصرِّفِ[4]

وغادرْنَ مسعوداً كأنَّ بنحرِهِ ... شُقَيقَةَ بُرْدٍ من يمانٍ مُفَوَّفِ[5]

ويفخر بهؤلاء الفرسان في موضع آخر وبصبرهم على الكر والفر ، وتحملهم الآلام ، وحماستهم ، وفروسيتهم فيقول[6] :

وفوارسٍ لي قد علمتَهُمُ ... صُبُرٍ على التَّكرارِ والكَلْمِ[7]

يمشون والماذِيُّ فوقَهُمُ ... يتوقَّدون توقُّدَ الفَحْمِ[8]

كم من فتىً فيهم أخي ثقةٍ ... حُرٍ أغرَّ كغُرَّةِ الرِّئْمِ[9]

ولا ينسى أن يعقد مقارنة بينهم وبين فرسان الأعداء فهؤلاء ، أي الأعداء ، سود الوجوه[10] :

ليسوا كأقوامٍ علمتُهُمُ ... سُودُ الوجوهِ كمَعْدِنِ البُرْمِ

ولم يفخر بقومه بأمور غير متصلة بالحرب ، ولهذا تعليل ، فيما نعتقد ، بأن الفخر

---

(1) الديوان ١٠٧ ـ ١٠٨ .

(2) السواء : النصفة ، وأعضاد : أقوياء ، والسراء : شجر تتخذ منه القسي .

(3) الهتوف : المصوتة عند الرمي لشدة وترها ، والعجس : عجز القوس ومقبضها ورضوية : منسوبة إلى رضوى ، وهو جبل بالمدينة ، وسهم مؤنف : مقدود على قدر واستواء .

(٤) شهب : بيض ؛ والمتصرف : المتقلب .

(٥) شقيقة : تصغير شقة .

(٦) الديوان ١٥٥ .

(٧) التكرار : كثرة الكر ، والكلم : الجرح .

(٨) الماذي : السلاح كله من الحديد الخالص .

(٩) أخي ثقة : يوثق بما عنده من الشجاعة والخير ، والرئم : الظبي الخالص البياض .

(١٠) الديوان ١٥٥ .

بفرسانهم وبفروسيتهم متصل بالفخر بنفسه من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأن عنترة نفسه خلا شعره تقريباً من الشعر القبلي غير المتصل بالحرب ، أو على الأقل خلا الشعر الذي بين أيدينا .

والتهديد والوعيد من موضوعات شعر عنترة ، ولكنه ليس بالكثير وحيثما يتوعد قوماً فإنما يتوعدهم مذكراً إياهم بما فعله بغيرهم ، أو ببعض أبطالهم في أيام سابقة ، ويفعل ذلك لما سيحدثه من أثر نفسي فيهم عندما يدركون ما حدث لغيرهم وما سيحدث لهم ، توعد حي عميرة من فزارة فقال مذكراً إياها بضعفها[1] :

سائِلْ عُمَيْرَةَ حيث حلَّتْ جَمْعَها   عند الحروب بأيِّ حَيٍّ تُلْحَقُ ؟

ثم يذكرهم بحذيفة وبمصيره فيقول[2] :

واسألْ حُذَيْفَةَ حين أرَّشَ بيننا   حرباً ذوائبُهـا بمـوتٍ تَخْفِقُ

ثم ينتقل إلى التهديد المباشر فيقول :

فلتعلمـنَّ إذا التقتْ فُرسانُنا   بلـوى النُّجَيْرِ أنَّ ظَنَّكَ أحمقُ

وعندما تقتل فزارة مالك بن زهير صديق عنترة ، يقف ليرثيه مصوراً بطولة ذلك الفارس ، وما فعله بهم ، وأثر موته ، ويختتم القصيدة ببيتين يتوعد فيهما فزارة ، ويقسم إن بقي بعد حياً وأمكنه الدهر ليفعلن بهم ما لو كان مالك حياً لقرت عيناه :

فسوف ترى إن كنتُ بعدكَ باقياً   وأمكنني دهرٌ وطولُ زَمانِ
وأُقسمُ حقاً لو بقيتَ لِنظرَةٍ   لَقَرَّتْ بها عيناك حـين تراني[3]

وسلاح عنترة الآخر غير السيف والرمح ، الشعر وهو يدرك أثر ذلك الشعر إن بلغ قوماً مع ما يعلمون من القوة التي يمتلكها صاحب هذا الشعر . فالقول مع القدرة على العمل له مفعول الفعل نفسه ، ولنسمعه يتهدد بني العشراء عندما قتلوا قرواشاً فيلة فيقول :

سيأتيكم عني وان كنتُ نائياً   دُخانُ العلنديِّ دون بيتي مِزْوَدُ
قصائدُ من قيل امرىءٍ يحتذيكُمُ   بني العُشَراءِ فارتدوا وتَقَلَّدُوا[4]

---

(1) الديوان ١١١ .

(٢) عميرة : من فزارة ، وحيث حلت جمعها : أي بجمعها .

(٣) الديوان ١١١ .   (٤) الديوان ١٧٧ ـ ١٧٨ .

(٥) الديوان ٤٧ ـ ٤٨ .

ويتصدى عنترة لأولئك الذين يتوعدونه وقومه ، أو يهمون بغدر قومه ، فقد حالفت عبس بني كعب ، وهموا بغدر بني عبس ، فقال عنترة محذراً ومنذراً :

قلـتُ لكعـبٍ والقَنـا مُشْتَجِرهْ ... تعلّمـي يا كعـبُ وامشي مبصرة

ثم اذهبي مني وكوني حَذِره[1]

وتوعد عمرو بن أسود وقومه بني سعد بن عوف بن مالك بن زيد بن تميم ، فقال مذكراً إياهم بأن رماحهم قد تكسرت فشدت بالعباء ، وهي سوداء لقدمها ، وهم لم يسلبوها قوماً لأنهم جبناء ، وهم ليسوا بأغنياء فيشتروها ، وهذه سخرية مرة من الذين يتوعدونه ويختم هذا الرد بهجاء لعمرو بن أسود ويشبهه بفي ناقة عطشى أسرعت بعد أن اشتد عطشها إلى مورد الماء[2] :

قد أوعدوني بأرماحٍ مُعَلَّبَةٍ ... سودٍ لُقِطْنَ من الحَوْمان أخْلاقِ[3]

لم يَسْلُبوها ولم يُعْطَوا بها ثمناً ... أيدي النعام فلا أسقاهُمُ الساقي

عمرو بن أسْودَ فازبّاء قاربة ... ماءَ الكُلاب عليها الظَّبْيُ معناق[4]

ويقل الهجاء في شعر عنترة ، إذ لا نكاد نعثر له إلا على قصيدة واحدة يهجو فيها عمارة بن زياد العبسي هجاء صريحاً ، وقصيدة أخرى يعرض بقيس بن زهير . وكان الهجاء عند عنترة للذين يحاولون النيل منه ومن فروسيته ، أو يحاولون الطعن في نسبه ، وكان رده عليهم إيجابياً بأن يذكر لهم بلاءه وحروبه ومدافعته عنهم . وكأني به كان يربأ بنفسه وهـو الفـارس المعلـم أن يستعمل بذيء الكلام في هجائهم ، وكان يرى أن أفضل طريقة هي تذكيرهم بأفعاله يوم جبنوا ، ويذكرهم بما يتحلى به من كريم الخصال . لقد غزت بنو عبس بني تميم وعليهم قيس بن زهير ، فانهزمت عبس ووقف عنترة لهم فحامى عن الناس ، فساء قيساً ما فعل عنترة ، ولم يجد عنترة طريقة أفضل للرد عليه من تذكيره بما فعله فقال[5]:

---

(1) الديوان ٢٠٠ .

(2) الديوان ١١٠ .

(3) العلب : الذي حزم مقبضه بعلباء البعير ، وهو عصب العنق ، ولقطن : أي لم تكن عندهم من سلب ولا شراء ، وأخلاق : بالية .

(4) فازباء : فم زباء ، وزباء : كثيرة شعر الأذنين والعينين ، والقاربة : التي تطلب الماء ، ومعناق مسرعة .

(5) الديوان ١١٩ ـ ١٢٠ .

والخيلُ تعلـم والفـوارسُ أنني فرَّقتُ جمعَهُـمُ بطعنـةِ فَيْصَلِ
إذ لا أُبادرُ في المَضيقِ فوارسي ولا أُوكَلُ بالـرعيلِ الأولِ[1]
ولقد غدوتُ أمامَ رايةِ غالبٍ يومَ الهياجِ ومـا غدوتُ بأعزلِ

ولا ينسى أن يذكر قيساً وغيره بأنه في ساحات الوغى ، وحين يشتد الخطب، فهو خير من ذي الحسب والنسب[2] :

وإذا الكتيبةُ أحجمتْ وتلاحظَتْ أُلفيتُ خيراً من مُعِمٍ مخولِ

وعندما بلغه أن عمارة بن زياد العبسي ، وهو من سادة عبس ، يتوعده ويتمنى لو لقيه خالياً حتى يعلم عبساً أنه عبد ، فقال عندها عنترة وقد أثاره ما قاله عمارة ، يهجوه هجاء قبيحاً ، ولكنه لم يسترسل في ذلك الهجاء ، بل عاد إلى طبعه ففخر بسيفه وبطولته ، وكأنه بذلك يعرض بعمارة وبجبنه[3] :

أَحَوْلِي تنفضُ استُكَ مِذْرَوَيْها لتقتلني فهـا أنـا ذا عُمارا[4]
متـى ما تلقنـي فَرْدَيْنِ تَرْجُفْ روانِفُ أَلْيتيكَ وتُستطارا[5]
وسيفـي صارمٌ قَبَضَتْ عليه أشاجعُ لا ترى فيها انتشارا[6]

وللرثاء نصيب في شعره ، ولكنه لم يرث إلا فارسين من فرسان عبس ، قرواش الذي قتلته بنو العشراء بحذيفة الذي قتله يوم جفر الهباءة ، ومالك بن زهير الذي قتلته فزارة . ولا ندري لم سكت عن رثاء غير هذين من فرسان القبيلة أو ساداتها . وقد خص قرواشاً بمقطوعتين ، وخص مالكاً بقصيدة طويلة . ولكن رثاء عنترة ليس ندباً أو بكاء ، وإنما هو ذكر لبطولة ذلك الفارس القتيل ، وما فعله بالقوم قبل أن يقتلوه . قال في قرواش مقارناً بينه وبين الأعداء ومبيناً فروسيته ، ومذكراً إياهم ببعض قتلاهم الذين قتلهم قرواش[7] :

(١) الرعيل : القطعة من الخيل القليلة ، ولا أوكل : لا أكون أول من يهرب في أوائل الخيل .
(٢) الديوان ١١٩ .
(٣) الديوان ٧٥ .
(٤) المذروان : طرفا الاليتين ، عمارا : هو عمارة بن زياد العبسي .
(٥) فردين : منفردين ، وروانف : جمع رانفة وهي أسفل الألية ، وتستطارا : تذعر .
(٦) الأشاجع : جمع أشجع وهو العظم الذي يصل الأصبع بالرسغ .
(٧) الديوان ٤٧ ـ أمثال الضبي ٣٩ .

هـديكُم خيرٌ أبـاً من أبيكم ... أعفُّ وأوفى بالجوارِ وأحْمَدُ[1]
وأطعنُ في الهيجا إذا الخيلُ صدّها ... غداةَ الصباحِ السمهريُّ المُقَصَّدُ
فهلاّ وفي الفغواء عمرو بن جابرٍ ... بذمتـه وابـنُ اللقيطـةِ عِصْيَدُ

وعندما رثى مالكاً ، وكان صديقاً له ، فإنه أظهر بعض الجزع لفقده ، وتذكر سبب تلك الحرب ، وهو ذلك الرهان فتمنى لو لم يكن ، ولو أنهما ماتا قبل أن يجريا ، لأنهما تسببا في مصرع مالك ، وعدد مناقب القتيل ، فهو كريم ماجد ، يحمي الذمار في الهيجاء ، ويطعن عند الكر والفر فقال :

لقـد جلبـا حَيْنـاً لمصرعِ مالكٍ ... وكان كريمـاً ماجـداً لهجانِ
وكانَ لدَى الهيجاء يحمي ذِمارَها ... ويطعنُ عندَ الكرِّ كلَّ طِعانِ

ويصور لنا أهمية مالك بالنسبة لعنترة كسند له في القتال ، ويظهر حزنه عليه فيقول :

به كنت أسطو حينا جَدَّت العِدا ... غداةَ اللقا نحوي بكلِّ يماني
فقـد هدَّ رُكْني فقدُه ومُصابُه ... وخلّى فؤادي دائـمَ الخَفَقانِ

وقد بلغ الجزع به أن تمنى الموت ، فتمنى لو أن السهم الذي رماه رمـاه أيضـاً في نفس الوقت ، ونحن نميل إلى أن هذا البيت ربما كان منحولاً عليه ، فتلك نغمة لم نسمعها في شعر عنترة :

رماه بسهمِ الموتِ رامٍ مُصَمِّمٌ ... فياليتـه لمّا رمـاه رماني[2]

ونجد فرقاً بين القصيدتين ، ولعل السبب أن مالكا كان صديقاً لعنترة ، وقد أثر موته في عنترة ، فأحزنه وأنطقه بما قال في رثائه . بينما قرواش فارس من فرسان القبيلة ، كل ما يعني به عنترة هو بطولته وخسارة القبيلة بفقده .

ويبدو أن صليل السيوف ، وغبار المعارك ، لم تحجب حقيقة عن عنترة ، تلك هي الموت ، فقد رددها ذلك الفارس في شعره في مواضع أربعة . ذكرها في حديثه عن غارة لطيء على

(1) هدى : جارهم يحرم عليهم منه ما يحرم من الهدى .
(2) الديوان ١٧٧ .

بني عبس ، وما فعله بالمعتدين ، وبرر اندفاعه بأن الفرار لن ينجيه من قدره المحتوم ، كما أن الإقدام لن يعجل بها :

وعرفتُ أنَّ مَنِيَّتي إن تأتِني ... لا يُنْجِني منها الفِرارُ الأسْرَعُ
فصبرتُ عارفةً لذلك حُرَّةً ... ترسو إذا نفسُ الجبانِ تَطَلَّعُ[1]

وكرر هذا المعنى في موضع آخر حينما تحدث عن يوم الفروق فقال مفتخراً بنفسه وبقومه ، وبشجاعتهم يوم اللقاء ومعللاً إقدامهم وعدم خوفهم :[2]

فما وجدونا بالفَروقِ أُشابَةً ... ولا كُشُفاً ولا دُعِينا مَواليا[3]
تعالوا إلى ما تعلمون فإنني ... أرى الدهرَ لا يُنْجي من ا وتِ ناجيا

وينقل لنا في موضع ثالث صورة طريفة لأقدامه في المعارك ومداناته الموت ، فهو في إقدامه هذا إنما يشبه إقدام الفارس الشجاع من الجبان ، فهو يقدم عليه غير هياب . والموت طوع يدي عنترة يقذف به كل عدو ، إذا ما أسرع إلى سيفه :[4]

وما دانيتُ شَخْصَ المَوْتِ إلا ... كما يدنو الشجاعُ من الجَبانِ
وقد علمتْ بنو عبسٍ بأنّي ... أهَشُّ إذا دُعيتُ إلى الطِّعانِ
وأنَّ الموتَ طَوْعُ يَدي إذا ما ... وصلتُ بنانَها بالهُنْدُواني

والموت كأس لا بد أن يسقى به كل انسان ، وهو منهل لا بد من وروده ، وأن الإنسان ميت سواء أقتل بالسيف أم بغيره . وقد ردد ذلك حينما بكرت عاذلته تخوفه من الموت فقال :

فأجبتُها إنَّ المنيةَ مَنْهَلٌ ... لا بُدَّ أنْ أُسقَى بكأسِ المَنْهَلِ
فاقْني حياءَكِ لا أبا لكِ واعلمي ... أنّي امرؤٌ سأموتُ إن لم أُقْتَلِ[5]

وقد امتزجت ضربات السيوف وحديث عنترة عنها وهو يصول في المعارك ، امتزجت أحاديث عنترة عن الحرب بالحديث عن محبوبته عبلة ، وكأن المعارك وضجيجها لم تستطع أن تنسيه حبه ، وهي ميزة تميز بها شعره ، فلقد ذكرها والرماح تنوشه ، ودمه يسيل من جسمه ، ولم

---

(1) الديوان ١٠٤ . (2) الديوان ١٩٤ .
(3) أشابة : اخلاط ، وكشف : نكشف عند اللقاء فننهزم ، والفروق : واد باليمامة والبحرين .
(4) الديوان ١٧٩ - ١٨٠ . (5) الديوان ١٧٩ - ١٨٠ .
(6) الديوان ١٢٠ .

تستطع تلك الآمال أن تحجب صورتها عنه ، فود تقبيل السيوف لأنه تخيلها فم عبلة المبتسم .

ولقد ذكرتكِ والرماحُ نواهلٌ ... منّي وبيضُ الهندِ تقْطرُ من دَمي
فَوَدِدْتُ تقبيلَ السيوفِ لأنها ... لَمَعَتْ كبارقِ ثَغْرِكِ المُتَبَسِّمِ (١)

ويبرر انشغاله عنها ، وعدم زيارته لها ، وهو يعلم أنها لا تعلم كل الأسباب التي منعته ، وهو يخبرها بأن حرب داحس التي أرثها أبنا بغيض ، وهو ليس ممن أرثها ومع ذلك جمعته مع من جمعت لأنه من عبس ولا يستطيع اعتزالها :

إني عَداني أنْ أزوركِ فاعلمي ... ما قد علمتِ وبعضُ ما لم تَعْلَمي
حالتْ رماحُ ابنَيْ بَغيضٍ دونكُم ... وزوتْ جَواني الحربِ مَنْ لم يُجْرِمِ (٢)

الخصائص الفنية لشعره :

شعر عنترة قطعة من الشعر الجاهلي ، وهو يمثل مرحلة متأخرة زمنياً وقريبة من الاسلام ، إذ أن هذا الشاعر مات قبيل الاسلام ، كما أن شعر عنترة عاصر مدرسة تميزت بطابع معين متميز ، ونعني مدرسة زهير بن أبي سلمى ، مدرسة الصنعة . ولكن عنترة بطبيعة تكوينه ، ولظروف حياته ، فإنه لم يتأثر كثيراً بهذه المدرسة . فهو لم ينقح شعره كثيراً ، ولم تغلب عليه الصنعة ، وحرص على تصوير الواقع دون زخرفة ، ليخدم غرضاً أساسياً هو تصوير بطولته ومحاولة إنصافه أمام الذين يحاولون النيل منه .

فالمفردات سهلة ، وهو لا يعمد إلى الغريب إلاّ نادراً ، ولكنه لا يهمل المفردات بل يحسن اختيار المناسب منها للموضوع الذي يعرضه ، فالمفردات التي يستخدمها وهو يتحدث عن ساعة لقاء الأبطال ، غير تلك التي يختارها ليعبر عن عاطفته ، وهي غير تلك التي يستخدمها حين يتوعد قوماً . ولا يعمد إلى الغريب من الألفاظ إلاّ نادراً ، ولا نلمح أثر التنميق والصناعة واضحاً إلاّ في معلقته ، ويبدو أنها عملت للتحدي ، وليثبت مقدرته الشعرية ، كما اثبتت مقدرته البطولية .

وتتكرر مجموعة من المفردات في شعره ، وهي بمجموعها مفردات يستلزمها شعر الحرب عامة ، ويحسن الشاعر توزيعها في شعره .

(١) الديوان ١٥٠ . (٢) الديوان ١٥٤ .

وإذا ما انتقلنا إلى التعبير في شعره ، فإننا نرى شعره يتسم بالوضوح والبساطة مع البلاغة وعدم السقوط الفني . ولا نجد من تعليل لهذا إلاّ أن الشاعر يعرض قضية فارس ، ويصوّر بطولته ، وفي الوقت نفسه لا ينسى جانب الفصاحة والبلاغة عند قوم تعتبر البلاغة والفصاحة مادة من مواد فخرهم . فهو يهتم بجودة الأسلوب وبلاغته ، ومع ذلك يجمع إليها البساطة والوضوح . ويورد الحجج ، ويدير الحوار مع عاذلته أو زوجته أو الرد على من يحاول الإنتقاص من قدره . كل ذلك يحتاج الى هذه العوامل ليؤتي أكله . طعن عنترة في إحدى الأيام ، فقال معللاً ذلك ومعرضاً بخصومه .

إنَّ الـكريمَ نُدوبُـه في وجهِهِ ... وندوبُ مُرَّةَ لا تُرَى في المَنْحَرِ
لكنْ في أكتافِهـم وظهورِهم ... فبذاك فافخرْ بئسَ ذاكَ المَفْخَرُ[1]

أما الصورة في شعر عنترة ، فهي صورة متصلة بالموضوع الغالب في شعره وهو شعر الحرب ، وعلى الرغم مما يتميز به شعره وهو السرعة الفنية ، إلاّ أن هذه الصورة عرضت ببساطة ووضوح ، فبدت جميلة واضحة . وهي صور من الواقع ، ها هو يصور فارساً من فرسان الأعداء وقد قتله ورد العبسي وتركه يجر الأسنة كالمحتَطِب الذي يجر وراءه أطراف العيدان تمس الأرض :

وغـادرنَ نَضْلَـةَ في مَعْرَكٍ ... يَجُـرُّ الأسِنَّـةَ كالمُحْتَطِبِ[2]

وسرايا عبس وهي تسير إلى القتال تشبه مجموعات طير وهي تقصد مورد الماء :

كأنَّ السرَّايا بـيـنَ قَوٍّ وقارةٍ ... عصائبُ طيرٍ يَنْتَحِينَ لِمَشْرَبِ[3]

وعندما يمشي الفرسان في دروعهم يحسبهم الرائي سيولاً متدفقة ، فهم كثر ولون الدروع اللامعة يعكس لوناً يشبه لون الماء .

إذا مَشَوْا في السابغاتِ حَسِبْتَهُمْ ... سُيولاً وقد جاشتْ بهنَّ الأباطحُ[4]

والرماح الردينية سنانها لامعة كأنها شهاب لمع في الظلام :

وكلُّ رُدَيْنِـيٍّ كأن سِنانَه ... شِهابٌ بدا في ظُلْمَةِ الليلِ واضحُ[5]

---

(1) الديوان ١٩٩ . (2) الديوان ١٧ .
(3) الديوان ١٨ . (4) الديوان ٤٣ .
(5) الديوان ٤٤ .

وعندما يتلقى حصانه رماح الأعداء فإنها تترك في نحره مجاري من الدم وكأنها حبال بئر ، وقد كرر هذه الصورة في شعره .

ولا نستطيع أن نطيل الحديث عن الصورة في شعر عنترة ، ولكننا نخلص مما عرضنا بأن التشبيه بأنواعه يكثر استخدامه استخداماً لا تكلف فيه في شعره ، لأهميته في توضيح الصور ، كما نلحظ اهتماماً خاصاً عند الشاعر بالألوان .

ويهتم عنترة بعنصر الحركة في الصورة ، فهي ليست صورة جامدة ، فالدروع ليست لامعة فحسب ، بل إن الرجال حين يلبسونها ويمشون بها كأنها سيول الماء ، والرماح اللامعة الحادة كالشهب التي تلمع في الظلام ، والسرايا تسير وتشبه عصائب الطير المتحركة المتجهة نحو مورد الماء ، ونستطيع أن نقول إن ذلك راجع إلى طبيعة الموضوع المسيطر على شعره وهو شعر الحرب ، والحرب قوامها الحركة والصخب ، فهي كرّ وفر ، وضرب وطعن ، وثبات وهرب .

كما تتجلى ظاهرة التشخيص في شعره ، فالموت عنده فارس جبان ، لا يهابه الفارس الشجاع :

ومـا دانيتُ شخصَ الموتِ إلا كما يدنـو الشجـاعُ من الجبانِ(١)

وحصانه كأنه انسان يزوّر من وقع القنا ، ويشكو الى عنترة بعبرة وتحمحم ، وهو يجود للطعان تارة ، وتارة أخرى يحصد الكثير من القوم .

فازورَّ مِنْ وَقْـعِ القَنا بلَبانِهِ وشَكا إليَّ بعَبْـرَةٍ وتَحَمْحُمِ(٢)

ويقول أيضاً :

طوراً يجـرِّد للطِّعـانِ وتارةً يأوي إلى حَصْدِ القِسِيِّ عَرَمْرَمِ(٣)

أما البحور التي استخدمها عنترة في شعره فهي على الترتيب : الطويل ، الكامل ، والوافر ، الرجز ، البسيط ، المتقارب . ولم نأخذ طول القصيدة أو المقطوعة بعين الأعتبار ، لأن عدد الأبيات ليس نهائياً ، فربما فقدت بعض هذه القصائد أبياتها . وقد استعمل الرجز في المقطوعات

---

(١) الديوان ١٧٩ .
(٢) الديوان ١٥٣ .
(٣) معلقات العرب - بدوي طبانة ١٨٨ .

التي قالها وهو ممتط ظهر فرسه ويكر على الأعداء وقد خلا شعره تقريباً من عيوب الوزن والقافية ، ونعتقد أنه أحسن اختيار القافية الملائمة للغرض الغالب على القصيدة .

وإذا ما انتقلنا إلى الحديث عن **الخصائص المعنوية** لشعره ، فإن أول ما يطالعنا **قلة المقدمات الطللية** في الشعر الذي بين أيدينا ، إذ أننا لا نجد مقدمات طللية أو غيرها إلاّ في أربع قصائد . ولا نرى تعليلاً لهذه الظاهرة إلاّ أحد الاحتمالات التالية : إما لأن همّ الشاعر في الغالب إعطاء قصة لمصاعب تعترضه ، ثم لا يلبث أن يتغلب عليها ، وإما أن المطالع كانت ثم فقدت ولم تصلنا ، وإما لأن الموضوعات لا تتطلب المطالع ، وإما لأن طبيعة نظمها تتطلب ذلك ، فقد نظمها ، أو نظم معظمها إبان المعركة ، وأن القصائد التي نظمها بعد ذلك جعل لها مقدمات .

وتتجلى بوضوح في شعره نزعتان متقابلتان ، **النزعة الذاتية** وتتمثل في اعتزازه بنفسه ، والتغني بالبطولة الفردية ، **ونزعة قبلية** تجلت بالفخر بفرسان قومه . وقد تمتزج النزعتان في بعض المقطوعات والقصائد ، ففي قصيدة تحدث فيها عن يوم الفروق وتحدث عن قومه ،ثم تحدث عن نفسه وبطولته[1] ، وفعل مثل ذلك في حديثه عن يوم الهباءة ، فقد تحدث أولاً عن فرسان عبس ، ثم خص نفسه وفرسه بالأبيات الستة الأخيرة ، وتكرر ذلك منه . وهذا ينفي الزعم القائل أن عنترة تميز بالفردية في شعره .

وتميز شعر عنترة **بالواقعية** ، وهي مناسبة لفارس مثله يتحدث عما يحدث في ساحة الوغى ، لا يتخيله ولا يفتعله ولا يدعيه ، فهو ينقل نقلاً صادقاً عن الحياة التي يحياها ويحياها غيره من الفرسان ، وهو يعنى بتصوير دقائق الصورة لأنها واضحة أمامه ، ويعين مظاهر البيئة المختلفة ، كما ينقل صورة بألوانها الطبيعية دونما زخرفة أو تنميق ، ويحرص استكمالاً لواقعيته على التحديد العددي والتحديد الزماني والمكاني لما يتحدث عنه .

وتبرز في شعره **الروح القصصية** ، فعنترة في موضوعاته التي يحدثنا عنها ، وهي كما قلنا متصلة بالحرب يسردها لنا سرداً قصصياً ، ولكن ذلك لا يعني أنه استكمل عناصر القصة في رسمها ، ولكنه يصطنع السرد القصصي في تصويرها ، فعل ذلك عندما رسم لنا مشاهد مختلفة للفارس المجندل في ساحة المعركة ، وفعل ذلك حينما نقل إلينا حواراً بينه وبين امرأته ، وفعله حينما حدثنا عن فرسه ،وأدار حواراً آخر بينه وبين محبوبته ، وقد أعانه على ذلك الوحدة الموضوعية في القصيدة ، والتي تميز بها شعره ، فشعره الذي بين أيدينا شعر مقطوعات أكثر منه شعر قصائد ، وهذه المقطوعات معظمها يدور حول موضوع واحد . ولعل طبيعة الموضوع هي التي ميزته بهذه

(١) الديوان ١٩٢ - ١٩٤ .

الظاهرة ، ومن المحتمل أيضاً أن تكون أجزاء من القصائد قد ضاعت . ولن نعرض لشواهد على هاتين الظاهرتين لأننا عرضنا لذلك في الفصل الثالث من الباب الثاني .

وقد بدت الغنائية واضحة في كثير من قصائده ومقطوعاته ، وهي غنائية تتمشى مع شعر فارس قال شعره وهو يكر على الأعداء ، ومنتشياً بما يحقق من نصر عليهم ، وبما يحظى به من حب وتقدير من الفرسان الأعداء منهم والأصدقاء على السواء ، ولم لا يتغنى بهذا المجد الذي بناه بجده واجتهاده ، ولم يرثه عن أحد ، ولم يعنه فيه أحد ؟ ولعل مما جعله في تلك الحال من النشوة اقتران هذا الطموح وتلك الفروسية بهدف ثان هو أن يحظى بحب عبلة إبنة عمه التي لم تبرح صورتها خياله حتى حينما كانت السيوف نواهل منه وبيض الهند تقطر من دمه .

إلى أي مدى يصور شعره أحداث قومه ؟

لقد اصطدمت عبس بذبيان ، كما اصطدمت بقبائل أخرى في أثناء حربها مع ذبيان وتطوافها في الجزيرة العربية ، وقبل حربها مع ذبيان . ولقد نقل إلينا الرواة أن عبساً كانت لها حروب وأيام مع بكر وتميم وطيء وأسد وعامر وذبيان . وإذا نظرنا إلى حرب داحس التي عاصرها عنترة وأسهم فيها بنصيب الأسد في فروسيته ، وجدنا أنها في إطارها العام تتكون من دافع الحرب ، وفريقها ، وأيامهم التي خاضوها ، ونتائج تلك الأيام ، وموقف القبائل من هذه الحرب ، وقتل هذه الحرب من الفرسان المشهورين ، ومحاولات إنهاء الحرب بوضع حد لها .

أما دوافع الحرب فقد كشف عنها عنترة حين رثى صديقه مالك بن زهير الذي قتلته فزارة ، فقال متمنياً ألا يكون الرهان قد وقع ، والذي أدى إلى الحرب التي أودت بصديقه :[1]

فليتهما لم يَجْرِيا نِصْفَ غَلْوَةٍ وليتهما لم يُرْسَلا لرهانِ[2]
وليتهما ماتا جميعاً ببلدةٍ وأخطأها قيسٌ فلا يُرَيانِ[3]
لقد جَلَبا حَيْناً وحرباً عظيمةً تُبيدُ سَراةَ القومِ من غَطَفانِ[4]

ولم يكتف عنترة بتحديد سبب الحرب ، بل إنه ألقى تبعة تلك الحرب على فزارة التي ظلمت أختها عبساً ، وقد ورد ذلك على لسانه مخاطباً الربيع بن زياد :

---

(١) الديوان ١٧٧ .
(٢) الغلوة : الطلق ، مقدار رمية سهم ، وتقدر بثلاثمائة إلى أربعمائة ذراع .
(٣) قيس : هو قيس بن زهير .
(٤) من غطفان : يريد عبساً وذبياناً وفزارة .

فإن تك حربُكُمْ أمستْ عَواناً فإنـي لم أكُنْ ممنْ جَناها
ولـكـن وُلْـدُ سَوْدَةَ أرَّثوها وشَبُّوا نارَها لمن اصطلاها[1]

وقال أيضاً منهماً حذيفة بإشعال الحرب :[2]

وأسألْ حُذَيْفَـةَ حـين أرَّشَ بيننا حربـاً ذوائبُـهـا بمـوتٍ تَخْفِقُ

ويقول في معلقته أيضاً مبيناً أنه ليس ممن أشعل نار الحرب ، ولكنها جمعته ، ويوجه الخطاب إلى عبلة :[3]

حالتْ رمـاحُ ابنَـيْ بَغيض دونكُمْ وزوَتْ جواني الحربِ مَنْ لَمْ يُجْرِم[4]

أما أيام داحس والغبراء التي وردت في شعر عنترة فهي يوم الهباءة ، ويوم المريقب ، ويوم عراعر ، ويوم الفروق ، ويوم غدير قلهي ، ويوم اليعمرية ، ويوم شعب جبلة ، إذا اعتبرنا حروب عبس تمتد من اختلافها مع فزارة وذبيان إلى أن تم الصلح بين الحيين .

وقد وردت هذه الأيام على صورتين ، أولاهما :وهي الأكثر أوردت ذكر تلك الأيام في أثناء تقديم النص كما حمله لنا الرواة مدوناً في نسخ الديوان ، وهذه الأيام هي : الهباءة ، والمريقب ، واليعمرية ، وجبلة ، وغـدير قلهي : وثـانيتهما . وورود بعض الأيام في شعره صراحة وهي : عراعر ، والفروق ، ورحرحان ، والجفار .

أما الأيام التي تحدث عنها غير أيام داحس والغبراء وذكرها عنترة في شعره فهي : أقرن ، غارة لعبس على بني الهجيم ، وغارة لطيء على عبس ، وغارة لبني سليم على إبل له وطردهم للإبل ، وغارة لبني عبس على بني تميم .

هذه هي الأيام التي ذكرها عنترة في شعره ، سواء نص عليها في شعره صراحة ، أو ذكرلنا الرواة العلماء في تقديمهم للقصائد أنه قالها في يوم كذا .

وحديث عنترة عن هذه الأيام كان يأخذ مظهرين ، أولهما أنه كان يتحدث عن اليوم أثناء

(1) الديوان ١٨٦ ـ أمثال الضبي ٣٣ ـ العقد الفريد ٥/ ١٥٣ ، بنسبانها للربيع بن زياد العبسي .
(2) الديوان ١١١ .
(3) الديوان ١٥٤ .
(4) ابنا بغيض : عبس وذبيان ، زوت : جمعت ، جواني الحرب : الذين هاجوها وأرثوها ، ومن لم يجرم : من لم يرد اهاجتها .

حدوثه أو بعيده كحديثه عن يوم أقرن بين تميم وعبس[1]، ويوم الجفار[2]، وغزو عبس لبني عمرو ابن الهجيم [3]، وغارة لبني سليم على عبس[4] وكان حاسراً، ويوم عراعر[5]، ويوم لهم مع تميم[6]، ويوم لهم مع جديله طيء[7]، ويوم جبلة[8]، ويوم غدير قلهي[9]، ويوم اليعمرية[10].

وثانيهما أن يضطر إلى الحديث عن ذلك اليوم بعد فترة، كما حدث يوم كان في بني عامر واسمعه شبابهم شيئاً يكرهه، فقال يذكر تصديه لطيء وقد أغارت على بني عبس والناس خلوف، ويتحسر على فرسانه الذين رحلوا وتركوه[11]، وحديثه عن يوم رحرحان ويوم أسقف وهو يفخر بيوم عراعر[12]، وحديثه في معلقته عن يوم المريقب، فقد تحدث عنه عندما سابه رجل من عبس[13]، وحديثه عن يوم الهباءة وغيره ليذكر زيادا العبسي وكل معارض له بما فعله من أجل عبس[14]، وحديثه عن يوم الفروق[15].

وهكذا فإن عنترة إن صحت تلك المقدمات التي أوردها الذين جمعوا لنا ديوانه، وخلت من الوضع فإن شعر عنترة يعتبر أكثر دواوين الشعراء الذين تحدثوا لنا عن أيام قبائلهم فهو قد ذكر معظم أيام قبيلته، ولكن النقص الذي يعيبه كما يعيب الشعر عامة، ونعني شعر الأيام، أن شعرهم لم يهدف إلى تسجيل أحداث تلك الأيام بل كان يكتفي بملامح مميزة منها.

لقد كان عنترة يهدف، فيما نظن، إلى إبراز ناحيتين، أولهما تصوير بطولته في تلك الأيام، وكان يصل إلى هذه النتيجة من خلال أسلوبين، أن يفخر بفروسيته وبشجاعته مباشرة فيذكر ما أبلاه في تلك الحرب، ويصور لنا الأبطال الذين صرعهم، أو يتحدث عن بطولات فرسان عبس في تلك الحروب ويحدثنا في بعض تلك الصور عن قيادته لهم، وكأنه في كلتا الطريقين يصل إلى النتيجة نفسها وهي الحديث عن بطولة فارس عبس ممثلاً في شخصه.

---

(1) الديوان ١٨ . (2) الديوان ٤١ .
(3) الديوان ٤٨ . (4) الديوان ١٠٤ .
(5) الديوان ١٠٦ ـ ١٠٨ . (6) الديوان ١١٨ ـ ١٢٠ .
(7) الديوان ١٥٥ . (8) الديوان ١٧٨ ـ ١٨٠ .
(9) الديوان ١٩٨ . (10) الديوان ١٩٨ .
(11) الديوان ١٠٣ . (12) الديوان ١٠٦ ـ ١٠٨ .
(13) الديوان ١٤٢ ـ ١٥٤ . (14) الديوان ١٥٦ ـ ١٥٩ .
(15) الديوان ١٩٢ ـ ١٩٤ .

وعلى الرغم من اقتصار عنترة في حديثه عن تلك الأيام على تصوير البطولة إلاّ أنه كان يلمح إلى سبب الحرب ، أو نتيجتها ، ففي يوم الفروق حاولت تميم أن تذل عبساً ، وكانت الحرب ، فصور عنترة تلك الحرب ، وتحدث في البيت الثالث بعد مقدمة بسيطة ، فقال مشيراً إلى الباعث :

ونحنُ مَنعنا بالفَروقِ نساءَنا ... نُطَرِّفُ عنها مُشْعلاتٍ غَواشيا
حلفنا لهم والخيلُ تَرْدِي بنا معاً ... نُزايلُهُمْ حتـى يَهِرُّوا العَواليا

ويكرر المعنى ذاته بعد قليل فيقول :

ونحفـظُ عوراتِ النسـاءِ ونَتَّقي ... عليهـنَّ أنْ يلقَيْنَ يومـاً مُخازيا(١)

ويتحدث عن يوم بين عبس وبني جديلة طيء ، وكانت شيبان قد أمدت جديلة ، ويبدو أنه كان حلف بين عبس وجديلة وغدرت ، لذلك أشار عنترة إلى غدر القوم وهو يفخر بفرسانه في ذلك اليوم وما فعلوه بالأعداء ، فقال :(٢)

إنــا كذلكَ يا سُهَـيَّ إذا ... غَـدَرَ الحليفُ نقودُ بالخَطْمِ(٣)

وغزت بنو حنظلة من بني تميم عبساً ، فهزمتها عبس ، وعندما تحدث عنترة عن ذلك اليوم أبدى سروره البالغ لهزيمة من غزوا قومه ، ولمقتل زعيمهم عمرو بن عمرو بن عدس فقال :(٤)

وقد كنتُ أخْشَى أنْ أموتَ ولم تَقُم ... قَرائِبُ عَمْرٍو وَسْطَ نَوْحٍ مُسَلِّبِ(٥)
شَفَى النفسَ مني أو دنا من شفائها ... تَرَدِّيهُـمُ من حالـقٍ مُتَصَوِّبِ(٦)

ولم يخل حديثه عن تلك الأيام من إطالة ، فقد تحدث عن إغارة له ولفرسان قومه على بني ضبة وتميم ، فقد صور لنا اللقاء ، والكر والفر في ساحة الوغى ، ووصف لنا الفرسان بأسلحتهم ودروعهم ، وذكر لنا كثرة عدد الجيش ، كما حدد لنا فترة القتال إذ استمر طيلة اليوم حتى أقبل الليل ، وفي النهاية ذكر لنا نتيجة المعركة وهي عبارة عن سبايا وقتلى من الأعداء ، ولم

---

(١) الديوان ١٩٢ .
(٢) الديوان ١٥٦ .
(٣) الخطم : الأنف .
(٤) الديوان ١٩ .
(٥) نوح : النساء النائحات ، والمسلب : تلبس الثياب السود للحداد .
(٦) ترديهم : سقوطهم من عل ، والحالق : الجبل المرتفع ، والمتصوب : المنحدر .

يقل لنا صراحة أن القوم قد هزموا ، ولكن الصورة التي ختم بها حديثه كانت أكثر بلاغة وأشد تأثيراً في النفس ، إذ يقول :[١]

فخلّـوا لنـا عُوذَ النسـاء وجَبَّبوا ... عَبابيدَ منهم مُسْتَقيمٌ وجامحُ[٢]

وكلُّ كَعاب خَدْلَةُ الساقِ فَخْمَةٍ ... لها مَنْصِبٌ في آلِ ضَبَّةَ طامحُ[٣]

تركنـا ضراراً بيـن عانٍ مُكَبَّلٍ ... وبين قتيلٍ غابَ عنـه النَّوائِحُ[٤]

وعَمْـراً وحَيَّانـاً تركنـا بِقَفْرَةٍ ... تعودُهُما فيها الضِباعُ الكَوالِحُ[٥]

يُجَـرِّرْنَ هاماً فَلَّقَتْها رِماحُنا ... تَـزَيَّلُ منهـن اللّحـى والمَسائِحُ[٦]

وعندما يتحدث عن يوم عراعر يبدأ من أول بيت في القصيدة مخاطباً امرأة فيذكر لها كيف جاء جمع بني عبس ، وكيف جاء جمع الأعداء ، ثم يذكر كيف غشى فرسان عبس بيوت بني كلب ، وكأنما غشى القوم غيبة موت ، ويستمر في الحديث عن ذلك اليوم إلى أن يصل إلى النتيجة ، وهي قمة النصر في ذلك المجتمع ، عندما يقتل قائد القوم مسعود الكلبي ، حيث يقول عنترة[٧] :

وغـادرن مسعـوداً كأن بنحره ... شقيقـة برد من يمـان مفوف[٨]

ويحرص عنترة كما نرى على ذكر القتلى من فرسان الأعداء ، لأنها مادة فخر أساسية في الحروب ، فقد حرص على ذكر مقتل مسعود بن معاد الكلبي يوم عراعر ، كما حرص على ذكر مقتل عمرو وحيان التميمين ، كما حرص على ذكر مقتل عمرو بن عمرو بن عدس التميمي يوم أقرن ، وفي يوم السليل اقتصر حديثه على تصوير قتل ورد العبسي لنضلة الأسدي[٩] حيث بدأ المقطوعة بهذا البيت الذي نعتقد أن أبياتاً أخرى سبقته ولكنها ضاعت :

---

(١) الديوان ٤٤ ـ ٤٥ .

(٢) العوذ : جمع عائذ ، وهي كل أنثى مضى على وضعها سبعة أيام لأن ولدها يعوذ بها ، والتجبب : الفرار من الشيء ، وعباييد : متفرقين ، ومستقيم وجامح : هذا على الطريق وهذا قد عدل عنه .

(٣) الكعاب : الناهدة الثديين ، والخدلة : الممتلئة الساقين والذراعين ، وطامح : سام عال .

(٤) العاني : الأسير .

(٥) الكوالح : العابسة المكشرة ، يريد الشديدة على الافتراس .

(٦) المسائح : جمع مسيحة ، وهي الذؤابة .

(٧) الديوان ١٠٦ ـ ١٠٨ .

(٨) شقيقة : تصغير شقة ، وهي السبيبة المستطيلة من الثوب ، والمفوف : البرد الرقيق أو الذي فيه خطوط بيض .

(٩) الديوان ١٧ .

وغـادرن نضلـة في معرك يجـر الأسنـة كالمحتطب

ويتحدث عن جبلة ويختم الحديث الذي غلب عليه طابع الفردية ، إذ يتحدث عنترة عن بطولته ، فيختم الحديث ببيتين تحدث فيهما عن فوارس عبس ، وقتلهم لقيطا وابن حجر وحاجبا وابني أبان :

ونعـمَ فوارسُ الهيجاءِ قومي إذا علقـوا الأعنـةَ بالبَنانِ
هُـمُ قَتَلـوا لقيطـاً وابـنَ حُجْرٍ وأردوا حاجبـاً وابنَـيْ أبانِ(١)

وتلك ميزة لم ينفرد بها عنترة دون باقي الشعراء الذين قالوا شعراً في الأيام ، وإنما يشتركون فيها جميعاً ، ولكن حديث عنترة عنها يتميز بالصدق والواقعية لأنها وقعت أمام عينيه ، وربما كان هو الذي قتل ذلك الفارس .

وثمة ظاهرة في شعر عنترة وهي أنه قصرّ عن ذكر فرسان قومه بني عبس ، فهو لم يذكر منهم إلا قرواشاً ومالكاً وقد ذكرهما بعد مصرعهما كما ذكر ورداً العبسي . ولعل السبب يكمن في موقف فرسان عبس منه ، كما أنه لم يرث فرسان قومه حينما قتلوا ، ولم يذكر إلاّ اثنين هما قرواش ومالك ابن زهير ، وكان تربطه بالثاني رابطة صداقة متينة . أما فرسان ذبيان فلم يذكر منهم إلاّ حذيفة :(٢)

وأسـألْ حُذَيْفَـةَ حـينَ أرَّشَ بيننَا حربـاً ذوائبُهـا بمـوتٍ تَخْفِقُ(٣)

وقد تحدثنا عن تصويره لتلك الأيام عندما عرضنا لأغراض شعره ، لذا فإن حديثنا عنها هنا ثانية سيكون تكراراً مملاً لا نفع فيه .

أما الحديث عن الصلح فلم يعرض له عنترة ، لأنه فارس والفارس عندما يعرض لهذا الأمر فإنه يتهم بالجبن والفرار من الحرب ، مهما كانت الدوافع ، ولذا فهو يترك ذلك الأمر لسادة القبيلة وحكمائها . . وكيف يعرض عنترة لهذا الأمر ، وحياته ومنزلته وسمعته مبنية على البطولة في ساحة القتال ، وهي مادة فخره على الذين يحاولون التنقص من قدره .

---

(١) الديوان ١٨٠ .
(٢) الديوان ١١١ .
(٣) ذوائبها : راياتها ، وتخفق : تتحرك بالموت .

الفصل الثالث

قيس بن عاصم
بطل حروب تميم وسيد أهل الوبر

وفد قيس بن عاصم المنقري على رسول اللهﷺ ، فقال عليه الصلاة والسلام : « هذا سيد أهل الوبر »[1] .

هذا هو قيس بن عاصم المنقري التميمي موضوع البحث وتعود صلتي بقيس بن عاصم إلى عشر سنوات خلت . حينما كنت أعد رسالة الدكتوراه ، وكان موضوعها : « الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي » . وقد جعلت الباب الثالث من البحث في البداية للحديث عن نماذج متميزة من شعراء الأيام ، ووقع الاختيار على النماذج التالية :

المهلهل : بطل حرب البسوس، وعنترة : بطل حرب داحس والغبراء ، وقيس بن عاصم ، بطل حروب تميم . ولكنني اكتفيت حينما أعددت البحث للمناقشة باثنين من ثلاثة هما : المهلهل وعنترة ، وكان ذلك بسبب قلة ما توفر لدي في ذلك الحين من شعر قيس بن عاصم .

ومن خلال تدريسي لمادة الأدب الجاهلي في الجامعة بدأت تتضح لي صورة قيس بن عاصم بصورة أفضل مما كانت عليه قبل عشر سنوات، كما أحسست أن قيس بن عاصم شخصية متميزة ، وإن قل شعره ، تستحق البحث والدراسة . ولا أظن أن الرسول (ص) قد أطلق عليه هذا اللقب : « سيد أهل الوبر » من باب المجاملة ، وحقاً لقد وجدت الكثير من أخباره المبثوثة في المصادر وإن كان بعضها يؤكد بعضاً ويكرره ، إلا أن هذه الأخبار تؤكد قيماً معينة كانت سائدة ، وكان قيس يمثلها أصدق تمثيل ، وأقرها الإسلام فيا بعد .

---

(1) أنظر الأغاني (دار الكتب) ١٤/ ٧٤ ، معجم الشعراء للمرزباني ٣٢٤ ، الإصابة ٣/ ٢٤٢ ، أمالي المرتضى ١/ ١١٢ .

وينتهي نسب قيس : إلى قبيلة تميم التي تنتسب إلى مضر[1] ، وكانت منازلهم بأرض نجد دائرة من هنالك على البصرة واليمامة ، حتى يتصلوا بالبحرين، وانتشرت إلى العذيب في أرض الكوفة .

ومن بطونهم : الحارث بن تميم ، وبنو العنبر ، وبنو الهجيم بن عمرو بن تميم . وبنو أسيد بن عمير، وبنو مالك بن عمرو بن تميم . وبنو عمرو بن العلا بن عمار بن عدنان بن الحارث. وبنو امرىء القيس بن زيد مناة وبنو سعد بن زيد مناة ، وبنو منقر بن عبيد بن مقاعس ، وبنو صريم بن مقاعس ، وبنو عرف بن كعب بن زيد مناة ، وبنو مالك بن سعد بن زيد مناة ، وبنو ربيعة بن مالك بن زيد مناة ، وبنو ثعلبة بن يربوع بن حنظلة ، وبنو الحارث بن يربوع ، وبنو رياح ، وبنو طهية بن مالك ، وبنو دارم بن مالك بن حنظلة[2] .

ومن منازلهم: صلب، والدهناء، والإحساء، ووبرة، والصمان، وشرف الأرطي، والهراء، والصمان الشعر، والرمادة[3].

ومن مياههم: حمض، وكنهل، والجفار، وأواره، وطويلع، واللهباء، ونطاع، والكلاب[4]. وقد عد الذين أرخوا للعصر الجاهلي وعنوا بدراسته ودراسة حروبه وصلات القبائل، وأعني المؤرخين القدامى، قبيلة تميم من جمرات العرب[5]، وعنوا بالجمرة تلك القبيلة القوية الكثيرة العدد والعدة ، التي تستطيع أن تدافع عن نفسها ، وأن تغزو غيرها وتجبرهم على احترامها . فقد كانت القبائل تسعى إلى المحالفات طلباً للأمن ، ودفعاً للعدوان وإيثاراً للعافية ، ومع ذلك فلم تستطع هذه المحالفات حقن الدماء التي كانت تسفك لأتفه الأسباب، بل ربما كان الحلف نفسه من أسباب الحرب ، إلا أننا يجب أن لا ننسى أن هذه الإتحادات ، إتحادات الأحلاف ، قد لعبت دوراً كبيراً إيجابياً في تكوين القبائل ، إذ كانت تضم العشائر الضعيفة إلى العشائر القوية لتحميها وترد العدوان عنها[6] .

---

(1) أنظر : الإشتقاق لابن دريد ٢٠١ وما بعدها . العقد الفريد ٣/ ٣٤٤ - ٣٤٦ ، معجم البكري ١/ ٢٠٧ ، ٢٣٤ ، ٢٥٦ ، نهاية الأرب للقلقشندي ١٨٨ ، معجم قبائل العرب لكحالة ١/ ١٢٦ .

(2) أنظر المصادر السابقة .

(3) أنظر المصادر السابقة .

(4) أنظر المصادر السابقة .

(5) أنظر : اللسان مادة (جمر) وكذا تاج العروس (جمر) .

(6) شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، ٥٨ .

وتعتبر قبيلة تميم من القبائل التي خاضت حروباً كثيرة في الجاهلية خاضتها مع قبائل يمانية ، وخاضت بعضها مع بكر عدوها اللدود ، وخاضت بعضها مع الغساسنة ، وبعض هذه الحروب كان مع قبائل عربية مختلفة . وقد أتيح لي خلال بحثي الآنف الذكر أن أجمع ما يقرب من ثلاثمائة وخمسين يوماً ، كان نصيب تميم منها مائة يوم ، انتصرت في ستين يوماً منها ، وهزمت في أربعين يوماً[1] .

ومن الأيام التي انتصرت فيها : طخفة (لتميم على المناذرة) ، والكلاب الثاني (لتميم على اليمن) ، والنباج (لتميم على بكر) ، والغطالى (لتميم على بكر) ، ومخطط (لتميم على بكر) ، وجدود (لتميم على بكر) ، وذو ذرائح (لتميم على اليمن) ، والستار (لتميم على بكر) ، وغول الثاني (لتميم على الغساسنة) .

ومن الأيام التي هزمت تميم فيها : السلان (لعامر على تميم) ، وأوارة الثاني (لعمرو بن هند على تميم) ، والصفقة (للفرس على تميم) ، والجفار (لبكر على تميم) ، ورحرحان الثاني (لعامر على تميم) ، وشعب جبلة (لعامر وحلفائها على تميم وحلفائها) والشيطين (لبكر على تميم) .

بعد هذه المقدمة عن قبيلة الشاعر ومكانتها في الجاهلية ننتقل للحديث عن قيس بن عاصم . وسنتجول في حديثنا في رحلة تشمل : قيس بن عاصم الإنسان والفارس البطل ، والمثال الجاهلي ، وقيساً المسلم ، وقيساً الشاعر .

وهكذا فسننتقل في رحلتنا من مرحلة قيس في جاهليته كفرد في قبيلته ، ثم كفارس شجاع في حروب تميم ، ثم كفرد دخل في الإسلام ، فردته ، ثم عودته إلى حظيرة الإسلام ، وأخيراً كشاعر .

وينبغي أن ننبه منذ البدء على أن قيساً ، شأنه في ذلك شأن معظم الجاهليين ، لم تتوفر لدينا معلومات متكاملة عن نشأته ومراحل حياته بدقائقها المختلفة .

وهو قيس بن عاصم بن سنان بن خالد بن منقر بن عبيد بن مقاعس ، ومقاعس ينتمي إلى الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن

---

(١) الأرقام والمعلومات من جداول ملحقة برسالة الدكتوراه .

تميم[1] . وكنيته أبو علي[2] . ويضيف ابن قتيبة أنه « لم يكن في الجاهلية أحد يكنى أبا علي غير قيس بن عاصم وعامر بن الطفيل »[3] ونبحث عن سبب الكنية فلا نجد تفسيراً لأن المصادر لم تذكر ابناً له اسمه علي . أما أمه فكانت أم أصغر بنت خليفة بن جرول بن منقر[4] .

وينتسب قيس إلى بني منقر من بني تميم ، وقد عدد صاحب الجمهرة من ولد منقر : فقيماً وبطناً ، وخالداً ، وسعداً ، وجرولا وصخراً ، وعوفاً ، وأنيساً . وذكر قيساً أنه ابن عاصم بن سنان بن خالد بن منقر[5] .

ولم تهمل المصادر أبناءه وذريته ، فقد ذكرت : أن أولاده كانوا ثلاثة وثلاثين ابناً[6] .

ولكنها لم تذكر لنا منهم إلا طلبة والقعقاع ، والشماخ[7] .

وذكرت من بنات أولاده : مية صاحبة ذي الرمة وهي ابنة مقاتل بن طلبة بن قيس[8] .
وأما من ذكرت من ذريته فهم : شملة ابن بردة بن مقاتل بن طلبة ، وكان من الشراة خرج بالبادية فقتله محمد بن سليمان بن العباسي ، ومنهم : عصيمة بن عاصم بن قيس بن عاصم ، وقد قطعت يده في يوم الوقبى وعرف بعاصم الجويرية كما عرف بعصبية الأجزم ، وقد قطع يده اليسرى أربد ابن سنان في يوم الوقبى الذي كان لبني مازن ، على بكر[9] .

أما بناته فلم يذكر لنا التاريخ بنتاً لقيس ، وقد كثر ذكر الخبر الذي يروى عنه ، عندما قدم على الرسولﷺ يسأله عن كفارة بسبب وأده عدداً من البنات له ، وسنناقش ذلك في موضعه من البحث ، وما عدا ذلك لم يرد ذكر إلا لبنت واحدة له حدث خبرها بعض الأنصار والرسول (ص)[10]. وسيأتي تفصيل ذلك في حديثنا عن الوأد أيضاً .

وتجمع المصادر على أن قيساً كان سيداً في قومه كما كان شريفاً ، قال عنه ابن قتيبة «كان شريفاً سيداً»[11]. وقد سئل قيس بم سدت قومك ؟ قال : ببذل القرى ، وترك المرا ، ونصرة

---

(1) الأغاني (دار الكتب ١٤/ ٦٩) ، معجم الشعراء للمرزباني ١٩٩ .
(2) الأغاني ١٤/ ٦٩ ، المعارف لابن قتيبة ٣٠١ .
(3) المعارف ٥٥٦ .
(4) الأغاني ١٤/ ٦٩ .
(5) جهرة أنساب العرب ـ ابن حزم ٢١٦ .
(6) المعارف ٣٠١ .
(7) المصدر السابق ٣٠١ .
(8) المصدر السابق ٣٠١ ، والجمهرة ٢١٦ .
(9) الجمهرة ٢١٧ .
(10) الأغاني ١٤/ ٦٩ .
(11) المعارف ٣٠١ .

المولى[١] . وفي رواية أخرى أنـه قال: ببـذل النـدى، وكف الأذى، ونصرة المولى،وتعجيل القرى[٢] . وقد وصفه صاحب الأغاني بأنه شاعر فارس شجاع حليم كثير الغارات مظفر في غزواته ، أدرك الجاهلية والإسلام فساد فيهما .

وسنحاول في عجالة أن نضرب أمثلة لهذه الخصال التي كان يتحلى بها قيس . أما الشاعرية فسنرجىء الحديث عنها قليلاً وكذا فروسيته . أما الحلم فقد رددت المصادر خبراً مفاده أن الأحنف بن قيس كان يقول : ما تعلمت الحلم إلاّ من قيس بن عاصم المنقري ، لأنه قتل ابن أخ له بعض بنيه ، فأتي بالقاتل مكتوفاً يقاد إليه ، فقال : ذعرتم الفتى ، ثم أقبل على الفتى فقال :

يا بني بس ما صنعت، نقصت عددك، وأوهنـت عضـدك، وأشمـت عدوك، وأسأت بقومك، خلوا سبيله، واحملوا إلى أم المقتول ديته ، فإنها غريبة ، ثم صرف القاتل ، وما حل قيس حبوته ، ولا تغير وجهه[٣] .

وقد ضرب به المثل في الحلم فقيل : « أحلم من قيس»[٤] ، وكان الأحنف يقول : لقد اختلفنا إلى قيس بن عاصم في الحلم كما نختلف إلى الفقهاء في الفقه[٥] . وقد كانت السيادة في الجاهلية يخص بها من توفرت فيه خصال . وقد حدد تلك الخصال أحد الباحثين حين قال: «كان أهل الجاهلية لا يسودون إلاّ من تكاملت فيه ست خصال: السخاء والنجدة والصبر والحلم والتوضع والبيان»[٦] ولعله من الواضح أن هذه الصفات كان يتصف بها قيس بعد أن نستكمل حديثنا عن شجاعته وشاعريته . ومن أجل هذا كله قال عنه الرسول الكريم: «هذا سيد أهل الوبر» .

وكان قيس بن عاصم كريماً يطعم الزاد لغيره ، ويكره أن يستأثره به . تزوج قيس بن عاصم المنقري منفوسة بنت زيد الفوارس الضبي ، وأتته في الليلة الثانية من بنائه بها بطعام فقال : فأين أكيلي ؟ ، فلم تعلم ما يريد ، فأنشأ يقول :

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ١/ ٢٢٥ والأغاني ١٤/ ٧٦ .

(٢) بلوغ الأرب للالوسي ٢/ ١٨٧ .

(٣) أنظر الخبر في الأغاني ١٤/ ٧٣ ، وفيات الأعيان ٢/ ٥٠١ ، الجمان لأبن ناقيا ٢٥٣ مع اختلاف في بعض الكلمات لكن المضمون واحد .

الوسيط في الأمثال الواحدي ٦٦ .

(٥) عيون الأخبار ٢/ ٢٨٧ .

(٦) بلوغ الأرب للالوسي ٢/ ١٨٧ .

يا ابنة عبدالله وابنة مالك ويا بنت ذي البردين والفرس الورد
إذا ما صنعت الزاد فالتمسي له أكيلاً فإنـي لسـت آكلـه وحدي
أخـا طارق أو جار بيت فإنني أخاف ملامات الأحاديث من بعدي
وإنـي لعبـد الضيف من غـير ذلة وما بي إلاّ تلك من شيم العبد.

قال: فأرسلت جارية لها مليحة فطلبت له أكيلاً، وأنشأت تقول له:

أبـى المرء قيس أن يذوق طعامه بغـير أكيل انـه لكريم
فبوركت حيا يا أخا الجـود والندى وبـوركت ميتـا قد حوتـك رجوم[1]

ولم يتوقف قيس بن عاصم عند حدود قبيلته وهو فارسها وسيدها، بل كان فيمن وفد على النعمان بن المنذر للمفاخرة، فقد كان منهم: الأقرع بن حابس وقيس بن عاصم. ومن بكر: بسطام بن قيس، والحوفزان بن شريك[2].

ولم يخل سجل قيس من بعض السقطات، فقد ذكر صاحب الأغاني أن مما يعير به قيس وقومه أن عبادة بن مرثد بن عمر بن مرثد أسر قيس بن عاصم وسبى أمه وأخته يوم أبرق الكبريت، ثم من عليهم فأطلقهم بغير فداء، فلم يثبه قيس، ولم يشكره على فعله بقول يبلغه، فقال عبادة:

على أبـرق الكبـريت قيس بن عاصم أسرت وأطـراف القنـاقصدُ حُمّرُ
متـى يعلـق السعـدي منك بذمة تجده إذا يلقي وشيمته الغدر[3]

ويذكر الأغاني خبراً آخر مفاده أن زيد الخيل الطائي خرج عن قومه، وجاور بني منقر فأغارت عليهم بنو عجل، وزيد فيهم، فأعانهم، وقاتل بني عجل قتالاً شديداً، وأبلى بلاء حسناً حتى انهزمت عجل، فكفر قيس فعله، وقال: ما هزمهم غيري، فقال زيد الخيل يعيره ويكذبه في قصيدة طويلة منها

لست بوقاف إذا الخيل احجمت لست بكذاب كقيس بن عاصم[4]

ولست أدعي لقيس العصمة ولكن بكراً، عدو تميم اللدود، قاسم مشترك في الخبرين، فعبادة بن مرثد وبنو عجل كلاهما من بكر. وقيس لا يريد أن يعترف لبكر بالإنتصار عليه وعلى

---

(1) الأغاني ١٤/ ٧٢.
(2) المرجع السابق ١/ ٢٨٠.
(3) قصة الخبر والشعر في الأغاني ١٤/ ٨٩.
(4) الأغاني ١٤/ ٨٩.

قومه لذا نجده لم يشكر عبادة بقول يبلغه ، لأن في ذلك إذلالاً لقيس بطل تميم ، ولم يعترف بانهزام عجل إلّا به وبقومه . ولست بمصدق أن يهزم فارس قبيلة مها كانت شجاعته .

ويرتبط قيس بن عاصم بقضية خطيرة في الجاهلية ، تلك هي قضية وأد البنات . فقد ذكر القرآن الكريم في سورة التكوير «وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت»(١) .

والموءودة : المدفونة حية وكذلك كانت العرب تفعل ببناتها . هذا ما يورده الطبري في تفسيره ثم ينقل خبراً مرفوعاً إلى قتادة : قتلت بلا ذنب ، كان أهل الجاهلية يقتل أحدهم ابنته ويغذو كلبه فعاب الله ذلك عليهم . . . وكانت العرب أفعل الناس لذلك(٢) .

وقد سميت بالموءودة : لأن التراب يطرح عليها فيثقلها حتى تموت(٣) .

يقول متمم بن نويرة :

وموءودة مقبورة في مغارة   بآمتها موسودة لم تمهد(٤)

ونسبه صاحب لسان العرب إلى حسان وأورده هكذا :

وموءودة مقرورة في مفاوز   بآمتها مرسومة لم توسد(٥)

ويورد صاحب « الكشاف» خبراً في سياق شرح الآية المتعلقة بالوأد : بأن الرجل كان يستحيي ابنته أحياناً فلم يكن يقتلها دائماً ، فكان إذا أراد أن يستحييها ألبسها جبة من صوف ، أو شعر ، ترعى الإبل والغنم في البادية . وإما أن أراد قتلها تركها حتى إذا كانت سادسية فيقول لأمها طيبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها ، وقد حفر لها بئراً في الصحراء ، فيبلغ بها البئر ، فيقول لها : انظري فيها ثم يدفعها من خلفها ، ويهيل عليها التراب حتى تستوي البئر بالأرض(٦) .

ولم يكن الرجل هو الذي يئد فحسب ، بل إن الحامل كانت إذا أقربت حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة ، فإذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة ، وإن ولدت إبناً حبسته(٧) .

(١) آية ٨ من سورة التكوير .
(٢) تفسير الطبري (طبعة بولاق) ٣٠/ ٤٦ .
(٣) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٣٢ .
(٤) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٣٢ .
(٥) لسان العرب مادة (عوز) .
(٦) الكشاف للزمخشري ١٤/ ٢٢٢ .
(٧) المصدر السابق ٤/ ٢٢٢ ، تفسير القرطبي ١٩/ ٢٣٣ والقرطبي يرفع الخبر إلى ابن عباس .

وفي ذلك يقول الراجز :

سيمتهـا إذ ولـدت تموت   والقبر صهر ضامـن زميت[1] .

ويثير هذه الأخبار أموراً عدة منها : هل كان الوأد منتشراً بين القبائل العربية ؟ ومن أول من وأد البنات في الجاهلية ؟ هل كان الوأد من اختصاص الرجل أم أن المرأة كانت تئد أيضاً ؟ ما سبب قيامهم بذلك ؟ .

أما التساؤل الأول فمنطق الأمور ينفيه ، لأن الوأد لوعم القبائل العربية لما استمر بقاء الجنس العربي بعد جيل أو جيلين أو ثلاثة . وأما أول من وأد بناته في الجاهلية فيطالعنا خبران ، الأول أن قيساً أول من وأد البنات في الجاهلية[2] والثاني أن الوأد عند العرب أقدم من قيس ، وربما يعود إلى ما قبل الميلاد ، مثل ما ذكروه عن سودة بنت زهرة الكاهنة ، وهي أقدم من قيس[3] وقد كان الرجل يئد بناته كما كانت المرأة أيضاً تفعل ذلك ، وربما كانت تفعله لأنها تعرف رغبة زوجها ، ولعل ما فعلته زوج قيس بن عاصم شاهد على ذلك ، فقد حدث قيس بن عاصم الرسولﷺ أنه ما ولدت له بنت قط إلا وأدها ، وما رحم منهن موءودة قط إلا بنية له ، ولدتها أمها وهو في سفر ، فدفعتها أمها إلى أخوالها فكانت فيهم ، وقدم قيس فسأل عن الحمل ، فأخبرته امرأته أنها ولدت ولداً ميتاً ، ومضت على ذلك سنون حتى كبرت الصبية ويفعت فزارت أمها ذات يوم ، فدخل قيس فرآها وقد ضفرت شعرها وجعلت في قرونها شيئاً من حلوق ونظمت عليها ودعا ، وألبستها قلادة جزع ، وجعلت في عنقها مختنقة بلح ، فسأل عنها قيس لأنها أعجبته بجمالها وكيسها فبكت وقالت : هذه ابنتك ؟ كنت أخبرتك أني ولدت ولداً ميتاً وجعلتها عند أخوالها حتى بلغت هذا المبلغ ،فأمسك قيس عنها حتى اشتغلت أمها عنها ،ثم أخرجها يوماً، فحفر لها حفيرة فجعلها فيها ، وهي تقول يا أبت ما تصنع بي ؟ ، وجعل يقذف عليها التراب وهي تقول : يا أبت أمغطي أنت بالتراب ، أتاركي أنت وحدي ومنصرف عني ؟ ، وجعل يقذف عليها التراب ، حتى واراها وانقطع صوتها ، ويختتم قيس مقولته هذه : فما رحمت أحداً مما واريته غيرها[4] .

وهذا يعني أن المرأة الجاهلية كانت تعلم مصير ابنتها ، ولو اخفتها إلى حين ، ولهذا كانت تئدها منذ ولادتها حتى لا تأسى عليها وهي تراها شابة يافعة تدفن حية .

---

(١) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٣٣ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ١/ ١٨٣ .

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام - جواد علي ٥/ ٩١ - ٩٢ .

(٤) الأغاني ١٤/ ٦٩ - ٧٠ .

وإذا ما انتقلنا إلى سبب الوأد نرى تعليل فعلتهم الشنيعة تلك تأخذ عللاً وأسباباً كثيرة : ففي خبر عن قيس بن عاصم أنه كان يئد بناته « للغيرة والأنفة من النكاح »[1] وتبعه الناس في ذلك إلى أن أبطله الاسلام . ويورد صاحب الكشاف خبراً : يفيد بأن العرب يقولون : « إن الملائكة بنات الله فألحقوا البنات به ، فهو أحق بهن »[2] أما القرطبي فيرى أنهم كانوا يدفنون لخصلتين : الأولى أنهم كانوا يقولون : إن الملائكة بنات الله ، فألحقوا البنات به . والثانية : مخافة الحاجة والاملاق أو خوفاً من السبي والاسترقاق[3] .

وهكذا نرى أنه يمكن رد أسباب الوأد إلى الغيرة والأنفة من النكاح وإلى الخوف من الحاجة والإملاق والخوف من السبي والاسترقاق . وأخيراً إلى عقيدة يعتقدونها : وهي أن الملائكة أناث وهن بنات الله ، ولذا ألحقوا البنات به فقتلوهن .

ونستطيع بمناقشة هذه الدوافع أن نتبين أن الخوف من الحاجة والأملاق والسبي والاسترقاق أمور يشترك فيها العرب جميعاً ومن باب أولى أن يخشى هذه الأمور ضعاف العرب وفقراؤهم .

فلماذا يكون قيس بن عاصم ، وهو سيد قومه وعزيزهم ، وقبيلته ، من أقوى القبائل وهي احدى جمرات العرب ، هو الذي يئد بناته ؟ وإذا كانت العرب تعتقد أن الملائكة بنات الله ، وتؤمن بذلك كل القبائل العربية ، فلماذا لم تجمع على الوأد ؟ أم أن الأمر متعلق بعقيدة معينة ، وهذا ما أشار اليه القرآن الكريم . ولم لا يكون السبب شخصياً خاصاً بقيس بن عاصم أو من صادف حالة مشابهة ؟ فقد أورد صاحب الأغاني : أن سبب وأد قيس بن عاصم بناته أن المشمرج اليشكري البكري، وبكر خصم لدود لتميم، أغار على بني سعد فسبى منهم نساء واستاق أموالاً وكان في النساء امرأة خالها قيس بن عاصم ، وهي رميم بنت أحمر بن جندل السعدي ، فرحل قيس اليهم يسألهم أن يهبوها له أو يفتدوها فوجد عمرو بن المشمرج قد اصطفاها لنفسه فسأله فيها فقال : قد جعلت أمرها اليك ، فإن اختارتك فخذها ، فخيرت فاختارت عمرو بن المشمرج . فانصرف قيس، فوأد كل بنت وجعل ذلك سنة في كل بنت تولد له ، واقتدت به العرب في ذلك فكان كل سيد يولد له بنت يئدها خوفاً من الفضيحة[4] .

وهذا الجزء الأخير من الخبر يتعارض مع ما ذكرنا من سبب الوأد بسبب الخوف من الحاجة

---

(١) وفيات الأعيان ١/ ١٨٣ .
(٢) الكشاف ٤/ ٢٢٢ .
(٣) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٣٣ .
(٤) الأغاني ١٤/ ٧١ وتفسير الطبري ٣٠/ ٤٥ .

والإملاق ، كما أنه يتعارض مع خبر أورده القرطبي : بأن «الأشراف منهم يمتنعون من هذا ويمنعون منه»[1] ، وربما ارتبط خبر القرطبي بما ذكر عن صعصعة بن ناجية جد الفرزدق الذي اشترى ثلاثين موءودة منهن بنت لقيس بن عاصم ، وفي ذلك افتخر الفرزدق فقال :

وجدي الذي منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم يوأد[2]

ولا أدري كيف يستوي هذا المنطق ، فإذا اشترى صعصعة بنت قيس بن عاصم بالمال ومنع وأدها ، هل يمنع هذا العار من أن يلحق بقيس لو ارتكبت عملا مشيناً ؟ ذلك سبب لا يقبله منطق العقل ، كما أن قيساً لا يفعل أن يبيعها بسبب الاملاق . يبقى احتمال من احتمالات كثيرة . أيكون فخر الفرزدق والخبر المتصل به من صنع الرواة ؟ .

وقد شغلت قضية الوأد بال قيس بن عاصم عندما دخل في الإسلام ، فتعددت الروايات التي تجمع على أن قيساً كان يفد على النبيﷺ .

ففي خبر وأده لابنته بعد أن كبرت : أن الرسولﷺ دمعت عيناه ثم قال « إن هذه لقسوة ، وأن من لا يرحم لا يرحم» [3] وهذا ما شغل بال قيس وأهمه .

وفي خبر مرفوع إلى قتادة رواه الطبري : أن قيساً جاء إلى النبيﷺ وأخبره أنه وأد ثماني بنات في الجاهلية ، قال : فاعتق عن كل واحدة بدنة[4] .

وفي خبر مرفوع إلى قتادة أنه قال لرسول اللهﷺ : إني وأدت ثمان بنات كن لي في الجاهلية . فقال : فاعتق عن كل واحدة منهن رقبة . فقال : يا رسول الله إني صاحب إبل ، قال : فاهد عن كل واحدة منهن بدنة إن شئت[5] .

ويروي ابن كثير ثلاث روايات : لا تحدد الأولى عدد البنات اللائي وأدهن في الجاهلية . وتحدد الثانية العدد : بثمان ، وتذكر الثالثة : أنه وأد اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة[6] .

ولقيس بن عاصم موقف من الخمر في الجاهلية قبل أن يحرمها الإسلام ، فقد عده رواة الأخبار أنه ممن حرموا الخمر في الجاهلية ، وذكروا منهم نفراً ، منهم : قيس بن عاصم ، وعامر ابن

(1) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٣٣ .
(2) ديوان الفرزدق وأنظر وفيات الأعيان ٦/ ٨٩ .
(3) الأغاني ١٤/ ٧٠ .
(4) تفسير الطبري ٣٠/ ٤٦ .
(5) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٣٣ .
(6) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٧٨ .

الظرب العدواني ، وصفوان ابن أمية ، وعفيف بن معد يكرب الكندي ، والعباس بن مرداس السلمي، وورقة بن نوفل، والوليد بن المغيرة، وزيد بن عمرو بن نفيل، وأبوذر الغفاري، وقس بن ساعدة ، وعبيد بن الأبرص ، وزهير بن أبي سلمى، والنابغة الذبياني، والنابغة الجعدي، وحاتم الطائي وغيرهم[1] .

ويرجع سبب تحريم قيس لها أنه سكر ليلة ، فغمز عكنة ابنته فهربت منه . فلما صحا منها، سئل عما صنع البارحة فلم يعرف، فأخبروه بصنعه، فحرمها على نفسه، وقال في ذلك شعراً منه :

فلا والله اشربها حياتي ... ولا أدعو لها أبداً نديما
إذا دارت حمياها تعلت ... طوالع تسفه الرجل الحليما[2]

وفي رواية أخرى عن عاصم بن الحدثان أن الزبرقان قال : إنها كانت أخته ، وقد أرادها على نفسها ، ويضيف الخبر أنه أول عربي حرمها على نفسه في الجاهلية[3] .

وتحريم قيس للخمر مفخرة يضيفها قيس إلى سجله الحافل بالمحامد والمكرمات ، علها تكفر عن فعلته بالبنات اللائي كن يولدن له .

تلك كانت جاهلية قيس ، فكيف نرى قيساً في الاسلام ؟ ومتى بدأت صلته بهذا الدين الجديد ، وهل حسن إسلامه ؟ وما مدى تفاعله مع قيم هذا الدين ومثله ؟

تعود صلة قيس وقومه بالإسلام الى ما بعد فتح مكة[4] ، فقد بعث النبيﷺ بشر بن سفيان على صدقات بني كعب بن خزاعة ، فجاء وقد حل بنواحيهم بنو عمرو بن جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم ، فجمعت خزاعة مواشيها للصدقة ، فاستنكر ذلك بنو تميم وأبوا وابتدروا القسي وشهروا السيوف ، فقدم المصدق على النبيﷺ فأخبره . فقال : من لهؤلاء القوم ؟ فانتدب لهم عيينة بن بدر الفزاري فبعثه النبيﷺ في خمسين فارساً ، فأغار عليهم فأخذ أحد عشر رجلاً وإحدى عشرة امرأة وثلاثين صبياً ، فجلبهم إلى المدينة .

---

(١) انظر المحبر لابن حبيب ٢٣٧ ، أمالي للقالي ١/ ٢٠٤ ، نهاية الأرب للنويري ٤/ ٨٨ ، بلوغ الأرب للآلوسي .
(٢) الأغاني ١٤/ ٨٤ .
(٣) المصدر السابق ١٤/ ٨٥ .
(٤) المعارف لابن قتيبة ٣٠٢ .

وعندها قدم وفد من رؤساء بني تميم منهم : عطارد بن حاجب ، والزبرقان بن بدر ، وقيس بن عاصم ، وقيس بن الحارث ، ونعيم بن سعد ، والأقرع بن حابس ، ورباح بن الحارث ، وعمرو بن الأهتم . . ويذكر الخبر أن الرسولﷺ قال في قيس بن عاصم : هذا سيد أهل الوبر . ورد عليهم الأسرى والسبي وأمر لهم بالجوائز كما كان يجيز الوفود[1] .

ولكن الخبر لم يحدثنا لماذا تنبه الرسول الكريم إلى قيس دون بقية الوفد، وقال عنه أنه سيد أهل الوبر ، هل فعل ذلك لأنه أحسن القول ؟ أم لأن الرسولﷺ كان على علم بمآثر قيس ؟ أم أنه توسم فيه الخير لهذا الدين ؟

ويبدو أن قيساً قد التقى بالرسول أكثر من لقاء ، يدل على ذلك حواره معه بشأن وأد البنات ، وقد سبق ذكره ، وفي خبر آخر مرفوع إلى قيس بن عاصم عن سفيان الثوري أنه أمر من النبيﷺ أن يغتسل بماء وسدر[2] . ومن الأخبار أيضاً ما رواه صاحب الأغاني أن قيساً دخل على الرسولﷺ وفي حجره بعض بناته يشمها ، فقال له : ما هذه السخلة تشمها ؟ فقال : هذه ابنتي . فقال : والله لقد ولد لي بنون ووأدت بنات ما شممت منهن انثى ولا ذكرا قط . فقال الرسول الكريم : فهل إلا أن ينزع الله الرحمة من قلبك[3] .

وفي خبر آخر عن ابن جعدية أن قيس بن عاصم قال : أتيت الرسولﷺ ، فرحب بي وأدناني فقلت : يا رسول الله ، المال الذي لا يكون علي فيه تبعة ما ترى في إمساكه لضيف إن طرقني ، وعيال إن كثروا علي ؟ فقال : عليَّ نعم المال الأربعون ، والأكثر الستون ، وويل لأصحاب المئين - ثلاثاً - إلا لمن أعطى من رسلها وأطرق فحلها ، وأفقر ظهرها ، ومنح غزيرتها ، وأطعم القانع والمعتر . فقلت : يا رسول الله ، ما أكرم هذه الأخلاق ! إنه لا يحل بالوادي الذي أنا فيه من كثرتها . قال : « فكيف تصنع في الإطراق ؟ » قلت : يغدو الناس ، فمن شاء أن يأخذ برأس بعير ذهب به ، قال : « فكيف تصنع في الإفقار ؟ » فقلت : إني لأفقر الناب المدبرة والضرع الصغيرة . قال : « فكيف تصنع في المنيحة ؟ » قلت : إني لأمنح في السنة المائة . قال : « إنما لك من مالك أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت[4] » .

---

(١) طبقات ابن سعد ١/ ٢٩٣ - ٢٩٤ .
(٢) الأغاني ١٤/ ٨٩ .
(٣) الأغاني ١٤/ ٧٠ .
(٤) الأغاني ١٤/ ٧٧ .

وفي خبر آخر عن ابن جعدية أن النبي (ص) لما فتح مكة قدمت عليه وفود العرب ، فكان فيمن قدم عليه قيس بن عاصم وعمرو بن الأهتم ابن عمه ، فلما صارا عند النبي (ص) تسابا وتهاترا ، وحاول عمرو بن الأهتم أن ينال من نسب قيس وحسبه ، فيقال أن النبي (ص) نهى عمروبن الأهتم عن هذا القول في قيس، وقال: إن إسماعيل بن ابراهيم صلى الله عليهما وسلم كان أحمر[1].

وفي حديث آخر عن جرير عن المغيرة عن أبيه شعبة عن التوئم أن قيساً سأل الرسول (ص) عن الحلف فقال : « لا حلف في الإسلام ، ولكن تمسكوا بحلف الجاهلية[2] » .

ويذكر رجل قيساً عند النبي (ص)وكأنه توعده، فيرد النبي (ص): « إذا تحول سعد دونه بكراكرها »[3] .

هذه الأخبار تشير إلى أنه وفد على الرسول (ص) كثيراً ، كما تدل على أن الرسول (ص) كان يبش في وجهه ، ويرحب به ، كما تشير إلى أن قيساً كان غنياً ولم يكن يخشى الإملاق .

وتحدثنا الروايات بأن قيساً ارتد بعد النبي (ص) عن الإسلام وآمن بسجاح التميمية وكان مؤذنها ، وقال في ذلك :

أضحت نبيتنا أنثى نطيف بها وأصبحت أنبياء الله ذكرانا[4]

ويضيف صاحب الأغاني أن خالداً بن الوليد غزا اليمامة لقتال سجاح ومسيلمة الكذاب زوجها وأخذ قيساً أسيراً ، وأن قيسا أدعى عند خالد انه جاء يطلب ابنا له أخذه مسيلمة ، فأحلفه خالد فحلف ، فخلى سبيله[5] .

وقبل مناقشة صحة هذه الرواية أو التعليق عليها نورد خبراً آخر عن المدائني يفيد : بأن قيس بن عاصم كان على عهد الرسول (ص) قد ولي صدقات بني مقاعس والبطون كلها ، وكان الزبرقان بن بدر قد ولي صدقات عوف والأبناء . فلما توفي الرسولﷺ دس إليه الزبرقان من زين

(١) الأغاني ١٤/ ٨٨ .
(٢) الأغاني ١٤/ ٩٠ .
(٣) الأغاني ١٤/ ٩٠ .
(٤) الأغاني ١٤/ ٨٨ ، وهذا البيت وأبيات أخرى ذكرت في ثمار القلوب للثعالبي ٣١٥ ، والمعارف لابن قتيبة ٤٠٥ .
(٥) الأغاني ١٤/ ٨٨ .

لقيس منع ما في يده من الصدقات وخدعه بذلك ، ففرق قيس الإبل في قومه ، فانطلق الزبرقان إلى أبي بكر بسبعمائة بعير فأداها إليه . فلما عرف قيس بالمكيدة قال : لو عاهد الزبرقان أمه لغدر بها[1] .

والذي نميل إليه أن قيساً وقع ضحية مكيدة من الزبرقان فتأخر عن دفع الصدقات لأبي بكر ، وربما فرقها فعلاً في قومه ، كما نميل إلى أن العصبية القبلية ربما دفعت قيساً إلى تأييد سجاح التيمية ، خاصة أن العرب بعامة - إلا النزر اليسير - قد ارتدوا بعد فاة النبيﷺ من هذا المنطلق . لكن الذي نميل إليه أن قيساً تزعزعت ثقته بسجاح عندما تزوجت من مسيلمة ، ولهذا نسبت إليه بعض المصادر هذه الأبيات :

يا لعنة الله والأقوام كلهم على سجاح ومن بالأفك أغرانا
مسيلمة الكذاب لا سقيت أصداؤه ماء مزن حيثما كانا[2]

وربما كان قيس عندما أسره خالد بن الوليد قد تراجع عن ردته قبل أن يأسره خالد ، وأن يمينه كانت صادقة .

وإذا انتقلنا بعد هذا إلى جانب هام من جوانب شخصيته وأحد مقوماتها ، ونعني به قيس بن عاصم الفارس نجد أن أول ما يطالعنا خبر في الأغاني يصفه فيه بأنه فارس شجاع كثير الغارات ، مظفر في غزواته[3] . ويطالعنا صاحب « المحبر » بخبر آخر يعد فيه قيس بن عاصم من الجرارين[4] ، والجرار هو القائد الذي يقود ألف رجل . وبدهي أن القائد الجرار الذي يقود ألف رجل محارب في الجاهلية يعني أنه فارس شجاع إذا ما اعتبرنا عدد الجيوش المقاتلة في تلك الأيام .

ونقلب في المصادر التي أوردت أخبار تلك الأيام والغارات في الجاهلية فنرى أن قيساً كان قائداً وفارساً مبرزاً في الأيام التالية : يوم جدود ، ويوم ثيتل أو النباج ، ويوم الكلاب الثاني ، وقتاله عبد القيس .

أما يوم جدود فقد كان من حديثه أن الحارث بن شريك جمع بني شيبان وبني ذهل واللهازم

---

(1) الأغاني ١٤/ ٧٦ .
(2) ثمار القلوب للثعالبي ٣١٥ ، المعارف لابن قتيبة ٤٠٥ .
(3) الأغاني ١٤/ ٦٩ .
(4) المحبر - لابن حبيب ٢٤٦ .

أغار على بني مقاعس وإخوتهم بني ربيع فلم يجيبوهم ، فاستصرخوا بني منقر ، فركبوا حتى لحقوا بالحارث بن شريك وبكر بن وائل وهم قائلون في يوم شديد الحر . . وكانت نتيجة المعركة أن هزم الحارث وبكر ، وقصد قيس بن عاصم الحوفزان ، ولم يكن له همة غيره ، والحارث على فرس له قارح يدعى الزبد ، وقيس على مهره ، فخاف قيس أن يسبقه الحارث ، فحفزه بالرمح في أستة ، فتحفز به الفرس فنجا ، فسمي الحوفزان ، وأطلق قيس أموال بني مقاعس وبني ربيع وسباياهم وأخذ أموال بكر بن وائل وأسراهم ، وانتقضت طعنة قيس على الحوفزان بعد سنة فمات[1] .

وفي يوم النباج وثيتل ، أغار قيس بن عاصم على اللهازم ، فتبعه بنو كعب بن سعد بالنباج وثيتل ، فتخوف أن يكره أصحابه لقاء بكر بن وائل ، فقام ليلاً فشق مزادهم ، لئلا يجدوا بدا من لقاء العدو ، فلما فعل ذلك أذعنوا وصبروا للقائهم ، فأغار عليهم ، فكان أشهر يوم يوم ثيتل لبني سعد ، وظفر قيس بما شاء ، وملأ يديه من أموالهم وغنائمهم . وفي ذلك يقول ابنه علي بن قيس بن عاصم :

أنـا ابن الذي شق المزاد وقد رأى ... بثيتـل أحياء اللهـازم حضرا
فصبحهم بالجيش قيس بن عاصم ... وكان إذا ما أورد الأمر أصدرا[2]

وفي يوم الكلاب الثاني ، وكان تاريخه بعد يوم الصفقة حيث أوقع كسرى بتميم . اجتمعت تميم إلى سبعة منهم وشاوروهم في أمرهم . وكان من بينهم قيس بن عاصم ، وقال كل رجل منهم ما رأى ، ووافقوا على رأي النعمان بن الحسحاس ، حيث أشار عليهم بالبحث عن ماء يجمعهم ولا يعلم الناس بأي ماء هم حتى يقوى ظهرهم ، وتصلح أحوالهم ، واقترح عليهم ماء قدة . وعلمت اليمن بضعف أمرهم بعد أن بطش بهم كسرى ، فتنادت وأحلافها من قضاعة ، وخرج الجميع لغزو تميم ، ففزعت تميم إلى أكثم ليشير عليها أن تنزل حنظلة بالدهناء ، وسعد والرباب بالكلاب ، وأي الطريقين أخذ القوم كفى أحدهما صاحبه ، وقبل القوم مشورته . واقتتل القوم وقتل النعمان بن الحسحاس آخر النهار ، ولما أصبحوا تولى قيس بن عاصم إمرة تميم ، وحملوا على أهل اليمن حملة صادقة ، فانهزموا ، وقيس ينادي : يالتميم ! لا تقتلوا إلا فارساً ، فإن الرجالة لكم[3] .

(1) الأغاني ١٤/ ٧٩ .
(2) الأغاني ١٤/ ٨١ .
(3) أنظر خبر هذا اليوم مفصلاً في مصادره : شرح النقائض ١/ ١٣٧ ، الأغاني والعقد الفريد ٣/ ٣٥٤ ، الكامل في التاريخ لابن الأثير ، خزانة الأدب ١/ ٣٧٠ .

ومن غارات قيس بن عاصم ، تلك الغارة على عبد القيس ، وقد كان بنو سعد برئاسة سنان بن خالد ، وكان بنو عبد القيس بأرض البحرين ، فأصابت بنو سعد ما أرادت ، وقد أبلى بنو سعد بلاء حسناً ، واحتالت عبد القيس في أن يفعل ببني تميم كما فعل بهم بالمشقر يوم أغلق عليهم بابه فامتنعوا . ويبدو أن هذا اليوم ، بين عبد القيس وبني سعد كان هو يوم جؤاثى ، لأن سوار بن حيان المنقري يقول مفتخراً :

فيالك من أيام صدق أعدها ... كيوم جؤاثى والنباج وثيتلا[1]

ومن أخبار الأيام ما نجده في خبر يوم الستار ، وهو يوم بين بكر وتميم ، وفي هذا اليوم قتل قيس بن عاصم ، كما قتل فيه أيضاً قتادة بن سلمة الحنفي فارس بكر[2] .

هذا ما أسعفتنا به المصادر التي عنيت بأخبار الأيام ، ومن المؤكد أن أياماً أخرى قد ضلت طريقها إلينا ، لأن لأبي عبيدة كتابين في الأيام ، كتاب الأيام الكبير ، وكتاب الأيام الصغير . وقد ذكر أبو عبيدة ألفاً ومائتي يوم في الكتاب الأول ، وأورد في الثاني خبر خمسة وسبعين يوماً[3] . كما ألف صاحب الأغاني كتاباً في الأيام جمع فيه ألفاً وسبعمائة يوم[4] .

ولكننا بالرغم من كل هذا لا نعثر على أخبار ما يقارب ثلاثمائة يوم أو يزيد قليلاً[5] . وبعبارة أخرى إن ما وصلنا إليه يعادل خمس الأيام التي دونها العلماء الرواة .

ونتابع الرحلة مع سيد أهل الوبر لنبحث في جانب آخر من جوانب شخصيته ، ونعني قيساً الشاعر ، فقد أسعفتنا المصادر بمقطوعات من شعره ، ولم تتح لنا المصادر أن نظفر بقصيدة واحدة له يزيد عدد أبياتها على العشرة . وقد كان هذا من أبرز الدوافع عندي لإلغاء الفصل الخاص بقيس ، إذ لا ديوان شعره بين أيدينا ، وليست بين أيدينا قصائد مطولة له ، كما أن عدد أبيات المقطوعات التي ظفرنا بها لا تربو على خمسين بيتاً موزعة على إحدى عشرة مقطوعة .

وسنحاول في عجالة أن نعرض لنماذج من شعره لنتبين الموضوعات التي طرقها ، ولنتبين صلتها بجوانب شخصيته .

---

(١) الأغاني ١٤/ ٨١ .
(٢) مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٣٩٦ .
(٣) كشف الظنون لحاجي خليفة ١/ ٤٩٩ .
(٤) كشف الظنون ١/ ٤٩٩ .
(٥) إحصائيات ملحقة ببحثي المشار إليه آنفا .

وأول ما نطالعه هنا حديثه عن الخمر التي حرمها على نفسه في الجاهلية . ففي خبر عن أبي حاتم أن قيساً شرب ليلة حتى سكر ، وكان يجاوره داري تاجر ، فربط الداري وأخذ ماله ، وشرب من شرابه فازداد سكراً ، وجعل يتطاول ويثاور النجوم من السكر ليبلغها وليتناول القمر فقال :

وتاجـر فاجـر جاء الإلـه بـه ... كأن عثنونـه أذنـاب أجمال

فلما أصبح أخبر بما كان منه ، فآلى ألا يدخل الخمر بين أضلاعه أبدا[1] .

وفي رواية أخرى عن عاصم بن الحدثان وهشام بن الكلبي عن أشياخهما أنه حرم الخمر لسبب آخر ذكرناه سابقاً وأنشد في ذلك:

وجـدت الخمـر جامحـة وفيها ... خصال تفضـح الرجـل الكريما
فـلا والله أشربهـا حياتي ... ولا أدعـو لهـا أبـداً نديما
ولا أعطـي بهـا ثمنـاً حياتي ... ولا أشفـي بهـا أبـداً سقيما
فـإن الخمـر تفضـح شاربيها ... وتجشمهـم بهـا أمـراً عظيما
إذا دارت حمياهـا تعلت ... طوالـع تسفـه الرجـل الحليما[2]

ونلحظ في الأبيات السابقة أن تحريمها على نفسه جاء نتيجة تجربة مريرة عاشها قيس ، قد تكون محاولته مع ابنته أو أخته ، ودليل هذا قوله في البيتين الرابع والخامس ، كما نلاحظ ربط ذلك بما تحدثه للرجل الحليم . وهذه الإشارة ربما تعود إلى تصرفه أيضاً مع تاجر الخمر نفسه وربطه إلى دوحة في داره ، ولطمه أخته وخمش وجهها ، وهذه تصرفات تسفه الرجل الحليم .

ولقيس مقطوعة أخرى رويت عنه تتصل بالخمر ، يقول فيها :

فوالله لا أحســو مدى الدهـر خمرة ... ولا شربـة تزري بذي اللـب والفخر
فكيف أذوق الخمـر والخمـر لم تزل ... بصاحبهـا حتـى تكسـع في الغدر
وصـارت به الأمثـال تضرب بعدما ... يكون عميد القـوم في السر والجهر
ويبدرهـم في كل امـر ينوبهم ... ويعصمهـم ما نابهـم حادث الدهر

---

(1) الأغاني ١٤/ ٧٦ ، ٨٥ .
(2) الأغاني ١٤/ ٨٤ .

فيا شارب الصهباء دعها لأهلها الغواة وسلّم للجسيم من الأمر
فإنك لا تدري إذا ما شربتها وأكثرت منها ما تريش وما تبري[1]

ونستخلص من هذه الأبيات القليلة الأسباب التي حملته على الإمتناع عن شربها ومعاهدته الله على ذلك ، ومن ذلك أنها تزري بصاحبها ولو كان ذا عقل ومحمدة يفخر بها ، ومنها أنها لم تزل بصاحبها حتى تجعله ينغمس في الرذيلة ويتمادى في الغدر ، ومنها أنها تجعل شاربها حديث القوم وتضرب به الأمثال في السفه والغدر بعد أن كان سيد القوم في السر والعلن ، وبعد أن كان صاحب المبادرة في كل أمر ينزل بهم ، وكان يعصمهم ويحميهم من نوائب الدهر. ونراه في البيتين الأخرين لا يقصر التحريم على نفسه بل نراه يوجه حديثه إلى كل شارب لها ناصحاً له بأن يتركها للغواة الضالين السادرين في الضلالة . وأن يتفرغ للأمور الهامة التي تهم قومه وتهمه ، ويعلل ذلك بأن الذي يشربها ويكثر لا يدري ماذا يفعل ولا يستطيع أن يميز بين الضار والنافع .

ومما أثر عن قيس بن عاصم كرمه وإطعامه زاده الأخرين أن زوجته أتته في الليلة الثانية من بنائه بها بطعام فقال : أين أكيلي ؟ فلم تفهم قصده ، فأنشأ يقول :

يا ابنة عبدالله وابنة مالك ويا بنت ذي البردين والفرس الورد
إذا ما صنعت الزاد فالتمسي له أكيلاً فإني لست آكلة وحدي
أخاً طارقاً أو جار بيت فإنني أخاف ملامات الأحاديث من بعدي
وإني لعبد الضيف من غير ذلة وما بي إلا تلك من شيم العبد

فأرسلت جارية لها مليحة فطلبت له أكيلاً ، وأجابه :

أبى المرء قيس أن يذوق طعامه بغير أكيل إنه لكريم
فبوركت حياً يا أخا الجود والندى وبوركت ميتاً قد حوتك رجوم[2]

بورك قيس بن عاصم ، فقد كان يخشى ملامات الأحاديث من بعده ، وقد كان يرفض أن ينفرد بالزاد وهو يأبى إلا أن يكون عبداً لضيفه الذي جدده بالطارق أو بالجار ، وكلاهما له عليه حق في زاده .

ونرى قيساً حيناً خدعه الزبرقان وزين إليه أن يفرق كل منهما الصدقات في قومه ، وفعلها قيس ، وذهب الزبرقان بما لديه من الصدقات إلى أبي بكر ، نراه يقول محدداً سبب فعلته تلك ومعلنا ذلك ليصل إلى قريش :

(1) الأغاني ١٤/ ٨٥ .
(2) الأغاني ٤/ ٧١ - ٧٢ .

ألا أبلغا عني قريشاً رسالة ... إذا ما أتتهم مهديات الودائع
حبوت بما صدقت في العام منقراً ... وأيأست منها كل أطلس طامع[1]

ويتبين من البيت الثاني أنه خاف بعد موت النبيﷺ أن تقع الصدقات في يد لص خبيث طامع ، والأولى أن يقسمها في قومه، وربما كان عذره في ذلك أنه لم يكن قد تمثل الإسلام بعد، وأن موت النبي يعني أن عقد الأمور إنحل وعادت الأمور إلى سابق عهدها في الجاهلية .

أما قيس الفارس الشاعر فلم يعثر له إلا على مقطوعات ثلاث ، الأولى قالها في يوم جدود ، وفيها يقول :

جزى الله يربوعا بأسوأ سعيها ... إذا ذكرت في النائبات أمورها
ويوم جدود قد فضحتم أباكم ... وسالمتم والخيل تدمى نحورها
فأصبحتم والله يفعل ذاكمُ ... كموءودة لم يبق إلا زفيرها
وأصبحت وغلاً في تميم وأصبحت ... عظاماً مساعيها سواك ودورها
أفخراً على المولى إذا ما بطنتم ... ولوماً إذا ما الحرب شب سعيرها

وينتقل بعد هذا اللوم ليربوع لنكوصها عن نصرة أخوتها ، إلى الفخر بقومه فيقول :

عصمنا تميماً في الحروب فأصبحت ... معادتها تحمي سواك وخيرها
وهرت بنو يربوع إذ هشها الوغى ... هرير كلاب أوجعتها أيورها

ثم يذكر يومين آخرين لقومه وهما جوائي والنباج فيقول :

ويوم جوائي والنباج وثيتل ... منعنا ربيعاً أن تباح ثغورها
وغركم من رهطكم كل مربع ... جوابي جهنام يمد نحيرها
تساقط أفلاق الحصى في نحوركم ... بصحن العراق فاستبنتم نحورها[2]

ويرتجز قيس في يوم الكلاب الثاني :

لما تولوا عصباً شوازبا ... اقسمت لا أطعن إلا راكبا

(1) الأغاني ١٤/ ٧٥ .
(2) شرح النقائض لأبي عبيدة ١/ ٤٦ ، ٣٢٨ ، الأغاني ١٤/ ٨١ . العقد الفريد ٥/ ٢٠٠ ، الكامل لابن الأثير ١/ ٦١١ .

إني وجدت الطعن فيهم صائباً[1]

ويجب راجز مذحج قائلاً :

عما قليل تلتحق أربابه   مثل النجوم حسراً سحابه
ليمنعن النعم اغتصابه   سعد وفرسان الوغى أربابه[2]

وفي الأغاني أن مهاترة نشبت بين قيس وابن عمه عمرو بن الأهتم عند رسول الله ﷺ حينما قدما عليه بعد فتح مكة ، وقال قيس يرد على ابن عمه ويفتخر :

لولا دفاعي ، عنكم كنتم أعبدا   مسكنها الحيرة فالسيلحون
جاءت بكم عفرة من أرضها[3]   حيرته ليست كما تزعمون
في ظاهر الكف وفي بطنها   وسم من الداء الذي تكتمون[4]

ويبدو أن العمر قد امتد بقيس ، فقد عاصر أبا بكر ، لأن صاحب فتوح البلدان يذكر خبراً عن فتوح السواد ، ذلك أن المثنى بن حارثة الشيباني كان يغير على السواد . فبلغ أبا بكر خبره ، فسأل عنه ، فقال قيس بن عاصم لأبي بكر : هذا رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ، وأثنى عليه[5] .

واكسبته تلك السنوات حكمة أودعها بنيه ، فكان يقول لهم : إياكم والبغي ، فما بغى قوم قط إلا قلوا وذلوا .

وقد امتثل بنوه لما أوصاهم فكان بعضهم يلطمه قومه أو غيرهم فينهي إخوته عن أن ينصروه[6] . وأوصاهم بحفظ المال ، وقد حمل عليه وعلى قومه من أجل ذلك لأنه يناقض الكرم ولا يلتقي معه . وربما كانت وصيته ألا ينفقوا المال إلا في أهداف نبيلة ، وأن يتجنبوا إتلافه في اللهو وغيره مما لا ينفع ، ومما يؤكد هذا الإتجاه ما سيرد في وصيته الأخيرة .

ويروي ابن عدي أن قيساً جمع ولده حين حضرته الوفاة وأوصاهم بما يلي : يا بني اذا مت فسوّدوا كباركم ، ولا تسوّدوا صغاركم فيسفه الناس كباركم . وعليكم بإصلاح المال فإنه منبهة الكريم ، ويستغنى به عن اللئيم ، وإذا مت فادفنوني في ثيابي التي كنت أصلي فيها وأصوم . وإياكم والمسألة فإنها آخر مكاسب العبد .

---

(١) شرح النقائض ١/ ١٥٢ .
(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ١/ ٦٢٤ .
(٣) الأغاني ١٤/ ٨٨ .
(٤) فتوح البلدان - البلاذري ٢٤٢ .
(٥) الأغاني ١٤/ ٧٧ .

جدول رقم (١)

الأيام العدنانية - القحطانية

اليوم	الفريقان (المنتصر أولا)	اليوم	الفريقان (المنتصر أولا)
طخفة	يربوع ... تميم - النعمان بن المنذر	حارث الجولان	غسان
السلان	عامر - المناذرة+ تميم+ ضبّة	جو نطاع	سعد تميم - هوذه بن علي ملك المناذرة
خزاز	نزار - اليمن	الزخيم	تميم - اليمن
بزاخه ، أضم فيف الريح ،	ضبة - الغساسنة	الحسين	تغلب - عمرو بن هند
الأجشر يوم بضيع	عامر - اليمن	حنو قراقر ، حمض	تميم - لطيمة عامل كسرى
حجر	أسد - كندة	رضيخ	عامر - طيء
أوارة الثاني	عمرو بن هند - تميم	درنى	بنو طهية ... تميم - اللات
أوارة الأول	المنذر بن ماء السماء+ تغلب+ النمر - بكر	ذرحرح	بنو سعد بن ثعلب ...
الصفقة	الفرس - تميم		أسد - غسان
الكلاب الثاني	تميم - اليمن	ذو ذرائح	تميم - اليمن
غول الثاني	تميم - غسان	شطب	أسد+ المناذرة -
ظهر الدهناء	طيء - أسد	العذيب	غسان سعد+ عنزة - مذحج + حمير
العرقوب	كلاب ... عامر - مذحج+ خثعم+ زبيد	ضبيعات	الحارث بن عمرو الكندي - تميم+ تغلب
البيداء	حمير - كلب+ تميم - الرباب	نجران	تميم - اليمن+ حمير
تثليث	سليم - مراد	المراد	أسد - غسان
أراق	طيء - عامر	النشاش	عامر - أهل اليمامة
أقر	عمرو بن الحارث الغساني - ذبيان	النجير	كندة
		المضيح والضحضان	قيس - اليمن

اليوم	الفريقان (المنتصر أولا)
بين بني عبد مناه وكلب وحمير	بنو عبد مناه - كلب+ حمير
القرن	عامر - خثعم
أ - بكر وتميم	
النباج وثيتل	تميم/ مقاعس - بكر/ اللهازم
الجبات	بنو ثعلبة بن يربوع - بكر
ذو طلوح، الصمد، بلقاء، أود، جوف طويلع، ذو احتمال.	يربوع - بكر
القحقح، عين التمر، ماله النمر،	يربوع - بكر
رأس العين	يربوع - بكر
العظالي، أعشاش، الأياد	
الأفاقة، مليحة الغبيط، الثعالب،	يربوع - شيبان/ بكر
أعشاش صحراء الثعالب فلج، البردي، الغبيطين.	من تميم - شيبان
الحاجر، طويلع	يشكر/ بكر - بنو أسيد بن عمرو بن تميم
مخطط	يربوع - بكر
جدود	منقر/ تميم - شيبان/ بكر
سفوان	مازن/ تميم - شيبان
غول الأول	بنو الغبر+ طوائف من عمرو بن تميم بكر
السلى	مازن/ تميم - يشكر
نقا الحسن، الشقيقة	ضبة - شيبان
الزويرين	شيبان - تميم
الهيمي، الهيباء	تيم اللات/ بكر - مجاشع/ تميم
الشيطين	بكر - تميم
مبايض	شيبان - بنو عمرو+ بنو سعد+ بنو حنظلة
ذو قار الأول	شيبان - يربوع
الحائر، ملهم	يربوع - يشكر+ حنيفة
الشقيق	عجل/ بكر - تميم
نعف قشاوة، نعف سويقه	شيبان - يربوع
زبالة	شيبان+ تيم الله - تميم
ظهر	بنو عمرو بن تميم - بنو حنيفة
ذو بيض، الصمد الثنية، ثنية مفروق	شيبان - يربوع
ثبرة	بكر - تميم
الخوع	بكر - تميم
الهزبر	بكر - تميم
خوى	تميم - بكر
الوقبى	شيبان - مازن
آفاق، وأفيق	يربوع - بكر
سفار	تميم - بكر

اليوم	الفريقان (المنتصر أولا)
الحداب	بكر- سليط بن يربوع+ رياح+ بنو ثعلبة بن يربوع
ذو أراط ، أراطى	تميم - حنيفة+ جعدة
الستار	تميم - بكر
القاع	بكر- تميم
الصليب	بكر- عمرو بن تميم
الجفار	بكر- تميم
صعفوق	بنو ربيعة/ بكر- سليط بن يربوع
القاعة	بكر- سعد بن زيد مناة+ منقر
ذو خيم ، الأربعاء	رياح - حنيفة
درنى	بنو طهية/ تميم - تيم اللات
الأميل	ضبة - شيبان

ب - تميم وقيس

اليوم	الفريقان (المنتصر أولا)
أقرن	عبس - دارم/ تميم
المروت ، العناب ، أرم الكلبة	بنو العنبر ومالك ويربوع - بنو قشير/ عامر
دارة مأسل	ضبة - قيس/ بنو كلاب
السوبان ، ملزق	عامر+ عبس - تميم
الفروق	عبس - تميم
الجرف ، الصرائم	رياح بن يربوع - عبس

اليوم	(الفريقان (المنتصر أولا)
الدثينة	مازن/ تميم - سليم
ذو نجب	يربوع+ حنظلة - عامر+ كندة
الوتدات ، الوتدة	نهشل/ تميم - هلال / عامر
ملزق	سعد تميم - عامر
الترغام ، الجونين	يربوع - كلاب/ عامر
قارب	ضبة - كلاب/ عامر
عينين	منقر+ مجاشع+ نهشل - بنو عين العيش
خزان	يربوع - كلاب
يوم لبني جشم /	بنو جشم/ هوازن - بني يربوع+ بني سعد
الفروقين	دارم- عبس + مرة+ ذبيان
السلمي	باهله/ قيس - ضبة + عدي+ عكل+ تميم
يوم الردهة	غني - غطفان
رحرحان الأول	دارم/ تميم - عامر
رحرحان الثاني	عامر- تميم
منعج	يربوع - كلاب/ عامر
داب	عبس - سعد/ تميم
جزع ظلال	فزارة - التيم+ عدي+ عكل+ ثور أطحل بني عبد مناة
الكفافة	فزارة - عمرو بن تميم

اليوم	الفريقان (المنتصر أولا)
ج ـ تميم مع تغلب	
الشعب	تغلب ـ يربوع
ذو بهدى	ضبة+ سعد ـ تغلب
اراب	تغلب ـ رياح بن يربوع
زرود الثاني	يربوع ـ تغلب
نطاع	تميم ـ رزاح/ تغلب
د ـ تميم وأسد	
خو	يربوع ـ أسد
يوم	بين بني أسد ـ بني سعد بن زيد مناة + بني حنظلة
هـ ـ تميم والمناذرة .	
أوارة الثاني	عمرو بن هند ـ تميم
جو نطاع	سعد تميم ـ هوذة بن علي
الصفقة ، المشقر	تميم ـ الفرس+ اليمن
حنو قراقر	تميم ـ لطيمة عامل كسرى
السلان	عامر ـ تميم+ المناذرة+ ضبة+ الرباب
طخفة	يربوع ـ النعمان بن المنذر

اليوم	الفريقان (المنتصر أولا)
و ـ تميم والغساسنة	
غول الثاني	غسان ـ يربوع
ضبيعات	الحارث بن عمرو الغساني ـ تميم + تغلب
ز ـ تميم واليمن	
الزخيم	تميم ـ اليمن
ذو ذرائح	تميم ـ اليمن
العذيب	سعد+ عنزة ـ مذحج + حمير
الكلاب الثاني	سعد+ الرباب ـ اليمن
نجران	الأقرع بن حابس التميمي ـ اليمن+ حمير
يوم بين بني عبد مناة	كلب+ حمير
عاقل	خثعم ـ حنظلة/ تميم
ضرية	سعد+ الرباب ـ الأزد
ح ـ تميم والفرس	
الصفقة= يوم حمض	عامل الفرس ـ تميم
(٢) حروب قيس	
أ ـ فيما بين عبس وذبيان	
المريقب	عبس وبنو عبد الله بن غطفان ـ فزارة + ذبيان

اليوم	الفريقان (المنتصر أولا)
ذو حسا	ذبيان وأحلافهم - عبس
اليعمرية ، نفر	عبس - ذبيان وحلفاؤهم
الهباءة ، البوار	عبس - ذبيان وحلفاؤهم
قطن	عبس - فزارة
غدير قلهى	عبس - بنو ثعلبة بن سعد بن ذبيان
عراعر	عبس - ذبيان+ كلب
المفيقة	عبس - فزارة
شعب جبلة	عامر+ عبس+ غنى+ باهلة + بجيلة - تميم + غطفان+ أسد+ الجون من الكلبي+ النعمان بن المنذر .
شعواء	عبس
ذات الجراجر	عبس
العذق	عبس - أول دفعة
ب - مع كنانة	
يوم الكديد	سليم - فراس كنانة
برزة	فراس/ كنانة - سليم
الفيفاء	سليم - فراس/ كنانة
ج - قيس مع كنانة (الفجار)	
الفجار الأول	كنانة - عجز هوازن
الفجار الثاني	هوازن - كنانة (قريش)
الفجار الثالث	كنانة - هوازن
الفجار الآخر وأيامها : نخلة	هوازن - قريش
شمطة	هوازن+ ثقيف - كنانة+ قريش+ أسد+ الأحابيش
العبلاء	هوازن - كنانة
شرب ، عكاظ	كنانة - هوازن
الحريرة	هوازن - كنانة
د - قيس وتميم	
أقرن	عبس - دارم
المروت ، العناب ،	بنو العنبر+ مالك+ يربوع قشير/ عامر
أرم الكلبة	
دارة مأسل	ضبة - كلاب/ عامر
السوبان ، ملزق	عامر+ عبس - تميم
الفروق	عبس - تميم
الجرف ، الصرائم	رياح بن يربوع - عبس عبس
الوتدات ، الوتدة	نهشل - هلال
الرغام	يربوع - كلاب
الدثينة	مازن - سليم
ذو نجب	يربوع+ حنظلة+ عامر+ كندة

اليوم	الفريقان (المنتصر أولا)
ملزق	سعد ـ عامر
قارب	ضبة ـ كلاب
عينين	منقر+ مجاشع+ نهشل بنو عبد القيس
خوان	يربوع ـ كلاب
الفروقين	دارم ـ عبس+ مرة+ ذبيان
السلى	باهله/ قيس ـ ضبة+ عدي+ عكل+ تميم
النسار	غطفان+ أسد+ طيء ضبة+ عامر+ هوازن
الجفار	غطفان+ طيء ضبة+ عدي+ عامر+ تميم .
يوم	جشم/ هوازن ـ بني يربوع+ بني سعد
رحرحان الأول	دارم ـ عامر
رحرحان الثاني	عامر ـ تميم
داب	عبس ـ سعد/ تميم
جزع ظلال	فزارة ـ التيم+ عدي+ عكل+ ثور أطحل بني عبد مناة
الكفافة	فزارة ـ عمرو بن تميم
النقيعة، أعيار	ضبة ـ عبس

هـ ـ قيس فيما بينها

اليوم	الفريقان (المنتصر أولا)
عدنية ، ملحان أو قنة ملحان	سليم ـ غطفان
حوزة الأول	سليم ـ غطفان
حوزة الثاني	سليم ـ غطفان
النفراوات	غني ـ عبس .
اللوى= واردات	غطفان ـ هوازن
الصلعاء	هوازن ـ غطفان
منعج ، الردهة	غني ـ عبس
زرود الأول	بكر ـ عبس، ع س ـ طيء
النسار	غطفان+ أسد+ طيء+ ضبة+ عامر+ هوازن .
الجفار	غطفان+ طيء ضبة+ عدي+ عامر+ تميم .
ذات الشقوق	عامر ـ غطفان
بطن عاقل	ذبيان ـ عامر
الرقم ، يأجج	غطفان ـ عامر
النَّثَاءَة	عبس ـ عامر
شواحط	بنو محارب/ قيس ـ عامر
غُمرة	
المروراة	
شعر ، التخانق	عبس ـ عامر
ذات الرمرم	عامر ـ عبس
طوالة	عامر ـ غطفان
سقف	عبس ـ عامر
ركبة	عبس ـ عامر
الرميثة	عامر ـ عبس
ذات الأثل ، الأرطي	جشم/ هوازن ـ عبس .

اليوم	الفريقان (المنتصر أولا)

و - أيام أخرى

اليوم	الفريقان (المنتصر أولا)
السليل	عبس - أسد
ذات الأثل	سليم - أسد
ذو علق	بنو عامر - بنو أسد
يوم الحسى	بنو بغيض - عامر بن صعصعة
يوم ترج	الأنباء من بني صعصعة - بنو أسد
بسيان	فزارة جشم بن بكر
الفلج الأول	عامر - حنيفة - بكر
الفلج الآخر	بنو حنيفة .. بكر؟ عامر
قارة أهوى - القويرة	نمير - شيبان
القرن	عامر - خثعم
البوباة	هذيل - سليم
الجرف	سليم - بنو سهم من هذيل

٤ - حروب ربيعة فيما بينها (حرب البسوس)

اليوم	الفريقان (المنتصر أولا)
النهى	تغلب - بكر
الذنائب	تغلب - بكر
واردات	تغلب - بكر
عنيزة	تغلب - بكر
الحنو	تغلب - بكر
	أو بكر - تغلب (الأغاني)
عويرضات	تغلب - بكر
أنيق	تغلب - بكر
ضرية	تغلب - بكر
القصيبات=	
القصبة	تغلب - بكر
قضة ، تحلاق اللمم	بكر - تغلب
الكلاب الأول	تغلب+ النمر+بهراء + مالك بن حنظلة+ سلمة+ بكر+ ضبة+ الرباب+ يربوع+ شرحبيل .

٥ - أيام القحطانية فيما بينها

أ - حروب الأوس والخزرج

اليوم	الفريقان (المنتصر أولا)
حرب سمير ومنها	
يوم الفضاء	الأوس - الخزرج
حرب كعب بن عمرو المازني	الخزرج - الأوس
حرب السرارة	الخزرج - الأوس .
حرب الحصين بن الأسلت	الخزرج - الأوس
حرب ربيع الظفري	الأوس - الخزرج
حرب فارع	الخزرج - الأوس
يوم قباء	الأوس - الخزرج
يوم الدرك	الخزرج - الأوس
حرب حاطب بن حاطب الأوسي	

اليوم	الفريقان (المنتصر أولا)
وهي ايام :	
١) يوم الجسر	الخزرج - الأوس.
٢) يوم الربيع	الخزرج - الأوس
٣) يوم البقيع	الأوس - الخزرج
٤) يوم الفرس	الأوس - الخزرج
٥) يوم الفجار الأول أو الحديقة	الخزرج - الأوس
٦) يوم معبس ومضرس أو مغلس ومضرس	الخزرج - الأوس
٧) يوم الفجار الثاني	الأوس+ قريظة+ النضير- الخزرج
يوم بعاث	الأوس+ قريظة+ النضير+ مزينة الخزرج+ أشجع+ جهينة .
يوم الحديقة	وهو يوم الفجار الأول

ب - حروب الغساسنة والمناذرة

اليوم	الفريقان (المنتصر أولا)
يوم عين أباغ	الغساسنة - المناذرة+ نزار
مرج حليمة	الغساسنة+ عرب الشمال - المناذرة+ عرب العراق .
شطب	المناذرة+ بنو أسد غسان

ج - أيام أخرى

اليوم	الفريقان (المنتصر أولا)
نهد وجرم	عمرو بن معد يكرب الزبيدي -بلحارث بن كعب
الرزم	همدان - مراد
حرض	مذحج - نهد

٧ - أيام العرب والفرس

اليوم	الفريقان (المنتصر أولا)
ذو قار= قراقر= يوم الحنو حنو ذي قار= يوم حنو قراقر= يوم الجبابات= يوم ذات العجرم= يوم الغذوان= يوم البطحاء بطحاء ذي قار= يوم صيد= يوم القبة	بكر (إلاّ بنو حنيفة) + أسرى بني رياح بن يربوع - الفرس+ تغلب+ قضاعة+ اياد+ طيء+ النمر بن قاسط
الصفقة حمض	عامل الفرس - تميم

٨ - أيام تغلب

اليوم	الفريقان (المنتصر أولا)
النهى	تغلب - بكر
الذنائب	تغلب - بكر

اليوم	الفريقان (المنتصر أولا)
واردات	تغلب ـ بكر
عنيزة	تغلب ـ بكر
الحنو	تغلب ـ بكر
عويرضات	تغلب ـ بكر
أنيق	تغلب ـ بكر
ضرية	تغلب ـ بكر
القصيبات	تغلب ـ بكر
قضة	بكر ـ تغلب
الكلاب الأول	تغلب+ النمر+ بهراء + بنو مالك بن حنظلة+ سلمة
ذوقار	بكر+ ضبة+ الرباب+ يربوع+ شرحبيل بكر+ شيبان+ عجل الفرس+ تغلب+ طيء+ قضاعة+ بهراء+ اياد
ذو بهدى	ضبة+ بنو سعد بن تميم تغلب
الشعب	تغلب ـ يربوع
الأحص	بكر ـ تغلب .
الحسين	تغلب ـ المناذرة
خزاز	نزار ـ تغلب
خزاز	نزار ـ تغلب اليمن . . . مذحج
أوارة الأول	المنذر+ تغلب+ النمر بن قاسط بكر
بزاخة	الغساسنة+ أياد+ طوائف من تغلب ـ ضبة

اليوم	(الفريقان) (المنتصر أولا)
ضبيعات	الحارث بن عمرو الغساني ـ تميم+ تغلب
زرود الثاني	يربوع ـ تغلب
أراب	تغلب ـ رياح بن يربوع
نطاع	تميم ـ بنو رزاح . . تغلب

(٩) أيام بين بطون القبيلة الواحدة

اليوم	الفريقان
حرابيب	وربما
هراميت	الضباب بن كلاب بن عامر جعفر بن كلاب بن عامر
قرعساء	دارم بن مالك بن حنظلة بن تميم ـ يربوع بن حنظلة بن تميم
الفساد	الغوث . . . من طيء جديلة . . . من طيء
الفتاة	بنو خالد بن جعفر العامري بنو عامر
تياس	بنو سعد بن زيد مناة بن تميم بنو عمرو بن تميم
الردم	بنو محارب بن فهر بن كنانة بنو جمح بن عمرو. . . كنانة

اليوم	الفريقان (المنتصر أولا)
الصمتين	مالك بن يربوع
ضرية	سعد+ الرباب حنظلة+ عمرو بن تميم
صوار	بنو رياح - بنو حنظلة
دارة موضوع	
حديث ابن هبا	بنو أبي بكر بن كلاب بنو جعفر
الأنان	الأحلاف من ثقيف - بنو مالك بن ثقيف وبنو يربوع

(١٠) أيام أخرى

اليوم	الفريقان (المنتصر أولا)
حر الدوابر	تيم (الرباب وسعد)
قلاب	بنو الحارث بن ثعلبة .. أسد بكر
اللهيماء	عمرو بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل - بنو عبد عدي بن الديل بن بكر بن عبد مناة خندف - قيس .
المعا	عجل وبنو سعد بن مالك .. بكر بنو أسد
التحاميم ، غارات	
حوق	طيء
تعشار	
بلدح ما ينحد	

جدول رقم (٢)

القبائل والأيام التي انتصرت أو هزمت فيها

القبيلة	الأيام التي انتصرت فيها	الأيام التي هزمت فيها
١ أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر.	حجر ، ذرحرح ، شطب ، المراد ، يوم مع تميم ، النسار ، ساحوق ، قلاب .	ظهر الدهناء ، خو ، شعب جبلة ، شمطه ، السليل ، ذات الأثل ، ذو علق ، ترج ، المعا .
٢ بكر بن وائل بن قاسط . .	الحاجر ، الزويرين ، الهيمى ، الشيطين ، مبايض ، ذوقار الأول ، الشقيق ، نعف قشاوة ، زبالة ، ذو بيض ، ثبرة ، الخوع ، الهزير ، الوقبي ، الحداب ، القاع ، الصليب ، الجفار ، صعفوق ، القاعة ، زرود الأول ، عنيزة ، قضة ، ذوقار ، الأحص ، المعا ، الفلج الآخر .	أوراة الأول ، درنى ، النباج ، الجبات ، ذو طلوح ، القحقح ، رأس العين ، العظالى ، الغبيط ، مخطط ، جدود ، سفوان ، غول الأول ، السلي ، نقا الحسن ، الحائر ، ظهر ، خوى ، آفاق ، سفار ، ذو أراط ، الستار ، ذو خيم ، درنى ، النهى ، الذنائب ، واردات ، الحنو ، عويرضات ، أنيق ، ضرية ، القصيبات ، الكلاب الأول ، قلاب ، الفلج الأول ، الأميل ، قارة أهوى .

القبيلة	الأيام التي انتصرت فيها	الأيام التي هزمت فيها
٣ تغلب بن وائل بن قاسط .	أوارة الأول ، الحسين ، الشعب ، أراب ، النهي ، الذنائب ، واردات ، عنيزة ، الحنو ، عويرضات ، أنيق ، ضرية ، القصيبات ، الكلاب الأول .	ضبيعات ، ذو بهدى ، زرود الثاني ، نطاع ، قضة ، ذو قار ، الأحص .
٤ تميم بن مر بن أد بن طانجة .	طخفة ، الكلاب الثاني ، غول الثاني ، جو نطاع ، الزخيم ، حمض ، درنى ، ذو ذرائح ، العذيب ، نجران ، النباج ، الجبات ، ذو طلوح ، القحقح ، رأس العين ، العظالى ، الغبيط ، مخطط ، جدود ، سفوان ، غول الأول ، السلى ، نقا الحسن ، الحائر ، ظهر ، خوى ، آفاق ، سفار ، ذو أراط ، الستار ، ذو خيم ، درنى ، المروت ، الجرف ، الدثينة ، ذونجب ، الوتدة ، ملزق ، الرغام ، عينين ، خوان ، الفروقين ، رحرحان الأول ، منعج ، ذو بهدى ، زرود الثاني ، نطاع ، خو ، جو نطاع ، الصفقة ، حمض ، ضرية ، النسار ، الكلاب الأول ، ذوقار ، حر الدوابر .	السلان ، أوارة الثاني الصفقة ، ضبيعات ، الحاجر ، الزويرين ، الهيمى ، الشيطين ، مبايض ، ذوقار الأول ، الشقيق ، نعف قشاوة ، زبالة ، ذو بيض ، ثبرة ، الخوع ، الهزبر ، الوقبى ، الحداب ، القاع ، الصليب ، الجفار ، صعفوق ، القاعة ، أقرن ، السؤبان ، الفروق ، يوم مع هوازن ، السلى ، رحرحان الثاني ، داب ، الكفافة ، الشعب ، أراب ، يوم مع أسد ، أوارة الثاني ، غول الثاني ، عاقل ، شعب جبلة ، الجفار ، الكلاب الأول .

القبيلة	الأيام التي انتصرت فيها	الأيام التي هزمت فيها
٥ ضبة بن أد بن الياس بن مضر .	بزاخة ، دارة مأسل ، قارب ، ذو بهدى ، النسار ، الجفار ، الأميل .	السلان ، السلي ، الكلاب الأول .
٦ سليم بن منصور بن قيس بن عيلان .	تثليث ، الكديد ، الفيفاء ، عدنية ، حوزة الأول ، حوزة الثاني ، ذات الأثل .	الدثينة ، برزة .
٧ عامر بن صعصعة بن بكر ابن هوازن . . بن قيس بن عيلان .	السلان ، فيف الريح ، العرقوب ، زخيخ ، النشاش السؤبان ، رحرحان الثاني ، شعب جبلة ، ذات الشقوق ، ذات الرمرم ، طواله ، الرميثة ذو علق ، ترج ، الفلج الأول ، قارة أهوى ، القرن	أراق ، المروت ، دارة مأسل ، ذو نجب ، الوتدة ، ملزق ، رحرحان الأول ، منعج ، النسار ، الجفار ، بطن عاقل ، الرقم ، النشأة ، شواحط ، شعر ، سقف ، ركبة ، الحسى ، العنب .
٨ غني بن أعصر . . من قيس بن عيلان .	شعب جبلة ، النفراوات ، منعج .	
٩ عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان .	أقرن ، السؤبان ، الفروق ، داب ، المريقب ، اليعمرية ، الهباءة ، قطن ، غدير قلهي ، عراعر ، المعنقة ، شعب جبلة ، شعواء ، ذات الجراجر ، العذق ، النشأة ، شعر ، سقف ، ركبة ، السليل .	الجرف ، الفروقين ، ذو حسا ، النفراوات ، منعج ، زرود الأول ، ذات الرمرم ، الرميثة ، ذات الأثل .
١٠ ذبيان بن بغيض بن ريث ابن غطفان .	ذو حسا ، النسار ، الجفار ، بطن عاقل ، جزع ظلال ، الكفافة ، بسيان .	أقر ، الفروقين ، المريقب ، اليعمرية ، الهباءة ، غدير قلهي ، عراعر ، شعب جبلة ،

القبيلة	الأيام التي انتصرت فيها	الأيام التي هزمت فيها
١١ غطفان بن سعد . . قيس بن عيلان .	اللوى ، الرقم ، الحسى .	قطن ، المعنقة ، العذق . عدنية ، حوزة الأول ، حوزة الثاني ، الصلعاء ، ذات الشقوق ، طوالة .
١٢ نصير بن عامر بن صعصعة .		
١٣ هوازن بن منصور . . بن قيس بن عيلان .	يوم مع تميم ، الفجار الثاني ، نخلة ، شمطه ، العبلاء ، الحريرة ، الصلعاء ، ذات الأثل .	الفجار الأول ، الفجار الثالث ، شرب ، النسار ، اللوى ، بسيان .
١٤ باهلة ، بنو سعد مناة بن مالك بن أعصر . . . قيس بن عيلان .	شعب جبلة .	
١٥ أشجع بن ريث بن غطفان . . بن قيس بن عيلان .		بعاث .
١٦ عبدا لقيس بن أفصى . . أسد بن ربيعة بن نزار .		النشاش ، عينين .
١٧ النمر بن قاسط . . بن أسد بن ربيعة .	أوارة الأول ، الكلاب الأول .	ذو قار .
١٨ نزار بن معد	خزاز .	عين أباغ ، مرج حليمة .
١٩ كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر .	برزة ، الفجار الأول ، الفجار الثالث ، شرب ، نخلة ، العنب ، نكيف .	الكديد ، الفيفاء ، الفجار الثاني ، شمطه ، العبلاء ، الحريرة .

القبيلة	الايام التي انتصرت فيها	الايام التي هزمت فيها
٢٠ كلب بن وبرة بطن من قضاعة .		البيداء ، يوم مع بني عبد مناة ، عراعر ، شعب جبلة ، ذوقار .
٢١ بهراء بن عمرو . . . من قضاعة .	الكلاب الأول .	
٢٢ جهينة بن زيد بطن من قضاعة .		بعاث .
٢٣ إياد بن نزار بن معد بن عدنان .		
٢٤ خندف .	بارق .	
٢٥ قيس بن عيلان .	المضيح والصحصحان ، السلى، شواحط.	بارق .
٢٦ مزينة بطن من مضر .	بعاث .	
٢٧ الأوس بن حارثة بن ثعلبة . . . . الأزد.	سمير ، ربيع الظفري ، قباء ، البقيع ، الفرس ، الفجار الثاني للأنصار ، بعاث .	كعب بن عمرو ، السرارة ، حصين بن الأسلت ، فارع ، الدرك ، الجسر ، الربيع ، الفجار الأول للأنصار ، مضرس ومعبس .
٢٨ الخزرج بن حارثة بن ثعلبة .	كعب بن عمرو ، السرارة ، حصين بن الأسلت ، فارع ، الدرك ، الجسر ، الربيع ، الفجار الأول للأنصار ، مضرس ومعبس .	سمير ، ربيع الظفري ، قباء ، البقيع ، الغرس ، الفجار الثاني للأنصار ، بعاث .

القبيلة	الايام التي انتصرت فيها	الايام التي هزمت فيها
٢٩ الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن كهلان.		ضرية .
٣٠ الغساسنة .	أقر ، حارث الجولان ، غول الثاني ، عين أباغ ، مرج حليمة .	بزاخة ، غول الثاني ، ذرحرح ، شطب ، المراد .
٣١ المناذرة.	أوارة الثاني ، أوارة الأول ، شطب .	طخفة ، السلان ، جونطاع ، الحسين ، شعب جبلة ، عين أباغ ، مرج حليمة .
٣٢ طيء بن أدد من القحطانية.	ظهر الدهناء ، أراق ، النسار ، الجفار ، اليحاميم .	زخيخ ، ذوقار.
٣٣ حمير من القحطانية .	البيداء .	العذيب ، نجران ، يوم مع بني عبد مناة .
٣٤ خثعم من القحطانية .	عاقل .	العرقوب ، القرن .
٣٥ زبيد بن صعب من مذحج .	نهد وجرم .	العرقوب .
٣٦ مراد بن مذحج.		تثليث .
٣٧ بلحارث بن كعب بن عمرو بن مذحج.		نهد وجرم .
٣٨ مذحج بن أدد . . . من كهلان .		العرقوب ، العذيب .
٣٩ بجيلة بطن من القحطانية .	شعب جبلة .	

القبيلة	الايام التي انتصرت فيها	الايام التي هزمت فيها
٤٠ كندة بن عفير من القحطانية	ضبيعات ، النجير .	حجر ، ذو نجب .
٤١ اليمن.		خزاز ، فيف الريح ، الكلاب الثاني ، الرخيم ، ذو ذرائح ، نجران ،المضيح والصحصحان.
٤٢ الفرس.	الصفقة .	حمض ، ذوقار .
٤٣ اليهود.	الفجار الثاني للأنصار ، بعاث .	

جدول رقم (٣)

الأيام والشعر

اليوم	الشعراء	عدد المقطوعات	عدد القصائد	المجموع للأبيات
سمير	قيس بن الخطيم ، عمرو بن امرىء القيس الأنصاري الخزرجي ، حسان بن ثابت الخزرجي ، مالك بن العجلان الخزرجي ، درهم بن زيد بن جبيعة ،	٣	٣	٨٢ بيتاً
كعب بن عمرو المازني	عاصم بن عمر المازني ، أحيحة بن الجلاح الأوسي ،	٢	١	٢٠
السرارة	قيس بن الخطيم ، حسان بن ثابت ، عبيد بن نافذ الأوسي ،	٢	٢	٤٨
الربيع الظفري	حسان بن ثابت ، قيس بن الخطيم ، صخر بن سلمان البياضي الخزرجي ، سويد بن الصامت الأوسي ،	٣	١	٣٣
فارع	الربيع بن أبي الحقيق اليهودي ، عامر بن الأطنابة ،	١	١	٢٤

اليوم	الشعراء	عدد المقطوعـ	عدد القصائـد	المجموع للأبيات
حاطب	قيس بن الحـطيم ، عبـد الله بن رواحة ، أنس بن العلاء الخزرجي ،	٢	٢	٦٧
البقيع	عبيد بن ناقـد الأوسي ، أبـو قيس بن الأسلـت الأوسي ، عبـد الله بن رواحة ،	٢	٢	٤٠
الفجار الأول للأنصار	عبد الله بن رواحة ،	١	-	١
الفجار الثاني للأنصار	يزيد بن فسحم الخزرجي ،	١	-	٦
مضرس ومعبس	قيس بن الخطيم ، حسان بن ثابت ، عبد الله بن رواحة ،	١	٢	٤٣
الفضاء	قيس بن الخطيم ، عبد الله بن رواحة ،	-	٢	٤١
بعاث	قيس بن الخطيم ، أبو قيس بن الأسلت خفاف بن ندبه السلمي ،	٥	-	٢٢
الدرك	حسان بن ثابت ، يزيد بن طعمـة الخطمي الأوسي ،	٢	-	٨
لأيام من أيام الأوس والخزرج	حسان بن ثابـت ، الرمـق بن يزيد الخزرجي ، قيس بن الخطيم ،	٤	١	٣٩
حروب الغساسنة والمناذرة (أباغ - حليمة)	عدي بن الرعلاء الغساني ، علقمة الفحل التميمـي ، أوس بن حجـر التميمي ، النابغـة الذبياني ، بعض شعراء غسان ، أحدهم ،	٥	٢	٧٦

اليوم	الشعراء	عدد المقطوعات	عدد القصائد	المجموع للأبيات
طخفة	متمم بن نويرة اليربوعي ، ربيعة بن مقروم الضبي ، شريح بن الحارث اليربوعي ، عمرو بن حوط الرياحي ،	٤	-	٢٧
السلان	لبيد بن ربيعة العامري ،	١	-	١
خزاز	عمرو بن كلثوم التغلبي ، السفاح التغلبي ، ابن الحائك الحميري ، عبيد بن قراد البهراوي ،	٤	-	١٦
بزاخة	ابن القائف ، ربيعة بن مقروم الضبي ، نائحة ابن مزيقياء ،	٣	١	١٩
فيف الريح	عامر بن الطفيل ، مسهر بن يزيد الحارثي ، أبو دؤاد الرؤاسي ، عمرو بن معد يكرب ،	٥	٣	٦٣
حجر	عبيد بن الأبرص الأسدي ، امرؤ القيس الكندي ،	٨	١١	٢٦٦
أوارة الأول	الأعشى ، علقمة بن عبدة التميمي ،	٢	-	١٥
أوارة الثاني	عمرو بن ملقط الطائي ، الأعشى ، حاتم الطائي ، علقمة بن شيبان ، قيس بن جروة الطائي ، لقيط بن زرارة التميمي ، الحمراء بنت ضمرة بن جابر ،	٧	١	٤٠
الصفقة	الأعشى ، المجذام التميمي ،	٢	-	١٠
الكلاب الثاني	علقمة الفحل التميمي ، ربيعة بن	١٥	٦	١٨٥

اليوم	الشعراء	عدد المقطوعات	عدد القصائد	المجموع للأبيات
	مقروم الضبي ، وعلة الجرمي ، محرز ابن المكعبر الضبي ، عبد يغوث الحارثي ، أوس بن مغراء ، البراء بن قيس الكندي ، علقمة بن السباح ، صفية بنت الخرع التيمية ، رجل من أهل اليمن ، رجل من ضبة ، قيس ابن عاصم ، نائحة عمرو بن الجعيد ، زينب بنت مالك بن جعفر بن كلاب ،			
ظهر الدهناء	بشر بن أبي خازم الأسدي ، أنيف بن زبان النبهاني الطائي ، رويشد بن كثير الطائي ،	٣	٤	٩٢
غول الثاني	سحيم بن وثيل الرياحي ،	١	-	١
العرقوب	لبيد بن ربيعة العامري ، معاوية المرادي ،	٢	-	٩
البيداء	رجل من حمير ، هلال بن رزين ، حسان بن نشبة العدوى ،	٤	-	٢٢
تثليث	العباس بن مرداس السلمى ،	-	١	٢٨
يوم بين بني الحارث كندة ـ تميم	امرؤ القيس بن عمرو بن الحارث الكندي ،	١	-	٦
شطب	عبيد بن الأبرص ،	-	١	١٢
المراد	عبيد بن الأبرص	١	٢	٤١

اليوم	الشعراء	عدد المقطوعات	عدد القصائد	المجموع للأبيات
ذوقار	امرأة من عجل ، أبوكلبة ، الأعشى ، أعشى ربيعة ، عمرو بن الأسود ، بنت القرين الشيبانية ، بكير ، أصم بني الحارث ، حنظلة بن ثعلبة ، الحوافزان بن شريك ، الدهان بن جندل ، سويد بن أبي كاهل اليشكري ، العديل بن الفرخ ، لقيط الأيادي ، يزيد بن حنظلة بن ثعلبة ، يزيد بن حمان السكوني ، الحرقة بنت النعمان بن المنذر ، قيس بن مسعود ، مرداس بن أبي عامر ، عمرو بن جبلة بن باعث بن صريم ، مرثد بن الحارث ابن ثور ، أم عمرو بن عدي بن زيد ، أحد شعراء بني ربيعة ، ابن قرد الخنزير التيمي ، حريم بن الحارث التيمي .	٣٠	٥	١٧٦
النباج	ربيعة بن طريف بن تميم العنبري ، قرة بن قيس بن عاصم ، محرز بن المكعبر الضبي ،	٣	-	١٣
الجبات	عميرة بن طارق اليربوعي ،	١	-	٣
ذو طلوح	شيخ من شيبان ، عبد الله بن عنمة الضبي ، عميرة بن طارق اليربوعي ، متمم بن نويرة اليربوعي ،	٣	٣	٧٣
رأس العين	سحيم بن وثيل الرياحي ، الأسود بن يعفر ،	٢	-	٨

اليوم	الشعراء	عدد المقطوعات	عدد القصائد	المجموع للأبيات
القحقح	حشيش بن نمران الرياحي .	٢	-	٣
العظالى	عتيبة بن الحارث اليربوعي قطبة بن سيار بن منذر بن ثعلب ، العوام الشيباني ، أم العوام ، متمم بن نويرة اليربوعي ، عميرة بن طارق اليربوعي .	٨	١	٤٠
الغبيط	مالك بن نويرة اليربوعي ،	١	-	٣
الحاجر	باعث بن صريم اليشكري ،	٢	-	١٠
مخطط	مالك بن نويرة اليربوعي ،	-	١	٢٦
جدود	سوار بن حيان المنقري ، سلامة بن جندل السعدي ، قيس بن عاصم المنقري ، عبد الله بن عنمة الضبي ، مالك بن نويرة اليربوعي ، الأهتم المنقري ، قيس بن مقلد الكليبي ،	٥	٤	٨٥
سفوان	وداك بن ثميل المازني .	٢	-	٩
غول الأول	ربيعة بن طريف العنبري ، نضلة السلمي ،	٢	-	١١
السلى	زاهر بن عبد الله بن مالك التيمي ، حاجب بن ذبيان المازني ،	٢	-	٨
نقا الحسن	شمعلة بن الأخضر الضبي ، محرز بن المكعبر الضبي ، مالك بن المنتفق الضبي ، عبد الله بن عنمة الضبي ، أم بسطام بن قيس ،	٤	٢	٣٧

اليوم	الشعراء	عدد المقطوعات	عدد القصائد	المجموع للأبيات
الزويرين	الأعشى ، الأغلب العجلي ،	٤	-	١٦
الهيمي	مجمع بن هلال ،	-	١	١٠
الشيطين	رشيد بن رميض العنزي ، محرز بن المكعبر الضبي ، قيس بن عمر العجلي ، مقاس بن عمرو العائذي ،	٦	-	٢٩
مبايض	عمرو بن سواد ، حصيصة الشيباني ، طريف بن تميم العنبري ،	٣	-	١٤
ذوقار الأول	عتيبة بن الحارث اليربوعي ،	١	-	٢
الحائر- ملهم	مالك بن نويرة اليربوعي ، حاجب ابن زرارة التميمي ،	٢	-	٤
الشقيق	أبو النجم العجلي	١	-	١
نعف قشاوة	لقيم بن أوس الشيباني ، مالك بن حطان ، مالك بن نويرة اليربوعي ، متمم بن نويرة اليربوعي ،	٢	٢	٣٥
زبالة	أوس بن حجر التميمي ، الحصين بن القعقاع ،	٣	١	٣٠
أقرن	مسكين الدارمي ، عنترة العبسي ،		-	٧
المروت	يزيد بن الصعق الكلابي ، أوس بن حجر التميمي ، أوس بن بحير القشيري ، بحير بن عبد الله القشيري ، نعيم بن عتاب الرياحي ، العوراء أخت بني رياح ، يزيد بن قهر	٩	-	٢٨

اليوم	الشعراء	عدد المقطوعات	عدد القصائد	المجموع للأبيات
	التميمي ، بنت بحير بن عبد الله القشيري .			
دارة مأسل	شمعلة بن الأخضر الضبي ،	١	-	٢
السوبان ، أو السؤبان	أوس بن حجر التميمي ،	١	١	٢٣
رحرحان الأول	لقيط بن زرارة التميمي ، عامر بن الطفيل العامري .	٥	١	٣٢
ورحرحان الثاني	عوف بن عطية التميمي، قتادة بن مسلمة الحنفي، النابغة الجعدي، لبيد ابن ربيعة العامري،			
خو	ربيعة الأسدي (أبو ذؤاب) ،سحيم عبد بني الحسحاس من بني أسد ، آمنة بنت عتيبة بن الحارث اليربوعي ، متمم بن نويرة اليربوعي ، مالك بن نويرة اليربوعي ، بعشر بن لقيط الفقعسي الأسدي ، أوس بن حجر التميمي ،	٥	٢	٤٤
الدثينة أو الدثنية	عباس بن ربيطة الرعلي ، حاجب بن ذبيان المازني ،	٢	-	٩
الكفافة	الحادرة ،	١	-	١
ذو نجب	أوس بن حجر ، سحيم بن وثيل الرياحي ،	٣	-	١٥
هوازن - بنو يربوع + بنو سعد	دريد بن الصمة ،	١	-	٧

اليوم	الشعراء	عدد المقطوعات	عدد القصائد	المجموع للأبيات
	جرير	١	-	١
ذو بهدي آراب	عتيبة بن الحارث اليربوعي ، مساور ابن هند ، لبيد بن عطارد بن حاجب ابن زرارة بن عدس التميمي ، منقذ ابن عرفطة ، الفضل بن العباس اللهبي ،	٥	-	١٥
الشعب	مالك بن نويرة اليربوعي ، سحيم بن وثيل الرياحي ،	٢	-	٢
ملزق	سلامة بن جندل التميمي ، الأحدب ابن أخي ربيعة بن جراد ، أوس بن مغراء السعدي ،			
الرغام	امرأة من بني مرة ، العباس بن مرداس السلمي ، عتيبة بن الحارث اليربوعي ، مالك بن نويرة اليربوعي ،	٤	-	١٤
الوتدة أو الوتدات	طفيل الغنوي ،	١	-	٣
الجرف	شميت بن زنباع الرياحي ، عصمة بن حدرة ، رافع بن هريم الرياحي ، الحطيئة ، سحيم بن وثيل الرياحي ، جرير ،	٦	-	٢٨
زرود الثاني	أنيف بن جبلة الضبي ، هبيرة بن عبد مناف اليربوعي (الكلحبة) ،	٢	-	٩

اليوم	الشعراء	عدد المقطوعات	عدد القصائد	المجموع للأبيات
بنو أسد ـ بنو سعد وبنو حنظلة	بشر بن أبي خازم الأسدي ***	-	١	٢٨
حروب الفجار ١ ـ الفجار الأول	الأحمر بن مازن ، لبيد بن ربيعة العامري ، الحارث بن كلدة الثقفي ، عامر بن الطفيل العامري ، الصمة	٢٣	٣	١٢٧
٢ ـ الفجار الثاني	الجشمي ، خداش بن زهير ، بدر بن معشر الكناني ، البراض الكناني ،			
٣ ـ الفجار الثالث	بلعاء بن قيس الكناني ، الشويعر الليثي ، عبد الله بن جذل الطعان الكناني ، عبد الله بن الزبعرى ،			
٤ ـ الفجار الآخر شمطة نخلة العبلاء شرب الحريرة	ضرار بن الخطاب الفهري ، أميمة بنت أمية بن عبد شمس ، درة بنت أبي لهب ، فاطمة بن الأحجم .			
الكديد	ربيعة بن مكدم الكناني ، أم ربيعة ابن مكدم ، عبد الله بن جذل الطعان الكناني ، دريد بن الصمة الجشمي ، رجل من بني الحارث ، عزة بنت مكدم ، نبيشة ابن حبيب ، حسان بن ثابت ، كعب بن زهير ،	١٥	-	٥٨

اليوم	الشعراء	عدد المقطوعات	عدد القصائد	المجموع للأبيات
برزة	عبد الله بن جذل الطعان ، عباس بن مرداس السلمي ،	٣	-	١٩
الفيفاء	هند بن خالد بن الشريد السلمي ، فارس بني رعل ، أهبان السلمي ، عبد الله بن جذل الطعان الكناني ، يزيد بن الصعق العامري .	٦	-	٢٢
حرب داحس والغبراء	عنترة العبسي ، قيس بن زهير العبسي ، الربيع بن زياد العبسي ، شداد بن معاوية العبسي ، عمرو بن الأسلع العبسي ، الحارث بن زهير العبسي ، سهية زوجة شداد العبسي ، حيان بن حصين العبسي ، تماضر بنت الشريد السلمية ، خراشة بن عمرو العبسي ، الفارعة بنت شداد العبسي ، حليمة الحضرية العبسية ، بشير بن أبي العبسي ، زهير بن أبي سلمى ، هند بنت حذيفة بن بدر الفزاري ، نائحة هرم بن ضمضم ، أم قرفة زوجة حذيفة بن بدر ، سلمى بنت مالك بن بدر الفزاري ، عقيل بن علفة المري، النابغة الذبياني، شتيم ابن خويلد الفزاري، ابن عنقاء الفزاري، معقل بن عوف بن سبيع الثعلبي، شريح بن بجير الثعلبي، أحدهم ، أبو جعدة الفزاري، حميد بن	٤٨	١٥	٥٤٥

اليوم	الشعراء	عدد المقطوعات	عدد القصائد	المجموع للأبيات
	بدر الفزاري، الربيع قعنب العبسي.			
شعب جبلة	عنترة العبسي، قيس بن زهير العبسي، خراشة بن عمرو العبسي، معقل بن عامر بن مجمع بن موألة الأسدي، معاوية بن مالك السلمي، الجميع الأسدي، النابغة الذبياني، نهيكة بن الحارث الفزاري، مالك بن حمار الفزاري، المعقلر البارقي، دختنوس بنت لقيط بن زرارة، معاوية ابن عبادة بن عقيل، رجل من أسد، رجل من بني عامر، لقيط بن زرارة التميمي، عوف بن المنتفق.	٢٣	٤	١٧٣
أقرن	شريح بن الأحوص العامري، مسكين الدارمي، عنترة، يزيد بن الصعق،	٣	-	٨
المروت	يزيد بن الصعق، أوس بن حجر، أوس بن بجير القشيري، بجير بن عبد الله، نعيم بن عتاب الرياحي، العوراء أخت بني رياح، بنت بجير ابن عبدالله القشيري،	٧	-	٢٥
دارة مأسل	شمعلة بن الأخضر الضبي	١	-	٢
السؤبان	أوس بن حجر التميمي	١	١	٢٣
عدنية	صخر بن الشريد السلمي	١	-	٤

اليوم	الشعراء	عدد المقطوعات	عدد القصائد	المجموع للأبيات
النفراوات	خالد بن جعفر الكلابي ، ورقاء بن زهير العبسي .	٢	-	٨
اللوى	دريد بن الصمة الجشمي ، ريطة بنت جذل الطعان ،	١	١	٣٣
حوزة الأول	الخنساء ، صخر بن عمرو بن الشريد	١٠	٢	٩٢
حوزة الثاني	السلمي ، عمرو بن قيس الجشمي ، خفاف بن ندبة السلمي ، عنترة العبسي .			
الصلعاء	دريد بن الصمة ، أحدهم	٢	١	٢٤
النقيعة	شرحاف بن المثلم ، المثلم بن المشمخرة .	٢	-	٨
زرود الأول	نعامة بن شريك	١	-	٢
بين عبس وطيء	عروة بن الورد العبسي ، عنترة العبسي .	٣	-	١٨
النسار والجفار	بشر بن أبي خازم الأسدي ، الفارعة القشيرية ، خالد بن نضلة الأسدي ، سلمى بنت المحلق ، الحربي ، عبيد ابن الأبرص الأسدي ، رجل من ذبيان ، سهم الأسدي ، عوف بن عطية التيمي ، عنترة العبسي .	١١	٦	٢١٤
ذات الشقوق	ضمرة بن ضمرة النهشلي	١	-	٥
بطن عاقل	عبد الله بن جعدة الكلابي	١	-	٥

اليوم	الشعراء	عدد المقطوعات	عدد القصائد	المجموع للأبيات
الرقم	عروة بن الورد العبسي ، عامر بن الطفيل ، عمرو بن حذار	٣	١	٢٠
النشأة	خراشة بن عمرو العبسي ، زهير بن أبي سلمى .	٢	-	١٢
شواحط	خداش بن زهير الجشمي	-	١	١٨
غمرة	الحارث بن ظالم المري	-	١	٢٣
المروراة	عامر بن الطفيل	١	-	٦
شعر	عروة بن الورد العبسي	١	-	٤
أيام غير محدودة	النابغة الذبياني ، عروة بن الورد ، عامر بن الطفيل .	٣	٤	٥٩
	* * *			
حرب البسوس يوم النهى يوم الذنائب يوم واردات يوم عنترة يوم الحنو يوم عويرضات يوم أنيق يوم القصيبات يوم قضة	مهلهل بن ربيعة التغلبي ، هجرس ابن كليب بن ربيعة التغلبي ، أبو حنش التغلبي ، كليب بن ربيعة التغلبي ، جابر بن حني التغلبي ، عدي بن ربيعة التغلبي ، أم ناشرة التغلبية ، أمامة بنت كليب ، سلمى بنت مهلهل ، الأخنس بن شهاب التغلبي ، الزيان بن مجالد البكري ، المرقش الأكبر ، جساس بن مرة البكري ، المرقش الأصغر ، جليلة بنت مرة ، سفيان بن مجاشع البكري ، زينب اليشكرية ، شاعر من بكر ، عوف بن مالك البكري ، نضلة	٥٥	١٩	٧٠٠

اليوم	الشعراء	عدد المقطوعات	عدد القصائد	المجموع للأبيات
الكلاب الأول	ابن مرة، البسوس إبنة منقذ ، سعد بن مالك بن ضبيعة البكري ، الفند الزماني ، الحارث بن عباد البكري ، طرفة بن العبد البكري، حجدر بن قيس بن ضبيعة البكري، الحارث بن حلزة اليشكري، مرة بن شيبان ، رجل من تميم ، سلمة بن الحارث ، غلفاء بن معد يكرب ، ربيعة بن مقروم الضبي ، أبو اللحام التغلبي ، السفاح التغلبي ،	٨	١	٣٥

جدول رقم (٤)

القبائل والشعراء

الشاعر وقبيلته	الأيام التي نظم فيها	عدد المقطوعات	عدد القصائد	مجموع الأبيات
(الأوس)				
أحيحة بن الجلاح الأوسي	كعب بن عمرو المازني	١	١	١٩
درهم بن زيد بن صبيعة الأوسي	سمير	٢	-	١٤
سويد بن الصامت الأوسي	الربيع الظفري	١	-	٢
عبيد بن ناقد الأوسي	السرارة ، البقيع	٢	-	١٣
قيس بن الخطيم	سمير ، السرارة ، الربيع الظفري ، حاطب ، مضرس ومعبس ، الفضاء ، بعاث	٤	٧	١٩٣
أبو قيس بن الأسلت	البقيع ، بعاث	١	٢	٣١
يزيد بن طعمة الخطمي	الدرك	١	-	٥
(أسلم) أهبان	الفيفاء	١	-	٣
(أسد)				
بشر بن أبي خازم الأسدي	ظهر الدهناء ، يوم بني أسد وبني سعد وبني حنظلة ، النسار ، الجفار	٥	٨	٢٣٧

الشاعر وقبيلته	الأيام التي نظم فيها	عدد المقطوعات	عدد القصائد	مجموع الأبيات
بعثر بن لقيط الفقعسي	خو	١	-	٦
الجميح الأسدي	شعب جبلة	١	-	١
خالد بن نضلة الأسدي	النسار والجفار	٢	-	٢
ربيعة الأسدي ، أبو ذؤاب	خو	-	١	١١
سحيم عبد بني الحسحاس	خو	١	-	٦
سهم الأسدي	النسار	١	-	١
عبيد بن الأبرص الأسدي	حجر ، شطب ، المراد ، النسار ، الجفار .	٢	١١	٣١٢
معقل بن عامر الأسدي	شعب جبلة	٢	-	٩
لقيط الأيادي	ذو قار	١	-	٥
المعقر البارقي الأزدي	شعب جبلة	-	٢	٢٦
(بكر) الأعشى ، ميمون بن قيس (من بني قيس بن ثعلبة)	أوارة الأول ، أوارة الثاني ، الصفقة ، ذو قار ، الزويرين	٧	٤	٨٨
أعشى ربيعة ، عبد الله بن خارجة الشيباني .	ذو قار	١	-	٥
أم بسطام بن قيس الشيباني	نقا الحسن	-	١	١٠
(شيبان) الأغلب العجلي	الزويرين	٣	-	١١

الشاعر وقبيلته	الأيام التي نظم فيها	عدد المقطوعات	عدد القصائد	مجموع الأبيات
بكير ، أصم بن الحارث بن عباد (من بني قيس بن ثعلبة)	ذو قار	١	-	٧
باعث بن صريم اليشكري	الحاجر	١	-	٢
جساس بن مرة بن شيبان	البسوس	٢	-	٦
جليلة بنت مرة	البسوس	٢	١	٢٨
جحدر بن قيس بن ضبيعة	البسوس	١	-	٧
حنظلة بن ثعلبة	ذو قار	٢	-	٧
الحارث بن شريك بن عمرو الحوفزان	ذو قار	١	-	٢
صريم بن الحارث التيمي	ذو قار	١	-	٣
حصيصة الشيباني	مبايض	١	-	٦
الحارث بن عباد البكري	البسوس	٢	-	٦
الحارث بن حلزة اليشكري	البسوس	-	١	٨٤
رشيد بن رميض العنزي	الشيطين	١	-	٩
الزبان بن مجالد	البسوس	١	-	٣
زينب اليشكرية	البسوس	١	-	٥
سويد بن أبي كاهل اليشكري	ذو قار	٢	-	٣

الشاعر وقبيلته	الأيام التي نظم فيها	عدد المقطوعات	عدد القصائد	مجموع الأبيات
سفيان بن مجاشع البكري	البسوس	١	-	٢
سعد بن مالك بن ضبيعة	البسوس	٢	-	٨
طرفة بن العبد البكري	البسوس	-	١	٢٢
علقمة بن شيبان	أوارة الثاني	١	-	٣
العديل بن الفرخ العجلي	ذو قار	١	-	٣
عمرو بن جبلة بن باعث	ذو قار	١	-	٢
ابن صريم اليشكري				
العوام الشيباني	العظالى	٣	-	١٨
أم العوام الشيباني	العظالى	١	-	٢
عوف بن مالك البكري	البسوس	١	-	١
الفند الزماني	البسوس	٣	-	٢٦
بنت القرين الشيبانية	ذو قار	١	-	١
قيس بن مسعود الشيباني	ذو قار	٣	-	١٣
أبن قرد بن الخنزير التيمي	ذو قار	١	-	٥
قيس بن عمر العجلي ، كبد الحصاة	الشيطين	١	-	٣
قتادة بن مسلمة الحنفي	رحرحان	-	١	١٢
أبو كلبة ، من بني قيس به ثعلبة	ذو قار	١	-	٧
لقيم بن أوس الشيباني	نعف قشاوة	١	-	٥
مرثد بن الحارث بن ثور الشيباني	ذو قار	١	-	٢
مجمع بن هلال البكري	الهيمى	-	١	١٠
مرة بن شيبان	البسوس	١	-	٥
المرقش الأكبر	البسوس	-	١	١٧
المرقش الأصغر	البسوس	١	-	٢
أبو النجم العجلي	الشقيق	١	-	١
نعامة بن شريك البكري	زرود الأول	١	-	٢

الشاعر وقبيلة	الأيام التي نظم فيها	عدد المقطوعات	عدد القصائد	مجموع الأبيات
نضلة بن مرة الشيباني	البسوس	١	-	٣
يزيد بن حنظلة بن ثعلبة العجلي	ذو قار	١	-	٣
الدهان بن جندل	ذو قار	١	-	٢
(تميم)				
أوس بن حجر	زبالة ، حروب الغساسنة والمناذرة المروت ، السوبان ، خو ، ذو نجب .	٥	٤	٧٦
الأهتم المنقري	جدود	١	-	٢
آمنة بنت عتيبة بن الحارث اليربوعي .	خو	١	-	٤
الحمراء بنت ضمرة بن جابر	أوارة الثاني	١	-	٢
حريم بن الحارث التيمي	ذو قار	١	-	٣
حشيش بن نمران الرياحي	الفحفح	٢	-	٣
حاجب بن ذبيان المازني	السلي، الدثينة	٢	-	٩
حاجب بن زرارة	الحائر	١	-	١
الحصين بن القعقاع	زبالة	٣	-	١٣
دختنوس بنت لقيط بن زرارة	شعب جبلة	٣	١	٣٤
ربيعة بن طريف العنبري	النباج ، غول الأول	٢	-	١١
رافع بن هريم الرياحي	الجرف	١	-	٥
زاهر بن عبد الله بن مالك التميمي	السكي	١	-	٢
سحيم بن وثيل الرياحي اليربوعي	غول الثاني ، رأس العين ،	٥	-	١١

الشاعر وقبيلته	الأيام التي نظم فيها	عدد المقطوعات	عدد القصائد	مجموع الأبيات
	ذو نجب الشعب ، الجرف جدود	١	–	٥
سوار بن حيان المنقري	جدود ، ملزق	–	٣	٤٨
سلامة بن جندل السعدي	طخفة	١	–	٩
شريح بن الحارث اليربوعي	الجرف	١	–	٦
شميت بن زنباع الرياحي اليربوعي	الكلاب الثاني	١	–	٣
صفية بنت الخرع التيمية	ذات الشقوق	١	–	٥
ضمرة بن ضمرة النهشلي	مبايض	١	–	٥
طريف بن تميم العنبري	حروب الغساسنة والمناذرة ، أوارة الأول ، الكلاب الثاني ·	٣	٢	٦٥
علقمة الفحل التميمي	طخفة	١	–	٩
عمرو بن حوط بن سلمى الرياحي اليربوعي ·	الجبات ، ذو طلوح ، العظالى	٢	٣	٦٤
عميرة بن طارق اليربوعي	العظالى ، ذو قار الأول ، أراب ، الرغام	٥		١٨
عتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعي ·	مبايض	١	–	٣
عمرو بن سواد	المروت	١	–	٨
العوراء ، أخت بني رياح	رحرحان ، النسار ،	٢	–	٩
عوف بن عطية التيمي	الجفار	٢	–	٩
عصمة بن حدرة الرياحي	الجرف	١	–	٥
قيس بن عاصم المنقري	الكلاب الثاني ، جدود	٢	١	٩
قرة بن قيس بن عاصم	النباج	١	–	٧
قطبة بن سيار بن منذر اليربوعي	العظالى	١	–	٧
لقيط بن زرارة التميمي	أوارة الثاني ، رحرحان	٦	–	٣٨

الشاعر وقبيلته	الأيام التي نظم فيها	عدد المقطوعات	عدد القصائد	مجموع الأبيات
	شعب جبلة			
لبيد بن عطارد	أراب	١	-	٣
متمم بن نويرة اليربوعي	طخفة ، ذو طلوح ، العظالى ، نعف قشاوة ، خو	٤	١	٢٣
المجذام التميمي	الصفقة	١	-	١
مالك بن نويرة اليربوعي	الغبيط، مخطط، جدود الحائر ، نعف قشاوة ، خو ، الشعب ، الرغام	٦	٢	٤٩
مسكين الدارمي	أقرن	١	-	٢
نعيم بن عتاب الرياحي	المروت	١	-	٣
هبيرة بن عبد مناف اليربوعي (الكلحبة)	زرود الثاني	١	-	٧
وداك بن نميل المازني	سفوان	٢	-	٩
يزيد بن قهر التميمي	المروت	١	-	٢
أوس بن مغراء السعدي	الكلاب الثاني ، ملزق	٢	-	٧
الأسود بن يعفر الدارمي	رأس العين	١	-	٤
علقمة بن السباح القريعي	الكلاب الثاني	١	-	٢
مالك بن حطان اليربوعي	نعف قشاوة	١	-	٨
(تغلب)				
أمامة بنت كليب	البسوس	١	-	٨
الأخنس بن شهاب التغلبي	البسوس	-	١	٢٧
جابر بن حني التغلبي	البسوس	-	٢	٣٢
أبو حنش التغلبي	البسوس	١	-	٣
سلمة بن خالد التغلبي (السفاح)	خزاز	١	-	٣

الشاعر وقبيلته	الأيام التي نظم فيها	عدد المقطوعات	عدد القصائد	مجموع الأبيات
سليمى بنت مهلهل	البسوس	١	١	١٩
عمرو بن كلثوم	خزاز	١	-	٤
عدي بن ربيعة التغلبي	البسوس	١	-	٨
كليب بن ربيعة التغلبي	البسوس	٢	-	١٤
مهلهل بن ربيعة	البسوس	٢٨	٢	٣٥٨
أم ناشرة	البسوس	١	-	٢
هجرس بن كليب بن ربيعة	البسوس	٣	-	٦
(ثقيف)				
الحارث بن كلدة الثقفي	الفجار	١	-	٤
(الخزرج)				
أنس بن العلاء	حاطب	١	-	٨
(من بني الحارث)				
حسان بن ثابت الخزرجي	سمير ، السرارة ،الربيع الظفري ، مضرس ومعبس ، الدرك ، الكديد .	٦	٣	٨٤
الرمق بن يزيد الخزرجي	كعب بن عمرو	١	-	٤
صخر بن سليمان البياضي	الربيع الظفري	١	-	٤
عمرو بن امرىء القيس الأنصاري	سمير	-	١	١٦
عاصم بن عمرو المازني	كعب بن عمرو	١	-	٣
عامر بن الإطنابة	فارع	١	-	٨
عبد الله بن رواحة	حاطب ،البقيع ، الفجار الأول، مضرس ومعبس، الفضاء	٤	١	٢٤
مالك بن العجلان	سمير	-	١	٢٠

الشاعر وقبيلته	الأيام التي نظم فيها	عدد المقطوعات	عدد القصائد	مجموع الأبيات
يزيد بن فسحم الخزرجي	الفجار الثاني للأنصار	١	-	٦
(سليم)				
خفاف بن ندبة السلمي	بعاث ، حوزة الأول ، حوزة الثاني .	٢	٢	٣٩
الخنساء	حوزة الأول ، حوزة الثاني	٤	١	٣٨
صخر بن الشريد	عدنية ، حوزة الأول ، حوزة الثاني .	٤	-	١٩
العباس بن مرداس	تثليث ، الرغام ، برزة	٢	١	٤١
عباس بن ربطة الرعلي	الدئنية	١	-	٦
مرداس بن أبي عامر	ذو قار	١	-	٥
معاوية بن مالك السلمي	شعب جبلة	١	-	٣
نضلة السلمي	غول الأول	١	-	٥
نبيشة بن حبيب السلمي	الكديد	١	-	٣
هند بن خالد بن الشريد	الفيفاء	٢	-	٩
(عبس)				
بشير بن أبي العبسي	داحس والغبراء	١	-	٤
تماضر بنت الشريد السلمية	داحس والغبراء	-	١	١٠
الحارث بن زهير العبسي	داحس والغبراء	١	-	٥
حيان بن حصين العبسي	داحس والغبراء	١	-	٣
حليمة الحضرية	داحس والغبراء	٢	-	٥
خراشة بن عمرو العبسي	داحس والغبراء ، شعب جبلة ، النشأة	٢	١	٢٨
الربيع بن زياد العبسي	داحس والغبراء	٣	١	٢٢
الربيع بن تعنب العبسي	داحس والغبراء	١	-	٢
سهية زوجة شداد العبسي	داحس والغبراء	١	-	٦

الشاعر وقبيلته	الأيام التي نظم فيها	عدد المقطوعات	عدد القصائد	مجموع الأبيات
شداد بن معاوية	داحس والغبراء	٢	-	٨
عنترة بن شداد العبسي	أقرن ،داحس والغبراء شعب جبلة ، حوزة الأول، النسار والجفار، يوم مع طيء	٢١	١١	٣٣٤
عمرو بن الأسلع العبسي	داحس والغبراء	١	-	٤
عروة بن الورد العبسي	الرقم ، شعر ، بين عبس وطيء ، يوم مجهول .	٤	-	١١
الفارعة بنت شداد العبسي	داحس والغبراء	١	-	٣
قيس بن زهير العبسي	داحس والغبراء ، شعب جبلة	٩	١	٦٦
ورقاء بن زهير العبسي	النفراوات	١	-	٥
(عامر)				
أوس بن بجير القشيري	المروت	١	-	٣
الأحدب ، إبن أخي ربيعة ابن جراء	ملزق	١	-	٢
بجير بن عبد الله القشيري	المروت	١	-	٢
بنت بجير بن عبد الله القشيري	المروت	١	-	٢
خالد بن جعفر الكلابي	النفراوات	١	-	٣
زينب بنت مالك بن جعفر بن كلاب	الكلاب الثاني	٣	-	٨
سلمى بنت المحلق	النسار والجفار	١	-	٣
شريح بن الأحوص العامري	شعب جبلة	١	-	٣
عامر بن الطفيل	فيف الريح، رحرحان ، الفجار، الرقم ،المروراة	٨	٧	١٢٣

الشاعر وقبيلته	الأيام التي نظم فيها	عدد المقطوعات	عدد القصائد	مجموع الأبيات
عبد الله بن جعده	بطن عاقل	١	-	٥
عمرو بن حذار	الرقم	١	-	٢
الفارعة القشيرية	النسار والجفار	٢	-	١٢
لبيد بن ربيعة	السلان ، العرقوب ، رحرحان ، الفجار	٤	-	١١
النابغة الجعدي	رحرحان	١	-	١
يزيد بن الصعق القشيري	المروت،الفيفاء،أقرن،	٤	-	٩
أبو دؤاد الرؤاسي	فيف الريح	١	-	٧
أبو جعدة الفزاري	داحس والغبراء	١	-	٤
حميد بن بدر الفزاري	داحس والغبراء	١	-	٤
سلمى بنت مالك بن بدر الفزاري	داحس والغبراء	١	-	٤
شتيم بن خويلد الفزاري	داحس والغبراء	-	١	١٢
شريح بن بجير الثعلبي	داحس والغبراء	١	-	٨
إبن عنقاء الفزاري	داحس والغبراء	١	-	٣
أم قرفة زوجة حذيفة بن بدر الفزاري	داحس والغبراء	-	١	١٥
مالك بن حمار الفزاري	شعب جبلة	١	-	٤
معقل بن عوف بن سبيع الثعلبي	داحس والغبراء	١	-	٣
نهيكة بن الحارث الفزاري	شعب جبلة	١	-	٤
هند بنت حذيفة بن بدر	داحس والغبراء	١	-	٩
(غطفان)				
الحارث بن ظالم المري	غمرة	-	١	٢٣
ربطة بنت جذل الطعان	اللوى	١	-	٧
زهير بن أبي سلمى	داحس والغبراء	١	١	٦٤
عقيل بن علفة المري	داحس والغبراء	١	-	٣

الشاعر وقبيلته	الأيام التي نظم فيها	عدد المقطوعات	عدد القصائد	مجموع الأبيات
النابغة الذبياني	حروب الغساسنة والمناذرة داحس والغبراء ، شعب جبلة ، يوم مجهول .	٥	-	٢٠
كعب بن زهير	الكديد	١	-	٦
نائحة هرم بن ضمضم	داحس والغبراء	١	-	٠
(هوازن)				
الأحمر بن مازن	الفجار	٢	-	٧
خداش بن زهير	الفجار ، شواحط	٥	٢	٥٨
دريد بن الصمة	بين هوازن ويربوع ، الكديد ، اللوى ، الصلعاء	٤	١	٦١
الصمة الجشمي	الفجار	١	-	٤
عمرو بن قيس الجشمي	حوزة الثاني	١	-	٣
(غني)				
طفيل بن عوف الغنوي	الوتدة	١	-	٣
(ضبة)				
أنيف بن جبلة الضبي	زرود الثاني	١	-	٢
ربيعة بن مقروم الضبي	طخفة ، بزاخة ، الكلاب الثاني .	٣	٢	٨٣
شمعلة بن الأخضر الضبي	نقا الحسن ، دارة مأسل	٢	-	٨
شرحاف بن المثلم	النقيعة	١	-	٦
عبد الله بن عنمة الضبي	ذو طلوح ، جدود ، نقا الحسن .	١	٢	٤٣
إبن القائف الضبي	بزاخة	-	١	١٠
محرز بن المكعبر الضبي	الكلاب الثاني ، النباج	٥	-	١٩

الشاعر وقبيلته	الأيام التي نظم فيها	عدد المقطوعات	عدد القصائد	مجموع الأبيات
	نقا الحسن ، الشيطين .			
مالك بن المنتفق الضبي	نقا الحسن	١	-	٣
المثلم بن المشمخرة	النقيعة	١	-	٢
عوف بن المنتفق الضبي	شعب جبلة	١	-	٣
(طيء)				
أنيف بن زبان النبهاني	ظهر الدهناء	-	١	٢١
حاتم الطائي	أوارة الثاني	١	-	٢
رويشد بن كثير الطائي	ظهر الدهناء	١	-	٣
عمرو بن ملقط الطائي	أوارة الثاني	١	-	٥
قيس بن جروة الطائي	أوارة الثاني	١	١	١٧
(قريش)				
أميمة بنت أمية بن عبد شمس	الفجار	-	١	١٨
درة بنت أبي لهب	الفجار	١	-	٥
ضرار بن الخطاب الفهري	الفجار	١	-	٩
(كنانة)				
بدر بن معشر الكناني	الفجار	١	-	٢
البراض الكناني	الفجار	٣	-	٨
بلعاء بن قيس الكناني	الفجار	٢	-	٤
ربطة بنت جذل الطعان	اللوى	١	-	٧
ربيعة بن مكدم الكناني	الكديد	٦	-	١٧
ام ربيعة بن مكدم	الكديد	١	-	٢
الشويعر الليثي	الفجار	١	-	٦
ضرار بن الخطاب الفهري	الفجار	١	-	٩
عبد الله بن جذل الطعان	الفجار ، الكديد برزة ، الفيفاء .	٦	-	٢٤

الشاعر وقبيلته	الأيام التي نظم فيها	عدد المقطوعات	عدد القصائد	مجموع الأبيات
عبد الله بن الزبعري	الفجار	٢	-	٥
عزة بنت مكدم	الكديد	١	-	٨
(كندة والقبائل القحطانية)				
أمرؤ القيس بن حجر الكندي	يوم حجر	٨	٤	١٤٦
البراء بن قيس الكندي	الكلاب الثاني	-	١	١٦
فاطمة بنت الأحجم	الفجار	١	-	٦
عدي بن الرعلاء الضبياني	حروب الغساسنة والمناذرة	-	١	١٠
عبيد بن قراد البهراوي	خزاز	١	-	٥
عمرو بن معد يكرب الزبيدي	فيف الريح	-	١	١٢
عبد يغوث الحارثي	الكلاب الثاني	-	١	٢٠
ألبسوس بنت منقذ	البسوس	١	-	٧
حسان بن نشبة العدوي	البيداء	٢	-	٩
إبن الحائك الحميري	خزاز	١	-	٤
الحرقة بنت النعمان بن المنذر	ذو قار	١	-	٤
مسهر بن يزيد الحارثي	فيف الريح	١	-	٤
معاوية المرادي	العرقوب	١	-	٥
هلال بن رزين	البيداء	١	-	٥
وعلة الجرمي	الكلاب الثاني	-	٢	٢٦
البسوس إبنة منقذ	البسوس	١	-	٧
(شعراء آخرون)				
الخادرة	الكفافة	١	-	١
الحربي	النسار والجفار	١	-	٢
الربيع بن أبي الحقيق	فارع	-	١	١٦
عمرو بن الأسود	ذو قار	-	١	١٧

الشاعر وقبيلته	الأيام التي نظم فيها	عدد المقطوعات	عدد القصائد	مجموع الأبيات
أم عمرو بن عدي بن زيد	ذو قار	١	-	٦
الفضل بن العباس اللهبي	أراب	١	-	٢
قيس بن مقلد الكليبي	جدود	١	-	٢
مقاس بن عمرو العائذي	الشيطين	٣	-	١٢
مساور بن هند	أراب	١	-	١
منقذ بن عرنطة	أراب	١	-	٢
معاوية بن عبادة بن عقيل	شعب جبلة	١	-	٣
نائحة إبن مزيقياء	بزاخة	١	-	٢
نائحة عمرو بن الجعيد	الكلاب الثاني	١	-	١
يزيد بن حمان السكوني	ذو قار	١	-	٤

جدول رقم (٥)
توزيع النصوص على مجموعات الأيام

	أبيات مفردة	عدد المقطوعات	عدد القصائد	قصائد بمقدمات
شعر أيام قحطانية ـ قحطانية	٣	٣٦	١٨	١٥
شعر حروب قيس	٨	١٣٠	٣٦	١٨
شعر حروب ربيعة فيما بينها (البسوس)	١٥	٦٦	٢٠	٦
شعر حروب الفجار	٢	٢٣	٣	-
شعر حروب قيس وكنانة	-	٢٤	-	-
شعر الأيام العدنانية ـ القحطانية	٤	٦٦	٣١	١٧
شعر يوم ذي قار	٤	٣٠	٥	-
شعر حروب قيس وتميم	٥	١٩	١	-
شعر حروب تميم والقبائل الأخرى	١٣	٤٩	٤	١
شعر حروب بكر وتميم	٦	٥٧	١٥	٣

المصادر والمراجع

- إبن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي (ت ٦٣٢ هـ) : الكامل في التاريخ ، بيروت ـ دار صادر ١٩٦٥ .

- إحسان عباس ، فن الشعر ، دار الثقافة ـ بيروت ١٩٥٩ .

- إحسان النص : العصبية وأثرها في الشعر الأموي ، دمشق ـ دار اليقظة ١٩٦٣ .

- أحمد ابراهيم الشريف مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ، القاهرة ـ دار الفكر العربي ـ ط ٢ : ١٩٦٧ .

٥ ـ أحمد أمين : فجر السلام ، مكتبة النهضة المصرية ـ ط ٩ : ١٩٦٤

٦ ـ أحمد الشايب :
أ ـ تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني ، مكتبة النهضة المصرية ـ ط ٤ : ١٩٦٦
ب ـ تاريخ النقائض في الشعر العربي ، مكتبة النهضة المصرية ـ ط ٣ : ١٩٦٦ .

٧ ـ أحمد شوقي ، مسرحية عنترة ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ـ ١٩٤٨ .
٨ ـ أحمد كمال زكي ، دراسات في النقد الأدبي ، دار الأندلس ، بيروت ، ط ٢ : ١٩٨٠ .

٩ ـ أحمد محمد الحوفي ، الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة ـ ط ٤ : ١٩٦٢ .

١٠ ـ الأخطل ، ديوانه . تحقيق أنطوان صالحاني ـ بيروت ط ٢ : ١٩٦٧ .

١١ ـ إبن اسحاق ، كتاب بكر وتغلب وما جرى بينهما وما كان من كليب وجساس ، مصر ١٣٠٥ هـ .

١٢ ـ الأصطخري ، أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارس ، مسالك الممالك ـ ليدن ١٩٦٧ .

١٣ ـ الأصمعي ، أبو سعيد عبد الملك بن قريب (ت ٢١٦ هـ) ،

أ ـ الأصمعيات ، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، طبعة ٢ : ١٩٦٤ ـ دار المعارف بمصر .
ب ـ فحولة الشعراء ، تحقيق طه محمد الزيني ومحمد خفاجي ، مصر ١٩٥٣ .
ج ـ تاريخ العرب قبل الإسلام ، تحقيق محمد حسن آل ياسين ، بغداد ١٩٥٩ .
د ـ الخيل ، تحقيق أوجست هافنر ، غينا ١٨٩٥ م .
١٤ ـ الأعشى ، ميمون بن قيس ، ديوانه ، شرح وتحقيق محمد محمد حسين ، مكتبة الأداب بمصر ١٩٥٠ .
١٥ ـ اليزابيث درو ، الشعر ، كيف نفهمه ونتذوقه ، ترجمة إبراهيم الشوش ، بيروت ـ دار الثقافة
١٦ ـ الآمدي ، أبو القاسم الحسن بشر بن يحي (ت ٣٧٠ هـ) ، المؤتلف والمختلف ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٩٦١ .
١٧ ـ أمرؤ القيس بن حجر ، ديوانه ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف بمصر ـ ط ٣ : ١٩٦٩ .
١٨ ـ إبن الأنباري ، أبو بكر محمد بن القاسم (ت ٢٣٨ هـ) :
أ ـ شرح القصائد السبع الطوال ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر ١٩٦٣ .
ب ـ شرح معلقة عنترة ، تحقيق رتشر ـ روما ١٩١٤ .
١٩ ـ أوس بن حجر التميمي : ديوانه ، تحقيق محمد يوسف نجم ، بيروت ـ دار صادر ١٩٦٠ .
٢٠ ـ البحتري ، أبو عبادة الوليد بن عبيد (ت ٢٨٤ هـ) : حماسته ، تحقيق لويس شيخو ، ط ٢ : ١٩٦٧ ـ بيروت
٢١ ـ بدوي طبانة : معلقات العرب ، مكتبة الأنجلو المصرية ـ ط٢ : ١٩٦٧ .
٢٢ ـ بروكلمان ، كارل :
أ ـ تاريخ الأدب العربي ، ترجمة عبد الحليم النجار ، دار المعارف ١٩٥٩ .
ب ـ تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه فارس وزميله ، بيروت ـ دار العلم للملايين ط ٤ : ١٩٦٥ .

٢٣ ـ بشر بن أبي خازم الأسدي : ديوانه ، تحقيق عزة حسن ، دمشق ١٩٦٠ ـ وزارة الثقافة والإرشاد القومي .

٢٤ ـ البغدادي ، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت ٤٦٣ هـ) : تاريخ بغداد ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٣١ م .

٢٥ ـ البغدادي ، عبد القادر بن عمر (ت ١٠٩٣ هـ) : خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب .
أ ـ طبعة المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٧ هـ .
ب ـ طبعة دار الكتاب العربي بالقاهرة ـ تحقيق عبد السلام هارون ١٩٦٧ ـ ١٩٧٠ .

٢٦ ـ البكري ، محمد توفيق : أراجيز العرب ، مصر ١٣١٣ هـ .

٢٧ ـ البلاذري ، أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩ هـ) : أنساب الأشراف ، تحقيق محمد حميد الله ، دار المعارف ١٩٥٩ .

٢٨ ـ بلاشير ، رجس : تاريخ الأدب العربي ، ترجمة ابراهيم كيلاني ـ دمشق ١٩٥٦ م .

٢٩ ـ أبو تمام ، حبيب بن اوس (ت ٢٣١ هـ) :
أ ـ الحماسة شرح المرزوقي ، تحقيق عبد السلام هارون وأحمد أمين ، مصر ١٩٥١ .
ب ـ الحماسة بشرح التبريزي ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجة ، مصر ١٩١٣ م .
ج ـ الوحشيات ، تحقيق عبد العزيز الميمني ، دار المعارف ١٩٦٣ .
د ـ نقائض جرير والأخطل ، تحقيق الأب أنطوان صالحاني ، بيروت ١٩٢٢ .

٣٠ ـ ثعلب ، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت ٢٩١ هـ) : مجالس ثعلب ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر ط ٢ : ١٩٥٦م .

٣١ ـ الجاحظ ، أبو عمرو عثمان (ت ٢٥٥ هـ) :
أ ـ الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط ٢ : ١٣٦٤ هـ ـ مطبعة الحلبي بمصر .
ب ـ البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي بمصر ج ١٩٦٠ م .

٣٢ ـ الجرجاني ، عبد القاهر (ت ٣٦٦ هـ) ، أسرار البلاغة في علم البيان ، مصر ١٣٢٠ هـ .

٣٣ ـ الجمحي ، محمد بن سلام (ت ٢٣١ هـ) : طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود محمد شاكر ، دار المعارف ١٩٥٢ م .

٣٤ ـ إبن جني ، أبو الفتح عثمان (ت ٣٩٢ هـ) : الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار ، دار الكتب المصرية ١٩٥٥ .

٣٥ ـ جواد علي :
أ ـ تاريخ العرب قبل الأسلام ، المجمع العلمي العراقي ـ بغداد ١٩٥٠ ـ ١٩٥٨
ب ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٧ ـ ١٩٧٠ .

٣٦ ـ حاتم الطائي : ديوانه ، دار صادر بيروت ١٩٦٣ .

٣٧ ـ حاجي خليفة ، مصطفى بن عبد الله : كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون ، نسخة مصورة عن طبعة إيران ـ مكتبة المثنى ببغداد ـ ط ٣ : ١٩٤٧

٣٨ ـ حتي ، فيليب : تاريخ العرب مطول ، دار الكشاف ـ بيروت ، ط ٤ : ١٩٦٥ .

٣٩ ـ إبن حزم ، أبو محمد علي بن سعيد (ت ٤٥٦ هـ) : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ـ دار المعارف ١٩٦٢ .

٤٠ ـ حسان بن ثابت : ديوانه ، شرح عبد الرحمن البرقوقي ، دار الأندلس ـ بيروت ١٩٦٦ .

٤١ ـ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ، مكتبة النهضة المصرية ـ ط ٤ : ١٩٥٧ .

٤٢ ـ حسن السندوبي : أخبار المراقسة ، القاهرة ١٩٥٤ ، ط ٢ .

٤٣ ـ حسن عبد الله القرشي : فارس بني عبس ، دار المعارف ط ٢ : ١٩٦٩ .

٤٤ ـ حسين فوزي النجار : التاريخ والسير ، المكتبة الثقافية ـ عدد نوفمبر ١٩٦٤ .

٤٥ ـ حسين نصار :
أ ـ نشأة التدوين التاريخي عند العرب ، مكتبة النهضة العربية بمصر ـ ١٩٥٣ .
ب ـ يونس بن حبيب ، من سلسلة اعلام العرب ـ وزارة الثقافة ١٩٦٨ .

٤٦ ـ الحصري ، أبو اسحاق ابراهيم بن علي القيرواني (ت ٤٥٣ هـ) ، زهر الآداب وثمر الألباب ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ط ١ : ١٩٥٣ دار إحياء الكتب العربية .

٤٧ ـ الحطيئة : ديوانه ، تصحيح أحمد بن الأمين الشنقيطي ـ مطبعة التقدم ـ مصر بدون تاريخ .

٤٨ ـ خفاف بن ندبة السلمي : ديوانه ، جمع نوري حمودي القيسي ، بغداد ١٩٦٧ مطبعة المعارف .

٤٩ ـ إبن خلدون ، عبد الرحمن (ت ٨٠٨ هـ) :
أ ـ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، دار الكتاب اللبناني ١٩٦٦ .
ب ـ مقدمته ، مصر ١٣٢٢ هـ

٥٠ ـ إبن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١ هـ) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ـ بيروت ١٩٦٨ .

٥١ ـ الخنساء : ديوانها ، دار صادر ـ بيروت ١٩٦٣ .

٥٢ ـ دائرة المعارف الإسلامية : ترجمة أحمد الشنتناوي ورفيقاه ، مصر ١٩٣٣ م .

٥٣ ـ داغر ، يوسف أسعد : مصادر الدراسة الأدبية ، لبنان ط٢ : ١٩٦١ .

٥٤ ـ إبن دريد ، أبو بكر محمد بن الحسن (ت ٣٢١ هـ) : الاشتقاق ، تحقيق عبد السلام هارون ، مؤسسة الخانجي بمصر ١٩٥٨ .

٥٥ ـ ديتلف نيلسن : التاريخ العربي القديم ، ترجمة فؤاد حسنين علي ، مصر ١٩٥٨ .

٥٦ ـ الدينوري ، أبو حنيفة أحمد بن داود (ت ٢٨٢ هـ) : الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر ، وزارة الثقافة بمصر ١٩٦٠ .

٥٧ ـ ديوارنت ، ول : قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، ط٢ : مصر ١٩٦٤ .

٥٨ ـ الذهبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ) : ميزان الإعتدال في نقد الرجال ، تحقيق علي البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ط ١ : ١٩٦٣

٥٩ . الرافعي ، مصطفى صادق :
أ ـ تاريخ آداب العرب ، القاهرة ط٢ : ١٩٤٠ .
ب ـ تحت راية القرآن ، مصر ط ١ : ١٩٢٦ ـ المكتبة التجارية

٦٠ ـ ربيعة بن مقروم الضبي : شعره ، جمع نوري حمودي القيسي ـ بغداد ١٩٦٨ .

- رتشاردز : مبادىء في النقد الأدبي ، ترجمة محمد مصطفى بدوي - الهيئة العامة للتأليف والنشر ١٩٦٠ .
٦ - ابن رشيق ، أبو علي الحسن القيرواني (ت ٤٦٣ هـ) : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ط٢ : ١٩٥٥ - المكتبة التجارية بمصر .
٦١ - الزبيدي ، أبو بكر محمد بن الحسن (ت ٣٧٩ هـ) : طبقات النحويين واللغويين تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ط١ : ١٩٥٤ - مكتبة الخانجي بمصر
٦٤ - الزبيري ، أبو عبد الله مصعب بن عبد الله (ت ٢٣٦ هـ) : نسب قريش ، تحقيق فروفنسال - دار المعارف ١٩٥٣ .
٦٥ - الزركلي ، خير الدين : الأعلام ، طبعة خامسة - مصر ١٩٥٤ - ١٩٥٩ .
٦٦ - زكي المحاسني : شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي إلى سيف الدولة - دار المعارف ١٩٦١ .
٦٧ - زهير بن أبي سلمى : ديوانه ، الدار القومية ١٩٦٤ - نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب سنة ١٩٤١
٦٨ - زيدان ، جرجي :
أ - تاريخ آداب اللغة العربية ، دار الهلال - مصر ١٩٥٧ .
ب - تاريخ التمدن الإسلامي ، دار الهلال - مصر ١٩٥٨ .
ج - العرب قبل الإسلام ، دار الهلال بمصر ١٩٥٧ .
٦٩ - الزير سالم : قصته ، مطبعة ومكتبة محمد علي صبيح - القاهرة (بدون تاريخ) .
٧٠ - السبكي ، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين : طبقات الشافعية ، مصر ١٣٢٤ هـ .
٧١ - سدني هوك : البطل في التاريخ ، ترجمة مروان الجابري ، بيروت ١٩٥٩ .
٧٢ - السجستاني ، أبو حاتم (ت ٢٥٥ هـ) : المعمرون والوصايا ، تحقيق عبد المنعم عامر ، دار إحياء الكتب العربية - مصر ١٩٦١ .

٧٣ ـ سعد الدين الجيزاوي : الملحمة في الشعر العربي ، المكتبة الثقافية ـ سبتمبر ١٩٦٧ .

٧٤ ـ إبن سعد ، محمد بن سعيد : الطبقات الكبرى ، دار صادر ـ بيروت ١٩٦٠ .

٧٥ ـ سعيد الأفغاني : أسواق العرب ، دمشق ط ١ : ١٩٣٧ .

٧٦ ـ إبن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر ـ دار المعارف ١٩٥٢ .

٧٧ ـ سلامة بن جندل : ديوانه ، تحقيق لويس شيخو ، بيروت ١٩١٠ .

٧٨ ـ السمهوردي، أبوالحسن بن عبد الله علي نور الدين (ت ١٠١١هـ): وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، مصر ١٣٢٦هـ .

٧٩ ـ السهيلي ، أبو القاسم (ت ٥١٨ هـ) : الروض الأنف في تفسير ما اشتمل عليه حديث السيرة ، مصر ١٩١٤، المطبعة الجمالية .

٨٠ ـ السيوطي ، جلال الدين بن عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ) :

أ ـ المزهر ، تحقيق : محمد جاد المولى ورفيقاه ، دار إحياء الكتب العربية ـ ط ٤ : ١٩٥٨ .

ب ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، مطبعة السعادة بمصر ط ١ : ١٣٢٦ هـ .

٨١ ـ شاكر الجودي : إلمامة بالرجز في الجاهلية وصدر الإسلام ، بغداد ١٩٦٦ .

٨٢ ـ ابن الشجري ، هبة الله بن علي بن محمد (ت ٥٤٢ هـ) :

أ ـ حماسته ـ حيدر أباد ١٣٤٥ هـ .

ب ـ مختاراته ـ القاهرة ١٨٨٨ م .

٨٣ ـ شكري محمد عياد : البطل في الأدب والأساطير ، دار المعرفة بمصر ـ ط ١ : ١٩٥٩ .

٨٣ ـ الشمشاطي، أبو الحس علي بن محمد: الأنوار ومحاسن الأشعار، تحقيق السيد محمد يوسف، وزارة الإعلام، الكويت ١٩٧٧ .

٨٤ ـ شوقي ضيف :

أ ـ العصر الجاهلي ، دار المعارف بمصر ط٢ : ١٩٦٥ .

ب ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربي : دار المعارف بمصر ـ ط ٤ : ١٩٦٠ .

ج ـ البطولة في الشعر العربي ، دار المعارف ـ سلسلة إقرأ عدد يوليو ١٩٧٠ .

٨٥ ـ شيخو ، لويس اليسوعي :
أ ـ شعراء النصرانية قبل الإسلام ، بيروت ط٢ : ١٩٦٧ .
ب ـ رياض الأدب في مراثي شعراء العرب ، بيروت ١٨٩٧ م .
٨٦ ـ صالح أحمد العلي : محاضرات في تاريخ العرب ، بغداد ـ مكتبة الليثي ١٩٦٨ .
٨٧ ـ صدر الدين بن أبي الفرج بن الحسين البصري (ت ٦٥٩ هـ) : الحماسة البصرية ، تحقيق مختار الدين أحمد ، حيدر أباد ط١ : ١٩٦٤ .

٨٩ ـ طه حسين :
أ ـ في الأدب الجاهلي ، دار المعارف بمصر ١٩٥٨ .
ب ـ في الشعر الجاهلي : مصر ط١ : ١٩٢٦ .
ج ـ من حديث الشعر والنثر : دار المعارف ١٩٦٥ .
د ـ حديث الأربعاء : دار المعارف ١٩٦٢ .
٨٩ ـ ابن طباطبا ، محمد بن أحمد : عيار الشعر ، تحقيق طه الحاجري ، محمد زغلول سلام ، المكتبة التجارية بمصر ١٩٥٦ .
٩٠ ـ الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ١٩٦١ .
٩١ ـ طرفة بن العبد البكري : ديوانه ، تحقيق علي الجندي ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٨ .
٩٢ ـ طفيل بن عوف الغنوي : ديوانه ، تحقيق كرنكو ـ لندن ١٩٢٧ م .
٩٣ ـ عامر بن الطفيل : ديوانه ، دار صادر ـ بيروت ١٩٥٩ .

٩٤ ـ عباس محمود العقاد :
أ ـ اللغة الشاعرة ، مكتبة غريب ـ القاهرة (بدون تاريخ) .
ب ـ ساعات بين الكتب : مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٢٩ م .
ج ـ بين الكتب والناس : مصر ـ ط١ : ١٩٥٢ م .
٩٥ ـ عباس بن مرداس السلمي : ديوانه ، تحقيق يحيى الجبوري، بغداد ١٩٦٨ .
٩٦ ـ عبد البديع صقر : شاعرات العرب ، المكتب الإسلامي بقطر ط١ : ١٩٦٧ .
٩٧ ـ عبد الجبار الجومرد : الأصمعي ، حياته وآثاره ، بيروت ١٩٥٥ م .

٩٨ ـ عبد الحميد يونس : الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي ، كلية الآداب بجامعة القاهرة ١٩٥٦ .

٩٩ ـ ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد : العقد الفريد ، تحقيق أحمد أمين ورفاقه ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٤٦ .

١٠٠ ـ عبد الرحمن بارود : أراجيز رؤبة بن العجاج ، رسالة ماجستير ١٩٦٢ .

١٠١ ـ عبد السلام هارون : نوادر المخطوطات ، القاهرة ١٩٥١ .

١٠٢ ـ عبد العزيز الدوري : نشأة علم التاريخ عند العرب ، بيروت ـ المطبعة الكاثوليكية ١٩٦٠ .

١٠٣ ـ عبد العزيز البكري ، أبو عبيد الله عبد الله :
أ ـ معجم ما استعجم ، تحقيق مصطفى السقا ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١ .
ب ـ سمط اللآلىء : تحقيق عبد العزيز الميمني ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦ .

١٠٤ ـ عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ، مكتبة الأنجلو المصرية ـ ط ٤ : ١٩٦٧ .

١٠٥ ـ عبد الله الطيب المجذوب : المرشد لفهم أشعار العرب ، مكتبة مصطفى الحلبي بمصر ١٩٥٥ م

١٠٦ ـ عبيد بن الأبرص : ديوانه ، تحقيق حسين نصار ، مكتبة مصطفى الحلبي بمصر ط١ : ١٩٥٧ .

١٠٧ ـ أبو عبيدة ، معمر بن المثنى :
أ ـ النقائض ، طبعة أوروبا ١٩٠٥ ـ نسخة مصورة عنها ـ نشر مكتبة المثنى ببغداد .
ب ـ الخيل ، حيدر أباد ط ١ : ١٣٥٨ هـ .

١٠٨ ـ عثمان أمين : مارتن هيدجر في الفلسفة والشعر ، الدار القومية ١٩٦٣ .

١٠٩ ـ عروة بن الورد العبسي : ديوانه ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ دمشق ١٩٦٦ .

١١٠ ـ أبو هلال العسكري ، الحسن بن عبد الله بن سهل (ت ٣٩٥ هـ) : كتاب الصناعتين ، طبعة أولى بمصر ١٣٢٠ هـ

١١١ ـ علقمة الفحل : ديوانه ، الجزائر ١٩٢٥ بشرح الشيخ ابن أبي شنب .
١١٢ ـ علي الجندي : شعر الحرب في العصر الجاهلي ، مكتبة الأنجلو المصرية ط٢ : ١٩٦٣ .
١١٣ ـ علي بن عبد الرحمن بن هذيل الأندلسي : حلية الفرسان وشعار الشجعان ، تحقيق محمد عبد الغني حسن ، دار المعارف بمصر ١٩٤٩ م .
١١٤ ـ علي مظهر : العصبية عند العرب حتى زوال بني أمية ، مصر ١٩٢٤
١١٥ ـ عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ، مكتبة نهضة مصر ١٩٥١ .
١١٦ ـ عمر رضا كحالة :
أ ـ معجم قبائل العرب ، دار العلم للملايين ط٢ : ١٩٦٨ .
ب ـ أعلام النساء ، دمشق ط٢ : ١٩٥٩ .
ج ـ جغرافية جزيرة العرب ، مكة ط٢ : ١٩٦٤ .
١١٧ ـ عمر فروخ :
أ ـ تاريخ الأدب العربي ، دار العلم للملايين ـ بيروت ط١ : ١٩٦٥ .
ب ـ حضارة العرب ، دار العلم للملايين ـ بيروت ط١ : ١٩٦٦ .
ج ـ تاريخ الجاهلية ، دار العلم للملايين ـ بيروت ط ١٩٦٤ .
١١٨ ـ عمر بن يوسف بن رسول : طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب ، تحقيق سترستين ـ دمشق ١٩٤٩ .
١١٩ ـ عنترة بن شداد :
أ ـ ديوانه ، تحقيق عبد المنعم شلبي ـ المكتبة التجارية بمصر .
ب ـ سيرته ـ طبعة المكتبة السعيدية .
١٢٠ ـ ابن فارس ، أحمد (ت ٣٩٥ هـ) : الصاحبي في اللغة ، القاهرة ١٣٢٨ هـ .
١٢١ ـ فاروق خورشيد : أضواء على السير الشعبية ، المكتبة الثقافية ـ يناير ١٩٦٤ .
١٢٢ ـ أبو الفداء ، اسماعيل بن علي (ت ٧٣٢ هـ) : المختصر في أخبار البشر ، بيروت ـ دار الكتاب اللبناني .
١٢٣ ـ أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦ هـ) : الأغاني ، طبعة دار الكتب ـ نسخة مصورة عنها

١٩٦٣ ، وطبعة دار الثقافة بيروت ١٩٦٢ ط٣ : وطبعة الساسي ١٢٨٥هـ .

١٢٤ ـ فؤاد حسنين : قصصنا الشعبي ، القاهرة ١٩٤٧ .

١٢٥ ـ القالي ، أبو علي إسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦ هـ) : الأمالي وذيل الأمالي والنوادر ، دار الكتب المصرية ١٩٢٦ .

١٢٦ ـ قدامة بن جعفر :
أ ـ نقد الشعر ، تصحيح بونيباكر ـ ليدن ١٩٥٦ .
ب ـ نقد النثر ، تحقيق طه حسين وزميله ، كلية الآداب بجامعة القاهرة ١٩٣٣ م .

١٢٧ ـ ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ) :
أ ـ الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف بمصر ط٢ : ١٩٦٦ .
ب ـ المعارف : وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ عن طبقة دار الكتب ١٩٦٠ .
ج ـ عيون الأخبار : وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ عن طبقة دار الكتب ١٩٦٣ .

١٢٨ ـ القرشي ، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب : جمهرة أشعار العرب ،
أ ـ تحقيق علي البجاوي ، مكتبة نهضة مصر ١٩٦٤ م .
ب ـ طبعة دار صادر ـ بيروت ١٩٦٣ .

١٢٩ ـ القفطي ، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف : إنباه الرواة على أنباه النحاة ، دار الكتب المصرية ١٩٥٠ ـ ١٩٥٥ م .

١٣٠ ـ القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١ هـ) :
أ ـ صبح الأعشى ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ١٩٦٣ م .
ب ـ قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، دار الكتب الحديثة ـ ط١ : ١٩٦٣ م .
ج ـ نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، القاهرة ط١ : ١٩٥٥ م .

١٣١ ـ قيس بن الخطيم : ديوانه ، تحقيق ناصر الدين الأسد ، مكتبة دار العروبة بمصر ط١ : ١٩٦٢ م .

١٣٢ ـ ابن كثير ، اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ) : البداية والنهاية ، مكتبة المعارف ومكتبة النصر ـ بيروت والرياض ط١ : ١٩٦٦ م .

١٣٣ ـ الكلبي ، أبو المنذر هشام (ت ٢٠٤ هـ) : أنساب الخيل وأخبارها ، تحقيق أحمد زكي ، الدار القومية ١٩٦٥ م .

١٣٤ ـ لبيد بن ربيعة : ديوانه ، تحقيق إحسان عباس ، وزارة الإرشاد الكويتية ـ الكويت ١٩٦٠ .

١٣٥ ـ لطفي عبد البديع :
أ ـ التركيب اللغوي للأدب ، مكتبة النهضة المصرية ط : ١٩٧٠ م .
ب ـ الشعر واللغة ، مكتبة النهضة المصرية ط ١ : ١٩٦٩م.

١٣٦ ـ لوبون ، غوستاف : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، مطبعة عيسى الحلبي ـ ط ٤ : ١٩٦٤ .

١٣٧ ـ ماهر حسن فهمي : السيرة تاريخ وفن ، مكتبة النهضة المصرية ط١ : ١٩٧٠ م .

١٣٨ ـ المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٥ هـ) : الكامل في اللغة والأدب ، تحقيق رايت ، ليبزج ١٨٧٤ م .

١٣٩ ـ محمد أحمد خلف الله : أبو الفرج الراوية ، مكتبة نهضة مصر ، ط ١ : ١٩٥٣ م .

١٤٠ ـ محمد أحمد جاد المولى ورفيقاه : أيام العرب في الجاهلية ، دار إحياء الكتب العربية ٢ ط ٣ : ١٩٦١ م .

١٤١ ـ محمد بن حبيب ، أبو جعفر (ت ٢٤٥ هـ) :
أ ـ المحبر ، تحقيق ايلزة شتيتر ، المكتب التجاري بيروت ـ نسخة عن طبعة حيدر أباد ١٩٤٢ .

١٤٢ ـ محمد عبد المعيد خان : الأساطير العربية قبل الإسلام ، القاهرة ١٩٣٧ .

١٤٣ ـ محمد بن عبد الله بن بلهيد النجدي : صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار ، الرياض ١٩٥١ م .

١٤٤ ـ محمد عزت دروزة :
أ ـ تاريخ الجنس العربي ، بيروت ١٩٦١ ـ المكتبة العصرية .
ب ـ عصر النبي وبيئته قبل البعثة ، دار اليقظة ـ بيروت ١٩٦٤ .

١٤٥ ـ محمد غنيمي هلال :
أ ـ النقد الأدبي الحديث ، مكتبة النهضة العربية ـ ١٩٦٩
ب ـ في الأدب المقارن ، مكتبة الأنجلو المصرية ط٣ : ١٩٦٢ .

١٤٦ ـ محمد مبروك نافع : عصر ما قبل الإسلام ، مطبعة السعادة بمصر ط٢ : ١٩٥٢ .

١٤٧ ـ محمد مفيد الشوباشي : الأدب ومذاهبه من الكلاسيكية الأغريقية الى الواقعية الاشتراكية ، الهيئة العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠ .

١٤٨ ـ محمد النويهي :
أ ـ الشعر الجاهلي ـ منهج في دراسته وتقويمه ، الدار القومية ١٩٦٩ .
ب ـ وظيفة الأدب ، معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٧ .

١٤٩ ـ محمود الحفني : سيرة عنترة ، الدار القومية للتوزيع ـ سلسلة مذاهب وشخصيات .

١٥٠ ـ الشريف المرتضى ، أبو القاسم علي بن الطاهر (ت ٤٣٦ هـ) : أماليه ، تحقيق محمد بدر الدين الغساني الحلبي ط١ : ١٩٠٧ .

١٥١ ـ مرجليوث : دراسات عن المؤرخين العرب ، ترجمة حسين نصار ، دار الثقافة ـ بيروت .

١٥٢ ـ المرزباني ، أبو عبد الله محمد بن عمران (ت ٣٨٤ هـ) ،
أ ـ معجم الشعراء ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ـ دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٠ .
ب ـ الموشح ، تحقيق علي محمد البجاوي ـ مكتبة نهضة مصر ١٩٦٥ .

١٥٣ ـ المرزوقي ، أبو علي الأصفهاني : الأزمنة والأمكنة ، حيدر أباد ـ ط١ : ١٣٣٢ هـ .

١٥٤ ـ المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ) :
أ ـ مروج الذهب ، تحقيق محيي الدين عبد الحميد ـ القاهرة ١٩٦٦ .
ب ـ التنبيه والأشراف ، ليدن ١٩٦٧ .

١٥٥ ـ مصطفى سويف : الأسس النفسية للإبداع الفني ، دار المعارف بمصر ط٣ : ١٩٦٩ .

١٥٦ ـ مصطفى السقا ، ومحمد سعيد الكيلاني ، مختار الشعر الجاهلي ، مكتبة مصطفى الحلبي بمصر ـ ط٢ : ١٩٤٨ .

١٥٧ ـ مصطفى ناصف :

أ ـ دراسة الأدب العربي ، الدار القومية
ب ـ الصورة الأدبية ، مكتبة مصر ١٩٥٨ م .

١٥ ـ المفضل الضبي :
أ ـ أمثال العرب ، مطبعة الجوائب بالقسطنطينية ١٣٠٠ هـ .
ب ـ المفضليات ، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر ط ٣ : ١٩٦٤ .

١٥٩ ـ المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ) : إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والحضرة والأموال والمتاع ، تحقيق محمود محمد شاكر ١٩٤١م

١٦٠ ـ ابن منظور المصري ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن كرم (ت ٧١١ هـ)
أ ـ لسان العرب ،
ب ـ مختار الأغاني ، الدار المصرية للتأليف والنشر ١٩٦٥

١٦١ ـ الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري (ت ٥١٨ هـ) : مجمع الأمثال ، مكتبة دار الحياة ـ بيروت ١٩٦١ .

١٦٢ ـ النابغة الذبياني : ديوانه ، تحقيق شكري فيصل ، دار الفكر ـ لبنان ١٩٦٨ .

١٦٣ ـ ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي ، دار المعارف بمصر ط٢ : ١٩٦٢ .

١٦٤ ـ نالينو ، كارلو : تاريخ الآداب العربية حتى عصر بني أمية ، دار المعارف بمصر ١٩٥٤ .

١٦٥ ـ ابن نباته ، جمال الدين (ت ٧٦٨ هـ) : سرح العيون ، في شرح رسالة إبن زيدون ، مصر ط١ : ١٩٥٧ .

١٦٦ ـ ابن النديم ، محمد بن اسحاق(ت ـ ٤٣٨هـ) : الفهرست ، نسخة مصورة عن طبعة أوروبا ـ مكتبة خياط بيروت ـ العدد الأول من سلسلة روائع التراث .

١٦٧ ـ النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣ هـ) : نهاية الأرب في فنون الأدب ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ـ مصر ١٩٥٥ .

١٦٨ ـ ديوان الهذليين : نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ـ الدار القومية ١٩٦٥ .

١٦٩ ـ شرح أشعار الهذليين : تحقيق عبد الستار فراج ، مكتبة دار العروبة ـ القاهرة ـ العدد

الثالث من كنوز الشعر .

١٧٠ ـ ابن هشام ، عبد الملك (ت ٢١٣ هـ) : السيرة النبوية ، تحقيق : مصطفى السقا ورفيقاه ، مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي ـ القاهرة ، ط٢ : ١٩٥٥ .

١٧١ ـ ولفنسون ، اسرائيل : تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ مصر ١٩٢٧ .

١٧٢ ـ ولكن : الأمومة عند العرب ، ترجمة بندلي الجوزي ، كازان ١٩٠٢ .

١٧٣ ـ ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦ هـ) :
أ ـ معجم الأدباء ، تحقيق مرجليوث ، مكتبة مصطفى الحلبي بمصر ١٩٠٧ ـ ١٩٢٥ .
ب ـ معجم البلدان ، مصر ١٣٢٣ هـ . . . ١٣٢٥ هـ .

١٧٤ ـ يحيى الجبوري : الجاهلية ، مطبعة المعارف ـ بغداد ١٩٦٨ .

١٧٥ ـ اليزيدي ، أبو عبد الله محمد بن العباس (ت ٣١٠ هـ) : الأمالي ، حيدر أباد ١٩٤٨ .

١٧٦ ـ اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر : تاريخ اليعقوبي ، مطبعة النجف الأشرف ـ بدون تاريخ

١٧٧ ـ يوسف خليف : الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، دار المعارف بمصر ط١ : ١٩٥٩ .

المجلات والدوريات

١ ـ مجلة الأدب ـ لأمين الخولي ـ القاهرة .

٢ ـ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق .

٣ ـ مجلة « المجلة » تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد القومي في الجمهورية العربية المتحدة .

٤ ـ مجلة الأقلام العراقية تصدرها وزارة الثقافة العراقية .

٥ ـ مجلة « بلاد العرب » السعودية تصدرها دار اليمامة بالرياض .

المخطوطات

١ ـ الطريق الواضح المسلوك إلى معرفة تراجم الخلفاء والملوك : محمد بن الفرات ، نسخة مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية رقم ٣٢٧ تاريخ عن نسخة حسين جلبي رقم ٢١ تاريخ إستانبول . الجزء العاشر .

٢ ـ كتاب الإكليل الجامع لأخبار كثير من العرب ووقايعها وأشعارها لزهير بن جذيمة والنعمان بن المنذر وعنترة وغيرهم .

نسخة مصور بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية تحت رقم ٩٠٣ تاريخ عن نسخة خدابخش رقم ٢٣١٢ .

المراجع الأجنبية

1. **MARGOLIOUTH D.S.**
   (a) The Early Development of Mohammedanism.
       London 1914
   (b) Mohammad and Rise of Islam.
       London 1926. Third edition.
   (c) Mohammadanism.

2. **Lyall (c.j.)**
   (a) Translation of ancient Arabic Poetry.
       London 1930
   (b) Abib Ibn Al-Abras of Asad diwans.

3. **Nicholson (R.A.)**
   Literary History of the Arabs.
   London 1953.

4. **O'Leary, De Lacy**
   Arabia before Mohammad 1927.

5. **Smith, Robertson** ·
   Kinship and Marriage in early Arabia.
   London 1903.

6. **Encyclobidia of Islam.**
   London 1913.

٧. **Olinder, Gunnar**
   The Kings of Kinda.
   London 1927.

فهرست الموضوعات

الصفحة